تَنْقِيحُ الإِفَادَةِ

المنتقى من

مِفتاحِ دارِ السَّعادَةِ

وَمَنشورِ ولايَةِ أَهْلِ العِلمِ والإرادَةِ

للعلّامَةِ الرّبّاني شيخِ الإسلامِ الثّاني

أبي عَبدِالله شمسِ الدِّين مُحمَّد بن أبي بَكر

المشهور بـ « ابن قيِّم الجَوزِيَّة »

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

رَحِمَهُ اللّهُ وأسكنه بَحبوحَة الجنَّةِ بِكَرمِه وَمنِّه

الجزء الأول

بقلم

أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي

مكتبة الصحابة

السعوديَّة - جُدَّة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الناشر

مكتبة الصحابة

السعودية - جُدَّة - الشرفية

هاتف (٦٥٢١٠٦٠)

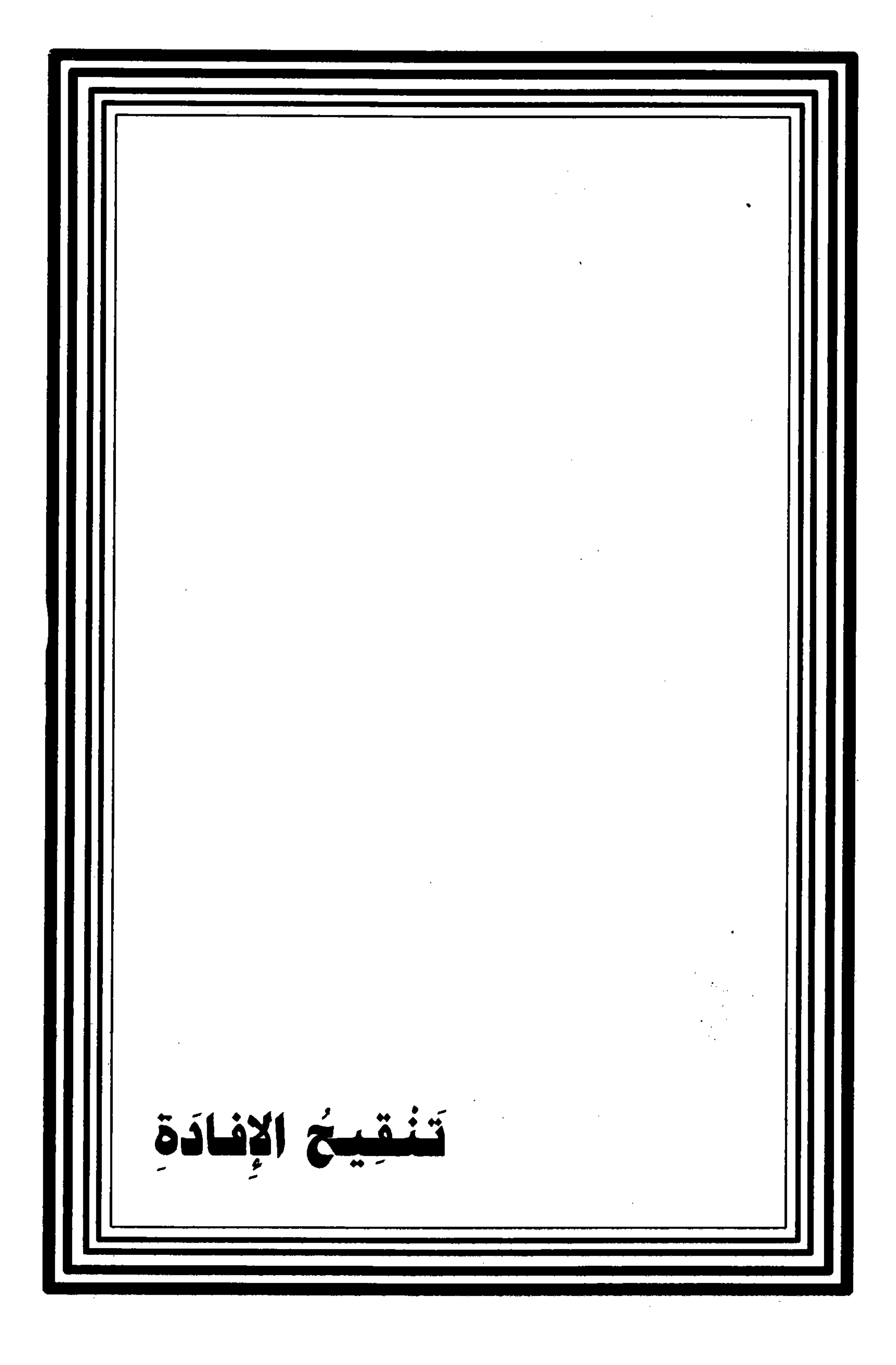
فاكس (٦٥٣٤٤٨٩)

الأصالة للتنضيد والإخراج الفني / الأردن - الزرقاء / ص.ب : (٣٣٦٩)



به ثِقَتي وعليه اعتمادِي واستنادِي

وهو حسبي ونِعم الوَكِيل



تَنْقِيحُ الإِفَادَةِ

فاتحة القول

إنَّ الحَمدَ للَّه، نَحمدُهُ وَنَستَعينُهُ ونَستَغفِرُهُ، ونَعوذُ باللَّهِ مِن شرورِ أَنفُسِنا، ومِن سَيِّئاتِ أَعمالنا، مَن يَهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِل فلا هادِيَ لهُ .

وأَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ وَحدَهُ لا شريكَ لَهُ .

وَأَشهَدُ أنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ وَرَسولُهُ .

أمَّا بعد :

فإنَّ كتاب « **مفتاح دارِ السّعادَةِ ومنشورِ ولايةِ أهلِ العلمِ والإرادة** » كبير الحجم كثير الفائدة « فيه فوائد مرسلة يقتبس من مجموعها معرفة العلم وفضله، ومعرفة إثبات الصانع، ومعرفة قدر الشريعة، ومعرفة النبوَّة، وشدَّة الحاجة إلى هذه المذكورات، ومعرفة الرَّد على المنجمين، ومعرفة الطيرة والفأل والزجر، ومعرفة أصول نافعة جامعة مما تكمل به النفس البشريَّة » .[1]

---

(١) « كشف الظنون » لحاجي خليفة (٢ / ١٧٦١) .
وهذا الثناء ملخص من خاتمة الكتاب، واللَّه أعلم بالصواب .

ولذلك فهو كتاب نفيس، نعم الصاحب والجليس، فاسمه مطابق لمسمّاه، ولفظه موافق لمعناه، فإنَّ الكتاب إذ حوى ما وصفناه من العلوم والفوائد كان لمقتنيه والناظر فيه بمنزلة الجليس الكامل، والأنيس الفاضل، والصاحب الأمين العاقل؛ إن أدنيته دنا، وإن استأنيته نأى لا يبغيك شَرّاً، ولا يفش لك سِرّاً .

ولقد قيل :

نعم الصاحبُ والجليسُ كتاب
تلهو به إن خانك الأصحابُ
لا مفشياً عند القطيعة سرَّه
وتنال منه حكمةٌ وصوابُ

ومن أرادَ إصلاح نفسه وَتَذَكُّر غده والاعتبار بأمسه فليرتع في مغناه، ففيه من الإفادة ما يحدو إلى دار السعادة، فهو الحريُّ بأن يطلب، فقد دبجته يراعة علامة نحرير، بعلل القلوب بصير، وبمنهج السلف خبير، ألا وهو العلام الرباني شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية الشهير المتوفى سنة (٧٥١هـ) رحمه الله وأسكنه بحبوحة الجنَّة بكرمه ومنِّه .[1]

ولذلك، فهو من أولى ما صُرِفت فيه نفائس الأوقات، وأعلى ما شمَّر

---

(١) أغنت شهرته عن ترجمته؛ فلذلك فقد طويت ذكرها، ومن شاء أن يقف على تفاصيلها؛ فعليه بكتاب الأخ الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد - حفظه الله - الموسوم بـ « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره »؛ فهو أشمل كتاب وقع نظري عليه في بابه، لاعتناء مؤلفه بتراث السلف الصالح عامّة، وبمؤلَّفات ابن قيم الجوزيَّة بخاصَّة؛ فللّه دره، وعلى الله شكره .

بإدراكه والتمكن فيه أصحاب الأنفس الزاكيات، وبادر إلى الاهتمام به المسارعون إلى الخيرات، وسابق إلى التحلي به مستبقو الخيرات .

وقد كنت صرفت في معاناته ومعاينته حيناً من الدهر، وبذلت له على المشقة شُقَّةً من جديد العمر، وصرت باللَّيل والنَّهار سميره، حتى أسرَّ إليَّ سرَّه وضميره، فأطلعني على حوره المقصورات في الخيام، وكشف لي عن قاصرات الطرف اللثام، فإذا هنَّ كالبدر ليلة التمام، وألقى إليَّ قلائده، ففهمت مقاصده، وكشفت عن مغزاه في تقييد أوابده، واقتناص أجل شوارده، وتبيين بدائع فوائده، وتزيين فرائده .

ولما كان الأمر كما وصفت وقع في قلبي منذ مدَّة مضت وبضع سنين خلت أن أجدد أمر هذا الكتاب بصورة تقربه إلى أفهام بني عصرنا، لعله ينشط فيه راغب منتبه، أو ينبعث له واقف متثبط، أو يهتدي به متحير، أو يقع على طريق مسترشد، فلا يخيب من الساعي سعيه، ولا يضيع حظه ... فكانت ثمرة سعيي - والحمد للَّه التي تتم بنعمته الصالحات - هذا « المنتقى » الذي بين يديك، والذي سمَّيته : « ***تنقيحُ الإفادةِ المنتقى من مفتاحِ دارِ السَّعادةِ ومنشورِ ولايةِ أهلِ العلمِ والإرادةِ*** » .

فإن أصبت ووفقت فمن اللَّه؛ فهو المستعان، وبه المستغاث، وعليه التكلان، وإن قصَّرت وأخطأت أو جمحت وشطحت، فمن نفسي والشيطان، ونعوذ بالمولى سبحانه من عدم التوفيق والحرمان، ولكن حسبي أني بذلت جهد المقل، وقصدت اختصاراً غير مخلٍ، وأرجو اللَّه أن يتقبَّله بقبول حسن،

وينبته نباتاً حسناً، ويكفل هذه البضاعة تـجارها ومن هو عارف بـمقدارها، فبه ثقتي، وعليه اعتمادي واستنادي، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وعلى اللَّه قصد السبيل .

وكتبه

حامداً لربه على تمام نعمته، ومصلياً ومسلماً

على رسول اللَّه لِيُسْرِ سنَّته ووضوح محجَّته

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

السَّلفيُّ الأثريُّ عقيدةً ومنهجاً

يوم الأربعاء غرَّة شوال سنة ١٤١٣هـ

في عمان البلقاء عاصمة الأردن .

الباعة

بعض إخواننا من طلاب العلم الذين يتابعون بشغف عمليَّة بعث تراث السلف العلمي من مرقده يشكو من ممارسات تقع على الساحة العلميَّة، وهذه الشكوى قد تكون بحق وقد تكون غير ذلك .

ومما طرح في السنوات الأخيرة مسألة « **المختصرات** » وقد تكلَّم في ذلك القاصي والداني بين مؤيد ومعارض، وكل يجلب بخيله وَرَجِلِه، ويركب الصعب والذلول لإثبات وجهة نظره وصواب رأيه .

ولي في هذا المقام تنبيهات :

١ - إنَّ « المختصرات » ليست وليدة هذا العصر بل تجدها في كل قرن وعصر ومصر .

٢ - إنَّ أهل العلم من هذه الأمَّة المرحومة درجوا على ذلك، ومن أمثلة ذلك ما صنعه الحافظ المنذري - رحمه اللَّه - في « سنن أبي داود » ثـمَّ اقتفى أثره ابن قيم الجوزية - رحمه اللَّه - فقال في « تهذيبه » (١ / ٨ - ١٠) :

« ولما كان كتاب « السنن » لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني

- رحمه اللّه - من الإسلام بالموضع الذي خصه اللّه به، بحيث صار حكماً بين أهل الإسلام، وفصلاً في موارد النزاع والخصام، فإليه يتحاكم المنصفون، وبحكمه يرضى المحققون، فإنَّه جمع شمل أحاديث الأحكام، ورتبها أحسن ترتيب، ونظمها أحسن نظام، مع انتقائها أحسن انتقاء، وإطراحه منها أحاديث المجروحين والضعفاء .

وكان الإمام العلامة الحافظ زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم المنذري - رحمه اللّه - قد أحسن في اختصاره وتهذيبه، وعزو أحاديثه، وإيضاح علله وتقريبه؛ فأحسن حتى لم يكد يدع للإحسان موضعاً، وسبق حتى جاء من خلفه له تبعاً، جعلت كتابه من أفضل الزاد، واتخذته ذخيرة ليوم المعاد؛ فهذَّبته نحو ما هذَّب هو به الأصل، وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها أو لم يكملها، والتعرض إلى تصحيح أحاديث لم يصححها، والكلام على متون مُشْكِلَةٍ لم يفتح مقفلها، وزيادة أحاديث صالحة في الباب لم يشر إليها، وبسطت الكلام على مواضع جليلة، لعل الناظر المجتهد لا يجدها في كتاب سواه، فهي جديرة بأن تثنى عليها الخناصر، ويعض عليها بالنواجذ، وإلى اللّه الرغبة أن يجعله خالصاً لوجهه، موجباً لمغفرته، وأن ينفع به من كتبه أو قرأه أو نظر فيه أو استفاد منه ... » .

وهذا هو الحافظ الذهبي - رحمه اللّه - قد اختصر أكثر من خمسين كتاباً مثل « تجريد أسماء الصحابة » الذي اختصره من « أسد الغابة » لابن الأثير، و « المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال » انتقاه من « منهاج السُّنة النبويَّة » لشيخ الإسلام ابن تيمية، و « مهذب السنن

الكبرى » للبيهقي، وغيرها .[1]

ومن ثَمّ جاء الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه اللّه - فسلك هذا السبيل في « تهذيب التهذيب » وغيره .

٣ - بل إنَّ بعض أهل العلم لَـخَّص « المختصرات » كما فعل القاضي أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي في « المختصر من مشكل الآثار » لأبي الوليد الباجي وسمَّاه : « المعتصر من المختصر من مشكل الآثار » .

٤ - إنَّ الاختصار والانتقاء مقصد من مقاصد التأليف، قال أبو عبداللَّه محمد بن الطيب في كتابه « إضاءة الراموس » (٢ / ٢٨٨) :

« وفي « أزهار الرياض في أخبار عياض » لشيخ شيوخ مشايخنا الإمام العلامة الحافظ أبو العباس بن شهاب الدين بن محمد المقري رحمه اللَّه : رأيت بخط بعض الأكابر ما نصُّه : المقصود بالتأليف سبعة : شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء ألف ناقصاً فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مشكلاً فيشرح، **أو مطولاً فيختصر**، أو مفترقاً فيجمع، أو منثوراً فيرتب » .

٥ - إنَّ الاختصار والانتقاء لا يلزم منه تكرار ما كتبه الأقدمون أو اجترار ما هضمه السابقون بل فيه النافع الجديد الذي يُقَرِّب البعيد ويظهر المفيد .

قال حاجي خليفة في « كشف الظنون » (١ / ٣٥) مبيناً أغراض المصنفين : « ... مختصرات تجعل تذكرة لرؤوس المسائل ينتفع بها المنتهي

(١) وقد ذكرها الدكتور بشار عواد معروف في مقدمة « سير أعلام النبلاء » (١ / ٨٣ - ٨٨) .

للاستحضار، وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء لسرعة هجومهم على المعاني من العبارات الدقيقة » .

ومما تقدم فلا يحق لكائن من كان أن ينكر على من اقتحم هذا الميدان، أو يزعم أنَّ هذا من كيد الشيطان ... سبحانك ربي هذا من أعظم البهتان، وإلّا افترى على من سبقونا بالعلم والإيمان .

ولكن لا ننكر أنّه قد ركب الموجة من هم دون ذلك كالصَّابوني في « مختصراته في التَّفسير »، ولذلك فليكن المحققون لهم بالمرصاد ينخلونهم نخلاً، ويقولون فيهم قولاً فَصْلاً ليس هَزْلاً، كما صنع الأخ المفضال الشيخ بكر ابن عبدالله أبو زيد - حفظه الله - في رسالته القيّمة : « التحذير من مختصرات الصابوني في التَّفسير »؛ لعلهم يرعون، أو يتذكرون فيرجعون، ويستغفرون الله مما يصنعون، والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون .

عملي في هذا المنتقى

وعملي في هذا « المنتقى » اتخذ مسارين :

الأول : تحليل الكتاب :

لقد سبرت - بتوفيق اللّه - غورَ الكتاب للوقوف على مقاصد ابن قيم الجوزية - رحمه اللّه؛ فرأيتها كالشمس في رائعة النهار، وذلك لتبقى عماد هذا المنتقى؛ فتثبت ولا تتقى؛ لأنَّ هذا هو الأصل في الاختصار كما قال حاجي خليفة في « كشف الظنون » (١ / ٣٥) : « ثمَّ إنَّ التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم إلّا فيها وهي : إمَّا شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، **أو شيء طويل يختصره دون أن يخلَّ بشيء من معانيه**، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنِّفه فيصلحه » .

وعليه أقول :

نبَّه ابن قيم الجوزية - رحمه اللّه - أثناء كتابه على أهم فصول كتابه وبيَّن أنفعها :

١ - ضبط عنوان الكتاب :

طبع الكتاب مراراً باسم : « **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** » وفيه تحريف فقد سماه مؤلفه رحمه اللَّه كما في (١ / ٤٧) : « **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة** »، فأعدنا الأمور إلى نصابها .

وقد نبَّه على ذلك الأخ الشيخ المفضال بكر بن عبداللَّه أبو زيد في كتابه المستطاب : « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » (ص ١٩٢) فجزاه اللَّه خيراً .

٢ - تقسيم الكتاب :

يتكون الكتاب من قسمين كما أشار إلى ذلك المصنِّف - رحمه اللَّه - في أكثر من موضع في كتابه منها على سبيل المثال (١ / ٢٥٥) : « ... بل هو لب هذا القسم الأول »، وقوله (١ / ٣٠٢) : « ... وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب »، « وقد أبرز في طبعته الأولى كذلك، أمَّا طبعة الأستاذ محمد حسن الربيع فبدون تجزئة، وتجزئة الكتاب إلى قسمين هو الذي يوافق صنيع المؤلف رحمه اللَّه » .[١]

وفي هذا « المنتقى » لم اتبع هذا التقسيم، يوضحه :

٣ - ترتيب الكتاب :

كل من يحلل الكتاب تحليلاً علمياً منهجياً يلاحظ أنَّ بعض فصول

---

(١) من كلام الشيخ بكر بن عبداللَّه أبو زيد في كتابه : « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » (ص ١٩١) .

الكتاب لم تأت في أماكنها، وهذا ما أشار إليه المصنِّف نفسه فقال (١ / ٢٠٥) : « ونحن نذكر هنا فصولاً منثورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمَّنت **بعض التكرار وترك الترتيب** في هذا المقام الذي هو أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الأول » .

ولذلك قال حاجي خليفة في « كشف الظنون » (٢ / ١٧٦) : « وهو كتاب كبير الحجم **وليس بمرتب** » .

وعليه فقد أعدت ترتيب هذه الفصول والأبواب في أماكنها؛ فقدمت وأخَّرت، ولذلك لم أتبع تقسيم الأصل، فليعلم .

٤ - أبقيت الموضوعات والمباحث التي تدور عليها مقاصد تصنيف الكتاب، وحذفت الأبحاث المكررة والمذكورة استطراداً - إلّا ما يعد من ضنائن العلم وغواليه - التي لا تندرج تحت مقاصد الكتاب، وقد نبه المصنِّف - رحمه اللّه - على جُلِّها فمن ذلك قوله (١ / ٢٥٣) : « وهذا فصل معترض هو أنفع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح اللّه الكريم فيه الباب، وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمته، ولا قوّة إلّا باللّه العلي العظيم، وقوله (٢ / ١١١) : « وهذا فصل معترض لم يكن من غرضنا وإن كان أهم مما سقنا الكلام لأجله » .

٥ - وقد اختتم المصنِّف كتابه بخاتمة تنتظم موضوعاته وأبحاثه فقال (٢ / ٢٧٣ - ٢٧٤) : « وليكن هذا أخر الكتاب، وقد جلبت إليك فيه نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون، وجلبت لك فيه عرائس إلى مثلهنّ بادر الخاطبون :

فإن شئت اقتبست منه معرفة العلم وفضله، وشدَّة الحاجة إليه، وشرفه وشرف أهله، وعظم موقعه في الدارين .

وإن شئت اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات تلج القلوت بغير استئذان، ومعرفة حكمته في خلقه وأمره .

وإن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة وشدَّة الحاجة إليها، ومعرفة جلالتها وحكمتها .

وإن شئت اقتبست منه معرفة النبوَّة وشدَّة الحاجة إليها بل وضرورة الوجود إليها، وأنَّه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلي العالم عنها .

وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر اللَّه عليه العقول من تحسيين الحسن وتقبيح القبيح، وإنَّ ذلك أمر عقلي فطري بالأدلَّة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب، فلا توجد في غيره .

وإن شئت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد من نفس صناعتهم وعلمهم، وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها، وإبداء تناقضهم في صناعتهم وفضائحهم وكذبهم على الخلق والأمر .

وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر والفرق بين صحيح ذلك وباطله، ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر .

وإن شئت اقتبست منه أصولاً نافعة مما تكمل به النفس البشريَّة، وتنال بها سعادتها في معاشها ومعادها إلى غير ذلك من الفوائد ... » .

وقد أبقيت على جميع هذه الأبواب ما عدا الرد على المنجمين؛ فقد رأيته لا ينتظم مع المقاصد السابقة، ولكنه فريد في بابه، ولذلك أفردته في رسالة مستقلّة وهي تحت الطبع يسَّر اللَّه الأمر وفق للخير .

الثاني : تحقيق الكتاب :

١ - ضبطت النص ضبطاً تامّاً .

٢ - عزوت الآيات القرآنيَّة إلى مظانها في كتاب اللَّه، وضبطتها .

٣ - خرجت الأحاديث النبويَّة الواردة مميزاً صحيحها من سقيمها حسب قواعد الصنعة الحديثيَّة مستأنساً بأقوال أئمَّة الفن .

ثمّ حذفت الأحاديث الضعيفة ومتعلقاتها؛ لأنَّ ما بني على ضعيف لا يثبت .

وأستثني من ذلك حالتين :

● الأولى : ما لا يتم المعنى إلّا به، فقد أبقيته مع التنبيه على ذلك .

● الأخيرة : كل معنى صحيح له أصل في الشرع ولكن المصنِّف أورد له دليلاً ضعيفاً حذفت الدليل الضعيف واستبدلته بآخر ثابت .

٤ - إذا تكررت أحاديث صحيحة في مسألة، ورأيت أنَّ بعضها يغني عن الآخر؛ أبقيت أصحها وأوضحها وحذفت الآخر .

٥ - نبهت على بعض الأوهام التي وقع فيها المصنف - رحمه اللَّه - في بعض الأحاديث الصحيحة .

٦ - علقت على بعض المواطن التي بحاجة إلى توضيح، أو زيادة بيان، أو تنبيه على خطأ، أو استدراك .

٧ - صنعت فهارس علميَّة تحليليّة توصل القارئَ إلى بغيته بسهولة ويسر .

وختاماً؛ أسأل اللّٰه جلَّ وعلا أن يلهمني السداد في القول والعمل، وأن يجعل أعمالي خالصة لوجهه الكريم مبرأة من أعراض الدنيا الفانية وحظوظ النفس الأمارة بالسوء .

ورحم اللّٰه أخاً غيوراً ناصحاً أميناً وجد ما يوجب النصح والستر فقام بذلك، فإني متقلد منَّته آخر عمري، وأبرأ إلى اللّٰه مما خالف كتابه وسنَّة رسوله وفهم سلفنا الصالح، فإن وقع ذلك مني دون قصد فأنا راجع عنه في حياتي ومماتي، وأستغفر اللّٰه .

خُطبة الكتاب

الـحمدُ للَّهِ الَّذي سَهَّلَ لِعِبادِهِ الـمُتَّقِينَ إلى مَرضاتِهِ سَبيلاً، وأوضَحَ لَـهُم طَريقَ الـهِدايةِ وَجَعَلَ اتِّباعَ الرَّسولِ عَلَيها دَليلاً، واتَّخَذَهُم عَبيداً لَهُ فأقَرُّوا لَهُ بالعُبوديَّةِ ولَم يَتَّخِذوا مِن دونِهِ وَكيلاً، وَكَتَبَ في قُلوبِهِم الإيمانَ وأيَّدَهُم بِروحٍ مِنهُ لَمَّا رَضُوا : بِاللَّهِ رَبًّا، وَبالإسلامِ ديناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسولاً .[1]

والحَمدُ للَّهِ الَّذي أقامَ في أزمِنَةِ الفَتَراتِ مَن يَكونُ بِبَيانِ سُنَنِ المُرسَلينَ كَفيلاً، واختَصَّ هذه الأُمَّةَ بأنَّهُ لا تَزالُ فيها طائفَةٌ على الحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم وَلا مَن خالَفَهُم حتّى يأتي أمرُهُ ولَو اجتَمَعَ الثَّقلانِ على حَربِهِم قَبيلاً[2]؛ يَدْعونَ مَن ضَلَّ إلى الهُدى، وَيَصبِرونَ مِنهُم عَلى الأذى، وَيُبَصِّرونَ

(١) انظر لزاماً كتابي : « حلاوة الإيمان » ، نشر دار ابن الجوزي .

(٢) إشارة إلى **أحاديث الطائفة المنصورة والفرقة النَّاجية**، وقد استوعبت تخريجها وبيان طرقها في كتابي : « اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة » وانفصلت إلى القول **بتواترها**، وقد حطَّ قول جماعة من أهل العلم على ذلك منهم :

١ - شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللَّه - في « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص ٦) .

٢ - الزبيدي - رحمه اللَّه - في « لقط اللآلئ المتناثرة » (٦٨) .

٣ - الكتاني - رحمه اللَّه - في « نظم المتناثر » (٩٣) .

بِنورِ اللَّهِ أهلَ العَمى، وَيُحْيونَ بِكتابِهِ المَوتى، فَهُم أحسَنُ النَّاسِ هَدياً وأقوَمُهُم قيلاً، فَكم مِن قَتيلٍ لإبليسَ قَد أحيَوهُ، ومِن ضالٍّ جاهلٍ لا يَعلَمُ طَريقَ رُشدِهِ قَد هَدَوْهُ، وَمِن مُبتَدِعٍ في دينِ اللَّهِ بِشُهُبِ الحَقِّ قَد رَمَوْه، جِهاداً في اللَّه، وَابتِغاءَ مَرضاتِهِ؛ وَبياناً لِحُجَجِهِ على العالَمِينَ وَبيِّناتِهِ، وَطَلَباً للزُّلفى لَدَيهِ وَنَيلِ رِضوانِهِ وَجَنَّاتِهِ، فحارَبوا في اللَّهِ مَن خَرَجَ عَن دينِهِ القَويم، وَصِراطِهِ المُستَقيم؛ الَّذينَ عَقَدوا أَلوِيَةَ البِدعَةِ، وأطلَقوا أعِنَّةَ الفِتنةِ، وَخالَفوا الكِتابَ، واختَلَفوا في الكِتابِ، وَاتَّفَقوا عَلى مُفارَقَةِ الكِتابِ، وَنَبذوهُ وَراءَ ظُهورِهِم، وارتَضَوا غَيرَهُ عَنهُ بَديلاً .[1]

أحمَدُهُ وهوَ المَحمودُ عَلى كلِّ ما قَدَّرَهُ وَقَضاه، وأستعينُهُ استعانَةَ مَن يَعلَمُ أنَّهُ لا رَبَّ لَهُ غَيرُهُ وَلا إلهَ لَهُ سِواه، وَاستَهديهِ سَبيلَ الَّذينَ أنعَمَ عَلَيهِم مِمَّن اختارَهُ لِقَبولِ الحَقِّ وارتَضاه .

وأشكُرُهُ والشُّكرُ كَفيلٌ بالمَزيدِ مِن عَطاياه، واستَغفِرُهُ مِن الذُّنوبِ التي تَحولُ بينَ القَلبِ وَهُداه، وأعوذُ بهِ من شَرِّ نَفسي، وسيِّئاتِ عَمَلي استِعاذَةَ عَبدٍ

= ٤ - شيخنا الألباني - حفظه اللَّه - في « صلاة العيدين » (ص ٣٩ - ٤٠) .

(١) هذا اقتباس من خطبة الإمام أحمد - رحمه اللَّه - لكتاب « الرد على الجهميَّة »، وأصل هذه الكلمات مروي عن عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - كما في « البدع والنهي عنها » لابن وضاح القرطبي (ص ٣) .

وقد أشار ابن قيم الجوزيَّة - رحمه اللَّه - إلى هذا في « الصواعق المرسلة » (٣ / ٩٢٧ - ٩٢٨) .

وانظر لزاماً كتابي : « الكوكب الدري المتلالي المنقض على دعاوى الشانئ القالي في كشفه البالي » (ص ١٢٨) .

فارٌّ إلى رَبِّهِ بِذُنوبِهِ وَخَطاياه، واعتَصِمُ بهِ مِن الأهواءِ المُرْدِيَةِ والبِدَعِ المُضِلَّةِ، فما خابَ مَن أصبَحَ بِهِ مُعتصماً وَبِحِماهُ نَزيلاً .

وأشهدُ أنَّ الحلالَ ما حَلَّله، وَالحَرامَ ما حَرَّمَه، والدِّينَ ما شرَعَه، وأنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيبَ فيها، وأنَّ اللَّهَ يَبعَثُ مَن في القُبور .

وَأَشهَدُ أنَّ مُحمداً عبدُهُ المصطفى، ونبيُّه المرتضى، ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى، أرسله رحمةً للعالمين، ومحجّة للسالكين، وحجَّةً على العباد أجمعين، أرسله على حين فترة من الرُّسُل، فَهدى بهِ إلى أقوَمِ الطُّرُقِ وأوضَحِ السُّبُل، وافترَضَ على العِبادِ طاعَتَهُ، وتَعظيمَه، وَتَوقيرَه، وَتَبجيلَه، والقِيامَ بِحقوقِهِ، وسَدَّ إليهِ جَميعَ الطُّرُق، فَلَم يَفتَح لأحدٍ إلّا مِن طَريقِهِ؛ فَشرَحَ لَهُ صَدرَه، وَرَفَعَ لَهُ ذِكرَه، وَعلَّمَ بِهِ مِن الجهالَة، وَبَصَّرَ بهِ مِن العَمى، وأرشَدَ بهِ مِن الغَيِّ، وَفَتَح بِهِ أعيُناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلفاً .

فَلَم يَزَل ﷺ قائماً بأمرِ اللَّهِ لا يَرُدُّهُ عَنهُ رادّ، داعياً إلى اللَّه لا يَصُدُّهُ عَنهُ صادّ، إلى أن أشرَقَت بِرِسالَتِهِ الأرضُ بَعدَ ظُلُماتِها، وَتَألَّفَت القُلوبُ بَعدَ شَتاتِها، وَسارَت دَعوَتُهُ مَسِيرَ الشمسِ في الأقطار، وَبَلَغَ دينُهُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهار، فَلَمَّا أكمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّين، وأتَمَّ بِهِ النِّعمَةَ عل عِبادِهِ المُؤمنين، استأثَرَ بِهِ وَنَقَلَهُ إلى الرَّفيقِ الأعلى مِن كَرامَتِه، والمَحَلِّ الأرفَعِ الأسنى مِن أعلى جَنَّاتِهِ، فَفارَقَ الأُمَّةَ وَقَد تَرَكها على المحجَّةِ البَيضاء التي لا يَزيغُ عَنها إلّا مَن كانَ مِن الهالِكين .

فَصَلَّى اللَّهُ عَليهِ وَعَلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرين صَلاةً دائِمةً بِدوامِ السَّماواتِ والأرضين، مُقيمةً عَليهِم أبداً لا تَرومُ انتِقالاً عَنهُم ولا تَحويلا .



من حِكَم نُزولِ آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة إلى الأرض

أمَّا بَعد : فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ لـما أهبَطَ آدمَ أبا البَشرِ من الـجنَّةِ، لـما لـه في ذلك مِن الـحِكَمِ التي تَعجزُ العُقولُ عن مَعرِفَتها، والألسُنُ عن صفَتها .

فكانَ إهباطُهُ منها عَيْنَ كمـالِه، ليَعودَ إليها على أحسَنِ أحوالِهِ، فأرادَ سبحانَهُ أن يُذيقَهُ وَوَلَدَهُ مِن نَصَبِ الدُّنيا وغُمومِها وهـمومِها وأوصابِها ما يَعظُم به عندَهُم مقدارُ دخولِـهِم إليها في الدَّارِ الآخِرَةِ؛ فإنَّ الضدَّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضدُّ، ولو تَرَبَّوا في دارِ النَّعيم لـم يَعرِفوا قَدْرها .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانهُ أرادَ أمرَهُم ونَهيَهُم وابتلاءَهُم واختبارَهُم وليسَت الـجنَّةُ دارَ تكليفٍ؛ فأهبَطَهُم إلى الأرضِ، وعَرَّضَهُم بذلك لأفضَلَ الثَّوابِ الذي لـم يَكُن ليُنالَ بدونِ الأمرِ والنَّهي .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانهُ أرادَ أن يَتَّخِذَ منهـم أنبياءَ ورُسلاً وأولياءَ وشُهَداءَ يُـحبُّهُم ويُحبُّونَهُ، فَـخلَّى بينهُم وبينَ أعدائِهِ، وامتَحَنَهُم بهـم، فلـما آثَروه وَبَذلوا نُفوسَهُم وأموالَـهُم في مَرضاتِهِ ومـحابِّه : نالوا مِن مَحَبَّته ورضوانِهِ والقُربِ منه مـا لـم يكن ليُنالَ بدونِ ذلك أصلاً؛ فَدَرجةُ الرِّسالةِ والنبوَّةِ والشهادَةِ والـحُبِّ فيه

والبُغضِ فيه وَموالاةِ أوليائه ومُعاداةِ أعدائه عنده مِن أفضَلِ الدَّرَجات، ولـم يَكُن ينالُ هذا إلّا على الوَجه الذي قَدَّرَهُ وقضاه مِن إهباطِهِ إلى الأرضِ،وَجَعْلِ مَعيشته ومَعيشة أولادِهِ فيها .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ له الأسماءُ الحُسنى؛ فَمِن أسمائِهِ : الغَفورُ، الرَّحيمُ، العَفُوُّ، الحَليمُ، الخافِضُ، الرَّافعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، المُحيي، المُميتُ، الوارِثُ، الصَّبورُ؛ ولا بُدَّ مِن ظهورِ آثارِ هذه الأسماءِ، فاقتَضَت حكمَتُهُ سبحانَهُ أن يُنزِلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ داراً يَظهرُ عليهم فيها أثَرُ أسمائِهِ الحُسنى، فَيَغفرُ فيها لِمَن يشاءُ، وَيَرحَمُ مَن يشاءُ، وَيَخفضُ مَن يشاءُ، ويَرفعُ مَن يشاءُ، ويُعِزُّ مَن يشاءُ، ويُذِلُّ مَن يشاءُ، ويَنتَقِم ممَّن يشاءُ، وَيُعطي وَيَمنَعُ وَيَبسُطُ إلى غَيرِ ذلكَ مِن ظهورِ أثَرِ أسمائه وصفاتِهِ .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ، والمَلكُ هو الذي يأمُرُ وَيَنهى، وَيُثيبُ ويُعاقِبُ، ويُهينُ ويُكرِمُ، وَيُعِزُّ وَيَذِلُّ، فاقتَضى مُلكُهُ سبحانَهُ أن أنزلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ داراً تَجري عليهم فيها أحكامُ الملك، ثمَّ ينقُلُهُم إلى دارٍ يتمُّ عليهم فيها ذلك .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ أنزَلَهُم إلى دارٍ يَكونُ إيمانُهُم فيها بالغَيبِ هو الإيمانُ النَّافِعُ، وأمَّا الإيمانُ بالشهادَةِ فكلُّ أحدٍ يؤمِنُ يومَ القيامَةِ يومَ لا يَنفعُ نَفساً إلّا إيمانُها في الدُّنيا، فلو خُلقوا في دارِ النَّعيمِ لَم ينالوا درجةَ الإيمانِ بالغَيبِ، واللَّذَّةُ والكرامةُ الحاصلةُ بذلكَ لا تَحصُلُ بدونهِ بل كان الحاصِلُ لَهُم في دارِ النَّعيم لذَّةٌ وكرامةٌ غَيرَ هذه .

وأيضاً فإنَّ اللَّه سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ مِن قَبضةٍ قَبَضها مِن جَميعِ الأرضِ،

والأرضُ فيها الطيِّبُ والـخَبيثُ، والسَّهلُ والـحَزْنُ[1]، والكريمُ واللئيمُ، فعَلِمَ سبحانهُ أنَّ في ظَهرِهِ مَن لا يَصلُحُ لـمُساكنَتِهِ في دارِهِ، فأنزَلَهُ إلى دارٍ استَخرَجَ فيها الطيِّبَ والـخَبيثَ من صُلبِهِ، ثمَّ مَيَّزَهُم سبحانَهُ بدارَينِ فَجَعَلَ الطيِّبينَ أهلَ جِوارِهِ ومُساكنَتِهِ في دارِهِ، وَجَعَلَ الـخَبيثَ أهلَ دارِ الشقاءِ دارِ الـخُبثاءِ؛ قال اللّه تعالى : ﴿ لِيَميزَ اللّهُ الـخَبيثَ مِنَ الطيِّبِ ويَجعَلَ الـخَبيثَ بَعضَهُ على بَعضٍ فَيَركُمَهُ جَميعاً فَيَجعَلَهُ في جَهَنَّمَ أولئكَ هُمُ الـخاسِرون ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

فلَمَّا عَلِمَ سبحانَهُ أنَّ في ذُريَّتِهِ مَن لَيسَ بأهلٍ لِـمُجاوَرَتِهِ أنزلَـهُم داراً استَخرَجَ منها أولئكَ وألـحَقَهُم بالدَّارِ التي هم لـها أَهْلٌ حكمةً بالغةً وَمشيئةً نافذَةً ذلك تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ لـمّا قال للملائكَةِ : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً قالوا أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

أجابهُم بقوله : ﴿ إنِّي أعلَمُ ما لا تَعلَمونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] .

ثمَّ أظهَرَ سبحانَهُ علمَهُ لِعبادِهِ ولِـمَلائكَتِهِ بما جَعَلَهُ في الأرضِ من خَواصِّ خَلقِهِ ورُسُلِهِ وأنبيائهِ وأوليائهِ، وَمن يَتَقرَّبُ إليه وَيَبذُلُ نَفسَهُ في مَحَبَّتِهِ وَمَرضاتِهِ مَعَ مُجاهَدَةِ شَهوَتِهِ وهَواهُ، فَيترُكُ مَحبوباتِهِ تَقَرُّباً إلَيَّ، وَيَترُكُ شَهواتِهِ ابتِغاءَ مَرضاتي، وَيَبذُلُ دَمَهُ وَنَفسَهُ في مَحَبَّتي، وأخُصُّهُ بِعِلمٍ لا تَعلَمونَهُ؛ يُسَبِّحُ بِحَمدي آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، وَيَعبدني مَعَ مُعارَضاتِ الـهَوى والشهوةِ

(١) أي : المكان الغليظ؛ وهو الخشن .

والنَّفسِ والعَدوِّ إذ تَعبُدوني أنتُم مِن غَيرِ مُعارضٍ يُعارِضُكُم، ولا شهوَةٍ تَعتَريكُم، ولا عَدوٌّ أُسلِّطُهُ عَلَيكُم بل عِبادَتُكُم لي بِمَنزِلَةِ النَّفس لأحَدِهِم .

وأيضاً فإنّي أريدُ أن أظهرَ ما خَفِيَ عليكُم من شأن عَدوِّي وَمُحارَبته لي وَتَكَبُّرِه عَن أمري وَسَعيِهِ في خلافِ مَرضاتي .

وهذا وهذا كانا كامنَيْنِ مُستَتريْنِ في أبي البَشرِ وأبي الجِنِّ فأنزَلَهُم داراً أظهَرَ فيها ما كانَ اللَّهُ سبحانَهُ مُنفَرداً بعلمِهِ لا يَعلَمُهُ سواهُ، وظَهَرَت حِكمَتُهُ وتَمَّ أمرُهُ، وَبدا للمَلائكَةِ مِن علمِهِ ما لَم يكونوا يَعلَمون .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا كانَ يُحِبُّ الصَّابِرينَ، وَيُحبُّ المُحسنين، ويُحبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سبيله صفّاً، ويحبُّ التوَّابين، ويُحبُّ المُتَطَهِّرينَ، وَيُحبُّ الشاكرينَ، وكانت مَحَبَّتُهُ أعلى أنواعِ الكرامات؛ اقتَضَت حكمتُهُ أن يُسكِنَ آدَمَ وَبَنيهِ داراً يأتونَ فيها بهذه الصِّفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من مَحَبَّتِهِ؛ فكان إنزالُهُم إلى الأرضِ مِن أعظَمِ النِّعَم عليهم : ﴿ واللَّهُ يَختَصُّ بِرَحمَتِهِ مَن يَشاءُ واللَّهُ ذو الفَضلِ العَظيم ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أن يَتَّخِذَ مِن آدَمَ ذُرِّيَّةً يواليهم ويودُّهم ويُحبُّهم ويُحبُّونَهُ، فَمَحَبَّتُهُ لَهُم هي غايةُ كمالِهم ونهايةُ شرَفِهم، ولَم يمكُن تَحقيق هذه المَرتَبَةَ السَّنيَّةَ إلّا بِمُوافقة رِضاهُ واتِّباعِ أمرِهِ، وتَركِ إراداتِ النَّفسِ وشهواتِها التي يكرَهُها مَحبوبُهُم، فأنزَلَهُم داراً أمرَهُم فيها ونَهاهُم؛ فقاموا بأمرِهِ وَنَهيِهِ؛ فنالوا دَرَجَةَ مَحَبَّتِهِم لهُ؛ فأنالَهُم دَرَجَةَ حُبِّهِ إيَّاهُم، وَهذا مِن تَمامِ حِكمَتِهِ وكمالِ رَحمَتِهِ، وَهُوَ البَرُّ الرَّحيم .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا خَلَقَ خَلْقَهُ أطواراً وأصنافاً، وَسَبَقَ في حُكمِهِ

تَفضيلُهُ آدَمَ وَبنيهِ على كثيرٍ من مَخلوقاتِهِ جَعَلَ عُبوديَّتَهُ أفضَلَ دَرَجاتِهِم - أعني العُبوديَّةَ الاختياريَّةَ التي يأتونَ بها طَوعاً واختياراً لا كَرهاً واضطراراً .[1]

وقَد ثَبَتَ أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ أرسَلَ جبريلَ إلى النَّبيّ ﷺ يُخيِّرُهُ بينَ أن يَكونُ مَلِكاً نَبيّاً أو عَبداً نبيّاً فَنَظَرَ إلى جِبريلَ كالمستشيرِ له فأشارَ إليه : أن تَواضَع، فقال : « بَل أن أكونَ عَبداً نبيّاً » .[2]

---

(١) انظر تفصيل مقام العبوديَّة في كتابي :« مدارج العبوديَّة من هدي خير البرية »؛ نشر دار الصميعي بالرياض .

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٢٣١)، والبزار (٢٤٦٢)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، ومن طريقه ابن حبان (٦٣٦٥ - الإحسان) .

كلهم من طريق محمد بن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة - قال : ولا أعلمه إلّا - عن أبي هريرة قال : جلس جبريل إلى النَّبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إنَّ هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك قال : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً ؟

قال جبريل : تواضع لربك يا محمد .

قال ﷺ : « بل عبداً رسولاً » .

قال البزار : لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلّا بهذا الإسناد .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩ / ١٨ - ١٩) : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح » .

وعلق الشيخ أبو الأشبال أحمد شاكر - رحمه اللَّه - في « شرح المسند » (١٢ / ١٤٣) على قول الهيثمي فقال :

« ولم يذكر فيه قول أبي زرعة : « ولا أعلمه إلّا عن أبي هريرة » مما يظن معه أنَّه شك في وصله وإن كان هذا لا يؤثر في صحة الحديث، لأنَّه حكى ظنه الراجح القريب إلى اليقين، وغلبة الظن في مثل هذا كافية، فإعراض الهيثمي عن ذكر هذا دلالة على انَّه مروي بالجزم عند البزار وأبي يعلى، أو عند أحدهما » . =

= قلت : هو عند البزار وأبي يعلى وابن حبان مروي بالجزم .

وهذا **إسناد صحيح** على شرط الشيخين رجاله كلهم ثقات محتج بهم في « الصحيحين » .

وللحديث شواهد عن جماعة من الصحابة :

١ - عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها :

أخرجه أبو يعلى (٤٩٢٠) ومن طريقه أبو الشيخ الأصفهاني في « أخلاق النبي ﷺ » (٦١٠)، ومن طريق أبي الشيخ أخرجه البغوي في « شرح السنَّة » (٣٦٨٣) .

من طريق محمد بن بكار حدثنا أبو معشر عن سعيد عن عائشة وذكره .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩ / ١٩) : « رواه أبو يعلى وإسناده حسن » .

قلت : **أنى له الحسن، وفيه ثلاثة علل :**

- الأولى : أبو معشر، وهو نجيح بن عبدالرحمن السِّندي، ضعيف لسوء حفظه .
- الثانية : سعيد، وهو المقبري ثقة؛ لكنَّه اختلط .
- الثالثة : سعيد المقبري لم يسمع من عائشة؛ فروايته عنها منقطعة .

٢ - ابن عباس رضي الله عنهما :

أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في « أخلاق النبي ﷺ » (٦١١)، ومن طريقه البغوي في « شرح السنَّة » (٣٦٨٤) .

من طريق إبراهيم بن محمد بن الحسن نا سلمة بن الخليل الكلاعي نا بقيَّة بن الوليد عن الزبيدي عن الزهري عن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس قال : كان ابن عباس يحدث (وذكره) .

قلت : **إسناده ضعيف** فيه علتان :

- الأولى : بقيَّة بن الوليد مدلس تدليس التسوية وقد عنعنه .
- الثانية : محمد بن علي لم يسمع من جده ابن عباس، فهو منقطع كما في « جامع التحصيل » للعلائي .

٣ - ابن عمر رضي الله عنهما :

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩ / ١٩) : « رواه الطبراني وفيه يحيى بن =

وذَكَرَهُ سبحانَهُ باسم عُبوديَّتِهِ في أشرَفِ مقاماتِهِ؛ في مقامِ الإسراءِ، ومقامِ الدَّعوةِ، ومقامِ التَّحَدِّي :

فقال في مقامِ الإسراءِ : ﴿ سُبحانَ الَّذي أسرى بِعَبدِهِ لَيلاً ﴾ [الإسراء : ١] .

ولَم يَقُل : (بِرَسولِهِ)، ولا : (نَبيِّهِ)؛ إشارَةً إلى أَنَّهُ نالَ هذا المَقامَ الأعظَمَ بكمالِ عُبوديَّتِهِ لربِّهِ .

وقال في مقامِ الدَّعوة : ﴿ وأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبدُ اللَّهِ يَدعوهُ كادوا يَكونونَ عَلَيهِ لِبَداً ﴾ [الجِنّ : ١٩] .

وقال في مقامِ التحدِّي : ﴿ وَإِن كُنتُم في رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنا على عَبدِنا فَأْتوا بِسورَةٍ مِن مِثلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وفي « الصَّحيحين »[1] في حَديثِ الشفاعةِ وَتراجُعِ الأنبياءِ فيها، وقولِ المَسيحِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : « اذهَبوا إلى مُحمَّدٍ؛ عَبدٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ما تَقدَّمَ

= عبداللّه البابلتي وهو ضعيف » .

٤ - مرسل محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب :

أخرجه البغوي في « شرح السُّنة » (٣٦٨٢) وقال : **هذا حديث مرسل** .

قلت : ومحمد بن عمير ذكره ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٨ / ١٨ - ١٩ و ٤٠) وقال : روى عن النَّبي ﷺ مرسل، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً .

وبالجملة فالحديث ثابت كما قال ابن قيم الجوزية - رحمه اللّه؛ لكن من حديث أبي هريرة - رضي اللّه عنه، وشواهده تزيده ثبوتاً، واللّه أعلى وأعلم .

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٣٧١ ، ٣٩٥ و ٨ / ٣٩٥ - ٣٩٦ - فتح) ، ومسلم (١٩٤) .

مِن ذَنبِهِ وَما تأخَّر » .

فدلَّ ذلك على أنَّهُ نالَ ذلكَ المقامَ الأعظَمَ بكمالِ عُبوديَّتِهِ للَّه، وكمالِ مَغفِرَةِ اللَّه له .

وإذا كانت العُبوديَّةُ عند اللَّه بهذه المَنزلةِ اقتَضَت حكمَتُهُ أن أسكَنَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ داراً ينالونَ فيها هذه الدرَجةَ بكمالِ طاعَتِهِم للَّه، وَتَقَرُّبهم إليه بمَحابِّهِ وَتَركِ مألوفاتِهِم مِن أجلِهِ، فكانَ ذلك مِن تَمامِ نِعمَتِهِ عَلَيهم وإحسانِهِ إليهم .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أن يُعَرِّفَ عِبادَهُ الذينَ أنعَمَ عَلَيهم تمامَ نعمَتِهِ عَليهم، وقَدرَها؛ ليكونوا أعظَمَ مَحبَّةً، وأكثرَ شكراً، وأعظَمَ التِذاذاً بما أعطاهُم مِن النَّعيم، فأراهُم سبحانَهُ فِعلَهُ بأعدائه، وما أعدَّ لَهُم مِن العَذابِ وأنواعِ الآلام، وأشهَدَهُم تخليصَهُم مِن ذلك، وَتَخصيصَهُم بأعلى أنواعِ النَّعيم ليَزدادَ سرورُهُم، وَتَكمُلَ غِبطَتُهُم، وَيَعظُمَ فَرَحُهُم، وَتَتِمَّ لَذَّتُهُم، وكانَ ذلك من إتمامِ الإنعامِ عليهِم وَمَحبَّتِهِم .

ولم يَكُن بُدٌّ في ذلك من إنزالِهِم إلى الأرضِ، وامتحانِهِم، واختبارِهِم، وتوفيقِ مَن شاءَ منهُم - رَحمةً منهُ وَفَضلاً - وخِذلانِ مَن شاءَ منهُم - حكمَةً منهُ وَعَدلاً - وهو العَليمُ الحَكيم .

ولا رَيبَ أنَّ المُؤمنَ إذا رأى عَدوَّ مَحبوبِهِ الذي هو أحبُّ الأشياءِ إليه في أنواعِ العَذابِ والآلام، وهو يَتقلَّبُ في أنواعِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ : ازدادَ بذلك سُرورُه، وَعَظُمَت لَذَّتُهُ، وكمُلَت نِعمَتُهُ .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانهُ إنَّما خَلَقَ الخَلْقَ لِعبادَتِهِ - وهي الغايةُ منهم، قال تعالى : ﴿ وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلّا لِيَعبُدونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومَعلومٌ أنَّ كمالَ العُبوديةِ المَطلوبَ مِن الخَلقِ لا يَحصُلُ في دارِ النَّعيمِ والبَقاءِ، إنَّما يَحصُلُ في دارِ المحنةِ والابتلاءِ، وأمَّا دارُ البقاءِ فدارُ لَذَّةٍ وَنعيمٍ لا دار ابتلاءٍ وامتحانٍ وَتكليفٍ .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ اقتضَت حكمتُهُ خَلْقَ آدَم وذُريَّتهُ مِن تَركيبٍ مستَلزِمٍ لِداعي الشهوةِ والفتنة، وداعي العَقلِ والعلمِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ فيهِ العَقلَ والشهوةَ ونَصَّبَهُما داعيينِ بمُقتضياتِهما؛ لِيتِمَّ مُرادَهُ، ويُظهرَ لِعبادِهِ عزَّتَهُ في حكمَتهِ وجَبَروتِهِ، ورَحمَتهُ وبرَّهُ ولُطفَهُ في سُلطانِهِ ومُلكِهِ؛ فاقتَضَت حكمَتُهُ ورحمتُهُ أن أذاقَ أباهُم وَبيلَ مُخالَفتهِ، وعَرَّفَهُم ما يَجني عَواقِبَ إجابةِ الشهوةِ والهَوى؛ ليكونَ أعظَمَ حَذَراً فيها وأشدَّ هروباً؛ وهذا كحالِ رَجُلٍ سائرٍ على طَريقٍ قَد كَمُنَت الأعداءُ في جَنَباتِهِ وَخَلفِه وأمامِه وهو لا يَشعُرُ، فإذا أصيبَ منها مَرَّةً بمُصيبةٍ استَعَدَّ في سيرِهِ، وأخَذَ أُهبةَ عَدوِّه، وأعَدَّ له ما يَدفَعُهُ، ولولا أنَّهُ ذاقَ ألَمَ إغارَةِ عَدوِّهِ عليهِ وتَبييتِهِ له لَما سَمَحَت نَفسُهُ بالاستِعدادِ والحَذَرِ وأخذِ العُدَّةِ .

فَمِن تمامِ نِعمَةِ اللَّهِ على آدَم وَذُريَّتِهِ أن أراهُم ما فَعَلَ العدوُّ بهم، فاستَعدُّوا له وأخَذوا أُهبَتَهُ .

فإن قيلَ : كانَ من المُمكن أن لا يُسلِّطَ عَليهِم العَدوَّ ؟

قيلَ : قَد تَقدَّمَ أنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ وذريَّتَهُ على بُنيةٍ وَتَركيبٍ مستَلزِمٍ لمُخالَطَتِهِم لعَدوِّهِم وابتلائهِم به، ولو شاءَ لَخَلَقَهُم كالمَلائكةِ الذينَ هم عقولٌ بلا شهواتٍ، فلم يكن لعَدوِّهِم طريقٌ إليهِم، ولكن لو خُلِقوا هكذا لكانوا خَلْقاً آخَرَ غيرَ بني آدَم؛ فإنَّ بني آدَم قَد رُكِّبوا على العَقلِ والشهوةِ .

وأيضاً فإنّهُ لـمَّا كانت مَحبَّةُ اللَّه وَحدَهُ هي غايةُ كمالِ العَبدِ وسَعادَتِهِ التي لا كمالَ له ولا سَعادَةَ بدونها أصلاً، وكانت الـمَحبَّةُ الصَّادِقَةُ إنَّما تَتحقَّقُ بإيثارِ الـمَحبوبِ على غَيرِهِ من مَحبوبات النُّفوس واحتمال أعظَمِ المشاقِّ في طاعَتِهِ وَمَرضاتِهِ - فبهذا تَتحَقَّق الـمَحبَّةُ وَيُعلَمُ ثبوتُها في القَلبِ - اقتَضَت حكمَتُهُ سبحانَهُ إخراجَهُم إلى هذه الدَّارِ الـمَحفوفةِ بالشهواتِ ومحابِّ النُّفوسِ التي بإيثارِ الحَقِّ عليها والإعراضِ عنها يتحقَّقُ حبُّهُم له وإيثارُهُم إيَّاهُ على غَيرِهِ؛ وذلكَ بِتَحمُّلِ المشاقِّ الشديدةِ، ورُكوبِ الأخطارِ، واحتمالِ الملامةِ، والصَّبرِ على دواعي الغيِّ والضَّلالِ ومُجاهَدَتِها يَقوى سلطانُ الـمَحبَّةِ وتَثبُت شجَرَتها في القَلبِ، وتطعمُ ثمَرتُها على الجوارحِ؛ فإنَّ الـمَحبَّةَ الثَّابتةَ اللازمةَ على كثرةِ الـمَوانِعِ والعَوارِضِ والصَّوارِفِ هي الـمَحبَّةُ الحَقيقيَّةُ النَّافعةُ، وأمَّا الـمَحبَّةُ الـمَشروطةُ بالعافيةِ والنَّعيمِ واللذَّةِ وحصولِ مرادِ الـمُحبِّ من مَحبوبِهِ؛ فليسَت محبَّةً صادقَةً، ولا ثباتَ لها عند الـمُعارَضاتِ والموانِعِ؛ فإنَّ الـمُعَلَّقَ على الشرطِ عَدَمٌ عندَ عَدمِهِ، ومَن وَدَّكَ لأمرٍ وَلَّى عندَ انقضائه، وَفَرقٌ بينَ مَن يَعبُدُ اللَّه على السرَّاءِ والرَّخاءِ والعافيةِ فَقَط، وبين مَن يَعبُدُهُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ والشدَّةِ والرَّخاءِ والعافيةِ والبلاءِ .

وأيضاً فإنَّ اللَّه سبحانَهُ له الحَمدُ الـمُطلَقُ الكاملُ الذي لا نهايةَ بَعدَهُ، وكانَ ظهورُ الأسبابِ التي يُحمَدُ عَليها مِن مُقتَضى كونِهِ مَحموداً، وهي من لوازِمِ حَمدِهِ تعالى، وهي نوعان : فَضلٌ، وَعَدلٌ، إذ هو سبحانَهُ الـمَحمودُ على هذا، وعلى هذا، فلا بدَّ من ظهورِ أسبابِ العَدلِ واقتضائها لـمُسمَّياتِها، ليترتَّب عليها كمالُ الحَمدِ الذي هو أهلُهُ؛ فكما أنَّهُ سبحانَهُ مَحمودٌ على إحسانِهِ وَبرِّهِ

وَفَضلِهِ وثوابِهِ، فهو مَحمودٌ على عَدلِهِ وانتقامِهِ وَعقابِهِ، إذ مَصدرُ ذلك كلِهِ عن عزَّتِهِ وحكمَتِهِ .

ولـهذا نبَّهَ سبحانَهُ على هذا كثيراً كما في سورة الشعراء حيثُ يَذكُرُ في آخرِ كلِّ قصَّةٍ من قَصَص الرُّسُل وأمَـمِهِم : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآيةً وَما كانَ أكثَرُهُم مُؤمنين * وَإنَّ رَبَّكَ لَـهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ ﴾ [الشعراء : ٨ - ٩] .

فأخبَرَ سبحانَهُ أنَّ ذلكَ صادِرٌ عن عزَّتِهِ الـمُتضمِّنةِ كمالَ قُدرَتِهِ، وحكمَتِهِ الـمُتضمِّنَةِ كمالَ علمِهِ ووضعَهُ الأشياءَ مواضِعَها اللائقةَ بها؛ ما وَضَعَ نعمَتَهُ ونـجاتَهُ لِرُسِلِهِ ولاتباعِهِم ونقمتَهُ وإهلاكَهُ لأعدائهـم إلّا في مـحلِّها اللائقِ بها لكمالِ عِزَّتِهِ وحكمَتِهِ؛ ولـهذا قالَ سبحانَهُ عَقيبَ إخبارِهِ عَن قَضائِهِ بينَ أهلِ السَّعادَةِ والشقاوَةِ ومَصيرِ كلٍّ منهُم إلى ديارِهـم التي لا يَليقُ بهـم ولا بِغَيرِهِم ولا تَقتَضي حكمَتُهُ سواها : ﴿ وَقُضِـيَ بينَهُم بِالـحَقِّ وقيلَ الـحَمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمين ﴾ [الزمر : ٧٥] .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ اقتَضَت حكمَتُهُ وحَمدُهُ أن فاوَتَ بينَ عبادِهِ أعظَمَ تفاوُتٍ وأبينَهُ؛ ليَشكُرَهُ مَن ظَهَرَت عليه نعمَتُهُ وفَضلُهُ، وَيَعرِفَ أنَّهُ قَد حُبِيَ بالإنعامِ، وخُصَّ دونَ غَيرِهِ بالإكرامِ، ولَو تساوَوا جَميعُهُم في النِّعمَةِ والعافيَةِ لم يَعرف صاحبُ النِّعمَةِ قَدرَها، وَلَم يَبذُل شكرَها، إذ لا يَرى أحداً إلّا في مثلِ حالِهِ .

وَمِن أقوى أسبابِ الشكرِ وأعظَمِها استِخراجاً له من العَبدِ أن يَرى غَيرَهُ في ضدِّ حالِهِ الذي هو عليها من الكمالِ والفَلاحِ .

فاقتَضَت مَحبَّتُهُ سبحانهُ لأن يُشكرَ خَلْقَ الأسبابِ التي يكونُ شكرُ

الشاكِرينَ عندها أعظَمَ وأكمَلَ، وهذا هو عَيْنُ الحكمَةِ الصَّادِرَةِ عَن صفَةِ الحَمد .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ لا شيءَ أحبُّ إليه من العَبدِ مِن تذلُّلِهِ بينَ يَدَيهِ وخُضوعِهِ وافتِقارِهِ وانكسارِهِ وتَضرُّعِهِ إليه .

وَمَعلومٌ أنَّ هذا المَطلوبَ من العَبدِ إنَّما يَتمُّ بأسبابِهِ التي يَتَوَقَف عليها، وحصولُ هذه الأسباب في دارِ النَّعيمِ المُطلَقِ والعافيةِ الكاملةِ يَمتَنِعُ؛ إذ هو مُستَلزِمٌ للجَمعِ بينَ الضدَّين .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ له الخَلقُ والأمرُ، والأمرُ هو شرعُهُ وأمرُهُ وَدينُهُ الذي بَعَثَ به رَسُلَهُ وأنزَلَ به كتُبَهُ، وَليسَت الجنَّةُ دارَ تكليفٍ تجري عليهم فيها أحكامُ التَّكليفِ ولوازِمُها، وإنَّما هي دارُ نَعيمٍ وَلذَّةٍ، فاقْتَضَت حكمَتُهُ سبحانَهُ استخراجَ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ إلى دارٍ تَجري عَليهم فيها أحكامُ دينِهِ وأمرِهِ، ليَظهَرَ فيهم مُقتَضى الأمر ولوازمهُ؛ فإنَّ اللَّه سبحانَهُ كما أنَّ أفعالَهُ وَخَلْقَهُ من لوازِمِ كمالِ أسمائِهِ الحُسنى وصفاتِهِ العُلى، فكذلكَ أمرُهُ وشرعُهُ، وما يَترتَّبُ عليه من الثَّوابِ والعِقابِ .

وَقَد أرشدَ سبحانَهُ إلى هذا المَعنى في غَيرِ مَوضِعٍ من كتابِهِ فقال تَعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدىً ﴾ [القيامة : ٣٦] .

أي : مُهمَلاً مُعطَّلاً لا يُؤمَرُ ولا يُنهى ولا يُثابُ ولا يُعاقَب، وهذا يَدُلُّ على أنَّ هذا مُنافٍ لكمالِ حكمَتِهِ، وأنَّ ربوبيَّتَهُ وعِزَّتَهُ وحكمَتَهُ تأبى ذلك، ولهذا أخرَجَ الكلامَ مخرَجَ الإنكارِ على مَن زَعَمَ ذلك، وهو يدلُّ على أنَّ حُسْنَهُ مستَقرٌّ في الفِطَرِ والعُقولِ، وقُبحَ تَركِهِ سُدَىً معطَّلاً أيضاً مستَقرٌّ في

الفِطَرِ، فكيفَ يُنسِبُ إلى الرَّبِّ ما قُبْحُهُ مستقرٌّ في فِطَرِكُم وعُقولِكُم ؟

وقال تَعالى : ﴿ أَفَحَسِبتُم أنَّما خَلَقناكُم عَبَثاً وَأنَّكُم إلينا لا تُرجَعون * فَتعالى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إله إلَّا هو رَبُّ العَرشِ الكريم ﴾ [المؤمنون : ١١٥ - ١١٦]؛ نزَّه نفسَهُ سبحانَهُ عَن هذا الحُسبانِ الباطلِ المُضادِّ لمُوجِبِ إسمائِه وصِفاتِهِ، وأنَّهُ لا يَليقُ بجلالهِ نِسبتُهُ إليه .

ونظائرُ هذا في القُرآنِ كثيرةٌ .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانَهُ يُحبُّ مِن عبادِهِ أموراً يَتَوَقَّفُ حصولُها منهم على حصولِ الأسبابِ المُقتَضيَةِ لها، ولا تَحصُل إلّا في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ يُحبُّ الصَّابرينَ، ويُحبُّ الشاكرينَ، ويُحبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سبيلهِ صَفًّا، ويُحبُّ التَّوابينَ، ويُحبُّ المُتَطهِّرينَ؛ ولا رَيبَ أنَّ حصولَ هذه المَحبوبات بدونِ أسبابِها مُمتَنِع كامتناعِ حصولِ المَلزوم بدونِ لازمه، واللَّهُ سبحانَهُ أفرَحُ بتَوبَةِ عبده حينَ يَتوبُ إليه مِن الفاقِدِ لراحلَتِهِ التي عليها طعامَهُ وشرابَهُ في أرضٍ دَوِيَّةٍ[1] مُهلكَةٍ إذا وَجَدَها كما ثَبَتَ في « الصَّحيح »[2] عن النَّبي ﷺ أنَّهُ قال : « للَّهُ أشدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبدِهِ المُؤمن من رجلٍ في أرضٍ دَوِيَّةٍ

---

(١) أي : الأرض القفر والفلاة الخالية، وهي المفازة .

وقيل : هي البرية التي لا نبات فيها .

قلت : وهو مرجوح؛ لأنَّ في بعض روايات الحديث ذكر الشجر والنبات (!)

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ١٠٢ - فتح)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه .

وفي الباب عن أبي هريرة، والنعمان بن بشير، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك - رضي الله عنهم .

مُهلِكَةٍ معه راحلتهُ عليها طعامُهُ وشرابُهُ، فنامَ فاستَيقَظَ وقَد ذَهَبَت، فَطَلَبها حتى أدرَكَهُ العَطَش، ثم قال : أرجعُ إلى الـمَكانِ الذي كُنتُ فيه فأنامُ حتى أموتَ، فوَضَعَ رَاسَهُ على ساعدهِ ليَموتَ، فاستَيقَظَ وعنده راحلَتُهُ عليها زادُهُ وطعامُهُ وشرابُهُ فاللَّهُ أشدُّ فَرَحاً بِتوبَةِ العَبدِ الـمُؤمن من هذا براحلَتِهِ » .

والـمَقصودُ أنَّ هذا الفَرَحَ الـمَذكورَ إنَّـما يكون بعدَ التَّوبةِ من الذُّنوبِ، فالتَّوبة والذَّنب لازِمانِ لـهذا الفَرح ولا يوجَد الـمَلزومُ بدون لازمِهِ، وإذا كانَ هذا الفَرَحُ الـمَذكورُ أنَّـما يـحصُلُ بالتَّوبةِ الـمُستَلزِمَةِ للذَّنب، فـحصولُه في دارِ النَّعيم التي لا ذَنبَ فيها ولا مـخالَفَة مـمتَنِعٌ .

ولـمَّا كانَ هذا الفَرحُ أحبَّ إلى الربِّ سبحانَهُ من عَدمِهِ اقتَضَت مَحبَّتُهُ له خَلْقَ الأسبابِ الـمُفْضيةِ إليه لِيَترتَّبَ عليها الـمُسبَّبُ الذي هو مَحبوبٌ لـه .

وأيضاً فإنَّ اللَّه سبحانَهُ جَعَلَ الـجنَّة دارَ جزاءٍ وَثوابٍ، وقَسَّمَ منازِلَها بينَ أهلِها على قَدْرِ أعمالِهِم، وعلى هذا خَلَقَها سبحانَهُ لِـما لـه في ذلك من الـحكمةِ التي اقتَضَتها أسـماؤه وصِفاتُهُ، فإنَّ الـجَنَّةَ درجاتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وَبينَ الدَّرجتين كمـا بَين السَّمـاءِ والأرض؛كمـا في « الصَّحيـح »[1] عَن النَّبـي ﷺ أنَّهُ قال :

« إنَّ الـجَنَّةَ مئةُ دَرَجةٍ، بَينَ كلِّ دَرَجَتَينِ كما بَينَ السَّماءِ والأرض » .

وحكمةُ الربِّ سبحانَهُ مُقتَضيَةٌ لعمـارَةِ هذه الدَّرجاتِ كلِّها، وإنَّما تَعمُرُ وَيَقعُ التَّـفاوُتُ فيها بـحَسبِ الأعمـالِ، كمـا قال غيرُ واحدٍ من السَّلَف :

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١١ - فتح) من حديث أبي هريرة - رضي اللّه عنه . وفي الباب عن عبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل - رضي اللّه عنهما .

« يَنـجونَ من النَّارِ بعَفو اللَّه وَمَغفِرَتِهِ، ويَدخُلونَ الـجنَّة بفَضلِهِ ونِعمَتِهِ ومَغفِرَتِهِ، ويتقاسـمونَ الـمنازِلَ بأعمـالِهِم » .

وعلى هذا حَمَلَ غيرُ واحدٍ ما جاءَ من إثباتِ دخولِ الـجنَّة بالأعمـالِ، كقولـه تعالى : ﴿ وَتِلكَ الـجنَّةُ التي أُورِثْـتُموها بـما كُنتُم تَعمَلون ﴾ [الزخرف : ٧٢]، وقولـهِ تعالى : ﴿ ادْخُلوا الـجَنَّةَ بـمـا كُنتُم تعمَلون ﴾ [النـحل : ٣٢] .

قالوا : وأمَّـا نفـيُ دخولِـها بالأعمـالِ كمـا في قولـه ﷺ : « لَن يَدخُلَ الـجنَّة أحدٌ بِعَمَلِهِ » .

قالوا : ولا أنتَ يا رَسولَ اللَّه ؟

قال : « ولا أنا »[1] .

فالـمُرادُ منه نفـيُ أصلِ الدُّخول .

وأحسَنُ من هذا أن يُقال : الباءُ الـمُـقتَضيةُ للدُّخولِ غيرُ الباءِ التي نُفِـيَ مَعها الدُّخولُ؛ فالـمُقتَضيةُ هي باءُ السبَبيَّةِ الدَّالَّةُ على أنَّ الأعمـالَ سبَبٌ للدُّخولِ مُقتَضيَةٌ لـه كاقتضاءِ سائرِ الأسباب لـمُسبِّباتها، والباءُ التي نُفِـيَ بها الدُّخولُ هي باءُ الـمُعاوَضةِ والـمُقابَلة، التي في نـحو قولـهِم : اشتَريتُ هذا بهذا، فأخبَرَ النَّبـيُّ ﷺ أنَّ دخولَ الـجنَّة ليسَ في مُقابَلةِ عَمَلِ أحدٍ، وأنَّهُ لولا تَغمُّدُ اللَّهِ سبحانَهُ لعَبدِهِ برَحمَتِهِ لَـمـا أدخَلَهُ الـجنَّة، فليسَ عملُ العَبدِ وإنْ تناهى مُوجِباً بِـمُجَرَّده لِدُخول الـجَنَّة، ولا عِوضاً لـها، فإنَّ أعمـالَـه وإنْ وقَعَت منه على الوَجه الذي

---

(١) أخرجه البخاري (١٠ / ١٢٧ - فتح) ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

يُحبُّهُ اللَّهُ ويَرضاه فهي لا تُقاوِمُ نعمةَ اللَّه التي أنعمَ بها عليهِ في دار الدُّنيا، ولا تُعادِلُها، بل لو حاسَبَهُ لوَقَعَت أعمالُهُ كلُّها في مقابلة اليَسير من نِعَمِهِ، وَتَبقى بَقيَّةُ النِّعَم مُقتَضِيَةً لِشكرِها، فلو عَذَّبهُ في هذه الحالةِ لَعَذَّبه وهو غَيرُ ظالِمٍ له، ولو رَحِمَهُ لكانت رحمتُهُ خيراً له من عمله كما في « السُّنَن » من حديث زَيد ابن ثابت وحُذَيفةَ بن اليَمان وغيرهما مَرفوعاً إلى النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال :

« إنَّ اللَّهَ لو عَذَّب أهلَ سماواتِهِ وأهلَ أرضه لَعَذَّبَهُم وهو غَيرُ ظالِمٍ لهم، ولو رَحِمَهُم لكانت رحمتُه خَيراً لهُم من أعمالهم » .[1]

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٥ / ١٨٩)، وابن حبان (٧٢٧ - الإحسان)، والبيهقي (١٠ / ٢٠٤) .

من طريق أبي سنان عن وهب بن خالد الحمصي عن ابن الديلمي قال : أتيت أبيّ بن كعب فقلت له : وقع في نفسي شيء من القدر؛ فحدثني بشيء لعلَّ اللَّه أن يذهبه من قلبي، فقال :

« لو أنَّ اللَّه عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل اللَّه ما قبلَه اللَّه منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلت النَّار» .

قال : ثمَّ أتيت عبداللَّه بن مسعود فقال مثل ذلك، قال : ثمَّ أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك . قال : ثمَّ أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النَّبي ﷺ مثل ذلك .

قلت : هو موقوف من حديث أبيّ بن كعب، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، ومرفوع من حديث زيد بن ثابت .

وإسناده صحيح رجاله ثقات، وأبو سنان هو سعيد بن سنان الشيباني البرجمي، وابن الديلمي هو أبو بسر عبداللَّه بن فيروز .

وحديث زيد المرفوع أخرجه أحمد (٥ / ١٨٥)، وابن أبي عاصم في « السُّنة » =

والـمَقصودُ أنَّ حكمتَهُ سبحانه اقتضَت خَلْقَ الـجنَّة درجات بَعضُها فوق بَعض، وعمـارتَها بآدَم وذريَّتهِ وإنزالَـهُم فيها بِـحَسَب أعمـالـهم، ولازمُ هذا إنزالُـهُم إلى دار العَمَل والـمُجاهدة .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانه خَلَقَ آدم وذريَّته لِيَستَخلِفَهُم في الأرض، كما أخبر سبحانه في كتابه بقولِهِ : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠]، وقولِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُم خلائفَ الأرضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]، وقال : ﴿ وَيَستَخلِفَكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

فأرادَ سبحانه أن ينقله وذريَّته من هذا الاستخلاف إلى تَوريثه جنَّةَ الـخُلدِ، وعَلِمَ سبحانه بِسابِقِ علـمهِ أنَّه لِضَعفِه وقُصورِ نَظرِهِ قَد يَـختارُ العاجلَ الـخَسيسَ على الآجلِ النَّفيس، فإنَّ النَّفسَ مُولَعَةٌ بِـحُبِّ العاجلةِ وإيثارِها على الآخِرَة، وهذا من لوازم كونهِ خُلِقَ من عَجَل وكونهِ خُلِقَ عَجولاً، فعلمَ سبحانه ما في طَبيعتهِ من الضَّعف والـخَوَر، فاقتَضَت حكمتُه أن أدخَلَهُ الـجنَّة لِيَعرفَ النَّعيمَ الذي أُعدَّ لـه عَياناً فيكونَ إليه أشوقَ، وعليه أحرصَ، ولـه أشدَّ طلباً، فإنَّ مَحبَّةَ الشيء وَطَلَبَهُ والشَّوقَ إليه من لوازِم تَصوُّرِه، فَمَن باشر طِيبَ شيء ولَذَّته وتذوَّق به لـم يَكَد يصبرُ عنه، وهذا لأنَّ النَّفسَ ذوَّاقةٌ توَّاقةٌ فإذا ذاقَت تاقَت، ولـهذا إذا ذاقَ العَبدُ طعمَ حلاوَة الإيمـان وخالَطَت بشاشَتُه قلبَه رسخَ فيه حبُّه، ولـم يُؤثر عليهِ شيئاً أبداً .

= (٢٤٥)، والطبراني في « الكبير » (٤٩٤٠) من طريق إسحاق بن سليمان قال : سمعت أبا سنان يحدث عن خالد بن وهب الحمصي عن ابن الديلمي (وذكره) .

قلت : وإسناده صحيح .

وفي « الصَّحيح »[1] من حديث أبي هُرَيرة رضي اللَّه عنه المَرفوع : « إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يسألُ الملائكةَ فيقول : ما يسألُني عبادي ؟ فيقولون : يسألونَكَ الجنَّة، فيقول : وهل رَأَوها ؟ فيقولون : لا يا رَبِّ، فيقول : كيف لو رَأَوها ؟ فيقولون : لو رَأَوها لكانوا أشدَّ طلباً » .

فاقتَضَت حكمتُهُ أن أراها أباهُم. وأسكنَه إيَّاها، ثم قَصَّ على بنيه قِصَّتَهُ فصاروا كأنَّهُم مُشاهِدون لها حاضِرون مع أبيهم، فاستجاب مَن خُلِقَ له، وخُلِقَت له وسارع إليها فلم يُثنه عنها العاجلةُ، بل يَعُدُّ نَفسَهُ كأنَّه فيها، ثم سَباهُ العَدوُّ فيراها وَطَنهُ الأوَّلَ فهو دائمُ الحنين إلى وَطنِهِ، ولا يقرُّ له قَرارٌ حتى يَرى نَفسَه فيه كما قيل :

نَقِّل فُؤادَكَ حيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوى
ما الحُبُّ إلّا لِلحَبيبِ الأوَّلِ
كم مَنزِلٍ في الأرضِ يَألَفُهُ الفَتى
وَحَنينُهُ أبداً لأوَّلِ مَنزِلِ

ولي مِن أبياتٍ تُلِمُّ بهذا المَعنى :

وحيِّ على جنَّاتِ عَدنٍ فإنَّها
منازِلُكَ الأولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سبيُ العَدوِّ فَهَل تَرى
نَعودُ إلى أوطانِنا ونسلَمُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٢٠٨ - ٢٠٩ - فتح)، ومسلم (٢٦٨٩) .

فَسِرُّ هذه الوجوهِ : أنَّهُ سبحانه وتعالى سبَقَ في حُكمِه وحكمتِه أنَّ الغاياتِ المَطلوبةَ لا تُنال إلّا بأسبابها التي جَعَلَها اللَّهُ أسباباً مُفْضِيَةً إليها، ومِن تلك الغاياتِ أعلى أنواع النَّعيم وأفضلُها وأجلُّها فلا تُنالُ إلّا بأسبابٍ نَصَبَها مفضيةٍ إليها، وإذا كانت الغاياتُ التي هي دون ذلك لا تُنالُ إلّا بأسبابِها مع ضَعفِها وانقِطاعها كتحصيل المأكولِ، والمَشروبِ، والمَلبوسِ، والولدِ، والمالِ، والجاهِ في الدُّنيا، فكيف يُتَوهَّم حصولُ أعلى الغايات وأشرفِ المقامات بلا سَبَبٍ يُفضي إليه ؟ ولم يَكُن تَحصيل تلك الأسبابِ إلّا في دارِ المُجاهدة والحَرث، فكان إسكانُ آدَمَ وذريَّتِهِ هذه الدَّارَ التي ينالون فيها الأسبابَ الموصِلَةَ إلى أعلى المَقامات من إتمامِ إنعامه عليهم .

وسِرُّها أيضاً : أنَّه سبحانه جعَلَ الرِّسالةَ والنبوَّةَ والخُلَّةَ والتَّكليمَ والولايةَ والعبوديَّةَ من أشرف مقامات خلقِه ونهاياتِ كمالهم؛ فأنزلهم داراً أخرَجَ منهم الأنبياءَ، وبعث فيها الرُّسُل، واتَّخَذَ مِنهم مَن اتَّخَذَ خليلاً، وكلَّم موسى تكليماً، واتَّخَذَ منهم أولياءَ وشهداءَ وعبيداً وخاصَّةً يُحبُّهُم ويُحبُّونَهُ، وكان إنزالُهُم إلى الأرض من تمامِ الإنعامِ والإحسانِ .

وأيضاً : أنَّهُ أظهرَ لخَلقه من آثارِ أسمائِه وجَرَيانِ أحكامِها عليهم ما اقتضَتهُ حكمتُه ورحمتُه وعلمُه .

وسرُّها أيضاً : أنَّه تعرَّف إلى خَلقهِ بأفعالِه وأسمائه وصفاته، وما أحدثه في أوليائهِ وأعدائهِ من كرامتِه وإنعامِهِ على الأولياء، وإهانتِهِ وإشقائهِ للأعداء، ومِن إجابتهِ دَعَواتِهم، وقضائِه حوائجهم، وتفريج كُرُباتِهم، وكشفِ بلائهم، وتصريفهم تحتَ أقدارهِ كيف يشاءُ، وتقليبهم في أنواع الخيرِ والشرِّ، فكان في

ذلك أعظمَ دليل لهم على أنَّه ربهم ومليكهم، وأنَّه اللَّه الذي لا إله إلّا هو، وأنَّه العليم الحكيم السميع البصير، وأنَّه الإله الحق وكل ما سواه باطل، فتظاهرَت أدلَّةُ ربوبيَّتِهِ وتوحيدِهِ في الأرضِ وتنوَّعت، وقامَت من كلِّ جانبٍ، فعرفهُ المُوَفَّقون من عبادِهِ وأقرُّوا بتوحيده إيماناً وإذْعاناً، وجَحَدَهُ المَخذُولون مِن خليقتِهِ وأشركوا به ظُلماً وكفراناً، فَهَلَكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنَةٍ وحيَّ من حيَّ عن بيِّنَةٍ واللَّهُ سميعٌ عليمٌ .

ومَن تأمَّل آياتِهِ المشهودَةَ والمَسموعةَ في الأرضِ ورأى آثارَها، عَلِمَ تمامَ حكمتِهِ في إسكانِ آدمَ وذريَّته في هذه الدَّار إلى أجلٍ معلومٍ، فاللَّهُ سبحانهُ إنَّما خلقَ الجنَّة لآدمَ وذُريَّته وجعلَ الملائكةَ فيها خَدَماً لهم، ولكن اقتَضَت حكمتهُ أنْ خَلقَ لهم داراً يتزوَّدون منها إلى الدَّار التي خُلقَت لهم، وأنَّهم لا ينالونها إلّا بالزَّاد، كما قال تعالى في هذه الدَّار : ﴿ وتَحمِلُ أثقالكُم إلى بَلَدٍ لَم تَكونوا بالِغيهِ إلّا بِشِقِّ الأنفُسِ إنَّ ربَّكُم لَرؤوفٌ رَحيمٌ ﴾ [النحل : ٧٠]، فهذا شأنُ الانتقالِ في الدُّنيا من بلدٍ إلى بلدٍ فكيفَ الانتقالُ من الدُّنيا إلى دارِ القَرار .

وقال تعالى : ﴿ وتَزَوَّدوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقوى ﴾ [البقرة : ١٩٧]، فباع المَغبونون منازلَهُم منها بأبخَسِ الحظِّ وأنقصِ الثَّمن، وباعَ المُوَفَّقون نُفوسَهُم وأموالَهُم من اللَّهِ، وجعلوها ثَمَناً للجنَّة فربحَت تجارتُهم ونالوا الفَوزَ العظيم، قال اللَّه تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ اشتَرى مِن المُؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لَهُم الجنَّة ﴾ [التوبة : ١١١] .

فهو سبحانهُ ما أخرَجَ آدمَ منها إلّا وهو يُريدُ أن يُعيدَه إليها أكملَ إعادَةٍ .

العَهْدُ

ولـمَّا أهبطهُ سبحانه من الـجنَّةِ وعرَّضَهُ وذريَّتهُ لأنواعِ الـمحَنِ والبلاءِ أعطاهُـم أفضلَ مـمَّا منعهـم وهو عَهدُهُ الذي عَهِدَ إليه وإلى بنيه، وأخبرَ أنَّـهُ من تـمسَّكَ به منهـم صارَ إلى رضوانه ودارِ كرامته .

قال تعالى عَقِبَ إخراجِهِ منها : ﴿ قُلنا اهبِطوا منها جَميعاً فإمَّا يأتينَّكُم منِّي هُدىً فَـمِن تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوفٌ عَليهـم ولا هُـم يَحزَنون ﴾ [البقرة : ٣٨]، وفي الآيةِ الأُخرى قال : ﴿ قال اهبِطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ فإمَّا يأتيَنَّكُم منِّي هُدىً فَمِن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يَشقى * ومَن أعرَضَ عَن ذِكري فإنَّ لـهُ معيشَةً ضَنكاً ونَحشرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى * قالَ ربِّ لـمَ حَشرتَني أعمى وقد كُنتُ بَصيراً * قال كذلكَ أتَتكَ آياتُنا فَنَسيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٦]، فلـمَّا كسرَهُ سبحانهُ بإهباطِهِ من الـجنَّةِ جبرَهُ وذريَّتهُ بهذا العَهد الذي عَهِدَه إليهـم، فقال تعالى : ﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُم منِّي هُدىً ﴾ .

وهذه هي إن الشرطيَّة الـمؤكّدَة بـما الدّالَّةِ على استغراق الزّمـان، والـمعنى أيَّ وقتٍ وأيَّ حينٍ أتاكم منِّي هُدَىً، وجعلَ جوابَ هذا الشرط جملَةً شرطيَّةً وهي قوله : ﴿ فمِن تَبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يَشقى ﴾ [طه : ١٢٣]، كمـا تقول : إن زُرتني فمن بَشرني بقدومكَ فهو حرٌّ، وجوابُ الشرطِ يكونُ

جملَةً تامَّةً إمَّا خبراً محضاً كقولكَ : إن زُرتني أكرمتُكَ، أو خَبَراً مقروناً بالشرطِ كهذا، أو مؤكَّداً بالقسم، أو بأن واللام كقوله تعالى : ﴿ وإن أطعتموهُم إنَّكُم لَمُشركون ﴾ [الأنعام : ١٢١]، وإمَّا طلباً كقول النَّبي ﷺ : « إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ وإذا استَعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ »[1] وقوله : « وإذا لقيتموهم فاصبِروا »[2] وقوله تعالى : ﴿ وإذا حلَلتُم فاصطادوا ﴾ [المائدة : ٢]، وقوله : ﴿ فإذا انسلخَ الأشهر الحُرمُ فاقتُلوا المُشركين حيثُ وجدتموهُم ﴾ [التَّوبة : ٥]، وأكثرُ ما يأتي هذا النَّوع مع إذا التي تُفيدُ تحقيق وقوع الشرط فمتى تحقَّق الشرطَ لسر وهو إفادته تحقيق الطلب عند تحقيق الشرط، فمتى تحقق الشرط فالطَّلبُ متحقِّق فأتى بإذا الدَّالَّة على تحقيق الشرط فعلمَ تحقيقُ الطَّلب عندها وقد يأتي مع أنْ قليلاً كقوله تعالى : ﴿ وإنْ كَذَّبوكَ فقُل لي عَمَلي ولكُم عَملكُم ﴾ [يونس : ٤١] .

وإمَّا جملةً إنشائيةً كقوله لعبدِهِ الكافر : إنْ أسلَمتَ فأنتَ حرٌّ، ولامرأتهِ : إنْ فَعَلتِ كذا فأنتِ طالقٌ، فهذا إنشاءٌ للعتق والطَّلاق عند وجودِ الشرطِ على رأيٍ، أو إنشاءٌ له حالُ التَّعليقِ، ويتأخَّر نفوذُهُ إلى حينِ وجودِ الشرطِ على رأيٍ آخر .

---

(١) **صحيح**؛ كما بيّنته في « صحيح كتاب الإذكار وضعيفه » (١٢٦٨ / ١٠٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٤٥ ، ١٢٠ ، ١٥٦ - فتح) ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبدالله بن أبي أوفى - رضي الله عنه .

وفي الباب عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أخرجه مسلم (١٧٤١) .

وعلى التَّقديرين فجوابُ الشرطِ جملَةٌ إنشائيَّةٌ، والمقصودُ أنَّ جوابَ الشرطِ في الآيَةِ المذكورَةِ جملةٌ شرطيَّةٌ وهي قوله : ﴿ فَمن تبعَ هُدايَ فلا خَوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون ﴾ [البقرة : ٣٨]، وهذا الشرط يقتضي ارتباط الجُملةِ الأُولى بالثَّانيةِ ارتِباطَ العلَّةِ بالمَعلولِ والسَّببِ بالمُسبِّبِ، فيكون الشرطُ الذي هو ملزوم علَّةٍ ومقتضياً للجزاء الذي هو لازمٌ فإن كان بينهما تلازمٌ من الطَّرفين كان وجودُ كلٍّ منهما بدونِ دخولِ الآخر ممتنعاً كدخولِ الجنَّة بالإسلام، وارتفاع الخوفِ والحزنِ والضَّلالِ والشقاءِ مع متابعةِ الهَوى، وهذه هي عامَّة شروط القُرآن والسُّنَّة، فإنَّها أسبابٌ وعللٌ والحكمُ ينتفي بانتفاءِ علَّتهِ، وإن كان التَّلازُم بينهما من أحد الطَّرفين كان الشرطُ ملزوماً خاصَّاً والجزاءُ لازماً عامَّاً، فمتى تحقَّق الشرط الملزوم الخاصُّ تحقَّق الجزاء اللازم العام، ولا يلزَم العكسُ كما يقال : إن كان هذا إنساناً فهو حيوانٌ، وإن كان البيعُ صحيحاً فالملك ثابتٌ .

وهذا غالبُ ما يأتي في قياس الدَّلالة حيثُ يكون الشرطُ دليلاً على الجزاء؛ فيلزم من وجوده وجود الجزاء، لأنَّ الجزاء لازِمُهُ ووجودِ الملزوم يستلزم وجود اللازم، ولا يلزم من عدمه عدم الجزاء، وإن وقعَ هذا الشرطُ بين علَّةٍ ومعلول فإن كان الحكمُ معلَّلاً بعلل صحَّ ذلك وجازَ أن يكون الجزاءُ أعمَّ من الشرطِ، كقولك : إنْ كان هذا مرتدَّاً فهو حلالُ الدَّمِ، فإنَّ حلَّ الدَّمِ أعمُّ من حلِّه بالردَّةِ، إلّا ان يُقال : إنَّ حُكْمَ العلَّة المعيَّنة ينتفي بانتفائِها وإن ثبتَ الحُكمُ بعلَّة أخرى فهو حكمٌ آخرُ، وأمَّا حكمُ العلَّة المعيَّنَة فمحالٌ أن ينفى مع زوالها، وحينئذٍ فيعودُ التَّلازُم من الطَّرفين، ويلزمُ من وجودِ كلٍّ واحدٍ من

الشرطِ والجزاء وجودُ الآخرِ، ومن عدمِه عدمُه .

وتمامُ تحقيق هذا في مسألةِ تعليل الحُكم الواحد بعلَّتين، وللنَّاس فيه نزاعٌ مشهورٌ، وفصلُ الخطاب فيها : أنَّ الحكمَ الواحدَ إن كان واحداً بالنَّوعِ كحلِّ الدَّم، وثبوتِ الملكِ، ونقضِ الطَّهارَة جازَ تعليلُهُ بالعلَل المختلفة، وإن كان واحداً بالعَين كحلِّ الدَّم بالرِّدَّةِ، وثبوتِ الملك بالبيع أو الميراث ونحو ذلك لم يجز تعليلهُ بعلَّتين مختلفتَين، وبهذا التَّفصيل يزولُ الاشتباهُ في هذه المسألةِ، واللَّهُ أعلم .

ومَن تأمَّل ادلَّةَ الطَّائفتَين وجَدَ كلَّ ما احتُجَّ به مِن رأي تعليلَ الحُكمِ بعللٍ مختلفةٍ إنَّما يدلُّ على تعليلِ الواحدِ بالنَّوع بها، وكلُّ من نَفى تعليلَ الحُكمِ بعلَّتين إنَّما يتمُّ دليلُهُ على نفيِ تعليلِ الواحدِ بالعَينِ بهما، فالقولان عند التَّحقيق يرجعانِ إلى شيءٍ واحدٍ .

والمقصود أنَّ اللَّه سبحانه جعلَ اتِّباعَ هداه وعَهدِه الذي عَهِدَه إلى آدمَ سبباً ومقتضياً لعدم الخَوفِ والحزنِ والضَّلالِ والشقاءِ وهذا الجزاءُ ثابتٌ بثبوتِ الشرطِ منتفٍ بانتفائهِ كما تقدَّم بيانُهُ، ونفيُ الخوفِ والحزنِ عن متَّبع الهُدى نفيٌ لجميعِ أنواعِ الشرورِ، فإنَّ المكروهَ الذي ينزلُ بالعبدِ متى علمَ بحصولهِ فهو خائفٌ منه أن يقعَ به، وإذا وقعَ به فهو حزينٌ على ما أصابهُ منه، فهو دائماً في خوفٍ وحزنٍ، وكلُّ خائفٍ حزينٌ فكلُّ حزينٍ خائفٌ، وكلّ من الخوفِ والحزنِ يكونُ على فعل المحبوب وحصولِ المكروه .

فالأقسامُ أربعةٌ : خَوفٌ من فوتِ المَحبوبِ، وحصولِ المَكروهِ، وهذا جماعُ الشرِّ كلِّه، فنفى اللَّه سبحانهُ ذلك عن مُتَّبع هُداه الذي أنزلهُ على ألسنَةِ

رسلِهِ، وأتى في نفيِ الـخَوفِ بالاسـمِ الدَّالِّ على نفي الثُّبوت واللزوم، فإنَّ أهلَ الـجنَّة لابدَّ لـهـم من الـخَوفِ في الدُّنيا وفي البرزَخِ ويومِ القيامة حيثُ يقولُ آدمُ وغيرهُ من الأنبياء نفسي نفسي، فأخبرَ سبحانهُ أنَّهـم وإن خافوا فلا خَوفٌ عليهـم أي : لا يلـحقهـم الـخَوفُ الذي خافوا منه، وأتى في نفي الـحُزنِ بالفعلِ الـمُضارع الدَّالِّ على نَفـيِ التَّـجدُّد والـحدوثِ أي : لا يلـحقهـم حزنٌ ولا يـحدُثُ لـهـم إذا لـم يذكروا ما سلفَ منهـم بل هـم في سرورٍ دائمٍ لا يَعرضُ لـهـم حزنٌ على ما فات .

وأمَّا الـخَوفُ فلـمَّـا كان تعلُّقهُ بالـمُستقبل دونَ الـماضي نفى لـحوقه لـهـم جملَةً أي : الذي خافوا منه لا ينالـهـم ولا يلـمُّ بهـم، واللَّه أعلـم .

فالـحزينُ إنَّـما يـحزنُ في الـمُستقبل على ما مضى والـخائف إنَّـما يـخافُ في الـحال مـمَّا يستقبلُ، فلا خوفٌ عليهـم أي : لا يلـحقهـم ما خافوا منه، ولا يعرضُ لـهـم حزنٌ على ما فات .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ فَمَن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يَشقى ﴾ [طه : ١٢٣]، فنفى عن متَّبع هداه أمرَين : الضَّلالُ والشقاءُ .

قال عبداللَّه بن عبَّاس رضي اللَّهُ عنهـما : « تكفَّلَ اللَّهُ لـمَن قَرَأَ القرآن وعملَ بـما فيه أن لا يضلَّ في الدُّنيا ولا يشقى في الآخِرَة، ثمَّ قرأ : ﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُـم منِّي هُدىً فَمَن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يَشقى ﴾ [طه : ١٢٣] »[1].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢ / ٣٨١) وصححه ووافقه الذهبي .

وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥ / ٦٠٧) إلى الفريابي، وسعيد بن =

والآيةُ نفَت مسمَّى الضَّلالِ والشقاءِ عن متَّبع الـهُدى مطلقاً فاقتَضَت الآيةُ أنَّهُ لا يضلُّ في الدُّنيا ولا يشقى، ولا يضلُّ في الآخرَة ولا يشقى فيها؛ فإنَّ الـمراتبَ أربعةٌ : هُدىً وشقاوَةٌ في الدُّنيا وهدىً وشقاوَةٌ في الآخرَة .

لكن ذكرَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما في كلِّ دارٍ أظهرَ مرتبتَيها، فذكرَ الضَّلالَ في الدُّنيا إذ هو أظهرُ لنا وأقربُ من ذكرِ الضَّلالِ في الآخرَة .

وأيضاً فضلالُ الدُّنيا أضلُّ ضلالٍ في الآخرَة، وشقاءُ الآخرَة مُستلزمٌ للضَّلالِ فيها، فنبَّهَ بكلٍّ مرتبةٍ على الأُخرى، فنبَّهَ بنفي ضلالِ الدنيا على نفي ضلال الآخرَة، فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاشَ عليه، ويبعثُ على ما ماتَ عليه .

قال اللَّهُ تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ ومَن أعرَضَ عَن ذكري فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكاً ونَحشرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى * قال ربِّ لِمَ حَشرتَني أعمى وقد كُنتُ بَصيراً * قالَ كذلكَ أتَتكَ آياتُنا فَنسيتَها وكذلكَ اليَومَ تُنسى ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] .

وقال في الآيَة الأُخرى : ﴿ ومَن كانَ في هذهِ أعمى فهو في الآخِرَة أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

فأخبَرَ أنَّ مَن كانَ في هذه الدَّار ضالاًّ فهو في الآخرَة أضلّ، وأمَّا نفيُ شقاءُ الدُّنيا فَقَد يقالُ : إنَّهُ لـما انتفى عنه الضَّلالُ فيها وحصلَ له الـهُدى، والـهُدى فيه مِن بردِ اليَقينِ، وطمأنينةِ القلبِ، وذاقَ طعمَ الإيـمان؛ فوجدَ

= منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

حلاوتَهُ، وفرحةَ القلبِ به وسروره والتَّنعُّمَ به، ومصيرَ القلب حيّاً بالإيمان مستنيراً به قويّاً به قد نالَ به غذاءهُ ورواءَهُ وشفاءَهُ وحياتهُ ونورَهُ وقوّتهُ ولذّتهُ ونعيمهُ ما هو من أجلّ أنواعِ النّعيم وأطيب الطيّبات وأعظم اللذّات .

قال اللّه تعالى : ﴿ مَن عَملَ صالحاً مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمنٌ فلنُحيينَّهُ حياةً طيّبةً ولنجزينَّهُم أجرَهُم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧]، فهذا خبر أصدق الصّادقين، ومخبره عند أهلهِ عينُ اليقين بل هوَ حقُّ اليقين، ولابدَّ لكلِّ من عملَ صالحاً أن يحييهُ اللّهُ حياةً طيّبةً بحسب إيمانِهِ وعمله، ولكن يغلط الجفاةُ الأجلاف في مسمّى الحياة حيثُ يظنُّونها التّنعُّمَ في أنواعِ المآكلِ والمشاربِ والملابس والمناكح، أو لذّةَ الرّياسةِ والمالِ وقهرِ الأعداءِ والتّفنُّن بأنواعِ الشهوات، ولا ريبَ أنَّ هذه لذّةٌ مشتركةٌ بين البهائم بل قد يكون حظُّ كثيرٌ من البهائم منها أكثرَ من حظِّ الإنسان، فمن لم تكُن عندهُ لَذّة إلّا اللذّةُ التي تُشاركهُ فيها السّباع والدّواب والأنعامُ؛ فذلك ممّن ينادى عليه من مكان بَعيد، ولكن أين هذه اللذّةُ من اللذّة بأمر إذا خالطَ بشاشتُهُ القلوبَ سلى عن الأبناء والنّساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضيَ بتركها كلِّها والخروج منها رأساً، وعرّضَ نفسه لأنواعِ المكاره والمشاقِّ، وهو متحلٍّ بهذا مُنشرح الصّدرِ به، يطيبُ له قتل ابنه وأبيهِ وصاحبته وأخيه لا تأخذه في ذلك لومَةُ لائم حتى إنَّ أحدهم ليتلقّى الرّمح بصدرِهِ، ويقول : فُزتُ وربِّ الكعبَة، ويستطيلُ الآخرُ حياتَهُ حتى يُلقي قوّته من يدهِ، ويقول : إنّها لحياةٌ طويلةٌ إن صَبَرتَ حتى آكلها، ثمَّ يتقدَّم إلى المَوت فرحاً مَسروراً، ويقول الآخرُ مع فقرِهِ : لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ عليه لجالَدونا عليه

بالسِّيوف، ويقول الآخر : إنَّهُ ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ يرقصُ فيها طرباً، وقال بعضُ العارفين : إنَّهُ لتمرُّ بي أوقاتٌ أقولُ فيها : إن كانَ أهلَ الجنَّة في مثل هذا إنَّهم لفي عيشٍ طيِّب، ومَن تامَّلَ قولَ النَّبي ﷺ لمَّا نهاهُم عن الوصالِ، فقالوا : أنَّكَ تواصِل، فقال : « إنِّي لستُ كهيئتكُم، إنِّي أظلُّ عندَ ربِّي يطعمني ويَسقيني »[1] علم أنَّ هذا طَعامُ الأرواحِ وشرابُها وما يفيضُ علينا من أنواعِ البهجَةِ واللذَّة والسُّرور والنَّعيم الذي رسول اللَّه ﷺ في الذُّروَةِ العُليا منه، وغيرُه إذا تعلَّقَ بغبارِهِ رأى ملك الدُّنيا ونعيمها بالنِّسبةِ إليه هباءً منثوراً بل باطلاً وغروراً .

وغلطَ من قال : إنَّه كانَ يأكلُ ويشربُ طعاماً وشراباً يغتذي به بدنه لوجوهٍ :

أحدها : أنَّه قال : « أظلُّ عند ربِّي يُطعمني ويَسقيني » ولو كان أكلاً وَشُرباً لم يكُن وِصالاً ولا صَوماً .

الثَّاني : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبرهم أنَّهم ليسوا كهيئتهِ في الوصال، فإنَّهم إذا واصَلوا تَضرَّروا بذلك، وأمَّا هو ﷺ فإنَّهُ إذا واصلَ لا يتَضرَّرُ بالوصالِ، فلو كانَ يأكلُ ويشربُ لكانَ الجوابُ : وأنا أيضاً لا أواصلُ بل آكلُ وأشربُ كما تأكلونَ وتَشربونَ، فلمَّا قرَّرهم على قولهم إنَّكَ تواصلُ ولم ينكرهُ عليهم دلَّ على أنَّهُ كان مواصلاً، وأنَّهُ لم يكن يأكل أكلاً وشرباً يفطرُ الصَّائم .

الثَّالث : أنَّهُ لو كان أكلاً وشرباً يفطرُ الصَّائم لم يصحَّ الجوابُ بالفارقِ بينهم وبينهُ، فإنَّهُ حينئذٍ يكون ﷺ هو وهم مستركون في عدم الوصال،

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٢٠٢ - فتح) من حديث عائشة - رضي اللَّه عنها .

فكيف يصحُّ الجوابُ بقوله : « لستُ كهيئتكُم » ؟

وهذا أمرٌ يعلمهُ غالبُ النَّاس أنَّ القلبَ متى حصلَ له ما يفرحهُ ويسرُّه من نَيلِ مطلوبهِ ووصالِ حبيبهِ أو ما يغمُّهُ ويسوؤهُ ويحزنهُ شغِلَ عن الطَّعام والشراب، حتى أنَّ كثيراً من العشاق تمُرُّ به الأيَّام لا يأكلُ شيئاً، ولا تطلبُ نفسه أكلاً .

وقد أفصح القائل في هذا المعنى :

لها أحاديثُ مِن ذِكراكِ تَشغلُها
عَنِ الشرابِ وتُلهيها عَن الزَّادِ

لها بوجهِكِ نورٌ تَستَضيءُ بِه
ومِن حَديثك في أعقابِها حادِي

إذا اشتَكَت مِن كلالِ السَّيرِ أوعَدها
روحُ القدومِ فتَحيا عند ميعادِ

والمقصودُ : أنَّ الهُدى مسلتزمٌ لسعادةِ الدُّنيا وطيبِ الحياةِ والنَّعيم العاجل، وهو أمرٌ يشهدُ بهِ الحسُّ والوَجْدُ، وأمَّا سعادَةُ الآخِرَةِ فغيبٌ يُعْلَمُ بالإيمان، فذكرها ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما لكونها أهمُّ، وهي الغايَةُ المطلوبةُ، وضلالُ الدُّنيا أظهرُ وبالنَّجاةِ منه ينجو من كلِّ شرٍّ وهو أضلُّ ضلالِ الآخرَة وشقائها، فلذلك ذكرهُ وحدَهُ، واللَّهُ أعلم .

الضَّلالُ والشَّقاءُ حظُّ أَعداءِ اللَّه

وهذانِ الضَّلالانِ؛ أعني : الضَّلالُ والشقاءُ يذكرهما سبحانهُ كَثيراً في كلامه، ويخبِرُ أنَّهما حظُّ أعدائهِ، ويذكُرُ ضدَّهما وهما الهُدى والفلاحُ كثيراً، ويخبرُ أنَّهما حظُّ أوليائهِ .

○ **أمَّا الأوَّل** : فكقوله تعالى : ﴿ إنَّ المُجرِمينَ في ضلالٍ وسُعُر ﴾ [القمر : ٤٧]، فالضَّلالُ الضَّلالُ، والسُّعرُ هو الشقاءُ والعذابُ، وقال تعالى : ﴿ قَد خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبوا بِلِقاءِ اللَّهِ وما كانوا مُهتَدين ﴾ [يونس : ٤٥] .

○ **وأمَّا الثَّاني** : فكقوله تعالى في أوَّلِ البقرَة وقد ذكرَ الزمؤمنين وصفاتهم : ﴿ أولئكَ على هُدىً من ربِّهِم وأولئكَ هُمُ المُفلِحون ﴾ [البقرة : ٥]، وكذلك في أوَّلِ لُقمان وقال في الأنعام : ﴿ الَّذينَ آمَنوا ولَم يَلبِسوا إيمانهُم بظُلمٍ أولئكَ لَهُم الأمنُ وهُم مُهتَدونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

ولما كانت سورةُ أمِّ القُرآن أعظمَ سورةٍ في القُرآن، وأفرضَها قراءَةً على الأُمَّة، وأجمعها لكلِّ ما يحتاجُ إليه العبدُ، وأعمَّها نفعاً ذكرَ فيها الأمرَين، فأمرَنا أن نَقولَ : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُستَقيم صِراطَ الَّذينَ أنعَمتَ عَلَيهِم ﴾ فذكرَ الهدايَةَ والنِّعمةَ وهما الهُدى والفلاح، ثمَّ قال : ﴿ غَيرِ المَغضوبِ عَلَيهِم ولا

الضَّالِّين ﴾ [الفاتحة : ٧]، فذكرَ المَغضوبِ عليهم وهم أهلُ الشقاء، والضَّآلِّين وهم أهلُ الضَّلال، وكلٌّ من الطَّائفتَين له الضَّلالُ والشقاءُ لكن ذكرَ الوَصفَين معاً لتكونَ الدَّلالةُ على كلٍّ منهما بصريحِ لفظِهِ .

وأيضاً فإنَّهُ ذكرَ ما هو أظهرُ الوَصفَين في كلِّ طائفةٍ؛ فإنَّ الغَضَبَ على اليَهودِ أظهرُ لعنادهم الحقَّ بعدَ معرفته، والضَّلالَ في النَّصارى أظهرُ لغلبَة الجهل فيهم .

وقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « اليهود مغضوبٌ عليهم والنَّصارى ضالُّون » .(١)

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ٣٧٨ - ٣٧٩)، وابن حبان (٧٢٠٦)، والبيهقي في « دلائل النبوّة » (٥ / ٣٣٩ - ٣٤١)، والطبراني في « الكبير » (١٧ / ٩٣ / ٢٣٧)، والمزي في « تهذيب الكمال » (١٤ / ١١٠ - ١١٣) .

من طريق شعبة قال : سمعت سماك بن حرب قال سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدي بن حاتم (وذكر حديثاً طويلاً يتضمن قصّة إسلامه) .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥ / ٣٣٥) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة » .

وزاد (٦ / ٢٠٨) : « في الصحيح وغيره بعضه » .

قلت : لم يوثقه غير ابن حبان (٥ / ١٤٢) ولم يرو عنه غير سماك بن حرب، وأورده من قبل البخاري في « التاريخ الكبير » (٦ / ٣٣) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وجهله ابن القطان كما في « تهذيب التهذيب »، وقال الحافظ في « التقريب » : مقبول .

وأخرجه الترمذي (٢٩٥٤)، وابن حبان (٦٢٤٦) وابن أبي حاتم في « تفسيره » (١ / ٢٣)، والطبري في « تفسيره » (١ / ٦٤) من طريق شعبه به بأخصر منه .

وأخرجه الطيالسي (٢٥٦٥ - منحة المعبود » من طريق عمرو بن ثابت عن سماك عمن سمع عدي بن حاتم . =

....

= ولم يتفرد عباد بن حبيش بل تابعه الشعبي ومري بن قطري عند ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١ / ٦١)، وبه يثبت الحديث ولله الحمد والمنّة على الإسلام والسُّنة .

تنبيهات :

١ - لحديث عدي طرق كثيرة وشواهد نبه عليها الحافظ ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٣٢) بقوله : « وقد روى حديث عدي هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها » .

قلت : وحسَّن بعضَهَا الحافظُ في « فتح الباري » (٨ / ١٥٩)، وانظرها في « الدر المنثور » (١ / ٤٢) .

٢ - لم يعز السيوطي الحديث في « الجامع الصغير » لأحمد، وتابعه على ذلك بعض إخواننا من طلاب العلم؛ فزعم أنَّ العزو لأحمد وهم، وهذه هفوة - يغفر الله لنا وله - من وجوه :

أ - أنَّ السيوطي عزا حديث عدي لأحمد كما في « الدر المنثور » (١ / ٤٢) فقال : « وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسَّنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في « صحيحه » عن عدي بن حاتم (وذكره) » .

ب - هب أنَّ السيوطي فاته ذلك فهل يقتضي ذلك توهيم من أثبت ذلك ؟ وكم في « الجامع الصغير » أحاديث فات السيوطي عزوها لمصادرها الرئيسية (!) فالإحاطة ممتنعة على البشر .

٣ - قال ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١ / ٢٣ و ٢٤) : « ولا أعلم بين المفسرين في هذا الحرف اختلافاً » .

وقال الماوردي في « النكت والعيون » (١ / ٦١) : « وهو قول جميع المفسرين » .

قلت : لكن نقل القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » (١ / ١٥٠) أقوالاً تدلُّ على خلاف ذلك، ولكنَّها مرجوحة محجوجة كما قال - رحمه الله - وذكر لذلك وجهين :

أ - أنَّ تفسير النَّبي ﷺ أولى وأعلم وأحسن . =

....

= ب - شهد لهذا التفسير قوله تعالى في اليهود : ﴿ وباءوا بغضب من اللّه ﴾، وقال : ﴿ وغضب اللّه عليهم ﴾، وقال في النصارى : ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

وذهب إلى مثل ذلك ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٣٢) .

وهذا هو التحقيق الدقيق؛ فدعني من بنيات الطريق .

٤ - والحديث صححه الشيخ أحمد شاكر - رحمه اللّه تعالى - في تعليقه على الطبري (١٩٤) .

قلت : في تصحيحه نظر؛ لأنَّه حكم على الإسناد الذي فيه عباد بن حبيش، وقد تقدم ذكره، لكن له شواهد ومتابعات تقدَّم التنبيه عليها .

وصححه شيخنا الألباني - حفظه اللّه تعالى - بشواهده في تخريج « شرح العقيدة الطحاوية » (٨١١)، و « صحيح الجامع الصغير » و « صحيح سنن الترمذي »، واللّه الهادي إلى سواء السبيل .

وبالجملة فالحديث ثابت صحيح كما قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه اللّه .

توجيه الخطاب

وقوله تعالى : ﴿ فإمَّا يأتينَّكُم مني هُدى ﴾ هو خطابٌ لـمَن أهبَطهُ من الـجنَّة، بقوله : ﴿ اهبِطا منها جميعاً بَعضُكُم لِبَعضٍ عَدوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣]، ثمَّ قال : ﴿ فإمَّا يَأتِيَنَّكُم منِّي هُدىً ﴾ [طه : ١٢٣]، وكلا الـخطابَين لأبويّ الثَّقلين؛ وهو دليلٌ على أنَّ الـجنَّ مأمورونَ مَنهيُّونَ داخلون تـحتَ شرائع الأنبياء، وهذا مـمَّـا لا خلافَ فيه بين الأُمَّة، وأنَّ نبيَّنا بُعثَ إليهـم كمـا بُعثَ إلى الإنس كمـا لا خلافَ بينها أنَّ مُسيئهـم مستحقٌّ للعقاب، وإنَّـمـا اختلفَ عُلـمـاءُ الإسلام في الـمُسلـم منهـم هل يدخُل الـجنَّة ؟ فالـجمهور على أنَّ مـحسنهـم في الـجنَّة كمـا أنَّ مسيئهـم في النَّار .

وقَد ثبتَ بنصِّ القُرآن وإجمـاع الأمَّة أنَّ مسيءَ الـجنّ في النَّار بعدلِ اللَّه وبمـا كانوا يَكسِبون، فمحسنهـم في الـجنَّة بفضلِ اللَّه وبمـا كانوا يعملون .

لكن قيل : إنَّهـم يكونون في ربضِ الـجنَّة يراهـم أهلُ الـجنَّة ولا يَرونَهُم كمـا كانوا في الدُّنيا يُرَونَ بني آدم من حيثُ لا يَرَونهُم، ومثلُ هذا لا يعلـمُ إلّا بتوقيف تنقطعُ الـحجَّة عندَه، فإن ثبتَت حجَّةٌ يـجب اتِّباعُها، وإلّا فهو مـمَّـا يُحكى ليعلم، وصحَّتهُ موقوفَةٌ على الدَّليل، واللَّهُ أعلـم .

معالم الهدى في بيان كيف نتبع الهدى

ومُتابَعةُ هُدى اللّهِ التي رتَّبَ عليها هذه الأُمورَ هي : تصديقُ خبرِهِ من غَيرِ اعتراضِ شبهةٍ تقدَحُ في تَصديقِهِ، وامتثالُ أمرِهِ من غيرِ اعتراضِ شهوةٍ تمنع امتثالَهُ، وعلى هذين الاصلين مدارُ الإيمانِ، وهما تَصديقُ الخبرِ وطاعَةُ الأمرِ، ويتبعهما أمرانِ آخران : وهما نفيُ شبهات الباطل الوارِدَة عليه المانعَةِ من كمال التَّصديق، وأن لا يخمش بها وجهَ تَصديقِهِ ودفعَ شهوات الغيِّ الوارِدَة عليه المانِعةِ من كمالِ الامتثالِ فهنا أربعة أمور :

أحدها : تَصديق الخبر .

الثَّاني : بذلُ الاجتهادِ في ردِّ الشبهاتِ التي توحيها شياطين الجنِّ والإنس في معارضته .

الثَّالث : طاعةُ الأمرِ .

الرَّابع : مجاهَدةُ النَّفس في دفعِ الشهوات التي تحولُ بين العبدِ وبين كمال الطَّاعةِ .

وهذان الأمران؛ أعني : الشبهات والشهوات أصلُ فساد العبد وشقائهِ في

معاشهِ ومعادِهِ، كما أنَّ الأصلين الأوَلين وهما تصديقُ الخبرِ وطاعةُ الأمرِ أصلُ سعادَتهِ وفلاحهِ في معاشهِ ومعادهِ، وذلك أنَّ العبدَ له قوّتان قوّةُ الإدراك والنَّظر وما يتبعها من العلمِ والمَعرفةِ والكلامِ، وقوّةُ الإرادَةِ والحبِّ وما يتبعهُ من النيَّةِ والعزمِ والعملِ، فالشبهةُ تؤثرُ فساداً في القوّةِ العلميَّة النَّظريَّةِ مالم يداوها بدَفعها، والشهوَةُ تؤثّر فساداً في القوّةِ الإراديَّة العمليَّة مالم يداوها بإخراجها، قال اللّه تعالى في حقِّ نبيِّه يذكر ما منَّ به عليه من نزاهته وطهارتهِ مما يلحقُ غيرهُ من ذلك : ﴿ والنَّجمِ إذا هَوى * ما ضلَّ صاحبكُم وَما غَوى ﴾ [النجم : ١ - ٢]؛ فما ضلَّ دليلٌ على كمالِ علمهِ ومعرفتهِ، وأنَّهُ على الحقِّ المُبين، وما غَوى دليلٌ على كمالِ رشدهِ وأنَّهُ أبرُّ العالمين، فهو الكاملُ في علمه وفي عمله، وقد وصفَ ﷺ بذلك خلفاءَهُ من بعدهِ وأمَرَ باتِّباعهم على سنَّتهم فقال : « عليكُم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّشدين المَهديِّين من بَعدي » .[1]

---

(١) **صحيح** - كما بينته في « صحيح كتاب الأذكار وضعيفه » (١٢٦٣ / ٩٩٧) .

وأزيد هنا فائدة وهي : أنَّ هذا الحديث **اتفق الحفاظ على تصحيحه**، منهم :

١ - الضياء المقدسي في جزء « اتباع السنن واجتناب البدع » (ق ٧٩ / ١) .

٢ - الهروي في « ذم الكلام » (٦٩ / ١ - ٢) وقال : « هذا أجود حديث في أهل الشام » .

٣ - البغوي في « شرح السُّنة » (١٠٢) وقال : « حديث حسن » .

٤ - ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ١٨٢) نقل عن أحمد بن عمر والبزار تصحيحه ثمَّ قال : « هو كما قال البزار حديث عرباض حديث ثابت » .

٥ - أبو نعيم كما قال الزركشي في « المعتبر » (ص ٧٨)، وابن كثير في « تحفة الطالب » (٤٦) . =

فالرَّاشد ضدُّ الغاوي، والمَهدي ضدُّ الضَّال، وقد قال تعالى : ﴿ كالَّذينَ مِن قَبلِكُم كانوا أشدَّ منكُم قوَّةً واكثَرَ أموالاً وأولاداً فاستَمتَعوا بِخلاقِهِم فاستَمتَعتُم بِخلاقِكُم كما استَمتَعَ الَّذينَ من قَبلِكُم بِخَلاقِهِم وخُضتُم كالَّذي خاضوا أولئكَ حبطَت أعمالهُم في الدُّنيا والآخرَة وأولئكَ هم الخاسرون ﴾ [التوبة : ٦٩] .

فذكرَ تعالى الأصلين وهما داءُ الأوَّلين والآخرين :

أحدهما : الاستمتاع بالخلاق، وهو النَّصيب من الدُّنيا، والاستمتاع به متضمِّن لنَيل الشهوات المانعَة من متابَعةِ الأمر، بِخلافِ المُؤمن فإنَّهُ وإن نالَ من الدُّنيا وشهواتها فإنَّهُ لا يستمتع بنصيبهُ كلِّه ولا يذهب طيِّباته في حياتهِ الدُّنيا

= ٦ - الحافظ محمد بن عبدالرحمن الدغولي كما في « المعتبر » (ص ٧٨)، و « تحفة الطالب » (ص ١٦٣)، و « موافقة الخُبر الخبر » (١ / ١٣٩) .

٧ - الحافظ ابن كثير في « تحفة الطالب » (٤٦) .

٨ - الحافظ الزركشي في « المعتبر » (٣٠) .

٩ - الحافظ ابن حجر في « موافقة الخُبر الخبر » (١ / ١٣٧) وقال : « هذا حديث صحيح رجاله ثقات، قد جوّد الوليد بن مسلم إسناده، فصرح بالتحديث في جميعه، ولم ينفرد » .

١٠ - أبو إسماعيل الأنصاري كما في « موافقة الخُبر الخبر » (١ / ١٣٩) بقوله : « هو من أجود حديث أهل الشام » .

وغيرهم كثير .

وقد شذَّ ابن القطان الفاسي؛ فخالفهم، وقد ردَّ عليه الحافظان ابن حجر وابن الملقن .

وقد أفردته في جزء مفرد رداً على من ضعَّفه أو حاول ذلك من المتعالمين من المعاصرين .

بل ينالُ منها ما ينالُ منها؛ ليتقوَّى به على التزوُّد لـمعادهِ .

والثاني : الـخوضُ بالشبهاتِ الباطلةِ وهو قولـه : ﴿ وخُضتُم كالَّذي خاضوا ﴾ .

وهذا شأنُ النُّفوس الباطلةِ التي لم تـخلق للآخرَةِ لا تزالُ ساعيَةً في نيل شهواتها، فإذا نالَتها فإنَّـما هي في خوضٍ بالباطلِ الذي لا يـجدي عليها إلّا الضَّرر العاجل والآجل .

ومن تمامِ حكمةِ اللَّه تعالى أنَّهُ يبتلي هذه النُّفوس بالشقاء والتَّعب في تحصيل إراداتِها وشهواتها، فلا تتفرَّغ للـخوضِ بالباطل إلّا قليلاً، ولو تفرَّغت هذه النُّفوس الباطوليَّةُ لكانت أئـمَّةً تَدعو إلى النَّارِ، وهذا حالُ من تَفرَّغَ منها كما هو مشاهدٌ بالعيانِ، وسواء كان الـمعنى وخضتم كالـحزبِ الذي خاضوا أو كالفريق الذي خاضوا، فإنَّ الذي يكون للواحد والجمع ونظيرهُ قوله تعالى : ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقَ به أولئكَ هم الـمتَّقون لهم ما يشاؤون عند ربِّهـم ذلك جزاءُ الـمُحسنين ﴾ [الزمر : ٣٣ - ٣٤]، لكن لا يـجري على جمع تصحيح فلا يـجيء الـمسلمون الذي جاءوا، وإنَّـما يـجيء غالباً في اسم الـجمع كالـحزب والفريق أو حيثُ لا يذكرُ الموصوف وإن كان جمعاً كقول الشاعر :

إنَّ الـذي جـاءَت تـقبـح دماؤهـم

هـم الـقـوم كـل الـقـومِ يـا أم خـالـد

أو حيثُ يرادُ الـجنسُ دونَ الواحدِ والعَددِ كقوله تعالى : ﴿ والذي جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقَ به ﴾ ثمَّ قال : ﴿ أولئكَ هـم الـمتَّقون ﴾ ونظيرهُ الآيَةُ التي

نحنُ فيها وهي قوله : ﴿ وخُضتُم كالذي خاضوا ﴾ أو كانَ المعنى على القول الآخر وخُضتم خَوضاً كالخَوضِ الذي خاضوا فيكون صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ كقولك : اضرِب كالذي ضَرَبَ، وأحسن كالذي أحسَنَ، ونظائرهُ .

وعلى هذا فيكون العائدُ منصوباً محذوفاً، وحذفهُ في مثل ذلكَ قياسٌ مطَّردٌ على القَولين، فقَد ذمَّهُم سبحانهُ على الخَوضِ بالباطلِ واتِّباعِ الشهواتِ، وأخبَرَ أنَّ من كانت هذه حالتهُ فقد حبطَ عملهُ في الدُّنيا والآخرَة وهو من الخاسرين .

ونظيرُ هذا قولُ أهلِ النَّار لأهلِ الجنَّة وقد سألوهم كيف دخلوها : ﴿ قالوا لم نك من المُصلِّين * ولم نكُ نُطعمُ المسكين * وكنَّا نخوضُ مع الخائضين * وكنَّا نكذِّبُ بيومِ الدِّين ﴾ [المدثر : ٤٣ - ٤٦]، فذكروا الأصلين الخوضَ بالباطلِ وما يتبعهُ من التَّكذيبِ بيومِ الدِّين، وإيثارَ الشهواتِ وما يستلزمُهُ من تَركَ الصَّلواتِ وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هما ماهما، واللَّه وليُّ التَّوفيق .

القلب السليم

والقلبُ السَّليمُ الذي ينجو من عذابِ اللَّهِ هو القلبُ الذي قَد سلمَ من هذا وهذا، فهو القلبُ الذي قَد سلَّمَ لربِّه وسلَّمَ لأمرِهِ، ولم تبقَ فيه منازَعةٌ لأمرِهِ، ولا معارضةٌ لخبرهِ؛ فهو سليمٌ مما سوى اللَّهِ وأمرِهِ لا يريدُ إلّا اللَّه ولا يفعلُ إلّا ما أمرَهُ اللَّه، فاللَّه وحدَهُ غايتهُ، وامرهُ وشرعهُ وسيلتهُ وطريقتهُ لا تعترضهُ شبهةٌ تحولُ بينه وبين تَصديق خبره، لكن لا تمرُّ عليه إلّا وهي مجتازَةٌ تعلم أنَّهُ لا قرار لها فيه، ولا شهوَة تحولُ بينهُ وبين متابَعةِ رضاه، ومتى كانَ القلبُ كذلك فهو سليمٌ منَ الشرك، وسليمٌ من البدع، وسليمٌ من الغيِّ، وسليمٌ من الباطل وكلُّ الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمَّنها .

وحقيقته أنَّهُ القلبُ الذي قد سلَّمَ لعبوديَّة ربِّه حياءً وخوفاً وطمعاً ورجاءً، ففني بحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبخوفهِ عن خوف ما سواهُ، وبرجائهِ عن رجاءِ ما سواهُ، وسلَّم لأمره ولرسوله تَصديقاً وطاعةً كما تَقدَّم، واستسلمَ لقضائه وقَدَرهِ فلم يتَّهمه ولم يُنازعهُ ولم يتسخَّط لأقدارهُ فأسلمَ لربِّه انقياداً وخضوعاً وذلّاً وعبوديَّةً، وسلَّم جميعَ أحوالهِ وأقوالهِ وأعمالِهِ وأذواقه ومواجيدهِ ظاهراً وباطناً من مِشكاة رسولهِ، وعرض ما جاءَ من سواها عليها، فما وافقها قبلهُ،

وما خالفها ردَّهُ، وما لم يتبينَّ له فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ وقفَ أمرَهُ وأرجأهُ إلى أن يتبينَّ له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذَّابِّين عن دينه وسنَّةِ نبيِّهِ القائمينَ بها، وعادىٰ أعداءه المخالفين لكتابِهِ وسنَّةِ نبيِّه الخارجين عنهما الدَّاعينَ إلى خلافهما .

حق التلاوة

وهذه المُتابَعة هي التلاوَةُ التي أثنى اللَّه على أهلها في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَتلونَ كتابَ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٢٩]، وفي قوله : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَتلونَهُ حقَّ تِلاوَتِهِ أولئكَ يؤمنونَ به ﴾ [البقرة : ١٢١] .

والمعنى : يتبعونَ كتابَ اللَّه حقَّ اتباعه .

وقال تعالى : ﴿ اتلُ ما أوحيَ إليكَ من الكتاب وأقِم الصلاة ﴾ [العنكبوت : ٤٥]، وقال : ﴿ إنَّما أُمرتُ أن أعبُدَ ربَّ هذه البَلدَةِ الذي حرَّمها وله كلُّ شيءٍ وأُمرتُ أن أكونَ من المُسلمين وأن أتلوا القُرآن ﴾ [النمل : ٩١ - ٩٢] .

فحقيقةُ التِّلاوَة في هذه المواضيع هي التِّلاوَة المُطلقَة التَّامَّة، وهي تلاوَةُ اللَّفظِ والمعنى، فتلاوَةُ اللفظِ جزء مسمَّى التِّلاوَة المطلقَة، وحقيقةُ اللفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ .

يقال : اتلُ أثرَ فلانٍ وتلوتُ أثرَه وقفوتُه وقصصتُهُ بمعنى تبعت خلفهُ .

ومنه قوله تعالى :﴿ والشمسِ وضحاها * والقمرُ إذا تلاها ﴾ [الشمس : ١ - ٢]، أي : تبعها في الطُّلوع بعدَ غيبتها .

ويقال : جاءَ القومُ يتلو بعضهم بعضاً، أي : يتَّبع .

وسمَّى تالي الكلام تالياً، لأنَّهُ يتبع بعضُ الحروف بعضاً لا يخرجها جملةً واحدَةً بل يتبعُ بَعضها بعضاً مرتَّبةً كلَّما انقضى حرفٌ أو كلمةٌ أتبعهُ بحرفٍ آخر وكلمةٍ أُخرى، وهذه التِّلاوَةُ وسيلةٌ وطريقةٌ .

والمقصود التِّلاوَةُ الحقيقيَّةُ وهي تلاوَةُ المَعنى واتِّباعهُ تَصديقاً بخبرِهِ، وإتمـاراً بأمره، وانتهاءً بنهيِهِ، وائتمـاماً به حيثُ ما قادكَ انقدتُ معه، فتلاوَةُ القرآن تتناولُ تلاوَةَ لفظِهِ ومعناهُ، وتلاوَةُ المَعنى أشرفُ من مجرَّد تلاوَةِ اللفظِ، وأهلُها هم أهلُ القُرآن الذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرَةِ، فإنَّهم أهلُ تلاوَة ومُتابَعَةٍ حقَّاً .

حقيقة الإعراض

ثمَّ قال تعالى : ﴿ ومَن أعرَضَ عن ذِكري فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكاً ونحشرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى ﴾ [طه : ١٢٤]، لما أخبرَ سبحانهُ عن حالِ من اتَّبعَ هداهُ في معاشِهِ ومعادِهِ أخبَرَ عن حالِ من أعرَضَ عنه ولم يتبعهُ فقال : ﴿ وَمَن أعرَضَ عَن ذكري فإنَّ لهُ مَعيشَةً ضَنكاً ﴾ أي : عن الذِّكر الذي أنزلته، فالذِّكرُ هنا مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعلِ كقيامي وقراءتي لا إلى المفعول وليسَ المعنى ومَن أعرَضَ عن أن يذكرني بل هذا لازمُ المعنى ومقتضاه من وجهٍ آخر سنذكرهُ .

وأحسنُ من هذا الوجهِ ان يقال : الذِّكرُ هنا مُضافٌ إضافةَ الأسماءِ لا إضافَةَ المصادر إلى معمولاتها .

والمعنى ومن أعرَضَ عن كتابي ولم يتبعهُ، فإنَّ القُرآن يسمَّى ذكراً قال تعالى : ﴿ وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه ﴾ [الأنبياء : ٥٠]، وقال تعالى : ﴿ ذلكَ نَتلوهُ عليكَ من الآياتِ والذِّكرِ الحَكيم ﴾ [آل عمران : ٥٨]، وقال تعالى : ﴿ إن هوَ إلّا ذكرٌ للعالمين ﴾ [يوسف : ١٠٤ ، التكوير : ٢٧]، وقال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَروا بالذِّكرِ لَمَّا جاءهُم وإنَّهُ لكتابٌ عَزيزٌ ﴾

[فصلت : ٤١]، وقال تعالى : ﴿ إنَّما تُنذِرَ من اتَّبعَ الذِّكرَ وخَشيَ الرَّحمنَ ﴾ [يس : ١١] .

وعلى هذا فإضافتهُ كإضافَةِ الأسماءِ الجوامِدِ التي لا يُقصَد بها إضافَةُ العاملِ إلى معمولِهِ، ونظيرُهُ في إضافَةِ اسم الفاعلِ : ﴿ غافِرِ الذَّنبِ وقابِلِ التَّوبِ شديدِ العقاب ﴾ [غافر : ٣]، فإنَّ هذه الإضافات لم يقصد بها قصدُ الفعلِ المتجدِّد، وإنَّما قُصِدَ بها قصدُ الوصفِ الثَّابتِ اللازمِ، وكذلك جَرَت أوصافاً على أعرفِ المعارِفِ وهو اسمُ اللَّه وتعالى في قوله تعالى : ﴿ تَنزيلُ الكتابِ منَ اللَّهِ العَزيزِ العليمِ * غافِرِ الذَّنبِ وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ ذي الطَّولِ لا إلَهَ إلّا هوَ إليهِ المَصيرُ ﴾ [غافر : ٢ - ٣] .

من أدلة القرآن عذاب القبر

وقوله تعالى : ﴿ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكاً ﴾ فسَّرها غيرُ واحدٍ من السَّلف بعذابِ القَبرِ، وجعلوا هذه الآيَةَ أحدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على عذابِ القَبرِ، ولهذا قال : ﴿ ونحشرُهُ يَومَ القِيامَةِ أعمى * قال ربِّ لـمَ حَشرتَني أعمى وقَد كُنتُ بَصيراً * قال كذلكَ أتَتكَ آياتُنا فَنَسيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] أي : تُترَكُ في العذابِ كما تَرَكتَ العملَ بآياتِنا، فذكرَ عذابَ البَرزَخِ وعذابَ دارِ البوارِ .

ونظيرُهُ قوله تعالى في حقِّ آل فِرعَون : ﴿ النَّار يُعرَضونَ عليها غُدوَّاً وعَشيّاً ﴾ [غافر : ٤٦]، فهذا في البرزَخ، ﴿ ويومَ تَقومُ السَّاعةُ أدخِلوا آلَ فِرعَونَ أشدَّ العذاب ﴾ [غافر : ٤٦]، فهذا في القيامَة الكُبرى .

ونظيرُهُ قوله تعالى : ﴿ وَلو تَرى إذ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ المَوتِ والملائكَةُ باسِطوا أيديهِم أخرِجوا أنفُسكُم اليومَ تُجزَونَ عَذابَ الهُونِ بما كُنتُم تقولون على اللَّهِ غَيرَ الحقِّ وكنتم عن آياتهِ تَستكبرون ﴾ [الأنعام : ٩٣]، فقولُ الملائكَة اليومَ تُجزَونَ عَذابَ الهونِ المُراد به عذابُ البَرزَخ الذي أوَّلُهُ يومُ القَبضِ والمَوتِ .

ونظيرةُ قولـه تعالى : ﴿ وَلو تَرى إذ يَتَوفَّى الَّذينَ كَفَروا الـملائكَة يَضرِبونَ وجوهَهُم وأدبارَهُم وذوقوا عَذابَ الـحريق ﴾ [الأنفال : ٥٠]، فهذه الإذاقَة هي في البَرزَخ، وأوَّلـها حينَ الوفاة، فإنَّهُ معطوفُ على قولـه : ﴿ يَضرِبونَ وجوهَهُم وأدبارَهُم ﴾ [الأنفال : ٥٠]، وهو من القولِ الـمحذوفِ مقولـه لدلالةِ الكلامِ عليه كنظائرِهِ، وكلاهما واقعٌ وقتَ الوفاة .

وفي « الصَّحيح »[1] عن البراء بن عازب رضيَ اللَّهُ عنهُ قولـه تعالى : ﴿ يُثبِّتُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا بالقَولِ الثَّابتِ في الـحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]، قال : نزلت في عذاب القبرِ .

والأحاديثُ في عذابِ القَبرِ تكادُ تبلُغُ حدَّ التَّواتُر .[2]

---

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٣٧٨ - فتح)، ومسلم (٢٨٧١) .

(٢) **وهو كما قال - رحمه اللَّه**؛ فقد صرَّح **بتواترها** جمع من أئمَّة الحديث يُؤمن تواطؤهم على الكذب منهم :

● **العيني** في « عمدة القاري » (٨ / ١٤٥) : « ولنا أيضاً أحاديث صحيحة وأخبار **متواترة** » .

● **ابن أبي العز الحنفي** في « شرح العقيدة الطحاوية » (ص ٣٩٩) : « وقد **تواترت** الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه - لمن كان لذلك أهلاً - وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوته لذلك والإيمان به، ولا تتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكون لا عهد له به في هذا الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول » .

● **الزَّبيدي** في « لقط اللآلئ المتناثرة » (ص ٢١٣) .

● **السيوطي** في « شرح الصدور » (ص ٤٩) : « فقد **تواترت** الأحاديث بذلك مؤكدة إلى ستة وعشرين نفساً من الصحابة » .

● **السفاريني** في « لوامع الأنوار البهية » (٢ / ١٣) نقلاً عن ابن رجب : =

والمقصودُ أنَّ اللَّه سبحانهُ أخبَرَ أنَّ من أعرَضَ عن ذكره وهو الهُدى الذي من اتَّبعهُ لا يَضلُّ ولا يَشقى، فإنَّ له معيشَةً ضَنكاً، وتكفَّلَ لمَن حفظ عَهدَهُ أن يُحيِيَهُ حياةً طيِّبةً ويجزيَهُ أجرَهُ في الآخِرَةِ، فقال تعالى : ﴿ مَن عَملَ صالحاً من ذَكرٍ أو أُنثى وهو مؤمنٌ فلنُحيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً ولنجزينَّهُم أجرَهُم بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلون ﴾ [النحل : ٩٧]، فأخبَرَ سبحانهُ عن فلاحِ من تمسَّكَ بعهدهِ علماً وعملاً وفي العاجلَةِ بالحياةِ الطيِّبَةِ وفي الآخرَةِ بأحسَنِ الجزاءِ وهذا بعكسِ من له المعيشَة الضَّنك في الدُّنيا والبَرزَخِ ونسيانهُ في العذابِ بالآخرَة، وقال سبحانه : ﴿ ومَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمن نُقَيِّض له

= الحنبلي « قال الحافظ ابن رجب وقد **تواترت** الأحاديث عن النَّبي ﷺ في عذاب القبر » .

● **القسطلاني** في « إرشاد الساري » (٢ / ٤٦٠) : « قد تظاهرت الدلائل من الكتاب والسُّنة على ثبوته وأجمع عليه أهل السُّنة، ولا مانع في العقل أن يعيد اللَّه الحياة في جزء من الجسد أو في جميعه على الخلاف المعروف؛ فيثيبه أو يعذبه، وإذا لم يمنع العقل ورود الشرع به وجب قبوله واعتقاده ... » .

ثمَّ نقل عن « مصابيح الجامع » : وقد كثرت الأحاديث في عذاب القبر حتى قال غير واحد : إنَّها **متواترة لا يصحُّ عليها التواطؤ، وإن لم يصح مثلها لم يصح شيء من أمر الدين** » .

● **شيخ الإسلام ابن تيمية** في « مجموع الفتاوى » (٤ / ١٨٥) : « فأمَّا أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير فكثيرة **متواترة** عن النَّبي ﷺ » .

● **الشوكاني** في « فتح القدير » (١ / ١٥٩) : « فقد **تواترت** به الأحاديث الصحيحة، ودلّت عليه الآيات القرآنية » .

● وقد صنَّف **البيهقي** كتابه « إثبات عذاب القبر »، وأخرج فيه أحاديث **تسعة وثلاثين صحابياً** .

شيطاناً فهو له قرين * وإنَّهم ليصدُّونهم عن السَّبيلِ ويحسبونَ أنَّهم مُهتَدون ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٧]، فأخبَرَ سبحانه أنَّ من ابتلاهُ بقرينه من الشياطين وضلاله به إنَّما كان بسبَبِ أعراضهِ وعَشوِه عن ذكرهِ الذي أنزلهُ على رسولهِ فكانَ عقوبَةَ هذا الإعراض أن قيَّضَ له شيطاناً يقارنهُ فيصُدَّهُ عن سبيلِ ربِّهِ وطريقِ فلاحهِ، وهو يحسبُ أنَّهُ مهتَدٍ حتى إذا وافى ربَّه يومَ القيامَة مع قرينهِ وعايَنَ هلاكَهُ وإفلاسَهُ قال : ﴿ يا لَيتَ بَيني وَبَينكَ بُعدَ المشرقَين فبئسَ القَرين ﴾ [الزخرف : ٣٨] .

وكلُّ من أعرَضَ عن الاهتداء بالوَحي الذي هو ذكرُ اللَّهِ فلا بدَّ أن يقولَ هذا يومَ القيامَة .

فإن قيلَ : فهل لهذا عذرٌ في ضلاله إذا كان يحسبُ أنَّهُ على هُدىً كما قال تعالى : ﴿ وَيَحسَبونَ أنَّهُم مُهتَدون ﴾ [الزخرف : ٣٧] ؟

قيل : لا عذرَ لهذا وأمثاله من الضُّلالِ الذين منشأُ ضلالهم الإعراضُ عن الوَحي الذي جاءَ به الرَّسول ﷺ، ولو ظنَّ أنَّه مهتَدٍ، فإنَّه مفرطٌ بإعراضهِ عن اتِّباعِ داعي الهدى، فإذا ضلَّ فإنَّما أُتيَ من تَفريطهِ وإعراضهِ، وهذا بخلافِ من كان ضلالهُ لعدَم بلوغ الرِّسالَة وعجزهِ عن الوصول إليها، فذاك له حكمٌ آخر، والوَعيدُ في القرآن إنَّما يتناول الأوَّل، وأمَّا الثَّاني فإنَّ اللَّه لا يُعذِّبُ أحداً إلّا بَعدَ إقامَة الحجَّة عليه كما قال تعالى : ﴿ وما كُنَّا معذِّبين حتى نَبعثَ رَسولاً ﴾ [الإسراء : ١٥]، وقال تعالى : ﴿ رُسلاً مبشرين ومنذرين لئلّا يكونَ للنَّاسِ على اللَّهِ حجَّةٌ بعدَ الرُّسل ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى في أهلِ النَّار : ﴿ وما ظلمناهُم ولكن كانوا هم الظَّالمين ﴾

[الزخرف : ٧٦]، وقال تعالى : ﴿ أن تَقولَ نَفسٌ يا حَسرَتى على ما فرَّطتُ في جنبِ اللَّهِ وإن كنتُ لمِنَ السَّاخرين * أو تقول لو أنَّ اللَّهُ هداني لكُنتُ من المتَّقين * أو تقول حينَ تَرى العذابَ لو أنَّ لي كرَّةً فأكونُ من المحسنين * بلى قد جاءتكَ آياتي فكذَّبتَ بها واستَكبَرتَ وكنتَ من الكافرين ﴾ [الزمر : ٥٦ - ٥٩] .

وهذا كثير في القرآن .

ما هو العمى ؟

وقال تعالى : ﴿ ونَحشرُهُ يومَ القِيامَةِ أعمى * قالَ ربِّ لـمَ حَشرتَني أعمى وقَد كُنتُ بَصيراً ﴾ [طه ١٢٤ - ١٢٥]، اختُلفَ فيه هل هو من عمى البصيرَة أو من عمى البَصَر ؟

والصَّوابُ أنَّهُ عمى البَصرِ، فإنَّ الكافرَ يعلـم الـحقَّ يومَ القيامَةِ عياناً، ويقرُّ بما كان يجحده في الدُّنيا، فليسَ هو أعمى عن الـحقِّ يومئذٍ .

وفصلُ الـخطابِ : أنَّ الـحشرَ هو الضَّمُّ والـجمعُ، ويرادُ به تارَةً الـحشرُ إلى موقفِ القيامَةِ؛ كقولِ النَّبي ﷺ : « إنَّكُم محشورونَ إلى اللَّهِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً »[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوشُ حُشِرَت ﴾ [التكوير : ٥]، وكقوله تعالى : ﴿ وحَشرناهُم فلم نُغادِر منهم أحداً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

ويرادُ به الضَّمُّ والـجمعُ إلى دارِ المستَقرِّ، فحشرُ الـمتَّقين جمعهم وضمّهُم إلى الـجنَّةِ، وحشرُ الكافرين جمعهم وضمّهُم إلى النَّار .

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٣٨٦ - ٣٨٧ - فتح)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

قال تعالى : ﴿ يومَ نحشرُ المُتَّقينَ إلى الرَّحمنِ وَفداً ﴾ [مريم : ٨٥]، وقال تعالى : ﴿ احشروا الذينَ ظلموا وأزواجهم وما كانوا يَعبُدونَ من دونِ اللَّه فاهدوهُم إلى صراطِ الجَحيم ﴾ [الصافات : ٢٢] .

فهذا الحشرُ هو بعدُ حشرِهم إلى الموقِفِ، وهو حشرُهم وضمُّهم إلى النَّارِ؛ لأَنَّهُ قَد أخبَرَ عنهم أنَّهم : ﴿ قالوا يا وَيلَنا هذا يومُ الدِّين * هذا يومُ الفَصلِ الذي كنتم به تُكذِّبونَ ﴾ [الصافات : ٢٠ - ٢١]، ثم قال تعالى : ﴿ احشروا الَّذينَ ظَلَموا وأزواجَهُم ﴾ [الصافات : ٢٢] وهذا الحشرُ الثَّاني، وعلى هذا فهم ما بينَ الحشرِ الأوَّلِ من القبورِ إلى الموقف، والحشرُ الثَّاني من الموقفِ إلى النَّارِ، فعندَ الحشرِ الأوَّلِ يسمعونَ ويُبصرونَ ويجادلونَ ويتكلَّمونَ، وعندَ الحشرِ الثَّاني يحشرونَ على وجوهِهم عمياً وبُكماً وصمَّاً، فلكلِّ موقفٍ حالٌ يليقُ به ويَقتَضيهِ عدلُ الرَّبِّ تعالى وحكمتهُ، فالقرآنُ يصدقُ بعضهُ بَعضاً : ﴿ ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللَّهِ لوجَدوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : ٨٢] .

العلم والإرادة قطبا السعادة

والمَقصودُ : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى لما اقتَضَت حكمَتُهُ ورحمتُهُ إخراجَ آدمَ وذريَّتهُ من الجنَّةِ أعاضَهُم أفضلَ منها، وهو ما أعطاهُم من عَهدِهِ الذي جعلهُ سبباً موصلاً لهم إليه، وطريقاً واضحاً بيِّنَ الدَّلالة عليه، من تمسَّكَ به فازَ واهتَدى، ومَن أعرَضَ عنهُ شقيَ وغَوى .

ولما كان هذا العَهدُ الكريمُ والصِّراطُ المُستقيمُ والنَّبأُ العظيمُ لا يوصلُ إليه أبداً إلّا مِن بابِ العلمِ والإرادَةِ، فالإرادَةُ بابُ الوصولِ إليه، والعلمُ مفتاحُ ذلك الباب المتوقِّفُ فتحُهُ عليه، وكمالُ كلِّ أنسانٍ إنَّما يتمُّ بهذين النَّوعين همَّة ترقيهِ، وعلم يبصرهُ ويَهديهِ، فإنَّ مراتبَ السَّعادَةِ والفَلاحِ إنَّما تفوتُ العَبدَ من هاتَين الجهتَين، أو من إحداهُما ؛ إمَّا أن لا يكونُ له علمٌ فلا يتحرَّكُ في طلبها، أو يكونَ عالماً بها ولا تنهَضُ همَّتهُ إليها، فلا يَزالُ في حضيضِ طبعهِ محبوساً، وقلبهُ عن كمالِهِ الذي خُلقَ له مصدوداً منكوساً، قد أسامَ نفسهُ مع الأنعامِ راعياً مع الهَملِ، واستطابَ لقيعانِ الرَّاحَةِ والبطالَةِ، واستلانَ فراشَ العجزِ والكَسلِ، لا كَمَن رُفعَ له علمٌ فشمَّرَ إليه وبوركَ له في تفرُّدهِ في طريقِ طلبهِ فلزمه واستقامَ عليه، قَد أَبَت غلباتُ شوقِهِ إلّا الهجرَةَ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومَقَتَت

نفسهُ الرفقاءَ إلّا ابنَ سبيلٍ يرافقهُ في سبيلهِ .

ولما كانَ كمالُ الإرادَةِ بحسبِ كمالِ مُرادها، وشرفُ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومهِ كانت نهايَةُ سعادَةِ العَبدِ الذي لا سعادَةَ له بدونها ولا حياةَ له إلّا بها أن تكونَ إرادتُهُ متعلِّقَةً بالمرادِ الذي لا يَبلى ولا يَفوتُ، وعزماتُ همَّتهِ مُسافرَةً إلى حضرَةِ الحيِّ الذي لا يموتُ، ولا سبيلَ له إلى هذا المطلبِ الأسنى والحظِّ الأوفى إلّا بالعلمِ الموروثِ عن عبدهِ ورسولهِ وخليلهِ وحبيبهِ الذي بعثَهُ لذلكَ داعياً، واقامَهُ على هذا الطَّريقِ هادياً، وجَعلهُ واسطةً بينهُ وبينَ الأنامِ، وداعياً لهم بإذنهِ إلى دارِ السَّلامِ، وأبى سبحانهُ أن يفتحَ لأحدٍ منهم إلّا على يديهِ، أو يقبلَ من أحدٍ منهم سعياً إلّا أن يكونَ مبتدأً منه ومنتهياً إليه، فالطُّرقُ كلُّها إلّا طَريقَهُ ﷺ مسدودةٌ، والقلوبُ بأسرِها إلّا قلوبُ أتباعهِ المنقادَةِ إليه عن اللّهِ محبوسةٌ مصدودةٌ، فحقٌّ على من كانَ في سعادَةِ نفسهِ ساعياً، وكان قلبهُ حيّاً عن اللّهِ واعياً، أن يجعلَ على هذين الأصلينِ مدارَ أقوالهِ وأعمالهِ، وأن يصيرها أخبيتَهُ التي إليها مفزعهُ في حياتهِ وطاءً له، فلا جرمَ كان وضعُ هذا الكتابِ مؤسَّساً على هاتينِ القاعدَتين، ومقصودُهُ التَّعريفُ بشرفِ هذين الأصلين، وسمَّيتُهُ : « **مفتاحُ دارِ السَّعادَةِ ومنشورُ ولايَةِ أهلِ العلمِ والإرادَةِ** »، إذا كانَ هذا من بعضِ النُّزُلِ والتُّحفِ التي فتحَ اللّهُ بها على حينِ انقطاعي إليه عندَ بيتهِ، وإلقائي نفسي ببابهِ مسكيناً ذليلاً، وتعرُّضي لنفحاتهِ في بيتهِ وحولهِ بكرَةً وأصيلاً، فما خابَ من أنزلَ به حوائجَهُ، وعلَّقَ به آمالَهُ، وأصبحَ ببابهِ مقيماً وبحماهُ نزيلاً، ولما كان العلمُ إمامَ الإرادَةِ ومقدماً عليها ومفصلاً لها ومرشداً لها قدَّمنا الكلامَ عليه على الكلامِ على

المحبَّةِ .

ثمَّ نُتْبِعُهُ - إن شاءَ اللَّهُ - بعدَ الفراغِ منه كتاباً في الكلامِ على المحبَّةِ وأقسامها، وأحكامها، وفوائدها، وثمراتها، وأسبابها، وموانعها، وما يقوِّيها، وما يضعِّفها، والاستدلالُ بسائرِ طرقِ الأدلَّةِ من النَّقلِ، والعقلِ، والفطرَةِ، والقياسِ، والاعتبارِ، والذَّوقِ، والوجدِ على تعلُّقها بالإله الحقِّ الذي لا إلهَ غيرهُ بل لا يَنبَغي أن تكونَ إلّا له ومن أجلهِ، والرَّدُّ على مَن أنكَرَ ذلك، وتبيينُ فسادِ قولهِ عقلاً ونقلاً وفطرَةً وقياساً وذوقاً ووجداً، فهذا مضمونُ هذه التُّحفَة، وهذه عرائسُ معانيها الآن تجلَّى عليكَ وَخَوْد أبكارها البَديعَةُ الجمالِ ترفلُ في حُللها وهي تزفُّ إليكَ، فأمَّا شمسٌ منازلُها بسعدِ الأسعَدِ، وإمَّا خودٌ تزفُّ إلى ضرير مقعَدٍ، فاختَر لنفسِكَ إحدى الخُطَّتين وأنزلها فيما شئتَ من المنزلتين، ولا بدَّ لكلِّ نعمَةٍ من حاسدٍ، ولكلِّ حقٍّ من جاحدٍ ومعاندٍ، هذا وأنَّما أودعَ من المعاني والنَّفائس رَهنٌ عند متأمِّلهِ، ومطالعهِ له غنمه وعلى مؤلِّفهِ غرمُهُ، وله ثمرتُهُ ومنفعتُهُ ولصاحبهِ كلُّهُ ومشقَّتُهُ مع تعرُّضهِ لطَعنِ الطَّاعنين ولاعتراضِ المناقشين، وهذه بضاعتهُ المزجاةُ وعقلُهُ المكدودُ يُعرضُ على عقولِ العالمينَ، وإلقائهِ نفسِه وعرضهِ بين مخالبِ الحاسدين وأنيابِ البُغاةِ المُعتدين، فلكَ أيُّها القاريءُ صَفوُهُ ولمؤلِّفهِ كدرُهُ، وهو الذي تجشَّمَ غراسهُ وتعبهُ، ولك ثمرُهُ وها هو قد استَهدَفَ لسهام الرَّاشقين، واستعذرَ إلى اللَّهِ من الزَّللِ والخطأ ثمَّ إلى عبادهِ المؤمنين .

اللهمَّ فعياذاً ممَّن قصَّرَ في العلمِ والدِّينِ باعُهُ، وطالت في الجَهلِ وآذى عبادكَ ذراعُهُ، فهو لجهلهِ يرى الإحسانَ إساءَةً، والسنَّةَ بدعَةً، والعُرفُ نُكراً،

ولظلمهِ يجزي بالحسنةِ سيِّئةً كاملةً، وبالسَّيِّئةِ الواحدَةِ عشراً، قد اتَّخَذَ بطرَ الحقِّ وغمطَ النَّاسِ سلَّماً إلى ما يحبُّهُ من الباطلِ ويَرضاهُ، ولا يَعرفُ من المَعروفِ ولا يُنكرُ من المُنكرِ إلّا ما وافقَ إرادتهُ أو حالفَ هواهُ، يَستطيلُ على أولياءِ الرَّسول وحزبهِ بأصغَريهِ، ويجالسُ أهلَ الغَيِّ والجهالةِ ويزاحمهم بركبتيهِ، قد ارتَوى من ماءٍ آجنٍ[1] وتضلَّعَ، واستشرفَ إلى مراتبِ ورثةِ الأنبياء وتطلَّعَ، يركُضُ في ميدانِ جهلهِ مع الجاهلين، ويبرزُ عليهم في الجهالةِ فيظنُّ أنَّهُ من السَّابقين، وهو عندَ اللَّهِ ورسولهِ والمؤمنين عن تلكَ الوراثَةِ النَّبويَّةِ بمعزلٍ، وإذا أُنزِلَ الوَرَثةُ منازلَهم منها فمنزلتُهُ منها أقصى وأبعَدُ منزلٍ .

نَزَلوا بِمَكَّةَ في قبائلِ هاشمٍ
وَنَزَلْتَ بالبَيداءِ أبعَدَ مَنزِلِ

وعياذاً بكَ مِمَّن جعلَ الملامَةَ بضاعتَهُ، والعَذلَ نصيحتَهُ، فهو دائماً يُبدي في الملامَةِ ويعيد، ويكرِّر على العذلِ فلا يفيد ولا يَستفيد .

بل عياذاً بك من عدوٍّ في صورَةِ ناصحٍ، وولي في مسلاخٍ[2] بعيد كاشحٍ[3]؛ يجعلُ عداوتَهُ وأذاهُ حذراً وإشفاقاً، وتنفيرَهُ وتخذيلَهُ إسعافاً وإرفاقاً، وإذا كانت العَينُ لا تكادُ إلّا على هؤلاءِ تُفْتَحُ، والميزانُ بهم يخفُّ ولا يرجحُ، فما أحرى اللَّبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءً من الالتفاتِ، ويسافر في طريقِ مقصَدهِ بينهم سفرهُ إلى الأحياءِ بينَ الأمواتِ، وما أحسَنَ ما قالَ القائلُ :

---

(١) هو الماء المتغير الطعم واللَّون .
(٢) هو الجلد .
(٣) هو المتولي عنك بودِّه .

وفي الجَهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلهِ
وأجسامُهُم قبلَ القبورِ قبور

وأرواحُهُم في وحشَةٍ من جسومهم
وليسَ لهُم حتى النُّشورَ نشور

اللهمَّ فلكَ الحمدُ، وإليكَ المُشتكى، وأنتَ المُستعانُ، وبكَ المُستغاثُ، وعليكَ التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا بكَ، وأنت حسبُنا ونعمَ الوَكيل؛ فلنشرع الآن في المقصود بحولِ اللَّهِ وقوَّتهِ فنقول :

العِلْمُ

فَضْلُه وشَرَفُه وبيانُ عُموم الحاجَةِ إِليه وتوقُّف كمالِ العبدِ ونجاتِه في مَعاشِه ومَعادِه عليه

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائماً بالقِسطِ لا إلهَ إلّا هوَ العَزيزُ الحَكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] .

استشهدَ سبحانهُ بأُولي العلم على أجلِّ مشهودٍ عليه، وهو تَوحيدُهُ فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولوا العِلمِ قائماً بالقِسطِ ﴾، وهذا يدُلُّ على فَضلِ العلمِ وأهلهِ من وجوه :

أحدها : استشهادُهُم دونَ غَيرهم من البَشرِ .

والثَّاني : اقترانُ شهادتِهم بشهادتهِ .

والثَّالث : اقترانُها بشهادَةِ ملائكتِهِ .

والرَّابع : أنَّ في ضمنِ هذا تَزكيتَهُم وتَعديلَهُم؛ فإنَّ اللَّهَ لا يَستَشهدُ من خلقهِ إلّا العُدولَ، ومنه الأثَرُ المَعروف عن النَّبيِّ ﷺ : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ، يَنفونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ، وانتِحالَ المُبطلين، وتأويلَ الجاهلين » .[1]

وسيأتي - إن شاءَ اللَّهُ - الكلامُ على هذا الحديث في موضعهِ .[2]

الخامس : أنَّهُ وصفهُم بكونهم أُولي العلم، وهذا يدلُّ على اختصاصهم به، وأنَّهم أهلُهُ وأصحابُهُ ليسَ بمستعارٍ لهم .

السَّادس : أنَّهُ سبحانهُ استشهدَ بنفسه وهو أجلُّ شاهدٍ، ثمَّ بخيارِ خلقهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ من عبادِهِ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السَّابع : أنَّهُ استَشهَدَ بهم على أجلِّ مشهودٍ به وأعظمِهِ وأكبرِهِ وهو : شهادَةُ أن لا إلهَ إلّا اللَّهُ، والعظيمُ القدرِ إنَّما يَستَشهدُ على الأمرِ العَظيمِ أكابرَ الخَلقِ وساداتهُم .

الثَّامن : أنَّهُ سبحانَهُ جعلَ شهادتَهُم حُجَّةً على المنكرينَ؛ فهُم بمنزلةِ أدلَّتهِ وآياتهِ وبراهينهِ الدَّالَّةِ على توحيدِهِ .

التَّاسع : أنَّهُ سبحانَهُ أفرَدَ الفعلَ المُتضمِّنَ لهذه الشهادَةِ الصَّادرَةِ منه ومن ملائكتهِ ومنهم، ولم يعطف شهادتَهم بفعلٍ آخرَ غَيرَ شهادتهِ، وهذا يدلُّ

---

(١) **حسن بشواهده**، وقد جمعت طرقه وشواهده في جزء مفرد، وبسطت القول فيه رواية ودراية ورعاية، يسَّر اللَّه نشره بمنِّه وكرمه .

(٢) انظر (ص ٢٧٠) من هذا « المنتقى » .

على شدَّةِ ارتِباطِ شهادتِهم بشهادتِه، فكأنَّهُ سبحانهُ شَهِدَ لنفسِهِ بالتَّوحيدِ على ألسنتِهم، وأنطَقهُم بهذه الشهادَةِ، فكانَ هو الشاهدُ بها لنفسِهِ إقامةً وإنطاقاً وتعليماً، وهم الشاهدونَ بها له إقراراً واعترافاً وتَصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنَّهُ سبحانه جعلَهُم مؤدِّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهذِهِ الشهادَةِ، فإذا أدُّوها فَقد أدُّوا الحقَّ المشهودَ به، فثبتَ الحقُّ المشهودُ به، فوجَبَ على الخلقِ الإقرارَ به، وكان ذلك غايَةَ سعادتِهم في معاشِهم ومعادِهم، وكلُّ من نالهُ الهُدى بشهادتِهم وأقرَّ بهذا الحقِّ بسببِ شهادتِهم فلَهُم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ، وهذا فَضلٌ عظيمٌ لا يَدري قَدْرَهُ إلّا اللَّهُ، وكذلكَ كلُّ من شهِدَ بها عَن شهادتِهم فلهُم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ أيضاً .

فهذه عشَرَةُ أوجهٍ في هذه الآيةِ .

الحادي عَشر : في تَفضيلِ العلم وأهلِهِ أنَّهُ سبحانهُ نَفى التَّسويَة بين أهلِهِ وبينَ غيرهم كما نَفى التَّسويَةَ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابَ النَّار، فقال تعالى : ﴿ قُل هَل يَستَوي الَّذينَ يَعلَمونَ والَّذينَ لا يَعلَمون ﴾ [الزمر : ٩]، كما قال تعالى : ﴿ لا يَستَوي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّة ﴾ [الحشر : ٢٠] .

وهذا يدلُّ على غايَةِ فضلِهم وشرَفِهم .

الثَّاني عَشر : أنَّهُ سبحانهُ جعلَ أهلَ الجَهْلِ بمنزلةِ العُميان الذين لا يُبصِرون، فقال : ﴿ أَفَمَن يَعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ الحقُّ كَمَن هو أعمى ﴾ [الرعد : ١٩]، فما ثَمَّ إلّا عالمٌ أو أعمى، وقَد وصفَ سبحانهُ أهلَ

الجهلِ بأنَّهُم صمٌّ بكمٌ عُميٌ في غيرِ موضع من كتابهِ .

الثَّالث عَشر : أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن أُولي العلم بأنَّهُم يَرَونَ أنَّ ما أُنزِلَ إليه من ربِّهِ هو الحقُّ، وجعلَ هذا ثناءً عليهم واستشهاداً بهم، فقال تعالى : ﴿ وَيَرى الَّذينَ أُوتو العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ هو الحقُّ ﴾ [سبأ : ٦] .

الرَّابع عَشر : أنَّهُ سبحانهُ أمَرَ بسؤالِهم والرُّجوعِ إلى أقوالهم، وجعَلَ ذلكَ كالشهادَةِ منهم، فقال : ﴿ وما أرسَلنا قَبلَكَ إلّا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهلَ الذِّكرِ إن كُنتُم لا تَعلَمون ﴾ [النحل : ٤٣]، وأهلُ الذِّكرِ هم أهلُ العلمِ بما أُنْزِلَ على الأنبياءِ .

الخامس عَشر : أنَّهُ سبحانهُ شهِدَ لأهلِ العلم شهادَةً في ضمنها الاستشهادُ بهم على صحَّةِ ما أنزلَ اللَّهُ على رسوله، فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيرَ اللَّهِ أبتَغي حكماً وهو الَّذي أنزَلَ إليكُم الكتابَ مُفصَّلاً والَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعلَمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ من ربِّكَ بالحقِّ فلا تكونَنَّ من المُمتَرين ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

السَّادس عَشر : أنَّهُ سبحانهُ سلَّى نبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العلمِ به، وأمرَهُ أن لا يَعبأَ بالجاهلين شيئاً، فقال تعالى : ﴿ وقُرآناً فَرَقناهُ لتَقرَأَهُ على النَّاسِ عَلى مُكثٍ ونَزَّلناهُ تنزيلاً * قُل آمِنوا به أو لا تُؤمِنوا إنَّ الَّذينَ أُوتوا العلمَ من قَبلِهِ إذا يُتلى عَليهم يَخرُّونَ إلى الأذقانِ سُجَّداً * ويَقولونَ سُبحانَ ربِّنا إن كانَ وَعدُ ربِّنا لمَفعولاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦ - ١٠٨] .

وهذا شرَفٌ عظيمٌ لأهلِ العلمِ، وتحته أنَّ أهلَهُ العالمونَ قد عَرفوهُ وآمَنوا

به وصدَّقوا، فسَواءٌ آمَنَ به غيرَهُم أو لا .

السَّابع عَشر : أنَّهُ سبحانهُ مَدَحَ أهلَ العلمِ وأثنى عليهم وشرَّفهُم بأن جعلَ كتابَهُ آياتٍ بيِّناتٍ في صدورِهم، وهذه خاصَّةٌ ومنقبةٌ لهم دونَ غيرهِم، فقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلنا إليكَ الكتابَ فالَّذينَ آتَيناهُم الكتابَ يؤمنونَ بهِ ومن هؤلاء من يؤمنُ بهِ وما يجحَدُ بآياتِنا إلّا الكَافِرون * وما كنتَ تَتلو من قَبلِهِ من كتابٍ ولا تخطُّهُ بيمينِكَ إذاً لارتابَ المُبطِلون * بَل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِ الَّذينَ أُوتوا العلمَ وما يجحَدُ بآياتِنا إلّا الظَّالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٧ - ٤٩] .

وسواءٌ كان المعنى أنَّ القرآن مستقرٌ في صدورِ الذين أُوتوا العلمَ، ثابتٌ فيها محفوظٌ، وهو في نفسهِ آياتٌ بيِّناتٌ فيكونَ أخبرَ عنه بخَبَرَين :

* **أحدهما** : أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ .

* **الثَّاني** : أنَّهُ محفوظٌ مستقرٌ ثابتٌ في صدورِ الذين أُوتوا العلمَ .

أو كان المعنى أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهِم، أي : هو آياتٌ بيِّناتٌ معلومٌ لهم ثابتٌ في صدورهم .

والقولان متلازمان ليسا بمختلفين .

وعلى التَّقديرين؛ فهو مدحٌ لهم وثناءٌ عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم، فتأمَّله .

الثَّامن عَشر : أنَّهُ سبحانهُ أمَرَ نبيَّه أن يسألهُ مَزيدَ العلمِ، فقال تعالى : ﴿ فتَعالى اللَّهُ المَلكُ الحقُّ ولا تَعجَل بالقُرآنِ من قَبلِ أن يُقضى إليك وَحيُهُ

وقُل ربِّ زدني علماً ﴾ [طه : ١١٤] .

وكفى بهذا شرفاً للعلمِ أن أمَرَ نبيَّهُ أن يسألهُ المزيد منه .

التَّاسع عشر : أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن رِفعَةِ درجاتِ أهلِ العلم والإيمان خاصَّةً، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا قيلَ لكُم تَفَسَّحوا في المجالسِ فافسَحوا يَفسَحِ اللَّهُ لكُم وإذا قيلَ انشُزوا فانشزوا يَرفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمنوا منكُم والَّذين أُوتوا العلمَ درجاتٌ واللَّهُ بما تعمَلونَ خَبيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقد أخبَرَ سبحانهُ في كتابهِ برَفعِ الدَّرجاتِ في أربعَةِ مواضع :

○ **أحدها** : هذا .

○ **والثَّاني** : قوله : ﴿ إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ إذا ذُكرَ اللَّهُ وجِلَت قلوبهم وإذا تُليَت عليهم آياتُهُ زَادَتهُم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكَّلون * الَّذين يُقيمون الصَّلاةَ وممَّا رزقناهُم يُنفقون * أولئكَ هم المؤمنون حقّاً لهم درجاتٌ عندَ ربِّهم ومَغفِرَةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

○ **والثَّالث** : قوله تعالى : ﴿ ومَن يأتِهِ مُؤمناً قد عَمِلَ الصَّالحاتِ فأُولئكَ لهم الدَّرجاتُ العُلى ﴾ [طه : ٧٥] .

○ **والرَّابع** : قوله تعالى : ﴿ وفضَّلَ اللَّهُ المُجاهدينَ على القاعدينَ أجراً عَظيماً * درجاتٌ منهُ ومغفِرَةٌ ورحمةٌ ﴾ [النساء : ٩٥ - ٩٦] .

فهذه أربعةُ مواضع في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدَّرجاتِ لأهلِ الإيمان الذي هو العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، والرَّابعُ الرِّفعَةُ بالجهادِ، فعادَت رِفعَةُ الدَّرجاتِ كلّها إلى العلمِ والجهادِ اللَّذينِ بهما قوامُ الدِّين .

العشرون : أنَّهُ سبحانهُ استشهَدَ بأهلِ العلم والإيمانِ يومَ القيامَةِ على بُطلانِ قولِ الكُفَّار، فقال تعالى : ﴿ وَيَومَ تَقومُ السَّاعةُ يُقسِمُ المُجرِمونَ ما لَبِثوا غَيرَ ساعَةٍ كذلكَ كانوا يؤفكون وقالَ الَّذينَ أُوتوا العلمَ والإيمانَ لقَد لَبِثتم في كتابِ اللَّهِ إلى يومِ البَعث فهذا يومُ البَعثِ ولكنَّكُم كنتُم لا تَعلمون ﴾ [الروم : ٥٥ - ٥٦] .

الحادي والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ أنَّهُم أهلُ خَشيَتِهِ بل خَصَّهُم من بينِ النَّاسِ بذلك، فقال تعالى : ﴿ إنَّما يَخشى اللَّهَ من عبادِهِ العلماءُ إنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨]، وهذا حَصرٌ لخشيتهِ في أُولي العلم، وقال تعالى : ﴿ جزاؤهُم عندَ ربِّهم جنَّاتُ عَدنٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً رضيَ اللَّهُ عنهُم ورَضوا عنهُ ذلكَ لمَن خَشيَ ربَّهُ ﴾ [البيِّنة : ٨]، أخبَرَ أنَّ أهلَ خشيتهِ هم العلماء فَدلَّ على أنَّ هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النَّصَّين .

الثَّاني والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن أمثالِهِ التي يَضربُها لعبادِهِ يدلُّهم على صحَّةِ ما أخبَرَ به أنَّ أهلَ العلمِ هم المُنتفعون بها المُختصُّونَ بعلمها، فقال تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ وما يَعقِلُها إلّا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وفي القرآن بضعَةٌ وأربَعونَ مثلاً، وكان بَعضُ السَّلفِ إذا مرَّ بمَثَلٍ لا يَفهمُهُ يبكي ويقول : لستُ من العالمين .

الثَّالث والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ ذكرَ مناظرةَ إبراهيم لأبيهِ وقومهِ وغَلَبتَهُ لهم بالحُجَّةِ، وأخبَرَ عن تَفضيلهِ بذلك ورَفعِهِ دَرَجته بعلمِ الحُجَّةِ، فقال

تعالى - عُقَيبَ مناظرَتِهِ لأبيهِ وقومِهِ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نَرفَعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

الرَّابع والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُ خَلَقَ ووضَعَ بيتَهُ الحرامَ والشهرَ الحرامَ والهَديَ والقلائدَ؛ ليعلِمَ عبادَهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليم، وعلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلَهُنَّ يَتنزَّلُ الأمرُ بينهُنَّ لتَعلَموا أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ اللَّهَ قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً ﴾ [الطلاق : ١٢]؛ فدلَّ على أنَّ علمَ العباد بربِّهم وصفاتِهِ وعبادتهِ وحدَهُ هو الغايَةُ المَطلوبَةُ من الخَلقِ والأمرِ .

الخامس والعشرون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أمَرَ أهلَ العلمِ بالفَرَحِ بما آتاهُم، وأخبَرَ أنَّهُ خيرٌ مما يَجمعُ النَّاسُ، فقال تعالى : ﴿ قُل بِفَضلِ اللَّهِ وبرَحمَتِهِ فبذلكَ فَليَفرَحوا هو خَيرٌ ممَّا يَجمعون ﴾ [يونس : ٥٨] .

وفُسِّرَ فضلُ اللَّهِ بالإيمانِ، ورحمتُه بالقرآنُ، والإيمانُ والقرآنُ هما العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، والهُدى ودينُ الحقِّ، وهما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عملٍ .

السَّادس والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ شهِدَ لمَن آتاهُ العلمَ بأنَّهُ قَد آتاهُ خَيراً كثيراً، فقال تعالى : ﴿ يؤتي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتيَ خَيراً كثيراً ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

قال ابنُ قُتَيبَة والجمهور : الحِكمَةُ إصابَةُ الحقِّ والعملُ به، وهيَ العلمُ النّافعُ والعَملُ الصَّالحُ .

السَّابع والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ عَدَّدَ نِعَمَهُ وفَضلَهُ على رسولهِ، وجَعَلَ

من أجلِّها أن آتاهُ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمهُ ما لم يكُن يَعلَم، فقال تعالى : ﴿ وأنزلَ اللَّهُ عليكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تكُن تَعلَم وكانَ فَضلُ اللَّهِ عَلَيكَ عَظيماً ﴾ [النساء : ١١٣] .

الثَّامن والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ ذكَّرَ عبادَهُ المؤمنينَ بهذه النِّعمَةِ، وأمَرَهُم بشُكرها، وأن يذكروهُ على إسدائها إليهم، فقال تعالى : ﴿ كما أرسَلنا فيكُم رَسولاً مِنكُم يَتلو عَلَيكُم آياتِنا ويُزَكِّيكُم ويُعلِّمُكُم الكتابَ والحِكمَةَ ويعلِّمُكُم ما لَم تَكونوا تَعلمون * فاذكُروني أذكُركُم واشكُروا لي ولا تَكفُرون ﴾ [البقرَة : ١٥١ - ١٥٢] .

التَّاسع والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ لمَّا أخبَرَ ملائكتَهُ بأنَّهُ يريدُ أن يجعَلَ في الأرضِ خَليفَةً قالوا لهُ : ﴿ أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونَحنُ نُسبِّحُ بحَمدِكَ ونقدِّسُ لكَ قال إنِّي أعلمُ ما لا تَعلَمون * وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثمَّ عَرَضَهُم عَلى الملائكَةِ فقال أنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كُنتُم صادِقين * قالوا سُبحانَكَ لا علمَ لنا إلّا ما عَلَّمتنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحَكيم ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٢]، وأمرَ الملائكَةَ بالسُّجودِ لآدمَ فأبى إبليسُ فلَعَنهُ وأخرَجَهُ من السَّماء .

وبيانُ فضلِ العلمِ من هذه القصّةِ من وجوه :

• **أحدها** : أنَّهُ سبحانهُ ردَّ على الملائكَةِ لما سألوا كيفَ يجعَلُ في الأرضِ من هم أطوَعُ له منه، فقال : ﴿ إنِّي أعلمُ ما لا تَعلَمون ﴾ فأجابَ سؤالَهم بأنَّهُ يعلمُ من بواطنِ الأمور وحقائقها ما لا يعلمونهُ، وهو العليمُ

الحكيمُ، فظَهَرَ من هذا الخليفَة من خيارِ خَلقِهِ ورُسلِهِ وأنبيائِهِ وصالحي عبادِهِ والشهداء والصِّدِّيقين والعلماءِ وطبقاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ مَن هو خَيرٌ من الملائكَةِ، وظَهَرَ من إبليسَ من هو شرُّ العالمين، فأخرَجَ سبحانهُ هذا وهذا، والملائكَةُ لم يكُن لها علمٌ لا بهذا ولا بهذا، ولا بما في خَلقِ آدمَ وإسكانهِ الأرضَ من الحِكَمِ الباهرَةِ .

• **الثَّاني** : أنَّهُ سبحانهُ لمَّا أرادَ إظهارَ تفضيل آدمَ وتَمييزِهِ فَضَّلَهُ وميَّزَهُ عليهم بالعلمِ، فعلَّمَهُ الأسماء كلَّها، ثمَّ عَرَضَهُم على الملائكَةِ، فقال : ﴿ أنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كُنتُم صادقين ﴾ [البقرة : ٣١] .

جاءَ في التَّفسير : أنَّهُم قالوا : لَن يخلُقَ ربُّنا خَلقاً هو أكرَمُ عليهِ منَّا، فَظنُّوا أنَّهُم خيرٌ وأفضلُ من الخليفَةِ الذي يجعلهُ اللَّهُ في الأرضِ، فلمَّا امتحنَهُم بعلمِ ما علَّمهُ لهذا الخليفَة أقرُّوا بالعجزِ وجَهلِ ما لم يَعلَموهُ، فقالوا : ﴿ سُبحانَكَ لا علمَ لنا إلّا ما عَلَّمتنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢]، فحينئذٍ أظهَرَ لهُم فَضلَ آدَمَ بما خصَّهُ من العلمِ فقال : ﴿ يا آدمُ أنبئهُم بأسمائِهِم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم ﴾ [البقرة : ٣٣]، أقرُّوا له بالفَضلِ .

• **الثَّالث** : أنَّهُ سبحانهُ لما عرَّفهُم فَضلَ آدمَ بالعلمِ وعجزهم عن معرفَةِ ما علَّمَهُ قال لهم : ﴿ ألَم أقُل لكُم إنِّي أعلمُ غَيبَ السَّماواتِ والأرضِ وأعلمُ ما تُبدونَ وما كنتُم تَكتُمون ﴾ [البقرة : ٣٣]، فعرَّفهم سبحانهُ نفسه بالعلمِ، وأنَّهُ أحاطَ علماً بظاهرهم وباطنِهم وبغيبِ السَّماواتِ والأرضِ، فتعرَّفَ إليهم بصفَة العلم، وعرَّفهُم فضلَ نبيِّه وكليمِهِ بالعلمِ وعجزهم عمَّا آتاهُ آدمَ من

العلمِ، وكفى بهذا شرفاً للعلم .

● **الرَّابع** : أنَّهُ سبحانهُ جَعَلَ في آدمَ من صفاتِ الكمالِ ما كانَ به أفضلَ من غَيرِهِ من المخلوقاتِ، وأرادَ سبحانهُ أن يُظهِرَ لملائكتهُ فَضْلَهُ وشرفَهُ، فأظهَرَ لهم أحسَنَ ما فيهِ وهو عِلمُهُ، فدلَّ على أنَّ العلمَ أشرَفُ ما في الإنسان، وأنَّ فَضلَهُ وشرفَهُ إنَّما هو بالعلمِ، ونَظيرُ هذا ما فَعَلهُ بنبيِّه يوسُف عليه السَّلام لمَّا أرادَ إظهارَ فضلهِ وشَرفِهِ على أهلِ زمانهِ كلِّهم أظهَرَ للمَلِكِ وأهلِ مصرَ من علمهِ بتأويلِ رؤيا [illegible] التَّعبيرِ، فحينئذٍ قدَّمهُ ومكَّنهُ وسلَّمَ إليهِ خزائنَ الأرضِ، وكانَ قبلَ [illegible] حَبَسَهُ على ما رآهُ من حُسن وَجهِه وجمالِ صورَتهِ، ولمَّا ظَهَرَ له حسنُ صورَةِ علمهِ وجمالُ معرفتهِ أطلقهُ من الحبسِ، ومكَّنهُ في الأرضِ، فدلَّ على أنَّ صورَةَ العلمِ عندَ بني آدمَ أبهى وأحسنُ من الصُّورَة الحسيَّة ولو كانت أجملَ صورَة .

وهذا وجهٌ مُستقلٌّ في تفضيلِ العلمِ مضافٌ إلى ما تَقدَّمَ، فتمَّ به ثلاثونَ وجهاً .

الحادي والثَّلاثون : أنَّهُ سبحانهُ ذمَّ أهلَ الجَهلِ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابهِ، فقال تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم يَجهَلون ﴾ [الأنعام : ١١١]، وقال : ﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم لا يعلمون ﴾ [الأنعام : ٣٧]، وقال تعالى : ﴿ أم تَحسبُ أنَّ أكثَرَهُم يَسمَعونَ أو يَعقلونَ إن هُم إلّا كالأنعامِ بل هُم أضلُّ سبيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤]، فلم يقتصِر سبحانهُ على تشبيهِ الجهَّال بالأنعامِ حتى جعلهُم أضلّ سبيلاً منهم .

وقال : ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يعقلون ﴾

[الأنفال : ٢٢]، أخبرَ انَّ الجهَّالَ شرُّ الدَّوابِ عندهُ على اختلافِ أصنافها من الحميرِ والسِّباعِ والكلابِ والحشراتِ وسائرِ الدَّوابِّ؛ فالجهَّالُ شرٌّ منهم، وليسَ على دينِ الرُّسل أضرُّ من الجهَّالِ بل أعداؤهم على الحقيقةِ .

وقال تعالى لنبيِّهِ وقد أعاذَهُ : ﴿ فلا تَكونَنَّ من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٣٥]، وقال كليمهُ موسى عليه السَّلام : ﴿ أعوذُ باللَّهِ أن أكونَ من الجاهلين ﴾ [البقرة : ٦٧]، وقال لأوَّلِ رسلهِ نوحٍ عليه السَّلام : ﴿ إنِّي أعظُكَ أن تكونَ منَ الجاهلينَ ﴾ [هود : ٤٦] فهذه حالُ الجاهلين عندَهُ والأوَّلُ حالُ أهلِ العلمِ عندهُ .

وأخبرَ سبحانهُ عن عقوبَتِه لأعدائهِ أنَّهُ منعهم علمَ كتابهِ ومعرفَته وفقهَهُ، فقال تعالى ﴿ وإذا قَرأتَ القُرآنَ جَعَلنا بَينَكَ وبينَ الَّذينَ لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ حجاباً مَستوراً * وجَعَلنا على قلوبِهِم أكنَّةً أن يَفقَهوهُ وفي آذانِهِم وَقراً ﴾ [الإسراء : ٤٥ - ٤٦] .

وأمَرَ نبيَّهُ بالإعراضِ عنهُم فقال : ﴿ وأعرِض عَن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وأثنى على عبادهِ بالإعراضِ عنهم ومتاركَتِهم كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا سَمعوا اللَّغوَ أعرَضوا عنهُ وقالوا لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم سلامٌ عليكم لا نَبتَغي الجاهلين ﴾ [القصص : ٥٥]، وقال تعالى : ﴿ وإذا خاطَبهُم الجاهلونَ قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

وكلُّ هذا يدلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندَهُ وبغضِهِ للجهلِ وأهلِهِ، وهو كذلك عندَ النَّاسِ فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه وإن كان فيه .

الثَّاني والثَّلاثون : إنَّ العلـمَ حياةٌ ونورٌ، والـجهلُ موتٌ وظُلـمَةٌ، والشرُّ كلُّهُ سَبَبُهُ عَدَمُ الـحياةِ والنَّورُ، والـخَيرُ كلُّهُ سببُهُ النُّورُ والـحياةُ، فإنَّ النُّورَ يكشفُ عن حقائقِ الأشياءِ، ويُبيِّنُ مراتبَها، والـحياةُ هي الـمُصحِّحَةُ لصفاتِ الكمـالِ والـموجبَةُ لتَسديد الأقوال والأعمـال، فكلَّمـا تصرَّفَ من الـحياةِ فهو خيرٌ كلُّه كالـحياءِ الذي سَبَبُهُ كمـالُ حياةِ القَلبِ، وتصوُّرُه حقيقةِ القُبحِ ونَفرَتُه منه، وضدُّهُ الوقاحَةُ والفُحشُ وسببُهُ موتُ القَلبِ وعدمُ نَفرتِهِ من القبيـحِ، وكالـحياءِ الذي هو الـمطرُ الذي به حياةُ كلِّ شيءٍ .

قال تعالى : ﴿ أوَمَن كانَ مَيتاً فأحيَيناهُ وجَعَلنا لـهُ نوراً يـمشي به في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلـمـاتِ ليسَ بـخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، كانَ مَيتاً بالـجهلِ قلبُهُ فأحياهُ بالعلم، وجعَلَ له من الإيمـانِ نوراً يمشي به في النَّاس .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا اللَّهَ وآمنوا برسولِهِ يؤتِكُم كفلَينِ من رَحمتهِ ويـجعَل لكُم نوراً تَـمشونَ بهِ ويَغفِر لكُم واللَّهُ غَفورٌ رَحيم * لئلّا يعلـمَ أهلُ الكتابِ أن لا يَقدِرونَ على شيءٍ من فَضلِ اللَّه وأنَّ الفَضلَ بيدِ اللَّه يؤتيه من يشاءُ واللَّهُ ذو الفَضلِ العَظيم ﴾ [الـحديد : ٢٨ - ٢٩]، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وليُّ الَّذينَ آمَنوا يُـخرجُهُم من الظُّلـمـاتِ إلى النُّور والَّذينَ كفَروا أولياؤهـم الطَّاغوتُ يُـخرجونَهُم من النُّورِ إلى الظُّلـمـاتِ أُولئكَ أصحابُ النَّارِ هـم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٢٥٧]، وقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أوحَينا إليكَ روحاً من أمرِنا ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمـانُ ولكن جَعَلناهُ نوراً نَهدي به مَن نشاءُ من عبادِنا وإنَّكَ لتَهدي إلى صِراطٍ مُستَقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فأخبَرَ أنَّهُ روحٌ تَحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ يحصلُ به الإضاءَةُ والإشراقُ، فجمعَ بين الأصلين الحياةِ والنُّورِ، وقال تعالى : ﴿ قَد جاءَكُم من اللَّهِ نورٌ وكتابٌ مُبينٌ * يَهدي بِهِ اللَّهُ مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويخرجهُم من الظُّلماتِ إلى النُّور بإذنهِ ويَهديهم إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ [المائدة : ١٥ - ١٦]، وقال تعالى : ﴿ فآمِنوا باللَّهِ ورسولِهِ والنُّورِ الَّذي أنزَلنا واللَّهُ بما تَعمَلونَ خبيرٌ ﴾ [التغابن : ٨]، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَكُم بُرهانٌ من ربِّكُم وأنزَلنا إليكُم نوراً مُبيناً ﴾ [النساء : ١٧٤]، وقال تعالى : ﴿ قَد أنزَلَ اللَّهُ إليكُم ذِكراً * رسولاً يتلو عليكُم آياتِ اللَّهِ مبيِّناتٍ ليُخرِجَ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحات من الظُّلماتِ إلى النُّور ﴾ [الطلاق : ١٠ - ١١]، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نورُ السَّماواتِ والأرضِ مثلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ المِصباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كأنَّها كوكَبٌ دُرِّيٌّ يوقَدُ من شَجرَةٍ مُبارَكةٍ زَيتونَةٍ لا شرقيَّةٍ ولا غَربيَّةٍ يكادُ زَيتُها يُضيءُ ولو لم تَمسَسهُ نار نورٌ على نور يَهدي اللَّهُ لنورهِ من يشاءُ ويَضربُ اللَّهُ الأمثالَ للنَّاسِ واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [النور : ٣٥]، فضرَبَ سبحانهُ مثلاً لنورهِ الذي قَذَفَهُ في قَلبِ المؤمنِ، وقالَ في آخرِ الآيَةِ : ﴿ نورٌ على نور ﴾ يعني نورَ الإيمان على نورِ القُرآن .

وقَد جمَعَ اللَّهُ سبحانهُ بينَ ذكرِ هذين النُّورَين وهما الكتابُ والإيمانُ في غيرِ موضعٍ من كتابهِ كقوله : ﴿ ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمان ولكن جَعَلناهُ نوراً نَهدي به مَن نشاءُ من عبادِنا ﴾ [الشورى : ٥٢]، وقوله تعالى : ﴿ قُل بِفَضلِ اللَّهِ وبِرَحمَتِهِ فبذلكَ فَليَفرَحوا هو خيرٌ ممَّا يجمعون ﴾ [يونس : ٥٨]، ففضلُ اللَّهِ الإيمانُ ورحمتهُ القُرآن، وقوله تعالى : ﴿ أوَمَن

كانَ مَيتاً فأحيَيناهُ وجَعَلنا لهُ نوراً يمشي به في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخارِجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال في آيَةُ النُّور : ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾ وهو نورُ الإيمان على نور القُرآن .

وفي حديث النوَّاس بن سمعان رضيَ اللَّهُ عنه عن النَّبي ﷺ : « إنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مثلاً صراطاً مُستقيماً وعلى كَتِفَي الصِّراط دارانِ لهما أبوابٌ مُفتَّحةٌ على الأبوابِ ستورٌ وداعٍ يَدعو على الصِّراطِ وداعٍ يَدعو فَوقَهُ : ﴿ واللَّهُ يَدعو إلى دارِ السَّلامِ ويَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾ [يونس : ٢٥]، والأبوابُ التي على كتفي الصِّراطِ حدودُ اللَّهِ فلا يَقَع أحدٌ في حدودِ اللَّهِ حتى يَكشفَ السَّتر والذي يَدعو من فوقهِ واعظُ ربِّهِ » .[1]

وقال حُذَيفَةُ : حدَّثنا رسولُ اللَّهِ ﷺ : « أنَّ الأمانَة نَزلت في جذرِ قلوبِ الرِّجال ثمَّ نزلَ القرآن فعلموا من الإيمان ثمَّ علموا من القرآن » .[2]

وفي « الصَّحيحين »[3] من حديثِ أبي موسى الاشعَري رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبي ﷺ : « مثَلُ المؤمنُ الذي يقرأُ القُرآن كمثلِ الأُتُرجَّة طعمها طيِّبٌ وريحها طيِّبٌ ومَثلِ المؤمن الذي لا يَقرأ القرآن كمثلِ التَّمرَة طعمها طَيِّب ولا

---

(١) **صحيح** - كما بينته في « إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم » (ص ٥٦)، نشر دار ابن الجوزي .

(٢) أخرجه البخاري (١١ / ٣٣٣ و ١٣ / ٣٨ ، ٢٤٩ - فتح)، ومسلم (٢ / ١٦٧ - ١٧٠ - نووي) .

(٣) أخرجه البخاري (٩ / ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٠ ، ٥٥٥ و ١٣ / ٥٣٥ - فتح)، ومسلم (٧٩٧) .

ريحَ لها ومثل المنافقِ الذي يقرأ القرآن كالرَّيحانَة ريحها طيِّبٌ وطعمُها مُرٌّ ومثلُ المُنافق الذي لا يَقرأ القُرآن كمثلِ الحنظَلَةِ طعمها مرٌّ ولا ريحَ لها » .

فجعلَ النَّاس أربَعَة أقسامٍ :

○ **الأوَّل** : أهلَ الإيمان والقرآنِ، وهم خيارُ النَّاس .

○ **الثَّاني** : أهلُ الإيمانِ الذين لا يقرؤونَ القرآن، وهم دونَهُم فهؤلاء هم السُّعداء .

والأشقياء قسمان :

○ **أحدهما** : من أوتيَ قرآناً بلا إيمانٍ، فهو منافقٌ .

○ **والثَّاني** : من لا أُوتيَ قرآناً ولا إيماناً .

والمقصود : أنَّ القرآنَ والإيمانَ هما نورٌ يجعلهُ اللَّهُ في قلبِ من يشاءُ من عبادهِ وأنَّهما أصلُ كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخِرَة، وعلمهما أجلُّ العلوم وأفضلها بل لا علمَ في الحقيقةِ ينفعُ صاحبهُ إلّا علمُهما : ﴿ واللَّهُ يَهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

الثَّالث والثَّلاثون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جعلَ صَيدَ الكلبِ الجاهل مَيتةً يحرُمُ أكلُها، وأباحَ صَيدَ الكلبِ المُعلَّم .

وهذا أيضاً من شرَفِ العلمِ أنَّهُ لا يُباحُ إلّا صَيدُ الكلبِ العالم، وأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلا يحلُّ أكلُ صَيدهِ؛ فدلَّ على شرَفِ العلمِ وفضلهِ، قال اللَّه تعالى : ﴿ يَسألونَكَ ماذا أُحلَّ لهم قُل أُحلَّ لكُم الطَّيِّباتُ وما علَّمتُم

من الجوارحِ مُكَلِّبين تعلمونَهنَّ ممَّا عَلَّمكُم اللَّهُ فكلوا ممَّا أمسَكنَ عليكم واذكروا اسمَ اللَّهِ عليه واتَّقوا اللَّه إنَّ سريع الحساب ﴾ [المائدة : ٤]، ولولا مَزيَّةُ العلمِ والتَّعليمِ وشَرَفُهما كان صَيدُ الكلبِ المعلَّم والجاهلِ سواءً .

الرَّابع والثَّلاثون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبرَنا عن صفيِّهِ وكليمهِ الذي كتب له التَّوراةَ بيدِهِ وكلَّمهُ منه إليه أنَّهُ رحلَ إلى رجلٍ عالمٍ يتعلَّمُ منه ويزدادَ علماً إلى علمهِ، فقال : ﴿ وإذا قالَ موسى لفتاهُ لا أبرَحُ حتى أبلغَ مجمع البَحرين أو أمضيَ حُقُباً ﴾ [الكهف : ٦٠]، حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلُّم منه، فلمَّا لقيَهُ سلكَ معه مسلَكَ المُتعلِّم مع معلِّمهِ وقال له : ﴿ هَل أتَّبعُكَ على أن تُعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشداً ﴾ [الكهف : ٦٦]، فبدأهُ بعدَ السَّلام بالإستئذانِ على متابعته، وأنَّه لا يتبعهُ إلّا بإذنِهِ، وقال : ﴿ على أن تعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشداً ﴾ فلم يَجيء مُمتَحناً ولا متعنِّتاً وإنَّما جاءَ متعلِّماً مُستزيداً علماً إلى علمه .

وكفى بهذا فَضلاً وشرفاً للعلم، فإنَّ نبيَّ اللَّهِ وكليمَهُ سافرَ ورَحلَ حتى لقيَ النَّصَب من سَفرِهِ في تعلُّمِ ثلاث مسائل من رجلٍ عالمٍ، ولما سمعَ به لم يقرَّ له قرارٌ حتى لقيَهُ وطلَبَ منه متابعَتَهُ وتَعليمَهُ، وفي قصَّتِهما عبَرٌ وآياتٌ وحِكَمٌ ليسَ هذا موضعُ ذكرهما .

الخامس والثَّلاثون : قوله تعالى : ﴿ وما كانَ المؤمنون ليَنفِروا كافَّةً فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقَةٍ منهم طائفةٌ ليتفَقَّهوا في الدِّين وليُنذِروا قَومَهُم إذا رَجَعوا إليهم لعلَّهُم يَحذَرون ﴾ [التَّوبَة : ١٢٢]، نَدَبَ تعالى المؤمنين إلى

التَّفقُّه في الدِّين وهو تعلُّمهُ، وإنذارُ قومهم إذا رَجعوا إليهم، وهو التَّعليمُ، وقَد اختُلِف في الآيَةِ؛ فقيلَ : المعنى أنَّ المؤمنينَ لم يكونوا ليَنفروا كلُّهُم للتَّفقُّه والتَّعلُّم بل يَنبغي أن يَنفروا من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ تَتَفَقَّه تلك الطَّائفةُ ثمَّ ترجع تُعلِّم القاعدينَ، فيكونَ النَّفيرُ على هذا نَفيرُ تعلُّم، والطَّائفة تقالُ على الواحدِ فما زادَ .[1]

قالوا : فهو دليلٌ على قبولِ خَبَرِ الواحدِ، وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة .[2]

وقالت طائفةٌ أخرى : المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلُّهم بل يَنبغي أن تَنفِرَ طائفَةٌ للجهاد، وفرقةٌ تقعُدُ تتفقَّهُ في الدِّين، فإذا جاءَت الطَّائفَةُ التي نَفَرَت فقَّهتها القاعدَة وعلَّمتها ما أُنزِلَ من الدِّينِ والحلالِ والحرامِ .

---

(١) وهو كما قال؛ نص على ذلك جماعة من أهل اللغة والحديث .

قال البخاري في « صحيحه » (١٣ / ٢٣١ - فتح) : « ويسمى الرجل طائفة؛ لقوله تعالى :﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾، فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية ».

وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣ / ٢٣٤) : « إنَّ لفظ الطائفة يتناول الواحد فما فوقه، ولا يختص بعدد معين، وهو منقول عن ابن عباس وغيره كالنخعي ومجاهد » .

وقال ابن الأثير في « النهاية » (٤ / ١٥٣) : « الطائفة الجماعة من النَّاس وتقع على الواحد » .

(٢) وانظر لزاماً كتابي : « الأدلة والشواهد في وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد » .

وعلى هذا فيكونُ قولهُ : ليَتَفقَّهوا وليُنذِروا للفرقَةِ التي نَفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرين، وعلى هذا فالنَّفير نفيرُ جهادٍ على أصلِهِ، فإنَّهُ حيثُ استُعملَ إنَّما يُفهمُ منه الجهادُ .

قال اللَّه تعالى : ﴿ انفِروا خفافاً وثقالاً وجاهِدوا بأموالكُم وأنفُسكُم ﴾ [التوبَة : ٤١] .

وقال النَّبي ﷺ : « لا هجرَة بعدَ الفتحِ ولكن جهادٌ ونيَّة وإذا استُنفرتُم فانفِروا » .[١]

هذا هو المَعروف من هذه اللَّفظَةِ .

وعلى القولين فهو تَرغيبٌ في التَّفقُّه في الدِّين وتعلُّمه وتعليمه، فإنَّ ذلكَ يعدِلَ الجهاد بل رُبَّما يكونُ أفضَلَ منهُ، كما سيأتي تقريرُهُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى .[٢]

السَّادس والثَّلاثون : قوله تعالى : ﴿ والعَصر * إنَّ الإنسانَ لفي خسر * إلّا الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبر ﴾ [سورة العصر] .

قال الشافعي - رضي اللَّهُ عنه : « لو فكَّرَ النَّاسُ كلُّهم في هذه السُّورَة لكفَتهُم » .

وبيانُ ذلك أنَّ المراتب أربعةٌ، وباستكمالها يحصلُ للشخصِ غايةُ كمالهِ :

● **إحداها** : معرفةُ الحقِّ .

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٨٩ - فتح) ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .

(٢) أنظر (ص ١٢٥ - ١٢٦) من هذا « المنتقى » .

• **الثَّانية** : عملُهُ به .

• **الثَّالثة** : تعليمُهُ من لا يُحسنُهُ .

• **الرَّابعَة** : صَبرُهُ على تعلُّمِهِ والعَملِ به وتَعليمِهِ .

فَذَكَرَ تعالى المراتبَ الأربعَةَ في هذه السُّورَة، وأقسَمَ سبحانهُ في هذه السُّورَةِ بالعَصرِ أنَّ كلَّ أحدٍ في خُسرٍ إلّا الَّذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحات وهم الذينَ عَرفوا الحقَّ وصدَّقوا به فهذه مرتبةٌ، وعملوا الصَّالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحقِّ فهذه مرتبةٌ أُخرى، وتَواصَوا بالحقِّ وصَّى به بعضُهُم بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ، وتَواصَوا بالصبر صَبَروا على الحقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضاً بالصَّبرِ عليه والثَّباتِ فهذه مرتبةٌ رابعةٌ .

وهذا نهايَةُ الكمالِ، فإنَّ الكمالَ أن يكونَ الشخصُ كاملاً في نفسه، مكمِّلاً لغيرِهِ، وكمالُه بإصلاحِ قوَّتيه العلميَّة والعمليَّة، فصلاحُ القوَّة العلميَّة بالإيمان، وصلاحُ القوَّةُ العمليَّة بعملِ الصَّالحاتِ .

وتكميلُه غيرهُ وتعليمه إيَّاهُ، وصبرُه عليهِ، وتوصيتُه بالصَّبرِ على العلمِ والعملِ .

فهذه السُّورَة على اختصارها هي من أجمعِ سُوَرِ القرآن للخيرِ بحذافيرِهِ، والحمدُ للّهِ الذي جعلَ كتابهُ كافياً عن كلِّ ما سواهُ، شافياً من كلِّ داءٍ، هادياً إلى كلِّ خيرٍ .

السَّابع والثَّلاثون : أنَّهُ سبحانهُ ذكرَ فَضلَهُ ومنَّتَهُ على أنبيائهِ ورسلِهِ وأوليائهِ وعبادهِ بما آتاهُم من العلمِ، فَذَكَرَ نعمتَهُ على خاتمِ أنبيائهِ ورسلهِ بقوله :

﴿ وأنزَلَ اللَّهُ عَلَيكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تَكُن تَعلَم وكانَ فَضلُ اللَّهِ عَلَيكَ عظيماً ﴾ [النساء : ١١٣]، وقال في يوسُف : ﴿ ولمَّا بلغَ أشدَّهُ آتَيناهُ حُكماً وعِلماً وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢]، وقال في كليمِهِ موسى : ﴿ ولمَّا بَلغَ أشدَّهُ واستَوى آتَيناهُ حُكماً وعلماً وكذلكَ نجزي المُحسنين ﴾ [القصص : ١٤]، وقال في حقِّ المسيح : ﴿ يا عيسى ابنَ مريمَ اذكُر نِعمَتي عليكَ وعلى والدتكَ إذ أيَّدتُكَ بروحِ القُدُس تكلِّمُ النَّاسَ في المَهدِ وكهلاً وإذ علَّمتكَ من الكتابَ والحِكمَةَ والتَّوراةَ والإنجيل ﴾ [المائدَة : ١١٠]، وقال في حقِّ داودَ : ﴿ وآتَيناهُ الحِكمَةَ وفَصلَ الخِطابِ ﴾ [ص : ٢٠]، وقال في حقِّ الخَضرِ صاحبِ موسى وفتاه : ﴿ فَوجدا عَبداً من عبادِنا آتَيناهُ رَحمةً من عندِنا وعلَّمناهُ من لَدُنَّا علماً ﴾ [الكهف : ٦٥]، وقال تعالى يَذكُرُ نعمتَهُ على داودَ وسُليمان : ﴿ وداودُ وسُليمانُ إذ يَحكُمانِ في الحَرثِ إذ نَفَشت فيهِ غنمُ القَومِ وكنَّا لحُكمِهِم شاهدينَ * فَفهَّمناها سُليمانَ وكلاًّ آتَينا حُكماً وعلماً ﴾ [الأنبياء : ٧٨ - ٧٩] .

فامتنَّ عليهم سبحانهُ بأن علَّمهُم بعدَ الجَهلِ، وهداهُم بعدَ الضَّلالَةِ ويالها من منَّةٍ عَظيمةٍ فاتَت المِنَن، وجلَّت أن يَقدِرَ العبادُ لها على ثمنٍ .

الثَّامن والثَّلاثون : أنَّ أوَّل سورَةٍ أنزَلها اللَّهُ في كتابِهِ سورَةُ العلق، فَذكَرَ فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمِهِ ما لم يَعلم، فَذكَر فيها فَضلَهُ بتَعليمِهِ وتَفضيله الإنسان بما علَّمهُ إيَّاهُ، وذلكَ يدلُّ على شرَفِ التَّعليم والعلمِ، فقال تعالى : ﴿ اقرَأ باسمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق * اقرَأ وربُّكَ الأكرَمُ * الذي علَّمَ بالقَلَمِ * علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ [العلق : ١ - ٥]،

فافتَتحَ السُّورَة بالأمرِ بالقراءَةِ النَّاشئةِ عن العلـمِ، وذكَرَ خَلقَهُ خصوصاً وعموماً، فقال : ﴿ الَّذي خَلَقَ * خلقَ الإنسانَ من عَلَق * اقرَأ وربُّكَ الأكرَم ﴾ [العلق : ١ - ٣]، وخصَّ الإنسان من بينِ المخلوقات لما أودعهُ من عجائبهِ وآياتهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتهِ وقدرتهِ وعلمهِ وحكمتهِ وكمالِ رَحمتهِ، وأنَّهُ لا إلهَ غيرُهُ ولا ربَّ سواهُ، وذكرَ هنا مبدأ خَلقهِ من علقٍ لكونِ العَلَقَةِ مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النُّطفَة، فهي مبدأُ تعلُّقِ التَّخليق ثمَّ أعادَ الأمرَ بالقراءةِ مُخبراً عن نفسهِ بأنَّهُ الأكرَم، وهو الأفعل من الكرم وهو كثرةُ الخَيرِ ولا أحدَ أولى بذلك منه سبحانهُ، فإنَّ الخَيرَ كلَّهُ بيدَيهِ، والخيرُ كلُّهُ منه، والنِّعم كلُّها هو موليها، والكمالُ كلُّهُ والمجدُ كلُّه له، فهو الاكرَمُ حقّاً، ثمَّ ذكرَ تعليمهُ عموماً وخصوصاً، فقال : ﴿ الذي علَّمَ بالقَلم ﴾، فهذا يدخُلُ فيه تعليم الملائكَةِ والنَّاسِ ثمَّ ذكرَ تعليمَ الإنسانِ خصوصاً، فقال : ﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم ﴾، فاشتملَت هذه الكلماتُ على أنَّهُ مُعطي الموجودات كلِّها بجميعِ أقسامها، **فإنّ الوجود له مراتب أربَعَة :**

- **إحداها** : مرتَبتُها الخارجيَّةُ المَدلولُ عليها بقوله ﴿ خَلَق ﴾ .
- **الثَّانيةُ** : الذِّهنيَّةُ المدلولُ عليها بقوله :﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ .
- **الثَّالثةُ** : الخطيَّةُ مُصرَّحٌ بها في قوله : ﴿ الذي علَّمَ بالقَلَمِ ﴾ .
- **الرابعة** : اللَّفظيَّةُ من لوازِمِ التَّعليم بالقَلَمِ، فإنَّ الكتابَةَ فرعُ النَّطقِ، والنَّطق فَرعُ التَّصوُّر .

فاشتملت هذه الكلماتُ على مراتب الوجود كلِّها، وأنَّهُ سبحانهُ هو

مُعطيها بخلقهِ وتعليمهِ فهو الخالقُ المعلِّمُ، وكلُّ شيءٍ في الخارج فبِخَلقهِ وُجدَ، وكلُّ علمٍ في الذِّهن فبتعليمهِ حَصَلَ، وكلُّ لَفظٍ في اللِّسانِ أو خَطٌّ في البنانِ فبأقدارِهِ وخَلقِهِ وتعليمهِ، وهذا من آياتِ قُدرَتهِ وبراهين حكمتهِ لا إلهَ إلّا هو الرَّحمن الرَّحيم .

والمقصود : أنَّهُ سبحانهُ تعرَّفَ إلى عبادهِ بما علَّمهُم إيَّاهُ بحكمتهِ من الخطِّ واللَّفظِ والمعنى، فكانَ العلمُ أحَدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليه بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له .

التَّاسع والثَّلاثون : أنَّهُ سبحانهُ سمَّى الحُجَّةَ العلميَّةَ سلطاناً، وهذا كقولـه تعالى : ﴿ قالوا اتَّخَذَ اللَّهُ ولَداً سبحانهُ هو الغَنيُّ له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ إن عندكم من سلطانٍ بهذا أتَقولونَ على اللَّهِ ما لا تَعلمون ﴾ [يونس : ٦٨]، يعني : ما عندكُم من حُجَّةٍ بما قُلتُم إن هو إلّا قَولٌ على اللَّه بلا علمٍ .

وقال تعالى : ﴿ إن هيَ إلّا أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتُم وآباؤكُم ما أنزَلَ اللَّهُ بها من سُلطانٍ ﴾ [النجم : ٢٣]، يعني : ما أنزَلَ بها حُجَّةً ولا بُرهاناً بل هي من تلقاءِ أنفسكُم وآبائكُم .

وقال تعالى : ﴿ أم لكُم سلطانٌ مُبينٌ * فائتوا بكتابكُم إن كُنتُم صادقينَ ﴾ [الصافات : ١٥٦ - ١٥٧]، يعني : حُجَّةً فائتوا بها إن كُنتُم صادقينَ في دَعواكُم .

إلّا مَوضعاً واحداً اختُلِفَ فيه، وهو قوله : ﴿ ما أَغنى عَنِّي ماليَه * هَلَكَ عَنِّي سُلطانيَه ﴾ [الحاقة : ٢٨ - ٢٩] .

فقيلَ : المُرادُ به القُدرَةُ والملكُ أي : ذَهَبَ عني مالي ومُلكي، فلا مالَ لي ولا سُلطانَ .

وقيلَ : هو على بابِهِ أي : انقَطَعَت حُجَّتي وبطُلَت، فلا حاجَةَ لي .

والمقصودُ : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ سمَّى علمَ الحجَّة سلطاناً، لأنَّها توجبُ تسلُّطَ صاحبِها واقتدارَهُ، فله بها سلطانٌ على الجاهلين بل سلطانُ العلمِ أعظمُ من سلطانِ اليَدِ، ولهذا يَنقادُ النَّاسُ للحُجَّةِ ما لا يَنقادونَ لليَدِ، فإنَّ الحُجَّةَ تنقادُ لها القلوبُ، وأمَّا اليَدُ فإنَّما ينقادُ لها البَدَنُ، فالحُجَّةُ تأسرُ القَلبَ وتقودُهُ وتذلُّ المخالفَ وإن أظهَرَ العنادَ والمُكابَرَة، فَقَلبُهُ خاضعٌ لها ذليلٌ مقهورٌ تحتَ سلطانها، بل سلطانِ الجاهِ إن لم يكُن معه علمٌ يُساسُ به فهو بمنزلَةِ سلطانِ السِّباعِ والأُسودِ ونحوها قدرة بلا علمٍ ولا رَحمَةٍ بخلافِ سلطانِ الحُجَّةِ فإنَّهُ قدرةٌ بعلمٍ ورَحمَةٍ وحكمَةٍ، ومن لم يكُن له اقتدارٌ في علمِهِ فهو إمَّا لضَعفِ حجَّتِهِ وسلطانِهِ، وإمَّا لقَهرِ سلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له، وإلّا فالحجَّةُ ناصرَةٌ نفسها ظاهرَةٌ على الباطلِ قاهرةٌ له .

الأربعون : أنَّ اللَّهَ تعالى وَصَفَ أهلَ النَّارِ بالجهلِ، وأخبَرَ أنَّهُ سدَّ عليهم طرقَ العلمِ، فقال تعالى حكايَةً عنهُم : ﴿ وقالوا لَو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقلُ ما كنَّا في أصحابِ السَّعير * فاعتَرفوا بذَنبهم فسُحقاً لأصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١٠ - ١١]، فأخبَروا أنَّهم كانو لا يَسمَعونَ ولا يَعقلونَ، والسَّمعُ والعقلُ هما أصلُ العلمِ وبهما يُنالُ .

وقال تعالى : ﴿ ولَقَد ذَرَأنا لجهنَّمَ كثيراً من الجنِّ والإنسِ لهُم قلوبٌ لا يَفقَهونَ بها ولهُم أعيُنٌ لا يُبصِرونَ بها ولهُم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها أولئكَ

كالأنعامِ بل هُم أضلُّ أولئكَ هـم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩]، فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُم لـم يـحصل لـهـم علـمٌ من جهَةٍ من جهاتِ العلـم الثَّلاث وهي : العقلُ والسَّمعُ والبَصَرُ، كمـا قالَ في موضعٍ آخَر : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُمـيٌ فهـم لا يعقلون ﴾ [البقرة : ١٧]، وقال تعالى : ﴿ أفَلَم يَسيروا في الأرضِ فتَكونَ لـهُم قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يَسـمعونَ بها فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ ولكن تَعمى القلوبُ التي في الصُّدورِ ﴾ [الحج : ٤٦]، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلنا لـهُـم سَمعاً وأبصاراً وأفئدَةً فمـا أغنى عنهُم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ إذ كانوا يـجحدونَ بآياتِ اللَّهِ وحاقَ بهـم مـا كانوا به يَستهزِؤن ﴾ [الأحقاف : ٢٦] .

فقد وصفَ أهل الشقاءِ كمـا ترى بعَدمِ العلـمِ، وشبَّهَهُم بالأنعامِ تارَةً، وتارَةً بالـحمـارِ الذي يـحمل الأسفار، وتارَةً جعلـهـم أضلَّ من الأنعامِ، وتارَةً جعلـهـم شرَّ الدَّواب عندهُ، وتارَةً جعلـهـم أمواتاً غيرَ أحياءٍ، وتارَةً أخبَرَ أنَّهُم في ظلـمـاتِ الـجهلِ والضَّلالِ، وتارَةً أخبَرَ أنَّ على قلوبهـم أكنَّةً وفي آذانهـم وقراً وعلى أبصارهـم غشاوَةً .

وهذا كلُّهُ يدلُّ على قُبحِ الـجهلِ وذمِّ أهلِهِ وبُغضهِ لـهـم، كمـا أنَّهُ يـحبُّ أهلَ العلـمِ ويـمدحهُم ويُثني عليهـم كمـا تقدَّم واللَّهُ الـمُستعان .

الـحادي والأربعون : ما في « الصَّحيـحين »[1] من حديثِ معاويَة رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : سـمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَن يُرِد اللَّهُ به خَيراً يُفقِّهُهُ في الدِّين » .

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٦٤ - فتح)، ومسلم (١٠٣٧) .

وهذا يدلُّ على أنَّ من لـم يُفقِّهه في دينهِ لـم يرد به خَيراً كمـا أنَّ من أرادَ به خَيراً فقَّههُ في دينهِ، ومن فقَّههُ في دينهِ فقَد أرادَ به خَيراً إذا أُريدَ بالفقهِ العلـمُ الـمستلزمُ للعملِ، وأمَّا إن أريدَ به مـجرَّد العلـمِ فلا يدلُّ على أنَّ من فَقِهَ في الدِّينِ فقد أُريدَ به خَيراً .

فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطاً لإرادةِ الـخَيرِ، وعلى الأوَّلِ يكونُ موجباً، واللَّهُ أعلـم .

الثَّاني والأربعون : ما في « الصَّحيـحين »[1] من حديثِ أبي موسى رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ مثلَ ما بعَثني اللَّهُ به من الـهُدى والعلـمِ كمثلِ غَيثٍ أصابَ أرضاً فكانَت منها طائفَةٌ طيِّبَةٌ قبلَت الـماءَ فأنبتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ وكانَ منها أجادبُ أمسَكَت الـماء فنفعَ اللَّهُ به النَّاس فشربوا منها وسقوا وزَرعوا وأصابَ طائفةً منا أُخرى إنَّـما هي قيعانٌ لا تمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً فذلكَ مثلُ من فَقِهَ في دينِ اللَّهِ ونفعهُ ما بعَثني اللَّهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ ومثلُ من لـم يَرفَع بذلك رأساً ولـم يقبَل هُدى اللَّهِ الذي أُرسلتُ به » .

شبَّهُ ﷺ العلـمَ والـهُدى الذي جاءَ به بالغَيثِ؛ لـما يـحصلُ بكلِّ واحدٍ منهـما من الـحياةِ والمنافعِ والأغذيةِ والأدويةِ وسائرِ مصالـحِ العبادِ، فإنَّها بالعلـمِ والـمطرِ .

وشبَّه القلوبَ بالأراضي التي يقعُ عليها الـمطرُ، لأنَّها الـمـحلُّ الذي يمسكُ الـماءَ فينبتُ سائرَ أنواعِ النَّباتِ النافعِ كمـا أنَّ القلوبَ تعي العلـمَ؛ فيثمرُ فيها،

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٧٥ - فتح)، ومسلم (٢٢٨٢) .

ويزكو، وتَظهرُ بركتهُ وثمرتُهُ .

ثمَّ قسَّمَ النَّاس إلى ثلاثةِ أقسامٍ بحسبِ قبولهم واستعدادهم لحفظهِ وفَهمِ معانيهِ، واستنباطِ أحكامهِ، واستخراجِ حكمهِ وفوائدهِ :

* **أحدها** : أهلُ الحفظِ والفهمِ الذين حفظوهُ وعَقلوهُ وفهموا معانيه، واستَنبطوا وجوهَ الأحكامِ والحِكَم والفوائد منه، فهؤلاء بمنزلةِ الأرضِ التي قبلت الماءَ، وهذا بمنزلَةِ الحفظِ، فأنبَتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وهذا هو الفَهمُ فيه والمعرفَةُ والاستنباطُ، فإنَّهُ بمنزلةِ إنباتِ الكلأِ، والعُشبِ بالماء، فهذا مثلُ الحفَّاظِ الفقهاء أهل الرِّوايَةِ والدِّرايَةِ

* **الثَّاني** : أهلُ الحفظِ الذينَ رُزقوا حفظَهُ ونقلَهُ وضَبطَهُ، ولم يُرزَقوا تفقُّهاً في معانيه، ولا استنباطاً ولا استخراجاً لوجوه الحكمِ والفوائدِ منه، فهم بمنزلةِ من يقرأ القرآن ويحفظهُ، ويراعي حروفَه وإعرابَهُ، ولم يرزَق فيه فَهماً خاصًّاً عن اللَّه كما قال عليٌّ بن أبي طالبٍ رضيَ اللَّهُ عنه : « إلّا فَهماً يؤتيهِ اللَّهُ عَبداً في كتابهِ » .[1]

والنَّاسُ متفاوتونَ في الفَهمِ عَن اللَّهِ ورسولِهِ أعظم تفاوتٍ، فرُبَّ شخصٍ يفهمُ من النَّصِّ حُكماً أو حكمَين، ويفهمُ منه الآخَرُ مئةً أو مئيتن، فهؤلاء بمنزلة الأرضِ التي أمسكَت الماء للنَّاس فانتَفعوا به؛ هذا يشربُ منه، وهذا يَسقي منه، وهذا يزرعُ .

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٢٠٤ و ٥ / ٨٠ و ٦ / ١٦٧ و ١٢ / ٤١ ، ٤٢ و ١٣ / ٢٧٥ - ٢٧٦ - فتح) .

فهؤلاء القسمان هم السُّعداء والأوَّلون أرفعُ درجةً وأعلى قدراً : ﴿ وذلك فَضلُ اللَّهِ يؤتيهِ من يشاء واللَّهُ ذو الفَضلِ العظيم ﴾ [الجمعة : ٤] .

* **الـثَّـالـث** : الذين لا نَصيبَ لهم منه، لا حفظاً ولا فهماً ولا روايةً ولا درايةً بل هم بمنزلةِ الأرضِ التي هي قيعانٌ لا تُنبتُ ولا تُمسكُ الماءَ، وهؤلاء هم الأشقياءُ .

والقسمان الأوَّلانِ اشتركا في العلمِ والتَّعلُّم كلٌّ بحسبِ ما قبلهُ ووَصلَ إليهِ، فهذا يعلمُ ألفاظَ القرآن ويحفظها، وهذا يعلمُ معانيهِ وأحكامَهِ وعلومَهِ، والقسم الثَّالث : لا علمَ له ولا تَعليمَ، فهُم الذينَ لم يَرفَعوا بهدي اللَّهِ رأساً ولم يَقبلوهُ، وهؤلاء شرٌّ من الأنعامِ، وهم وقودُ النَّار .

فقَد اشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ على التَّنبيهِ على شرفِ العلمِ والتَّعليمِ، وعظم موقعهِ وشقاءِ من لَيسَ من أهلهِ، وذكرَ أقسامَ بني آدمَ بالنِّسبَةِ فيه إلى شقيِّهم وسعيدهم، وتقسم سعيدهم إلى سابقٍ مقرَّبٍ وصاحبِ يمينٍ مُقتَصدٍ .

وفيه دلالةٌ على أنَّ حاجَةَ العبادِ إلى العلمِ كحاجتهم إلى المطر بل أعظم، وأنَّهُم إذا فَقَدوا العلمَ فهم بمنزلَةِ الأرضِ التي فَقَدَت الغَيثَ .

قال الإمامُ أحمَد : النَّاسُ محتاجونَ إلى العلمِ أكثرُ من حاجتهم إلى الطَّعامِ والشرابِ، لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدَد الأنفاسِ .

وقد قال تعالى : ﴿ أنزَلَ من السَّماءِ ماءً فسالَت أوديَةٌ بقَدِرها فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً رابياً وممَّا يوقِدونَ عليه في النَّارِ ابتِغاءَ حليَةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثلُهُ

كذلكَ يَضربُ اللَّهُ الحقَّ والباطلَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

شبَّه سبحانهُ العلمَ الذي أنزلهُ على رسوله بالماء الذي أنزلهُ من السَّماءِ؛ لما يحصلُ لكلِ واحدٍ منهما من الحياةِ ومصالحِ العبادِ في معاشهم ومعادهم .

ثمَّ شبَّه القلوبَ بالأوديَةِ، فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ علماً كثيراً كوادٍ عظيمٍ يسعُ ماءً كثيراً، وقلبٌ صغيرٌ إنَّما يسعُ علماً قليلاً كوادٍ صَغيرٍ إنَّما يَسَعُ ماءً قليلاً، فقال : ﴿ فسالَت أوديَةٌ بقَدَرِها فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَداً رابياً ﴾ .

هذا مثلٌ ضربهُ اللَّهُ تعالى للعلم حينَ تخالطُ القلوبَ بشاشتُهُ، فإنَّهُ يستخرجُ منها زَبدَ الشبهات الباطلةِ، فَيطفو على وجهِ القَلبِ كما يستخرجُ السَّيلُ من الوادي زبداً يعلو فوقَ الماءِ، وأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ رابٍ يَطفو ويعلو على الماء لا يَستقرُّ في أرضِ الوادي كذلك الشبهاتُ الباطلةُ إذا أخرجها العلمُ رَبَت فوقَ القلوبِ وطَفَت فلا تستقرُّ فيه بل تجفى وترمى، فيستقرُّ في القلبِ ما ينفعُ صاحبَهُ والنَّاس من الهُدى ودينِ الحقِّ كما يستقرُّ في الوادي الماءُ الصَّافي ويذهبُ الزَّبدُ جفاءً، وما يعقلُ عن اللَّهِ أمثالَهُ إلَّا العالمونَ .

ثمَّ ضربَ سبحانهُ لذلكَ مثلاً آخرَ فقال : ﴿ وممَّا يوقدونَ عليه في النَّارِ ابتغاءَ حليَةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثلهُ ﴾ [الرعد : ١٧] .

يعني : أنَّ ممَّا يوقِدُ عليه بنو آدمَ من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ يخرجُ منه خبثهُ، وهو الزَّبدُ الذي تلقيه النَّارُ، وتخرجهُ من ذلك الجوهَر بسببِ مخالطتها، فإنَّهُ يُقذفُ ويُلقى به ويستقرُّ الجوهَرُ الخالصُ وحدَهُ .

وضَرَبَ سبحانهُ مثلاً بالماءِ لما فيهِ من الحياةِ والتَّبريدِ والمنفعَةِ، ومثلاً

بالنَّارِ لما فيها من الإضاءَةِ والإشراقِ الإحراقِ، فآياتُ القرآنِ تحيي القلوب كما تحيى الأرضُ بالماءِ، وتحرقُ خبثَها وشبهاتِها وشهواتِها وسخائمها كما تحرقُ النَّارُ ما يُلقى فيها، وتميزُ جيِّدها من زَبَدِها كما تَميزُ النَّارُ الخَبَثَ من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ ونحوهِ منه .

فهذا بعضُ ما في هذا المثلِ العظيمِ من العبرِ والعلم، قال اللَّه تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربها للنَّاسِ وما يَعقلُها إلّا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

الثَّالث والأربعون : ما في « الصَّحيحين »[1] من حديثِ سَهلِ بن سَعدٍ رضيَ اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال لعليٍّ رضيَ اللَّهُ عنه : « لأن يَهدي اللَّهُ بِكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ من حُمُرِ النِّعَم » .

وهذا يدلُّ على فَضلِ العلمِ والتَّعليم، وشرفِ منزلةِ أهلِهِ بحيثُ إذا اهتَدى رجلٌ واحدٌ بالعالم كان ذلكَ خيراً له من حُمُرِ النِّعَم[2]، وهي خيارُها وأشرافُها عندَ أهلها فما الظَّنُّ بمَن يَهتدي به كلَّ يومٍ طوائف من النَّاس ؟

الرَّابع والأربعون : ما روى مُسلمٌ في « صحيحه »[3] من حديث أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « مَن دَعا إلى هُدىً كانَ له من الأجرِ مثلُ أجورِ مَن تَبعَهُ لا يَنقُصُ ذلكَ من أجورهم شيئاً ومَن دعى إلى ضلالةٍ كانَ عليهِ من الإثمِ مثلُ آثامِ مَن تبعَهُ لا يَنقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً » .

---

(١) أخرجه البخاري (٧ / ٧٠ - فتح)، ومسلم (٢٤٠٦) .
(٢) هي الإبل الحمر التي تعد من أفضل أموال العرب، وبها يضرب المثل لكلِّ نفيس .
(٣) أخرجه مسلم (١٦ / ٢٢٧ - نووي) .

أخبرَ ﷺ أنَّ المُتَسبَّب إلى الهُدى بَدعوتهِ له مثلُ أجرِ مَن اهتَدى به، والمتَسبِّب إلى الضَّلالةِ بدعوتهِ عليهِ مثلُ إثمِ مَن ضلَّ به، لأنَّ هذا بَذلَ قدرَتَهُ في هدايَةِ النَّاس، وهذا بذلَ قدرتَهُ في ضلالتهم، فنزلَ كلُّ واحدٍ منهما بمنزلةِ الفاعل التَّامِّ، وهذه قاعدَةُ الشريعَةِ كما هو مذكورٌ في غيرِ هذا المَوضع .[1]

قال تعالى : ﴿ لِيَحمِلوا أوزارَهُم كامِلَةً يومَ القِيامَةِ ومن أوزارِ الذينَ يُضلُّونهم بغيرِ علمٍ ألا ساءَ ما يَزِرونَ ﴾ [النحل : ٢٥]، وقال تعالى : ﴿ وليَحملُنَّ أثقالَهُم وأثقالاً مَعَ أثقالِهِم ﴾ [العنكبوت : ١٣] .

وهذا يدلُّ على أنَّ من دعا الأُمَّة إلى غَيرِ سنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فهو عَدوُّهُ حقّاً، لأنَّهُ قَطَعَ وصولَ أجرِ من اهتَدى بسنَّتهِ إليه، وهذا من أعظَمِ معاداتهِ، نعوذُ باللَّهِ من الخُذلانِ .

الخامس والأربعون : ما خرَّجاه في « الصَّحيحين »[2] من حديثِ ابن مَسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنه قال : قال رَسولُ اللَّهِ ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنَتَين رجلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فسلَّطهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ الحِكمَة فهو يَقضي بها ويعلِّمُها » .

فأخبرَ ﷺ أنَّهُ لا يَنبَغي لأحَدٍ أن يَحسِدَ أحداً يعني حَسَدَ غبطَةٍ، ويتمنَّى مثلَ حالِهِ من غيرِ أن يتمنَّى زوالَ نعمَةِ اللَّهِ عنهُ إلّا في واحدَةٍ من هاتَين الخصلتَين، وهي الإحسانُ إلى النَّاس بعلمهِ أو بمالهِ، وما عَدا هذين فلا يَنبغي

---

(١) وانظر لزاماً كتابي : « حادي الروح إلى أحكام التوبة النصوح » (ص ٢١٣ - ٢١٧) .

(٢) أخرجه البخاري (١ / ١٦٥ - الفتح)، ومسلم (٨١٦) .

غبطتهُ ولا تمنِّي مثلِ حالـهِ لقلَّةِ منفعَةِ النَّاس به .

السَّادس والأربعون : عن أبي أمـامَةَ الباهليِّ قال : ذُكرَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ رجلانِ أحدهـمـا عالـمٌ والآخَرُ عابدٌ فقال رسول اللَّهِ ﷺ : « فَضلُ العالـمِ على العابدِ كَفَضلي عَلى أدناكُم » .

ثمَّ قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ وملائكتهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ حتّى النَّملَةُ في جحرها وحتّى الـحوتَ في البحرِ ليُصلُّونَ على معلِّمي النَّاس الـخَير » .[1]

وقولـه : « إنَّ اللَّهَ وملائكتهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ يصلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الـخَيرَ » لـمـا كان تعليمُهُ للنَّاسِ الـخَيرَ سبباً لـنجاتهـم وسعادتهـم وزكاةَ نفوسهـم جازاهُ اللَّهُ من جنسِ عملـهِ بأن جعلَ عليهِ من صلاتهِ وصلاةَ ملائكتهِ وأهلَ الأرضِ مـا يكونُ سبباً لـنجاتهِ وسعادتهِ وفلاحهِ .

وأيضاً فإنَّ معلِّمَ النَّاسَ الـخيرَ لـمـا كانَ مظهراً لدينِ الرَّبِّ وأحكامهِ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وقال : هذا حديث غريب، وحسَّنه وصححه في بعض النسخ .

قلت : وفيه نظر، لأنَّ سلمة بن رجاء وشيخه الوليد بن جميل فيهما لين .

وقد خالفه يزيد بن هارون فرواه عن مكحول مرسلاً .

أخرجه الدارمي (١ / ٨٨) .

قلت : وإسناده فيه ضعف؛ لأنَّ الوليد بن جميل لين كما مضى .

ولكن أخرجه الدارمي (١ / ٩٧) : أخبرنا أبو المغيرة ثنا الأوزاعي عن الحسن وذكره مرسلاً .

قلت : **وإسناده إلى الحسن البصري صحيح .**

وبالجملة فالحديث حسن لغيره، واللَّه أعلى وأعلم .

ومعرِّفاً لهم بأسمائهِ وصفاتهِ جعَلَ اللَّهُ من صلاتهِ وصلاةِ أهلِ سماواتهِ وأرضه عليه ما يكونُ تنويهاً به، وتشريفاً وإظهاراً للثَّناءِ عليه بينَ أهلِ السَّماءِ والأرضِ .

السَّابع والأربعون : عن أبي الدَّرداء رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَن سَلَكَ طريقاً يبتَغي فيه علماً سَلَكَ اللَّهُ به طريقاً إلى الجنَّةِ وإنَّ الملائكَة لَتَضَعُ أجنحتها رضاً لطالبِ العلمِ وإنَّ العالمَ ليَستغفرُ له من في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتان في الماء وفضلُ العالمِ على العابدِ كفَضلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكب إنَّ العلماء ورَثَةُ الأنبياءِ إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنَّما ورَّثوا العلمَ فمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ، وموتُ العالمِ مُصيبَةٌ لا تُجبَرُ، وثلمةٌ لا تُسَدُّ، ونجمٌ طُمسَ، ومَوتُ قَبيلةٍ أيسَرُ من مَوتِ عالمٍ » .

وهذا حديثٌ حَسَنٌ .(١)

---

(١) **حسن**؛ كما قال المصنِّف رحمه اللَّه :

أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٣٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥ / ١٩٦)، والدارمي (١ / ٩٨)، والبغوي في « شرح السُّنة » (١ / ٢٧٥ - ٢٧٦)، وابن حبان (٨٨ - مع الإحسان)، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٣٦ - ٣٧)، والطحاوي في « مشكل الآثار » (١ / ٤٢٩) .

من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة يحدث عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال : كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنَّك تحدثه عن رسول اللَّه ﷺ ما جئت لحاجة، قال : إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول (وذكره) .

قلت : سقط من عند الترمذي (داود بن جميل) فقال : ولا نعرف هذا الحديث إلّا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل هكذا حدثنا محمود بن =

والطَّريقُ التي يَسلكها إلى الجنَّة جزاءٌ على سلوكهِ في الدُّنيا طريقَ العلمِ الموصلَةِ إلى رضا ربِّهِ، وَوضعُ الملائكَة أجنحتها له تواضعاً له وتوقيراً وإكراماً

= حِراش بهذا الإسناد .

وإنَّما يروى هذا الحديث عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن الوليد بن حميل عن كثير ابن قيس عن أبي الدرداء عن النَّبي ﷺ **وهذا أصح من حديث محمود بن حراش**، ورأى محمد بن إسماعيل هذا أصح .

قلت : هكذا قال الترمذي : « الوليد بن جميل »، وعندهم : « داود بن جميل »، وقع عند أحمد في إحدى روايته « داود بن حميد » وهو تصحيف، والراوية الأخرى مثل الترمذي .

ووقع **في سنده خلاف** ذكره ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٣٣ - ٣٧)، والمنذري في « تهذيب السنن » (٥ / ٢٤٣ - ٢٤٤) .

ومدار الحديث على داود بن جميل وكثير بن قيس وهما ضعيفان، لكن جملة « وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر ومن سلك طريقاً يطل به علماً سهل اللّه له طريقاً إلى الجنَّة » أوردها البخاري (١ / ١٥٩ - ١٦٠ - فتح)، ولذلك قال الحافظ في « فتح الباري » : « طرف من حديث اخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء وحسنه حمزة الكناني وَضَعْفُه عندهم سنده، **لكن له شواهد يتقوى بها**، ولم يفصح المصنِّف بكونه حديثاً فلهذا لا يعد في تعاليقه، لكن إيراده له في المترجم يشعر بأنَّ له أصلاً » .

قلت : **ومن شواهده** ما أخرجه أبو داود (٣٦٤٢) : حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي ثنا الوليد قال لقيت شبيب بن شيبة فحدثني به عن عثمان بن أبي سودة عن أبي الدرداء - يعني عن النَّبي ﷺ - بمعناه .

وهو سند حسن في الشواهد، فبه يتقوى الحديث .

واستدلَّ الحافظ ابن حجر على صحَّته بالكتاب العزيز فقال : « **وشاهده في القرآن** قوله تعالى : ﴿ ثمَّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ » .

لما يَحملهُ من ميراثِ النبوّةِ ويطلبهُ، وهو يدلُّ على المحبّةِ والتَّعظيمِ فمن محبَّةِ الملائكَةِ له وتعظيمه تَضَعُ أجنحتها له، لأنَّهُ طالبٌ لما به حياةُ العالم ونجاتُهُ، فَفيهِ شبَهٌ من الملائكَةِ، وبينَهُ وبينَهُم تناسبٌ، فإنَّ الملائكةَ أنصحُ خَلقِ اللّهِ وأنفعهم لبني آدم، وعلى أيديهم حَصَلَ لهم كلُّ سعادَةٍ وعلمٍ وهدى، ومن نفعهم لبني آدم ونصحهم أنَّهُم يَستَغفرونَ لمُسيئهم، ويُثنونَ على مؤمنيهم، ويُعينوهم على أعدائهم من الشياطين، ويحرصونَ على مصالح العَبدِ أضعافَ حرصِهِ على مصلحَةِ نفسهِ بل يُريدونَ له من خَيرِ الدُّنيا والآخرَةِ ما لا يُريدُه العَبدُ ولا يَخطُرُ ببالهِ .

وقوله ﷺ : « إنَّ العالمَ ليَستغفرُ له مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماء » فإنَّهُ لما كانَ العالمُ سبباً في حصولِ العلمِ الذي به نجاةُ النُّفوس من أنواعِ المُهلكات، وكانَ سعيُهُ مقصوراً على هذا، وكانَت نجاةُ العبادِ على يَديهِ جوزِيَ من جنسِ عملهِ وجعلَ مَن في السَّماواتِ والأرضِ ساعياً في نجاتهِ من أسبابِ الهلكاتِ باستغفارهم له، وإذا كانت الملائكَة تَستَغفرُ للمؤمنين فَكَيفَ لا تَستَغفرُ لخاصَّتهم وخلاصتهم ؟

وقد قيلَ : إنَّ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ المستغفرينَ للعالمِ عام في الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره، ويؤكِّدُ هذا قولهُ : « حتى الحيتان في الماء وحتى النَّملَة في جُحرها » .

فقيلَ : سَبَبُ هذا الاستغفار أنَّ العالمَ يُعلِّمُ الخَلقَ مراعاةَ هذه الحيوانات، ويعرِّفهم ما يحلُّ منها وما يحرُم، ويعرِّفهُم كيفيَّة تناولها

واستخدامها وركوبها والانتفاعِ بها، وكيفيَّةِ ذبحها على أحسنِ الوجوه وأرفقها بالحيوان، والعالمُ أشفَقُ النَّاس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلقَ له، وبالجملَة فالرَّحمَةُ والإحسانُ التي خُلقَ بهما ولهما الحيوان وكتبَ لهما حظهما منه إنَّما يُعرفُ بالعلمِ، فالعالمُ مُعرِّفٌ لذلك؛ فاستحقَّ أن تَستَغفرَ له البهائم، واللَّهُ أعلم .

وقوله : « وَفَضلُ العلمِ على العابدِ كفَضلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكب » تَشبيهٌ مطابقٌ لحالِ القَمَرِ والكواكب، فإنَّ القمرَ يُضيءُ الآفاقَ، ويَمتدُّ نورُه في أقطارِ العالمِ وهذهِ حالُ العالم، وأمَّا الكوكب فنورهُ لا يجاوزُ نَفسهُ أو ما قَربَ منه وهذه حالُ العابدِ الذي يضيءُ نورُ عبادَتهِ عليه دونَ غَيرهِ وإن جاوَزَ نورُ عبادَتهِ غَيرهُ فإنَّما يجاوزهُ غَيرَ بَعيدٍ كما يجاوزُ ضوءَ الكوكب له مجاوَزَةً يَسيرةً .

وفي التَّشبيهِ المذكور لطيفةٌ أخرى وهو انَّ الجَهلَ كالليلِ في ظلمتهِ وحندسهِ، والعلماء والعبادُ بمنزلَةِ القَمَرِ والكواكبِ الطَّالعةِ في تلكَ الظُّلمَة، وفَضلُ نورِ العالمِ فيها على نورِ العابدِ كفَضلِ نورِ القَمَرِ على الكواكب .

وأيضاً فالدِّينُ قوامُهُ وزينتُهُ وإضاءتُهُ بعلمائهِ وعبَّادهِ، فإذا ذَهَبَ علماؤهُ وعبَّادُهُ ذهَبَ الدِّينُ، كما انَّ السَّماءَ إضاءتُها وزينتُها بقمرِها وكواكبِها فإذا خُسفَ قمرُها وانتَثَرَت كواكبُها أتاها ما توعَدُ، وفَضلُ علماء الدِّين على العبادِ كفَضلِ ما بينَ القَمَرِ والكواكب .

فإن قيلَ : كيفَ وقَعَ تَشبيهُ العالمِ بالقَمَرِ دونَ الشمسِ وهي أعظمُ نوراً ؟

قيل فيه فائدتان[1] :

○ **أحدهـمـا** : أنَّ نورَ القمَرِ لـمـا كان مُستفاداً من غيرِهِ كانَ تَشبيهُ العالـمِ الذي نورُهُ مُستفادٌ من شمسِ الرِّسالَةِ بالقَمَرِ أولى من تَشبيهِهِ بالشمسِ .

○ **الـثَّـانيـة** : أنَّ الشمسَ لا يـختلفُ حالـها في نورها، ولا يلـحقها محاقٌ ولاَ تفاوتٌ في الإضاءة، وأمَّا القَمَرُ فإنَّهُ يقلُّ نورهُ ويكثُرُ ويمتلىءُ ويَنقُصُ كما أنَّ العلـماء في العلـمِ على مراتبِهِم من كثرته وقلَّتهِ، فيفضَّل كلٌّ منهـم في علـمِهِ بـحسبِ كثرتهِ وقلَّتهِ وظهورهِ وخفائهِ كما يكونُ القمَرُ كذلك، فعالـمٌ كالبَدرِ ليلَةَ تَمامِهِ، وآخَرُ دونَهُ بليلَةٍ، وثانيَةٍ، وثالثةٍ، وما بَعدَها إلى آخرِ مراتبهِ، وهـم درجاتٌ عندَ اللَّهِ .

فإن قيلَ : تَشبيه العلـمـاء بالنُّجوم أمرٌ معلومٌ كقوله ﷺ : « أصحابي كالنُّجوم »[2] ولـهذا هي في تَعبيرِ الرُّؤيا عبارَة عن العلـمـاء، فكيفَ وقَعَ تَشبيهَهُم هنا بالقَمر ؟

قيلَ : أمَّا تَشبيهُ العلـمـاء بالنُّجوم، فإنَّ النُّجومَ يُهتَدى بها في ظلـمـاتِ البَرِّ والبحرِ وكذلكَ العلـمـاء، والنُّجومُ زينةٌ للسَّمـاء، فكذلكَ العلـمـاءُ زينةٌ للأرضِ،

---

(١) فاتت المصنِّف فائدة زائدة على ما ذكره وهي :

أنَّ القمر نور خالص، بينما الشمس فيها إشراق وإحراق، فتشبيه العالم بالقمر لأنَّ العلم النافع خيرٌ خالصٌ ينتفع به العباد دون إرهاق أو شقاق أو إحراق، واللَّه أعلم .

(٢) أخرجه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ٩١)، وابن حزم في « الأحكام » (٦ / ٨٢) **وضعَّفاه شديداً** .

وحكم شيخنا - حفظه اللَّه - عليه **بالوضع** في « الضعيفة » (٥٨)، فلينظر .

وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراقِ السَّمعِ لئلّا يلبسوا بما يَسترقونهُ من الوَحي الواردِ إلى الرُّسلَ من اللّهِ على أيدي ملائكتهُ وكذلك العلماءُ رجومٌ لشياطين الإنسِ والجنِّ الذي يوحي بَعضهم إلى بَعضٍ زُخرفَ القولِ غروراً، فالعلماء رجومٌ لهذا الصِّنفِ من الشياطين، ولولاهم لطُمِسَت معالمُ الدِّين بتَلبيسِ المضلِّين، ولكنَّ اللَّهَ سبحانهُ أقامَهُم حرَّاساً وحفَظَةً لدينِهِ، ورجوماً لأعدائهِ وأعداءِ رُسلهِ، فهذا وجهُ تَشبيهِهِم بالنُّجوم، وأمَّا تَشبيههم بالقَمر فذلك كانَ في مقامِ تَفضيلهم على أهلِ العبادَةِ المجرَّدَةِ، وموازَنَةِ ما بينهما من الفَضلِ، والمعنى أنَّهم يفضُلونَ العبادَ الذين ليسوا بعلماءِ كما يفضُلُ القَمَرُ سائر الكواكبِ، فكلٌّ من التَّشبيهين لائقٌ بموضعهِ، والحمدُ للَّه .

وقوله : « إنَّ العلماء ورثَةُ الأنبياء » هذا من أعظمِ المناقبِ لأهلِ العلمِ، فأنَّ الأنبياءَ خيرُ خلقِ اللَّهِ فوَرَثتهُم خيرُ الخَلقِ بعدَهُم، ولما كان كلُّ موروثٍ ينتقلُ ميراثُهُ إلى ورثتهِ إذ هم الذينَ يقومون مقامَهُ من بَعدِهِ، ولم يكن بعدَ الرُّسلِ مَن يقومُ مقامَهُم في تبليغِ ما أُرسلوا به إلّا العلماءُ كانوا أحقَّ النَّاسِ بميراثهم .

وفي هذا تَنبيهٌ على أنَّهُم أقرَبُ النَّاسِ إليهم، فإنَّ الميراث يكونُ لأقرَبِ النَّاسِ إلى الموروثِ، وهذا كما أنَّهُ ثابتٌ في ميراثِ الدِّينار والدِّرهم فكذلكَ هو في ميراث النبوَّة، واللَّهُ يختصُّ برحمتهِ من يشاءُ .

وفيه أيضاً إرشادٌ وأمرٌ للأُمَّةِ بطاعتِهِم واحترامِهِم وتعزيزِهِم وتوقيرِهِم وإجلالِهِم، فإنَّهُم وَرَثَةُ مَن هذه بعضُ حقوقهم على الأُمَّةِ وخلفاؤهم فيهم .

وفيه تنبيهٌ على أنَّ محبَّتهُم من الدِّين وبُغضَهم منافٍ للدِّين كما هو

ثابتٌ لموروثهم، وكذلكَ معاداتهُم ومحاربتُهُم معاداةٌ ومحاربةٌ للَّهِ كما هو في موروثهم .

قال عليٌ - كرَّمَ اللَّهُ وجهَهُ[1] ورضيَ عنهُ : « محبَّةُ العلماء دِينٌ يُدانُ به » .[2]

وقال ﷺ فيما يَرويه عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ : « مَن عادى لي وليَّاً فَقَد بارَزني بالمُحارَبةِ » .[3]

ووَرَثَةُ الأنبياء ساداتٌ أولياءُ للَّهِ عزَّ وجلَّ .

وفيه تنبيهٌ للعلماء على سلوكِ هدى الأنبياء وطريقتهم في التَّبليغ من الصَّبرِ والاحتمالِ، ومقابلةِ إساءَةِ النَّاسِ إليهم بالإحسانِ والرِّفقِ بهم،

---

(١) هذا الكلام **أحد ثلاثة أمور** أفرزتها بدعة التشيع والرفض أفردوا بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - دون الصحابة - رضي اللَّه عنهم أجمعين .

وأمَّا الثاني : فهو قولهم : « الإمام » .

وأمَّا الثالث : فقولهم : « عليه السلام » .

هذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يُسوَّى بين الصحابة في ذلك، وإلّا فلا .

أمَّا وقد اتخذتها الشيعة الشَّنيعة دثاراً وشعاراً فلا نقرُّ أعينهم بها ولا كرامة، فصحابة رسول اللَّه ﷺ كلهم عندنا عدول أئمَّة، كبت اللَّه أعداءهم، وردَّ كيدهم في نحرهم .

وقد سرى بعض هذه الأمور الثلاثة إلى بعض أهل السُّنة وهم لا يشعرون، فلعلَّ في هذا ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد .

وانظر لزاماً : « معجم المناهي اللَّفظية » لأخينا الشيخ بكر بن عبداللَّه أبو زيد - حفظه اللَّه - (ص ٢١٣ - ٢١٧) .

(٢) سيأتي تخريجه (ص ١٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري (١١ / ٣٤٠ - ٣٤١ - فتح) .

وانظر لزاماً : « الصحيحة » (١٦٤٠) لشيخنا حفظه اللَّه .

واستجلابهم إلى اللَّهِ بأحسَنِ الطُّرق، وبَذلِ ما يمكنُ من النَّصيحَةِ لهم، فإنَّهُ بذلكَ يحصُلُ لهم نصيبهُم من هذا الميراثِ العظيم قدرُهُ، الجليلُ خَطرُهُ .

وفيه أيضاً تنبيهٌ لأهلِ العلمِ على تربيَةِ الأُمَّةِ كما يربِّي الوالدُ ولدهُ، فيربُّونهم بالتَّدريج والتَّرقِّي من صغارِ العلمِ إلى كبارهِ، وتحميلهم منه ما يطيقونَ كما يفعلُ الأبُ بولدهِ الطِّفل في إيصالِ الغَذاء إليه، فإنَّ أرواحَ البَشرِ بالنِّسبَةِ إلى الأنبياء والرُّسل كالأطفالِ بالنِّسبَةِ إلى آبائهم بل دونَ هذه النِّسبَةِ بكثيرٍ، ولهذا كلُّ روحٍ لم تُرَبِّها الرُّسلُ لم تُفلح ولم تَصلُح لصالحةٍ كما قيل :

ومَن لا يُرَبِّيهِ الرَّسولُ ويَسقِهِ
لباناً له قَد درَّ مِن ثَدي قُدسِهِ
فَذاكَ لَقيطٌ مالَهُ نسبَةُ الولا
ولا يَتَعدَّى طَورَ أبناءِ جنسهِ

وقوله : « إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درهماً إنَّما ورَّثوا العلمَ » هذا من كمالِ الأنبياءِ وعَظيمِ نُصحهم للأُمَم، وتمامِ نعمَة اللَّهِ عليهم وعلى أممِهِم أن أزاحَ العلَل، وحَسَمَ جميعَ الموادِّ التي توهِمُ بعضَ النُّفوسِ أنَّ الأنبياء من جنسِ الملوكِ الَّذينَ يُريدونَ الدُّنيا وملكها، فحماهُم اللَّهُ سبحانهُ وتعالى من ذلكَ أتَمَّ الحمايَة .

ثمَّ لما كان الغالبُ على النَّاسِ أنَّ أحدهم يريدُ الدُّنيا لولدهِ من بعدهِ، ويسعى ويتعب ويحرمُ نفسهُ لولدهِ سدَّ هذه الذَّريعَة عن أنبيائه ورسلهِ، وقطعَ هذا الوهم الذي عساهُ أن يخالطَ كثيراً من النُّفوس التي تقول : فلعلَّهُ إن لم

يطلب الدُّنيا لنفسهِ فهو يحصِّلها لولده، فقال ﷺ : « نحنُ معاشرَ الأنبياء لا نورِّثُ ما تَركنا فهو صَدَقَةٌ »(١) فلم تورِّثُ الأنبياء ديناراً ولا درهماً وإنَّما ورَّثوا العلمَ .

وأمَّا قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيمانُ داودَ ﴾ [النمل : ١٦]، فهو ميراثُ العلمِ والنُّبوَّة لا غير، وهذا باتِّفاق أهلِ العلمِ من المُفسِّرينَ وغيرهم، وهذا لأنَّ داودَ عليه السَّلام كان له أولادٌ كثير سوى سليمان فلو كانَ المَوروثُ هو المالُ لم يكُن سُليمان مُختصَّاً به .

وأيضاً فإنَّ كلام اللَّهِ يُصانُ عن الإخبارِ بمثلِ هذا؛ فإنَّهُ بمنزلَةِ أن يُقال : ماتَ فلانٌ وورثهُ ابنهُ، ومنَ المَعلومِ أنَّ كلَّ أحدٍ يرثهُ ابنهُ، وليسَ في الإخبارِ بمثلِ هذا فائدةٌ .

وأيضاً فإنَّ ما قبلَ الآيَةِ وما بَعدَها يُبيِّنُ أنَّ المُرادَ بهذه الوراثَةِ وراثَةُ العلمِ والنُّبوَّةِ لا وراثَة المالِ، قال تعالى : ﴿ ولَقَد آتينا داودَ وسُليمانَ علماً وقالا الحمدُ للَّهِ الَّذي فضَّلنا على كثيرٍ من عبادهِ المُؤمنين * وَوَرِثَ سليمانَ داودَ ﴾ [النمل : ١٥ - ١٦]، وإنَّما سيقَ هذا لبيانِ فَضلِ سليمانَ وما خَصَّهُ اللَّهُ به من كرامتِهِ وميراثِهِ ما كانَ لأبيهِ من أعلى المواهب وهو العلمُ والنُّبوَّةُ ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ الفَضلُ المُبين ﴾ [النمل : ١٦] .

وكذلكَ قول زكريَّا عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإنِّي خِفتُ المَوالي مِن وَرائي وكانَت امرَأتي عاقِراً فَهَب لي مِن لَدُنك وَليّاً يَرثُني ويَرِثُ مِن آلِ يَعقوبَ

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٩٧ - فتح)، ومسلم (١٧٥٧) (٤٩) .

واجعَلهُ رَبِّ رَضيّاً ﴾ [مريم : ٥ - ٦]، فهذا ميراثُ العلمِ والنُّبوَّة والدَّعوَة إلى اللَّهِ، وإلّا فلا يُظنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنَّهُ يخافُ عصبتهُ أن يَرثوهُ مالَهُ، فيسألَ اللَّهَ العَظيمَ ولداً يمنعهم ميراثهُ ويكونَ أحقَّ به منهم، وقَد نزَّهَ اللَّهُ انبياءَهُ ورسلهُ عن هذا وأمثالهِ؛ فبُعداً لِمَن حرَّفَ كتابَ اللَّهِ، وردَّ على رسولهِ كلامه، ونَسَبَ الأنبياءَ إلى ما هم براء مُنَزَّهون عنهُ، والحَمدُ للَّهِ على تَوفيقهِ وهدايتهِ .

وقوله : « فَمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ» أعظمُ الحظوظِ وأجداها ما نفعَ العَبدَ ودامَ نفعُهُ له، وليسَ هذا إلّا حظَّهُ من العلمِ والدِّينِ فهو الحظُّ الدَّائم النَّافعُ الذي إذا انقَطَعَت الحظوظُ لأربابها فهو موصولٌ له أبد الآبدين، وذلكَ لأَنَّهُ موصولٌ بالحَيِّ الذي لا يموتُ، فلذلكَ لا يَنقطعُ ولا يفوتُ، وسائرُ الحظوظ تُعدَم وتتلاشى بتلاشي متعلِّقاتها كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمنا إلى ما عَمِلوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلناهُ هَباءً مَنثوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣]، فإنَّ الغايَةَ لمَّا كانت منقطعَةً زائلةً تبعَتها أعمالُهُم فانقَطَعَت عنهم أحوجَ ما يكونُ العاملُ إلى عملهِ، وهذه هي المُصيبَةُ التي لا تُجبَرُ عياذاً باللَّهِ، واستعانَةً به، وافتقاراً وتوكُّلاً عليه، ولا حولَ ولا قوَّة إلّا باللَّهِ .

وقولهُ : « موتُ العالمِ مُصيبَةٌ لا تُجبَرُ، وثُلمَةٌ لا تُسَدُّ، ونَجمٌ طُمسَ، ومَوتُ قَبيلَةٍ أيسَرُ من موتِ عالمٍ »؛ لمَّا كانَ صلاحُ الوجود بالعلماء ولولاهم كانَ النَّاسُ كالبهائمِ بل أسوأ حالاً كانَ موتُ العالمِ مُصيبَةً لا يَجبُرها إلّا خَلَفُ غيره له .

وأيضاً فإنَّ العلماء هم الَّذينَ يسوسونَ العبادَ والبلادَ والممالك فموتهم فسادٌ لنظام العالمِ، ولهذا لا يزالُ اللَّهُ يَغرِسُ في هذا الدِّين منهم خالفاً عن

سالفٍ يحفظُ بهم دينهُ وكتابهُ وعبادهُ، وتأمَّل إذا كانَ في الوجودِ رجلٌ قَد فاقَ العالم في الغنى والكرم وحاجتهم إلى ما عندَهُ شديدةٌ وهو مُحسنٌ إليهم بكلِّ مُمكنٍ ثمَّ ماتَ وانقَطَعَت عنهم تلكَ المادَّةُ، فموت العالِم أعظمُ مُصيبةٌ من موتِ مثلِ هذا بكثيرٍ، ومثلُ هذا يموتُ بموتهِ أمَمٌ وخلائقُ كما قيل :

تَعلم ما الرَّزِيَّةُ فَقْدُ مالٍ
ولا شاةٌ تَموتُ ولا بَعير
ولكنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ حُرٍّ
يموتُ بمَوتهِ بَشرٌ كثير

وقال آخر :

فما كانَ قَيسٌ هلكه هَلك واحدٍ
ولكنَّهُ بُنيانُ قومٍ تَهَدَّما

الثَّامن والأربعون : العالمُ أشدُّ على الشيطان من العابد[1]، وهذا معناهُ صحيحٌ؛ فإنَّ العالمَ يُفسدُ على الشيطانِ ما يَسعى فيه، ويَهدمُ ما يبنيهِ، فكلُّ ما أرادَ إحياءَ بدعَةٍ وإماتَةَ سنَّةٍ حالَ العالمُ بينَهُ وبينَ ذلكَ، فلا شيءَ أشدُّ عليه من بقاءِ العالِم بين ظَهرانيِّ الأُمَّةِ، ولا شيءَ أحبُّ إليه من زوالِهِ من بينَ أظهُرهم ليتمكَّنَ من إفسادِ الدِّين وإغواءِ الأُمَّة، وأمَّا العابدُ فغايَتُهُ أن يجاهدَ ليسلَمَ منه في خاصَّةِ نفسه، وهيهاتَ له ذلك .

---

(١) **الأحاديث التي في الباب لا تصح**، ولذلك حذفتها، ولكن معناها صحيح كما ذكر المصنِّف - رحمه اللَّه - يدلُّ عليه جملة من الأدلّة الصحيحة .

التَّاسع والأربعون : عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه قال سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « الدُّنيا ملعونَةٌ ملعونٌ ما فيها إلّا ذكرُ اللَّهِ وما والاهُ وعالمٌ ومتعلِّمٌ » .[1]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٤ - تحفة)، وابن ماجه (٤١١٢)، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٠٨)، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٢٧ - ٢٨)، وابن أبي عاصم في « الزهد » (٥٧) .

من طريق عبدالرحمن بن ثابت قال : سمعت عطاء بن قرَّة سمعت عبداللَّه بن حمزة قال : سمعت أبا هريرة يقول (وذكره) .

قلت : وهذا **إسناد حسن** .

وتابعه وهيب بن الورد العابد عن عطاء بن قرَّة السلولي به .

أخرجه البغوي في « شرح السُّنة » (١٤ / ٢٢٩ - ٢٣٠) .

وللحديث شواهد عن جماعة من الصحابة :

○ **حديث جابر بن عبداللَّه رضي اللَّه عنه :**

أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣ / ١٥٧ و ٧ / ٩٠)، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٥١٢) و « الزهد » (٢٤٤) .

من طريق عبداللَّه بن الجراح ثنا عبداللَّه بن عمرو العقدي ثنا سفيان بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر (وذكره) .

قال أبو نعيم : غريب عن الثوري تفرد به عنه أبو عامر العقدي .

○ **حديث أبي الدرداء رضي اللَّه عنه :**

أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٥١٣ و ١٠٦٦١) .

وأخرجه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٢٧) موقوفاً .

○ **حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه :**

أخرجه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٢٧) .

○ **حديث عبداللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه :** =

ولـما كانت الدُّنيا حَقيرَةً عندَ اللَّهِ لا تساوي لديهِ جناحَ بعوضَةٍ كانَت وما فيها في غايَةِ البُعد منه، وهذا هو حقيقةُ اللَّعنَة وهو سبحانهُ إنَّما خَلَقها مزرَعَةً للآخرَة ومعبراً إليها يتزوَّد منها عبادُه إليه، فلـم يكن يقرُب منها إلّا ما كانَ متضمِّناً لإقامَةِ ذِكرِهِ، ومُفضياً إلى محابِّهِ، وهو العلـمُ الذي به يُعرَفُ اللَّهُ ويُعبَدُ ويُثنى عليه ويُمـجَّد، ولـهذا خلقها وخلَقَ أهلـها، كما قالَ تعالى : ﴿ وما خَلَقتُ الـجنَّ والإنسَ إلّا ليَعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦]، وقال : ﴿ اللَّهُ خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ومنَ الأرضِ مثلَهُنَّ يتَنَزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتعلـموا أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قَدير وإنَّ اللَّهَ قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علـماً ﴾ [الطلاق : ١٢]، فتضمَّنت هاتانِ الآيتانِ أنَّهُ سبحانهُ إنَّـما خلق السَّماوات والأرضِ وما بينهـما ليُعرَفَ بأسـمائهِ وصفاتِهِ وليُعبَد، فهذا الـمطلوبُ، وما كانَ طريقاً إليه منَ العلـمِ والتَّعلُّـم فـهو الـمستثنى من اللَّعنَة، واللَّعنةُ واقعةٌ على ما عداهُ إذ هو بَعيدٌ عن اللَّهِ وعَن مـحابِّه وعَن دينهِ، وهذا هو متعلِّق العقاب في الآخرَة، فإنَّهُ كـما كانَ متعلَّق اللَّعنَةِ التي تتضمَّن الذَّمَّ والبغضَ فهو متعلَّقُ العقاب، واللَّهُ سبحانهُ إنَّـما يـحبُّ من عبادِهِ ذكرَه وعبادتَـهُ ومعرفتَـهُ ومـحبَّتَـهُ، ولوازمَ ذلكَ وما أفضى إليه،

= أخرجه البزار (٣٣١٠ - كشف الأستار) .

قال البزار : قد رواه غير واحد عن عبدالرحمن بغير هذا السياق، ولا نعلم أحداً تابع المغيرة على هذه الرواية .

وقال الهيثمي في « المجمع » (٧ / ٢٦٤) : « وفيه المغيرة بن مطرف لا أعرفه، وبقيّة رجاله وثقوا » .

وبالجملة؛ فالحديث صحيح .

وقد **صححه** الضياء المقدسي وشيخنا أبو عبدالرحمن الألباني - حفظه الله .

وما عداهُ فهو مبغوضٌ له مذمومٌ عندَهُ .

الخمسون : جَعْلُ طلبِ العلم من سبيل اللَّه، وإنَّما جُعِلَ طَلَبُ العلمِ من سبيلِ اللَّهِ؛ لأنَّ به قوامَ الإسلامِ كما أنَّ قوامَهُ بالجهاد، فقوامُ الدِّين بالعلمِ والجهاد، ولهذا كانَ الجهادُ نوعين :

- **الأوَّل** : جهادُ باليَدِ والسِّنانِ، وهذا المُشاركُ فيه كثيرٌ .
- **الثَّاني** : الجهادُ بالحُجَّةِ والبيانِ، وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباعِ الرُّسلِ، وهو جهادُ الأئمَّة، وهو أفضلُ الجهادَين لعظمِ منفعتِهِ، وشدَّةِ مؤنتِهِ، وكثرَةِ أعدائِهِ .

قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكيَّة : ﴿ ولو شئنا لَبَعَثنا في كلِّ قَريَةٍ نَذيراً * فلا تُطِعِ الكافرينَ وجاهِدهُم بهِ جهاداً كبيراً ﴾ [الفرقان : ٥١ - ٥٢]، فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبرُ الجهادَين، وهو جهادُ المنافقين أيضاً، فإنَّ المنافقين لم يكونوا يقاتلونَ المسلمين بل كانوا معهم في الظَّاهرِ وربَّما كانوا يقاتلونَ عدوَّهُم معهم ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهد الكُفَّارَ والمُنافقين واغلُظ عَلَيهِم ﴾ [التوبة : ٧٣]، ومعلومٌ أنّ جهادَ المنافقين بالحجَّةِ والقرآن .

والمقصود : أنَّ سبيلَ اللَّهِ هي الجهادُ وطلبُ العلمِ ودعوَةُ الخَلقِ به إلى اللَّه، ولهذا قَرَنَ سبحانهُ بينَ الكتابِ المنزَّلِ والحديدِ النَّاصر، كما قال تعالى : ﴿ لَقَد أرسَلنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأنزَلنا مَعَهُم الكتابَ والميزانَ ليَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ وأنزَلنا الحَديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليَعلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَهُ بالغَيبِ أنَّ اللَّهَ قَويٌّ عَزيز ﴾ [الحديد : ٢٥]، فذكرَ الكتابَ والحديدَ

إذ بهما قوامُ الدِّينِ كما قيل :

فما هوَ إلّا الوَحيُ أوحَدٌ مُرهَفٌ
تميلُ ظباهُ أخدَعاً كلَّ مايلِ

فهذا شفاءُ الدَّاء من كلِّ عاقلٍ
وهذا دواءُ الدَّاءِ من كلِّ جاهلٍ

ولمَّا كانَ كلٌّ من الجهادِ بالسّيفِ والحجَّةِ يُسمَّى سبيلَ اللَّهِ فسَّرَ الصَّحابَةُ رضيَ اللَّهُ عنهم قوله : ﴿ أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء : ٥٩]، بالأُمراء والعلماء، فإنَّهُم المجاهدون في سبيلِ اللَّهِ هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهُم، فطَلَبُ العلم وتعليمُه من أعظمِ سبيل اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

الحادي والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا لمَن سمعَ كلامَهُ ووَعاهُ وبلَّغَهُ بالنَّضرَةِ، وهي البَهجَةُ ونضارَةُ الوجه وتحسينُهُ .

عن ابن مَسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « نَضَّرَ اللَّهُ امرءاً سمعَ مقالَتي فوَعاها وحَفِظَها وبلَّغها فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ للَّه، ومناصحَةُ أئمَّةُ المسلمين، ولزومُ جماعتهم فإنَّ دعوَتهُم تُحيطُ من ورائهم » .[1]

---

(١) أخرجه الشافعي في « المسند »(١ / ١٤)، والترمذي (٢٥٦٧ و ٢٥٦٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٤٠)، والبغوي في « شرح السُّنة » (١ / ٢٣٥ - ٢٣٦)، والحميدي (٨٨) وغيرهم .

من طرق عن عبداللَّه بن مسعود وهو **حديث صحيح** . =

ولو لـم يكُن في فَضلِ العلـم إلّا هذا وَحدَهُ لكفى به شرفاً، فإنَّ النَّبَيَّ ﷺ دعا لـمَن سمعَ كلامَهُ ووعاهُ وحَفِظَهُ وبلَّغهُ، وهذه هي مراتبُ العلـمِ **أوَّلـها وثانيها** سمـاعهُ وعَقلهُ فإذا سمعهُ وعاهُ بقلبهِ أي : عَقلهِ واستقرَّ في قلبهِ كمـا يَستقرُّ الشيءُ الذي يوعى في وعائه ولا يَخرُجُ منه، وكذلكَ عَقلُهُ هو بـمنزلَةِ عَقلِ البَعير والدَّابَّة ونـحوها حتى لا تَشردَ وتَذهَبَ، ولـهذا كانَ الوَعيُ والعَقل قَدراً زائداً على مـجرَّد إدراكِ الـمعلوم .

الـمرتبَة الثَّالثة : تعاهده وحفظهُ حتى لا ينساهُ فيَذهبُ .

الـمرتبَة الرَّابعَة : تبليغهُ وبثُّهُ في الأُمَّة ليَحصلَ به ثمرتُـهُ ومقصودُهُ، وهو بثُّهُ في الأُمَّة، فهو بمنزلةِ الكَنز الـمدفون في الأرضِ الذي لا ينفقُ منه وهو مُعرَّضٌ لذهابه، فإنَّ العلـمَ ما لـم يُنفق منه ويُعلَّم فإنَّهُ يوشكُ أن يَذهَبَ، فإذا أُنفقَ منه نما وزكا على الإنفاق، فَمن قامَ بهذه الـمراتب الأربع دخَلَ تـحتَ هذه الدَّعوَة النَّبويَّة الـمتضمِّنَة لـجمـالِ الظَّاهر والباطن، فإنَّ النُّضرَة هي البَهجَةُ والـحسنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من من آثارِ الإيمـان وابتهاجٌ الباطن به وفرح القَلبِ وسرورهِ والتذاذِهِ به، فتَظهَرُ هذه البَهجَةُ والسُّرور والفَرحَة نضارَةً على الوجهِ،

= قال المصنِّف - رحمه اللَّه - في « الأصل » :

« وروى هذا الأصل عن النَّبي ﷺ ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وجبير ابن مطعم، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، والنعمان بن بشير » .

وقال الحاكم (١ / ٨٨) : « وعن جماعة من الصَّحابة منهم عمر، وعثمان، وعلي، ومعاذ بن جبل، وابن عمر، وابن عباس، وأبو هريرة وغيرهم » .

قلت : **هذه إشارة إلى تواتره**، وهو كذلك، وانظر لزاماً كتابي « الأدلّة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد » .

ولهذا يجمعُ له سبحانهُ بينَ البَهجَة والسُّرور والنُّضرَة، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوقاهُم اللّهُ شرَّ ذلكَ اليومَ ولقَّاهُم نُضرَةً وسُروراً ﴾ [الإنسان : ١١]، فالنُّضرَةُ في وجوههم والسُّرور في قلوبهم، فالنَّعيم وطيبُ القلبِ يَظهرُ نضارَةً في الوجهِ، كما قالَ تعالى : ﴿ تَعرفُ في وجوههم نَضرَةَ النَّعيم ﴾ [المطففين : ٢٤] .

والمقصود : أنَّ هذه النُّضرَةَ في وجهِ من سَمِعَ سنَّةَ رسولِ اللّهِ ﷺ وَوَعاها وحَفِظها وبلَّغها، فهي أثَرُ تلكَ الحلاوَةِ والبَهجَةِ والسُّرورِ الذي في قلبهِ وباطنهِ .

وقوله ﷺ : « رُبَّ حاملِ فقهِ إلى مَن هو أفقهُ منه » تنبيهٌ على فائدَة التَّبليغ، وأنَّ المبلَّغَ قَد يكونُ أفهَمُ من المبلِّغ، فيحصُل له في تلكَ المقالَةِ ما لم يحصُل للمبلِّغ، أو يكونُ المعنى أنَّ المبلَّغ قَد يكونُ أفقهَ من المبلِّغ، فإذا سمعَ تلكَ المقالَةِ حملها على أحسَنِ وجوهِها واستَنبَطَ فِقهَها وعَلمَ المُرادَ منها .

وقوله ﷺ : « ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ ... »؛ أي : لا يحملُ الغلَّ ولا يَبقى فيه معَ هذه الثَّلاثَة، فإنَّها تنفي الغِلَّ والغِشَّ وهو فَسادُ القَلبِ وسخايمُهُ، فالمخلصُ للّه إخلاصُهُ يمنعُ غلَّ قلبه ويخرجُهُ ويزيلُهُ جملَةً، لأنَّهُ قَد انصَرَفَت دواعي قلبهِ وإرادتهِ إلى مَرضاةِ ربِّهِ؛ فلم يَبقَ فيه موضعٌ للغُلِّ والغشِّ كما قال تعال : ﴿ كذلكَ لِنَصرِفَ عنهُ السُّوءَ والفحشاءَ إنَّهُ من عبادِنا المُخلَصين ﴾ [يوسف : ٢٤]، فلمَّا أخلَصَ لربِّه صَرَفَ عنه دواعي السُّوءِ والفحشاءِ فانصَرَفَت عنه السُّوءُ والفحشاءُ .

ولهذا لـمَّا علمَ إبليسُ أنَّهُ لا سَبيلَ له على أهلِ الإخلاصِ استثناهُم من شرطته التي اشترطها للغوايَة والإهلاك فقال : ﴿ فَبِعزَّتكَ لأُغوينَّهُم أجمعين إلّا عبادَكَ مِنهُم المُخلَصين ﴾ [ص : ٨٣]، قال تعالى : ﴿ إنَّ عبادي لَيسَ لكَ عَلَيهِم سُلطانٌ إلّا مَن اتَّبعَكَ مِنَ الغاوينَ ﴾ [الحجر : ٤٢]، فالإخلاصُ هو سبيلُ الخلاصِ، والإسلامُ هو مركبُ السَّلامَة، والإيمانُ خاتمُ الأمان .

وقوله : « ومناصَحةُ أئـمَّةُ المسلمين » هذا أيضاً منافٍ للغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ النَّصيحَةَ لا تجامعُ الغِلَّ إذ هي ضدَّهُ، فمَن نَصَحَ الأئمَّة والأُمَّة فقَد بَرىءَ من الغِلِّ .

وقوله : « ولزومِ جماعتهم »؛ هذا أيضاً ممَّا يطهِّر القَلبَ منَ الغِلِّ والغِشِّ، فإنَّ صاحبَهُ للزومهِ جماعَةِ المسلمين يحبُّ لهم ما يُحبُّ لنفسهِ، ويكرهُ لهم ما يكرهُ لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرُّهُ ما يسرُّهُم، وهذا بخلاف من انحازَ عنهم واشتَغَل بالطَّعنِ عليهم والعَيبِ والذَّمِّ كفِعلِ الرَّافضَةِ والخوارجِ والمعتَزلَةِ وغيرهم، فإنَّ قلوبَهُم ممتلئةٌ غِلّاً وغِشاً، ولهذا تجدُ الرَّافضَة أبعَدَ النَّاسِ من الإخلاصِ، وأغشهم للأمَّةِ، وأشدَّهُم بُعداً عَن جماعَةِ المُسلمين، فهؤلاء أشدُّ النَّاسِ غِلّاً وغِشاً بشهادَةِ الرَّسول عليهم، وشهادتهم على أنفسهم بذلك، فإنَّهُم لا يكونونَ قطُّ إلّا أعواناً وظَهراً على أهلِ الإسلامِ، فأيُّ عدوٍّ قامَ للمُسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانتهُ، وهذا أمرُ قَد شاهَدَتهُ الأُمَّة منهم، ومَن لم يُشاهدِ فَقَد سمعَ منه ما يَصمُّ الآذانَ ويُشجي القلوب .

وقوله : « فإنَّ دعوتَهُم تحيطُ من ورائهم »؛ هذا من أحسَنِ الكلام وأوجَزهِ وأفخمِهِ معنى، شبَّهَ دعوَةَ المسلمين بالسُّورِ والسِّياجِ المحيطِ بهم،

المانع من دخولِ عدوِّهم عليهم، فتلكَ الدّعوَةُ التي هي دعوَةُ الإسلامِ وهم داخلونها لما كانَت سوراً وسياجاً عليهم أخبَرَ أنَّ مَن لَزِمَ جماعَةَ المسلمين أحاطَت به تلكَ الدّعوَة التي هي دعوَةُ الإسلام كما أحاطَت بهم، فالدَّعوَةُ تجمَعُ شملَ الأُمَّةِ، وتلُمُّ شعثها، وتحيطُ بها، فمن دَخَلَ في جماعتها أحاطَت به وشملتهُ .

الثاني والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ بتبليغِ العلمِ عنه، ففي « الصَّحيحين »[1] من حديثِ عبدالله بن عَمرو قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « بلِّغوا عنِّي ولَو آيَة وحدِّثوا عَن بني إسرائيلَ لا حَرَجَ ومَن كذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتَبَوَّأ مقعَدَهُ من النَّار » .

وقال : « ليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائبَ » .[2]

فأمَرَ ﷺ بالتَّبليغ عنه لما في ذلكَ من حصولِ الهُدى، وله ﷺ أجرُ من بَلَّغَ عنه وأجرُ من قَبِلَ ذلكَ البلاغ، وكلَّما كثرَ التَّبليغُ عنه تضاعَفَ له الثَّوابُ فلهُ الأجرُ بعَدَدِ كلِّ مُبلِّغٍ وكلِّ مهتَدٍ بذلك البلاغِ سوى ما له من أجرِ عَمَلهِ المختَصِّ به، فكلُّ مَن هُدِيَ واهتَدى بتبليغهِ فلهُ أجرُه، لأنَّهُ هو الدَّاعي إليه، ولو لم يكُن في تبيلغ العلمِ عنه إلّا حصولُ ما يحبُّهُ ﷺ لكفى به فضلاً .

وعلامَةُ المُحبِّ الصَّادقِ أن يَسعى في حصولِ محبوبِ محبوبهِ، ويبذل

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٤٩٦ - فتح)، ولم أره في « صحيح مسلم » .

(٢) جزء من خطبة الرسول ﷺ يوم الفتح أخرجه البخاري (١ / ١٥٧ - ١٥٨ - فتح)، ومسلم (١٣٥٤) .

جهدَهُ وطاقَتهُ فيها، ومعلومٌ أنَّهُ لا شيءَ أحبُّ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ من إيصالِهِ الهُدى إلى جميع الأُمَّة، فالمُبلِّغ عنه ساعٍ في حصولِ محابِّهِ فهو أقرَبُ النَّاسِ منه، وأحبُّهُم إليه، وهو نائبهُ وخليفتهُ في أُمَّتِهِ، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلمِ وأهلِهِ .

الثالث والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدَّم بالفضائل العلميَّةِ في أعلا الولاياتِ الدِّينيَّة وأشرفها وقدَّمَ بالعلمِ بالأفضَل على غيرِهِ .

فرَوى مسلمٌ في « صحيحه »[1] حَديثَ أبي مَسعود البَدريِّ عن النَّبيِّ ﷺ : « يؤمُّ القَومَ أقرؤهُم لكتابِ اللَّهِ فإن كانوا في القراءَةِ سواءٌ فأعلمهُم بالسُّنَّةِ فإن كانوا في السُّنَّةِ سواءٌ فأقدمهم إسلاماً أو سنّاً » .

وذكرَ الحديث فقدَّمَ في الإمامَة تَفضيلَهُ العلمَ على تقدُّمِ الإسلامِ والهجرَةِ، ولمَّا كانَ العلمُ بالقرآنِ أفضلَ من العلمِ بالسُّنَّةِ؛ لِشَرَفِ معلومِهِ على معلومِ السُّنَّة قُدِّمَ العلمُ به، ثمَّ قدِّم العلمُ بالسُّنَّةِ على تَقدُّم الهجرَةِ، وفيه من زيادَةِ العملِ ما هو متميِّزٌ به لكن إنَّما راعى التَّقديم بالعلمِ ثمَّ بالعمل، وراعى التَّقديمَ بالعلمِ بالأفضَل على غيره، وهذا يدلُّ على شَرَفِ العلمِ وفَضلِهِ، وأنَّ أهلَهُ هم أهلُ التَّقدُّم إلى المراتب الدِّينيَّة .

الرابع والخمسون : ما ثَبَتَ في « صحيح البخاري »[2] من حديثِ عثمان بن عفَّان رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « خَيركُم من

---

(١) برقم (٦٧٣) .
(٢) أخرجه البخاري (٩ / ٧٤ - فتح) .

تعلَّمَ القرآن وعلَّمهُ » .

وتعلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ يتناولُ تعلُّمَ حروفِهِ وتعليمها، وتعلُّمَ معانيهِ وتعليمَها، وهو أشرَفُ قِسمَي علمهِ وتعليمهِ، فإنَّ المعنى هو المقصودُ واللفظُ وسيلةٌ إليه، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُهُ وتعلُّمُ الغايَة وتَعليمها، وتعلُّمُ اللفظِ المجرَّد وتعليمُهُ، وتعلُّم الوسائلِ وتعليمها، وبينهما كما بينَ الغاياتِ والوسائلِ .

الخامس والخمسون : طالب العلم منهوم لا يشبع لما جاء عن رسول الله ﷺ :

« منهومان لا يشبعان منهوم في علم لا يشبع ومنهوم في دنيا لا يشبع » .[1]

---

(١) أخرجه الحاكم (١ / ٩٢) من طريق قتادة عن أنس .
وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولم أجد له علَّة .
ووافقه الذهبي .
وخالفهما شيخنا في التعليق على « المشكاة » (٢٦٠) فقال : علَّته أنَّ قتادة مدلس وقد عنعنه .
وله طريق آخر عن حماد بن مسلم عن أنس أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٢٧٩) .
○ **وله شاهد من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما .**
أخرجه أبو خيثمة في « العلم » (١٤١) .
من طريق ليث عن مجاهد عن ابن عبّاس أحسبه رفعه إلى النّبي ﷺ .
قلت : هذا **إسناد ضعيف** فيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف لتدليسه واختلاطه .
وأخرجه الدارمي (١ / ٩٦) من طريق ليث عن طاووس عن ابن عبّاس موقوفاً .
وبالجملة؛ فالحديث **صحيح بطرقه وشواهده**، واللَّه أعلى وأعلم .

النَّهمَةُ في العلمِ وعَدمِ الشبعِ منه من لوازِمِ الإيمانِ وأوصافِ المؤمنينَ، ولهذا كانَ أئمَّةُ الإسلامِ إذا قيلَ لأحدهم : إلى متى تطلب العلم ؟ فيقول : إلى المَمات .

السادس والخمسون : عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه عن النَّبي ﷺ : « خصلتانِ لا تجتمعان في منافقٍ حسنُ سَمتٍ وفِقهٌ في الدِّين » .[1]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٤) : حدثنا أبو كريب حدثنا خلف بن أيوب العامري عن عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ (وذكره) .

وقال : هذا حديث غريب، ولا نعرف هذا الحديث من حديث عوف إلّا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري، ولم أر أحداً يروي عنه غير أبي كريب محمد بن العلاء، ولا أدري كيف هو .

وأخرجه العقيلي (٢ / ٢٤)، والهروي في « ذم الكلام » (١ / ١٤ / ٢) وقال : قال الجارودي : تفرد به أبو كريب .

قلت : وأبو كريب ثقة احتج به الشيخان، وإنَّما القول يضطجع في شيخه خلف بن أيوب العامري، ولكنَّه ليس بمجهول وإن جهله الترمذي للآتي :

١ - روى عنه جماعة كالإمام أحمد بن حنبل، وأبو معمر إسماعيل بن إبراهيم القطيعي، وزكريا بن يحيى اللؤلؤي، وأبو كريب، ومحمد بن مقاتل المروزي، وغيرهم من الكبار .

٢ - وثَّقه ابن حبان في « الثقات » (٨ / ٢٢٧) .

٣ - وقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٩ / ٥٤١) : « الإمام الفقيه مفتي المشرق أبو سعيد العامري، البلخي الحنفي الزاهد، عالم أهل بلخ » .

ثمَّ قال : « وقد ليَّنه من جهة إتقانه يحيى بن معين » .

٤ - وقال في « الكاشف » (١ / ٢١٤) : « رأس في الإرجاء، ثقة » .

٥ - وقال الخليلي في « الإرشاد » (١ / ٢٧٤) : « من أهل بلخ، روى عن مالك، كبير، قديم، ثقة، يذكر بالزهد » . =

فإنَّ حُسنَ السَّمتِ والفِقهَ في الدِّين من أخصِّ علاماتِ الإيمانِ، ولن جمعهما اللَّهُ في مُنافق، فإنَّ النّفاق ينافيهما وينافيانهِ .

السابع والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوصى بطلبةِ العلمِ خيراً وما ذاكَ

= وقال (٣ / ٩٢٩) : « سمع مالكاً، والثوري، صدوق، مشهور بخراسان، روى عنه جماعة من الرازيين، كان يوصف بالستر والصلاح والزهد، وكان فقيهاً على رأي الكوفيين » .

قلت : وهذا الذي نقله الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (٣ / ١٤٨)، وفاته الموطن الأول .

ومن هذا تبين أنَّ خلف بن أيوب العامري أقل أحواله أنَّه حسن الحديث لما يأتي :

١ - قد وثَّقه جماعة كالخليلي والذهبي .

٢ - الجرح المذكور غير مفسر .

٣ - فإن قيل : ضعَّفه ابن معين من قِبَل اتقانه .

قلت : والصدوق فيه ضعف من قبل اتقانه، فهو ليس كالثقة بل الاتقان والحفظ يتفاوت بين الثقات كما لا يخفى .

٤ - فإن قيل : كان مرجئاً، وهو رأس في الإرجاء .

قلت : لا يعدُّ هذا جرحاً عند أهل الحديث ما دام الرجل ثقة وليس بداعية إلى بدعته، ولذلك خرَّج أهل الصحيح لبعض الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة وغيرهم .

وفوق ذلك؛ فإنَّه لم ينفرد بالحديث، فقد جاء له شاهدان :

١ - من **حديث أنس - رضي اللَّه عنه** - أشار إليه العقيلي بقوله : « **ليس له أصل من حديث عوف، وإنَّما يروى هذا عن أنس بإسناد لا يثبت** » .

٢ - حديث عبداللَّه بن سلام أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٩)، والقضاعي (٣١٨) .

قلت : وإسناده صالح للاعتبار به .

وبالجملة؛ فالحديث صحيح - إن شاء اللَّه تعالى .

إلّا لفَضلِ مطلوبهم وشرفهِ .

عن أبي سَعيد الخُدري أنّه قال : « مرحباً بوصيَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ، كان رسول اللَّه ﷺ يوصينا بكم »[1]؛ يعني طلبة الحديث .

الثّامن والخمسون : أنَّ اللَّهَ تبارَكَ وتعالى يُباهي ملائكتَهُ بالقَومِ الذينَ يتذاكرونَ العلمَ، ويَذكرونَ اللَّهَ ويحمدونهُ على ما منَّ عليهم به منه .

فهؤلاء كانوا قَد جَلَسوا يحمَدونَ اللَّهَ بذكرِ أوصافهِ وآلائهِ، ويثنونَ عليهِ بذلكَ، ويَذكرونَ حُسنَ الإسلامِ، ويَعترفونَ للَّهِ بالفَضلِ العَظيمِ إذ هداهُم له ومنَّ عليهم برسولهِ .

وهذا أشرَفُ علمٍ على الإطلاق، ولا يُعنى به إلّا الرّاسخونَ في العلمِ، فإنَّهُ يتضمَّن معرفَةَ اللَّهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ودينهُ ورسولهِ ومحبَّةَ ذلكَ وتعظيمهُ والفَرحَ به، وأحرى بأصحابِ هذا العلمِ أن يُباهي اللَّهُ بهم الملائكَة وقد بشَّرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجلَ الذي كانَ يحبُّ سورَةَ الإخلاص وقال : أحبُّها لأنَّها صفَةُ الرَّحمن عَزَّ وجلَّ فقال : « حُبُّكَ إيَّاها أدخَلَكَ الجنَّة »[2]، فدلَّ على من أحبَّ صفاتَ اللَّهِ أحبَّهُ اللَّه وأدخَلَهُ الجنَّة .

والجهميَّةُ أشدُّ النَّاسِ نُفرَةً وتنفيراً عن صفاتهِ ونعوتِ كمالهِ يعاقبونَ ويذمُّونَ مَن يَذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتني بها، ولهذا لهم المقتُ والذَّمُّ

---

(١) أخرجه الحاكم (١ / ٨٨)، والعلائي في « بغية الملتمس » (ص ٢٨) والرامهرمزي في « المحدث الفاضل » (٢١) .

وصححه شيخنا في « الصحيحة » (٢٨٠)؛ فانظره .

(٢) أخرجه البخاري (١٣ / ٣٤٧ - ٣٤٨ - فتح)، ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة - رضي اللَّه عنها .

عندَ الأئـمَّة وعلى لسانِ كلِّ عالـمٍ من علـماءِ الإسلامِ، واللَّهُ تعالى أشدُّ بغضاً ومقتاً لهـم جزاءً وفاقاً .

الـتاسع والخمسون : أنَّ أفضلَ منازلِ الـخلقِ عندَ اللَّهِ منزلَةُ الرِّسالَة والنُّبوَّة، فاللَّهُ يَصطفي من الـملائكَة رُسلاً ومنَ النَّاسِ، وكيفَ لا يكونُ أفضلَ الـخَلقِ عندَ اللَّهِ من جعلَهُم وسائطَ بينَهُ وبينَ عبادِهِ في تبليغِ رسالاتِهِ وتَعريفِ أسمـائِهِ وأفعالـِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ ومراضيهِ ومساخطِهِ وثوابِهِ وعقابه وخصَّهُم بوَحيِهِ، واختصَّهُم بتَفضيلِهِ، وارتضاهُم لرسالتِهِ إلى عبادِهِ، وجعلهُم أزكى العالمين نفوساً، وأشرفهم أخلاقاً، وأكملهم علوماً وأعمالاً، وأحسنهم خِلقَةً، وأعظمهم مـحبَّةً وقبولاً في قلوبِ النَّاسِ، وبرَّأهُم من كلِّ وَصمٍ وعَيبٍ وكلِّ خُلُقٍ دَنيءٍ، وجَعَلَ أشرَفَ مراتبِ النَّاسِ بَعدَهُم مَرتَبةَ خلافتَهُم ونيابتَهُم في أمَـمَـهِم، فإنَّهُم يخلفونَهُم على منهاجهـم وطريقهـم من نصيـحتهـم للأُمَّة، وإرشادهِم الضَّال، وتعليمهـم الـجاهل، ونَصرهـم الـمظلوم، وأخذِهـم على يَدِ الظَّالـم، وأمرِهِم بالـمعروفِ وفعلِه، ونَهيهـم عن الـمُنكَرِ وتَركِهِ، والدَّعوَةِ إلى اللَّهِ بالـحِكمَةِ للمستَجيبين، والـموعظَةِ الـحسَنَةِ للـمُعرضينَ والغافلينَ، والـجدالِ بالتي هي أحسنُ الـمُعاندينَ الـمُعارضينَ .

فهذه حالُ أتباعِ الـمُرسَلين وَوَرَثَةِ النَّبيِّين، قال تعالى : ﴿ قُل هذه سبيلي أدعو إلى اللَّهِ على بَصيرَةٍ أنا وَمَن اتَّبَعني ﴾ [يوسف : ١٠٨]، وسواءٌ كانَ الـمعنى أنا ومَن اتَّبعني على بَصيرَةٍ وأنا أدعو إلى اللَّهِ، أو الـمعنى أدعو إلى اللَّهِ على بَصيرَةٍ .

والقولان متلازمان، فإنَّه لا يكون من أتباعه حقّاً إلّا من دعا إلى اللَّه على

بصيرة كما كانَ متبوعهُ يفعلُ ﷺ، فهؤلاء خلفاءُ الرُّسل حقّاً وورَثتهُم دونَ النَّاس، وهم أولو العلمِ الذينَ قاموا بما جاءَ به علماً وعملاً وهدايةً وإرشاداً وصبراً وجهاداً، هؤلاء هم الصدِّيقون وهم أفضَلُ أتباعِ الأنبياء، ورأسهم وإمامهُم الصِّدِّيقُ الأكبرُ أبو بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنه .

قال تعالى : ﴿ ومَن يُطِعِ اللَّهَ والرَّسولَ فأُولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ اللَّهُ عَليهم مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقاً ذلكَ الفَضلُ مِنَ اللَّهِ وكفى باللَّهِ عليماً ﴾ [النساء : ٦٩]، فذكرَ مراتبَ السُّعداء وهي أربعةٌ، وبدأ بأعلاهم مرتبَةً ثمَّ الذينَ يَلونَهُم إلى آخرِ المراتبِ، وهؤلاء الاربَعة هم أهلُ الجنَّةِ الذينَ هم أهلها - جَعَلنا اللَّهُ منهم بمنِّهِ وكرمِهِ .

الستون : إنَّ الإنسان إنَّما يُمَيَّزُ على غيرهِ من الحيواناتِ بفضيلَةِ العلمِ والبيانِ، وإلّا فَغيرهُ من الدَّوابِّ والسِّباعِ أكثَرُ أكلاً منه، وأقوى بَطشاً، وأكثَرُ جماعاً وأولاداً، وأطولُ أعماراً، وإنَّما مُيِّزَ على الدَّوابِّ والحيواناتِ بعلمهِ وبيانهِ، فإذا عُدمَ العلمُ بقيَ معهُ القَدرُ المُشتركُ بينه وبينَ سائرِ الدَّوابِّ وهي الحيوانيَّةُ المحضَةُ، فلا يَبقى فيه فَضلٌ عليهم بل قَد يبقى شرّاً منهم كما قال تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاس : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يَعقلونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢]، فهؤلاء هم الجهَّال : ﴿ ولو علمَ اللَّهُ فيهم خَيراً لأسمعهم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، أي ليسَ عندهم محلٌّ قابلٌ للخَيرِ ﴿ ولو ﴾ كان محلُّهم قابلاً للخَيرِ ﴿ لأسمعهم ﴾ أي : لأفهمهم، والسَّمعُ ههنا سمعُ فَهمٍ وإلّا فَسمعُ الصَّوتِ حاصلٌ لهم، وبه قامَت حُجَّةُ اللَّهِ عليهم قال تعالى : ﴿ ولا تَكونوا كَالَّذينَ قالوا سَمِعنا وهُم لا يَسمَعون ﴾

[الأنفال : ٢١]، وقال تعالى : ﴿ ومَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بِمالا يَسمَعُ إلّا دُعاءً ونِداءً صمٌّ بكمٌ عُميٌ فهُم لا يَعقِلون ﴾ [البقرة : ١٧١]، وسواءٌ كانَ المعنى ومثلُ داعي الذين كفروا كمثلِ الذي ينعقُ بما لا يَسمعُ من الدواب إلّا أصواتاً مجرَّدَةً، أو كانَ المعنى ومثلُ الذينَ كفروا حينَ ينادونَ كمثل دوابِّ الذي يَنعقُ بها فلا تسمعُ إلّا صوتَ الدُّعاءِ والنَّداء، فالقَولان متلازمان بل هما واحدٌ، وإن كانَ التَّقديرُ الثَّاني أقربُ إلى اللَّفظِ وأبلغُ في المعنى، فعلى التَّقديرين لم يحصُل لهم من الدَّعوَة إلّا الصَّوتُ الحاصلُ للأنعامِ، فهؤلاء لم يحصُل لهم حقيقةُ الأنسانيَّة التي يميزُ بها صاحبها عن سائرِ الحيوانِ، والسَّمعُ يرادُ به إدراكُ الصَّوت، ويُرادُ به فَهمُ المعنى، ويرادُ به القبولُ والإجابَةُ، والثَّلاثةُ في القرآن :

فمنَ الأوَّل : قوله : ﴿ قَد سَمِعَ اللَّهُ قولَ التي تُجادلُكَ في زَوجِها وتَشتكي إلى اللَّهِ واللَّهُ يَسمَعُ تحاورَكُما إنَّ اللَّهَ سميعٌ بَصيرٌ ﴾ [المجادلة : ١]، وهذا أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفَةِ السَّمعِ، وذِكْرُ الماضي والمُضارع واسم الفاعل سَمِعَ ويسمعُ وهو سميعٌ وله السَّمعُ كما قالت عائشَة رضيَ اللَّهُ عنها : « الحمدُ للَّهِ الذي وَسِعَ سَمعُهُ الأصواتَ لَقَد جاءَت المجادِلَةُ تشكو إلى رسول اللَّهِ ﷺ وأنا في جانبِ البَيتِ وإنَّهُ ليَخفى عليَّ بعضُ كلامها فأنزَلَ اللَّهُ : ﴿ قَد سَمِعَ اللَّهُ قولَ التي تُجادلُكَ في زَوجها ﴾ [المجادلة : ١] » .[1]

---

(١) أخرجه البخاري (١٣ / ٣٧٢ - فتح) تعليقاً .

ووصله النسائي في « التفسير » (٥٩٠)، وابن ماجه (١٨٨ ، ٢٠٦٣)، وأحمد (٦ / ٤٦) وغيرهم .
=

والثَّاني : سمعُ الفَهمِ كقوله : ﴿ ولو عَلِمَ الله فيهم خَيراً لأسمَعَهُم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، أي : لأفهمهم : ﴿ ولو أسمعهُم لتولَّوا وهُم مُعرِضونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣]، لما في قلوبهم من الكِبرِ والإعراضِ عَن قبولِ الحقِّ، ففيهم آفتانِ :

* **إحداهما** : أنَّهُم لا يَفهمونَ الحقَّ لجهلهم .

* **الثانية** : ولو فَهموهُ لتولَّوا عنه وهم مُعرضونَ عنه لكِبرِهم، وهذا غايةُ النَّقصِ والعَيبِ .

الثَّالث : سمعُ القبولِ والإجابَةِ كقوله تعالى : ﴿ لو خَرَجوا فيكُم ما زادوكُم إلّا خَبالاً ولأوضَعوا خلالكُم يَبغونَكُم الفتنَة وفيكُم سمَّاعونَ لهُم ﴾ [التوبَة : ٤٧]، أي : قابِلونَ مُستجيبونَ، ومنه قوله : ﴿ سمَّاعونَ للكَذِبِ ﴾ أي : قابلونَ له مُستجيبونَ لأهلهِ .

ومنه قولُ المُصلِّي : سمعَ اللَّهُ لمنَ حَمِدَه أي : أجابَ اللَّهُ حمدَ من حَمِدَه، ودُعاءَ من دَعاهُ .

والمقصود : أنَّ الإنسان إذا لم يكُن له علمٌ بما يصلحهُ في معاشهِ ومعادهِ كانَ الحيوانُ البَهيمُ خَيراً منه لسلامَتهِ في المعاد ممَّا يهلكُهُ دونَ الإنسان الجاهل .

الحادي والستون : إنَّ العلمَ حاكمٌ على ما سواهُ ولا يَحكُم عليه شيء، فكلُّ شيءٍ اختُلِفَ في وجودهِ وعَدمهِ، وصحَّتهِ وفسادهِ، ومنفعتهِ

= كلهم من طريق الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عنها به .

قلت : وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

ومضرَّتِهِ، ورُجحانِهِ ونُقصانِهِ، وكمالِهِ ونَقصِهِ، ومَدحِهِ وذمِّهِ ،ومرتبتِهِ في الخيرِ وجودَتِهِ ورداءَتِهِ، وقُربِهِ وبُعدِهِ، وإفضائِهِ إلى مطلوبِ كذا وعَدمِ إفضائِهِ، وحصولِ المقصودِ به وعَدَم حصولِهِ إلى سائرِ جهاتِ المعلومات، فإنَّ العلمَ حاكمٌ على ذلكَ كلِّهِ، فإذا حَكَمَ العلمُ انقَطَعَ النِّزاعُ وَوَجَبَ الاتِّباعُ، وهو الحاكمُ على الممالكِ والسِّياساتِ والأموالِ والأقلامِ، فَمُلْكٌ لا يتأيَّدُ بعلمٍ لا يقومُ، وسيفٌ بلا علمٍ مخراقٌ لاعبٍ، وقلمٌ بلا علمٍ حركةُ عابثٍ، والعلمُ مسلَّطٌ حاكمٌ على ذلكَ كلِّهِ، ولا يحكُم شيءٌ من ذلكَ على العلم .

الثَّاني والستون : إنَّ النُّصوصَ النَّبويَّة تواتَرَت بأنَّ أفضَلَ الأعمالِ إيمانٌ باللَّهِ، فهو رأسُ الأمرِ، والأعمال بَعدَهُ على مراتبها ومنازلها، والإيمان له ركنان :

- **أحدهما** : معرفَةُ ما جاءَ به الرَّسول والعلمُ به .
- **الثَّاني** : تَصديقهُ بالقَولِ والعَمَلِ .

والتَّصديق بدونِ العلمِ والمعرفَةِ مُحالٌ، فإنَّهُ فَرعُ العِلمِ بالشيءِ المصدقِ به، فإذاً العلمُ من الإيمانِ بمنزلَةِ الرُّوح من الجَسَدِ، ولا تَقومُ شجرَةُ الإيمانِ إلّا على ساقِ العلمِ والمَعرفَةِ، فالعلمُ إذاً أجلُّ المطالبِ وأسنى المواهب .

الثَّالث والستون : أنَّ صفاتِ الكمالِ كلّها تَرجعُ إلى العلمِ والقُدرَةِ والإرادَةِ، والإرادةُ فَرعُ العلمِ، فإنَّها تستلزمُ الشعورَ بالمرادِ، فهي مفتَقِرَةٌ إلى العلمِ في ذاتِها وحَقيقتِها، والقدرَةُ لا تؤثِّرُ إلّا بواسطَةِ الإرادَةِ، والعلمُ لا يَفتَقِرُ في تعلقِهِ بالمعلومِ إلى واحدَةٍ منهما، وأمَّا القدرَةُ والإرادةُ فكلٌّ منها يفتَقِرُ في

تعلُّقِهِ بالـمُرادِ والـمَقدورِ إلى العلـم، وذلك يدلُّ على فَضيلتهِ وشرفِ منزلتهِ .

الرَّابع والستون : أنَّ العلـمَ أعمُّ الصِّفاتِ تعلُّقاً بمتعلِّقهِ وأوسعها، فإنَّهُ يتعلَّقُ بالواجبِ والـمُمكنِ والـمُستحيلِ والجائزِ والـموجودِ والـمعدوم، فذاتُ الرَّبِّ سبحانهُ وصفاتُهُ وأسماؤهُ معلومةٌ لـه، ويعلَمُ العبادُ من ذلكَ ما علَّمهـم العليمُ الخبيرُ، وأمَّا القُدرَةُ والإرادَةُ فكلٌّ منهمـا خاصُّ التَّعلُّقِ، أمَّا القدرَةُ فإنَّـما تَتَعلَّق بالـمُمكنِ خاصَّةً لا بالـمُستحيل ولا بالواجب؛ فهي أخصُّ من العلـمِ من هذا الوجه، وأعمُّ من الإرادَةِ، فإنَّ الإرادَةَ لا تَتَعلَّقُ إلّا ببعضِ الـمُمكناتِ، وهو ما أريدَ وجودُهُ، فالعلـمُ أوسَعُ وأعمُّ وأشملُ في ذاتهِ ومتعلِّقهِ .

الخامس والستون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبَرَ عن أهلِ العلـمِ بأنَّهُ جعلـهُم أئـمَّةً يهدونَ بأمره، ويأتـمُّ بهم من بعدهم، فقال تعالى : ﴿ وجَعَلناهُـم أئـمَّةً يَدونَ بأمرِنا لـمَّا صَبَروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة : ٢٤]، وقال في موضعٍ آخر : ﴿ والَّذينَ يقولونَ ربَّنا هَب لنا مِن أزواجِنا وذرِّيَّاتنا قُرَّةَ أعيُنٍ واجعَلنا للـمُتَّقينَ إمامـاً ﴾ [الفرقان : ٧٤]، أي : أئـمَّةً يَقتدي بنا من بَعدنا .

فأخبَرَ سبحانهُ أنَّ بالصَّبرِ واليَقينِ تُنالُ الإمـامَةُ في الدِّين، وهي أرفَعُ مراتبِ الصِّدِّيقين، واليَقينُ هو كمـالُ العلـمِ وغايتهُ، فبتكميلِ مرتبةِ العلـمِ تـحصُلُ إمـامَةُ الدِّين، وهي ولايَةٌ آلتُها العلـمُ يـختَصُّ اللَّهُ بها من يشاءُ من عبادهِ .

السادس والستون : أنَّ صاحبَ العلـمِ أقلُّ تعباً وعملاً وأكثرُ أجراً، واعتبرَ هذا بالشاهد، فإنَّ الصُّنَّاعَ والأُجراء يعانونَ الأعمـالَ الشاقَّةَ بأنفسهم، والأُستاذُ الـمعلِّمُ يـجلسُ يأمرهُم وينهاهُم ويريهم كيفيَّةَ العملِ ويأخذُ أضعافَ

ما يأخذونَهُ، وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هذا المعنى حيثُ قال : « أفضلُ الأعمال إيمانٌ باللَّهِ ثمَّ الجهادُ »[1] فالجهادُ فيه بذلُ النَّفسِ وغايَةُ المشقَّة، والإيمانُ علمُ القَلبِ وعمَلُهُ وتَصديقُهُ، وهو أفضلُ الأعمالِ مع أنَّ مشقَّةَ الجهاد فوق مشقَّتِه بأضعافٍ مضاعفةٍ، وهذا لأنَّ العلمَ يعرف مقادير الأعمالِ ومراتبَها، وفاضلَها من مفضولِها، وراجحَها من مرجوحِها، فصاحبُهُ لا يختارُ لنفسِهِ إلّا أفضلَ الأعمالِ، والعاملُ بلا علمٍ يظنُّ أنَّ الفَضيلَةَ في كثرَةِ المشقَّة فهو يتحمَّلُ المشاقَّ وإن كانَ ما يُعانيه مفضولاً، وربَّ عملٍ فاضلٍ والمفضولُ أكثرُ مشقَّةً منه، واعتُبرَ هذا بحالِ الصِّدِّيق فإنَّهُ أفضلُ الأُمَّة، ومعلومٌ أنَّ فيهم من هو أكثرُ عملاً وحجّاً وصَوماً وصلاةً وقراءَةً منه .

السَّابع والستون : أنَّ العلمَ إمامُ العَمَلِ وقائدٌ له، والعَمَلُ تابعٌ لهُ ومُؤتَمٌّ به، فكلُّ عملٍ لا يكونُ خَلفَ العلمِ مُقتدياً به فهو غَيرُ نافعٍ لصاحبِهِ بل مضرَّةٌ عليه، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : مَن عَبَدَاللَّه بغَيرِ علمٍ كانَ ما يُفسدُ أكثَر ممَّا يُصلحُ .

والأعمالُ إنَّما تتفاوَت في القبولِ والرَّدِّ بحسَبِ موافقتها للعلمِ ومخالفتها له، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هو المقبولُ والمخالفُ له هو المردودُ، فالعلمُ هو الميزانُ وهو المحكُّ .

قال تعالى : ﴿ هوَ الَّذي خَلَقَ المَوتَ والحياةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً وهو العَزيزُ الغَفور ﴾ [الملك : ٢] .

قال الفُضَيلُ بن عياض : هو أخلَصُ العَمَل وأصوَبُهُ .

---

(١) أخرجه مسلم (٨٤) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه .

قالوا : يا أبا عليٍّ، ما أخلصُهُ وأصوَبُهُ ؟

قال : إنَّ العمَلَ إذا كانَ خالصاً ولـم يكُن صواباً لـم يُقبَلْ، وإذا كانَ صَواباً ولـم يكُن خالصاً لـم يُقبَلَ حتى يكونَ خالصاً صَواباً، فالـخالصُ أن يكونَ للَّهِ، والصَّوابُ أن يكونَ على السُّنَّة .

وقَد قال تعالى : ﴿ فَمَن كانَ يَرجو لقاءَ ربِّهِ فَليَعمَل عملاً صالـحاً ولا يُشرِكْ بعبادَةِ ربِّهِ أحَداً ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فهذا هو العَملُ الـمقبولُ الذي لا يقبَلُ اللَّهُ من الأعمـالِ سواهُ، وهو أن يكونَ موافقاً لسنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ مراداً به وجهَ اللَّهِ، ولا يتمكَّن العاملُ من الإتيانِ بعَمَلٍ يَجمَعُ هذين الوَصفَينِ إلّا بالعلمِ، فإنَّهُ إنْ لـم يعلم ما جاءَ به الرَّسولُ لـم يمكِّنهُ قَصدهُ، وإن لـم يعرف معبودَهُ لـم يمكِّنهُ إرادتهُ وحدَهُ، فلولا العلمُ لـما كان عملُهُ مقبولاً، فالعلمُ هو الدَّليلُ على الإخلاص، وهو الدَّليلُ على الـمُتابَعَةِ .

الثَّامن والستون : أنَّ العاملَ بلا علمٍ كالسَّائرِ بلا دَليلٍ، ومعلومٌ أنَّ عطبَ مثلَ هذا أقرَبُ من سلامتِهِ، وإنَّ قدرَ سلامَتهُ اتِّفاقاً نادراً فهو غيرُ محمودٍ بل مذموم عندَ العقلاء .

وكانَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّة يقول : مَن فارَقَ الدَّليلَ ضلَّ السَّبيلَ، ولا دَليلَ إلّا بما جاءَ به الرَّسولُ .

التاسع والستون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ ثَبَتَ في « الصَّحيحين »[1] عنه أنَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة - رضي اللَّه عنها .
والحديث ليس في « صحيح البخاري » .

كانَ يقولُ : « اللـهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السماواتِ والأرضِ عالـمَ الغَيبِ والشَّهادةِ أنتَ تـحكُمُ بينَ عِبادكَ فيمـا كانوا فيهِ يَـختلفون اهدِني لـما اختَلَفَ فيهِ منَ الـحقِّ بإذنِكَ إنَّكَ تَهدي مَن تشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم » .

والـهدايَةُ هي العلـمُ بالـحقِّ مع قَصدهِ وإيثارهِ على غيرهِ، فالـمُهتَدي هو العاملُ بالـحقِّ الـمريدُ لـه وهي أعظمُ نعمَةٍ للَّهِ على العَبدِ، ولـهذا أمَرَنا سبحانهُ أن نسألـهُ هِدايَةَ الصِّراطِ الـمُستقيمِ كلَّ يومٍ وليلَةٍ في صلواتنا الـخَمس، فإنَّ العبدَ مـحتاجٌ إلى معرفَةِ الـحقِّ الذي يُرضي اللَّهَ في كلِّ حَرَكةٍ ظاهرَةٍ وباطنَةٍ، فإذا عَرَفها فهو محتاجٌ إلى من يلـهمهُ قَصدَ الـحقِّ، فيجعَلَ إرادتهُ في قلبه، ثمَّ إلى مَن يُقدِّرهُ على فعلـهِ، ومعلومٌ أنَّ ما يـجهلُـهُ العَبدُ أضعافَ أضعاف ما يعلـمُهُ، وإنَّ كلَّ ما يعلـمُ أنَّهُ حقٌّ لا تطاوعُه نفسُه على إرادتهِ، ولو أرادَهُ لَعجِزَ عن كثيرٍ منه، فهو مضَّطرٌّ كلَّ وقتٍ إلى هدايَةٍ تَتعلَّق بالـماضي وبالـحالِ والـمُستقبل، أمَّا الـماضي فهو محتاجٌ إلى محاسبةِ نفسهِ عليه، وهل وَقَعَ على السَّدادِ فيشكُر اللَّهَ عليه ويَستديمهُ أم خَرَجَ فيه عن الـحقِّ فيَتوبَ إلى اللَّهِ تعالى منه ويَستغفرَهُ ويَعزمَ على أن لا يَعودَ، وأمَّا الـهدايَةُ في الـحالِ فهيَ مطلوبةٌ منه، فإنَّهُ ابنُ وقتهِ فيـحتاجُ أن يعلـمَ حُكمَ ما هو مُتلبِّسٌ به من الأفعالِ هل هو صَوابٌ أم خطأ ؟ وأمَّا الـمُستقبلُ فحاجتُهُ في الـهدايَةِ أظهَرُ ليكونَ سيرُهُ على الطَّريقِ، وإذا كانَ هذا شأن الـهدايَةِ عُلِمَ أنَّ العَبدَ أشدُّ شيءٍ اضِّطراراً إليها، وأنَّ ما يوردُهُ بعضُ النَّاسِ من السُّؤالِ الفاسدِ وهوَ : أنَّا إذا كُنَّا مهتَدينَ فأيُّ حاجَةٍ بنا أن نسألَ اللَّهَ أن يَهدينا ؟ وَهَل هذا إلّا تَـحصيلُ الـحاصل ؟ أفسَدُ سؤالٍ وأبعَدُهُ عنِ الصَّوابِ، وهو دليلٌ على أنَّ صاحبَهُ لـم يَحصِّل معنى الـهدايَة ولا أحاطَ علـماً بـحقيقتها

ومسمَّاها، فلذلكَ تكلَّفَ من تكلَّفَ الجوابَ عنه بأنَّ المعنى ثبِّتنا على الهدايَةِ وأَدِمها لنا، ومَن أحاطَ علماً بحقيقَة الهدايَةِ وحاجَةِ العَبدِ إليها عَلِمَ أنَّ الذي لم يَحصُل له منها أضعافَ ما حَصَلَ له، وأنَّهُ كلَّ وقتٍ محتاجٍ إلى هدايَةٍ متجدِّدةٍ لا سيَّما واللَّهُ تعالى خالقُ أفعالِ القلوبِ والجوارِحِ، فهو كلُّ وقتٍ محتاجٌ أن يخلقَ اللَّه له هدايَةً خاصَّةً، ثمَّ إن لم يَصرِف عنه الموانعَ والصَّوارفَ التي تَمنعُ موجبَ الهدايَة وتصرفها لم ينتفع بالهدايَة ولم يتمَّ مقصودُها له فإنَّ الحُكمَ لا يَكفي فيه وجودُ مقتَضيهِ بل لابدَّ مع ذلكَ من عَدمِ مانعِهِ ومنافيهِ .

ومعلومٌ أنَّ وساوِسَ العَبدِ وخواطِرَهِ وشهواتِ الغَيِّ في قلبهِ كلٌّ منها مانعٌ وصول أَثَرِ الهدايَة إليه، فإن لم يَصرفها اللَّهُ عنه لم يَهتَدِ هدىً تامّاً، فحاجتهُ إلى هدايَةِ اللَّهِ له مقرونَةٌ بأنفاسهِ وهي أعظمُ حاجَةٍ للعَبدِ، وذكرَ النَّبيُّ ﷺ في الدُّعاء العظيم القَدرِ مِن أوصافِ اللَّهِ وربوبيَّتهِ ما يُناسِبُ المطلوبَ، فإن فطر السَّماوات والأرضِ توسَّلَ إلى اللَّهِ بهذا الوَصفَ في الهدايَة للفِطْرَة التي ابتدأ الخَلقَ عليها، فَذكرَ كونَهُ فاطرَ السَّماوات والأرضِ، والمطلوبُ تعليمُ الحقِّ والتَّوفيق له، فَذكرَ علمهُ سبحانهُ بالغَيبِ والشهادَةَ، وأنَّ مَن هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ جَديرٌ أن يَطلُبَ منه عبدُهُ أن يعلِّمُه ويرشدَه ويهديه، وهو بمنزلة التوسلِ إلى الغني بغناه وسعة كرمه أن يُعطى عبدَهُ شيئاً مِن مالهُ، والتوسُّلَ إلى الغفور بسعة مغفرتهِ أن يُغفرَ لعَبدِهِ، وبعفوهِ أن يَعفو عنهُ، وبرَحمتهِ أن يَرحمهُ، ونظائرُ ذلكَ، وذكرَ ربوبيَّتهُ تعالى لجبريلَ وميكائيلَ وأسرافيلَ وهذا - واللَّهُ أعلمُ - لأنَّ المطلوبَ هدىً يحيا به القلبُ، وهؤلاء الثَّلاثَةُ الأملاكُ قَد جَعَلَ اللَّهُ تعالى على

أيديهم أسبابَ حياةِ العبادِ، أمَّا جبريل فهو صاحبُ الوَحي الذي يُوحيهِ اللَّهُ إلى الأنبياء وهو سَبَبُ حياةِ الدُّنيا والآخِرَة، وأمَّا ميكائيلُ فهو موكَّلٌ بالقَطْرِ الذي به سَبَبُ حياةِ كلِّ شيءٍ، وأمَّا إسرافيلُ فهو الذي يُنفَخُ في الصُّور فيُحيي اللَّهُ الموتى بنفختهِ فإذا هم قيامٌ لربِّ العالمين .

والهدايةُ لها أربعُ مراتب وهي مذكورةٌ في القرآن :

* **الأولى** : الهدايَةُ العامَّةُ، وهي هدايَةُ كلِّ مخلوقٍ من الحيوان والآدمي لمصالحِهِ التي بها قامَ أمرُهُ قال اللَّه تعالى : ﴿ سَبِّح اسمَ ربِّكَ الأعلى * الَّذي خَلَقَ فَسوَّى * والَّذي قَدَّرَ فَهَدى ﴾ [الأعلى : ١ - ٣]، فذكر أموراً أربعَةً : الخلقَ، والتَّسويَةَ، والتَّقديرَ، والهدايَةَ، فسوَّى خَلقَهُ وأتقنهُ وأحكَمهُ، ثمَّ قدَّرَ له أسبابَ مصالحِهِ في معاشِهِ وتقلُّباتِهِ وتصرُّفاتِهِ، وهداهُ إليها، والهدايَةُ تَعليمٌ، فَذكرَ أنَّهُ الذي خَلَقَ وعلَّمَ .

وهذه المرتبةُ أسبقُ مراتبِ الهدايَةِ وأعمُّها .

* **الثَّانيَة** : هدايةُ البيانِ والدَّلالةِ التي أقامَ بها حُجَّتهُ على عبادِهِ، وهذه لا تستلزمُ الاهتداءَ التَّامَّ .

قال تعالى : ﴿ وأمَّا ثَمودُ فهَديناهُم فاستَحبُّوا العَمى على الهُدى ﴾ [فصلت : ١٧]، يعني بيَّنا لهم ودلَلناهُم وعرَّفناهم، فآثَروا الضَّلالةَ والعَمى .

* **الثَّالثَة** : هداية التَّوفيق والإلهام، وهذه المرتبةُ أخصُّ من الأولى وأعمُّ من الثَّانيَة .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ واللَّهُ يَدعو إلى دارِ السَّلامِ ويَهدي مَن يَشاءُ إلى

صِراطٍ مُستقيم ﴾ [يونس : ٢٥]، فعمَّ بالدَّعوة خلقهُ، وخصَّ بالـهدايَةِ من شاء منهم .

قال تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تَهدي مَن أحبَبتَ ولكنَّ اللَّهَ يَهدي مَن يشاءُ ﴾ [القصص : ٥٦]، مع قوله : ﴿ وإنَّكَ لَتَهدي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]، فأثبتَ هدايَةَ الدَّعوَة والبيان ونَفى هدايَةَ التَّوفيقِ والإلـهام، وقال النَّبيُّ ﷺ في تشهُّد الـحاجَة : « مَن يَهدِ اللَّهُ فلا مُضلَّ لهُ ومَن يُضلِل فلا هاديَ لهُ » .[1]

وهذه **الـهدايَـةُ الـثَّـالـثَـة** هي الـهدايَةُ الـموجبَةُ والـمُستلزمةُ للاهتداء، أمَّا الثَّانيَة فشرطٌ لا موجبٌ فلا يَستحيلُ تـخلُّفُ الـهدى عنها، بـخلافِ الثَّالثَة فإنَّ تـخلُّف الـهدى عنها مُستحيل .

الـرَّابـعَـة : الـهدايَةُ في الآخرَة إلى طريقِ الـجنَّةِ والنَّار، قال تعالى :

---

(١) جزء من خطبة رسول اللَّه ﷺ التي كان يعلمها أصحابه، وهي الموسومة بـ « خطبة الحاجة » كما جاء صريحاً في حديثه الذي أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والنسائي (٣ / ١٠٥) وغيرهما من طريق أبي إسحاق عن أبي عبيدة بن عبداللَّه عن أبيه قال :

علمنا رسول اللَّه ﷺ خطبة الحاجة في النكاح وغيره (وذكرها) .

قلت : **وإسناده رجاله ثقات، لكنَّه منقطع**؛ فقد قال النسائي في « المجتبى » (٣ / ١٠٥) عقب أن ساقه :

« أبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً، ولا عبدالرحمن بن عبداللَّه بن مسعود، ولا عبدالجبار بن وائل بن حجر » .

ولكن **للحديث طرق أخرى يصح بها**، جمعها شيخنا الألباني - حفظه اللَّه - في رسالته المستطابة المسماة « خطبة الحاجة » (ص ١٢ - ٢٢)، فلتنظر .

﴿ احشُروا الَّذينَ ظَلموا وأزواجَهُم وما كانوا يَعبُدونَ مِن دونِ اللَّه * فاهدوهُم إلى صراطِ الجحيم ﴾ [الصافات : ٢٢ - ٢٣] .

وأمَّا قولُ أهلِ الجنَّةِ : ﴿ الحَمدُ للَّهِ الَّذي هَدانا لهذا وما كنَّا لنَهتَدي لولا أن هَدانا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]، فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهدايَة إلى طريقِ الجنَّة، وأن يكونوا أرادوا الهدايَة في الدُّنيا التي أوصلتهم إلى دارِ النَّعيم .

ولو قيلَ : إنَّ كلا الأمرين مُرادٌ لهم وأنَّهُم حَمَدوا اللَّهَ على هدايتِهِ لهم في الدُّنيا وهدايتهم إلى طريق الجنَّة كان أحسَن وأبلغَ .

وقَد ضَرَبَ اللَّهُ تعالى لمَن لم يحصل له العلمُ بالحقِّ واتِّباعُه مثلاً مطابقاً لحالِهِ : فقال تعالى : ﴿ قُل أندعو من دونِ اللَّهِ مالا يَنفعُنا ولا يَضرُّنا ونُردُّ على أعقابنا بَعدَ إذ هَدانا اللَّهُ كالَّذي استَهوَتهُ الشياطين في الأرضِ حَيرانَ له أصحابٌ يَدعونَهُ إلى الهُدى ائتنا قُل إنَّ هُدى اللَّهِ هوَ الهُدى وأُمِرنا لنسلمَ لربِّ العالمين ﴾ [الأنعام : ٧١] .

السَّبعون : أنَّ فضيلَةَ الشيءِ وشرفَهُ يظهَرُ تارةً من عمومِ منفعتِهِ، وتارَةً من شدَّةِ الحاجَةِ إليه وعَدَمِ الاستغناءِ عنهُ، وتارَةً من ظهورِ النَّقصِ والشرِّ بفَقدِهِ، وتارةً من حصولِ اللذَّةِ والسُّرورِ والبَهجَةِ بوجودِهِ لكونهِ محبوباً ملائماً، فإدراكه يعقبُ غايَةَ اللذَّةِ، وتارةً من كمالِ الثَّمَرَة المترتِّبَةِ عليه وشرفِ علَّتِهِ الغائبَةِ وأفضائهِ إلى أجلِّ المطالبِ، وهذه الوجوه ونحوها تنشأُ وتظهرُ من متعلِّقهِ، فإذا كانَ في نفسهِ كمالاً وشرفاً بقطعِ النَّظرِ عن متعلِّقاتهِ جمعَ جهاتِ الشرفِ والفَضلِ في نفسهِ ومتعلِّقاتهِ .

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهاتِ بأسرِها حاصلَةٌ للعلمِ فإنَّهُ أعمُّ شيءٍ نفعاً،

وأكثرُهُ وأدوَمُهُ، والحاجَةُ إليهِ فوقَ الحاجَةِ إلى الغذاءِ بل فوقَ الحاجَةِ إلى التَّنفُّسِ إذ غايَةُ ما يتصوَّرُ من فَقْدهما فَقْدُ حياةِ الجسم، وأمَّا فَقدُ العلمِ فَفيهِ فَقدُ حياةِ القَلبِ والرُّوحِ فلا غنى للعَبدِ عنه طرفَةَ عَين .

ولهذا إذا فُقِدَ من الشخص كان شرًّا من الحمير بل كانَ شرًّا من الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ ولا شيءَ أنقَصُ منه حينئذٍ، وأمَّا حصولُ اللذَّةِ والبَهجَةِ بوجودهِ فلأنَّهُ كمالٌ في نفسهِ، وهو ملائمٌ غايَةَ الملاءَمَةِ للنُّفوسِ، فإنَّ الجَهلَ مرضٌ ونَقصٌ، وهو في غايَةِ الإيذاءِ والإيلامِ للنَّفس، ومَن لم يَشعر بهذه الملاءَمَةِ والمنافَرَةِ فهو لِفَقدِ حِسِّهِ ونَفسِهِ :

وما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامٌ .[1]

فحصولُهُ للنَّفسِ إدراكٌ منها لغايَةِ محبوبِها واتِّصالٌ به، وذلك غايَةُ لذَّتها وفَرحتها، وهذا بحَسَبِ المعلومِ في نفسهِ ومحبَّةِ النَّفسِ له ولذَّتِها بقُربهِ، والعلومُ والمعلوماتُ مُتفاوتَةٌ في ذلكَ أعظمَ التَّفاوُتِ وأبيَنَهُ، فليسَ علمُ النُّفوسِ بفاطرِها وبارِيها ومُبدِعها ومحبَّتُه والتَّقرُّب إليه كعلمِها بالطَّبيعَةِ وأحوالِها وعوارِضِها وصحَّتِها وفسادِها وحركاتِها وهذا يتبيَّنُ بـ :

الحادي والسَّبعون : أنَّ شرَفَ العلمِ تابعٌ لشرَفِ معلومهِ؛ لوثوقِ النَّفسِ بأدلَّةِ وجودهِ وبراهينهِ، ولشدَّةِ الحاجَةِ إلى مَعرفَتهِ وعظمِ النَّفعِ بها، ولا رَيبَ أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظمَهُ وأكبَرَهُ فهو اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو ربُّ العالمين، وقيُّومُ السَّماواتِ والأرضين، المَلكُ الحقُّ المُبين، الموصوفُ بالكمالِ كلِّهِ، المُنزَّهُ

---

(١) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي، وتمامه :

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

عن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ وعن كلِّ تمثيلٍ وتَشبيهٍ في كمالهِ .

ولا رَيبَ أنَّ العلمَ به وبأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ أجلُّ العلومِ وأفضلُها، ونسبَتُهُ إلى سائرِ العلومِ كنسبةِ معلومهِ إلى سائرِ المعلوماتِ، وكما أنَّ العلمَ به أجلُّ العلوم وأشرفها فهو أصلُها كلِّها كما انَّ كلَّ موجودٍ فهو مستَندٌ في وجودهِ إلى الملكِ الحقِّ المُبين ومفتَقرٍ إليه في تحقيقِ ذاتهِ وأينيَّتِه، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلمِ به مفتقرٌ في تحقيقِ ذاته إليه، فالعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ كما أنَّهُ سبحانهُ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وموجِدُهُ .

ولا رَيبَ أنَّ كمالَ العلمِ بالسَّبَب التَّام وكونه سبباً يستلزمُ العلمَ بمُسبَّبه كما أنَّ العلمَ بالعلَّةِ التَّامَّةِ ومعرفَة كونها علَّةً يستلزمُ العلمَ بمعلولهِ، وكلُّ موجودٍ سوى اللَّه فهو مُستندٌ في وجودهِ إليهِ استنادَ المصنوع إلى صانعهِ، والمفعولِ إلى فاعلهِ، فالعلمُ بذاتهِ سبحانهُ وصفاتهِ وأفعالهِ يستلزمُ العلمَ بما سواه، فهو في ذاتهِ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ، والعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ ومنشؤُهُ، فَمَن عَرَفَ اللَّهَ عَرَفَ ما سواهُ، ومَن جَهِلَ ربَّهُ فهو لما سواهُ أجهَل، قال تعالى : ﴿ ولا تَكونوا كَالَّذينَ نَسوُا اللَّهَ فَأنساهُم أنفسهُم ﴾ [الحشر : ١٩]، فتأمَّل هذه الآيَة تجد تحتها معنىً شريفاً عظيماً، وهو انَّ من نَسيَ ربَّهُ أنساهُ ذاتهُ ونَفسَهُ فلم يَعرِف حَقيقَتهُ ولا مصالحه بل نَسيَ ما به صلاحُهُ وفلاحُهُ في معاشهِ ومعادهِ، فصارَ معطَّلاً مهملاً بمنزلةِ الأنعام السَّائبَة بل ربَّما كانَت الأنعامُ أخبَرَ بمصالحِها منه لبقاء هداها الَّذي أعطاها إيَّاه خالقها، وأمَّا هذا فخرجَ عن فطرتهِ التي خُلقَ عليها، فنَسيَ ربَّهُ فأنساهُ نَفسَهُ وصفاتِها وما تكملُ به وتَزكو به وتسعُدُ به في معاشِها ومعادِها، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تُطِع مَن أغفَلنا قَلبَهُ عَن

ذكرنا واتَّبعَ هواهُ وكانَ أمرهُ فُرطا ﴾ [الكهف : ٢٨]، فغفِلَ عن ذكرِ ربِّهِ فانفرطَ عليهِ أمرُهُ وقلبُهُ فلا التفاتَ له إلى مصالحِهِ وكمالِهِ، وما تَزكو به نفسُهُ وقلبُهُ بل هو مُشتَّتُ القلبِ مضيّعُهُ، مفرّطُ الأمرِ حَيرانُ لا يَهتَدي سبيلاً .

والمقصودُ : أنَّ العلمَ باللَّهِ أصلُ كلِّ علمٍ، وهو أصلُ علمِ العَبدِ بسعادتِهِ وكمالِهِ ومصالحِ دنياهُ وآخرتِهِ، والجهلُ به مستلزمٌ للجهل بنفسِهِ ومصالحها وكمالِها وما تَزكو به وتفلحُ به، فالعلمُ به سعادَةُ العَبدِ، والجَهلُ به أصلُ شقاوتِهِ، ويزيدهُ إيضاحاً :

الثّاني والسبعون : أنَّهُ لا شيءَ أطيبُ للعَبدِ ولا ألذُّ ولا أهنأُ ولا أنعمُ لقلبِهِ وعيشِهِ من محبَّةِ فاطرِهِ وباريِهِ، ودوامِ ذكرِهِ والسَّعي في مرضاتِهِ، وهذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ للعَبدِ بدونهِ، وله خُلِقَ الخَلقُ، ولأجلهِ نزَلَ الوَحيُ، وأُرسلَت الرُّسلُ، وقامَت السَّماواتُ والأرضُ، ووُجِدَت الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلهِ شُرِّعَت الشرائعُ، ووُضِعَ البَيتُ الحرامُ، ووَجَبَ حجُّه على النَّاس إقامةً لذِكرهِ الذي هو من توابعِ محبَّتِهِ والرِّضى به وعنهُ، ولأجلِ هذا أمَرَ بالجهادِ وضَربِ أعناقِ من أباهُ وآثَرَ غَيرَهُ عليه، وجعَلَ لهُ في الآخرَةِ دارَ الهَوانِ خالداً مخلَّداً، وعلى هذا الأثرِ العظيمِ أُسِّسَت الملَّةُ، ونُصِبَت القبلةُ، وهو قُطبُ رحى الخَلقِ والأمرِ الذي مدارُهما عليه، ولا سبيلَ إلى الدُّخولِ إلى ذلكَ إلّا من بابِ العلمِ، فإنَّ محبَّةَ الشيءِ فرع الشعور به، وأعرفُ الخَلق باللَّهِ أشدُّهم حُبّاً له، فكلُّ من عَرَفَ اللَّهَ أحبَّهُ، ومَن عَرَفَ الدُّنيا وأهلَها زَهِدَ فيهم، فالعلمُ يفتحُ هذا البابَ العظيمَ الذي هو سرُّ الخَلقِ والأمرِ .

الثّالث والسبعون : أنَّ اللَّذَّةَ بالمحبوبِ تضعُفُ وتَقوى بحَسَبِ قوَّةِ

الحبِّ وضَعفهِ، فكلّما كان الحُبُّ أقوى كانت اللذَّةُ أعظم، ولهذا تعظُمُ لذَّةُ الظَّمآن بشربِ الماءِ الباردِ بحسَبِ شدَّةِ طلبهِ للماء، وكذلكَ الجائعُ، وكذلكَ من أحبَّ شيئاً كانت لذَّتُهُ على قَدرِ حُبِّهِ إيَّاهُ، والحُبُّ تابعٌ للعلمِ بالمحبوبِ ومعرفَةِ جمالهِ الظَّاهرِ والباطنِ فلذَّةُ النَّظرِ إلى اللّهِ بعدَ لقائهِ بحَسَبِ قوَّةِ حُبِّهِ وإرادتَهِ وذلكَ بحَسَبِ العلمِ به وبصفاتِ كمالهِ، فإذاً العلمُ هو أقرَبُ الطُّرقِ إلى أعظمِ اللذَّاتِ .

الرَّابع السَّبعون : أنَّ كلَّ ما سوى اللّهَ يفتَقِرُ إلى العلمِ لا قوامَ له بدونهِ، فإنَّ الوجودَ وجودان : **وجودُ الخَلقِ، ووجود الأمرِ** .

والخلقُ والأمرُ مصدرهما علمُ الرَّبِّ وحكمتُهُ، فكلُّ ما ضمَّهُ الوجودُ من خلقه وأمرِهِ صادرٌ عن علمهِ وحكمتهِ، فما قامَت السَّماواتُ والأرضُ وما بينَهُما إلّا بالعلمِ، ولا بُعِثَت الرُّسُل وأُنزِلَت الكُتُبُ إلّا بالعلمِ، ولا عُبِدَ اللّهُ وحدَهُ وحُمِدَ وأُثنِيَ عليه ومُجِّدَ إلّا بالعلمِ، ولا عُرِفَ الحلالُ من الحرامِ إلّا بالعلمِ، ولا عُرِفَ فَضلُ الإسلامِ على غيرهِ إلّا بالعلمِ .

الخامس والسبعون : أنَّ فضيلَةَ الشيءِ تُعرَفُ بضدِّه، فالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ، وبضدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ، ولا رَيبَ أنَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فَسادٍ، وكلِّ ضَرَرٍ يلحقُ العَبد في دنياهُ وأُخراهُ فهو نتيجَة الجَهلِ، وإلّا فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ هذا الطَّعامَ مثلاً مَسمومٌ مَن أكلَهُ قطَّعَ أمعاءَهُ في وقتٍ معيَّنٍ لا يُقدِمُ على أكلهِ، وإن قدرَ أنَّهُ قَدِمَ عليه لغَلَبَةِ الجوعِ أو استعجالِ وفاةٍ؛ فهو لعِلمهِ بموافَقَةِ آكلهِ لمَقصودهِ الذي هو أحبُّ إليه من العَذابِ بالجوع أو بغَيرهِ .

وهنا اختُلفَ في مسألةٍ عظيمَةٍ، وهي : أنَّ العلمَ هل يَستلزِمُ الاهتداءَ، ولا

يتخلَّف عنهُ الـهُدى إلّا لعَدَمِ العلـمِ أو نَقصِهِ، وإلّا فمعَ الـمعرفَةِ الجازمَةِ لا يُتَصوَّر الضَّلالُ، وأنَّهُ لا يستلزمُ الـهُدى فَقَد يكونُ الرَّجلُ عالـماً وهو ضالٌّ على عمدٍ هذا مـمَّا اختلفَ فيه الـمُتكلِّمون وأربابُ السُّلوكِ وغَيرهم .

فقالت فرقَةٌ : مَن عَرَفَ الـحقَّ معرفةً لا يشكُّ فيها استحالَ أن لا يَهتَدي، وحيثُ ضلَّ فَلِنُقصانِ علـمِهِ .

وقالت الطَّائفَةُ الأخرى : العلـمُ لا يستلزمُ الـهدايَةَ وكثيراً ما يكونُ الضَّلالُ عن عمدٍ وعلـمٍ لا يشكُّ صاحبهُ فيه بل يؤثِّرُ الضَّلالَ والكُفرَ وهو عالـمٌ بقبحهِ ومَفسدتهِ .

فنقولُ وباللّهِ التَّوفيق : كلا الطَّائفتين ما خَرجَت عن موجبِ العلـمِ، ولا عَدلت عن سُنَنِ الـحقِّ، وإنَّـما الاختلافُ والتَّبايُنُ بينهمـا من عَدمِ التَّواردِ على مـحلٍّ واحدٍ، ومن إطلاقِ ألفاظٍ مـجمَلَةٍ بتفصيلِ معانيها يَزولُ الاختلافُ، ويَظَهَرُ أنَّ كلَّ طائفَةٍ موافقَة للأُخرى على نَفسِ قولـها، وبيانُ هذا أنَّ الـمُقتَضى قسمـان :

مُقتَض لا يتَخلَّفُ عنهُ موجبهُ ومقتضاهُ لقصورهِ في نفسهِ بل يَستلزمهُ استلزامَ العلَّةِ التَّامَّةِ لـمَعلولـها .

ومُقتَض غيرُ تامٍّ يتخلَّفُ عنه مقتضاهُ لقصورهِ في نفسهِ عن التَّمـامِ أو لفواتِ شرطِ اقتضائهِ أو قيامِ مـانعٍ منعَ تاثيرهُ .

فإن أُريدَ بكونِ العلـمِ مقتضياً للاهتداء والاقتضاء التَّامّ الذي لا يتخلَّف عنهُ أثَرهُ بل يلزمهُ الاهتداءُ بالفعل؛ فالصَّوابُ : قولُ الطَّائفَةِ الثَّانيَةِ، وإنَّهُ لا يَلزمُ من العلـمِ حصولُ الاهتداءِ الـمطلوبِ .

وإن أريدَ بكونهِ موجباً أنَّهُ صالحٌ للاهتداءِ مقتَضٍ له، وقَد يتخلَّفُ عنه مقتضاهُ لقصورهِ أو فواتِ شرط أو قيامِ مانعٍ؛ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفَةُ الأولى .

وتَفصيلُ هذه الجملَةِ : أنَّ العلمَ بكونِ الشيءِ سبباً لمصلحةِ العَبدِ ولذَّاتهِ وسرورهِ قَد يتخلَّف عنهُ عملُهُ بمقتضاهُ لأسبابٍ عديدةٍ :

○ **الأوَّل** : ضعفُ معرفته بذلك .

○ **الثَّاني** : عدمُ الأهليَّةِ، وقَد تكونُ معرفتُهُ به تامَّةً لكن يكونُ مشروطاً بزكاةِ المحلِّ وقبولهِ للتَّزكيَةِ، فإذا كانَ المحلُّ غيرَ زَكيٍّ ولا قابلٍ للتَّزكيَةِ كانَ كالأرضِ الصَّلدَةِ التي لا يُخالطها الماءُ فإنَّهُ يمتنعُ النَّباتُ منها لعدم أهليَّتها وقبولها، فإذا كانَ القلبُ قاسياً حجريًّاً لا يقبلُ تزكيَةً ولا تؤثِّرُ فيه النَّصائحُ لم يَنتفع بكلِّ علمٍ يعلمُهُ، كما لا تُنبتُ الأرضُ الصَّلبَةُ ولو أصابَها كلُّ مطرٍ، وبُذرَ فيها كلُّ بذرٍ، كما قال تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاس : ﴿ إنَّ الَّذينَ حقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ لايؤمنونَ * ولو جاءَتهُم كلُّ آيَةٍ حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ ﴾ [يونس : ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالى : ﴿ ولو أنَّنا نزَّلنا إليهم الملائكَةَ وكلَّمهُم الموتى وحَشرنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً فما كانوا ليُؤمنوا إلّا أن يشاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١]، وقال تعالى : ﴿ قُل انظُروا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ وما تُغني الآياتُ والنُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون ﴾ [يونس : ١٠١] .

فإذا كان القلبُ قاسياً غليظاً جافياً لا يَعملُ فيه العلمُ شيئاً وكذلكَ إذا كانَ مريضاً مَهيناً مائياً لا صلابَةَ فيه ولا قوَّةَ ولا عَزيمَةَ لم يؤثِّر فيه العلمُ .

○ **الثَّالث** : قيامُ مانعٍ؛ وهو إمَّا حسدٌ أو كبرٌ، وذلكَ مانعُ إبليسَ من الانقياد للأمرِ، وهو داءُ الأوَّلين والآخرين إلّا مَن عَصمَ اللَّهُ، وبه تخلَّفَ الإيمانُ

عن اليَهودِ الذينَ شاهَدوا رسولَ اللَّهِ ﷺ، وعَرفوا صحَّةَ نبوَّتهِ ومَن جَرى مجراهُم، وهو الذي منعَ عبدَاللَّهِ بن أُبيّ منَ الإيمانِ، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن أبي جَهلٍ وسائرِ المُشركين، فإنَّهُم لم يكونوا يرتابونَ في صدقِهِ وأنَّ الحقَّ معهُ، ولكن حملهم الكِبرُ والحَسَدُ على الكُفرِ .

○ **الرَّابع** : مانعُ الرِّياسَةِ والملك وإن لم يقُم بصاحبِهِ حَسَدٌ ولا تكبُّرٌ عن الانقيادِ للحقِّ لكن لا يمكنهُ أن يجتمع له الانقيادُ وملكُهُ ورياستُهُ، فيضنُّ بملكهِ ورياستهِ كحالِ هرقلَ وأضرابِهِ من ملوكِ الكفَّارِ الذي علموا نبوَّتهُ وصدقَهُ وأقرُّوا بها باطناً، وأحبُّوا الدُّخولَ في دينهِ لكنَّهُم خافوا على ملكهم، وهذا داءُ أربابِ الملكِ والولايَةِ والرِّياسَةِ، وقلَّ من نجا منه إلّا من عَصَمَ اللَّهُ وهو داءُ فرعونَ وقومه، ولهذا قال قالوا : ﴿ أنُؤمِنُ لِبَشرَينِ مِثلَنا وقَومُهُما لنا عابِدون ﴾ [المؤمنون : ٤٧] .

○ **الخامس** : مانعُ الشهوَةِ والمالِ، وهو الذي منعَ كثيراً من أهلِ الكتابِ من الإيمانِ خَوفاً من بطلانِ مأكلِهم وأموالِهم التي تَصيرُ إليهم من قومهم، وقَد كانَت كفَّارُ قريشٍ يصدُّونَ الرَّجلَ عن الإيمانِ بحَسَبِ شهوتِهِ، فيدخلونَ عليه منها، فكانوا يقولونَ لمَن يحبُّ الزِّنا : إنَّ محمَّداً يحرِّمُ الزِّنا، ويحرِّمُ الخَمرَ، وبهِ صدُّوا الأعشى الشاعرِ عن الإسلام .

وقَد فاوضتُ غَيرَ واحدٍ من أهلِ الكتابِ في الإسلامِ وصحَّتهِ، فكانَ آخرُ ما كلَّمني بهِ أحدهم : أنا لا أتركُ الخمرَ وأشربها أمناً، فإذا أسلمتُ حلتُم بيني وبينها وجلدتموني على شُربِها .

وقال آخَر منهم بعدَ أن عَرَفَ ما قلتُ له : لي أقاربُ أربابُ أموالٍ، وإنِّي

إن أسلَمتُ لـم يَصل إليَّ منها شيءٌ، وأنا أؤمِّلُ أن أرثَهُم أو كمـا قال .

ولا رَيبَ أنَّ هذا القَدرَ في نفوسِ خَلقٍ كثيرٍ من الكفَّار فتتَّفقُ قوَّةُ داعي الشهوَةِ والـمـالِ وضعفُ داعي الإيمـانِ، فيجيبُ داعي الشهوةِ والـمـالِ، ويقولَ لا أرغَبُ بنفسي عن آبائي وسَلَفي .

○ **السَّادس** : مـحبَّةُ الأهلِ والأقاربِ والعَشيرَة يَرى أنَّهُ إذا اتَّبعَ الـحقَّ وخالفهم أبعَدوهُ وطَردوهُ عنهم، وأخرجوهُ من بينِ أظهرهم، وهذا سببُ بقاءِ خلقٍ كثيرٍ على الكفرِ بينَ قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

○ **السَّابع** : مـحبَّةُ الدَّارِ والوَطَن، وإن لـم يكُن لـه بها عَشيرَةٌ ولا أقارب لكن يَرى أنَّ في متابَعَةِ الرَّسولِ خروجَهُ عَن دارهِ وَوَطنهِ إلى دارِ الغُربَةِ والنَّوى، فيضنّ بوطنهِ .

○ **الثَّامن** : تخيّل أنَّ في الإسلامِ ومتابَعَةِ الرَّسولِ إزراءً وطَعناً منه على آبائهِ وأجدادهِ وذمَّاً لـهم، وهذا هو الَّذي منعَ أبا طالبٍ وأمثالَـهُ عن الإسلامِ استَعظموا آباءهُم وأجدادَهُم أن يَشهَدوا عليهم بالكُفر والضَّلالِ، وأن يـختاروا خلافَ ما اختارَ أُولئكَ لأنفسهم، ورأوا أنَّهُم إن أسلَموا سفَّهوا أحلامَ أُولئكَ، وضلَّلوا عقولـهم، ورَمَوهُم بأقبحِ القبائح وهو الكُفرُ والشركُ .

ولـهذا قال أعداءُ اللَّهِ لأبي طالبٍ عندَ الـموتِ : أترَغَبُ عَن ملَّةِ عَبدالـمُطَّلب ؟

فكانَ آخرُ ما كلَّمهُم به : هو على ملَّةِ عبدالـمُطَّلب .

فلـم يَدعهُ أعداءُ اللَّهِ إلّا من هذا الباب لعلـمهم بتعظيمهِ أباهُ عبدَالـمطَّلب، وأنَّهُ إنَّـمـا حازَ الفَخرَ والشرَفَ به، فكيفَ يأتي أمراً يلزمُ منه غايَة تَنقيصهِ وذمِّهِ .

ولهذا قال: لولا أن تكنَ مسبَّةً على بني عبدالمطَّلب؛ لأقرَرتُ بها عَينَكَ أو كما قال.

وهذا شعرهُ يصرِّحُ فيه بأنَّهُ قد علمَ وتحقَّقَ نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ وصدقَهُ كقوله:

ولَقَد علمت بأنَّ دينَ مُحمَّدٍ
مِن خَيرِ أديانِ البَريَّةِ ديناً
لولا الملامَةُ أو حذارُ مسبَّةٍ
لوَجَدتَني سَمحاً بذاكَ مُبيناً

وفي قَصيدتهِ اللَّاميَّة:

فَواللَّهِ لولا أن تكونَ مسبَّةٌ
تُجرُّ على أشياخنا في المحافلِ
لكُنَّا اتَّبعناهُ على كلِّ حالِهِ
منَ الدَّهرِ جدّاً غيرَ قولِ التهازلِ
لَقَد علموا أن ابتنالاً مكذب
لدينا ولا يعني بقول إلّا باطل

والمسبَّةُ التي زَعَمَ أنَّا تجرُّ على أشياخهِ شهادتهُ عليهم بالكُفرِ والضَّلالِ وتَسفيهِ الأحلامِ وتَضليلِ العقولِ، فهذا هو الذي مَنَعهُ من الإسلامِ بعدَ تيقُّنهِ.

○ **التَّاسع**: متابَعةُ من يعاديهِ من النَّاس للرَّسول وسبقهِ إلى الدُّخولِ في دينهِ، وتخصصهِ وقربهِ منه، وهذا القَدرُ منعَ كثيراً من اتِّباع الهُدى يكونُ للرَّجلِ عدوٌّ ويبغضُ مكانهُ، ولا يحبُّ أرضاً يمشي عليها، ويقصدُ مخالفتهُ

ومناقضتهُ، فيراهُ قد اتَّبعَ الحقَّ فيحملهُ قَصدُ مناقضتهِ ومعاداتهِ على معاداةِ الحقِّ وأهلهِ وإن كانَ لا عَداوَةَ بينهُ وبينهم، وهذا كما جَرى لليَهودِ مع الأنصار، فإنَّهُم كانوا أعداءَهُم وكانوا يتواعدونهم بخروجِ النَّبي ﷺ وأنَّهُم يتَبعونهُ ويقاتلونهم معه، فلمَّا بَدَرَهُم إليهِ الأنصارُ وأسلموا حملهُم معاداتهم على البقاءِ على كفرهم ويهوديَّتِهِم .

○ **العاشر** : مانعُ الأُلْفِ والعادَةِ والمنشأ، فإنَّ العادَةَ قَد تَقوى حتى تغلبَ حُكمَ الطَّبيعَة، ولهذا قيلَ هي طبيعَةٌ ثانيةٌ فيربَّى الرَّجلُ على المقالَةِ وينشأُ عليها صَغيراً فيتربَّى قلبهُ ونفسهُ عليها كما يتربَّى لحمهُ وعظمهُ على الغَذاءِ المعتادِ، ولا يعقلُ نفسهُ إلّا عليها، ثمَّ يأتيهُ العلمُ وهلَةً واحدَةً يريدُ إزالتها وإخراجها من قلبهِ وأن يسكنَ موضعها، فيعسرُ عليه الانتقالُ، ويصعُبُ عليه الزَّوالُ، وهذا السَّببُ وإن كانَ أضعَفَ الأسباب معنىً فهو أغلبها على الأُمَمِ وأربابِ المقالات والنِّحَلِ ليسَ معَ أكثرهم بل جميعهم إلّا ما عَسى أن يَشذَّ إلّا عادَةً ومربَّى تربَّى عليه طفلاً لا يعرفُ غيرها ولا يحسنُ به، فدينُ العوائدِ هو الغالبُ على أكثرِ النَّاسِ، فالانتقالُ عنه كالانتقالِ عن الطَّبيعَةِ إلى طبيعَةٍ ثانيَةٍ، فصلواتُ اللَّهِ وسلامهُ على أنبيائهِ ورسلهِ خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمَّد ﷺ كيفَ غيَّروا عوائدَ الأُمَمِ الباطلَةِ ونقلوهم إلى الإيمانِ حتى استحدثوا به طبيعَةً ثانيةً خَرَجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدَةِ، ولا يعلمُ مشقَّةَ هذا على النُّفوسِ إلّا من زاوَلَ نَقلَ رجلٍ واحدٍ عن دينهِ ومقالتهِ إلى الحقِّ، فجزى اللَّهُ المرسلينَ أفضلَ ما جَزى به أحداً من العالمين .

إذا عرفَ أنَّ المقتضي نوعان : فالهُدى المقتَضي وحدَهُ لا يوجِبُ

الاهتداءَ، والـهَدي التَّامُّ يوجبُ الاهتداءَ .

* **فالأوَّل** : هدى البيان والدَّلالة والتَّعليم، ولـهذا يقالُ : هُديَ فما اهتَدى .

* **والثَّاني** : هدى البيان والدَّلالة مع إعطاء التَّوفيق وخلق الإرادَة فهذا الـهدى الذي يستلزمُ الاهتداءَ ولا يتـخلَّفُ عنه موجبُهُ، فمتى وُجِدَ السَّبَبُ وانتفت الـموانع لَزِمَ وجودُ حُكمِهِ .

وههنا دقيقةٌ بها ينفصلُ النِّزاعُ، وهي : أنَّهُ هل ينعطفُ من قيامِ الـمـانعِ وعَدَمِ الشرطِ على الـمقتَضى أمرٌ يُضعفُهُ في نفسه، ويسلبُهُ اقتضاءَهُ، وقوَّتَهُ أو الاقتضاءَ بـحالـهِ وإنَّـما غَلَبَ الـمـانعُ فكانَ التَّأثيرُ لـه .

ومثالُ ذلكَ في مسألتنا : أنَّهُ بوجودِ هذه الـموانع الـمذكورةِ أو بعضها هل يضعفُ العلـمُ حتى لا يصيرَ مؤثِّراً ألبتَّة أو العلـمُ بحالـهِ ولكنَّ الـمـانعَ بقوَّتِهِ غَلَبَ فكانَ الـحكمُ لـه ؟

هذا سرُّ الـمسألةِ وفقهُها، فأمَّا الأوَّلُ فلا شكَّ فيه، ولكنَّ الشأنَ في القسم الثَّاني، وهو بقاءُ العلـمِ بـحالـهِ .

والتَّحقيقُ : أنَّ الـموانعَ تـحجُبُهُ وتعميهِ وربَّـما قلبتْ حقيقتَهُ من القلبِ، والقرآنِ قد دلَّ على هذا، قال تعالى : ﴿ وإذ قالَ موسى لقَومِهِ يا قَومِ لـمَ تؤذونَني وقَد تَعلَمونَ أنِّي رسولُ اللَّهِ إليكُم فلـمَّا زاغوا أزاغَ اللَّهُ قلوبهم واللَّهُ لا يَهدي القومَ الفاسقين ﴾ [الصف : ٥]، فعاقبهم سبحانَهُ بإزاغَةِ قلوبهم عن الـحقِّ لـمَّا زاغوا عنه ابتداءً .

ونظيرُهُ قولـه تعالى : ﴿ ونُقلِّبُ أفئدَتَهُم وأبصارَهُـم كمـا لـم يُؤمنوا به أوَّلَ

مرَّةٍ ونَذَرَهُم في طُغيانهم يَعمهون ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

ولـهذا قيلَ : مَن عُرِضَ عليهِ حقٌّ فردَّهُ فلـم يقبلهُ عوقِبَ بفسادِ قلبهِ وعقلهِ ورأيِه، ومن هنا قيلَ : لا رأيَ لصاحبِ هوىً، فإنَّ هواهُ يحملهُ على ردِّ الـحقِّ، فيفسدُ اللَّهُ عليه رأيَهُ وعَقلهُ .

قال تعالى : ﴿ فَبِما نَقضِهِم ميثاقَهُم وكفرِهِم بآياتِ اللَّهِ وقَتلِهِم الأنبياءَ بِغَيرِ حقٍّ وقولـهم قلوبُنا غلفٌ ﴾ [النساء : ١٥٥]؛ أخبَرَ سبحانهُ أنَّ كفرَهم بالـحقِّ بعدَ أن علـموهُ كانَ سبباً لطبعِ اللَّهِ على قلوبهم : ﴿ بَل طَبَعَ اللَّهُ عليها بكُفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥]، حتى صارَت غُلفاً، والغُلفُ جمعُ أغلُف وهو القَلبُ الذي قَد غَشيَهُ غلافٌ كالسَّيفِ الذي في غلافهِ، وكلُّ شيءٍ في غلافهِ فهو أغلفٌ، وجمعهُ غُلفٌ، يقال : سَيفٌ أغلفٌ، وقوسٌ غَلفاء، ورجلٌ أغلفٌ وأقلَفٌ إذا لـم يَختَتِن، والـمعنى قلوبنا عليها غشاوَةٌ وغطاءٌ، فلا تفقهُ ما نقولُ يا مُحمَّد ولـم تعِ شيئاً .

مَن قالَ : إنَّ الـمعنى أنَّها غلفٌ للعلمِ والـحكمَةِ أي : أوعيَةٌ لـها فلا تـحتاجُ إلى قولكَ ولا تقبلهُ استغناءً بما عندهم [فمردود] لوجوه :

● **أحـدهـا** : أنَّ غلف جمعُ أغلَف، كقُلفٍ وأقلَف، وحُمرٍ وأحمَر، وجُردٍ وأجرَد، وغُلبٍ وأغلَب، ونظائرهُ، والأغلفُ من القلوبِ هو الدّاخلُ في الغلافِ هذا هو الـمعروف من اللغَة .

● **الـثَّـانـي** : أنَّهُ ليسَ من الاستعمـالِ السَّائغِ الـمشهورِ أن يقالَ قَلبُ فلانٍ غلافٌ لكذا، وهذا لا يكادُ يوجَدُ في شيءٍ من نَثرِ كلامهِم ولا نَظمِهِ، ولا نَظيرَ لـه في القرآن فيـحملُ عليه، ولا هو من التَّشبيهِ البَديعِ الـمستحسن فلا

يـجوزُ حملُ الآيَةِ عليه .

● **الـثَّـالـث** : أنَّ نظيرَ قولِ هؤلاء قولُ الآخرين من الكفَّار : ﴿ قلوبنا في أكنَّةٍ ممَّا تَدعونا إليه ﴾ [فصلت : ٥]، والأكنَّةُ هنا هي الغُلفُ التي قلوبُ هؤلاء فيها، والأكنَّةُ كالأوعيةِ والأغطيَةِ التي تُغَطِّي المتاعَ، ومنهُ الكنانَةُ لغلافِ السِّهامِ .

● **الـرَّابـع** : أنَّ سياقَ الآيَةِ لا يحسنُ مع المعنى الذي ذكروهُ، ولا يحسنُ مقابلتهُ بقوله : ﴿ بَل طَبَعَ اللَّهُ عليها بكفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥]، وإنَّما يحسنُ مع هذا المعنى أن يُسلبُ عنهم العلمُ والحكمَةُ التي ادَّعوها كما قيلَ لهم لمَّا ادَّعوا ذلكَ : ﴿ وما أُوتيتُم من العلمِ إلّا قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وأمَّا هنا فلمَّا ادَّعوا أنَّ قلوبهم في أغطيَةٍ وأغشيَةٍ لا تَفقهُ قولهُ قوبلوا بأن عَرَّفهُم أن كفرَهُم ونقضَهُم ميثاقهُم وقتلَهُم الأنبياءَ كانَ سبباً لأن طُبعَ على قلوبهم .

ولا ريبَ أنَّ القلبَ إذا طُبعَ عليه أظلمَت صورَةُ العلمِ فيه وانطمست، وربَّما ذهَبَ أثرُها حتى يَصيرَ السَّبَبُ الذي يَهتَدي به المهتَدون سبباً لضلالِ هذا كما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بهِ كَثيراً ويَهدي بهِ كثيراً وما يُضِلُّ بهِ إلّا الفاسقين * الَّذينَ ينقضونَ عَهدَ اللَّهِ من بَعدِ ميثاقِهِ ويَقطَعونَ ما أمَرَ اللَّهُ به أن يوصَلَ ويُفسِدونَ في الأرضِ أُولئكَ هم الخاسرون ﴾ [البقرة ٢٦ - ٢٧]، فأخبَرَ تعالى أنَّ القرآنَ سببٌ لضلالِ هذا الصِّنف من النَّاسِ، وهو هداهُ الذي هدى به رسولَهُ وعبادَهُ المؤمنين، ولهذا أخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ إنَّما يَهتَدي به مَن اتَّبعَ رضوانَ اللَّهِ قال تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزِلَت سورَةٌ فمنهُم

مَن يقولُ أيُّكم زَادَتهُ هذه إيماناً فأمَّا الَّذينَ آمَنوا فزادتهم إيماناً وهم يَستَبشِرونَ * وأمَّا الَّذينَ في قلوبهم مَرضٌ فزادَتهُم رِجساً إلى رجسهِم وماتوا وهم كافرون ﴾ [التوبة : ١٢٤ - ١٢٥]، ولا شيءَ أعظمُ فساداً لمحلِّ العلمِ من صَيرورَتهِ بحيثُ يَضلُّ بما يَهتَدي به؛ فنسبتهُ إلى الهُدى والعلمِ نسبَةُ الفَمِ الذي استحكمت فيه المرارَةُ إلى الماء العَذبِ كما قيل :

ومَن يكُ ذا فَمٍ مُرٌّ مَريضٍ يجد مُرَّاً به الماءَ الزُّلالا

وإذا فَسَدَ القلبُ فَسَدَ إدراكُهُ، وإذا فَسَدَ الفمُ فَسَدَ إدراكُهُ، وكذلكَ إذا فَسَدَت العَينُ، وأهلُ المعرفَةِ من الصَّيارفَةِ يقولون : إنَّ من خافَ في نقدهِ نَسيَ النَّقد وسلبَهُ، فاشتبهَ عليه الخالصُ بالزَّغَل .

ومن كلام بعضِ السَّلف : يهتفُ العلمُ بالعمل فإن أجابهُ حلَّ وإلّا ارتحلَ .

وقال بعضُ السَّلفِ : كنَّا نَستعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ به .

فتركُ العملِ بالعلمِ من أقوى الأسباب في ذهابهِ ونسيانهِ .

وأيضاً فإنَّ العلمَ يرادُ للعملِ، فإنَّهُ بمنزلةِ الدَّليلِ للسَّائرِ، فإذا لم يَسِر خلفَ الدَّليلِ لم ينتفع بدلالتهِ، فَنَزَلَ منزلَةَ من لم يعلم شيئاً، لأنَّ مَن علمَ ولم يعمل بمنزلةِ الجاهلِ الذي لا يعلم كما أنَّ من ملكَ ذهباً وفضَّةً وجاعَ وعري ولم يشترِ منها ما يأكلُ ويلبسُ فهو بمنزلَةِ الفَقيرِ العادمِ كما قيل :

ومَن تَركَ الانفاقَ عندَ احتياجهِ

مخافَةَ فَقرٍ فالَّذي فَعَلَ الفقرُ

والعربُ تسمِّي الفحشَ والبذاءَ جهلاً، لكونهِ ثمرة الجهلِ فيسمَّى باسمِ سَببهِ وموجبهِ، وإمَّا لأنَّ الجهلَ يقال في جانبِ العلمِ والعملِ قال الشاعر :

ألا لا يَجهَلَنَّ أحدٌ علينا

فنَجهَلُ فوقَ جَهلِ الجاهلينا

ومِن هذا قولُ موسى لقومهِ وقد قالوا : ﴿ اتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أعوذُ باللَّهِ أن أكونَ منَ الجاهلين ﴾ [البقرة : ٦٧]، فجعَلَ الاستهزاءَ بالمؤمنين جهلاً .

ومنه قوله تعالى حكايةً عن يوسفَ أنَّهُ قال : ﴿ وإلّا تَصرِفْ عَنِّي كَيدَهُنَّ أصْبُ إليهِنَّ وأكُن من الجاهلين ﴾ [يوسف : ٣٣] .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفوَ وأمُر بالعرفِ وأعرِض عَن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩]، ليسَ المُرادُ إعراضهُ عمَّن لا علمَ عندهُ فلا يَعلمُهُ ولا يرشدُهُ وإنَّما المُراد أعراضهُ عن جهلِ من جَهلَ عليه فلا يقابلهُ ولا يعاتبهُ .

وهذا كثيرٌ في كلامهم، ومنه الحديثُ : « إذا كانَ صومِ أحدكُم فلا يَصخَب ولا يَجهَل » .[1]

ومن هذا تسميةُ المعصيةِ جهلاً، قال قتادَة : أجمعَ أصحابُ محمَّد ﷺ أنَّ كلَّ من عَصى اللَّهَ فهو جاهلٌ .[2]

وليسَ المرادُ أنَّهُ جاهلٌ بالتَّحريمِ إذ لو كانَ جاهلاً لم يكن عاصياً، فلا يترتَّبُ الحدُّ في الدُّنيا والعقوبَةُ في الآخرَةِ على جاهلٍ بالتَّحريمِ بل نفسُ الذَّنبِ يسمَّى جهلاً وإن علمَ مرتكبُهُ بتحريمِهِ :

○ **الأول** : إمَّا أنَّهُ لا يصدرُ إلّا عَن ضَعفِ العلمِ ونقصانهِ وذلكَ جهلٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٨٨ - فتح) ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

(٢) كما نقله ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٤ / ٢٠٢) .

فسمِّي باسمِ سببَهِ، وإمَّا تَنزيلاً لفاعلِهِ منزلَةَ الجاهلِ به .

○ **الثَّاني** : أنَّهُم لـمَّا ردُّوا الحقَّ ورَغبوا عنهُ عوقبوا بالطَّبعِ والرَّين وسلبِ العَقلِ والفَهمِ كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ ذلكَ بأنَّهُم آمَنوا ثمَّ كَفَروا فطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يَفقَهون ﴾ [المنافقون : ٣] .

○ **الثَّالث** : أنَّ العلم الذي ينتفعُ به ويستلزمُ النَّجاةَ والفلاحَ لم يكُن حاصلاً لهم، فَسُلِبَ عنهم حقيقتُهُ، والشيءُ قَد ينتفي لنَفي ثمرتِهِ والمرادُ منه، قال تعالى في ساكنِ النَّارِ : ﴿ فإنَّ لهُ نارَ جهنَّمَ لا يموتُ فيها ولا يَحيا ﴾ [طه : ٧٤]، نفى الحياةَ لانتفاءِ فائدتها، والمرادِ منها، ويقولونَ : لا مالَ إلّا ما أنفَقَ، ولا علمَ إلّا ما نفعَ .

ولهذا نفى عنهُ سبحانهُ عن الكفَّارِ الأسماعَ والأبصارَ والعقولَ لما لم يَنتفعوا بها، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلنا لَهُم سمعاً وأبصاراً وأفئدَةً فما أغنى عنهُم سمعُهُم ولا أبصارهُم ولا أفئدتهُم من شيءٍ إذ كانوا يجحَدونَ بآياتِ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ ولَقَد ذَرَأنا لجَهَنَّمَ كثيراً من الجنِّ والإنسِ لهُم قلوبٌ لا يَفقَهونَ بها ولهُم أعينٌ لا يُبصرونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها ﴾ [الأعراف : ١٧٩]، ولـمَّا لم يحصل لهم الهُدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلةِ فاقديها .

قال تعالى : ﴿ صمٌّ بُكمٌ عميٌ فهُم لا يَعقلونَ ﴾ [البقرة : ١٧١]، فالقَلبُ يوصَفُ بالبصر والعَمى، والسَّمعِ والصَّمِّ، والنُّطقِ والبُكمِ، بل هذه لهُ أصلاً، وللعَينِ والأُذنِ واللسانِ تبعاً، فإذا عَدمها القَلبُ فصاحبُهُ أعمى مفتوحُ العَين، أصمُّ ولا آفَةِ بإذنهِ، أبكمُ وإن كانَ فَصيحَ اللسان .

قال تعالى : ﴿ فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ ولكن تَعمى القلوبُ التي في الصُّدور ﴾ [الحج : ٤٦]، فلا تنافي بينَ قيامِ الحجَّة بالعلمِ وبينَ سلبهِ ونَفيهِ بالطَّبعِ والختم والقفلِ على قلوب مَن لا يَعملُ بموجبِ الحجَّة وينقادُ لها .

قال تعالى : ﴿ وإذا قرأتَ القُرآن جعَلنا بينَكَ وبينَ الَّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرَةِ حجاباً مستوراً * وجَعَلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يَفقَهوهُ وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرتَ ربَّكَ في القُرآنِ وحدَهُ ولَّو على أدبارهِم نفوراً ﴾ [الإسراء : ٤٥ - ٤٦]؛ فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ منعهم فقهَ كلامهِ وهو الإدراكُ الذي ينتفعُ به من فقههِ، ولم يكُن ذلكَ مانِعاً لهُم منَ الإدراكَ الذي تقومُ به الحُجَّةَ عليهم، فإنَّهُم لو لم يفهموهُ جملةً ما وَلَّوا على أدبارهم نُفوراً عندَ ذكرِ توحيدِ اللَّهِ، فلما ولَّوا عندَ ذكرِ التَّوحيدِ دلَّ على أنَّهُم كانوا يَفهمون الخطابَ، وأنَّ الذي غشى قلوبهم كالذي غشى آذانهم .

ومعلومٌ أنَّهُم لم يُعدَموا السَّمعَ جملةً ويَصيروا كالأصمِّ، ولذلك يَنفي سبحانهُ عنهم السَّمعَ تارةً، ويثبتهُ أخرى، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولو علمَ اللَّهُ فيهم خَيراً لأسمعهُم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، ومعلومٌ أنَّهُم قَد سَمِعوا القُرآن وأمَرَ الرَّسولُ بأسماعهِم إيَّاه، وقال تعالى : ﴿ وقالوا لو كنَّا نَسمعُ أو نعقلُ ما كنَّا في إصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١٠]، فهذا السَّمع المنفيُّ عنهم سمعُ الفَهمِ والفقهِ، والمعنى : ولو علمَ اللَّهُ فيهم خَيراً لأسمعهُم سمعاً ينتفعونَ به، وهو فقهُهُ المعنى وعقلهُ وإلّا فَقَد سمعوهُ سمعاً تقومُ به عليهم الحجَّةُ، ولكن لمَّا سمعوهُ مع شدَّةِ بغضهِ وكراهتهِ ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوهُ، والرَّجلُ إذا اشتَدَّت كراهتُهُ للكلامِ ونفرتُهُ عنه لم يفهم ما يرادُ به، فينزلُ منزلةَ من لم

يسمعهُ .

قال تعالى : ﴿ ما كانوا يَستَطيعونَ السَّمعَ وما كانوا يُبصِرونَ ﴾ [هود : ٢٠]، نَفى عنهُم استطاعَةَ السَّمعِ معَ صحَّةَ حواسِّهِم وسلامتها، وإنَّما لفَرطِ بغضِهم ونفرتِهم عنهُ وعَن كلامهِ صاروا بمنزلَةِ مَن لا يَستطيعُ أن يَسمعَهُ ولا يراهُ، وهذا استعمالٌ معروفٌ للخاصَّةِ والعامَّةِ يقولونَ : لا أُطيقُ أنظُرُ إلى فلانٍ، ولا أستطيعُ أن أسمعَ كلامَهُ مِن بغضِهِ ونفرتهِ عنهُ .

وبعضُ الجبريَّةِ يحتجُّ بهذه الآيَةِ وَشِبهِها على مذهبهم، ولا دلالَة فيها إذ ليسَ المرادُ سَلْبهم السَّمعَ والبَصَرَ الذي تقومُ به الحجَّةُ قطعاً، وإنَّما المرادُ سلب السَّمَعِ الذي يترتَّب عليه فائدتُهُ وثمرتُهُ .

والقَدرُ حقٌّ؛ ولكنَّ الواجبَ تنزيلُ القرآنِ منازلِهِ، ووضعُ الآياتِ مواضعها، واتِّباعُ الحقِّ حيثُ كانَ .

ومثلُ هذا إذا لم يحصُل له فهمُ الخطابِ لا يعذرُ بذلكَ؛ لأنَّ الآفة منه وهو بمنزلَةِ مَن سدَّ أذنيهِ عندَ الخطابِ فلم يَسمَعْهُ، فلا يكونُ ذلكَ عذراً له .

ومِن هذا : ﴿ قولُهُم قلوبُنا في أكنَّةٍ ممَّا تَدعونا إليهِ وفي آذاننا وقرٌ ومِن بيننا وبينك حجابٌ ﴾ [فصلت : ٥]، يعنونَ أنَّهُم في تَركِ القبولِ منه ومحبَّةِ الاسماعِ لمَّا جاءَ بهِ وإيثارِ الأعراضِ عنهُ وشدَّةِ النّفارِ عنه بمنزلَةِ مَن لا يعقلُهُ ولا يَسمعُهُ ولا يُبصِرُ المخاطبُ لهُم بهِ، فهذا هو الَّذي يقولونَ لا خلودَ في النَّارِ : ﴿ ولو كنَّا نسمعُ أو نَعقِلُ ما كنَّا في أصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١٠]، ولهذا جعلَ ذلكَ مقدوراً لهُم وذنباً اكتسبوهُ، فقال تعالى : ﴿ فاعتَرفوا بذَنبهِم فسحقاً لأصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١١] .

واللَّهُ تعالى يَنفي تارةً عن هؤلاء العَقلَ والسَّمعَ والبَصَرَ، فإنَّها مداركُ العلمِ وأسبابُ حصولِهِ، وتارةً ينفي عنهم السَّمعَ والعقلَ، وتارةً ينفى عنهُم السَّمعَ والبَصَرَ، وتارةً ينفي عنهُم العَقلَ والبَصَر، وتارةً ينفي عنهُم وَحدَهُ، فنفيُ الثَّلاثَةِ نَفيٌ لمداركِ العلمِ بطريقِ المطابَقَةِ، ونفيُ بعضها نفيٌ له بالمطابَقةِ والآخرُ باللزومِ، فإنَّ القَلبَ إذا فَسَدَ فَسَدَ السَّمعُ والبَصَرُ بل أصلُ فسادِهما مِن فسادِهُ، وإذا فَسَدَ السَّمعُ والبَصرُ فَسَدَ القلبُ، فإذا أعرَضَ عن سَمعِ الحقِّ وأبغضَ قائلَهُ بحيثُ لا يحبُّ رؤيتَهُ امتنعَ وصولُ الهُدى إلى القَلبِ فَفَسَدَ، وإذا فَسَدَ السَّمعُ والعَقلُ تَبعهما فسادُ البَصرِ، فكلٌّ مدركٍ من هذه يصحُّ بصحَّةِ الآخرِ ويفسدُ بفسادِهِ، فلهذا يجيء في القرآن نفيُ ذلك صريحاً ولزوماً .

وبهذا التَّفصيلُ يعلمُ اتفاقُ الأدلَّة من الجانبينِ .

وهذا الفَصلُ يُنْتَفَعُ به جدّاً في أكبَرِ مسائلِ أُصولِ الإسلامِ، وهي : مسألةُ الإيمانِ واختلافِ أهلِ القبلَةِ فيه، ذكرنا فيه نكتاً حساناً يتَّضحُ بها الحقُّ في المسألةِ، واللَّهُ أعلم .

السادس والسبعون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ فاوَتَ بينَ النَّوعِ الإنساني أعظَمَ تفاوتٍ يكونُ بين المخلوقين فلا يعرفُ اثنانِ من نوعٍ واحدٍ بينهما من التَّفاوتِ ما بينَ خَيرِ البَشرِ وشرِّهم، واللَّهُ سبحانهُ خَلَقَ الملائكَةَ عقولاً بلا شهواتٍ، وخَلَقَ الحيواناتِ ذواتِ شهواتٍ بلا عقولٍ، وخَلَقَ الإنسانَ مركَّباً مِن عَقلٍ وشهوَةٍ فمَن غَلَبَ عقلُهُ شهوتهُ كانَ خيراً من الملائكَةِ، ومَن غَلَبَت شهوتهُ عقلهُ كانَ شرّاً من الحيوانات، وفاوَتَ سبحانهُ بينهم في العلمِ فجعَلَ عالِمَهم معلِّم الملائكَةِ كما قال تعالى : ﴿ يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم ﴾ [البقرة :

٣٣]، وتلكَ مرتبةٌ لا مَرتبةَ فوقها، وجَعَلَ جاهلَهم بحيثُ لا يَرضى الشيطانُ به ولا يصلحُ له كما قال الشيطانُ لجاهلهم الذي أطاعهُ في الكُفرِ : ﴿ إنِّي بَريءٌ منك ﴾[الحشر : ١٦]، وقال لجَهَلَتِهم الذين عَصَوا رسولَهُ : ﴿ إنِّي بَرِيءٌ منكُم ﴾ [الأنفال : ٤٨]، فللّهِ ما أشدَّ هذا التَّفاوتُ بين شخصينِ أحدهما تسجُدُ له الملائكةُ ويعلِّمُها ممَّا اللَّهُ علَّمهُ والآخر لا يَرضى الشيطانُ به وليّاً، وهذا التَّفاوُتُ العظيمُ إنَّما حَصَلَ بالعلمِ وثمرتهِ ولو لم يكُن في العلمِ إلّا القربُ من ربِّ العالمين والالتحاقُ بعالمِ الملائكَة وصحبةُ الملأ الأعلى لكفى به فضلاً وشرفاً، فكيفَ وعِزُّ الدُّنيا والآخرَةِ منوطٌ به ومشروطٌ بحصولهِ ؟

السابع والسبعون : أنَّ شرَفَ ما في الإنسانِ محلُّ العلمِ منهُ وهو قلبُهُ وسمعُهُ وبَصَرُهُ .

ولمَّا كانَ القلبُ هو محلُّ العلمِ، والسَّمعُ رسولُهُ الذي يأتيهِ به، والعَيْنُ طليعتُهُ كانَ ملكاً على سائرِ الأعضاءِ يأمُرُها فتأتَمِرُ لأمرهِ، ويَصرِفُها فتنقادُ لهُ طائعَةً بما خُصَّ به من العلمِ دونَها، فلذلكَ كانَ ملكَها والمطاعَ فيها، وهكذا العالِمُ في النَّاسِ كالقَلبِ في الأعضاء .

ولمّا كانَ صلاحُ الأعضاءِ بصلاحِ ملكِها ومُطاعِها وفَسادُها بفسادِهِ كانَت هذه حالُ النَّاسِ مع علمائِهم وملوكِهم .

قال عبداللّهِ بن المُبارك :

وَهَلَ أفسَدَ الدِّينَ إلّا المُلو ... كُ وأحبارُ سوءٍ ورُهبانُها

ولمَّا كانَ للسَّمعِ والبَصرِ من الإدراكِ ما ليسَ لغَيرهما من الأعضاءِ كانا

في أشرَفِ جزءٍ من الإنسانِ وهو وجهُهُ، وكانا من أفضَلِ ما في الإنسانِ من الأجزاءِ والأعضاءِ والمنافعِ .

الثّامن والسبعون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ في القرآنِ يعدِّدُ على عبادهِ من نعمِهِ عليهم أن أعطاهُم آلاتِ العلمِ، فيذكرُ الفؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ، ومرَّةً يذكرُ اللسانَ الذي يُتَرجِمُ به عن القَلبِ، فقال تعالى في سورَةِ النِّعَم وهي سورَةُ النَّحل التي ذكرَ فيها أصولَ النِّعَم وفروعَها ومتمِّماتِها ومكمِّلاتِها، فعدَّدَ نعمَهُ فيها على عبادهِ، وتعرَّفَ بها إليهم، واقتضاهم شكرها، وأخبرَ أنَّهُ يُتمُّها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأوَّلها في أُصولِ النِّعَم وآخِرُها في مكمِّلاتِها .

قال تعالى : ﴿ واللَّهُ أخرَجَكُم من بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شيئاً وجَعَلَ لكمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدَةَ لعلَّكُم تشكرون ﴾ [النحل : ٧٨]، فَذَكَرَ سبحانهُ نعمتَهُ عليهم بأن أخرجَهم لا علمَ لهم ثمَّ أعطاهُم الأسماعَ والأبصارَ والأفئدَةَ التي نالوا بها من العلمِ ما نالوهُ، وأنَّهُ فَعَلَ بهم ذلكَ ليَشكروهُ .

وقال تعالى : ﴿ وجَعَلنا لهُم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ ألم نجعَلْ له عَينَين * ولساناً وشفتَين * وهَدناهُ النَّجدَين ﴾ [البلد : ٨ - ١٠]، فَذَكَرَ هنا العَينين التي يُبصرُ بهما فيعلم المشاهَداتِ، وذكرَ هدايةَ النَّجدَين وهما طريقا الخَيرِ والشرِّ .

والهدايَةُ تكونُ بالقَلبِ والسَّمعِ، فَقَد دَخَلَ السمعُ في ذلكَ لزوماً، وذَكَرَ اللسانَ والشفتَين اللتين هما آلةُ التَّعليم، فَذَكَرَ آلاتِ العلمِ والتَّعليمِ، وجَعلها من

آياتهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى قدرتهِ ووحدانيَّتِهِ ونعمهِ التي تعرَّف بها إلى عبادهِ، ولـمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثَّلاثَةُ التي هي أشرفُ الأعضاءِ وملوكُها والـمتَصرِّفَةُ فيها والـحاكمَةُ عليها خصَّها سبـحانهُ وتعالى بالذِّكرِ في السُّؤال عنها، فقال : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦]، فسعادَةُ الإنسانِ بصحَّةِ هذه الأعضاء الثَّلاثة وشقاوتهُ بفسادها .

الـتاسع والسبعون : إنَّ أنواعَ السَّعادَةِ التي تُؤثرها النُّفوسُ ثلاثةٌ :

السـعـادَةُ الأولى : سعادَةٌ خارجيَّةٌ عن ذاتِ الإنسانِ بل هي مُستعارَةٌ لـه من غيرهِ تزولُ باستردادِ العاريَةِ، وهي سعادَةُ الـمالِ والـحياةِ، فبيناً الـمرءُ بها سعيداً ملـحوظاً بالعنايَةِ مرموقاً بالأبصارِ إذ أصبحَ في اليومِ الواحدِ أذلَّ من وتدٍ بقاعٍ يشجُّ رأسُهُ بالفهرواجي، فالسَّعادَةُ والفَرحُ بهذه كفَرحِ الأقرعِ بـجُمَّةِ ابن عمِّهِ، والـجمـالُ بها كجمالِ الـمرءِ بثيابهِ وبزينتهِ، فإذا جاوَزَ بَصرُكَ كسوتَهُ فليسَ وراءَ عبادانَ قريةٌ .

السَّعادَةُ الثَّانيةُ : سعـادَةٌ في جسـمهِ وبَدنـه كصحَّتهِ واعتدالِ مزاجهِ، وتناسبِ أعضائهِ، وحسنِ تركيبهِ، وصفاءِ لونهِ، وقوَّةِ أعضائهِ، فهذه ألصقُ به من الأُولى، ولكن هي في الـحقيقةِ خارجةٌ عن ذاتهِ وحقيقتهِ، فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحهِ وقلبهِ لا بـجسـمهِ وبدنهِ .

كما قيل :

يا خادم الـجسـمِ كَي يَشقى بِـخِدمَتـهِ
فـأنـتَ بـالـرُّوحِ لا بـالـجِسـمِ إنـسـان

فنسبةُ هذه إلى روحهِ وقلبهِ كنسبةِ ثيابهِ ولباسهِ إلى بَدنهِ، فإنَّ البَدَنَ أيضاً

عاريةٌ للرُّوحِ وآلةٌ لـها ومركبٌ من مراكبها، فسعادتُها بصحّتهِ وجمالـهِ وحُسنهِ سعادَةٌ خارجيَّةٌ عن ذاتها وحقيقتها .

السَّعادَةُ الثَّالثَةُ : هي السَّعادَةُ الحقيقيَّةُ وهي سعادَةٌ نفسانيَّةٌ روحيَّةٌ قلبيَّةٌ، وهي سعادَةُ العلمِ النَّافعِ ثمرتُهُ، فإنَّها هي الباقيَةُ على تقلُّبِ الأحوالِ والمُصاحِبَةِ للعَبدِ في جميعِ أسفارهِ، وفي دورهِ الثَّلاثَةِ أعني : دارَ الدُّنيا، ودارَ البرزَخ، ودارَ القَرار، وبها يترقَّى معارجَ الفَضلِ ودرجاتِ الكمالِ .

ـ **أمَّا الأولى** : فإنَّها تصحبُهُ في البقعَةِ التي فيها مالُهُ وجاهُه .

ـ **والثَّانيَة** : تعرُضهُ للزَّوالِ والتَّبدُّل بنَكسِ الخَلقِ والرَّدِّ إلى الضَّعفِ، فلا سعادَةَ في الحقيقة إلّا في هذه الثَّالثَة التي كلَّما طالَ الأمَدُ ازدادَت قوَّةً وعُلوّاً، وإذا عُدمَ المالُ والجاهُ فهي مالُ العَبدِ وجاهُهُ، وتَظهَرُ قوَّتُها وأثرُها بعدَ مفارَقةِ الرُّوحِ البدنَ إذا انقطَعَت السَّعادَتان الأوَّليَّتان .

وهذه السَّعادَةِ لا يعرفُ قَدرُها ويَبعَثُ على طَلبها إلّا العلمُ بها، فعادَت السَّعادَةُ كلُّها إلى العلمِ وما يَقتَضيهِ، واللَّهُ يوفِّقُ من يشاءُ لا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطي لما منَعَ .

وإنَّما رَغِبَ أكثرُ الخَلقَ عن اكتسابِ هذه السَّعادَةِ وتحصيلها وعورَةَ طريقها، ومرارَةَ مباديها، وتَعَبَ تحصيلها، وأنَّها لا تُنالُ إلّا على جسرٍ من التَّعبِ، فإنَّها لا تُحصَّلُ إلّا بالجدِّ المحضِ بخلافِ الأوَّلين فإنَّهما حظٌّ قد يحوزهُ غيرُ طالبهِ، وبختٌ قَد يحوزهُ غيرُ جالبهِ من ميراث أو هِبَةٍ أو غَيرَ ذلكَ .

وأمَّا سعادَةُ العلمِ فلا يورثُكَ إيَّاها إلّا بذلُ الوُسعِ وصِدقُ الطَّلبِ وصحَّةُ

النيَّة، وقَد أحسَنَ القائلُ في ذلك :

فقُــل لـمرجــيّ مَعــالــي الأُمــور
بغَيــرِ اجتـهــادٍ رَجَوتَ الـمُحــالاً

وقال الآخَر :

لولا الـمَشقَّةُ سادَ النَّاسُ كلُّهُـم
الـجــودُ يُفـقِــرُ والإقــدامُ قـتَّــالُ

ومَن طمحَت همَّتُهُ إلى الأمور العاليَةِ فواجبٌ عليه أن يَشدَّ على محبَّةِ الطُّرقِ الدِّينيَّة، وهي السَّعادَةُ وإن كانَت في ابتدائها لا تنفكُّ عَن ضربٍ من المشقَّة والكُرهِ والتَّأذِّي، وأنَّها متى أُكرِهت النَّفسُ عليها وسيقَت طائعَةً وكارهةً إليها وصَبرَت على لأوائها وشدَّتها أفضَت منها إلى رياضٍ مونَّقةٍ ومقاعدَ صدقٍ ومقامٍ كريمٍ تجدُ كلَّ لذَّةٍ دونها لَعِبُ الصَّبيِّ بالعصفورِ بالنِّسبَةِ إلى لذَّاتِ الملوكِ، فحينئذٍ حالُ صاحبها كما قيلَ :

وكنتُ أرى أن قد تناهى بيَ الهَوى
إلى غايَـةٍ ما بَعـدَهـا لـي مَذهَـبُ

فلـمَّـا تلاقَـينا وعايَـنـتَ حُسـنَـهـا
تيقَّـنـتُ أَنـيَ إنَّـمـا كـنـتُ ألعـبُ

فالمكارمُ منوطَةٌ بالمكارهِ، والسَّعادَةُ لا يُعبَرُ إليها إلّا على جسرِ المشقَّةِ، فلا تقطعُ مسافَتُها إلّا في سفينَةِ الجدِّ والاجتهاد .

قالَ مسلمٌ في « صحيحه »[1] : قال يحيى بن أبي كثيرٍ : لا يُنالُ العلمُ

---

(١) (برقم : ٦١٢) (١٧٥)، بلفظ : « لا يستطاع العلم براحة الجسم » .

براحَةِ الجسم .

وقَد قيلَ : مَن طَلَبَ الرَّاحَةَ تركَ الرَّاحَةَ .

فيـا وصـلَ الـحبيـبَ أمَّـا إليـهِ

بغَيـرِ مشـقَّـةٍ أبـداً طـريـقٌ

ولولا جهلُ الأكثرينَ بحلاوَةِ هذه اللَّذَّةِ وعظمِ قَدرِها لتجالَدوا عليها بالسُّيوف، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكارهِ، وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهلِ، ليختصَّ اللَّهُ لها من يشاءُ مَن عبادهُ واللَّهُ ذو الفَضلِ العظيم .

الثَّمانون : إنَّ اللَّهَ تعالى خَلَقَ الموجوداتِ وجعل لكلِّ شيءٍ منها كمالاً يختَصُّ به هو غايَةُ شرفهِ، فإذا عُدمَ كمالُهُ انتقَلَ إلى الرُّتبَةِ التي دوَّنهُ واستعملَ فيها، فكانَ استعمالُهُ فيها كمالِ أمثالهِ، فإذا عُدمَ تلكَ أيضاً نُقلَ إلى ما دونَها ولا تعطَّلُ وهكذا أبداً حتى إذا عُدمَ كلّ فَضيلَةٍ صارَ كالشوكِ وكالحَطَب الذي لا يصلحُ إلّا للوقودِ، فالفرس إذا كانَت فيهِ فروسيَّتهِ التَّامَّةِ أُعدَّ لمراكبِ الملوكِ وأُكرِمَ إكرامَ مثلهِ، فإذا نَزَلَ عنها قليلاً أُعدَّ لمَن دونَ الملكِ، فإن ازدادَ تَقصيرةُ فيها أُعدَّ لآحادِ الأجنادِ، فإن تقاصَرَ عنها جملَةً استُعملَ استعمالَ الحمارِ إمَّا حَولَ المدارِ وإمَّا لنقلِ الزّبلِ ونحوهِ، فإن عُدمَ ذلكَ استُعملَ استعمالَ الأغنامِ للذبحِ والإعدام .

كما يقال في المثل : إن فَرسَين التَقيا أحدهما تحتَ ملكٍ والآخَرُ تحت الرّوايا فقالَ فرسُ الملكِ : أمَّا أنتَ صاحبي وكنتُ أنا وأنتَ في مكانٍ واحدٍ فما الَّذي نَزَلَ بكَ إلى هذه المرتبَة ؟ فقال : ما ذاكَ إلّا أنَّكَ هملجتَ قليلاً وتكسعتُ أنا .

وهكذا السَّيفُ إذا نبا عمَّا هيِّءَ له ولم يصلحُ له ضُرِبَ منه فأسٌ أو منشارٌ ونحوهُ، وهكذا الدُّورُ العظامُ الحسانُ إذا خَبَت وتهدَّمَت اتُّخِذَت حظائرُ للغَنمِ أو الإبلِ وغيرهما .

وهكذا الآدميُّ إذا كانَ صالحاً لاصطفاء اللَّه له برسالتهِ ونبوَّتهِ اتَّخَذهُ رسولاً ونبيَّاً، كما قالَ تعالى : ﴿ اللَّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]، فإذا كانَ جوهرُهُ قاصراً عن هذه الدَّرجَة صالحاً لخلافَة النُّبوَّة وميراثها رشحهُ لذلكَ وبلَّغهُ إيَّاهُ، فإذا كانَ قاصراً عن ذلكَ قابلاً لدرجَةِ الولايَةِ رُشحَ لها، وإن كانَ ممَّن يصلحُ للعَمَلِ والعبادَةِ دونَ المعرفَةِ والعلمِ جُعِلَ من أهلهِ، حتى ينتهي إلى درجَةِ عمومِ المؤمنين، فإن نَقَصَ عن هذه الدَّرجَة ولم تكُن نفسُهُ قابلَةً لشيءٍ من الخَيرِ أصلاً استُعملَ حطباً ووقوداً للنَّارِ .

وهكذا الإنسانُ يترقَّى في درجاتِ الكمالِ درجَةً بعدَ درجَةٍ حتى يبلغَ نهايَةَ ما ينالُهُ أمثالُهُ منها، فكَم بين حالهِ في أوَّلِ كونهِ نطفَةً وبينَ حالهِ والرَّبُّ يسلِّمُ عليه في دارِهِ وينظرُ إلى وجهِه بُكرَةً وعشيَّاً ؟ والنَّبيُّ ﷺ في أوَّلِ أمرهِ لمَّا جاءَهُ المَلَكُ فقال له : اقرأ، فقال : « ما أنا بقارىءٍ »[1]، وفي آخِرهِ أَمَرَهُ بقولِ اللَّهِ لهُ : ﴿ اليومَ أكمَلتُ لكُم دينكُم وأتممتُ عليكُم نعمتي ﴾ [المائدة : ٣]، وبقوله له خاصَّة : ﴿ وأنزَلَ اللَّه عليكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تَكُن تَعلَم وكانَ فَضلُ اللَّهِ عليكَ عظيماً ﴾ [النساء : ١١٣] .

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٢٣ - فتح)، ومسلم (١٦٠) (٢٥٧) عن عائشة - رضي اللَّه عنها .

وحكى أنَّ جماعةً من النَّصارى تحدَّثوا فيما بينهم فقال قائلٌ منهم : ما اقلَّ عقولُ المسلمين يَزعمونَ أنَّ نبيَّهُم كانَ راعي الغَنَم فكيفَ يصلُحُ راعي الغَنَمِ للنُّبوَّةِ ؟

فقال له آخَر من بينهم : أمَّا هم فواللَّهِ أعقَلُ منَّا، فإنَّ اللَّهَ بحكمَتهِ يَسترعي النَّبيَّ الحيوانَ البَهيمَ، فإذا أحسَنَ رعايتَهُ والقيامَ عليه نقلهُ منهُ إلى رعايَةِ الحيوان النَّاطقِ حكمةً من اللَّهِ وتَدريجاً لعبدِهِ، ولكن نحنُ جئنا إلى مولودٍ خَرَجَ من امرأةٍ يأكُلُ ويَشرَبُ ويبولُ وَيبكي، فقلنا : هذا إلهنا الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، فأمسَكَ القومُ عنه .

فكيفَ يحسنُ بذي همَّةٍ قَد أزاحَ اللَّهُ عنهُ عِلَلَهُ وعرَّفهُ السَّعادَةَ والشقاوَةَ أن يَرضى بأن يكونَ حيواناً وقَد أمكنهُ أن يَصيرَ إنساناً ؟ وبأن يكونَ إنساناً وقَد أمكنهُ أن يكونَ مَلكاً ؟ وبأن يكونَ ملكاً وقَد أمكنهُ أن يكونَ مَلِكاً في مَقعَدِ صِدقٍ عندَ مليكٍ مُقتَدِر ؟ فتقومُ الملائكَةُ في خدمتهِ وتَدخُلُ عليهم من كلِّ بابٍ سلامٌ عليكُم بما صَبَرتُم فنِعمَ عُقبى الدَّار .

وهذا الكمالُ إنَّما ينالُ بالعلمِ ورعايتهِ والقيامِ بموجبهِ، فعادَ الأمرُ إلى العلمِ وثمرتهِ، واللَّهُ تعالى الموفِّق .

وأعظمُ النَّقص وأشدُّ الحسرَةِ نقصُ القادرِ على التَّمام وحسرتُهُ على تفويتِهِ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : إذا كثرَت طرقُ الخيرِ كانَ الخارجُ منها أشدَّ حسرَةً .

وصَدَقَ القائلُ :

ولَم أرَ في عُيوبِ النَّاسِ عَيباً ... كَنَقصِ القادرينَ على التَّمامِ

فَثَبَتَ أنَّهُ لا شيءَ أقبحُ بالإنسان من أن يكونَ غافلاً عن الفضائلِ الدِّينيَّةِ والعلومِ النَّافعَةِ والأعمالِ الصَّالحَةِ فمَن كانَ كذلكَ فهو من الهمجِ الرَّعاع الذينَ يكدِّرونَ الماءَ، ويغلونَ الأسعارَ إن عاشَ عاشَ غَير حميدٍ، وإن ماتَ ماتَ غَيرَ فَقيدٍ، فَقدهُم راحَةٌ للبلادِ والعبادِ، ولا تبكي عليهم السَّماءُ، ولا تستَوحشُ لهم الغَبراءُ .

الحادي والثمانون : أنَّ القَلبَ يعترضهُ مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كانَ هلاكُهُ وموتُهُ، وهما مرضُ الشهواتِ، ومرضُ الشبهات، هذان أصلُ داءِ الخَلقِ إلّا من عافاهُ اللَّهُ .

وَقَد ذكَرَ اللَّهُ تعالى هذين المرضين في كتابهِ .

أمَّا مرضُ الشبهات وهو أصعبُهما وأقتلُهما للقَلبِ، ففي قوله تعالى في حقِّ المنافقين : ﴿ في قلوبهم مَرَضٌ فزادَهُم اللَّهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة : ١٠]، وقوله : ﴿ وليقولَ الَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أرادَ اللَّهُ بهذا مثلاً ﴾ [المدثر : ٣١]، وقال تعالى : ﴿ ليجعَلَ ما يُلقي الشيطانُ فتنَةً للذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والقاسيَةِ قلوبُهم ﴾ [الحج : ٥٣] .

فهذه ثلاثةُ مواضعَ المرادُ بمرضِ القَلبِ فيها مرضُ الجَهلِ والشُّبهَةِ .

وأمَّا مَرضُ الشهوَة ففي قوله : ﴿ يا نِساءَ النَّبيِّ لَستُنَّ كأحدٍ من النِّساءِ إن اتَّقيتُنَّ فلا تخضَعنَ بالقولِ فيَطمَعَ الَّذي في قَلبهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢]، أي : لا تلنَّ في الكلامِ، فيطمعُ الذي في قلبهِ فجورٌ وزناءٌ .

قالوا : والمرأةُ ينبغي لها إذا خاطَبَت الأجانبَ أن تغلظ من كلامِها وتقوِّيه ولا تليِّنهُ وتكسِّرهُ، فإنَّ ذلكَ أبعَدَ من الرِّيبَةِ والطَّمعِ فيها .

وللقَلبِ أمراضٌ أخَر من الرِّياء، والكِبرِ، والعُجبِ، والحَسَدِ، والفَخرِ، والخُيَلاءِ، وحُبِّ الرِّياسَةِ، والعلوِّ في الأرضِ .

وهذا المرضُ مركَّبٌ من مرضِ الشُّبهَةِ والشَّهوَةِ، فإنَّهُ لابدَّ فيهِ من تخيُّلٍ فاسدٍ وإرادةٍ باطلةٍ كالعُجبِ والفَخرِ والخُيَلاءِ والكبرِ المركَّبِ من تخيُّلِ عظمتِهِ وفَضلِهِ وإرادةِ تَعظيم الخَلقِ له ومحمدتهم، فلا يخرجُ مرضُهُ عن شهوةٍ أو شبهَةٍ أو مركَّبٍ منهما .

وهذه الأمراضُ كلُّها متولِّدَةٌ عن الجَهلِ، ودواؤها العلمُ كما قال النَّبيُّ ﷺ في حديثِ صاحبِ الشجَّةِ الذي افتوهُ بالغُسلِ فماتَ : « قتلوهُ قتلهم اللَّهُ ألا سألوا إذ لم يعلموا إنَّما شفاءُ العَيِّ السُّؤالُ »[1]، فجعَلَ العيَّ وهو عيُّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٧٢)، والدارقطني (١ / ١٩٠ / ٤)، والحاكم (١ / ١٧٨)، والطبراني (١١٤٧٢)، وأبو نعيم في « الحلية » (٣ / ٣١٧ - ٣١٨) .

من طريق الأوزاعي عن عطاء بن أبي رباح قال : سمعت ابن عباس (وذكره) .

قال الحاكم : وقد رواه الهقل بن زياد وهو من أثبت أصحاب الأوزاعي ولم يذكر سماع الأوزاعي من عطاء .

قلت : وهو ظاهر الرواية الأخرى التي أخرجها : أحمد (١ / ٣٣٠)، وأبو داود (٣٣٧)، والدارمي (١ / ١٩٢)، وعبدالرزاق (٨٦٧)، والدارقطني (١ / ١٩١)، والبيهقي (١ / ١٢٧) .

من طريق الأوزاعي أنَّه بلغه عن عطاء بن أبي رباح أنَّه سمع عبداللَّه بن عباس (وذكره) .

قال الدارقطني : واختلف على الأوزاعي فقيل : عنه عن عطاء، وقيل : عنه بلغني عن عطاء، وأرسل الأوزاعي آخره عن عطاء عن النَّبي ﷺ هو الصواب .

وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي وأبا زرعة عنه ؟ فقالا : رواه ابن أبي العشرين عن =

= الأوزاعي عن إسماعيل بن مسلم عن عطاء عن ابن عباس وأسند(*) الحديث .

قلت : الراجح عندي سماع الأوزاعي من عطاء لأمرين :

○ **الأول** : لقد أثبت سماعه ابن معين كما في « تاريخ الدوري » (٢ / ٢٥٤) :

« لم يسمع الأوزاعي من نافع، وقد سمع الأوزاعي من عطاء » .

○ **الثاني** : ما أخرجه الحاكم (١ / ١٧٨) من طريق بشر حدثني الأوزاعي ثنا عطاء بن أبي رباح أنَّه سمع ابن عباس (وذكره) .

قلت : وهذا **إسناد صحيح** رجاله ثقات .

وكذلك لم ينفرد الأوزاعي بل تابعه الوليد بن عبدالله بن أبي رباح أنَّ عطاء حدَّثه عن ابن عباس (وذكره) .

أخرجه ابن خزيمة (٢٧٣)، والحاكم (١ / ١٦٥)، وابن حبان (١٣١٤)، وابن الجارود (١٢٨)، والبيهقي (١ / ٢٢٦) .

قال الحاكم : صحيح، ووافقه الذهبي .

وقال البيهقي : هذا حديث موصول .

قلت : الوليد بن عبيدالله ضعَّفه الدارقطني ووثقه ابن معين كما في « الجرح والتعديل » لابن أبي حاتم (٩ / ٩) .

ومثله يصلح للاعتبار .

وبالجملة؛ فالحديث من طريق الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس صحيح، والله أعلم .

وقد خالف الاوزاعي فيه الزبيرُ بن خُرَيْق؛ فرواه عن عطاء عن جابر .

أخرجه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١ / ١٨٩ - ١٩٠)، والبيهقي (١ / ٢٢٧)، والبغوي في « شرح السُّنة » (٢ / ١٢٠)، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٦٣) .

قلت : ورواية الأوزاعي أرجح وأصح من رواية الزبير لأمور : =

(*) هكذا في « سنن الدارقطني »، وهو تطبيع قبيح صوابه : « وأفسد » كما في « علل الحديث » لابن أبي حاتم (١ / ٣٧) .

القَلبِ عن العلـمِ واللسانِ عن النُّطقِ به مرضاً، وشفاؤهُ سؤالُ العلمـاءِ، فأمراضُ القلوبِ أصعَبُ من أمراضِ الأبدانِ، لأنَّ غايَةَ مرَضِ البَدنِ أن يُفضي بصاحبهِ إلى الموت، وأمَّا مَرضُ القَلبِ فيُفضي بصاحبهِ إلى الشقاءِ الأبديِّ، ولا شفاءَ لهذا المرضِ إلّا بالعلمِ، ولهذا سمَّى اللَّهُ تعالى كتابهُ شفاءً لأمراضِ الصُّدور، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعظَةٌ من رَبِّكُم وشفاءٌ لما في الصُّدور وهُدىً ورحمَةٌ للمؤمنين ﴾ [يونس : ٥٧] .

ولهذا السَّبَب نسبةُ العلماء إلى القلوبِ كنسبَةِ الأطبَّاءِ إلى الأبدانِ، وما يقالُ للعلماءِ أطبَّاءُ القلوبِ فهو لقَدرِ ما جامعَ بينهما، وإلّا فالأمرُ أعظمُ فإنَّ كثيراً من الأُمَمِ يَستغنونَ عن الأطبَّاءِ ولا يوجَدُ الأطبَّاءُ إلّا اليَسيرِ من البلادِ، وَقَد يَعيشُ الرَّجلُ عمرَهُ أو برهَةً منه لا يحتاجُ إلى طبيبٍ، وأمَّا العُلماءُ باللَّهِ وأمرِهُ فهم حياةُ الموجودِ وروحُه ولا يُستَغنى عنهُم طرفَةَ عَينٍ، فحاجةُ القلبِ إلى العلمِ ليسَت كالحاجَةِ إلى التَّنفُّسِ في الهواءِ بل أعظَمُ .

وبالجُملَةِ فالعلمُ للقَلبِ مثلُ الماءِ للسَّمكِ إذا فَقَدَهُ ماتَ، فنسبَةُ العلمِ إلى القَلبِ كنسبَةِ ضوءِ العَينِ إليها، وكنسبَةِ سمعِ الأُذنِ، وكَنسبةِ كلامِ اللِّسان

= * **الأول** : أنَّ الأوزاعي أوثق وأحفظ من الزبير .

* **الثاني** : أنَّ الزبير تفرد بزيادة المسح على الجبيرة؛ فهي زيادة ضعيفة منكرة، وانظر لزاماً « التلخيص الحبير » (١ / ١٤٧ - ١٤٨) .

وجملة : « إنَّما شفاء العي السؤال » **شاهد من حديث علي بن أبي طالب** أخرجه القضاعي (١١٦٢) لكن إسناده واه بمرَّة .

وللحديث **شاهد عن أبي سعيد الخدري ضعَّفه جداً** الحافظ في « التلخيص الحبير » (١ / ١٤٨) .

إليهِ، فإذا عَدِمهُ كانَ كالعَينِ العَمياءِ، والأُذنِ الصمَّاءِ، واللسانِ الأخرَسِ، ولهذا يصِفُ سبحانهُ أهلَ الجَهلِ بالعَمى والصمِّ والبكمِ، وذلكَ صفَةُ قلوبهم حيثُ فَقَدَت العلمَ النَّافعَ فَبقيَت على عَماها وصمَمِها وبُكمِها، قال تعالى: ﴿ ومَن كانَ في هذهِ أعمى فهو في الآخِرَةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمرادُ عمى القَلبِ في الدُّنيا .

وقال تعالى: ﴿ ونَحشرُهُم يومَ القيامَةِ على وجوهِهِم عُمياً وبُكماً وصمَّاً مأواهُم جهنَّمُ ﴾ [الإسراء: ٩٧]، لأنَّهُم هكذا كانوا في الدُّنيا والعَبدُ يُبعَثُ على ما ماتَ عليهِ .

الثَّاني والثمانون: أنَّ اللَّهَ سبحانهُ بحكمَتهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدوًّا عالماً بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشرِّ الذي يلقيهِ فيه؛ متفنِّناً فيها، خَبيراً بها، حَريصاً عليها، لا يفترُ يقظَةً ولا مناماً، ولابدَّ لهُ من واحدةٍ من ستٍّ[1] ينالها منه :

---

(١) جعلها المصنِّف - رحمه اللَّه - في « مدارج السالكين » (١ / ٢٢٢ - ٢٢٧) سبع عقبات، فزاد على ما ذكره هنا المباحات فقال :

« عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثمَّ طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثمَّ من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه : تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات، ولكنَّه جاهل بالسعر .

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامَّة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلَّة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضنَّ بأنفاسه، أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على (وذكر العقبة السادسة : وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات) .

* **أحدها** : - وهي غايةُ مرادِهِ منه - أن يحولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ، فيلقيهِ في الكُفرِ،فإذا ظفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ .

فإن فاتَتهُ هذه وهُديَ للإسلامِ حَرِصَ على تلوِ الكفرِ وهي البِدعَة، وهي أحبُّ إليهِ من المعصيَةِ، فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ منها، والبدعَةُ لا يُتابُ منها، لأنَّ صاحبها يرى أنَّهُ على هُدىً، فإذا ظفِرَ منه بهذِهِ صيَّرهُ من رعاتِهِ وأُمرائِهِ .

فإن أعجزَتهُ شغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه ليرتجَ عليه الذي بينهما، وهي الخامسةُ .

فإن أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة، وهي تَسليطُ حزبِهِ عليه يؤذونهُ، ويشتمونهُ ويبهتونهُ، ويرمونهُ بالعظائمِ، ليحزنهُ، ويشغَلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادَةِ، وسائرِ أعمالهِ .

فكيفَ يمكنُ أن يحترزَ منه مَن لا علمَ له بهذه الأُمور ولا بعدوِّهِ ولا بما يحصِّنُهُ منهُ، فإنَّهُ لا يَنجو من عَدوِّهِ إلّا مَن عرفه وعَرَفَ طريقَه التي يأتيهِ منها وجيشهِ الذي يستعينُ به عليهِ، وعَرَفَ مداخلهُ ومخارجهُ وكيفيَّةَ محاربتهِ، وبأيِّ شيءٍ يحاربهُ، وبماذا يداوي جراحتَهُ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالهِ ودفعهِ،وهذا كلُّهُ لا يحصُلُ إلّا بالعلمِ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمى عن هذا الأمرِ العَظيمِ والخَطبِ الجسيمِ .

ولهذا جاءَ ذكرُ العدوِّ وشأنِهُ وجنودِهُ ومكايدِهُ في القرآنِ كثيراً جدّاً؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها وطرقِ محاربتهِ ومجاهدتهِ، فلولا أنَّ العلمَ يكشفُ عن هذا لما نجا من نجا منه، فالعلمُ هو الذي تحصلُ به النَّجاةُ .

الثّالث والثمانون : أنَّ أعظمَ الأسبابِ التي يُحْرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا

والآخرَة ولذَّةِ النَّعيمِ في الدَّارَين ويدخُلُ عليهِ عدوٌّ منها هو الغفلَةُ المضادَّةُ للعلمِ، والكسلُ المضادُّ للإرادَةِ والعزيمَةِ، هذان أصلُ بلاءِ العَبدِ وحرمانهِ منازلَ السُّعَداء، وهما من عَدمِ العلمِ .

أمَّا الغفلةُ؛ فمضادَّةٌ للعلمِ منافيَةٌ له، وقد ذمَّ سبحانهُ أهلَها، ونهى عن الكَونِ منهم وعَن طاعتهم والقبول منهم، قال تعالى : ﴿ ولا تَكُن من الغافلين ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]، وقال تعالى : ﴿ ولا تُطِع من أغفَلنا قَلْبَهُ عن ذكرنا ﴾ [الكهف : ٢٨]، وقال تعالى : ﴿ ولقَد ذَرَأنا لِجَهنَّمَ كثيراً من الجنِّ والإنسِ لهُم قلوبٌ لا يفقَهونَ بها ولهم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها أُولئكَ كالأنعامِ بل هُم أضلُّ أُولئكَ هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

فهو دائماً يترقب غفلة العبد، فيبذر في قلبهِ بذرَ الأماني والشهواتِ والخَيالاتِ الباطلَةِ، فيثمرُ كلَّ حنظَلٍ وكلَّ شوكٍ وكلَّ بلاءٍ، ولا يزالُ يمدُّهُ بسَقيِهِ حتى يغطِّي القَلبَ ويعميه .

وأمَّا الكَسَلُ، فيتولَّدُ عنه الإضاعةُ والتَّفريطُ والحرمانُ وأشدُّ النَّدامَةِ، وهو منافٍ للإرادَةِ والعَزيمَةِ التي هي ثمرَةُ العلمِ، فإنَّ مَن علمَ أنَّ كمالَهُ ونعيمَهُ في شيءٍ طلبهُ بجهدهِ وعَزَمَ عليهِ بقلبهِ كلِّهِ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يسعى في تكميلِ نفسهِ ولذَّتهِ، ولكنَّ أكثَرَهُم أخطأَ الطَّريقَ لعَدمِ علمهِ بما يَنبَغي أن يطلبَهُ، فالإرادَةُ مسبوقَةٌ بالعلمِ والتَّصوُّرِ، فتخلُّفها في الغالبِ إنَّما يكونُ لتخلُّفِ العلمِ والإدراكِ وإلّا فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ سعادَةَ العَبدِ في هذا المطلبِ ونجاتهِ وفوزهِ كيفَ يلحقهُ كسلٌ في النُّهوضِ إليهِ ؟ ولهذا استعاذَ النَّبيُّ ﷺ من الكسَل،

ففي « الصَّحيح »[1] عنه أنَّه كانَ يقول : « اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الهَمِّ والحَزَن والعَجزِ والكَسَل والجُبنِ والبُخلِ وضلعِ الدَّينِ وغلبةِ الرِّجال » فاستعاذَ من ثمانيةِ أشياء كلُّ شيئينِ منها قرينان، والفرقُ بينهما أنَّ المكروه الواردَ على القلبِ إمَّا أن يكونَ على ما مَضى أو لمَّا يستقبل .

فالأوَّل هو الحزن والثَّاني الهمُّ، وإن شئتَ قلتَ الحزنَ على المكروه الذي فاتَ ولا يتوقَّعُ دفعهُ، والهمُّ على المكروهِ المنتظرِ الذي يتوقَّعُ دفعهُ وتأملهُ .

والعجزُ والكسلُ قرينان، فإن تخلَّفَ مصلحَةِ العَبدِ وكمالهِ ولذَّتهِ وسرورهِ عنهُ، إمَّا أن يكونَ مصدرهُ عدمُ القدرَةِ فهو العجزُ، أو يكونَ قادراً عليهِ لكن تخلَّفَ لعَدمِ إرادتهِ فهو الكسَلُ، وصاحبهُ يلامُ عليه ما لا يلامُ على العجزِ .

وقَد يكونُ العجزُ ثمرَةُ الكسَلِ، فيلامُ عليهِ أيضاً، فكثيراً ما يكسلُ المرءُ عن الشيءِ الذي هو قادرٌ عليهِ، وتضعُفُ عنه إرادتهُ، فيفضي به إلى العجزِ عنه، وهذا هو العجزُ الذي يلومُ اللَّهُ عليه في قولِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ يلومُ على العجزِ »[2] وإلّا فالعجزُ الذي لم تخلقُ له قدرَةٌ على دفعهِ ولا يدخُلُ معجوزُهُ تحتَ القدرَةِ لا يلامُ عليه .

قال بعضُ الحكماء في وصيَّتهِ : إيَّاكَ والكسَلَ والضَّجَرَ، فإنَّ الكسَلَ لا

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ١٧٨ - فتح) من حديث أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه .

(٢) **ضعيف** كما بيَّنته في « صحيح كتاب الأذكار وضعيفه »(٢٦٦ / ١٠٢) .

ينهضُ لـمكرَمَةٍ، والضَّجَرُ إذا نَهَضَ إليها لا يَصبرُ عليها، والضَّجَرُ متوَلّدٌ عن الكسَلِ والعجزِ، فلـم يفردهُ في الـحديثِ بلفظٍ .

ثمَّ ذكرَ الـجبنَ والبخلَ، فإنَّ الإحسانَ الـمتوقَّعُ من العَبدِ إمَّا بمالـهِ وإمَّا ببدنهِ، فالبَخيلُ مانعٌ لنفعِ مالـهِ، والـجبانُ مانعٌ لنفعِ بَدنهِ .

الـمشهورِ عندَ النَّاسِ أنَّ البخلَ مستلزمٌ الـجبنَ من غيرِ عَكسٍ، لأنَّ من بـخلَ بمالـهِ فهو بنفسهِ أبخلُ، والشجاعَةُ تستلزمُ الكرم من غيرِ عكسٍ، لأنَّ من جادَ بنفسهِ فهو بمالـهِ أسمحُ وأجوَدُ .

وهذا الذي قالوهُ ليسَ بلازمٍ أكثَرُهُ، فإنَّ الشجاعَةَ والكرَمَ وأضدادها أخلاقٌ وغرائزٌ قد تـجمعُ في الرِّجلِ، وقد يعطى بعضَها دونَ بَعضٍ، وقَد شاهَدَ النَّاسُ من أهلِ الإقدامِ والشجاعَةِ والبأسِ من هو أبـخَلُ النَّاس، وهذا كثيراً ما يوجَدُ في أُمَّةِ التركِ يكونُ أشجعُ من ليثٍ وأبخَلُ من كلبٍ، فالرَجلُ قَد يسـمحُ بنفسهِ ويَضنُّ بمالـهِ، ولـهذا يقاتلُ عليهِ حتى يقتلَ، فيبدأ بنفسهِ دونَهُ، فمن النَّاس من يسـمحُ بنفسهِ ومالـهِ، ومنهـم من يبخلُ بنفسهِ، ومنهـم من يسـمح بمالـهِ ويبخلُ بنفسهِ وعكسهُ، والأقسامُ الأربعَةُ موجودَةٌ في النَّاسِ .

ثمَّ ذكرَ ضلعَ الدَّين وغَلَبَةَ الرِّجالِ، فإنَّ القَهرَ الذي ينالُ العَبدَ نوعان :

- **أحدهـمـا** : قَهرٌ بـحقٍّ وهو ضلعُ الدَّين .
- **والـثَّـانـي** : قهرٌ بباطلٍ وهو غلبةُ الرِّجالِ .

فصلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ على من أوتـيَ جوامعَ الكلـمِ، واقتُبِسَت كنوزُ العلـمِ والـحكمَةِ من ألفاظهِ .

والـمقصودُ : أنَّ الغفلَةَ والكسَلَ اللذينِ هما أصلُ الحرمانِ سببُهما عدَمُ العلمِ، فعادَ النَّقصُ كلُّهُ إلى عَدمِ العلمِ والعَزيمَةِ، والكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعَزيمَةِ، والنَّاسِ في هذا أربعَةُ أضرُبٍ :

* **الأوَّل** : من رُزِقَ علماً وأُعينَ على ذلكَ بقوَّةِ العَزيمَة على العَمل، وهذا الضَربُ خلاصَةُ الخَلقِ، وهم الموصوفونَ في القرآنِ بقوله : ﴿ الَّذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحات ﴾ [العصر : ٣]، وقوله : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥]، وبقوله : ﴿ أفَمَن كانَ مَيتاً فأحيَيناهُ وَجَعَلنا به نوراً يمشي به في النَّاسِ كمَن مثلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، فبالحياةِ تُنالُ العَزيمةُ، وبالنُّورِ يُنالُ العلمُ، وأئمَّةُ هذا الضَّربِ هم أولو العَزمِ من الرُّسُل .

* **الثَّاني** : من حُرِمَ هذا وهذا، وهم الموصوفونَ بقوله : ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ الصمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يعقلون ﴾ [الفرقان : ٤٤]، وبقوله : ﴿ أم تحسبُ أنَّ أكثرهم يَسمعونَ أو يَعقلونَ إن هم إلّا كالأنعامِ بل هم أضلُّ سبيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤]، وبقوله : ﴿ إنَّكَ لا تُسمعُ المَوتى ولا تُسمعُ الصُّمَّ الدُّعاء ﴾ [الروم : ٥٢]، وقوله : ﴿ وما أنتَ بمسمعٍ مَن في القبور ﴾ [الفرقان : ٤٤]، وهذا الصِّنف شرُّ البريَّة يضيِّقونَ الدِّيارَ، ويغلونَ الأسعارَ، وعندَ أنفسهم أنَّهم يعلمونَ ولكن ظاهراً من الحياةِ الدُّنيا وهم عن الآخرَةِ هم غافلون، ويعلمونَ ولكن ما يضرُّهُم ولا يَنفعهُم، وينطقونَ ولكن عن الهَوى ينطقونَ، ويتكلَّمونَ ولكن بالجهلِ يتكلَّمونَ، ويؤمنون ولكن بالجبتِ والطَّاغوتِ، وَيَعبُدونَ ولكن يَعبدونَ من دون اللَّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم،

ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويتفكَّرون ويبيِّتونَ ولكن ما لا يَرضى من القولِ يبيِّتونَ، ويَدعونَ ولكن مع اللَّهِ إلهاً آخَر يَدعونَ، ويذكرونَ ولكن إذا ذكروا لا يَذكرون، ويصلُّونَ ولكنَّهُم من المصلِّين الذينَ هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤنَ، ويمنعونَ الماعون، ويحكمونَ ولكن حُكمَ الجاهليَّةِ يبغونَ، ويكتبونَ ولكن يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمَّ يقولونَ هذا من عند اللَّهِ، ليَشتروا به ثمناً قليلاً، فويلٌ لهم ممَّا كتبَت أيديهم، وويلٌ لهم ممَّا يكسبونَ، ويقولونَ : إنَّما نحنُ مصلحون، ألا إنَّهُم هم المفسدونَ ولكن لا يشعرون .

فهذا الضَّربُ ناسٌ بالصُّورَةِ وشياطينٌ بالحَقيقةِ، وجلُّهُم إذا فكَّرتَ فهم حميرٌ أو كلابٌ أو ذئابٌ، وصَدَقَ البحتريُّ في قوله :

لَم يَبقَ من جُلِّ هذا النَّاسِ باقيَةٌ
ينالُها الوَهمُ إلّا هذهِ الصُّوَرُ

وقال آخَر :

لا تَخدَعنَّكَ اللحاءُ والصُّوَرُ
تسعةُ أعشارِ مَن تَرى بَقَرُ
في شجَرِ السِّدرِ منهم مثلٌ
لها رواءٌ وما لها ثمرُ

وأحسنُ من هذا كله قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهُم تعجبكَ أجسامهُم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنَّهُم خُشُبٌ مسنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤] .

عالِمُهم كما قيلَ فيه :

زواملُ للأسفارِ لا علمَ عندهم

بجيدها إلّا كعلمِ الأباعرِ

لعمرُكَ ما يَدري البَعيرُ إذا غَدا

بأوساقِهِ أو راحَ ما الغرائرِ

وأحسَنُ من هذا وأبلغُ وأوجَزُ وأفصحُ قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الحمارِ يَحمِلُ أسفاراً بئسَ مثلُ القَومِ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِ اللَّهِ واللَّهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [الجمعة : ٥] .

* **الثَّالث** : من فتحَ له بابُ العلمِ وأُغلقَ عنه بابُ العَزمِ والعملِ، فهذا في رتبةِ الجاهلِ أو شرٌّ منه .

وهذا لا مطمعَ في صلاحِهِ، فإنَّ التَّائهَ عن الطَّريقِ يُرجى له العَودُ إليها إذا أبصَرَها، فإذا عَرَفها وحادَ عنها عمداً فمتى تُرجى هدايتُهُ ؟

قال تعالى : ﴿ كيفَ يَهدي اللَّهُ قوماً كَفَروا بعدَ إيمانِهم وشهِدوا أنَّ الرَّسولَ حقٌّ وجاءَهُم البيِّناتُ واللَّهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [آل عمران : ٨٦] .

* **الرَّابع** : مَن رُزِقَ حظّاً من العَزيمَةِ والإرادَةِ ولكن قلَّ نَصيبهُ من العلمِ والمعرفَةِ، فهذا إذا وُفِّق له الاقتداءُ بداعٍ من دُعاةِ اللَّهِ ورسولِهِ كان من الذينَ قال اللَّهُ فيهم : ﴿ ومَن يُطعِ اللَّهَ والرَّسولَ فأولئكَ مع الَّذينَ أنعَمَ اللَّهُ عليهم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصَّالحين وحَسُنَ أُولئكَ رفيقاً ذلكَ الفَضلُ من اللَّهِ وكفى باللَّهِ عليماً ﴾ [النساء : ٦٩] .

رَزَقنا اللَّهُ من فَضلِهِ، ولا أحرَمَنا بسوءِ أعمالنا إنَّهُ غفورٌ رحيمٌ .

الرابع والثمانون : إنَّ كلَّ صفةٍ مَدَحَ اللَّهُ بها العبدَ في القرآنِ فهيَ ثمرَةُ العلمِ ونتيجَتُهُ، وكلَّ ذمٍّ ذمَّهُ فهو ثمرَةُ الجَهلِ ونتيجَتُهُ، فمدَحَهُ بالإيمانِ وهو رأسُ العلمِ ولبُّهُ، ومدَحَهُ بالعَمَلِ الصَّالحِ الذي هو ثمرَةُ العلمِ النَّافعِ، ومدحَهُ بالشكرِ، والصَّبرِ، والمُسارَعةِ في الخَيراتِ، والحبِّ له، والخوفِ منه، والرَّجاءِ، والإنابَةِ، والحلمِ، والوقارِ، واللبِّ والعَقلِ، والعفَّةِ، والكرَمِ، والإيثارِ على النَّفسِ، والنَّصيحَةِ لعبادِهِ، والرَّحمَةِ بهم، والرَّأفَةِ، وخَفضِ الجناحِ والعَفوِ عن مُسيئهم، والصَّفحِ عن جانيهم، وبذلِ الإحسانِ لكافَّتهم، ودفعِ السَّيِّئةِ بالحَسَنَةِ، والأمرِ بالمَعروف، والنَّهيِ عن المُنكَر، والصَّبرِ في مواطنِ الصَّبرِ، والرِّضا بالقضاءِ، واللينِ للأولياءِ، والشدَّةِ على الأعداءِ، والصِّدقِ في الوَعدِ، والوَفاءِ بالعَهدِ، والإعراضِ عن الجاهلينَ، والقبولِ من النَّاصحينَ، واليَقينِ، والتَّوكُّلِ، والطُّمأنينةِ، والسَّكينَةِ، والتَّواصُلِ، والتَّعاطُفِ، والعَدلِ في الأقوالِ والأفعالِ والأخلاقِ، والقوَّةِ في أمرِهِ، والبَصيرةِ في دينِهِ، والقيامِ بأداءِ حقِّهِ واستخراجِهِ من المانعينَ لهُ، والدَّعوَةِ إليهِ وإلى مرضاتِهِ وجنَّتِهِ، والتَّحذيرِ عن سُبُلِ أهلِ الضَّلالِ، وتَبيين طرقِ الغَيِّ وحالِ سالكيها، والتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبرِ، والحضِّ على طعامِ المسكين، وبرِّ الوالدين، وصِلَةِ الأرحامِ، وبذلِ السَّلامِ لكافَّةِ المؤمنين، إلى سائرِ الأخلاقِ المحمودة، والأفعالِ المرضيَةِ التي أقسمَ اللَّهُ سبحانهُ على عظمها، فقال تعالى : ﴿ ن والقَلمِ وما يَسطُرونَ * ما أنتَ بِنِعمَةِ ربِّكَ بِمَجنونٍ * وإنَّ لكَ لأجراً غَيرَ ممنونٍ * وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ [القلم : ١ - ٤] .

وقالت عائشَةُ رضيَ اللَّهُ عنها وقد سُئلَت عن خُلُقِ الرَّسول ﷺ فقالت :

« كانَ خُلُقَهُ القرآنَ » .[1]

فاكتفى بذلكَ السَّائلُ وقال : فهممتُ أن أقومَ ولا أسألُ عن شيءٍ بعدها، فهذه الأخلاقُ ونحوها هي ثمرَةُ شجرَةِ العلمِ .

أمَّا شجرَةُ الجَهلِ : فتثمرُ كلَّ ثمرَةٍ قبيحَةٍ من الكفرِ، والفسادِ، والشركِ، والظُّلمِ، والبَغي، والعُدوانِ، والجَزَعِ، والهَلَعِ، والكنودِ، والعَجَلَةِ، والطَّيشِ، والحدَّةِ، والفُحشِ، والبَذاءِ، والشحِّ، والبُخلِ .

ولهذا قيلَ في حدِّ البخلِ : جهلٌ مقرونٌ بسوءِ الظَّنِّ .

ومن ثمرتِهِ : الغِشُّ للخَلقِ، والكِبرُ عليهم، والفخرُ، والخيلاءُ، والعجبُ، والرِّياءُ، والسُّمعَةُ، والنِّفاقُ، والكذبُ، وإخلافُ الوعدِ، والغلظةُ على النَّاسِ، والانتقامُ، ومقابلَةُ الحَسَنةِ بالسَّيِّئَةِ، والأمرُ بالمُنكرِ، والنَّهيُ عنِ المعروفِ، وتركُ القبولِ من النَّاصحينَ، وحبُّ غيرِ اللَّهِ ورجاؤُه والتَّوكُّلُ عليه، وإيثارُ رضاهُ على رضا اللَّهِ، وتَقديمُ أمرهِ على أمرِ اللَّهِ، والتَّماوُتُ عند حقِّ اللَّهِ، والوثوقُ بما عندَ حقِّ نفسهِ والغَضَبُ لها والانتصارُ لها، فإذا انتهكَت حقوقُ نفسهِ لم يقُم لغضبهِ شيءٌ حتى ينتقمَ بأكثَرِ من حقِّهِ، وإذا انتهكَت محارمُ اللَّهِ لم ينبضَ لهُ عرقٌ غَضَباً للَّهِ فلا قوَّةَ في أمرهِ ولا بَصيرَةَ في دينهِ .

ومن ثمرتها : الدَّعوَةُ إلى سبيلِ الشيطانِ، وإلى سلوكِ طرقِ البَغي، واتِّباعُ الهَوى، وإيثارُ الشهواتِ على الطَّاعاتِ، وقيلَ وقال، وكثرَةُ السُّؤال،

---

(١) أخرجه مسلم (٦ / ٢٥ - نووي) .
وقد استوعبت طرقه في كتابي « مكارم الأخلاق » (ص ٢١ و ٢٢) فلينظر .

وإضاعةُ المالِ، ووأدُ البناتِ، وعقوقُ الأمَّهاتِ، وقَطيعَةُ الأرحامِ، وإساءَةُ الجوارِ، وركوبُ مركبِ الخِزيِ والعارِ .

وبالجملَةِ فالخَيرُ بمجموعِهِ ثمرٌ يُجتَنى من شجرَةِ العلمِ، والشرُّ بمجموعِهِ شوكٌ يُجتَنى من شجرَةِ الجَهلِ، فلو ظَهَرَت صورَةُ العلمِ للأبصارِ لزادَ حسنهُها على صورَةِ الشمسِ والقَمَرِ، ولو ظَهَرَت صورَةُ الجهلِ لكانَ منظرها أقبحَ منظرٍ بل كلُّ خَيرٍ في العالِمِ فهو من آثارِ العلمِ الذي جاءَت به الرُّسُلُ ومسبَّب عنه .

وكذلكَ كلُّ خَيرٍ يكونُ إلى قيامِ السَّاعَةِ وبعدها في القيامَةِ، وكلُّ شرٍّ وفسادٍ حَصَلَ في العالَمِ ويحصُلُ إلى قيامِ السَّاعَةِ وبَعدها في القيامَةِ فسبَبُهُ مخالفَةُ ما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ في العلمِ والعَمَلِ، ولو لم يكُن للعملِ أبٌ ومربٍّ وسائسٌ ووَزيرٌ إلّا العقلَ الذي به عمارَةُ الدَّارَينِ، وهو الذي أرشَدَ إلى طاعَةِ الرُّسلِ وسلَّمَ القَلبَ والجوارحَ ونفسَهُ إليهم، وانقادَ لحكمِهِ وعَزَلَ نَفسَهُ وسلَّمَ الأمرَ إلى أهلِهِ لكفى به شرفاً وفضلاً، وقَد مدَحَ اللَّهُ سبحانهُ العقلَ وأهلهُ في كتابِهِ في مواضعَ كثيرةٍ منه، وذمَّ من لا عَقلَ لهُ وأخبَرَ أنَّهُم أهلُ النَّارِ الذينَ لا سمعَ لهم ولا عقلَ، فهو آلةُ كلِّ علمٍ وميزانُهُ الذي بِهِ يُعرَفُ صحيحُهُ من سقيمه وراجحُهُ من مرجوحِهِ، والمرآةُ التي يُعرَفُ بها الحسنُ من القبيحِ .

وقَد قيلَ : العقلُ مَلِكٌ والبَدَنُ روحُهُ، وحواسُّهُ وحركاتُهُ كلُّها رعيَّةٌ له، فإذا ضَعُفَ عن القيامِ عليها وتعهُّدِها وصلَ الخَلَلُ إليها كلِّها .

ولهذا قيلَ : من لم يكُن عقلُهُ أغلَبَ خصالِ الخَيرِ عليهِ كانَ حتفهُ في أغلبِ خصالِ الشرِّ عليه .

والعقلُ عقلانِ :

* **عَـقْـلُ** غَريزَةٍ وهو أبُ العلـمِ ومُربِّيه .

* **وعـقْـلٌ** مُكتَسَبٌ مُستفادٌ وهو وَلَدُ العلـمِ وثمرتُـهُ ونتيـجَتُـهُ .

فإذا اجتمعا في العَبْدِ فذلكَ فَضلُ اللَّهِ يؤتيهِ من يشاءُ، واستقامَ له أمرُهُ، وأَقبلت عليهِ جيوشُ السَّعادَةِ من كلِّ جانبٍ، وإذا فَقَدَ أحدَهمـا فالـحيوانُ البَهيمُ أحسَنُ حالاً منه، وإذا انفرَدَ انتَقَصَ الرَّجلُ بنقصانِ أحدهمـا .

ومن النَّاسِ من يرجِّحُ صاحبَ العَقلِ الغَريزيِّ، ومنهم من يرجِّحُ صاحبَ العقلِ الـمُكتَسَب .

والتَّحقيقُ أنَّ صاحبَ العَقلِ الغَريزيِّ الذي لا علـمَ ولا تـجرُبَةَ عندهُ آفتُهُ التي يُؤتى منها الإحجامُ وتركُ انتهازِ الفرصَةِ، لأنَّ عَقلهُ يعقلَهُ عن انتهازِ الفرصَةِ لعَدمِ علـمِهِ بها، وصاحبُ العَقلِ الـمُكتَسَبِ يُؤتى من الإقدامِ، فإنَّ علـمَهُ بالفُرَصِ وطرقِها يلقيهِ على الـمُبادَرةِ إليها، وعقلُهُ والغَريزيُّ لا يَطيقُ ردَّهُ عنه، فهو غالباً يُؤتى من إقدامِهِ، والأوَّلُ من إحجامِهِ، فإذا رُزِقَ العقلُ الغَريزيُّ عقلاً إيمـانيّاً مستفاداً من مشكاةِ النُّبوَّةِ لا عقلاً معيشيّاً نفاقيّاً يظنُّ أربابُهُ أنَّهُم على شيءٍ ألا إنَّهُم هم الكاذبونَ، فإنَّهُم يرَونَ العقلَ أن يرضوا النَّاسَ على طبقاتهم، ويسالـموهم ويستجلبوا مودَّتهُم ومحبَّتهُم، وهذا معَ أنَّهُ لا سَبيلَ إليهِ، فهو إيثارٌ للرَّاحَةِ والدَّعَةِ، ومؤنَة الأذى في اللَّهِ والـموالاةِ فيهِ والـمعاداةِ فيه، وهو وإن كانَ أسلَمَ عاجلَةً فهو الـهلكُ في الآجلَةِ، فإنَّهُ مـا ذاقَ طعمَ الإيمـانِ من لـم يوالِ في اللَّهِ ويعاد فيهِ، فالعَقلُ كلُّ العَقلِ مـا اوصَلَ إلى رضا اللَّهِ ورسولـهِ، واللَّهُ الـموفِّقُ الـمُعين .

الخامس والثمانون : حديث ابنُ عمر عن النَّبيِّ ﷺ : « إذا مَرَرْتُم برياضِ الجنَّةِ فارتَعوا » .

قالوا : يا رسولَ اللَّهِ وما رياضُ الجنَّةِ ؟

قال : « حِلَقُ الذِّكرِ فإنَّ للَّهِ سيَّاراتٍ من الملائكَةِ يطلبونَ حِلَقَ الذّكرِ فإذا أتوا عليهم صَفُّوا بهم » .(١)

قال عطاء : مجالسُ الذِّكرِ مجالسُ الحلالِ والحَرامِ كيفَ يَشتري ويَبيعُ ويَصومُ ويصلِّي ويتصدَّقُ وينكحُ ويطلِّقُ ويحجُّ .

السادس والثمانون : أنَّ كثيراً من الأئمَّة صرحوا بأنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم، كالشافعي وأبو حنيفة وسفيان الثوري ومالك وأحمد ابن حنبل - رحمهم اللَّه جميعاً .

السابع والثمانون : ما رواهُ كميلُ بن زياد النَّخعي قال :

أخَذَ عليٌّ بن أبي طالبٍ بيدي، فأخرجني إلى ناحيَة الجبَّان، فلمَّا أصحرنا؛ جلس، ثمَّ تنفَّس، ثمَّ قال :

يا كُمَيلُ بن زياد القُلوبُ أوعيةٌ فَخَيْرُها أوعاها؛ احفظ ما أقُولُ لكَ : النَّاسُ ثَلاثَةٌ : فعالمٌ ربَّانيٌّ، ومتَعَلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ أتباعُ كلِّ نَاعِقٍ، يَميلونَ معَ كلِّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنور العلمِ، ولم يَلجَؤوا إلى رُكنٍ وثيقٍ، العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسُكَ وأنت تحرسُ المال، العلم يزكو على العمل،

(١) **حسن بشواهده** كما بيّنته في كتابي « صحيح كتاب الأذكار وضعيفه » (٤ / ٤) .

والمالُ تُنقصُه النَّفَقةُ، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبَّةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بها، العلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَة في حياتِه، وَجميلَ الأُحدُوثَةِ بعد وفاته، وصنيعةُ المالِ تزولُ بزوالِه، مات خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ، والعلماءُ، باقون ما بقي الدَّهْرُ، أعيانُهم مَفْقُودَةٌ، وأمثالُهم في القلوبِ موجودَةٌ .

هاه هاه إنَّ ههُنا علماً - وأشار بيده إلى صدرِه - علماً لوأصَبتُ لهُ حَمَلَةً!

بل أصبته لَقِناً غيرَ مأمونٍ عليه؛ يستعملُ آلَةَ الدِّينِ للدُّنيا، يستظهِرُ بحججِ اللَّه على كتابِه، وبِنِعَمِه على عبادِه .

أو منقاداً لأهلِ الحقِّ لا بصيرةَ له في إِحيائِه، ينقدحُ الشكُّ في قَلبِه بأوَّلِ عارضٍ من شُبهةٍ، لا ذا ولا ذاكَ .

أو منهوماً للَّذاتِ، سَلِسَ القيادِ للشَّهواتِ .

أو مُغرىً بجمع الأموالِ والادِّخارِ، ليسا من دُعاة الدِّينِ، أقربُ شبهاً بالأنعامِ السَّائمة .

كذلكَ يَموتُ العِلمُ بمَوتِ حامِلِيه .

اللَّهمَّ بلى؛ لا تخلو الأرضُ من قائمٍ للَّه بحجَّةٍ؛ لكيلا تبطُلُ حجَجُ اللَّه وبَيِّناتُه، أولئك هم الأقلُّونَ عدداً، الأعظمون عند اللَّه قدراً، بهم يدفَعُ اللَّهُ عن حُجَجِهِ حتى يُؤَدُّوها إلى نُظَرَائِهِم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجَمَ بهمُ العلمُ على حَقيقةِ الأمرِ، فاستلانوا ما استوعر منه الـمُترَفون، وأنِسوا بما استَوحشَ منهُ الجَاهلونَ، صَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعَلَّقَةٌ بالـمَلأ الأعلى، أولئكَ خُلَفاءُ اللَّه في أرضه، ودُعاتُهُ إلى دينِه .[1]

---

(١) هذا الأثر خرَّجته وذكرت من أثنى عليه من أهل العلم في كتابي « الإسعاد »

هاه هاه ! شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفرُ اللّٰه لي ولكَ، إذا شئتَ؛ فَقُم .

قال أبو بكرِ الخطيب[1] : هذا حديثٌ حسنٌ من أحسَنِ الأحاديثِ معنىً وأشرفها لفظاً، وتقسيمُ أميرِ المؤمنينَ للنَّاسِ في أوَّلِهِ تقسيمٌ في غايَةِ الصِّحَّةِ ونهايَةُ السَّدادِ، لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحَدِ الأقسامِ التي ذكرها معَ كمالِ العقلِ وإزاحَةِ العِلَلِ، إمَّا أن يكونَ عالماً أو متعلِّماً أو مغفلاً للعلمِ وطلبه ليسَ بعالِمٍ ولا طالبٍ له، فالعالِمُ الرَّبانيُّ هو الذي لا زيادَةَ على فضلهِ لفاضلٍ، ولا منزلَةَ فوقَ منزلته لمجتَهدٍ، وقَد دخَلَ في الوَصفِ له بأنَّهُ ربَّانيٌّ وصفهُ بالصِّفاتِ التي يقتضيها العلمُ لأهلهِ ويمنعُ وصفهُ بما خالفها .

ومعنى الرَّبَّاني في اللغَةِ : الرَّفيعُ الدَّرجَةِ في العلمِ العالي المنزلةِ فيه، وعلى ذلكَ حمَلوا قوله تعالى : ﴿ لولا يَنهاهُم الرَّبَّانيُّونَ ﴾ [المائدة : ٦٣]، وقوله : ﴿ كونوا ربَّانيِّينَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

قال أبو عُمر الزَّاهد : سألتُ ثعلباً عن هذا الحرف وهو الرَّبَّاني فقال : سألتُ ابنَ الأعرابي فقال : إذا كانَ الرَّجلُ عالماً عاملاً معلِّماً قيلَ له : هذا ربَّاني فإن خُرِمَ عَن خصلَةٍ منها لم نَقُل له : ربَّاني .

وأمَّا المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ، فهو الطَّالبُ بتعلُّمهِ والقاصدُ به نجاتهُ من التَّفريطِ في تَضييعِ الفروضِ الواجبَةِ عليهِ، والرَّغبَةُ بنفسهِ عن إهمالها واطِّراحِها، والأنَفَةُ من مجانَسَةِ البهائمِ .

وقَد نَفى بعضُ المتقدِّمينَ عن النَّاسِ من لم يكُن من أهلِ العلمِ .

= (ص ١٣ - ١٤) نشر دار الصميعي، فلينظر .

(١) في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٥٠) .

وأمَّا القسمُ الثَّالث : فهم المُهمِلونَ لأنفسهم، الرَّاضونَ بالمنزلَةِ الدَّنيَّةِ والحالِ الخسيسَةِ التي هي في الحضيضِ الأسقَطِ والهبوطِ الأسفَلِ التي لا منزلَةَ بعدَها في الجهلِ ولا دونها في السُّقوطِ .

وما أحسَنَ ما شبَّهَهُم بالهَمَجِ الرَّعاعِ، وبه يشبَّهُ دُناةُ النَّاسِ وأراذلهم، والرَّعاعُ المتبدِّد المتفرِّق، والنَّاعِقُ الصَّائحُ، وهو في هذا الموضع الرَّاعي يقالُ نعَقَ الرَّاعي بالغَنَم ينعقُ إذا صاحَ بها، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومثلُ الَّذينَ كفروا كمَثَلِ الَّذي يَنعقُ بما لا يسمعُ إلّا دعاءً ونداءً صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ونحنُ نشيرُ إلى بعضِ ما في هذا الحديثِ من الفوائدِ :

فقولِهِ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « القلوبُ أوعيَةٌ » .

يشبِّهُ القَلبَ بالوعاءِ والإناءِ والوادي؛ لأنَّهُ وعاءٌ للخَيرِ والشرِّ، وفي مثل هذا قيلَ في المثل : وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضحُ .

وقال تعالى : ﴿ أنزَلَ من السَّماءِ ماءً فسالَت أوديَةٌ بقَدرها ﴾ [الرعد : ١٧]، شبَّهَ العلمَ بالماءِ النَّازلِ من السَّماءِ والقلوبَ في سَعَتها وضيقها بالأوديَةِ، فقلبٌ كبيرٍ واسعٌ يَسَعُ علماً كثيراً كوادٍ كبيرٍ واسعٍ يسعُ ماءاً كثيراً، وقلبٌ صغيرٌ ضيِّقٌ يسعُ علماً قليلاً كوادٍ صَغيرٍ ضيّقٍ يسعُ ماءاً قليلاً، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ : « لا تُسَمُّوا العنبَ الكرمَ فإنَّ الكرمَ قلبُ المؤمنِ »[1]، فإنَّهُم كانوا يسمُّونَ شجرَ العنبِ الكرمَ لكثرَةِ منافعِهِ وخيرِهِ، والكرمُ كثيرةُ الخيرِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠ / ٥٦٦ - فتح)، ومسلم (٢٢٤٧) من حيث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

والـمنافعِ فأخبَرَهُم أنَّ قَلبَ الـمؤمنِ أولى بهذه التَّسميَةِ لكثرَةِ ما فيهِ من الـخَيرِ والـمنافعِ .

وقولـهُ : « فخَيِّرُها أوعاها » .

يرادُ به أسرعُها وعياً وأثبتُها وعياً، ويرادُ به أيضاً أحسنُها وعياً، فيكونُ حَسَنَ الوعيِ الذي هو إيعاءٌ لـما يقال لـه في قلبهِ هو سرعتهُ وكثرتهُ وثباتهُ، والوعاءُ من مادَّةِ الوَعيِ، فإنَّهُ آلةُ ما يوعى فيه كالغطاءِ والفراشِ والبساطِ ونـحوها، ويوصَفُ بذلكَ القلبُ والأُذُنُ كقوله تعالى : ﴿ إنَّا لـمَّا طَغى الـماءُ حملناكُم في الـجاريَة * لنَجعَلـها تَذكرَةً وتَعِيَها أُذُنٌ واعيَةٌ ﴾ [الـحاقة : ١١ - ١٢]، .

فالوَعيُ توصفُ به الأُذُنُ كما يوصَفُ به القلبُ، يقال : قلبٌ واعٍ، وأُذنٌ واعيةٌ لـما بينَ الأُذُنُ والقَلبِ من الارتباطِ، فالعلـمُ يدخُلُ من الأُذنِ إلى القَلبِ، فهي بابُهُ والرسولُ الـموصلُ إليهِ العلم كما أنَّ اللسانَ رسولُـهُ الـمؤدِّي عنه، ومَن عَرَفَ ارتباطَ الجوارحِ بالقَلبِ علـمَ أنَّ الأُذنَ أحقُّها أن توصَفَ بالوَعيِ، وأنَّـها إذا وعَت وَعى القلبُ .

وفي حديثِ جابرٍ في الـمثَلِ الذي ضَرَبتهُ الـملائكَةُ للنَّبـيِّ ﷺ ولأُمَّتهِ وقول الـملكِ له : « اسمع سمعتَ أُذنُكَ وعقلَ قلبكَ »[1]، فلـمَّا كانَ القلبُ

---

(١) هذا اللَّفظ أخرجه الترمذي (٢٨٦٠) **وضعفه بقوله : هذا حديث مرسل**، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبدالله .

ثمَّ قال : وقد رويَ هذا الحديث من غير وجه عن النَّبي ﷺ **بإسناد أصح من هذا** وفي الباب عن ابن مسعود . =

وعاءاً والأُذُنُ مدخَلَ ذلكَ الوعاءِ وبابهِ كانَ حصولُ العلمِ موقوفاً على حُسنِ الاستماعِ وعقلِ القَلبِ، والعقلُ هو ضَبطُ ما وَصَلَ إلى القَلبِ وإمساكهِ حتى لا يتفلَّتُ منه، ومنه عقل البَعيرِ والدَّابَّةِ والعقالُ لما يعقَلُ به، وعقلُ الإنسانِ يسمَّى عقلاً لأنَّهُ يعقلهُ عن اتِّباعِ الغَيِّ والهلاكِ، ولهذا يسمَّى حجراً لأنَّهُ يمنعُ صاحبهُ كما يمنعُ الحجرُ ما حواهُ، فعقلُ الشيءِ أخَصُّ من علمهِ ومعرفتِه، لأنَّ صاحبَهُ يعقلُ ما عَلِمَهُ فلا يدعهُ يذهَبُ كما تُعقَلُ الدَّابَّةُ التي يخافُ شرودها .

وللإدراكِ مراتبُ بعضُها أقوى من بعضٍ؛ فأوَّلها الشعورُ، ثمَّ الفَهمُ، ثمَّ المعرفَةُ،ثمَّ العلمُ، ثمَّ العقلُ، ومرادُنا بالعَقلِ المَصدرُ لا القوَّةُ الغَريزيَّةُ التي ركَّبها اللَّهُ في الإنسانِ، فخَيرُ القلوبِ ما كانَ واعياً للخَيرِ ضابطاً له، وليسَ كالقَلبِ القاسي الذي لا يَقبلهُ، فهذا قلبٌ حَجَريٌّ، ولا كالمائعِ الأخرَقِ الذي يقبلُ ولكن لا يحفظُ ولا يضبطُ، فتفهيم الأوَّلِ كالرَّسمِ في الحَجَر، وتفهيم الثَّاني كالرَّسمِ على الماءِ، بل خيرُ القلوبُ ما كانَ ليِّناً صلباً يقبلُ بلينِه ما ينطبعُ فيه، ويحفظُ صورَتهُ بصلابتِهِ، فهذا تفهيمُه كالرَّسمِ في الشمعِ وشبهِهِ .

وقوله : « النَّاسُ ثلاثةٌ : فعالِمٌ ربَّاني، ومتعلِّمٌ على سبيلِ النَّجاةِ، وهمجٌ رعاعٌ » .

= قلت : الوجه الذي أشارَ إليه أخرجه البخاري (١٣ / ٢٤٩ - فتح)، والبغوي في « شرح السُّنة » (١ / ١٩٢ - ١٩٣) .

وأمَّا حديث ابن مسعود الذي في الباب فقد أخرجه الترمذي نفسه (٢٨٦١) وقال : هذا **حديث حسن صحيح غريب** .

وهو كما قال .

هذا تقسيمٌ خاصٌ للنَّاسِ، وهو الواقعُ، فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ قَد حَصَلَ كمالُهُ من العلمِ والعَمَلِ أولا .

فالأوَّلُ : العالمُ الرَّبَّاني، والثَّاني إمَّا أن تكونَ نفسُهُ متحرِّكَةً في طلبِ ذلك الكمالِ ساعيةً في إدراكِهِ أولا، والثَّاني هو المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ، الثَّالثُ وهو الهَمَجُ الرَّعاعُ، فالأوَّلُ هو الواصلُ، والثَّاني هو الطَّالبُ، والثَّالثُ هو المحروم .

والعالِمُ الرَّبَّانيُّ؛ يُرَبِّي النَّاسَ بالعلمِ ويربِّيهم به كما يربِّي الطِّفلَ أبوهُ .

فهو منسوبٌ إلى التَّربيَةِ يربِّي علمهُ ليكملَ ويتمَّ بقيامِهِ عليهِ وتعاهدِهِ إيَّاهُ كما يربِّي صاحبُ المالِ مالَهُ، ويربِّي النَّاسَ به كما يربِّي الأطفالَ أولياؤُهم .

وليسَ هذا من قولِهِ : ﴿ وكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قاتَلَ معَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٤٦]، فالرِبِّيُّونَ هنا : الجماعاتُ بإجماعِ المفسِّرينَ قيلَ : إنَّهُ من الرِبَّة بكسرِ الرَّاء وهي الجماعَةُ .

ولا يوصفُ العالِمُ بكونِهِ ربَّانيّاً حتى لا يكونَ عاملاً بعلمِهِ معلِّماً له؛ فهذا قسمٌ .

والقسمُ الثَّاني : متعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وهو المخلصُ في تعلُّمِهِ، المتعلِّمُ ما ينفعهُ، العاملُ بما عَلِمَهُ، فلا يكونُ المتعلِّمُ على سبيلِ نجاةٍ إلّا بهذه الأُمورُ الثَّلاثَةِ، فإنَّهُ إن تعلَّمَ ما يضرُّهُ ولا ينفعهُ لم يكُن على سبيلِ نجاةٍ، وإن تعلَّمَ ما ينتفعُ به لا للنَّجاةِ فكذلكَ، وإن تعلَّمهُ ولم يعمل به لم يحصُل له النَّجاةُ، ولهذا وصَفَهُ بكونِهِ على السَّبيلِ، فهذا في الدَّرجَة الثَّانيَةِ، وليسَ ممَّن تعلَّمهُ ليماري به السُّفهاء، أو يجاري به العلماءَ، أو يَصرفَ وجوهَ النَّاسِ

إليهِ، فإنَّ هذا من أهلِ النَّارِ كما جاءَ في الحديثِ .[1]

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٩٠ - موارد)، والحاكم (١ / ٨٦)، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ١٨٧)، والخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٨) وغيرهم .

من طرق عن ابن أبي مريم : أنبأنا يحيى بن أيُّوب عن ابن جريج عن أبي الزُّبير عن جابر (وذكوه) .

وصححه الحاكم (١ / ٨٥) ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ العراقي في « المُغني عن حمل الأسفار » (١ / ٥٩) : إسناده صحيح .

وقال البوصيري في « زوائده » (ق ٢٠) : « هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم » .

قلت : رجالهُ ثقات رجال الصحيح؛ ابن أبي مريم هوَ سعيد بن الحكم الجمحي، ويحيى بن أيُّوب هو الغافقي ثقة ولا يلتفت إلى من شذَّ فيه .

فالأسناد صحيح كما قالوا؛ لو سلمَ من عنعنة أبي الزُّبير وابن جريج، فإنَّهما مدلسان .

ولكن للحديث شواهد :

١ - حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه :

أخرجه الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٨) .

قلت : إسناده حسن .

وأخرجه ابن ماجه(٢٦٠) من طريق آخر **بإسنادٍ واهٍ .**

٢ - حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما :

أخرجه ابن ماجه (٢٥٣) .

قلت : **إسنادهُ ضعيف** لضعف حمَّاد بن عبدالرحمن الكلبي، وجهالة شيخه أبي كرب الأزدي .

وفي الباب عن أنس بن مالك، وكعب بن مالك، وحذيفة، وعبداللَّه بن مسعود وفي أسانيدها ضعف وبعضها واهٍ بمرَّة لا يصلح للاستشهاد به . =

قوله ﷺ :

« مَن تعلَّمَ علماً ممَّا يُبتَغى به وجهَ اللّهِ فلا يتعلَّمهُ إلّا ليصيبَ به عَرَضاً من الدُّنيا لم يجد رائحَةَ الجنَّة » .(١)

فهؤلاءِ ليسَ فيهم من هو على سبيلِ النَّجاةِ بل على سبيلِ الهَلَكَةِ نعوذُ باللّهِ من الخُذلانِ .

القسمُ الثَّالثُ : المحرُومُ المعرَضُ فلا عالِمَ ولا متعلِّمَ بل هَمَجٌ رعاعٌ،

= وبالجملة؛ فمن « النَّافلة » أن نقول : **إنَّ الحديث يتقوَّى بما يصلح من هذه الشواهد، ويصح، وبخاصَّة حديث أبي هريرة فإنَّ إسنادَه حسنٌ من الطريق الأولى، وقد خفيَ هذا على بعض طلاب العلم؛ فضعَّف الحديث جملةً .**

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه ((٢٥٢)، وأحمد (٢ / ٣٣٨)، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ١٩٠)، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٥ / ٣٤٦ - ٣٤٧ و ٨ / ٧٨)، و « اقتضاء العلم والعمل » (١٠٢)، و « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٩)، والحاكم (١ / ٨٥) .

من طرق عن فليح بن سليمان عن عبداللّه بن عبدالرحمن بن معمر أبي طوالة عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة به .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد أسنده ووصله عن فليح جماعة غير ابن وهب .

ووافقه الذهبي .

قلت : فليح بن سليمان وإن أخرج له الشيخان وغيرهما فإنَّ فيه كلام، ولكنَّه لم يتفرَّد فقد تابعه أبو سليمان الخزاعي عند ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ١٩٠) فقال : وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة عن أبي سليمان الخزاعي عن أبي طوالة بإسنادٍ مثله .

وابن لهيعة وإن كانَ فيه ضعف؛ فإنَّ الراوي عنه ابن وهب وهو ممَّن صحَّت روايته عنه .

وبذلك؛ فالحديث صحيح، واللّه أعلم .

والـهمجُ من النَّاسِ حمقاؤهم وجهلتهم .

وقوله : « أتباع كلِّ ناعقٍ » .

أي : مَن صاحَ بهم ودعاهُم تبعوهُ سواءٌ دعاهُم إلى الـهُدى أو إلى ضَّلالٍ، فإنَّهُم لا علـمَ لـهم بالذي يُدعَونَ إليهِ أحقٌّ هو أم باطلٌ، فهم مستجيبونَ لدعوتِهِ، وهؤلاءِ من أضرِّ الخلقِ على الأديانِ، فإنَّـهُم الأكثرونَ عَدَداً، الأقلُّونَ عندَ اللَّهِ قَدَراً، وهم حَطَبُ كلِّ فتنَةٍ بهم توقَدُ ويشبُّ ضرامها، فإنَّـها يهتزُّ لـها أولو الدِّينِ ويتولَّاها الـهمجُ الرَّعاعُ، وسمَّى داعيهم ناعقاً تشبيهاً لـهمُ بالأنعامِ التي يَنعقُ بها الرّاعي فتَذهَبُ معه أينَ ذَهَب، قال تعالى : ﴿ ومثلُ الَّذينَ كَفَروا كمثَلِ الَّذي يَنعقُ بما لا يسمعُ إلّا دعاءً ونداءً صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ [البقرة : ١٧١]، وهذ الذي وصَفَهُم به أميرُ الـمؤمنينَ هو من عدمِ علـمِهِم وظلـمَةِ قلوبهم، فليسَ لـهم نورٌ ولا بَصيرَةٌ يفرِّقونَ بها بينَ الـحقِّ والباطلِ بل كلٌّ عندهم سواءٌ .

وقولـهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ » .

شبَّهَ عقولَـهم الضَّعيفَة بالغصنِ الضَّعيفِ، وشبَّهَ الأهويَةَ والآراءَ بالرِّياحِ، والغصنُ يميلُ مع الرِّيحِ حيثُ مالت، عقولُ هؤلاء تَميلُ مع كلِّ هوىً وكلِّ داعٍ، ولو كانَت عقولاً كاملَةً كانَت كالشجرَةِ الكبيرَةِ التي لا تتلاعَبُ بها الرِّياحُ .

وهذا بخلافِ الـمثلِ الذي ضرَبهُ النَّبيُّ ﷺ للـمؤمنينَ بالـخامَّةِ من الزَّرعِ تفيئهُ الرِّيحُ مرَّةً وتقيمهُ أُخرى، والـمنافقُ كشجرَةِ الأرزِ التي لا تقطَع حتى تُستحصَد[1]، فإنَّ هذا الـمَثَلَ ضُرِبَ للمؤمنِ وما يلقاهُ من عواصفِ البلاءِ

---

(١) وردَ من حديث أبي هريرة وكعب بن مالك رضي اللّه عنهما . =

والأوجاعِ والأوجالِ وغيرها، فلا يَزالُ بين عافيَةٍ وبلاءٍ، ومحنَةٍ ومنحَةٍ، وصحَّةٍ وسقَمٍ، وأمنٍ وخَوفٍ، وغير ذلكَ، فيقع مرَّةً ويقوم أخرى، ويميل تارَةً ويعتدل أخرى، فيكفِّر عنه بالبلاءِ، ويمحِّص به، ويخلص من كدرهِ، والكافرُ كلُّهُ خبَثٌ ولا يصلحُ إلّا للوَقودِ، فليسَ في إصابتهِ في الدُّنيا بأنواعِ البلاءِ من الحكمَةِ والرَّحمَةِ ما في إصابَةِ المؤمنِ، فهذه حالُ المؤمنِ في الابتلاء، وأمَّا معَ الأهواءِ ودعاةِ الفتَنِ والضَّلالِ والبدعِ فكما قيلَ :

تـزولُ الجبـالُ الرَّاسيـاتُ وقلبُهُ
على العَهدِ لا يلوى ولا يتَغَيَّرُ

وقولهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « لم يَستَضيئوا بنورِ العلمِ ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيقٍ » .

بيَّنَ السَّبَبَ الذي جعلهم بتلكَ المثابَةِ، وهو أنَّهُ لم يحصُل لهم من العلمِ نورٌ يفرِّقونَ به بينَ الحقِّ والباطلِ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللَّهَ وآمِنوا برسولِهِ يؤتكُم كِفلَينِ من رحمتهِ ويجعَل لكُم نوراً تمشونَ به ﴾ [الحديد : ٢٨]، وقال تعالى : ﴿ أوَمَن كانَ مَيتاً فأحيَيناهُ وجَعَلنا لهُ نوراً يَمشي بهِ في النَّاسِ كَمَن مَثَلهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقوله تعالى : ﴿ يَهدي بهِ اللَّهُ مَن اتَّبعَ رضوانهُ سُبُلَ السَّلامِ

= فأما حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - فأخرجه البخاري (١٠ / ١٠٣ و ١٣ / ٤٤٦ - فتح)، ومسلم (٢٨٠٩) .

وأمَّا حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه - فأخرجه البخاري (١٠ / ١٠٣ - فتح)، ومسلم (٢٨١٠) .

ويخرجهُم من الظُّلماتِ إلى النُّورِ ﴾ [المائدة : ١٦]، وقوله : ﴿ ولكن جَعَلناهُ نوراً نَهدي بِهِ مَن نَشاءُ من عبادِنا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فإذا عُدِمَ القلبُ هذا النُّورَ صارَ بمنزلةِ الحَيرانِ الذي لا يَدري أينَ يَذهَب ؟ فهو لحيرتِهِ وجهلِهِ بطريقِ مقصودِهِ يؤمُّ كلَّ صوتٍ يسمعهُ، ولم يسكُن قلوبهم من العلمِ ما تمتنعُ به من دعاةِ الباطلِ، فإنَّ الحقَّ متى استقرَّ في القلبِ قويَ له وامتنعَ ممَّا يضرُّهُ ويهلكُهُ، ولهذا سمَّى اللَّهُ الحُجَّةَ العلميَّةَ سلطاناً، فالعَبدُ يؤتى من ظلمِهِ وبصيرتِهِ ومن ضَعفِ قلبِهِ، فإذا استقرَّ فيه العلمُ النَّافعُ استنارَت بصيرتُهُ وقويَ قلبُهُ، وهذان الأصلانِ هما قطبُ السَّعادَةِ أعني العلمَ والقوَّةَ، وقَد وصَفَ بهما سبحانهُ المعلِّم الأوَّلَ جبريلَ صلواتُ اللَّهِ وسلامهُ عليه فقال : ﴿ إن هوَ إلّا وَحيٌ يوحى * علَّمهُ شديدُ القوى ﴾ [النجم : ٤ - ٥]، وقال تعالى في سورة التكوير : ﴿ إنَّهُ لَقَولُ رَسولٍ كريمٍ * ذي قوَّةٍ عندَ ذي العَرشِ مَكينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢٠]، فوصفهُ بالعلمِ والقوَّةِ .[1]

وفيهِ معنىً أحسَنُ من هذا، وهو الأشبهُ بمرادِ عليٍّ رضيَ اللَّهُ عنه وهو أنَّ هؤلاءِ ليسوا من أهلِ البَصائرِ الذينَ استضاؤوا بنورِ العلمِ، ولا لجأوا إلى عالِمٍ مستَبصِرٍ فقلَّدوهُ، ولا مُتَّبعينَ لمستبصِرٍ، فإنَّ الرَّجُلَ إمَّا أن يكونَ بَصيراً أو أعمىً

---

(١) قلت : ووصف اللّه بالعلم والقوَّةِ الأنبياءَ صلوات اللّه وسلامه عليهم وورثتهم:
أمَّا وصفُ الأنبياء بذلكَ ففي قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥] .
وأمَّا وصف ورثتهم ففي قوله مخبراً عن طالوت : ﴿ إنَّ اللّه اصطفاهُ عليكُم وزادَهُ بسطةً في العلم والجسم واللّهُ يؤتي ملكه من يشاء واللّه واسعٌ عليمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

متمسِّكاً ببَصيرٍ يقودُهُ أو أعمى يَسيرُ بلا قائدٍ .

وقوله رضيَ اللَّهُ عنهُ : « العلمُ خَيرٌ من المالِ، العلمُ يحرسكَ وأنتَ تحرسُ المالَ » .

يعني أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبَهُ ويحميه من مواردِ الهَلَكَةِ ومواقعِ العَطَبِ، فإنَّ الإنسانَ لا يلقي نَفسَهُ في هَلكَةٍ إذا كانَ عقلُهُ معهُ، ولا يعرِّضُها لمتلفٍ إلّا إذا كانَ جاهلاً بذلكَ لا عِلمَ له به، فهو كَمَن يأكلُ طعاماً مسموماً، فالعالِمُ بالسُّمِّ وضَرَرِهِ يحرسُهُ علمُهُ ويمتنعُ به من أكلِهِ، والجاهلُ به يقتلهُ جهلهُ، فهذا مثلُ حراسَةِ العلمِ للعالمِ، وكذا الطَّبيبُ الحاذقُ يمتنعُ بعلمهِ عن كثيرٍ ما يجلبُ له الأمراض والأسقام، وكذا العالِمُ بمخاوفِ طَريقِ سلوكِهِ ومعاطبِها يأخُذُ حذرَهُ منها، فيحرسُهُ علمُهُ من الهلاكِ، وهكذا العالِمُ باللَّهِ وبأمرِهِ وبعدوِّهِ ومكايدِهِ ومداخلهِ على العَبدِ يحرسُهُ علمُهُ من وساوسِ الشيطانِ وخطراتهِ وإلقاءِ الشكِّ والرَّيبِ والكُفرِ في قلبهِ، فهو بعلمهِ يمتنعُ من قبولِ ذلكَ، فعلمهُ يحرسهُ من الشيطان فكلَّما جاءَ ليأخذَهُ صاحَ به حَرَسُ العلمِ والإيمانِ فيرجعُ خاسئاً خائباً، وأعظمُ ما يحرسُهُ من هذا العدوِّ المُبينِ العلمُ والإيمانُ، فهذا السَّببُ الذي من العَبدِ، واللَّهُ من وراءِ حفظه وحراستِهِ وكلاءتهِ، فمتى وَكَلَهُ إلى نفسِهِ طَرفَةَ عَينٍ تخطَّفهُ عَدوُّهُ .

وقوله : « العلمُ يزكو على الانفاقِ والمالُ تُنقصهُ النَّفقَةُ » .

العالِمُ كلَّما بَذَلَ علمَهُ للنَّاسِ وأنفَقَ منه تفجَّرَت ينابيعهُ، فازدادَ كثرَةً وقوَّةً وظهوراً، فيكتَسبُ بتعليمهِ حفظَ ما علمهُ، ويحصُلُ له به علمُ ما لَم يكُن عندَهُ، وربَّما تكونُ المسألةُ في نفسهِ غَيرَ مكشوفَةٍ ولا خارجَةٍ من حَيِّز

الاشكالِ، فإذا تكلَّمَ بها وعلَّمها اتَّضَحت له وأضاءَت وانفتَحَ له منها علومٌ أُخرُ .

وأيضاً فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العَملِ[1]، فكما علَّمَ الخَلقَ من جهالتِهم جزاه اللَّه بأن علَّمه من جهالته، كما في « صحيح مسلم » من حديثِ عياضِ ابن حمارٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال في حَديثٍ طويلٍ : « وأنَّ اللَّهَ قال لي أنفِق أنفِق عَلَيكَ »[2] وهذا يتناوَلُ نفقَةَ العلمِ إمَّا بلفظِهِ وإمَّا بتَنبيهِهِ وإشارتِهِ وفحواهُ، ولزكاءِ العلمِ ونحوِهِ طريقان :

أحدُهما : تعليمهُ .

والثَّاني : العَمَلُ به، فإنَّ العَمَلَ به أيضاً ينمِّيهِ ويكثِّرهُ ويفتحُ لصاحبهِ أبوابَهُ وخباياهُ .

وقولُهُ : « والمالُ تنقصُهُ النَّفَقَةُ » .

لا ينافي قولَ النَّبيِّ ﷺ : « ما نَقَصَت صَدَقَةٌ من مالٍ »[3]، فإنَّ المالَ إذا تصدَّقتَ منه وأنفَقتَ ذَهَبَ ذلكَ القدرُ وخَلَفَهُ غيرهُ، وأمَّا العلمُ فكالقَبَسِ من النَّارِ لو اقتبَسَ منها العالمُ لم يَذهَب منها شيءٌ بل يَزيدُ العلمُ بالاقتباسِ منه

---

(١) أوضح مما ذكره المصنِّف - رحمه اللَّه - في الاستدلال على هذه السُّنَّة الربَّانيَّة قولُه تعالى : ﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسان ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

(٢) برقم (٢٨٦٥) بلفظ : « وأنفق فسننفق عليك » .

وأمَّا المتن الذي أورده العلَّامة ابن قَيِّم الجوزيَّة - رحمه اللَّه، فأخرجه البخاري (٨ / ٣٥٢ و ٩ / ٤٩٧ - فتح)، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

فهو كالعَينِ التي كلَّما أُخِذَ منها قويَ ينبوعُها وجاشَ معينُها، وفضلُ العلمِ على المالِ يُعلمُ من وجوهٍ :

○ **أحدها** : أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ، والمالُ ميراثُ الملوكِ والأغنياءِ .

○ **الثَّاني** : أنَّ العلمَ يحرسُ صاحبَهُ، وصاحبُ المالِ يحرسُ مالَهُ .

○ **والثَّالث** : أنَّ المالَ تُذهبهُ النَّفقاتُ، والعلمُ يزكو على النَّفقة .

○ **الرَّابع** : أنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ فارقَهُ مالُهُ، والعلمُ يدخُلُ معه قبرَهُ .

○ **الخامس** : أنَّ العلمَ حاكمٌ على المالِ، والمالُ لا يحكُمُ على العلمِ .

○ **السَّادس** : أنَّ المالَ يحصلُ للمؤمنِ والكافرِ والبَرِّ والفاجرِ، والعلمُ النَّافعُ لا يحصلُ إلّا للمؤمن .

○ **السَّابع** : أنَّ العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمَن دونَهُم، وصاحبُ المالِ إنَّما يحتاجُ إليهِ أهلُ العَدمِ والفاقَةِ .

○ **الثَّامن** : أنَّ النَّفسَ تشرَفُ وتزكو بجمعِ العلمِ وتحصيلهِ، وذلكَ من كمالِها وشَرَفِها، والمالُ يزكّيها ولا يكمّلُها ولا يَزيدُها صفَةَ كمالٍ بل النَّفسُ تنقُصُ وتشحُّ وتبخُلُ بجمعهِ والحرصِ عليه، فحرصُها على العلمِ عينُ كمالِها، وحرصُها على المالِ عينُ نَقصِها .

○ **التَّاسع** : أنَّ المال يَدعوها إلى الطغيانِ والفخرِ والخيلاءِ، والعلمُ يَدعوها إلى التَّواضعِ والقيامِ بالعُبوديَّةِ، فالمالُ يَدعوها إلى صفاتِ الملوكِ،

والعلمُ يَدعوها إلى صفاتِ العَبيد .

○ **العاشر** : أنَّ العلمَ جاذبٌ موصلٌ إلى سعادَتِها التي خُلقَت لها، والمالُ حجابٌ بينها وبينها .

○ **الحادي عَشر** : أنَّ غنيَ العلمِ أجلُّ من غنيَ المالِ، فإنَّ غنيَ المالِ غنيٌ بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقَةِ الإنسانِ لو ذَهَبَ في لَيلَةٍ أصبَحَ فقيراً معدماً، وغنيّ العلمِ لا يُخشى عليه الفقرُ بل هو في زيادَةٍ أبداً فهو الغِنيُ العالي حَقيقَةً كما قيل :

غُنيتُ بلا مالٍ عن النَّاسِ كلِّهِم
وإنَّ الغِنيَّ العالي عن الشيءِ لا بهِ

○ **الثَّاني عَشر** : أنَّ المالَ يَستعبدُ محبَّهُ وصاحبهُ، فيجعلُهُ عبداً له كما قالَ النَّبيُّ ﷺ : « تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ والدِّرهَم ... »[1] الحديث، والعلمُ يُستعبدُهُ لربِّهِ وخالقِهِ، فهو لا يَدعوهُ إلّا إلى عبوديَّة اللَّهِ وحدَهُ .

○ **الثَّالث عَشر** : أنَّ حُبَّ العلمِ وطلبَهُ أصلُ كلِّ طاعَةٍ، وحبَّ الدُّنيا والمالِ وطلبَه أصلُ كلِّ سيِّئةٍ .

○ **الرَّابع عَشر** : أنَّ قيمَةَ الغَنيِّ مالُهُ، وقيمَةَ العالِم علمُهُ، فهذا متقوِّمٌ بمالِهِ، فإذا عُدمَ مالُهُ عُدمَت قيمتُهُ وبقيَ بلا قيمَةٍ، والعالِمُ لا تَزولُ قيمتُهُ بل هي في تضاعفٍ وزيادَةٍ دائماً .

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٨١ و ١١ / ٢٥٣ - فتح) من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

○ **الخامس عَشر** : أنَّ جَوهَرَ المالِ من جنسِ جَوهَرِ البَدنِ، وجَوهَرَ العلمِ من جنسِ جوهر الرُّوحِ، والفرقُ بين الأمرين كالفَرقِ بينَ الرُّوحِ والبَدَن .

○ **السَّادس عَشر** : أنَّ العالِمَ لو عُرِضَ عليه بحظِّهِ من العلمِ الدُّنيا بما فيها لم يَرضَها عِوَضاً من علمِهِ، والغَنيُّ العاقلُ إذا رأى شرَفَ العلمِ وفَضلَهُ وابتهاجَهُ بالعلمِ وكمالَه بهِ يودُّ لو أنَّ له علمَهُ بغناه أجمع .

○ **السَّابع عَشر** : أنَّهُ ما أطاعَ اللَّهَ أحدٌ قطُّ إلّا بالعلمِ، وعامَّةُ مَن يَعصيهِ إنَّما يَعصيهِ بالمالِ .

○ **الثَّامن عَشر** : أنَّ العالِمَ يَدعو النَّاسَ إلى اللَّهِ بعلمهِ وحالهِ، وجامع المالِ يَدعوهم إلى الدُّنيا بحالهِ ومالهِ .

○ **التَّاسع عَشر** : أنَّ غنى المالِ قَد يكونُ سَبَبَ هلاكِ صاحبهِ كثيراً، فإنَّهُ معشوقُ النُّفوسِ فإذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سَعَت في هلاكهِ كما هو الواقعُ، وأمَّا غنى العلمِ فَسببُ حياةِ الرَّجلِ وحياةُ غيرهِ به، والنَّاسُ إذا رأوا مَن يستأثِرُ عليهم به ويطلبهُ أحبُّوهُ وخَدموهُ وأكرموهُ .

○ **العشرون** : إنَّ اللذَّةَ الحاصلَةَ من غنى المال إمَّا لذَّة وهميَّة وإمَّا لذَّة بَهيميَّة، فإنَّ صاحبَهُ التذَّ بنفسِ جمعهِ وتحصيلهُ فتلكَ لذَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّةٌ، وإن التَّذَّ بإنفاقهِ في شهواتهِ فهي لذَّةٌ بَهيميَّةٌ، وأمَّا لذَّةُ العلمِ فلذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّةٌ وهي تُشبهُ لذَّةَ الملائكَةِ وبَهجتها، وفَرقٌ ما بينَ اللَّذَّتَين .

○ **الحادي والعشرون** : إنَّ عقلاءَ الأُمَمِ مطبقونَ على ذمِّ الشَّرهِ في جمعِ المالِ الحريصِ عليهِ، وتنقِصه والإزراءِ به، ومطبقونَ على تَعظيمِ الشَّرهِ

في جمعِ العلمِ وتحصيلهِ ومدحهِ ومحبَّتهِ ورؤيَتهِ بعَينِ الكمالِ .

○ **الثَّاني والعشرون** : أنَّهُم مطبقونَ على تَعظيمِ الزَّاهدِ في المالِ، والمُعرضِ عن جمعهِ الذي لا يلتفتُ إليهِ، ولا يَجعلُ قلبَهُ عبداً له، ومطبقونَ على ذمِّ الزَّاهدِ في العلمِ الذي لا يلتفتُ إليهِ، ولا يحرصُ عليهِ .

○ **الثَّالث والعشرون** : أنَّ المالَ يُمدحُ صاحبُهُ بتخلِّيهِ منه وإخراجهِ، والعلمُ إنَّما يُمدَحُ بتحلِّيهِ به واتِّصافهِ بهِ .

○ **الرَّابع والعشرون** : أنَّ غنيَّ المالِ مقرونٌ بالخَوفِ والحزنِ فهو حزينٌ قبلَ حصولهِ، خائفٌ بعدَ حصولهِ، وكلَّما كانَ أكثَرَ كانَ الخوفُ أقوى، وغنيُّ العلمِ مقرونٌ بالأمنِ والفرحِ والسُّرور .

○ **الخامس والعشرون** : أنَّ الغنيَّ بمالهِ لابدَّ أن يفارقَهُ غناهُ، ويتعذَّبَ ويتألَّمَ بمفارقتهِ، والغَنيُّ بالعلمِ لا يَزولُ، ولا يَتعذَّبُ صاحبُه ولا يتألَّمُ، فلذَّةُ الغَنيِّ بالمالِ لذَّةٌ زائلَةٌ منقطعَةٌ يعقبها الألَمُ، ولذَّةُ الغَنيِّ بالعلمِ لذَّةٌ باقيَةٌ مستمرَّةٌ لا يلحقها ألمٌ .

السَّادس والعشرون : إنَّ استلذاذَ النَّفسِ وكمالَها بالغنى استكمالٌ بعاريةٍ مؤدَّاةٍ، فَتَجمُّلها بالمالِ تجمُّلٌ بثَوبٍ مُستعارٍ لابدَّ أن يَرجعَ إلى مالكهِ يوماً ما، وأمَّا تَجمُّلُها بالعلمِ وكمالُها به فتَجمُّلٌ بصِفَةٍ ثابتَةٍ لها راسخَةٍ فيها لا تُفارقُها .

○ **السَّابع والعشرون** : أنَّ الغنى بالمالِ هو عَينُ فَقرِ النَّفسِ، والغنى بالعلمِ هو غناها الحقيقيُّ فغناها بعلمها هو الغنى، وغناها بمالها هو الفَقر .

○ **الثَّامن والعشرون** : أنَّ من قُدِّمَ وأُكرمَ لـمـالـهِ إذا زالَ مـالُـهُ زالَ تَقديُـمهُ وإكرامُهُ، ومَن قُدِّمَ وأُكرِمَ لعلـمهِ؛ فإنَّهُ لا يَزدادُ إلّا تَقديماً وإكراماً .

○ **التَّاسع والعشرون** : أنَّ تَقديمَ الرَّجُلِ لـمـالـهِ هو عَينُ ذَمِّهِ، فإنَّهُ نداءٌ عليهِ بنقصهِ، وأنَّهُ لولا مـالُـهُ لكانَ مستحقّاً للتَّأخُّرِ والإهانَةِ، وأمَّا تَقديُـمهُ وإكرامُهُ لعلـمهِ، فإنَّهُ عَينُ كمـالـهِ إذ هو تَقديمٌ لـه بنفسهِ وبصفتهِ القائمَةِ به لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاتهِ .

○ **الوجه الثَّلاثون** :أنَّ طالبَ الكمـالِ بغنى الـمـالِ كالجامعِ بينَ الضدَّينِ فهو طالبٌ ما لا سبيلَ إليهِ .

وبيانُ ذلكَ : أنَّ القدرَةَ صفَةُ كمـال وصفَةُ الكمـالِ مـحبوبَةٌ بالذَّاتِ، والاستغناءُ عن الغَيرِ أيضاً صفَةُ كمـالِ مـحبوبَةٌ بالذَّاتِ، فإذا مـالَ الرَّجلُ بطبعهِ إلى السَّخاوَةِ والـجودِ وفعلِ الـمَكرُمـاتِ فهذا كمـالٌ مطلوبٌ للعقلاءِ مـحبوبٌ للنُّفوسِ، وإذا التَفَتَ إلى أنَّ ذلكَ يَقتَضي خروجَ الـمـالِ من يَدهِ وذلكَ يوجِبُ نَقصَهُ واحتياجَهُ إلى الغَيرِ وزوالَ قدرتهِ نَفَرَت نفسُهُ عن السَّخاءِ والكرمِ والـجودِ واصطناعِ الـمعروفِ، وظنَّ أنَّ كمـالَـهُ في إمساكِ الـمـالِ، وهذه البليَةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّةِ الـخَلقِ لا ينفكُّونَ عنها، فلأجلِ ميلِ الطَّبعِ إلى حصولِ الـمدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ بـحبِّ الـجودِ والسَّخاءِ والـمكارمِ، ولأجلِ فَوتِ القدرَةِ الـحاصلَةِ بسَببِ إخراجهِ والـحاجَةِ الـمنافيَةِ لكمـالِ الغنى يـحبُّ إبقاءَ مـالِهِ ويكرهُ السَّخاءَ والكرَمَ والـجودَ، فيبقى قلبُهُ واقفاً بينَ هذين الدَّاعيَينِ يتجاذبانهِ ويعتورانِ عليهِ، فيبقى القلبُ في مقامِ الـمُعارَضَةِ بينهمـا فمِنَ النَّاسِ مَن يترجَّحُ عندهُ جانبُ البَذلِ والـجودِ والكرَمِ فيؤثرَهُ على الـجانب الآخر، ومنهم من يترجح عنده

جانب الإمساك وبقاء القدرة والغنى فيؤثره فهذان نظرانِ للعقلاء، ومنهم مَن يبلغُ به الجَهلُ والحماقَةُ إلى حيثُ يُريدُ الجَمعَ بينَ الوجهَين، فيعدُ النَّاسَ بالجودِ والسَّخاءِ والمكارمِ طمعاً منه في فوزهِ بالمدحِ والثَّناءِ على ذلك، وعندَ حضورِ الوَقتِ لا يَفي بما قالَ، فيستحقُّ الذمَّ ويبذل بلسانهِ، ويمسك بقلبهِ ويَدهِ، فيقَع في أنواعِ القبائح والفضائح .[1]

وإذا تأمَّلتَ أحوالَ أهلِ الدُّنيا من الأغنياءِ رأيتهم تحتَ أسرِ هذه البليَّةِ، وهم غالباً يبكونَ ويشكونَ .

وأمَّا غنى العلمِ فلا يَعرضُ له شيءٌ من ذلكَ بل كلَّما بَذَلَهُ ازدادَ ببذلهِ فَرحاً وسروراً وابتهاجاً، وإن فاتَتهُ لذَّةُ أهلِ الغنى وتمتُّعهم بأموالهم فهُم أيضاً قد فاتَتهُم لذَّةُ أَهلِ العلمِ وتمتُّعهم بعلومهم وابتهاجهم بها، فمع صاحبِ العلمِ من أسبابِ اللذَّةِ ما هو أعظمُ وأقوى وأدوَمُ من لذَّةِ الغنى، وتعبه في تحصيلهِ وجمعهِ وضبطهِ أقلُّ من تَعَبِ جامعِ المالِ، فجمعُهُ وألمُهُ دونَ ألمهِ كما قال تعالى للمؤمنينَ تسليةً لهم بما ينالهم من الألمِ والتَّعبِ في طاعتهِ ومرضاتهِ : ﴿ ولا تَهِنوا في ابتِغاءِ القَومِ إن تَكونوا تألَمونَ فإنَّهُم يَألَمونَ كما تَألَمونَ وتَرجونَ منَ

---

(١) هذه الكلمات القيّمة تُذَكّرُ بأولئك النَّفر الذينَ وقعوا صَيد ابليس ضمن خطَّته المسمَّاة « الديمقراطيَّة »؛ فترى أحدهم عندما يُرَشِّح نفسه للوصول إلى « مجلس الشعب » يَعِدُ النَّاسَ بالخيرِ الوفيرِ، ويمنِّيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غُروراً .

فإذا وصلَ إلى مراده وبلغ مرامه قلب لناخبيه ظهرَ المجن، فتنقلب صورتُه فتسمع أموراً من أساليب الحيل والكذب والرياء قد لا تخطر ببال .

وأخطر ما عند هؤلاء أنَّهم يُسَخّرون الإسلام للوصولِ إلى مآربهم، وقد يكون بعضُهم لا يصلي، نعوذ باللّه من الخذلان وعدم التوفيق والحرمان .

اللّهِ مالا يَرجونَ وكانَ اللّهُ عَليماً حكيماً ﴾ [النساء : ١٠٤] .

○ **الحادي والثّلاثين** : أنَّ اللذَّةَ الحاصلَةَ من المالِ والغنى إنَّما هي حالُ تجَدُّدِهِ فَقَط، وأمَّا حالُ دوامِهِ فإمَّا أن تَذهَبَ تلكَ اللذَّةُ، وإمَّا أن تَنقصَ، ويدلَّ عليهِ أنَّ الطَّبعَ يبقى طالباً لغنى آخَرَ حريصاً عليهِ، فهو يحاولُ تحصيلَ الزِّيادَة دائماً، فهو في فَقرٍ مستمرٍّ غَيرَ مُنتقضٍ ولو ملكَ خزائنَ الأرضِ ففقرُهُ وطلبُهُ وحرصهُ باقٍ عليه، فإنَّهُ أحدُ المَنهومينَ اللذينَ لا يَشبعانِ(١)، فهو لا يُفارقهُ ألمُ الحرصِ والطَّلبِ .

وهذا بخلافِ غنى العلمِ والإيمانِ؛ فإنَّ لذَّتهُ في حالِ بقائهِ مثلها في حالِ تجدُّدهِ بل أزيدُ، وصاحبُها وإن كانَ لا يزالُ طالباً للمزيدِ حريصاً عليهِ فطلبُهُ وحرصهُ مستصحَبٌ للذَّةِ الحاصلِ، ولذَّةِ المرجوِّ المطلوبِ ولذَّةِ الطَّلبِ وابتهاجِه وفرحِهِ بِهِ .

○ **الثّاني والثّلاثون** : أنَّ غنى المالِ يَستَدعي الإنعامَ على النَّاسِ والإحسانِ إليهم، فصاحبهُ إمَّا أن يسدَّ على نفسهِ هذا البابَ، وإمَّا أن يَفتَحَهُ عليهِ؛ فإن سدَّهُ على نفسهِ اشتَهَرَ عندَ النَّاسِ بالبعدِ من الخَيرِ والنَّفعِ؛ فأبغَضوهُ، وذمُّوهُ، واحتَقروهُ، وكلُّ من كانَ بغيضاً عندَ النَّاسِ حقيراً لديهم كانَ وصولُ الآفاتِ والمضرَّاتِ إليهِ أسرَعَ من النَّارِ في الحَطَبِ اليابسِ ومنَ السَّيلِ في منحدرِهِ، وإذا عَرَفَ من الخلقِ أنَّهُم يمقتونهُ ويبغضونهُ ولا يقيمونَ له وزناً تألَّمَ

---

(١) يشير إلى قول الرسول ﷺ :

« منهومانِ لا يشبعانِ : منهوم في علم لا يشبع، ومنهم في دنيا لا يشبع » .

قلت : مضى تخريجه (ص ١٣٢) .

قلبُهُ غايَةَ التَّألُّمِ وأحضَرَ الـهمومَ والغمومَ والأحزانَ، وإن فتحَ بابَ الإحسانِ والعطاءِ؛ فإنَّهُ لا يمكنهُ إيصالَ الـخَيرِ والإحسانِ إلى كلِّ أحدٍ فلا بدَّ من إيصالِهِ إلى البَعض وإمساكِهِ عن البعض، وهذا يفتحُ عليهِ بابَ العداوَةِ والـمذمَّةِ منَ الـمَحروم والـمرحومِ :

أمَّا الـمحرومُ فيقول : كيفَ جادَ على غَيري وَبـخِلَ عليَّ ؟

وأمَّا الـمرحوم فإنَّهُ يلتَذُّ ويفرحُ بما حَصَلَ لـه من الـخَيرِ والنَّفعِ، فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيرِهِ على الدَّوامِ، وهذا قَد يتعذَّرُ غالباً فيفضي ذلكَ إلى العَداوَةِ الشديدَةِ والـمذمَّةِ، ولـهذا قيل : « اتَّقِ شرَّ من أحسَنتَ إليهِ » .[1]

وهذه الآفاتُ لا تعرِضُ في غنى العلـمِ؛ فإنَّ صاحبَهُ يمكنهُ بذلـهُ للعالَـمِ كُلِّهِم واشتراكِهِم فيه والقدرُ الـمبذولُ منه باقٍ لآخذِهِ لا يَزولُ بل يتَّجِرُ بهِ، فهو كالغَنيِّ إذا أعطى الفَقيرَ رأسَ مـالٍ يتَّجِرُ به حتى يَصيرَ غَنيَّاً مثله .

○ **الثَّالثُ والثَّلاثون** : إنَّ جمعَ الـمـالِ مقرونٌ بثلاثَةِ أنواعٍ من الآفاتِ والـمحَن، نوعٌ قَبْلَهُ، ونوعٌ عند حصولـهِ، ونوعٌ بعدَ مفارَقَتـهِ .

فأمَّـا النَّوعُ الأوَّلُ : فهو المشاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يحصُلُ إلّا بها .

وأمَّـا النَّوعُ الثَّاني : فمشقَّةُ حفظِهِ وحراستِهِ وتعلُّقُ القلبِ به، فلا يصبحُ إلّا مهموماً، ولا يمسي إلّا مغموماً، فهو بمنزلَةِ عاشقٍ مُفرِطِ الـمحبَّةِ قَد ظَفِرَ

---

(١) هذا الكلام يظنه كثير من العوام أنّـه من حديث خير الأنام، وليسَ كذلك، فإنّه **لا أصلَ له**، فقد قالَ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٢٥) : لا أعرفه .
وأقرّه القاري في « الأسرارِ المرفوعة » (١٥٢)، والعجلوني في « كشف الخفاء » (٨٦) .

تعشوقهِ والعيونُ من كلِّ جانبٍ تَرمقُهُ والألسُنُ والقلوبُ ترشقُهُ فأيُّ عَيشٍ ولذَّةٍ لِـمَن هذه حالُهُ ؟

وقَد علـمَ أنَّ أعداءَهُ وحسَّادَهُ لا يفترونَ عن سَعيِهِم في التَّفريقِ بينهُ وبينَ معشوقهِ وإن لـم يَظفَروا هم بهِ دونهِ ولكنَّ مقصودهم أن يزيلوا اختصاصهُ به دونهم، فإن فازوا به وإلّا استوَوا في الحرمانِ فزالَ الاختصاصُ المؤلـمُ للنُّفوسِ، ولو قَدِروا على مثلِ ذلكَ معَ العالِـمِ لفَعلوهُ، ولكنَّهُم لـمَّا علموا أنَّهُ لا سبيلَ إلى علـمهِ عمَدوا إلى جحدهِ وإنكارهِ ليزيلوا من القلوبِ محبَّتَهُ وتقديـمه والثَّناءَ عليهِ، فإنَّ بهَرَ علـمُه وامتنَعَ عن مكابَرَةِ الجُحودِ والإنكارِ رموهُ بالعظائمِ، ونَسبوهُ إلى كلِّ قبيحٍ، ليزيلوا من القلوبِ محبَّتهُ، ويسكنوا موضعها النّفرَةَ عنهُ وبُغضَهُ، وهذا شُغلُ السَّحَرَةِ بعينهِ، فهؤلاءِ سَحَرَةٌ بألسنتهم فإن عَجَزوا له عن شيءٍ من القبائحِ الظَّاهرَةِ رموهُ بالتَّلبيسِ والتَّدليسِ والدَّوكَرَة والرِّياءِ وحُبِّ التَّرفُّعِ وطَلَبِ الجاهِ، وهذا القَدرُ من معاداةِ أهلِ الجَهلِ والظُّلـمِ للعلماءِ مثلُ الحَرِّ والبَردِ لابدَّ منه فلا يَنبَغي لـمَن له مسكَةُ عَقلٍ أن يتأذّى به إذ لا سبيلَ له إلى دفعهِ بحالٍ؛ فليوطِّن نَفسَهُ عليهِ كما يوطِّنها على بَردِ الشتاءِ وحرِّ الصَّيفِ .

والنَّوعُ الثَّالث من آفاتِ الغنى : ما يحصُلُ للعَبدِ بعَد مفارقتهِ مَن تعلَّقِ قلبه به وكونهُ قَد جَعَلَ بينَهُ وبينَ المطالبَةِ بحقوقهِ والمحاسبَةِ على مقبوضهِ ومصروفهِ من أينَ اكتسبهُ وفيماذا أنفقهُ ؟

وغنى العلـمِ والإيـمانِ معَ سلامَتهِ من هذه الآفاتِ فهو كفيلٌ بكلِّ لذَّةٍ وفَرحَةٍ وسرورٍ، ولكن لا يُنالُ إلّا على جسرٍ من التَّعَبِ والصَّبرِ والمشقَّةِ .

○ **الرَّابع والثَّلاثون** : أنَّ لذَّةَ الغنى بالـمالِ مقرونَةٌ بخُلطَةِ النَّاسِ ولو لـم يكُن إلّا خدمُهُ وأزواجُهُ وسراريهُ وأتباعُهُ إذ لو انفرَدَ الغنيُّ بمالِـهِ وحدَهُ من غَيرِ أن يتعلَّقَ بـخادمٍ أو زَوجَةٍ أو أحدٍ من النَّاسِ لـم يكمُل انتفاعهُ بمالـهِ ولا التذاذُهُ به، وإذا كانَ كمـالُ لذَّتهِ بغناهُ موقوفاً على اتِّصالـهِ بالغَيرِ فذلكَ منشأُ الآفاتِ والآلامِ، ولو لـم يكُن إلّا اختلافُ النَّاسِ وطبائعهم وإرادتهم فقبيحُ هذا حُسنُ ذاك، ومصلحةُ ذاكَ مفسَدةُ هذا، ومنفَعَةُ هذا مضرَّةُ ذاكَ، وبالعَكسِ فهو مبتلىً بهم فلا بدَّ من وقوعِ النّـفرَةِ والتَّباغضِ والتَّعادي بينهم وبينهُ، فإنَّ إرضاءهُم كلهم محالٌ وهو جمعٌ بينَ الضدَّينِ، وإرضاءُ بعضهم وإسخاطُ غيره سببُ الشرِّ والـمعاداةِ وكلَّما طالَت الـمخالطَةُ ازدادَت أسبابُ الشرِّ والعداوَةِ وقَوِيَت، وبهذا السَّببُ كانَ الشرُّ الـحاصلُ من الأقاربِ والعشراءِ أضعافَ الشرِّ الـحاصلِ من الأجانبِ والبُعَداء، وهذه الـمخالَطَةُ إنَّـما حَصَلَت من جانبِ الغنى بالـمالِ، أمَّا إذا لـم يكُن فيه فَضيلَةٌ لـهم فإنَّـهُم يتجنَّبونَ مخالطتَهُ ومعاشرتَهُ فيستريحُ من أذى الـخُلْطَةِ والعِشْرَةِ وهذه الآفاتُ معدومَةٌ في الغنـى بالعلـمِ .

○ **الـخامس والثَّلاثون** : إنَّ الـمـالَ لا يُرادُ لذاتهِ وعينهِ، فإنَّهُ لا يـحصُلُ بذاتهِ شيءٌ من الـمنافعِ أصلاً، فإنَّهُ لا يشبعُ، ولا يَروى، ولا يدفىءُ، ولا يـمتعُ، وإنَّـما يُرادُ لهذه الأشياءِ، فإنَّـهُ لـما كانَ طريقاً إليها أريدَ إرادَةَ الوسائل .

ومعلومٌ أنَّ الغاياتِ أشرَفُ من الوسائلِ، فهذه الغاياتُ إذاً أشرَفُ منه وهي مع شرفها بالنِّسبَةِ إليهِ ناقصَةٌ دنيئةٌ، وقَد ذَهَبَ كثيرٌ من العقلاءِ إلى أنَّـها لا حَقيقَةَ لـها وإنَّـما هي دَفعُ الألـمِ فَقط، فإنَّ لبسَ الثِّياب مثلاً إنَّـما فائدتهُ دفعُ التَّألُّـمِ بالـحَرِّ والبَردِ والرِّيحِ، وليسَ فيها لذَّةٌ زائدةٌ على ذلكَ، وكذلـكَ الأكلُ

إنّما فائدتهُ دفعُ ألمِ الجوعِ، ولهذا لو لم يجد ألمَ الجوعِ لم يَستَطِب الأكلَ، وكذلكَ الشربُ مع العَطَشِ، والرَّاحَةُ معَ التَّعبِ .

ومعلومٌ أنَّ في مزاوَلَةِ ذلكَ وتحصيلهِ ألماً وضرراً ولكن ضرَرَهُ وألمَهُ أقلُّ من ضَرَرِ ما يُدفَعُ به وألمِهُ، فيحتملُ الإنسانُ أخفَّ الضَّرَرينِ دفعاً لأعظمهما .

وحُكيَ عن بعضِ العقلاءِ أنَّهُ قيلَ لهُ وقد تناوَلَ قَدحاً كريهاً من الدَّواءِ : كيفَ حالكُ معهُ ؟

قال : أصبَحتُ في دارِ بليَّاتٍ أدافعُ آفاتٍ بآفاتٍ !

وفي الحقيقَةِ فَلَذَّاتُ الدُّنيا من المآكلِ والمشاربِ واللبسِ والمسكَنِ والمنكحِ من هذا الجنسِ، واللذَّةُ التي يباشرها الحسُّ ويتحرَّكُ لها الجَسَدُ وهي الغايَةُ المطلوبَةُ له من لذَّةِ المنكَحِ والمأكلِ شهوَتي البَطنِ والفَرجِ ليسَ لهما ثالثٌ ألبتَّة إلّا ما كانَ وسيلَةً إليهما وطريقاً إلى تحصيلهما وهذه اللذَّةُ منغَّصَةٌ من وجوهٍ عَديدَةٍ :

* **منها** : أنَّ تصوُّرَ زوالِها وانقِضائها وفنائها يوجبُ تنغّصها .

* **ومنها** : أنَّها ممزوجَةٌ بالآفاتِ، ومعجونَةٌ بالآلامِ، محتاطَةٌ بالمخاوِفِ، وفي الغالبِ لا تَفي آلامُها بطيبها كما قيلَ :

قَايَستُ بينَ جمالِها وَفِعالِها

فإذا الملاحَةُ بالقَباحَةِ لا تَفي

* **ومنها** : أنَّ الأراذلَ من النَّاسِ وسَقَّطَهُم يشاركونَ فيها كبراءَهُم وعقلاءَهُم بل يَزيدونَ عليهم فيها أعظَمَ زيادَةٍ وأفحشها، فنسبتهم فيها إلى الأفاضلِ كنسبَةِ الحيواناتِ البَهيميَّةِ إليهم، فمشارَكةُ الأراذلِ وأهلِ الخسَّةِ

والدَّناءَةِ فيها وزيادتهم على العقلاءِ فيها ممَّا يوجبُ النفرَة والإعراض عنها، وكثيرٌ من النَّاسِ حَصَلَ له الزُّهدُ في المحبوبِ والمعشوقِ منها بهذه الطَّريق، وهذا كثيرٌ في أشعارِ النَّاسِ ونثرهم كما قيلَ :

سأتركُ حبَّها من غيرِ بُغضٍ
ولكن لكَثرَةِ الشركاءِ فيه
إذا وقعَ الذُّبابُ على طعامٍ
رَفَعتُ يَدي ونفسي تشتَهيه
وتَجتَنِبُ الأسودُ وُرودَ ماءٍ
إذا كانَ الكلابُ يَلغنَ فيه

* **ومنها** : أنَّ الالتذاذَ بموقعها إنَّما هو بقَدرِ الحاجَةِ إليها، والتَّألُّم بمطالبَةِ النَّفسِ لتناولها وكلَّما كانَت شهوَةُ الظَّفرِ بالشيءِ أقوى كانَت اللذَّةُ الحاصلَةُ بوجودهِ أكملُ، فلمَّا لم تحصُل تلكَ الشَّهوَةُ لم تحصُل تلكَ اللذَّةُ، فمقدارُ اللذَّةِ الحاصلَةِ في الحالِ مساوٍ لمقدارِ الحاجَةِ والألمِ والمضرَّةِ في الماضي، وحينئذٍ يتقابلُ اللذَّةُ الحاصلَةُ والألمُ المتقدِّمُ فيتساقَطانِ، فتَصيرُ اللذَّةُ كأنَّها لم توجَد، ويَصيرُ بمنزلَةِ من شقَّ بطنَ رجلٍ ثمَّ خاطَهُ وداواهُ بالمراهمِ، أو بمنزلَةِ من ضَربَهُ عَشرَةَ أسواطٍ وأعطاهُ عَشرَةَ دراهم ولا تخرجُ لذَّاتُ الدُّنيا غالباً عن ذلكَ، ومثلُ هذا لا يُعَدُّ لذَّةً ولا سعادَةً ولا كمالاً بل هو بمنزلَةِ قضاءِ الحاجَةِ من البَولِ والغائطِ، فإنَّ الإنسانَ يتضرَّرُ بثقلهِ فإذا قَضى حاجتَهُ استراحَ منه، فأمَّا أن يعدّ ذلكَ سعادَةً وبهجَةً ولذَّةً مطلوبةً فلا .

* **ومنها** : أنَّ هاتَين اللذّتين اللتين هما أثرُ اللذّاتِ عندَ النّاسِ ولا سبيلَ

إلى نَيلـهمـا إلّا بمـا يَقترنُ بهمـا قبلـهمـا وبعدهمـا من مباشَرَةِ القاذوراتِ والتّألُّمِ الـحالصلِ عقيبهمـا، مثالُ لذَّةِ الأكلِ فإنَّ العاقلَ لو نَظَرَ إلى طعامهِ حالَ مـخالطتهِ ريقَه وعجنه به لنفرَت نفسه منه، ولو سقطتَ تلكَ اللقمَةُ من فيهِ لنفرَ طبعُهُ من إعادَتها إليه، ثمَّ إنَّ لذَّتَهُ به أنّـما تـحصُلُ في مـجرى نـحو الأربعِ الأصابع، فإذا فصلَ عن ذلكَ الـمجرى زالَ تلذُّذُهُ به، فإذا استَقرَّ في معدتهِ وخالطهُ الشرابُ ومـا في الـمعدَةِ من الأجزاءِ الفضليَّةِ فإنَّهُ حينئذٍ يصيرُ في غايَةِ الـخسَّةِ، فإن زادَ على مقدارِ الـحاجَةِ أورَثَ الأدواءَ الـمختلفَة على تنوُّعها، ولولا أنَّ بقاءَهُ موقوفٌ على تناولـهِ لكانَ تركُهُ والـحالةُ هذه أليَقَ به كمـا قال بعضهم :

لولا قَـضـاؤهُ جَرى نزَّهـتُ أنـمُلَـتي

عـن أن تَلُـمَّ بـمـأكـولٍ ومَشـروبِ

وأمَّـا لذَّةُ الوقاعِ فقدرُها أبينُ من أن نَذكُرَ آفاتهِ، ويدلُّ عليهِ أنَّ أعضاءَ هذه اللذَّةِ هي عَورَةُ الإنسانِ التي يُستحيى من رؤيَتها وذكرها، وسَترُها أمرٌ فَطَرَ اللَّهُ عليهِ عبادَهُ، ولا تَتمُّ لذَّةُ الـمواقَعةُ إلّا بالاطِّلاعِ عليها وَإبرازها والتَّلطُّخِ بالرُّطوباتِ الـمستقذَرَةِ الـمتولِّدَةِ منها، ثمَّ إنَّ تـمامها إنَّـما يـحصُلُ بانفصالِ النُّطفَةِ وهي اللذَّةُ الـمقصودَةُ من الوقاعِ، وزَمنها يشبهُ الآنَ الذي لا ينقسم، فصعوبَةُ تلكَ الـمزاولَةِ والـمحاولَةِ والـمطاوَلةِ والـمراوَضَةِ والتَّعبِ لأجلِ لذَّةِ لحظَةٍ كمد الطَّرف فأينَ مقايَسة بينَ هذه اللذَّةِ وبينَ التَّعبِ في طريقِ تـحصيلـها ؟

وهذا يدلُّ على أنَّ هذه اللذَّةَ ليسَت من جنسِ الـخيراتِ والسَّعاداتِ

والكمالِ الذي خُلقَ له العَبدُ، ولا كمالَ له بدونهِ بل ثمَّ أمرٌ وراءَ ذلكَ كلِّه قد هُيِّيءَ لهُ العَبدُ وهوَ لا يفعلنَّ له لغفلتهِ عنه وإعراضهِ عن التَّفتيشِ على طريقهِ حتى يَصِلَ إليهِ يسومُ نَفسَهُ مع الأنعامِ السَّائمَةِ :

قَد هيَّؤكَ لأمرٍ لو فَطِنتَ لَهُ
فاربأ بنَفسِكَ أن تَرعى معَ الهَمَلِ

وموقعُ هذه اللذَّاتِ من النَّفسِ كموقعِ لذَّةِ البُرازِ من رَجلٍ احتبَسَ في موضعٍ لا يمكنهُ القيامُ إلى الخلاءِ وصارَ مضطرّاً إليهِ، فإنَّهُ يجدُ مشقَّةً شديدَةً وبلاءً عظيماً فإذا تَمكَّنَ من الذَّهابِ إلى الخلاءِ وقَدَرَ على دفعِ ذلكَ الخبيثِ المؤذي وجَدَ لذَّةً عَظيمَةً عندَ دفعهِ وإرسالهِ، ولا لذَّةَ هناكَ إلّا راحته من حملِ ما يؤذيهِ حملُهُ .

فَعُلِمَ أنَّ هذه اللذَّاتِ إمَّا أن تكونَ دفعَ آلامٍ، وإمَّا أن تكونَ لذَّاتٍ ضَعيفَةٍ خسيسَةٍ مقترنَةً بآفاتٍ تُرى مضرّتها عليه، وهذا كما يعقبُ لذَّةَ الوقاعِ من ضَعفِ القَلبِ وخفقانِ الفؤادِ وضَعفِ القوى البَدنيَّة والقلبيَّة وضَعفِ الأرواحِ واستيلاءِ العفونَةِ على كلِّ البَدن، وأسرَع الضَّعفُ والخَورُ إليهِ واستيلاءُ الاخلاطِ عليهِ لضَعفِ القوَّة عن دفعها وقَهرها.

وممَّا يَدلُّ على أنَّ هذه اللذَّاتِ ليسَت خيراتٍ وسعاداتٍ وكمالاً أنَّ العقلاءَ من جميعِ الأمَمِ مطبقونَ على ذمِّ مَن كانَت هيَ نهمتُهُ وشغلُهُ ومصرفُ هِمَّته وإرادته، والإزراءِ بهِ، وتحقيرِ شأنهِ، وإلحاقهِ بالبهائم ولا يَقيمونَ له وزناً، ولو كانَت خَيراتٍ وكمالاً لكانَ مَن صرفَ إليها همَّتَهُ أكمَلَ النَّاس .

وممَّا يدلُّ على ذلكَ أن القَلبَ الذي قَد وجَّهَ قَصدَهُ وإرادتهِ إلى هذه

اللذّاتِ لا يزالُ مستغرقاً في الهموم والغمومِ والأحزان، وما ينالُهُ من اللذَّاتِ في جَنبِ هذه الآلامِ كقَطرَةٍ في بحرٍ كما قيل : سرورُهُ وزنُ حبَّةٍ وحُزْنُهُ قنطارٌ؛ فإنَّ القَلبَ يجري مجرى مرآةٍ منصوبَةٍ على جدارٍ وذلكَ الجدار ممر لأنواع المشتهيات والملذوذات والمكروهات وكلّما مرَّ بهِ شيء من ذلك ظَهَرَ فيه أثرُهُ فإن كانَ محبوباً مشتهياً مالَ طبعُهُ إليهِ، فإن لم يَقدر على تحصيلهِ تألَّمَ وتعذَّبَ بفَقدهِ، وإن قدرَ على تحصيلهِ تألَّمَ في طريقِ الحصولِ بالتَّعب والمشقَّةِ ومنازَعَةِ الغَيرِ له، ويتألَّم حالَ حصولهِ خَوفاً من فراقهِ وبَعدَ فراقهِ خوفاً على ذهابهِ، وإن كانَ مكروهاً له ولم يَقدرْ على دفعهِ تألَّمَ بوجودهِ، وإن قَدرَ على دفعهِ ففاتَتهُ مصلحَةٌ راجحَةُ الحصولِ فيتألَّمُ لفواتها، فعلمَ أنَّ هذا القلبَ أبداً مستغرقٌ في بحارِ الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وأنَّ نفسَهُ تضحَكُ عليهِ وترضِّيهِ بوزنِ ذرَّةٍ من لذَّتهِ فيغيبُ بها عن شهودهِ القناطيرَ من ألمهِ وعذابهِ، فإذا حيلَ بينهُ وبينَ تلكَ اللذَّةِ ولم يبقَ له إليها سبيلٌ تجرَّدَ ذلكَ الألمُ وأحاطَ به واستَولى عليهِ من كلِّ جهاتهِ، فقل ماشئتَ في حالِ عَبدٍ قَد غيبَ عنه سَعدُهُ وحظوظه وأفراحُه وأحضرَ شقوتُهُ وهمومُهُ وغمومُهُ وأحزانُه، وبينَ العَبدِ وبينَ هذه الحالِ أن ينكشفَ الغطاءُ ويَرفعَ السِّترُ وينجلي الغبارُ ويحصَّلَ ما في الصُّدورِ، فإذا كانَت هذه غايَةُ اللذَّاتِ الحيوانيَّة التي هي غايَةُ جمعِ الأموالِ وطلبها فما الظنُّ بقَدرِ الوَسيلَةِ ؟

وأمَّا غنى العلمِ والإيمانِ فدائمُ اللذَّةِ متَّصلُ الفَرَحَةِ مقتَض لأنواعِ المسرَّةِ والبَهجَةِ لا يزولُ فيحزَن، ولا يفارقُ فيؤلم بل أصحابهُ كما قالَ اللَّهُ تعالى فيهم : ﴿ لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [البقرة : ٦٢] .

○ **السَّادس والثَّلاثون** : إنَّ غَنيَّ المالِ يُبغِضُ الموتَ ولقاءَ اللَّهِ، فإنَّهُ لحبِّهِ مالِهِ يكرهُ مفارَقَتَهُ ويحبُّ بقاءَهُ؛ ليتمتَّعَ به كما شهدَ به الواقع .

وأمَّا العلمُ، فإنَّهُ يحبِّبُ للعَبدِ لقاءَ ربِّهِ، ويزهِّدهُ في هذه الحياةِ النَّكدَة الفانيَة .

○ **السَّابع والثَّلاثون** : إنَّ الأغنياء يموتُ ذكرُهُم بموتهم والعلماءُ يموتونَ ويبقى ذكرُهم كما قال أميرُ المؤمنين في هذا الحديث : ماتَ خزَّانُ الأموالِ وهم أحياءُ، والعلماءُ باقون ما بقيَ الدَّهرُ، فخزَّانُ الأموالِ أحياءٌ كأمواتٍ، والعلماءُ بَعدَ موتهم أمواتٌ كأحياءٍ .

○ **الثَّامن والثَّلاثون** : إنَّ نسبَةَ العلمِ إلى الرُّوحِ كنسبَةِ الرُّوحِ إلى البَدن؛ فالرُّوحُ ميِّتَةٌ حياتُها بالعلمِ كما أنَّ الجَسَدَ ميِّتٌ حياتُهُ بالرُّوحِ، فالغَنيُّ بالمالِ غايتُهُ أن يَزيدَ في حياةِ البَدَن، وأمَّا العلمُ فهو حياةُ القلوبِ والأرواحِ .

○ **التَّاسع والثَّلاثون** : إنَّ القَلبَ مَلكُ البَدنِ، والعلمُ زينتُهُ وعدَّتُهُ ومالُهُ وبه قوامُ مُلْكِهِ، والمَلِكُ لابدَّ لهُ من عُدَدٍ وعُدَّةٍ ومالٍ وزينَةٍ؛ فالعلمُ هو مركبُهُ وعدَّتُهُ وجمالُهُ .

وأمَّا المالُ فغايتُهُ أن يكونَ زينةً وجمالاً للبَدَنِ إذا أنفقهُ في ذلكَ، فإذا خَزَنهُ ولم ينفقهُ لم يكُن زينةً ولا جمالاً بل نقصاً ووبالاً .

ومن المعلومِ أنَّ زينةَ الملكِ به ومابهِ قوامُ مُلْكِهِ أجلُّ وأفضلُ من زينةِ رعيَّتِهِ وجمالِهم، فقوامُ القلبِ بالعلمِ كما أنَّ قوامَ الجسمِ بالغَذاء .

○ **الوجه الأربعون** : أنَّ القَدَر المقصودَ من المالِ هو ما يَكفي العَبدَ

ويقَيِّمُهُ ويَدفعُ ضرورتَهُ حتى يتمكَّنَ من قضاءِ جهازِهِ ومن التَّزوُّدِ لسفرِهِ إلى ربِّهِ عزَّ وجَلَّ، فإذا زادَ على ذلكَ شغَلَهُ وقَطَعَهُ عن السَّفَرِ وعَن قضاءِ جهازِهِ وتعبيَةِ زادِهِ فكانَ ضررُهُ عليهِ أكثَرَ من مصلَحَتِهِ، وكلَّما ازدادَ غناهُ به ازدادَ تثبُّطاً وتخلُّفاً عن التَّجهُّزِ لما أمامهُ .

وأمَّا العلمُ النَّافعُ فكلَّما ازدادَ منه ازدادَ في تَعبيَةِ الزَّادِ وقضاءِ الجهازِ وإعدادِ عدَّةِ المسيرِ، واللَّهُ الموفِّق وبه الاستعانَةُ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا بهِ، فعدَّةُ هذا السَّفَرِ هو العلمُ، وعدَّةُ الإقامَةِ جمعُ الأموالِ والادِّخارِ، ومَن أرادَ شيئاً هيَّأَ له عُدَّتهُ، قال تعالى : ﴿ وَلو أرادوا الخُروجَ لأَعَدُّوا لهُ عدَّةً ولكن كَرِهَ اللَّهُ انبِعاثَهُم فَثَبَّطهُم وقيلَ اقعُدوا معَ القاعدينَ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

قوله : « ومحبَّةُ العالم دينٌ يدان بها » .

لأنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياء، والعلماءُ ورثتُهم، فمحبَّةُ العلمِ وأهلِه محبَّةٌ لميراثِ الأنبياءِ ووَرَثَتِهم، وبغضُ العلمِ بغضٌ لميراثِ الأنبياءِ ووَرَثَتِهم، فمحبَّةُ العلمِ من علاماتِ السَّعادةِ، وبغضُ العلمِ من علاماتِ الشَّقاوةِ، وهذا كلُّهُ إنَّما هو في علمِ الرُّسلِ الذي جاءوا به وورَّثوه للأمَّة لا في كلِّ ما يُسَمَّى علماً .

وأيضاً؛ فإنَّ محبَّةَ العلمِ تحمِل على تعلُّمِه واتِّباعِه وذلك هو الدينُ، وبغضَه ينهى عن تعلُّمِه واتِّباعِه؛ وذلك هو الشَّقاءُ والضَّلالُ .

وأيضاً؛ فإنَّ اللَّه سبحانه عليمٌ يحبُّ كلَّ عليمٍ، وإنَّما يضعُ علمَه عند من يحبَّه؛ فمن أحبَّ العلمَ وأهله فقد أحبَّ ما أحبَ اللَّه وذلك مما يُدان به .

قوله : « العلمُ يُكْسِبُ العالم الطَّاعةَ في حياته . وجميلَ الأحدوثة بعد موته » .

يكسبه ذاك أي : يَجعلهُ كَسباً لـه ويورِّثهُ إيّاهُ، ويقال : كسَبَهُ ذلكَ عزّاً وطاعَةً، وأكسَبَهُ لغتانِ، ومنه حديثُ خَديجَةَ رضيَ اللَّهُ عنها : « إنَّكَ لتَصلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتحملُ الكَلَّ، وتكسِبُ المعدومَ »[1].

رويَ بفتح التَّاء وضمِّها، ومعناهُ : تكسبُ المالَ والغنى، هذا هو الصَّوابُ .

وقالت طائفَةٌ : مَن رواهُ بضَمِّها فذلكَ من أكسبهُ مالاً وعزّاً، ومَن رواهُ بفتحها، فمعناهُ تكسبُ أنتَ المالَ المَعدومَ بمعرفتكَ وحذقكَ بالتِّجارَةِ، ومعاذَ اللَّهِ من هذا الفَهمِ، وخَديجَةُ أجلُّ قَدراً من تكلُّمها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقولَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ : أبشِر فواللَّهِ لا يخزيكَ اللَّهُ إنَّكَ تكسَبُ الدِّرهمَ والدِّينارَ وتُحْسِنُ التِّجارَةَ، **ومثلُ هذه التَّحريفات إنَّما تُذْكَرُ لئلّا يُغترَّ بها في تَفسيرِ كلامِ اللَّهِ ورسولهِ .**

والمقصودُ أنَّ قولهُ : العلمُ يكسبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتِهِ أي : يجعلهُ مُطاعاً؛ لأنَّ الحاجَةَ إلى العلمِ عامَّةٌ لكلِّ أحدٍ من الملوكِ فَمَن دونهم، فكلُّ أحدٍ محتاجٌ إلى طاعَةِ العالِمِ، فإنَّهُ يأمُرُ بطاعَةِ اللَّهِ ورسولهِ؛ فيجبُ على الخَلقِ طاعتهُ .

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أطيعوا اللَّهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأولي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء : ٥٩] .

وفَسَّرَ السَّلفُ أولي الأمرِ بالعلماء والأمراء .

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٢٣ - فتح)، ومسلم (٢٥٢) .

والآيَةُ تتناوَلـها جميعاً، فطاعَةُ ولاةِ الأمرِ واجبَةٌ إذا أمروا بطاعَةِ اللّهِ ورسولـهِ، وطاعَةُ العلـماءِ كذلك، فالعالِمُ بما جاءَ به الرَّسولُ العاملُ به أطوَعُ في أهلِ الأرضِ من كلِّ أحَدٍ، فإذا ماتَ أحيا اللّهُ ذكرَهُ ونَشرَ له في العالـمين أحسَنَ الثَّناءِ، فالعالـمُ بَعدَ وفاتهِ ميِّتٌ وهو حيٌّ بينَ النَّاسِ والـجاهلُ في حياتهِ حيٌّ وهو ميِّتٌ بين النَّاس كما قيل :

وفي الـجَهلِ قبلَ الـموتِ موتٌ لأهلهِ
وأجسـامُهُـم قبـلَ القبـورِ قبـور
وأرواحـهـم في وحشـةٍ من جسومـهم
وليسَ لـهـم حتى النُّشـور نشـور

ومن تأمَّلَ أحوالَ أئـمَّةَ الإسلامِ كأئـمَّةِ الـحَديثِ والفقهِ كيفَ هم تـحتَ التُّرابِ وهم في العالـمينَ كأنَّـهُم أحياءٌ بينهم لـم يفقدوا منهم إلّا صوَرهم وإلّا فذكرهُـم وحَديثهم والثَّناءُ عليهم غيرُ منقطعٍ، وهذه هي الـحياةُ حقّاً حتى عُدَّ ذلكَ حياةً ثانيَةً كما قال الـمتنبِّي :

ذكـرُ الـفَتى عيشُـهُ الثّـاني وحاجتـهُ
ما فاتـهُ وفـضـولُ الـعَيـشِ أشغـالُ

قوله : « وصنيعة المال تزول بزواله » .

يعني : أنَّ كلَّ صَنيعَةٍ صنعَت للرَّجلِ من أجلِ مالهِ من إكرامٍ ومـحبَّةٍ وخدمَةٍ وقضاءِ حوائج وتَقديمٍ واحترامٍ وتوليَةٍ وغير ذلكَ، فإنَّـها إنَّـما هي مراعاةٌ لـمالـهِ، فإذا زالَ مـالُـهُ وفارقهُ زالت تلكَ الصَّنائعُ كلُّها حتى إنَّهُ ربَّـما لا يسلِّمُ عليه مَن كانَ يدأبُ في خِدمَتهِ ويسعى في مصالحهِ .

وَقَد أكثرَ النَّاسُ من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم وفي مثلِ قولهم : مَن ودَّكَ لأمرٍ ملَّكَ عندَ انقضائهِ .

وهذا بخلافِ صَنيعَةِ العلمِ؛ فإنَّها لا تزولَ أبداً بل كلُّ مآلها في زيادَةٍ ما لم يُسلب ذلكَ العالِمُ علمهُ، وصنيعَةُ العلمِ والدِّينِ أعظمُ من صنيعَةِ المالِ؛ لأنَّها تكونُ بالقَلبِ واللسانِ والجوارحِ فهي صادرَةٌ عن حبٍّ وإكرامٍ لأجَلِ ما أودعهُ اللَّهُ تعالى إيَّاهُ من علمهِ وفَضَّله به على غيرهِ .

وأيضاً؛ فصنيعَةُ العلمِ تابعَةٌ لنفسِ العالِمِ وذاتهِ، وصنيعَةُ المالِ تابعَةٌ لمالهِ المنفَصلِ عنه .

وأيضاً؛ فصنيعَةُ المالِ صَنيعَةُ معاوضَةٍ، وصَنيعَةُ العلمِ والدِّينِ صَنيعَةُ حبٍّ وتقرُّبٍ وديانَةٍ .

وأيضاً؛ فصنيعَةُ المالِ تكونُ مع البَرِّ والفاجرِ والمؤمنِ والكافرِ، وأمَّا صَنيعَةُ العلمِ والدِّينِ فلا تكونُ إلّا مَعَ أهلِ ذلكَ .

وقَد يُرادُ من هذا أيضاً معنىً آخَرُ وهو : أنَّ من اصطنَعتَ عندهُ صَنيعَةً بمالكَ إذا زالَ ذلك المالُ وفارقهُ عُدمَت صَنيعتكَ عندهُ .

وأمَّا مَن اصطنَعتَ إليهِ صَنيعَةَ علمٍ وهدىً فإنَّ تلكَ الصَّنيعَةَ لا تفارقهُ أبداً بل ترى في كلِّ وقتٍ كأنَّكَ أسديتها إليه حينئذٍ .

قوله : « والعلماء باقونَ ما بقيَ الدَّهر أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة » .

المراد بأمثالهم : صورهم العلميَّة ووجودهم المثالي، وإن فُقِدَت ذواتُهم

فصورُهم وأمثالُهم في القلوب لا تفارقها، وهذا هو الوجودُ الذِّهنيُّ العلميُّ؛ لأنَّ محبَّةَ النَّاسِ لهم واقتداءَهُم بهم وانتفاعَهم بعلومهم يوجبُ أن لا يَزالوا نَصبَ عيونِهم وقبلَةَ قلوبِهم، فهم موجودونَ معهم وحاضرونَ عندهم وإن غابَت عنهم أعيانُهم، كما قيل :

ومن عَجَبٍ أنّي أحِنُّ إليهم
وأسألُ عنهم مَن لقيتُ وهم معي
وتطلبهم عَيني وهم في سوادِها
ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلُعي

وقال آخَر :

ومن عَجَبٍ أن يشكوَ البُعدَ عاشقٌ
وهل غابَ عن قلبِ المحبِّ حَبيب
خيالُكَ في عَيني وذكرُكَ في فمي
ومثواكَ في قلبي فأينَ تَغيبُ

قوله : « آه؛ إنَّ ههنا علماً - وأشارَ إلى صدره » .

يدلُّ على جوازِ إخبارِ الرَّجلِ ما عندَهُ من العلمِ والخَيرِ؛ ليقتَبسَ منه ولينتَفعَ به .

ومنه قول يوسف الصِّدِّيق عليه السَّلام : ﴿ اجعَلني عَلى خزائنِ الأرضِ أنِّي حَفيظٌ عليمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] فمَن أخبَرَ عن نفسهِ بمثل ذلكَ ليكثُرَ به ما يحبُّهُ اللَّهُ ورسولهُ من الخَيرِ فهو محمودٌ، وهذا غَيرُ من أخبَرَ بذلكَ ليتكثَّرَ به عندَ النَّاسِ ويتعظَّمَ، وهذا يجازيهِ اللَّهُ بمقتِ النَّاسِ به وصغره في عيونهم،

والأوَّلُ يكثِّرهُ في قلوبهم وعيونهم و « إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات »[1] .

وكذلكَ إذا أثنى الرَّجلُ على نفسهِ ليخلصَ بذلكَ من مظلمَةٍ وشرٍّ، أو ليَستوفي بذلك حقّاً له يحتاجُ فيه إلى التَّعريفِ بحالهِ، أو ليقطَعَ عنه أطماعَ السَّفَلَةِ فيه، أو عندَ خِطبتهِ إلى من لا يَعرفُ حالهُ، والأحسَنُ في هذا أن يوكِّلَ من يعرِّفُ به وبحالهِ، فإنَّ لسانَ ثناءِ المرءِ على نفسه قَصيرٌ وهو في الغالبِ مذمومٌ لما يقترنُ به من الفخرِ والتَّعاظمِ .

ثمَّ ذكرَ أصنافَ حمَلَةِ العلمِ الذينَ لا يَصلُحونَ لحملهِ وهم أربعَة :

* **أحدَهم** : من ليسَ هو بمأمونٍ عليهِ، وهو الذي أوتيَ ذكاءً وحفظاً ولكن مع ذلكَ لم يؤتَ زكاءً؛ فهو يتَّخذُ العلمَ الذي هو آلَةُ الدِّينِ آلَةَ الدُّنيا يستجلبها به، ويتوسَّلُ بالعلمِ إليها، ويجعَلُ البضاعَةَ التي هي متجَرُ الآخرَةِ متجَرَ الدُّنيا، وهذا غيرُ أمينٍ على ما حَمَلَهُ من العلمِ، ولا يجعلهُ اللَّهُ إماماً فيه قط، فإنَّ الأمينَ هو الذي لا غَرَضَ له ولا إرادَةَ لنفسهِ إلّا اتِّباع الحقِّ وموافَقَتهُ، فلا يَدعو إلى إقامَةِ رياستهِ ولا دنياهُ، وهذا الذي قَد اتَّخَذَ بضاعَةَ الآخرَةِ ومتجرها متجَراً للدُّنيا قَد خانَ اللَّهَ، وخانَ عبادَه، وخانَ دينَهُ، فلهذا قال : « غيرَ مأمونٍ عليهِ » .

وقوله : « يستَظهرُ بحجَجِ اللَّهِ على كتابِه، وبنِعَمِه على عبادِه » .

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٩ - فتح)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه .

هذه صفةُ هذا الخائن إذا أَنْعَم اللَّهُ عليه استظهرَ على النَّاسِ، وإذا تعلَّمَ عِلماً استَظهَرَ به على كتابِ اللَّهِ، ومعنى استظهاره بالعلمِ على كتابِ اللَّهِ : تَحكيمُه عليه، وتقديمُه وإقامَتُه دونهُ، وهذه حالُ كثيرٍ ممَّن يحصُلُ له علمٌ، فإنَّهُ يَستَغني به ويَستَظهرُ به ويحكِّمهُ ويجعَلُ كتابَ اللَّهِ تَبعاً له .

وليسَت هذه حالُ العلماءِ؛ فإنَّ العالِمَ حقَّاً يستظهرُ بكتابِ اللَّهِ على كلِّ ما سِواهُ فيُقَدِّمُهُ ويحكِّمُهُ ويجعلُهُ عياراً على غيرِهِ مهيمناً عليهِ كما جعلهُ اللَّهُ تعالى كذلكَ؛ فالمُستظهرُ به موفَّقٌ سعيدٌ، والمستظهرُ عليه مخذولٌ شقيٌّ .

فمَن استَظهَرَ على الشيءِ فَقَد جعَلَهُ خَلفَ ظَهرِهِ مقدَّماً عليهِ ما استظهَرَ به، وهذا حالُ من اشتَغَلَ بغَيرِ كتابِ اللَّهِ عنهُ، واكتَفى بغَيرِهِ منه، وقدَّمَ غَيرَهُ وأخَّرهُ .

* **الثَّاني من حملَةِ العلمِ** : المنقادُ الذي لم يثلج له صدرُهُ ولم يطمئنَّ به قلبُهُ، بل هو ضعيفُ البَصيرَةِ فيه، لكنَّهُ منقادٌ لأهلِهِ، وهذه حالُ أتباعِ الحقِّ من مقلِّديهم، وهؤلاءِ وإن كانوا على سبيلِ نجاةٍ فليسوا من دعاةِ الدِّينِ، وإنَّما هم من مكثِّري سوادِ الجَيشِ لا من أمرائهِ وفرسانهِ .

قوله : « ينقدحُ الشكُّ في قلبهِ بأوَّل عارض من شبهة » .

هذا لضَعفِ عِلمِهِ وقلَّةِ بَصيرَتِهِ إذا ورَدَت على قلبهِ أدنى شُبهةٍ قَدحَت فيه الشكَّ والرَّيبَ بخلافِ الرَّاسخِ في العلم لو وَرَدَت عليهِ من الشُّبهِ بعَددِ أمواجِ البَحرِ ما أزالت يَقينه ولا قَدَحَت فيه شكَّاً، لأنَّهُ قَد رسَخَ في العلمِ فلا تَستفزُّهُ الشبهاتُ بل إذا وَرَدَت عليه ردَّها حرسُ العلمِ وجيشُهُ مغلولَةً ومغلوبةً .

والشبهَةُ واردٌ يردُ على القلبِ يحولُ بينهُ وبينَ انكشافِ الحقِّ له، فمتى

باشرَ القلبُ حقيقَةَ العلمِ لم تؤثر تلكَ الشبهَةُ فيه بل يَقوى علمُهُ ويقينُهُ بردِّها ومعرفَةِ بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقَةَ العلمِ بالحَقِّ قلبُهُ قَدَحَت فيه الشكَّ بأوَّلِ وهلَةٍ، فإن تَدارَكَها وإلّا تَتابَعَت على قلبِهِ أمثالُها حتى يَصيرَ شاكَّاً مرتاباً، والقلبُ يتوارَدُهُ جيشانِ من الباطلِ :

جيشُ شهواتِ الغَيّ .

وجَيشُ شبهاتِ الباطلِ .

فأيُّما قلبٍ صَغا إليها، وركَنَ إليها، تشرَّبها وامتلأَ بها، فيَنضَحُ لسانُهُ وجوارحُهُ بموجبها، فإن أُشرِبَ شبهاتِ الباطلِ تفجَّرَت على لسانِهِ الشكوكُ والشبهاتُ والإيرادات، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ ذلكَ لسِعَةِ علمِهِ، وإنَّما ذلكَ من عَدَمِ علمِهِ ويقينِهِ .

وقال لي شيخُ الإسلام - رضيَ اللَّهُ عنهُ - وقَد جعَلَت أورَدُ عليهِ إيراداً بعدَ إيراد :

لا تجعَل قلبَكَ للإيراداتِ والشُّبهاتِ مثلَ السَّفِنجَة؛ فيتشرَّبها فلا يَنْضَحُ إلّا بها، ولكن اجعَلهُ كالزُّجاجَةِ المُصْمَتَة تمرُّ الشبهاتُ بظاهرها ولا تَستَقرُّ فيها، فيراها بصفائِهِ، ويدفعها بصلابتِهِ، وإلّا فإذا أَشربَت قلبَكَ كلُّ شبهَةٍ تمرُّ عليها صارَ مقرّاً للشبهاتِ، أو كما قال :

فما أعلمُ أنِّي انتَفَعتُ بوصيةٍ في دفعِ الشبهاتِ كانتفاعي بذلك .

وإنَّما سمِّيتْ الشُّبهَةُ شُبهَةً؛ لاشتباهِ الحقِّ بالباطلِ فيها، فإنَّها تلبسُ ثوبَ الحقِّ على جسمِ الباطلِ وأكثَرُ النَّاسِ أصحابُ حُسْنِ ظاهرٍ، فينظرُ النَّاظرُ فيما ألبسته منَ اللباسِ؛ فيعتقدُ صحَّتها .

وأمَّا صاحبُ العلمِ واليَقينِ فإنَّهُ لا يغترُّ بذلكَ بل يجاوزُ نَظرهُ إلى باطنها وما تَحتَ لباسها؛ فينكشفُ له حقيقتها، مثالُ هذا : الدِّرْهَمُ الزَّائفُ، فإنَّهُ يغترُّ به الجاهلُ بالنَّقد نَظراً إلى ما عليهِ من لباسِ الفِضَّةِ، والنَّاقدُ البَصيرُ يجاوزهُ نظرهُ إلى ما وراءَ ذلكَ، فيطَّلع على زيفهِ .

فاللفظُ الحَسَنُ الفَصيحُ هو للشبهَةِ بمنزلَةِ اللباسِ من الفضَّةِ على الدِّرهم الزَّائفِ، والمعنى كالنُّحاسِ الذي تحته، وكم قَد قَتَلَ هذا الاعتذارُ مِن خَلق لا يحصيهم إلّا اللَّهُ (!)

وإذا تأمَّلَ انعاقلُ الفَطِنُ هذا القَدَرَ وتدبَّرَهُ رأى أكثَرَ النَّاسِ يَقبَلُ المذهَبَ والمقالَةَ بلفظٍ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخَرِ .

وقَد رأيتُ أنا من هذا في كتبِ النَّاسِ ما شاءَ اللَّهُ، وكم رُدَّ منَ الحقِّ بتشنيعهِ بلباسٍ من اللفظِ قبيحٍ .

وفي مثل هذا قال أئمَّةُ السُّنَّةِ منهم الإمامُ أحمَدُ وغيرُهُ : لا نزيلُ عن اللَّهِ صفَةً من صفاتهِ لأجلِ شناعَةٍ شنِّعت، فهؤلاءِ الجهميَّةُ يسمُّونَ إثبات صفاتِ الكمالِ للَّهِ من حياتهِ وعلمهِ وكلامهِ وسمعهِ وبصرهِ وسائرِ ما وَصَفَ به نفسهُ تشبيهاً وتجسيماً، ومَن أثبَتَ ذلكَ مشبِّهاً، فلا ينفرُ من هذا المعنى الحقِّ لأجلِ هذه التَّسميَةِ الباطلَةِ إلّا العقولُ الصَّغيرَةُ القاصرَةُ خفافيش البصائرِ، وكلُّ أهلِ نحلَةٍ ومقالةٍ يكسونَ نحلتهم ومقالتهم أحسَنَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظِ

ومقالَة مخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظِ، ومَن رزقهُ اللَّهُ بَصيرَةً فهو يكشفُ بها حقيقَةَ ما تحتَ تلك الألفاظِ من الحقِّ والباطلِ، ولا تَغترَّ باللفظِ كما قيل في هذا المعنى :

تقولُ هذا جَنى النَّحلِ تمدحُهُ
وإن تشأ قلتَ ذا قيءُ الزَّنابيرِ
مَدحاً وذمّاً وما جاوَزتَ وصفَهما
والحقُّ قَد يَعتريه سوءُ تَعبيرِ

فإذا أردتَ الاطِّلاعَ على كُنهِ المعنى هل هو حقٌّ أو باطلٌ، فجرِّدهُ من لباسِ العبارَةِ وجرِّد قَلبَكَ عن النّفرَةِ والمَيلِ، ثمَّ أعطِ النَّظَرَ حقَّهُ ناظراً بعَينِ الإنصافِ، ولا تكُن ممَّن ينظرُ في مقالَةِ أصحابهِ ومَن يحسنُ ظنّهُ نظراً تامّاً بكلِّ قلبهِ، ثمَّ ينظرُ في مقالَةِ خصومهِ وممَّن يسيءُ ظنَّهُ به كنَظَرِ الشَّزرِ والملاحَظَةِ، فالنَّاظرُ بعَينِ العَداوَةِ يَرى المحاسنَ مساوىءَ، والنَّاظرُ بعَينِ المحبَّةِ عكسُهُ، وما سَلِمَ من هذا إلّا من أرادَ اللَّهُ كرامتَهُ وارتضاهُ لقبولِ الحقِّ، وقد قيلَ :

وعَينُ الرِّضا عَن كلِّ عَيبٍ كليلَةٌ
كما أنَّ عَينَ السَّخطِ تُبدي المساويا

فإذا كانَ هذا في نَظَر العَينِ الذي يدركُ المحسوسات ولا يتمكَّن من المكابرَةِ فيها، فما الظَّنُّ بنظَرِ القَلبِ الذي يدركُ المعاني التي هي عرضَةُ المكابَرةِ، واللَّهُ المُستعانُ على معرفَةِ الحقِّ وقبولهِ، وردِّ الباطلِ وعدمِ الاغترارِ بهِ .

قولـه : « بأوَّلِ عارضٍ من شُبَهِهِ » .

هذا دليلُ ضَعفِ عقلِهِ ومعرفتِهِ إذ تؤثِّرُ فيه البَداآتُ، ويستفزٌّ بأوائلِ الأمورِ، بـخلافِ الثَّابتِ التَّامِّ العاقلِ فإنَّـهُ لا تستفزُّهُ البداآت ولا تزعجُهُ وتقلقلُـهُ، فإنَّ الباطلَ لـه دهشةٌ وروعَةٌ في أوَّلـهِ، فإذا ثَبَتَ لـه القَلبُ رُدَّ على عقبيهِ، واللَّهُ يـحبُّ من عندهُ العلـمُ والأناةُ فلا يعجَل بل يثبُت حتى يعلَمَ ويستَيقنَ ما ورَدَ عليهِ، ولا يعجلَ بأمرٍ من قبلِ استحكامِهِ، فالعجلَةُ والطَّيشُ من الشيطان، فمَن ثَبَتَ عندَ صدمَةِ البداآت استقبلَ أمرَهُ بعلـم وحزم، ومن لـم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبتُه النَّدامة، وعاقبة الأولُ حَمْدُ أمرهِ، ولكنَّ للأوّلِ آفَةً متى قُرنَت بالـحزم والعزمِ نـجا منها وهي الفَوتُ، فإنَّهُ لا يخافُ منَ التَّثبيتِ إلّا الفَوتُ، فإذا اقترَنَ به العَزمُ والـحزمُ تمَّ أمرُهُ .

وهاتانِ الكلـمتان همـا جمـاعُ الفلاحِ وما أُتـيَ العَبدُ إلّا من تَضييعهمـا، أو تَضييعِ أحدهمـا، فمـا أُتـيَ أحدٌ إلّا من بابِ العَجَلَةِ والطَّيشِ واستفزازِ البداآتِ لـه، أو من بابِ التَّهاوُنِ وتضييعِ الفُرصَةِ بعدَ مواتاتِها، فإذا حَصَلَ الثَّباتُ أوَّلاً والعَزيـمَةُ ثانياً أفلَحَ كلَّ الفلاحِ، واللَّهُ ولـيُّ التَّوفيق .

* **الثَّالث** : رجلٌ نهمَتهُ في نيلِ لذَّتهِ؛ فهو منقادٌ لداعي الشهوَةِ أينَ كانَ، ولا ينالُ درجَةَ وراثَةِ النُّبوَّةِ مع ذلكَ، ولا ينالُ العلـمَ إلّا بهجرِ اللذَّاتِ وتَطليقِ الرَّاحَةِ؛ فمـا لصاحبِ اللذَّاتِ وما لدرجَةِ وراثَةِ الأنبياءِ .

فدَع عَنكَ الكتابَةَ لستَ منها
ولو سَوَّدتَ وَجـهَكَ بالـمِدادِ

فإنَّ العلـمَ صناعَةُ القَلبِ وشغلُهُ فمـا لـم تَتفرَّغ لصناعَتهِ وشغلهِ لـم تنلـها،

وله وجهَةٌ واحدَةٌ فإذا وَجَّهت وجهَتهُ إلى اللذَّاتِ والشهواتِ انصَرَفَت عن العلمِ، ومَن لم يُغلِّب لذَّةَ إدراكِهِ العلم وشهوتَهُ على لذَّةِ جسمِهِ وشهوَةِ نفسهِ لم يَنل درجَةَ العلمِ أبداً، فإذا صارَت شهوتُهُ في العلمِ ولذَّتُهُ في كلِّ إدراكِهِ رُجيَ له أن يكون من جملَةِ أهلهِ .

ولذَّةُ العلمِ لذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّةٌ من جنسِ لذَّةِ الملائكَةِ، ولذَّةُ شهواتِ الأكلِ والشرابِ والنِّكاحِ لذَّةٌ حيوانيَّةٌ يشارِكُ الإنسان فيها الحيوان .

ولذَّةُ الشرِّ والظُّلمِ والفَسادِ والعلوِّ في الأرضِ شيطانيَّةٌ يشارِكُ صاحبَها فيها إبليسُ وجنودُهُ .

وسائرُ اللذَّاتِ تَبطلُ بمفارَقَةِ الرُّوحِ البَدَنَ إلّا لذَّةُ العلمِ والإيمانِ، فإنَّها تكمُلُ بعدَ المُفارَقَةِ؛ لأنَّ البَدَنَ وشواغلَهُ كانَ ينقصُها ويقلِّلُها ويحجُبها فإذا انطَوَت الرُّوحُ عن البَدَن التذَّت لذَّةً كاملَةً بما حصَّلتهُ من العلمِ النَّافعِ والعَمَلِ الصَّالحِ ،فَمَن طَلَبَ اللذَّةَ العُظمى وآثَرَ النَّعيمَ المُقَيِّمَ فهو في العلمِ والإيمانِ اللذينِ بهما كمالُ سعادَةِ الإنسانِ .

وأيضاً؛ فإنَّ تلكَ اللذَّاتِ سريعَةُ الزَّوالِ وإذا انقَضَت أَعقَبَت همّاً وغمّاً وإلّا يحتاجُ صاحبُها أن يداويهِ بمثلها دَفعاً لألمهِ، وربَّما كانَ معاودتهُ لها مؤلماً لهُ كريهاً إليهِ لكن يحملهُ عليهِ مداواةُ ذلكَ الغَمِّ والهمِّ، فأينَ هذا من لذَّةِ العلمِ ولذَّةِ الإيمانِ باللّهِ ومحبَّتِهِ والإقبالِ عليهِ والتَّنعُّمِ بذكرهِ فهذه هي اللذَّةُ الحقيقيَّةُ ؟

* **الرَّابع** : مَن حرصُهُ وهمَّتُهُ في جمعِ الأموالِ وتثميرها وادِّخارها، فقَد صارَت لذَّتُهُ في ذلكَ، وفَنِيَ بها عمَّا سواهُ، فلا يَرى شيئاً أطيَب لهُ ممَّا هو

فيه فَمن أينَ هذا ودرجَةُ العلـمِ ؟

فهؤلاءِ الأصنافُ الأربعَةُ ليسوا من دعاةِ الدِّينِ، ولا من أئـمَّةِ العلـمِ، ولا مِن طَلَبتهِ الصَّادقينَ في طلبهِ، ومَن تعلَّقَ منهم بشيءٍ منهُ فهو من الـمتسلِّقينَ عليه الـمتشبِّهينَ بـحملتهِ وأهلـهِ، الـمدَّعينَ لوصالـهِ، الـمبتوتينَ من حبالـهِ، وفتنَةُ هؤلاءِ فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ، فإنَّ النَّاسَ يتشبَّهونَ بهم لـما يظنُّونَ عندهم من العلـمِ، ويقولونَ : لسنا خَيراً منهم ولا نَرغبُ بأنفسنا عنهم، فهم حجَّةٌ لكلِّ مفتونٍ، ولـهذا قال فيهم بعضُ الصَّحابَةِ الكرامِ : أحذَروا فتنةَ العالِـم الفاجرِ والعابدِ الـجاهلِ، فإنَّ فتنتَهـما فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ .

وقولـه : « أقرَبُ شبَهاً بهم الأنعامُ السَّائمَةُ » .

وهذا التَّشبيهُ مأخوذٌ من قولـه تعالى : ﴿ إن هُـم إلَّا كالأنعامِ بَل هُـم أضلُّ سبيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤]، فمـا اقصَرَ سبـحانهُ على تشبيهِهم بالأنعامِ حتى جعلـهم أضلَّ سبيلاً منهم - والسَّائمَةُ : الرَّاعيَةُ .

وشبَّهَ أميرُ الـمؤمنينَ هؤلاءِ بها؛ لأنَّ همَّتَهم في سعيِ الدُّنيا وحطامها، واللَّهُ تعالى يُشبِّهُ أهلَ الـجَهلِ والغيِّ تارَةً بالأنعامِ، وتارَةً بالـحُمُرِ، وهذا تَشبيهٌ لـمَن تعلَّمَ علـماً ولـم يَعقلهُ ولـم يعمَل به فهو كالـحمـارِ الذي يـحملُ أسفاراً، وتارَةً بالكَلبِ، وهذا لـمَن انسَلَخَ عن العلـمِ وأخلَدَ إلى الشهواتِ والـهَوى .

قولـه : « كذلكَ يموتُ العلـمُ بموتِ حاملهِ » .

هذا من قول النَّبيِّ ﷺ في حديثِ عبداللَّهِ بن عمرو وعائشَةَ رضيَ اللَّهُ عنهم وغيرهمـا :

« إنَّ اللَّهَ لا يَقبضُ العلـمَ انتزاعاً يَنتزعهُ من صدورِ الرِّجالِ ولكن يقبضُ

العلمَ بقبضِ العلماءِ فإذا لم يَبقَ عالمٌ اتَّخذَ النَّاسُ رؤوساً جهَّالاً فسُئلوا فأفتوا بغَيرِ علمٍ فَضَلُّوا وأضَلُّوا »[1].

فذهابُ العلمِ إنَّما هو بذهابِ العلماءِ .

وقوله : « اللهمَّ بلى، لن تَخلو الأرضُ من قائمٍ للَّهِ بحُجج اللَّه » .

ويدلُّ عليهِ الحديثُ الصَّحيحُ عن النَّبيِّ ﷺ :

« لا تَزالُ طائفَةٌ من أمَّتي على الحَقِّ لا يَضرُّهُم من خَذَلَهُم ولا من خالفَهم حتى يأتي أمرُ اللَّهِ وهم على ذلكَ »[2].

---

(١) وردَ من حديث عبداللَّه بن عمرو وعائشة وأبي هريرة - رضي اللَّه عنهم .

١ - حديث عبداللَّه بن عمرو رضي اللَّه عنه :

أخرجه البخاري (١ / ٩٤ و ١٣ / ٢٨٢ - فتح)، ومسلم (١٦ / ٢٥٣ - ٢٥٤ - نووي) وغيرهما .

٢ - حديث عائشة رضي اللَّه عنها :

أخرجه البزار (١ / ٢٣٣ - كشف الأستار)، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٥ / ٣١٢ - ٣١٣) من طرق عن عروة عنها .

قلت : وإسناده صحيح .

٣ - حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

أخرجه الطبراني في « الأوسط » كما في « مجمع الزوائد » (١ / ١٠١)، وابن تيمية في « الأربعين » (١٨ / ١١٤ - مجموع الفتاوى) .

من طريق العلاء بن سليمان عن الزهري عن أبي سلمة عنه به .

قلت : وهذا **إسناد حسن**، رجاله ثقات؛ غير العلاء بن سليمان، فإنَّه صدوق .

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٦٣٢ و ١٣ / ٤٤٢ - فتح)، ومسلم (١٣ / ٦٦ - ٦٧) - نووي) وغيرهما من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي اللَّه عنهما .

وقد وردَ أيضاً عن جمع من الصحابة؛ **فهو متواتر كما نص على ذلك جماعة** =

فلو لـم يكُن في أواخر الأُمَّةِ قائمٌ بحجَجِ اللَّهِ مجتَهِدٌ لـم يكونوا مَوصوفينَ بهذه الخَيريَّة .

وأيضاً؛ فإنَّ هذه الأُمَّةَ أكمَلُ الأُمَمِ وخَيرُ أمَّةٍ أخرجَت للنَّاسِ، ونبيُّها خاتمُ النَّبيِّينَ لا نَبيَّ بَعدَهُ، فجعَلَ اللَّهُ العلماءَ فيها كلَّما هَلَكَ عالـمٌ خَلَفَهُ عالـمٌ؛ لئلّا تُطمَس معالـمُ الدِّين وتَخفى أعلامهُ، و « كانَ بنو إسرائيلَ كلَّما هَلَكَ نبيٌّ خلفَهُ نبيٌّ فكانَت تَسوسُهُم الأنبياءُ »[1].

والعلماءُ لـهذه الأُمَّةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيلَ[2].

= **من أهل العلم كابن تيمية** في « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص ٦)، **والسيوطي** في « الأزهار المتناثرة »، **والزبيدي** في « لقط اللآلئ المتناثرة » (٦٨)، **والكتاني** في « نظم المتناثر » (٩٣)، وشيخنا **الألباني** حفظه اللَّه في « صلاة العيدين » (ص ٣٩ - ٤٠) وغيرهم .

وقد استوعبت تخريجه في كتابي : « اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة » فلينظر .

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٦ / ٤٩٥ - فتح)، ومسلم (١٢ / ١٣٢ - نووي) عن النبي ﷺ قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلكَ نبي خلفه نبي آخر وأنَّه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون » .

قالوا : فما تأمرنا ؟

قال : « فوا ببيعة الأول فالأوَّل أعطوهم حقَّهم فإنَّ اللَّه سائلهم عما استرعاهم » .

(٢) أمَّا حديث : « علماء أمَّتي كأنبياء بني إسرائيل » **فهو لا أصلَ له** كما بينته في كتابي : « سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها » (٦) نشر دار الصميعي - الرياض .

ومراد ابن قَيِّم الجوزية - رحمه اللَّه : أنَّ العلماء يسوسونَ الأمَّة لأنَّهم ورثة الأنبياء كما كانت الأنبياء تسوس بني إسرائيل، فالمثلية في الوظيفة وليس في حقيقة الأمر، فتنبه، ولا تكن من المغترين .

وأيضاً ففي الحديثِ الآخَرِ :

« يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ يَنفونَ عنهُ تحريفَ الغالِينَ وانتحالَ المُبطلينَ وتأويلَ الجاهلين »[1].

وهذا يدلُّ على أنَّهُ لا يَزالُ محمولاً في القرونِ قَرناً بعَدَ قرنٍ .

وفي حَديثِ أبي عنبة الخولاني قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ :

« لا يَزالُ اللَّهُ يَغرسُ في هذا الدِّينِ غَرساً يستعملهم في طاعتِهِ »[2].

وغرسُ اللَّهِ هم أهلُ العلمِ والعملِ، فلو خَلَتِ الأرضُ من عالِمٍ خَلَت من غَرسِ اللَّهِ، ولهذا القَول حجَجٌ كثيرَةٌ لها موضعٌ آخَرُ .

---

(١) **حسن بشواهده** كما بينته في جزء خاص .

(٢) أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٩ / ٦١)، وابن ماجه (٨)، وأحمد « ٤ / ٢٠٠)، وابن عدي في « الكامل » (٢ / ٥٨٣)، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٦ - مع الإحسان)، و « الثقات » (٤ / ٧٥)، والدولابي في « الكنى » (١ / ٤٦) .

من طريق الجراح بن مُلَيح البهراني ثنا بكر بن زُرعة قال : سمعت أبا عنبة الخولاني (وذكره) .

قلت : إسناده حسن ..

وقد وقفت على فائدة نفيسة في « طبقات الحنابلة » (١ / ١٩٠) تفسيراً لهذا الحديث :

« عن نعيم بن مطرف عن أحمد بن حنبل في تفسير حديث النبي ﷺ (وذكره)، قال : هم أصحاب الحديث » .

وهذا التَّفسير ثابت عن الإمام أحمد - رحمه اللَّه - من غير هذا الوجه كما بينته في كتابي « اللآلى المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة »، وإن حاول بعض المنتسبينَ للعلمِ تضعيفه أو التَّشكيك في صحَّته لحاجة في نفسه (!)

وزادَ الكذَّابونَ في حديثِ عليٍّ :« إمَّا ظاهراً مشهوراً وإمَّا خفيّاً مستوراً ».

وظنُّوا أنَّ ذلكَ دليلٌ لهم على القولِ بالمُنتَظرِ، ولكنَّ هذه الزِّيادَةَ من وَضعِ بعضِ كذّابيهِم، والحديثُ مشهورٌ عن عليٍّ لم يقل أحَدٌ عنهُ هذه المقالة إلّا كذَّابٌ، وحُجَجُ اللَّهِ لا تقومُ بخفيٍّ مستورٍ لا يَقَعُ العالَمُ لهُ على خَبَرٍ، ولا يَنتَفعونَ به في شيءٍ أصلاً؛ فلا جاهلَ يتعلَّمُ منهُ، ولا ضالَّ يَهتَدي به، ولا خائفَ يأمَنُ به، ولا ذَليلَ يَتَعزَّزُ به، فأيُّ حجَّةٍ للَّهِ قَد قامَت بِمَن لا يُرى له شخصٌ، ولا يُسمَعُ منهُ كلمةٌ، ولا يُعلَمُ له مكانٌ، ولا سيَّما على أصولِ القائلينَ به، فإنَّ الذي دعاهُم إلى ذلكَ أنَّهُم قالوا : لابدَّ منه في اللُّطفِ بالمُكلَّفينَ وانقطاعُ حجَّتهم عن اللَّهِ، فياللَّهِ العجَبُ، أيُّ لطفٍ حَصَلَ بهذا المَعدومِ لا مَعصومٍ ؟ وأيُّ حجَّةٍ أثبتُّم للخَلقِ على ربهم بأصلكُم الباطلِ ؟ فإنَّ هذه المعدومَ إذا لم يَكُن لهم سبيلٌ قطُّ إلى لقائهِ والاهتداءِ به فهَل في تكليفِ مالا يُطاقُ أبلغُ من هذا، وهَل في العذرِ والحجَّةِ أبلغُ من هذا، فالذي فَرَرتُم منه وقَعتُم في شرٍّ منه، وكنتُم في ذلكَ كما قيلَ :

المُستَجيرُ بعَمرٍو عندَ كربَتهِ

كالمُستجيرِ منَ الرَّمضاءِ بالنَّارِ

ولكن أبى اللَّهُ إلّا أن يَفضَحَ من تنقَّصَ بالصَّحابَةِ الأخيارِ وبسادَةِ هذه الأُمَّةِ، وأن يُري النَّاسَ عورَتَهُ ويغريهِ بكشفِها، ونعوذُ باللَّهِ من الخذلانِ، ولَقَد أحسَنَ القائلُ :

ما آنَ للسِّردابِ أن يلدَ الذي

حملتوهُ بزَعمكُم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم

ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حُجَجٌ استودَعها مثلُ هذا الغائبِ وضاعَت أعظَمَ ضياعٍ، فأنتُم أبطلتم حججَ اللَّهِ من حيثُ زعمتم حفظَها، وهذا تَصريحٌ من أميرِ المؤمنينَ رضيَ اللَّهُ عنهُ بأنْ حاملَ حجَجِ اللَّهِ في الأرضِ بحيثُ يؤدِّيها عن اللَّهِ ويبلِّغُها إلى عبادهِ مثلهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ ومثل إخوانهِ منَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ ومَن اتَّبعهُم إلى يومِ القيامَةِ .

وقوله : « لكيلا تبطل حُجَجُ اللَّه وبيِّناتُه » .

أي : لكَيلا تَذهَبَ من بينِ يَدي النَّاسِ وتبطلَ من صدورهم، وإلّا فالبُطلانُ محالٌ عليها، لأنَّها ملزومُ ما يَستحيلُ عليهِ البُطلانُ .

فإن قيلَ : فما الفَرقُ بينَ الحُجَجِ والبيِّناتِ ؟

قيلَ : الفرقُ بينهما أنَّ الحجَجَ هي الأدلَّةُ العلميَّةُ التي يعقلها القلبُ وتُسمعُ بالأُذنِ .

قال تعالى في مناظَرَةِ إبراهيمَ لقومهِ، وتبيينِ بطلانِ ما هم عليهِ بالدَّليلِ العلميِّ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومهِ نَرفَعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ فإن حاجُّوكَ فَقُل أسلَمتُ وجهيَ للَّهِ ومَن اتَّبَعني ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقالَ تعالى : ﴿ والَّذينَ يحاجُّونَ في اللَّهِ من بَعدِ ما استُجيبَ لهُ حجَّتُهُم داحضَةٌ عندَ ربِّهِم ﴾ [الشورى : ١٦] .

والحجَّةُ هي اسمٌ لما يُحتجُّ به من حقٍّ وباطلٍ .

قال تعالى : ﴿ لئلّا يكونَ للنَّاسِ عليكُم حُجَّةٌ إلّا الَّذينَ ظَلَموا منهم ﴾ [البقرة : ١٥٠]، فإنَّهُم يحتجُّونَ عليكُم بحجَّةٍ باطلَةٍ : ﴿ فلا تَخشوهُم واخشوني ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ ما كانَ حُجَّتُهُم إلّا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كُنتُم صادقين ﴾ [الجاثية : ٢٥] .

والحجَّةُ المضافَةُ إلى اللَّهِ هي الحقُّ .

وقَد تكونُ الحجَّةُ بمعنى المُخاصَمَة، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلذلكَ فادْعُ واسْتَقِم كما أُمِرتَ ولا تَتَّبِعَ أهواءَهُم وقل آمَنتُ بما أنزَلَ اللَّهُ من كتابٍ وأُمرتُ لأعدِلَ بينكُم اللَّهُ ربُّنا وربُّكُم لنا أعمالنا ولكُم أعمالكُم لا حجَّةَ بَيننا وبَينَكُم ﴾ [الشورى : ١٥]، أي : قَد وَضَحَ الحقُّ واستبانَ وظَهَرَ، فلا خصومَةَ بيننا بَعدَ ظهورهِ ولا مجادَلَةَ، فإنَّ الجدالَ شريعَةٌ موضوعَةٌ للتَّعاونِ على إظهارِ الحقِّ، فإذا ظَهَرَ الحقُّ ولم يبقَ به خفاءٌ فلا فائدَةَ في الخصومَةِ، والجدالُ على بَصيرَةٍ مخاصَمةُ المُنكرِ ومجادلتُهُ عناءٌ لا غنى فيهِ، هذا معنى هذه الآيَة .

وقَد يقعُ في وَهْمِ كثيرٍ من الجُهّالِ : أنَّ الشريعَةَ لا احتجاجَ فيها وأنَّ المرسلَ بها صلوات اللَّه وسلامه عليه لم يكُن يحتجُّ على خصومهِ ولا يجادلهم .

ويظنُّ جُهَّالُ المنطقيِّين وفروخُ اليونانِ . أنَّ الشريعَةَ خطابٌ للجمهورِ ولا احتجاجَ فيها، وأنَّ الأنبياءَ دَعَوا الجمهورَ بطريقِ الخطابَةِ، والحجج للخواصِّ

وهم أهلُ البرهانِ يعنونَ نفوسَهم ومَن سلَكَ طريقتَهم، وكلُّ هذا من جهلهم بالشريعَة والقرآنِ، فإنَّ القرآنَ مملوءٌ من الحجَجِ والأدلَّةِ والبراهينِ في مسائلِ التَّوحيدِ، وإثباتِ الصَّانعِ، والمعادِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وحدوثِ العالم، فلا يَذكرُ المتكلِّمونَ وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلكَ إلّا وهو في القرآنِ بأفصَحِ عبارَةٍ، وأوضحِ بيانٍ، وأتمِّ معنىً، وأبعَدهِ عن الإيرادات والأسئلة، وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين .

وقال الرَّازي في كتابهِ « أقسام اللذَّات » :

« لَقَد تأمَّلتُ الكتبَ الكلاميَّة والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فما رأيتُها تَروي غليلاً، ولا تَشفي عليلاً، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقَةَ القرآنِ .

اقرأ في الإثباتِ : ﴿ إليهِ يَصعَدُ الكلمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠]، ﴿ الرَّحمنُ على العَرشِ استَوى ﴾ [طه : ٥] .

واقرأ في النَّفي : ﴿ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

ومَن جرَّبَ تَجربتي عرفَ مثل معرفتي » .

وهذا الذي أشارَ إليهِ بحسبِ ما فُتحَ له من دلالَةِ القرآنِ بطَريقِ الخَبَرِ، وإلّا فدلالتُهُ البرهانيَّةُ العقليَّةُ التي يشيرُ إليها ويرشدُ إليها فتكونُ دليلاً سمعيَّاً عقليَّاً أمرٌ تَميَّزَ به القرآنُ، وصارَ العالِمُ به من الرَّاسخينَ في العلم، وهو العلمُ الذي يطمئنُّ إليهِ القلبُ، وتسكُنُ عندَهُ النَّفسُ، ويَزكو به العقلُ، وتَستَنيرُ به البَصيرَةُ، وتَقوى به الحجَّةُ، ولا سَبيلَ لأحَدٍ من العالمينَ إلى قَطعِ من حاجَّ به بل مَن خاصَمَ به فلجَّت حجَّتُهُ، وكَسَرَ شُبهَةَ خَصمِهِ، وبه فُتحَت القلوبُ واستُجيبَ للَّهِ ورسولِهِ، ولكنَّ أهلَ هذا العلم لا تكادُ الأعصارُ تسمحُ منهم إلّا

بالواحدِ بعدَ الواحدِ، فدلالةُ القرآنِ سمعيَّةٌ عقليَّةٌ قَطعيَّةٌ يقينيَّةٌ لا تَعترضها الشبهاتُ، ولا تَتداولها الاحتمالات، ولا يَنصرفُ القلبُ عنها بَعد فهمها أبداً .

وقالَ بَعضُ المتكلِّمينَ : « أفنَيتُ عمري في الكلامِ أطلبُ الدَّليلَ وأنا لا أزدادُ إلّا بُعداً عن الدَّليلِ، فَرجَعتُ إلى القرآنِ أتدبَّرُهُ وأتفكَّرُ فيه، وإذا أنا بالدَّليلِ حقَّاً معي وأنا لا أشعُرُ به، فقلتُ : واللَّهِ ما مثلي إلّا كما قالَ القائلُ :

ومنَ العجائبِ والعجائبُ جمَّةٌ
قربُ الحَبيبِ وما إليهِ وصولُ
كالعيسِ في البَيداءِ يقتُلها الظَّما
والماءُ فوقَ ظُهورِها مَحمولُ

قال : فلمَّا رَجعتُ إلى القرآنِ إذا هو الحَكَمُ والدَّليلُ، ورأيتُ فيه من أدلَّةِ اللَّهِ وحجَجِهِ وبراهينِهِ وبيِّناتِهِ ما لو جُمعَ كلُّ حقٍّ قاله المتكلِّمونَ في كتبهم لكانَت سورَةٌ من سوَرِ القرآنِ وافيَةً بمضمونِهِ مع حسنِ البيانِ، وفصاحَةِ اللفظِ، وتَطبيقِ المفصَّلِ، وحسنِ الاحترازِ والتَّنبيهِ على مواقعِ الشُّبهِ والإرشادِ إلى جوابها، وإذا هو كما قيلَ بل فوقَ ما قيلَ :

كَفى وشفَى ما في الفُؤادِ فلَم يَدَع
لذي أرَبٍ في القَولِ جدَّاً ولا هزلاً

وجَعَلتُ جيوشُ الكلامِ بَعدَ ذلكَ تَفدُ إليَّ كما كانَت وتَتزاحمُ في صَدري ولا يَأذنُ لها القَلبُ بالدُّخولِ فيه، ولا تَلقى منه إقبالاً ولا قبولاً؛ فترجعُ على أدبارِها » .

والمقصودُ : أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاجِ، وفيه جميعُ أنواع الأدلَّةِ والأقيسَةِ

الصَّحيحَةِ، وأمَرَ اللَّهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ فيه بإقامَةِ الحجَّةِ والمجادلَةِ فقال تعالى : ﴿ وجادلهُم بالَّتي هيَ أحسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وهذه مناظراتُ القرآنِ معَ الكفَّارِ موجودَةٌ فيه، وهذه مناظراتُ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأصحابهِ لخصومهم وإقامَة الحجَجِ عليهم لا يُنكِرُ ذلكَ إلّا جاهلٌ مفرطٌ في الجَهلِ(١).

والمقصودُ : الفرقُ بينَ الحجَجِ والبيِّناتِ، فنقول :

الحجَج : الأدلَّةُ العلميَّةُ .

والبيِّنات : جمعُ بيِّنَةٍ، وهي : اسمٌ لكلِّ ما يُبيِّنُ الحقَّ من علامَةٍ منصوبَةٍ، أو أمارَةٍ، أو دليلٍ علميٍّ، قال تعالى : ﴿ لَقَد أرسَلنا رُسلنا بالبيِّناتِ وأنزَلنا معهم الكتابَ والميزانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فالبيِّنات : الآياتُ التي أقامها اللَّهُ دلالَةً على صدقهم من المُعجزاتِ، والكتابُ هو الدَّعوَةُ .

ومنهُ قولُ موسى لفرعَونَ وقومهِ : ﴿ قَد جئتكُم ببيِّنَةٍ من ربِّكُم فأرسِل معي بني إسرائيل * قالَ إن كنتَ جئتَ بآيَةٍ فأتِ بها إن كنتَ منَ الصَّادقينَ * فألقى عصاه ﴾ [الأعراف : ١٠٥ - ١٠٧]، وكانَ إلقاءُ العصا وانقلابها حيَّةً هو البيِّنَةُ .

وقال قومُ هودٍ : ﴿ يا هودُ ما جئتنا ببيِّنَةٍ ﴾ [هود : ٥٣]، يريدونَ آيَةَ

---

(١) وانظر لزاماً كتابي : « مناظرات أئمَّة السلف مع حزب إبليس وأفراخ الخلف : دراسةً وتحليلاً »، ففيه - إن شاء اللَّه - بغية المريد وغاية المستزيد .

الاقتراحِ، وإلّا فهو قد جاءَهُم بما يَعرفونَ به أنَّهُ رسولُ اللّهِ إليهم، فطَلَبُ الآيَةِ بعدَ ذلكَ تعنُّتٌ واقتراحٌ لا يكونُ لهم عذرٌ في عَدَمِ الإجابَةِ إليهِ .

وهذه هي الآياتُ التي قال اللّهُ تعالى فيها : ﴿ وما مَنَعَنا أن نُرسِلَ بالآياتِ إلّا أن كذَّبَ بها الأوَّلونَ ﴾ [الإسراء : ٥٩]، فَعَدَمُ إجابتِهِ سبحانهُ إليها إذ طَلَبها الكفَّارُ رحمَةٌ منهُ وإحسانٌ، فإنَّهُ جَرَت سنَّتُهُ التي لا تَبديلَ لها أنَّهُم إذا طَلَبوا الآيَةَ واقتَرحوها وأُجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذابِ الاستئصالِ، فلمَّا عَلِمَ سبحانهُ أنَّ هؤلاءِ لا يؤمنونَ ولو جاءَتهُم كلُّ آيَةٍ لم يجبهم إلى ما طَلَبوا، فلم يعمَّهم بعذابٍ لما أخرَجَ من بنيهم وأصلابهم من عبادهِ المؤمنين، وإن اكثرَهُم آمَنَ بعدَ ذلكَ بغيرِ الآياتِ التي اقتَرحوها، فكانَ عدمُ إنزالِ الآياتِ المطلوبَةِ من تمامِ حكمَةِ الرَّبِّ ورحمتِه وأحسانِه، بخلافِ الحُجَجِ فإنَّها لم تَزَل متتابعَةً يتلو بعضها بعضاً وهي كلّ يومٍ في مزيدٍ، وتوفّي رسولُ اللّهِ ﷺ وهي أكثرُ ما كانَت، وهي باقيَةٌ إلى يومِ القيامَةِ .

وقوله : « أُولئكَ الأقلُّونَ عَدَداً، الأعظَمونَ عندَ اللّهِ قَدراً » .

يعني هذا الصِّنف من النَّاسِ أقلُّ الخَلقِ عَدداً، وهذا سببُ غُربَتِهم، فإنَّهُم قليلونَ في النَّاسِ، والنَّاسُ على خلافِ طريقهم، فلهم نبأٌ وللنَّاسِ نبأٌ .

قال النَّبيُّ ﷺ : « بدأَ الإسلامُ غَريباً وسيعودُ غَريباً كما بدأَ فطوبى للغرباء »[1].

فالمؤمنونَ قليلٌ في النَّاسِ، والعلماءُ قليلٌ في المؤمنينَ، وهؤلاءِ قليلٌ في

---

(١) **حديث متواتر**؛ انظر رسالتي « الغربة والغرباء » (ص ١١ - ٣٥)، و « الاعتصام » للشاطبي (١ / ١٨ - ٢٣) بتحقيقي .

العلماءِ، وإيَّاكَ أن تَغتَرَّ بما يَغتَرُّ به الجاهلونَ ؟ فإنَّهُم يقولونَ : لو كانَ هؤلاءِ على حقٍّ لم يكونوا أقلَّ النَّاسِ عَدداً، والنَّاسُ على خلافهم .

فاعلَم أنَّ هؤلاءِ هم النَّاسُ، ومَن خالفهم فَمُشبَّهونَ بالنَّاسِ وليسوا بناسٍ، فما النَّاسُ إلّا أهلُ الحقِّ وإن كانوا أقلَّهُم عَدداً (!)

وقَد ذمَّ سبحانهُ الأكثرينَ في غيرِ موضعٍ كقوله : ﴿ وإنْ تُطع أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضلُّوكَ عَن سبيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

وقال بعضُ العارفينَ : انفرادُكَ في طريقِ طلبِكَ دليلٌ على صِدقِ الطَّلب .

مُت بداءِ الهَوى وإلّا فخاطِـر
واطرُق الحيَّ والعيونُ نواظِـر
لا تَخف وحشَةَ الطَّريقِ إذا سِر
تَ وكُن في خفارَةِ الحقِّ سائر

وقولهُ : « بهم يَدفَعُ اللَّهُ عن حُجَجِهِ حتى يؤدُّوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوبِ أشباههم » .

وهذا لأنَّ اللَّهَ سبحانهُ ضَمِنَ حفظَ حُجَجِهِ وبيِّناتِهِ، وأخبَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أنَّهُ : « لا تَزالُ طائفَةٌ من أمَّتِهِ على الحقِّ لا يضرُّهُم من خَذَلهم ولا مَن خالفهم إلى قيامِ السَّاعَة »[١].

فلا يزالُ غَرسُ اللَّهِ الذينَ غَرسهم في دينهِ يغرسونَ العلمَ في قلوبِ مَن أهلَّهُم اللَّهُ لذلكَ وارتَضاهُم، فيكونوا ورثَةً لهم كما كانوا هم ورَثَةً لمَن قبلَهُم، فلا تَنقطع حُجَجُ اللَّهِ والقائمُ بها من الأرضِ .

---

(١) مضى تخريجه (ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

ولـهذا ما أقامَ اللّهُ لـهذا الدِّينِ مَن يـحفظهُ ثمَّ قبضَهُ إليهِ إلّا وقَد زرَعَ ما علَّمَهُ منَ العلـمِ والحكمَة إمَّا في قلوبِ أمثالـهِ، وإمَّا في كتبٍ ينتفعُ بها النَّاسُ بعدَهُ[1]، وبهذا وبغيرهِ فَضَلَ العلـماءُ العبَّادَ؛ فإنَّ العالِـمَ إذا زَرَعَ علـمَهُ عندَ غيرهِ ثمَّ مـاتَ جَرى عليهِ أجرهُ، وبقي لـهُ ذكرُهُ، وهو عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أُخرى، وذلكَ أحقُّ ما تنافَسَ في الـمتنافسونَ، ورَغبَ فيه الرَّاغبون .

وقولـه : « هَجَمَ بهم العلـمُ على حقيقَةِ الأمرِ، فاستلانوا ما استوعَرَ الـمترَفونَ، وأنسوا مما استوحَش منه الـجاهلون » .

الـهجومُ على الرَّجلِ الدُّخولُ عليهِ بلا استئذانٍ، ولـمَّا كانَت طريقُ الآخِرَة

(١) هذه فائدة هامَّة جادت بها قريحة هذا الإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني تُبيِّن أنَّ الاشتغال في تصنيف الكتب العلميَّة النافعة القائمة على الكتاب والسنَّة وفهم سلف الأمَّة قربة إلى اللَّه، وأنَّها وسيلة لنفع العباد، وإنقاذهم - بإذن ربِّهم - من الضلالة إلى الهدى .

قال ابن الجوزي :

« واعلم أنَّ القلوبَ لا تبقى على صفائها، بل تصدأ، فتحتاج إلى جلاءٍ، وجلاؤها النَّظرُ في كتب العلم »(*).

ولذلك فإني لا أجد معنى سائغاً لنقيق (بعضهم) ممن يرمي بسهامه الطائشة طلاب العلم الذين نذروا حياتهم وفرَّغوا أوقاتهم في تأليف النَّافع المفيد من الكتب، فتراهم يصفونهم بقولهم : « حبسوا أنفسهم بينَ أربعة جدرانٍ من الكتب »، وبقولهم : « هذه رهبانية الكتب »، وبقولهم : « لم يخرجوا إلى الشَّارع ليعرفوا الواقع » ... إلخ هذيانهم .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للذينَ آمنوا ربنا إنَّك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر ١٠] .

(*) انظر « المنتقى النَّفيس من تلبيس إبليس » (ص ٤٤١) بقلم الأخ علي حسن .

وعِزَةً على أكثَرِ الخَلقِ لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم قلَّ سالكوها وزادهم فيها قلَّةُ علمِهم أو عَدَمُهُ بحقيقَةِ الأمرِ وعاقبةِ العبادِ ومصيرِهم وما هيِّئوا له وهُيِّىء لهم، فقلَّ علمُهم بذلكَ، واستلانوا مركبَ الشهوَةِ والهوى على مركبِ الإخلاص والتَّقوى، وتوعَّرَت عليهم الطَّريقُ وبَعُدَت عليهم الشقَّةُ وصَعبَ عليهم مُرتقى عقابها وهبوطُ أوديَتِها، وسلوكُ شعابِها؛ فأخلدوا إلى الدَّعَةِ والرَّاحَةِ، وآثروا العاجلَ على الآجلِ، وقالوا : عيشنا اليومَ نَقدٌ وموعودُنا نَسيئةٌ، فنظروا إلى عاجلِ الدُّنيا، وأغمضوا العيونَ عن آجلها، ووقفوا مع ظاهرها، ولم يتأمَّلوا باطنها، وذاقوا حلاوَةَ مباديها، وغابَ عنهم مرارَةُ عواقبها، ودرَّ لهم ثَديُها؛ فطابَ الارتضاعُ واشتَغلوا به عن التَّفكُّرِ في الفطامِ ومرارَةِ الانقطاعِ، وقال مغترُّهم باللَّهِ وجاحدهم لعظمتهِ وربوبيَّتهِ متمثِّلاً في ذلك :

خُذ ما تَراهُ ودَع شيئاً سمعتَ به .

وأمَّا القائمونَ للَّهِ بحجَّتهِ خلفاءُ نبيِّهِ في أمَّتهِ، فإنَّهم لكمالِ علمهم وقوَّتهِ نَفذَ بهم إلى حقيقَةِ الأمرِ، وهجمَ بهم عليهِ، فعايَنوا ببصائرهم ما عَشيَت عنهُ بصائرُ الجاهلينَ فاطمأنَّت قلوبهم به، وعملوا على الوصولِ إليهِ لما باشرها من روحِ اليَقينِ رفعَ لهم علمُ السَّعادَةِ؛ فشمَّروا إليهِ، وأسمعهُم منادى الإيمانِ النِّداء، فاستَبَقوا إليهِ، واستَيقَنَت أنفسهم ما وعَدهم به ربُّهُم، فَزَهدوا فيما سواهُ، ورغبوا فيما لديهِ علموا أنَّ الدُّنيا دارُ ممَرٍّ لا دار مقرٍّ ومنزل عبورٍ لا مَقعَد حبورٍ، وأنَّها خيالُ طيفٍ أو سحابَةُ صَيفٍ، وأنَّ مَن فيها كراكبٍ قالَ تحتَ ظلِّ شجرةٍ ثمَّ راحَ عنها وتَركها، وتيقَّنوا أنَّها أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ :

إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ .

وأنَّ واصفَها صَدَقَ في وصفها إذ يقولُ :

أرى أشقياءَ النَّاسِ لا يسأمونَها

على أنَّهُم فيها عراةٌ وجوع

أراها وإن كانَت تحبُّ فإنَّها

سحابَةُ صَيفٍ عَن قليلٍ تُقشع

فرجلتَ عن قلوبهم مدبرَةً كما ترحَّلت عن أَهلها موليَةً، وأقبلَت الآخرَةُ إلى قلوبهم مسرعَةً كما أسرَعَت إلى الخَلقِ مقبلَةً، فامتَطوا ظهورَ العزائمِ وهجروا لذَّةَ المنام، وما ليلُ المحبِّ بنائمٍ، علموا طولَ الطَّريقِ وقلَّة المقامِ في منزلِ التَّزوُّدِ فسارعوا في الجهازِ، وجدَّ بهم السَّيرُ إلى منازل الأحباب، فقطعوا المراحل وطووا المفاوز .

وهذا كله من ثمرات اليقين؛ فإنَّ القلبَ إذا استيقَنَ ما أمامهُ من كرامَةِ اللَّهِ وما أعدَّ لأوليائهِ بحيثُ كأنَّهُ ينظرُ إليهِ من وراءِ حجابِ الدُّنيا، ويعلمُ أنَّهُ إذا زالَ الحجابُ رأى ذلكَ عياناً زالت عنهُ الوحشَةُ التي يجدها المتخلِّفونَ، ولانَ له ما استوعَرَهُ المترفونَ .

○ **وهذه المرتبةُ هي أوَّلُ مراتبِ اليَقين**، وهي علمُهُ وتيقُّنُه، وهي انكشافُ المعلومِ للقَلبِ بحيثُ يشاهدهُ ولا يشكُّ فيه كانكشافِ المرئي للبَصرِ .

○ **ثمَّ يَليها المرتبَةُ الثَّانيَةُ** وهي مرتبَةُ عينِ اليَقينِ، ونسبتها إلى العَينِ كنسبَةِ الأوَّلِ إلى القَلبِ .

○ **ثمَّ تليها المرتبَةُ الثَّالثَةُ** وهي حقُّ اليَقينِ، وهي مباشرَةُ المعلومِ وإدراكهُ الإدراك التَّام .

* **فالأولى** : كعلمكَ بأنَّ في هذا الوادي ماءً .

* **والثَّانيَة** : كرؤيتهِ .

* **والثَّالثَة** : كالشربِ منه .

فهذا هو هجومُ العلمِ بصاحبهِ على حقيقَةِ الأمرِ، ومَن وصلَ إلى هذا استلانَ ما يستوعرهُ المترفونَ، وأنسَ مما يستوحش منه الجاهلونَ .

وهذه هي الحالُ التي كانَت تحصلُ للصَّحابَةِ عندَ النَّبي ﷺ إذا ذكَّرهم الجنَّة والنَّار؛ كما في التِّرمذي[1] وغيرهِ[2] من حديثِ الجريري عن أبي عثمان النَّهدي عن حنظَلَةَ الأسيديِّ - وكانَ من كتابِ النَّبيِّ ﷺ - أنَّهُ مرَّ بأبي بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ وهو يبكي فقال : مالكَ يا حنظَلَةُ ؟

فقال : نافَقَ حنظَلَةُ يا أبا بكرٍ نكونُ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ يذكِّرنا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّا رأيَ عَينٍ فإذا رَجَعنا إلى الأزواجِ والضَّيعَةِ نَسينا كثيراً .

قال : فواللَّهِ إنَّا لكذلكَ انطَلَق بنا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فانطلَقنا فلمَّا رآهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ قال : « مالكَ يا حنظَلَةُ ؟ » .

قال : نافَقَ حنظَلَةُ يا رَسولَ اللَّهِ نكونُ عندَكَ تذكِّرنا بالنَّارِ والجنَّةِ كأنَّا رأيَ عينٍ، فإذا رَجَعنا عافَسنا الأزواجَ والضَّيعَةَ ونسينا كثيراً .

---

(١) برقم (٢٥١٤) .

(٢) وهو أيضاً عند مسلم (٢٧٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٩)، ومن الأولى عزو الحديث لمسلم كما لا يخفى .

قال : فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لو تدومون على الحالِ التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكَةُ في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم ولكن يا حَنظَلَةَ ساعَةً وساعَةً ساعَةً وساعَةً[1] » .[2]

والمقصودُ : أنَّ الذي يهجمُ بالقَلبِ على حقيقَةِ الإيمانِ ويلين له ما

---

(١) في بعض نسخ الترمذي : « ساعة وساعة » .

(٢) قال الترمذي (٢٤٥٢) بعد أن أسند حديث حنظلة من وجه آخر :

« هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد رويَ هذا الحديث من غير هذا الوجه عن حنظلة الأسيدي عن النَّبي ﷺ .

وفي الباب عن أبي هريرة » .

قلت : وهو عنده برقم (٢٥٢٦) وقال :

« هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وهو ليسَ عندي بمتَّصل، وقد روي هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي مُدَلَّةٍ عن أبي هريرة عن النَّبي ﷺ .

قلت : الإسناد الآخر الذي أشارَ إليه الترمذي :

أخرجه ابن المبارك في « الزُّهد »(*) (١٠٧٥)، والطيالسي (٢٥٨٣)، وأحمد (٢ / ٣٠٤ - ٣٠٥ و ٣٠٥) .

فقال : نافَقَ حنظَلَةُ يا أبا بكرٍ نكونُ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ يذكِّرنا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّا رأيَ عَينٍ فإذا رَجَعنا إلى الأزواجِ والضَّيعَةِ نَسينا كثيراً .

وهو **إسناد ضعيف** من أجل أبي مُدَلَّةٍ لم يرو عنه غير أبي مجاهد الطائي .

قال الحافظ في « التقريب » : مقبول .

لكنَّه حسن بطريقه المتقدِّم عند الترمذي .

وله شاهد من حديث أنس رضي اللَّه عنه أيضاً .

....

(*) لم يُذكَر أبو مُدَلَّة عند ابن المبارك، وإنَّما فيه : « عن رجل » .

يستَوعرهُ غيره ويؤنسهُ بما يَستَوحشُ منه سواه العلمُ التَّامُّ والحبُّ الخالصُ، والحبُّ تبعٌ للعلمِ يَقوى بقوَّتهِ ويضعفُ بضعفهِ، والمحبُّ لا يَستوعرُ طريقاً توصلهُ إلى محبوبهِ ولا يَستَوحشُ فيها .

قوله : « صَحبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحها معلَّقَةٌ بالملأ الأعلى » .

الرُّوحُ في هذا الجَسَد بدارِ غربَةٍ ولها وطنٌ غيرهُ فلا تَستَقرُّ إلّا في وطنها وهي جوهَرٌ علويٌّ مخلوقٌ من مادَّةٍ علويَّةٍ وقَد اضطرَّت إلى مساكنَةِ هذا البَدَنِ الكثيفِ، فهي دائماً تطلبُ وطَنها في المحلِّ الأعلى، وتحنُّ إليهِ حنينَ الطَّيرِ إلى أوكارِها، وكلُّ روحٍ ففيها ذلكَ ولكن لفَرطِ اشتغالها بالبَدنِ وبالمحسوساتِ المألوفَةِ أخلَدَت إلى الأرضِ ونَسيَت معلمها ووطنها الذي لا راحَةَ لها في غيرهِ، فإنَّهُ لا راحَةَ للمؤمنِ دونَ لقاءَ ربِّهِ، والدُّنيا سجنُهُ حقّاً، فلهذا تَجدُ المؤمنَ بدنَهُ في الدُّنيا وروحَهُ في المحلِّ الأعلى .

فأعظمُ عَذابِ الرُّوحِ انغماسها وتَدسيسها في أعماقِ البَدنِ، واشتغالها بملاذِّهِ، وانقطاعها عن ملاحظَةِ ما خُلقَت لهُ وهُيِّئَت له وعَن وطنها ومحلِّها ومحلِّ أُنسِها ومنزلِ كرامتها، ولكن سُكْرَ الشهواتِ يحجبُها عن مطالعَةِ هذا الألمِ والعَذابِ، فإذا صَحَت من سُكْرِها وأفاقَت من غمرتِها أقبَلَت عليها جيوشُ الحسراتِ من كلِّ جانبٍ؛ فحينئذٍ تتقطَّعُ حسراتٍ على ما فاتها من كرامَةِ اللَّهِ وقربهِ والأُنسِ به، والوصولِ إلى وطنها الذي لا راحَةَ لها إلّا فيهِ كما قيلَ :

صحبتُكَ إذ عَيني عليها غشاوَةٌ

فلمَّا انجلَت قطَّعتُ نَفسي ألومُها

ولو تنقّلَت الرُّوحُ في المواطنِ كلِّها والمنازلِ لم تَستقرَّ ولم تَطمئنَّ إلّا في وطنها ومحلِّها الذي خُلقَت له كما قيل :

نقِّل فؤادَكَ حَيثُ شئتَ منَ الهَوى
ما الحبُّ إلّا للحَبيبِ الأوَّلِ
كَم مَنزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفَتى
وحنينهُ أبداً لأوَّلِ مَنزلِ

وإذا كانَت الرُّوحُ تحنُّ أبداً إلى وطنها من الأرضِ مع قيامِ غيرهِ مقامه في السُّكنى، وكثيراً ما يكونُ غيرُ وطنها أحسَنَ وأطيَبَ منه وهي دائماً تحنُّ إليهِ مع أنَّهُ لا ضَرَرَ عليها ولا عَذابَ في مفارقتهِ إلى مثلهِ، فكيفَ بحنينها إلى الوَطنِ الذي في فراقها لهُ عذابُها وآلامُها وحسرتها التي لا تَنقَضي ؟ فالعَبدُ المؤمنُ في هذه الدَّار سُبي من الجنَّةِ إلى دارِ التَّعَبِ والعناءِ ثمَّ ضُربَ عليهِ الرِّقُّ فيها، فكيفَ يلامُ على حنينهِ إلى دارهِ التي سُبيَ منها ؟ وفُرِّقَ بينهُ وبينَ مَن يحبُّ، وجُمعَ بينهُ وبينَ عدوِّهُ فروحهُ دائماً معلَّقةٌ بذلكَ الوَطنِ، وبدنُهُ في الدُّنيا، ولي من أبياتٍ في ذلك :

وَحَيّ على جنَّاتِ عَدنٍ فإنَّها
منازِلُكَ الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبيُ العَدوِّ فهَل تَرى
نَعودُ إلى أوطاننا ونسلمُ

وكلَّما أرادَ منه العدوُّ نسيانَ وطنهِ وضربَ الذكرَ عنه صفحاً وإيلافه وطناً غيرهُ أبَت ذلكَ روحُه وقلبُه كما قيل :

يرادُ من القَلبِ نسيانكُم وتأبى الطِّباعُ على النَّاقلِ

ولـهذا كانَ الـمؤمنُ غريباً في هذه الدَّارِ أينَ حلَّ منها فهو في دارِ غربَةٍ؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ :

« كُن في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ »[1].

ولكنَّها غربةٌ تنقَضي ويصيرُ إلى وطنهِ ومنزلـهِ، وإنَّمـا الغربَةُ التي لا يُرجى انقطاعها فهي غربَةٌ في دارِ الـهوانِ، ومفارَقَة وطنهِ الذي كانَ قَد هُيِّىءَ لـهُ وأُعدَّ لـهُ وأُمرَ بالتَّجهيزِ إليهِ والقدومِ عليهِ، فأبى إلّا اغترابهُ عنه ومفارقتهُ لـهُ، فتلكَ غربةٌ لا يُرجى إيابُها، ولا يُجبَرُ مصابُها .

ولا تبادرُ إلى إنكارِ كونِ البَدنِ في الدُّنيا والرُّوحِ في الـملإِ الأعلى فللرُّوحِ شأنٌ، وللبَدنِ شأنٌ، والنَّبيُّ ﷺ كانَ بينَ أظهُرِ أصحابهِ وهو عندَ ربِّهِ يطعمهُ ويسقيهِ[2]؛ فبدنُهُ بينهم وروحُهُ وقلبُهُ عندَ ربِّهِ .

وقولـهُ : « أُولئكَ خلفاءُ اللَّهِ في أرضه ودعاته إلى دينه » .

هذا حجَّةُ أحدِ القَولينِ في أنَّهُ يجوز أن يقالَ : فلانٌ خليفَةُ اللَّهِ في أرضهِ .

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٢٣٣ - فتح) من حديث عبداللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما .

(٢) يشير إلى حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إني أظلُّ عندَ ربي يطعمني ويسقيني » .

أخرجه البخاري (٤ / ٢٠٦ - فتح)، ومسلم (١١٠٣) .

وفي الباب عن ابن عمر، وأبي سعيد الخدري - رضي اللَّه عنهما .

واحتجَّ أصحابهُ أيضاً بقوله تعالى للملائكة : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خَليفةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وبقوله تعالى : ﴿ هوَ الَّذي جَعَلَكُم خلائفَ في الأرضِ ﴾ [فاطر : ٣٩] .

وبقوله تعالى : ﴿ أمَّن يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوءَ ويجعلكُم خلفاءَ الأرضِ ﴾ [النحل : ٦٢] .

وبقولِ موسى لقومه : ﴿ عَسى ربُّكُم أن يهلِكَ عدوَّكُم ويستخلفَكُم في الأرضِ فيَنظرَ كيفَ تعمَلونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

وبقولِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ ممكِّنٌ لكُم في الأرضِ ومُستخلفكُم فيها فناظرٌ كيفَ تعملون فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء »(1).

وبقولِ الرَّاعي يخاطبُ أبا بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ:

خَليفَةَ الرَّحمن إنَّا مَعشرٌ

حنفاءُ نسجد بُكرَةً وأصيلاً

عربٌ نَرى للَّهِ في أموالنا

حقَّ الزَّكاةِ مُنَزَّلاً تنزيلاً

ومنعَت طائفَةٌ هذا الاطلاقَ وقالت : لا يقالُ لأحدٍ إنَّهُ خليفةُ اللَّهِ، فإنَّ الخَليفَةَ إنَّما يكونُ عمَّن يَغيبُ ويخلفهُ غيرهُ، واللَّهُ تعالى شاهدٌ غيرُ غائبٍ،

(١) أخرج نحوه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي اللّه عنه - مرفوعاً بلفظ :

« إنَّ الدنيا حلوة خضرة وإنَّ اللّه مستخلفكم فيها فينظر كيفَ تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإنَّ أوَّل فتنة في بني إسرائيل كانت في النساء » .

قريبٌ غيرُ بَعيدٍ راءٍ وسامعٌ، فمحالٌ أن يخلفهُ غيرهُ بل هو سبحانهُ الذي يخلفُ عبدَهُ المؤمنَ فيكونَ خليفتَهُ .

كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في حديث الدجَّال :

« إن يخرج وأنا فيكُم فأنا حجيجُهُ دونَكُم وإن يخرج ولستُ فيكُم فأمرؤ حجيجُ نَفسهِ واللَّهُ خليفَتي على كلِّ مؤمنٍ » .[1]

وفي « صَحيح مسلم »[2] أيضاً من حديثِ عبداللَّهِ بن عَمر أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يقولُ إذا سافرَ :

« اللهمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَر، والخليفَةُ في الأهلِ ... » الحديث .

وفي « الصَّحيح »[3] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« اللهمَّ اغفر لأبي سلمَة وارفَع درجتهُ في المهديِّين واخلفهُ في أهلهِ » .

فاللَّهُ تعالى هو خليفَةُ العَبد؛ لأنَّ العَبدَ يموتُ؛ فيحتاجُ إلى مَن يخلفهُ في أهلهِ .

قالوا : ولهذا أنكرَ الصدِّيق رضيَ اللَّهُ عنهُ على من قال لهُ : يا خَليفَةَ اللَّهِ .

قال : لستُ بخليفَةِ اللَّهِ، ولكنَّني خليفَةُ رسولِ اللَّهِ، وحسبي ذلك .

قالوا : وأمَّا قولهُ تعالى : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠]، فلا خلافَ أنَّ المرادَ به آدمُ وذريَّتهُ، وجمهورُ أهلِ التَّفسيرِ من السَّلفِ

---

(١) في « صحيح مسلم » برقم (٢١٧٣) من حديث النواس بن سمعان - رضي اللّه عنه .

(٢) برقم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر - رضي اللّه عنهما .

(٣) « صحيح مسلم » (٩٢٠) من حديث أم سلمة - رضي اللّه عنها .

والـخَلَفِ على أنَّهُ جعلَهُ خليفَةً عمَّن كانَ قبلَهُ في الأرضِ .

وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ وهوَ الَّذي جعَلكُم خلائفَ في الأرضِ ﴾ [فاطر : ٣٩]، فليسَ الـمرادُ به خلائِفَ عن اللَّهُ، وإنَّما الـمرادُ بِهِ أنَّهُ جعَلَكُم يـخلفُ بعضُكُم بَعضاً، فكلَّما هَلَكَ قرنٌ خلَفَهُ قَرنٌ إلى آخَرِ الدَّهرِ .

ثمَّ قيلَ : إنَّ هذا خطابٌ لأمَّةِ محـمَّدٍ ﷺ خاصَّةً أي : جعلكُم خلائفَ منَ الأمَـمِ الـماضيَةِ فهلكوا وورثتم أنتُم الأرضَ من بَعدهم .

ولا رَيبَ أنَّ هذا الـخطابَ للأُمَّةِ، والـمرادُ نوعُ الإنسانِ الذي جَعَلَ اللَّهُ أباهم خليفَةً عمَّن قبلهُ، وجعَلَ ذريَّتَهُ يـخلفُ بعضهم بعضاً إلى قيامِ السَّاعَةِ،ولـهذا جَعَلَ هذا آيَةً مَن آياتهِ كقولـهِ تعالى : ﴿ أمَّن يُجيبُ الـمضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوءَ ويـجعلكُم خلفاءَ الأرضِ ﴾ [النحل : ٦٢] .

وأمَّا قولُ موسى لقومه : ﴿ ويَستَخلفكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، فليسَ ذلكَ استخلافاً عنهُ، وإنَّـما هو استخلافٌ عن فرعونَ وقومهِ أهلكهم وجعَلَ قومَ موسى خلفاءَ من بَعدهم .

وكذا قولُ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ مستخلفكُم في الأرضِ »(١).

أي : مِن الأمَـمِ التي تهلكُ وتكونونَ أنتُم خلفاءَ من بعدهم .

قالوا : وأمَّا قولُ الرَّاعي، فقولُ شاعرٍ قالَ قَصيدَةً في غَيبَةِ الصدِّيقِ لا يُدرى أبلَغَت أبا بكرٍ أم لا ولو بلَغتهُ فلا يعلمُ أنَّه أقرَّهُ على هذه اللفظَةِ أم لا .(٢)

---

(١) مضى تخريجه (ص ٢٥١) .

(٢) بل نعلم إنكاره لذلك، فقد نقل المصنّف إنكاره على من قال له ذلك، كما سيأتي (ص ٢٦٨) .

قلتُ : إن أُريدَ بالإضافةِ إلى اللَّهِ أنَّهُ خليفَةٌ عنهُ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفَةِ المانعَةِ منها، وإن أريدَ بالإضافةِ أنَّ اللَّهَ استخلفهُ عن غَيرهِ ممَّن كانَ قبلهُ فهذا لا يمتنعُ فيه الإضافةُ، وحقيقتُها خليفَةُ اللَّهِ الذي جعلهُ اللَّهُ خلفاً عن غيرهِ، وبهذا يخرجُ الجوابُ عن قولِ أميرِ المؤمنين : « أُولئكَ خلفاءُ اللَّهِ في أرضهِ » .

فإن قيلَ : هذا لا مدح فيهِ؛ لأنَّ هذا الاستخلافَ عامٌّ في الأُمَّةِ؛ وخلافَةُ اللَّهِ التي ذكرها أميرُ المؤمنين خاصَّةٌ بخواصِّ الخَلقِ .

فالجوابُ : أنَّ الاختصاصَ المذكورَ أفادَ اختصاصَ الإضافَةِ، فالإضافَة هنا للتَّشريفِ والتَّخصيصِ كما يضافُ إليهِ عبادُهُ؛ كقوله تعالى : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢]، ﴿ وعبادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يمشونَ على الأرضِ هَوناً ﴾ [الفرقان : ٦٣]، ونظائرهما .

ومعلومٌ أنَّ كلَّ الخَلقِ عبادٌ لهُ فخلفاءُ الأرضِ كالعبادِ في قولهِ : ﴿ واللَّهُ بَصيرٌ بالعبادِ ﴾ [آل عمران : ١٥ ، ٢٠]، ﴿ وما اللَّهُ يريدُ ظُلماً للعبادِ ﴾ [غافر : ٣١] .

وخلفاءُ اللَّهِ في قولهِ :﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ [الإسراء : ٦٥]، ونظائرهُ .

وحقيقَةُ اللفظَة أنَّ الخليفَةَ هو الذي يخلفُ الذَّاهبَ أي : يجيءُ بعدَهُ .

وقوله : « ودعاتهُ إلى دينهِ » .

الدّعاةُ جمعُ داعٍ كقاضٍ وقضاةٍ ورامٍ ورماةٍ وإضافتهم إلى اللَّهِ للاختصاصِ أي : الدُّعاةُ المخصوصونَ به الذينَ يَدعونَ إلى دينهِ وعبادتهِ ومعرفتهِ ومحبَّتهِ، وهؤلاءِ هم خواصُّ خَلقِ اللَّهِ وأفضلهم عندَ اللَّهِ منزلَةً وأعلاهُم قَدراً .

يدلُّ على ذلكَ :

الثامن والثمانون : وهو قولهُ تعالى : ﴿ ومَن أحسَنُ قَولاً ممَّن دعا إلى اللَّهِ وعَمِلَ صالحاً وقالَ إنَّني منَ المُسلمينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

فمقامُ الدَّعوَةِ إلى اللَّهِ أفضلُ مقاماتِ العَبدَ، قال تعالى : ﴿ وأنَّهُ لمَّا قامَ عَبدُ اللَّهِ يَدعوهُ كادوا يكونونَ عليهِ لِبَداً ﴾ [الجن : ١٩]، وقال تعالى : ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والمَوعظَةِ الحَسَنَةِ وجادلهم بالتي هيَ أحسنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

جَعَلَ سبحانهُ مراتبَ الدَّعوَةِ بحَسبِ مراتبِ الخَلقِ فالمُستجيبُ القابلُ الذكيُّ الذي لا يعاندُ الحقَّ ولا يأباهُ يدعى بطريقِ الحكمَةِ، والقابلُ الذي عندَهُ نوعُ غفلَةٍ وتأخُّرٍ يدعى بالمَوعظَةِ الحسَنَةِ وهي الأمرُ والنَّهيُ المقرونُ بالرَّغبَةِ والرَّهبَةِ، والمُعاندُ الجاحدُ يجادلُ بالتي هيَ أحسنُ .

هذا هو الصَّحيحُ في معنى هذه الآيَةُ لا ما يَزعُمُ أسيرُ منطقِ اليونانِ : أنَّ الحكمَةَ قياسُ البُرهانِ، وهي دَعوَةُ الخواصِّ، والموعظَةَ ألحسَنَةَ قياسُ الخَطابَةِ، وهي دَعوَةُ العوامِّ، والمجادلَةَ بالتي هي أحسَنُ القياسُ الجدليُّ وهو ردُّ شغَبِ المشاغبِ بقياسٍ جَدليٍّ مسلم المقدِّماتِ .

وهذا باطلٌ وهو مبنيٌّ على أصولِ الفَلسَفَةِ، وهو منافٍ لأصولِ المسلمينَ وقواعدِ الدِّينِ من وجوهٍ كثيرةٍ، ليس هذا موضع ذكرها .

وإذا كانَت الدَّعوةُ إلى اللَّهِ أشرَفَ مقاماتِ العَبدِ وأجلَّها وأفضَلها، فهي لا تحصُلُ إلّا بالعلمِ الذي يَدعو به وإليهِ بل لابدَّ في كمالِ الدَّعوَةِ من البلوغِ في العلمِ إلى حدٍّ يَصلُ إليهِ السَّعيُ، ويكفي هذا في شرَفِ العلمِ أنَّ صاحبهُ

يحوزُ به هذا المقامَ، واللَّهُ يؤتي فَضلهُ من يشاء .

التاسع والثمانون : أنَّهُ لو لم يكُن من فوائدِ العلمِ إلّا أنَّهُ يثمرُ اليَقينَ الذي هو أعظمُ حياةِ القَلبِ، وبه طمأنينتُهُ وقوَّتُهُ ونشاطُهُ وسائرُ لوازمِ الحياةِ، ولهذا مدَحَ اللَّهُ سبحانهُ أهلَهُ في كتابهِ، وأثنى عليهم بقوله : ﴿ وبالآخِرَةِ هم يوقنون ﴾ [البقرة : ٤] .

وذمَّ من لا يَقينَ عندهُ فقال : ﴿ إنَّ النَّاسَ كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ [النمل : ٨٢] .

وأنَّ اللَّهَ بعدلهِ وقسطهِ جَعَلَ الرُّوحَ والرَّاحَةَ والفَرَحَ في الرِّضا واليَقينِ، وجَعَلَ الهمَّ والحزَن في الشكِّ والسَّخطِ، فإذا باشرَ القلبُ اليَقينَ امتلأَ نوراً وانتَفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ، وعوفي من أمراضهِ القاتلَةِ، وامتلأَ شكراً للَّهِ وذكراً له ومَحبَّةً وخوفاً، فحيَّ عن بيِّنَةٍ، واليَقينُ والمحبَّةُ هما رُكنا الإيمانِ، وعليهما يَنبني، وبهما قوامُهُ وهما يمدَّانِ سائرَ الأعمالِ القلبيَّةِ والبَدنيَّةِ، وعنهما تَصدرُ، وبضعفهما يكونُ ضَعفُ الأعمالِ، وبقوَّتهما قوَّتها، وجميعُ منازلِ السَّائرينَ ومقاماتُ العارفينَ إنَّما تفتحُ بهما، وهما يثمرانِ كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهدى مستقيم .

فاليَقينُ أفضَلُ مواهبِ الرَّبّ لعبدهِ، ولا تثبُتُ قَدمُ الرِّضا إلّا على درجَةِ اليَقينِ .

قال تعالى :﴿ ما أصابَ من مُصيبَةٍ إلّا بإذنِ اللَّهِ ومَن يؤمنُ باللَّهِ يَهدِ قَلبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] .

التسعون : عن النَّبي ﷺ قال : « طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم »[1].

فإنَّ الإيمان فرض على كل واحد، وهو ماهية مركبة من علم وعمل، فلا يتصور وجود الإيمان إلّا بالعلم والعمل .

ثمَّ شرائع الإسلام واجبةٌ على كل مسلم، ولا يمكن أداؤها إلّا بعد معرفتِها والعلم بها، واللَّه تعالى أخرج عباده من بطون أمَّهاتهم لا يعلمون شيئاً، فطلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم، وهل تمكن عبادةُ اللَّه التي هي حقه على العباد كلهم إلّا بالعلم ؟ وهل ينال العلم إلّا بطلبه ؟ ثمَّ إنَّ العلمَ المفروض تعلمه ضربان :

ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله، وهو أنواع :

○ **الأوَّل** : علمُ أصولِ الإيمان الخمسة الإيمان باللَّه وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر، فإنَّ من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان، ولا يستحق اسمَ المؤمن .

قال اللَّه تعالى : ﴿ ولكن البرَّ من آمن باللَّه واليوم الآخر والملائكة والنبيين ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقال : ﴿ ومن يكفر باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾ [النساء : ١٣٦] .

---

(١) ضعَّف سنده المصنِّف في الأصل، وصحح معناه .

قلت : لكنَّه عندنا حسن بشواهده كما بيَّنه شيخنا حفظه اللَّه في « تخريج أحاديث مشكلة الفقر » (٨٦) .

ولمَّا سأل جبريلُ رسولَ اللَّه ﷺ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » .

قال : « صدقت » .[1]

فالإيمانُ بهذه الأصولِ فرعُ معرفَتِها والعلمُ بها .

○ **الثَّاني** : علمُ شرائعِ الإسلامِ واللازمِ منها علم ما يخصُّ العَبد من فعلها كعلمِ الوضوء والصَّلاة والصِّيامِ والحجِّ والزَّكاةِ وتوابِعها وشروطِها ومبطلاتها .

○ **الثَّالث** : علمُ المحرَّماتِ الخمسَة التي اتَّفَقت عليها الرُّسل والشرائعُ والكتبُ الإلهيَّة، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قُل إنَّما حرَّمَ رَبِّي الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإثمَ والبَغيَ بغَيرِ الحقِّ وأن تُشركوا باللَّهِ ما لم يُنزِّل به سلطاناً وأن تَقولوا على اللَّهِ مالا تَعلمونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

فهذه محرَّمات على كلِّ واحدٍ في كلِّ حالٍ على لسانِ كلِّ رسولٍ لا تُباحُ قَطُّ، ولهذا أتى فيها بإنَّما المُفيدَة للحصر مطلقاً وغيرها محرَّمٌ في وقتٍ مباحٍ في غَيرهِ كالميتَةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزير ونحوهِ، فهذه ليسَت محرَّمَةً على الإطلاقِ والدَّوامِ، فلم تَدخُل تحتَ التَّحريمِ المحصورِ المطلَق .

○ **الرَّابع** : علمُ أحكامِ المعاشرَةِ والمُعامَلَةِ التي تحصُل بينهُ وبينَ

---

(٢) جزء من الحديث المشهور بحديث جبريل، أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه .

النَّاسِ خصوصاً وعموماً، والواجبُ في هذا النَّوع يـختلفُ باختلاف أحوالِ النَّاسِ ومنازلـهم، فليسَ الواجبُ على الإمامِ مع رعيَّتِهِ كالواجبِ على الرَّجلِ مع أهلهِ وجيرتهِ، وليسَ الواجبُ على من نَصَّبَ نفسَهُ لأنواعِ التِّجاراتِ من تعلَّمَ أحكامِ البياعاتِ كالواجبِ على من لا يبيع ولا يَشتري إلّا ما تَدعو الـحاجَةُ إليهِ .

وتَفصيلُ هذه الـجملَةِ لا ينضبطُ بـحدّ لاختلافِ النَّاسِ في أسبابِ العلـمِ الواجبِ، وذلكَ يرجعُ إلى ثلاثَةِ أصولٍ : اعتقادٍ، وفعلٍ، وتركٍ، فالواجبُ في الاعتقاد مطابقتُهُ للـحقِّ في نفسهِ، والواجبُ في العلـم معرفتُهُ وموافَقَةُ حركاتِ العَبدِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ الاختياريَّةِ للشرعِ أمراً وإباحَةً، والواجبُ في التَّركِ معرفَةُ موافقةِ الكفِّ والسُّكونِ لـمرضاةِ اللَّهِ وأنَّ الـمطلوبَ منه إبقاءُ هذا الفعل على عدمهِ الـمستصحبِ فلا يتحرَّكُ في طلبهِ أو كفِّ النَّفسِ عن فعلهِ على الطَّريقتين .

وقَد دَخَلَ في هذه الجملةِ علـمُ حركاتِ القلوبِ والأبدانِ .

وأمّا فرضُ الكفايَةُ :

فلا أعلـمُ فيهِ ضابطاً صحيحاً، فإن كلَّ أحدٍ يدخلُ في ذلكَ ما يظنُّهُ فَرضاً، فيدخل بعضُ النَّاسِ في ذلكَ علـمَ الطبِّ وعلـمَ الحسابِ وعلـمَ الـهندَسَةِ والـمساحَةِ، وبعضهم يَزيدُ على ذلكَ علـمَ أصولِ الصِّناعَةِ كالفلاحَةِ والحياكَةِ والـحدادَةِ والـخياطَةِ ونـحوها، وبعضهم يَزيدُ على ذلكَ علـمَ الـمنطقِ وربَّـما جعلهُ فَرضَ عَينٍ، وبناهُ على عَدَمِ صحَّةِ إيمانِ الـمقلِّد .

وكلُّ هذا هَوَسٌ وَخَبَطٌ فلا فَرض إلّا ما فَرَضَه اللَّهُ ورسولُهُ فياسبحان اللَّهِ هل فَرَضَ اللَّهُ على كلِّ مسلمٍ أن يكونَ طبيباً حجَّاماً حاسباً مهندساً أو حائكاً أو فلَّاحاً أو نجّاراً أو خيَّاطاً، فإنَّ فَرضَ الكفايَةِ كفَرضِ العَينِ في تعلّقهِ بعمومِ المكلَّفينِ، وإنَّما يخالفهُ في سقوطهِ بفعلِ البَعضِ، ثمَّ على قولِ هذا القائلِ يكونُ اللَّهُ قَد فَرَضَ على كلِّ أحَدٍ جملَةَ هذه الصَّنائع والعلومِ، فإنَّهُ ليسَ واحدٌ منها فَرضاً على مُعينٍّ والآخَرُ على معين آخَرَ بل عمومُ فرضيَّتها مشتركةٌ بينَ العلومِ، فيجبُ على كلِّ أحَدٍ أن يكونَ حاسباً حائكاً خيَّاطاً نجّاراً فلَّاحاً طبيباً مُهندساً، فإن قالَ المجموعُ فرضٌ على المجموعِ، لم يكُن قولُكَ إنَّ كلَّ واحدٍ منها فَرضُ كفايَةٍ صَحيحاً لأنَّ فرضَ الكفايَةَ يجبُ على العمومِ .

وأمَّا المنطقُ فلو كانَ علماً صحيحاً كانَ غايتُهُ أن يكونَ كالمساحَةِ والهَندَسَةِ ونحوها فكيفَ وباطلُهِ أضعافُ حقِّهِ وفسادُهُ وتناقضُ أصولهِ واختلافُ مبانيهِ توجبُ مراعاتها للذِّهنُ أن يزيَغَ في فكرهِ، ولا يؤمنُ بهذا إلّا من قَد عَرفهُ وعرَفَ فسادَهُ وتناقُضَه ومناقضَةَ كثيرٍ منه للعَقلِ الصَّريحِ .

ورأيتُ آخرَ من تجرَّدَ للرَّدِّ عليهم شيخُ الإسلامِ قدَّسَ اللَّهُ روحهِ فإنَّهُ أتى في كتابيهِ الكبيرِ والصَّغيرِ بالعَجَبِ العجابِ وكشفِ أسرارهم وهتَكَ أستارهم فقلتُ في ذلكَ :

واعَجَباً لمَنطِقِ اليونانِ
كَم فيهِ من إفكٍ ومِن بُهتانِ
مُخبِّطٌ لجيدِ الأذهانِ
ومُفسدٌ لفطرَةِ الإنسانِ

مضطربُ الأصولِ والمباني

على شفا هارٍ بناهُ الباني

أحوَجُ ما كانَ إليهِ العاني

يخونُهُ في السرِّ والإعلانِ

يمشي به اللسانُ في المَيدانِ

مشيَ مُقيَّدٍ على صَفوانِ

متَّصلُ العثارِ والتَّواني

كأنَّهُ السَّرابُ بالقيعانِ

بدا لعَينِ الظَّمىء الحَيرانِ

فأمَّهُ بالظَّنِّ والحسبانِ

يَرجو شفاءَ غلَّةَ الظَّمآنِ

فلم يَجِد ثمَّ سوى الحرمانِ

فعادَ بالخَيبَةِ والخسرانِ

يقرعُ سنَّ نادمٍ حَيرانِ

قَد ضاعَ منهُ العمرُ في الأماني

وعايَنَ الخفَّةَ في الميزانِ

وما كانَ من هَوَسٍ بهذهِ المنزلَةِ فهو بأن يكونَ جهلاً أولى منهُ بأن يكونَ علماً تعلُّمهُ فَرض كفايَةٍ أو فَرض عَينٍ .

وهذا الشافعيُّ وأحمدُ وسائرُ أئمَّة الإسلامَ وتصانيفهم، وسائرُ أئمَّةِ العَربيَّة وتصانيفهم، وأئمَّة التَّفسيرِ وتصانيفهم لمَن نَظَرَ فيها هَل راعوا فيها حدودَ

المنطقَ وأوضاعهَ ؟ وهل صحَّ لهم علمهم بدونهِ أم لا ؟ بل هم كانوا أجلَّ قدراً وأعظَمَ عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيانِ المنطقيِّين .

وما دَخَلَ المنطقُ على علمٍ إلّا أفسَدَهُ وغيَّرَ أوضاعَهُ وشوَّشَ قواعدَهُ .

ومنَ النَّاسِ من يقولُ : إنَّ علومَ العَربيَّةِ من التَّصريفِ والنَّحوِ واللغَةِ والمعاني والبيانِ ونحوها تعلُّمها فرضُ كفايَةٍ لتوقّفِ فَهمِ كلامِ اللَّهِ ورسولهِ عليها .

ومنَ النَّاسِ مَن يَقولُ : تعلُّمُ أصولِ الفقهِ فرضُ كفايَةٍ، لأنَّهُ العلمُ الذي يُعرَفُ به الدَّليلُ ومرتبتهُ، وكيفيَّة الاستدلال .

وهذه الأقوالُ وإن كانَت أقربَ إلى الصَّواب من القَولِ الأوَّلِ، فليسَ وجوبها عامَّاً على كلِّ أحَدٍ، ولا في كلِّ وقتٍ، وإنَّما يجبُ وجوبَ الوسائلِ في بَعضِ الأزمانِ وعلى بَعضِ الأشخاصِ بخلافِ الفَرضِ الذي يعمُّ وجوبُهُ كلَّ أحدٍ وهو علمُ الإيمانِ وشرائعِ الإسلامِ فهذا هو الواجبُ، وأمَّا ما عَداهُ فإن توقَّفَت معرفتُهُ عليهِ فهو من بابِ ما لا يتمُّ الواجبُ إلّا بهِ، ويكونُ الواجبُ منهُ القَدْرَ الموصلَ إليهِ دونَ المسائلِ التي هي فضلَةٌ لا يفتقرُ معرفَةُ الخطابِ وفهمهُ إليها، فلا يطلقُ القولُ بأنَّ علمَ العربيَّة واجبٌ على الإطلاقِ إذ الكثيرُ منهُ ومن مسائلهِ وبحوثهِ لا يتوقَّفُ فهم كلامِ اللَّهِ ورسولهِ عليها، وكذلكَ أصولُ الفقهِ القَدرُ الذي يتوقَّفُ فهمُ الخطابِ عليهِ منه يجبُ معرفتُهُ دونَ المسائلِ المقرَّرَةِ والأبحاثِ التي هي فضلَةٌ فكيفَ يقالُ : إنَّ تعلُّمَها واجبٌ ؟

وبالجملَةِ فالمطلوبُ الواجبُ من العَبدِ من العلومِ والأعمالِ إذا توقَّفَ على شيءٍ منها كانَ ذلكَ الشيءُ واجباً وجوبَ الوسائلِ .

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ التَّوقُّفَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ والأزمانِ والألسنةِ والأذهانِ فليسَ لذلكَ حدٌّ مقدَّرٌ، واللَّهُ أعلم .

الحادي والتسعون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى خَلَقَ الخَلْقَ لعبادتهِ الجامعَةِ لمحبَّتهِ، وإيثارِ مرضاتهِ المستلزمَةِ لمعرفتهِ، ونَصَبَ للعبادِ علماً لا كمالَ لهم إلّا بهِ، وهو أن تكونَ حركاتُهم كلُّها موافقَةً على وفقِ مرضاتهِ ومحبَّتهِ، ولذلكَ أرسَلَ رسلَهُ، وأنزَلَ كتبَهُ، وشرَعَ شرائعَهُ، فكمالُ العَبدِ الذي لا كمالَ له إلّا بهِ أن تكونَ حركاتُهُ موافقةً لما يحبُّهُ اللَّهُ منهُ ويَرضاهُ له، ولهذا جَعَلَ اتِّباعَ رسولهِ دليلاً على محبَّتهِ، قال تعالى : ﴿ قُل إن كُنتُم تُحبُّونَ اللَّهَ فاتَّبعوني يُحبِبكُم اللَّهُ ويَغفِر لكُم ذنوبَكُم واللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١]، فالمُحبُّ الصَّادقُ يرى خيانَةً منه لمحبوبهِ أن يتحرَّكَ بحركَةٍ اختياريَّةٍ في غَيرِ مرضاتهِ، وإذا فَعَلَ فعلاً ممَّا أبيحَ له بموجبِ طبيعتهِ وشهوتهِ تابَ منه كما يتوبُ من الذَّنبِ، ولا يزالُ هذا الأمرُ يَقوى عندهُ حتى تنقلبَ مباحاتهُ كلُّها طاعاتٍ، فيحتسبُ نومَهُ وفطرَهُ وراحتَهُ كما يحتَسبُ قومتَهُ وصومَهُ واجتهادَهُ، وهو دائماً بينَ سرَّاءِ يشكُر اللَّهُ عليها، وضرَّاءِ يَصبرُ عليها، فهو سائرٌ إلى اللَّهِ دائماً في نومهِ ويقظتهِ .

فالمحبُّ الصَّادقُ إن نَطَقَ نطَقَ للَّهِ وباللَّهِ، وإن سكَتَ سَكَتَ للَّهِ، وإن تحرَّكَ فبأمرِ اللَّهِ، وإن سكنَ فسكونُهُ استعانَةٌ على مرضاتِ اللَّهِ، فهو للَّهِ وباللَّهِ ومعَ اللَّهِ، ومعلومٌ أنَّ صاحبَ هذا المقامِ أحوَجُ خَلقِ اللَّهِ إلى العلمِ، فإنَّهُ لا تَتميَّزُ له الحَرَكَةُ المحبوبَةُ للَّهِ من غيرها ولا السُّكونُ المحبوبُ له من غيرهِ إلّا بالعلمِ؛ فليسَت حاجتُهُ إلى العلمِ كحاجَةِ مَن طَلَبَ العلمَ لذاتهِ ولأنَّهُ في

نفسهِ صفَةُ كمالٍ بل حاجتهُ إليهِ كحاجتهُ إلى ما به قوامُ نَفسهِ وذاتِهِ، ولهذا اشتدَّ وصاةُ شيوخِ العارفينَ لمريديهم بالعلمِ وطلبِهِ، وأنَّهُ من لم يَطلب العلمَ لم يفلح حتى كانوا يعدُّونَ من لا علمَ له من السَّفَلَة .

الثاني والتسعون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ العلماءَ وكلاءَ وأُمناءَ على دينهِ ووَحيهِ، وارتضاهم لحفظهِ والقيامِ به والذَّبِّ عنه، وناهيكَ بها منزَلَةً شريفَةً ومنقبَةً عظيمَةً، قال تعالى : ﴿ ذلكَ هُدى اللَّهِ يَهدي به مَن يشاءُ من عبادهِ ولو أشرَكوا لحبطَ عنهم ما كانوا يعملون * أُولئكَ الذينَ آتيناهم الكتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ فَقَد وكَّلنا لها قوماً ليسوا بها بكافرينَ ﴾ [الأنعام : ٨٨ - ٨٩] .

تحتَ هذه الآيَةِ إشارَةٌ وبشارَةٌ بحفظها، وأنَّهُ لا ضَيعَةَ عليها، وأنَّ هؤلاءِ وإن ضيَّعوها ولم يقبلوها فإنَّ لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويَرعونَها ويذبُّونَ عنها، فَكُفْرُ هؤلاءِ بها لا يُضَيِّعها ولا يذهبها ولا يضرُّها شيئاً، فإنَّ لها أهلاً ومستحقّاً سواهم، فتأمَّل شرفَ هذا المعنى وجلالتهِ وما تضمَّنهُ من تحريضِ عبادهِ المؤمنينَ على المبادَرَة إليها، والمسارَعةِ إلى قبولها، وما تحتهُ من تَنبيههم على محبَّتهِ لهم وإيثارهِ إيَّاهُم بهذه النِّعمَةِ على أعدائهِ الكافرينَ، وما تحتَهُ من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاةِ والاحتفالِ بهم، وإنَّكُم وإن تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكَّلونَ بها سواكُم كثيرٌ كما قال تعالى : ﴿ قُل آمِنوا بهِ أو لا تؤمنوا إنَّ الَّذينَ أوتوا العلمَ من قبلهِ إذا يُتلى عليهم يخرُّونَ للأذقانِ سجَّداً * ويقولونَ سبحانَ ربِّنا إن كانَ وعدُ ربِّنا لمَفعولاً ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٨]، وإذا كانَ للمَلِكِ عبيدٌ قَد عَصَوهُ وخالفوا أمرَهُ ولم يلتفتوا

إلى عهدِهِ، ولـهُ عَبيدٌ آخَرونَ سامعونَ لـهُ مطيعونَ قابلونَ مستجيبونَ لأمرِهِ، فنَظَرَ إليهم وقال : إن يَكفُر هؤلاء نِعَمي، ويَعصوا أمري، ويضيِّعوا عَهدي، فإنَّ لي عَبيداً سواهم وهم أنتُم تُطيعونَ أمري، وتحفَظونَ عَهدي، وتؤدُّونَ حقِّي، فإنَّ عَبيدَهُ المطيعينَ يجدونَ في أنفسهم منَ الفَرَحِ والسُّرورِ والنَّشاطِ وقوَّةِ العَزيمَةِ ما يكونُ موجباً لهم المزيد من القيامِ بحقِّ العبوديَّةِ، والمزيد من كرامَةِ سيِّدهم ومالكهم، وهذا أمرٌ يَشهَدُ بِهِ الحسُّ والعيان .

وأمَّا توكيلُهم بها فهو يتضمَّنُ توفيقَهم للإيمانِ بها، والقيامِ بحقوقِها ومراعاتِها، والذَّبِّ عنها والنَّصيحَة لها كما يوكِّلُ الرَّجلُ غيرَهُ بالشيءِ، ليقومَ بِهِ، ويتعهَّدَهُ، ويحافظَ عليهِ، و ﴿ بها ﴾ الأولى متعلِّقَةٌ بـ ﴿ وكَّلنا ﴾، و ﴿ بها ﴾ الثَّانيَة متعلِّقَةٌ بـ ﴿ بكافرينَ ﴾، والباءُ في ﴿ بكافرينَ ﴾ لتأكيدِ النَّفي .

فإن قلتَ : فَهل يصحُّ أن يقالَ لأحدِ هؤلاءِ الموكَّلين أنَّهُ وكيلُ اللَّهِ بهذا المعنى كما يقالُ وليُّ اللَّهِ ؟

قلتُ : لا يَلزمُ من إطلاقِ فعلِ التوكُّلِ المقيَّدِ بأمرٍ ما أن يُصاغَ منهُ اسمُ فاعلٍ مطلَقٍ كما أنَّهُ لا يلزمُ من إطلاقِ فعلِ الاستخلافِ المقيَّدِ أن يقالَ خليفَةُ اللَّهِ لقوله : ﴿ ويَستَخلِفَكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، وقوله : ﴿ وعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وعَملوا الصَّالحاتِ ليَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ كما استَخلَفَ الَّذينَ من قَبلهم ﴾ [النور : ٥٥]، فلا يوجبُ هذا الاستخلافُ أن يقالَ لكلٍّ منهم : إنَّهُ خليفَةُ اللَّهِ، لأنَّهُ استخلافٌ مقيَّدٌ، ولما قيلَ للصدِّيقِ : يا خَليفَةَ اللَّهِ، قال : لستُ بخليفَةِ اللَّهِ ولكنِّي خَليفَةُ رسولِ اللَّهِ وحبسي ذلكَ، ولكن يسوغ أن يقال : هو وكيلٌ بذلكَ كما قال تعالى : ﴿ فَقَد وكَّلنا بها

قوماً ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

والمقصودُ : أنَّ هذا التَّوكيلَ خاصٌّ بمَن قامَ بها علماً وعملاً وجهاداً لأعدائها، وذبَّاً عنها، ونفياً لتحريفِ الغالينَ، وانتحالِ المبطلينَ، وتأويلِ الجاهلينَ .

وأيضاً فهو توكيلُ رَحمَةٍ وإحسانٍ وتوفيقٍ واختصاصٍ لا توكيلَ حاجَةٍ كما يوكِّلُ الرَّجلُ من يتصرَّفُ عنه في غَيبتِهِ لحاجَةٍ إليهِ .

ولهذا قال بعضُ السَّلفِ ﴿ فَقَد وكَّلنا بها قوماً ﴾ [الأنعام : ٨٩] : يقولُ : رزقناها قوماً، فلهذا لا يقالُ لمَن رزقها ورحمَ بها أنَّهُ وكيلٌ للَّهِ، وهذا بخلافِ اشتقاقِ وليِّ اللَّهِ من الموالاةِ، فإنَّها المحبَّةُ والقربُ، فكما يقالُ : عبدُاللَّه وحبيبُهُ يقال : وليُّهُ، واللَّهُ تعالى يوالي عبدَهُ إحساناً إليهِ، وجبراً له ورحمَةً بخلافِ المخلوقِ، فإنَّهُ يوالي المخلوقَ لتعزُّزِهِ به، وتكثُّرِهِ بموالاتهِ لذلِّ العَبدِ وحاجتهِ، وأمَّا العَزيزُ الغنيُّ فلا يوالي أحَداً من ذلٍّ ولا حاجَةٍ، قال تعالى : ﴿ وقُل الحَمدُ للَّهِ الَّذي لَم يَتَّخذَ ولَداً ولَم يَكُن لهُ شريكٌ في المُلكِ ولَم يكُن لهُ وليٌّ منَ الذُّلِّ وكبِّرهُ تَكبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١]، فلم يَنفِ الوليَّ نفياً مطلقاً بل نَفى أن يكونَ لهُ وليٌّ من الذُّلِّ، وأثبَتَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ لهُ أولياءَ بقوله : ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللَّهِ لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [يونس : ٦٢]، وقوله : ﴿ اللَّهُ وليُّ الَّذينَ آمَنوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧]، فهذا موالاةُ رحمَةٍ وإحسانٍ وجبرٍ والموالاةُ المنفيَّةُ موالاةُ حاجَةٍ وذلٍّ، يوضِّحُ هذا :

الثالث والتسعون : وهو ما رُويَ عن النَّبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعدِّدَةٍ أنَّهُ قالَ : « يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلفٍ عدولهُ ينفونَ عنه تحريفَ الغالينَ

وانتحالِ المبطلينَ وتأويلَ الجاهلينَ » .[1]

فهذا الحملُ المشارُ إليهِ في هذا الحديثِ هو التَّوكُّلُ المذكورُ في الآيةِ، فأخبرَ ﷺ أنَّ العلمَ الذي جاءَ به يحملُهُ عدولُ أمَّتهِ من كلِّ خَلَفٍ حتى لا يَضيعَ ويَذهَبَ، وهذا يتضمَّنُ تَعديلَهُ ﷺ لحمَلَةِ العلمِ الذي بُعثَ به، وهو المشارُ إليهِ في قولهِ : « هذا العلمُ »، فكلٌّ من حَمَلَ العلمَ المشارَ إليهِ لابدَّ وأن يكونَ عَدلاً، ولهذا اشتَهَرَ عند الأُمَّةِ عدالَةُ نَقَلَتهِ وحملتهِ اشتهاراً لا يقبلُ شكَّاً ولا امتراءاً، ولا ريبَ أنَّ مَن عدَّلهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ لا يسمعُ فيه جَرحٌ، فالأئمَّةُ الذينَ اشتَهروا عند الأمَّةِ بنقلِ العلمِ النَّبويِّ وميراثهِ كلُّهُم عدولٌ بتَعديلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ولهذا لا يُقبلُ قَدحُ بَعضهم في بَعضٍ، وهذا بخلافِ مَن اشتَهَرَ عندَ الأُمَّةِ جَرحُهُ والقَدحُ فيهِ كأئمَّةِ البدع ومَن جَرى مجراهم من المتَّهمين في الدِّينِ، فإنَّهُم ليسوا عِندَ الأُمَّةِ من حَمَلَةِ العلمِ، فما حَمَلَ علمَ رسولِ اللَّهِ ﷺ إلّا عدلٌ، ولكن قَد يغلطُ في مسمَّى العدالَةِ فيظنُّ أنَّ المرادَ بالعَدلِ من لا ذَنبَ له، وليسَ كذلك بل هو عدلٌ مؤتَمَنٌ على الدِّينِ وإن كانَ منهُ ما يتوبُ إلى اللَّهِ منهُ، فإنَّ هذا لا ينافي العَدالَةَ كما لا ينافي الإيمانَ والولايَة .

الرابع والتسعون : إنَّ بقاءَ الدِّينِ والدُّنيا في بقاءِ العلمِ وبذهابِ العلمِ تَذهبُ الدُّنيا والدِّين، فقوامُ الدِّينِ والدُّنيا إنَّما هو بالعلمِ .

قال الأوزاعي : قال ابنُ شهابٍ الزُّهريّ : الاعتصامُ بالسُّنَّـةِ نجاةٌ، والعلمُ

---

(١) مضى تخريجه (ص ٨١) .

يُقبضُ قبضاً سريعاً، فنعشُ العلـم ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا، وذهابُ العلـمِ ذهابُ ذلكَ كلِّهِ .

الخامس والتسعون : أنَّ العلـمَ يَرفعُ صاحبهُ في الدُّنيا والآخرَةِ مالا يَرفعُهُ الملكُ ولا المالُ ولا غيرُهما، فالعلـمُ يَزيدُ الشريفَ شرفاً، ويَرفعُ العبدَ المملوكَ حتى يجلسهُ مجالسَ الملوكَ، كما ثبتَ في « الصَّحيح »[1] من حديث الزُّهري عن أبي الطُّفَيل أنَّ نافعَ بن عبدالحارث أتى عمرَ بن الخطَّاب بعسفان وكان عمر استعملهُ على أهلِ مكَّةَ فقال له عمر : من استخلفتَ على أهلِ الوادي ؟ قال : استخلفتُ عليهم ابن أبزى، فقال مَن ابنُ أبزى ؟ فقال : رجلٌ من موالينا، فقال عمر : استخلفتَ عليهم مولى ؟! فقال : إنَّهُ قارىءٌ لكتابِ اللَّهِ عالـمٌ بالفرائضِ، فقال عمر : أمَّا أنَّ نبيَّكُم ﷺ قَد قال : « إنَّ اللَّهَ يَرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويَضعُ به آخَرينَ » .

السادس والتسعون : إنَّ النُّفوسَ الجاهلَةَ التي لا علـمَ عندَها قَد أُلبست ثوبَ الذلِّ والازراء عليها والتنقُّص بها أسرع منه إلى غيرها، وهذا أمرٌ معلومٌ عندَ الخاصِّ والعامِّ .

وهذا لأنَّ الإنسانَ إنَّما تميَّزُ عن سائرِ الحيواناتِ بما خُصَّ بهِ من العلمِ والعَقلِ والفَهمِ، فإذا عُدمَ ذلكَ لم يَبقَ فيهِ إلّا القدرُ المشتركُ بينهُ وبينَ سائرِ الحيوانات وهي الحيوانيَّةُ البَهيميَّةُ، ومثلُ هذا لا يستَحي منهُ النَّاسُ، ولا يمنعونَ بحضرتِهِ وشهودِهِ ممَّا يُستحيا منهُ من أولي الفَضلِ والعلـمِ .

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٧) .

السابع والتسعون : أنَّ كلَّ صاحبِ بضاعَةٍ سوى العلم إذا عَلِمَ أنَّ غَيرَ بضاعتِهِ خيرٌ منها زَهَدَ في بضاعتِهِ، ورَغِبَ في الأُخرى، ووَدَّ أنَّها له عوضُ بضاعتِهِ إلّا صاحب بضاعَةِ العلمِ، فإنَّهُ ليسَ يحبُّ أنَّ له بحظِّهِ منها حظّ أصلاً .

فالعلمُ غنىً بلا مالٍ، وعزٌّ بلا عَشيرَةٍ، وسلطانٌ بلا رجالٍ، وفي ذلكَ قيل :

العلمُ كَنزٌ وذُخرٌ لا نَفادَ لهُ
نِعْمَ القَرينُ إذا ما صاحَبَ صُحِبا
قَد يَجمَعُ المرءُ مالاً ثمَّ يُحرَمُهُ
عمَّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَرَبا
وجامعُ العِلمِ مغبوطٌ بهِ أبداً
ولا يُحاذرُ منهُ الفوتَ والسَّلبا
يا جامِعَ العِلمِ نِعمَ الذُّخرِ تجمعُهُ
لا تَعدِلَنَّ بهِ دُرّاً ولا ذَهباً

الثامن والتسعون : إنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ العلمَ للقلوبِ كالمَطَرِ للأرضِ، فكما أنَّهُ لا حياةَ للأرضِ إلّا بالمَطَرِ، فكذلكَ لا حياةَ للقَلبِ إلّا بالعلمِ .

ولهذا فإنَّ الأرضَ إنَّما تحتاجُ إلى المَطَرِ في بَعضِ الأوقاتِ، فإذا تتابعَ عليها احتاجَت إلى انقطاعهِ، وأمَّا العلمُ فيُحتاجُ إليهِ بعَدَدِ الأنفاسِ ولا تزيدهُ كثرتهُ إلّا صلاحاً ونفعاً .

التاسع والتسعون : أنَّ كثيراً من الأخلاقِ التي لا تُحمَدُ في الشخصِ بل يُذمُّ عليها تُحمَدُ في طَلَبِ العلمِ كالمَلَقِ، وتَركِ الاستحياءِ، والذُّلِّ والتَّردُّد إلى أبوابِ العلماءِ ونحوها، وإنَّما حُمدَت هذه الأخلاقُ في طَلَبِ العلمِ، لأنَّها طريقٌ إلى تحصيلهِ فكانَت من كمالِ الرَّجلِ ومُفضية إلى كمالهِ .

وكذلكَ سؤالُ النَّاسِ هو عيبٌ ونَقصٌ في الرَّجلِ وذلَّةٌ تنافي المروءَةَ إلّا في العلمِ فإنَّهُ عَيْنُ كمالهِ ومروءَتهِ وعزِّه .

وللعلم ستُّ مراتب :

- **أوَّلُها** : حسنُ السُّؤال .
- **الثَّانيَةُ** : حُسنُ الإنصاتِ والاستماعِ .
- **الثَّالثَةُ** : حُسنُ الفَهمِ .
- **الرَّابعَةُ** : الحِفظُ .
- **الخامسَةُ** : التَّعليمُ .
- **السَّادسَةُ** : وهي ثمرتهُ وهي العملُ به، ومراعاةُ حدودهِ .

فمنَ النَّاسِ من يُحرَمُهُ لعَدَمِ حُسن سؤالهِ، إمَّا لأنَّهُ لا يسألُ بحالٍ أو يسألُ عن شيءٍ وغيرهُ أهمُّ إليهِ منهُ كمَن يسألُ عن فضولهِ التي لا يضرُّ جَهلهُ بها، وَيدَعُ مالا غنى لهُ عن معرفتهِ، وهذه حالُ كثيرٍ من الجهَّالِ المتعلِّمينَ .

ومنَ النَّاسِ من يُحرمُهُ لسوءِ إنصاتهِ، فيكونَ الكلامُ والمُماراتُ آثرَ عندهُ، وأحبَّ إليهِ من الإنصاتِ، وهذه آفَةٌ كامنةٌ في أكثَرِ النُّفوسِ الطَّالبَةِ للعلمِ، وهي

تمنعهُم علماً كثيراً ولو كانَ حَسَنَ الفهم .

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في ذلكَ لذِكرى لِمَن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧]، فتأمَّل ما تحتَ هذه الألفاظ من كنوزِ العلمِ، وكيفَ تفتحُ مراعاتها للعَبدِ أبوابَ العلمِ والهدى ؟ وكيفَ يَنغلقُ بابُ العلمِ عنهُ من إهمالها وعَدَمِ مراعاتها، فإنَّهُ سبحانهُ أمَرَ عبادهُ أن يتَدبَّروا آياتهِ المتلوَّةَ المسموعَةَ والمرئيَّةَ المشهودَةَ بما تكونُ تَذكرَةً لمَن كانَ لهُ قلبٌ، فإنَّ مَن عَدِمَ القَلب الواعي عن اللَّهِ لم ينتفع بكلِّ آيَةٍ تمرُّ عليهِ ولو مرَّت بهِ كلُّ آيَةٍ، ومرورُ الآياتِ عليهِ كطلوعِ الشمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ مرورها على مَن لا بَصَرَ لهُ، فإذا كانَ له قلبٌ كانَ بمنزلَةِ البَصيرِ إدا مَرَّت به المرئيَّات فإنَّهُ يراها، ولكن صاحبَ القَلبِ لا يَنتفعُ بقلبهِ إلّا بأمرَين :

* **أحدهما** : أن يحضرَهُ ويشهدَهُ لما يُلقى إليهِ، فإن كانَ غائباً عنهُ مسافراً في الأماني والشهواتِ والخيالاتِ لا يَنتفعُ به، فإذا أحضَرَهُ وأشهَدهُ لم يَنتفع إلّا بأن يلقي سمعَهُ ويصغي بكليَّتِهِ إلى ما يوعَظُ به ويرشدُ إليهِ .

وههنا ثلاثةُ أمور :

- **أحدُها** : سلامَةُ القَلبِ وصحَّتُهِ وقبولُهِ .
- **الثَّاني** : إحضارُهُ وجمعُهُ ومنعهُ منَ الشرودِ والتَّفرُّقِ .
- **الثَّالث** : إلقاءُ السَّمعِ وإصغاؤهُ والإقبالُ على الذِّكرِ .

فذكر اللَّه تعالى الأمورَ الثلاثَة في هذه الآية .

والمقصودُ : بيانُ حرمانِ العلمِ من هذه الوجوهِ الستَّة :

o **أحدها** : ترك السُّؤال .

o **الثَّاني** : سوء الإنصات وعَدَم إلقاءِ السَّمع .

o **الثَّالث** : سوء الفهم .

o **الرَّابع** : عَدَم الحفظ .

o **الخامس** : عَدَم نشرهِ وتعليمه؛ فإنَّ من خَزَنَ علمَهُ ولم ينشرهُ ولم يعلِّمهُ ابتلاهُ اللَّهُ بنسيانهِ وذهابهِ منهُ جزاءً من جنسِ عملهِ، وهذا امرٌ يَشهدُ به الحسُّ والوجود .

o **السَّادس** : عدمِ العملِ به فإنَّ العملَ بهِ يوجبُ تذكُّرهُ وتدبُّره ومراعاته والنَّظر فيهِ، فإذا أهمَلَ العمَلَ به نَسِيَهُ .

فالعملُ به من أعظم أسبابِ حفظهِ وثباتهِ، وتركُ العلمِ به إضاعةٌ لهُ فما استدرَّ العلمَ ولا استجلَبَ مثل العمل، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللَّهَ وآمنوا برسولهِ يؤتكُم كفلَينِ من رحمتهِ ويجعَل لكُم نوراً تمشونَ به ﴾ [الحديد : ٢٨]، وأمَّا قولهُ تعالى : ﴿ واتَّقوا اللَّهَ ويعلِّمكُم اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، فليسَ من هذا البابَ بل هما جملتان مستقلتان :

طلبيَّةٌ وهي الأمرُ بالتَّقوى .

وخبريَّةٌ وهي قوله تعالى : ﴿ ويُعلِّمكُم اللَّهُ ﴾ أي : ما تَتَّقونَ وليستَ جواباً للأمرِ بالتَّقوى ولو أريدَ بها الجزاءَ لأتى بها مجزومَةً مجرَّدَةً عن الواو فكانَ يقولُ : واتَّقوا اللَّهُ يعلِّمكُم، أو : إن تَتَّقوهُ يعلِّمكُم كما قال : ﴿ أن تَتَّقوا اللَّهَ يجعَل لكُم فرقاناً ﴾ [الأنفال : ٢٩]، فتدبَّرهُ .

المئة : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ نَفى التَّسويَةَ بينَ العالِم وغيرِهِ كما نَفى التَّسويَةَ بين الخبيثِ والطَّيِّبِ، وبينَ الأعمى والبَصيرِ، وبينَ النُّورِ والظُّلمَةِ، وبينَ الظِّلِّ والحرورِ، وبينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحاب النَّارِ، وبينَ الأبكمِ العاجزِ الذي لا يقدرُ على شيءٍ ومَن يأمرُ بالعَدلِ وهو على صراطٍ مُستقيمٍ، وبينَ المؤمنين والكفَّارِ، وبينَ الذينَ آمَنوا وعملوا الصَّالحاتِ والمفسدينَ في الأرضِ، وبينَ المتَّقين والفجَّار، فهذه عَشرَةُ مواضعَ في القرآنِ نَفى فيها التَّسويَةَ بين هؤلاءِ الأصنافِ، وهذا يدلُّ على أنَّ منزلَة العالِمِ من الجاهلِ كمنزلَةِ النُّورِ من الظُّلمَةِ، والظِّل من الحرور، والطَّيِّبِ من الخَبيثِ، ومنزلة كلِّ واحدٍ من هذه الأصنافِ مع مقابلِهِ، وهذا كافٍ في شَرفِ العلمِ وأهلِهِ بل إذا تأمَّلتَ هذه الأصناف كلَّها ووَجَدتَ نَفي التَّسويَةِ بينها راجعاً إلى العلمِ وموجبِهِ، فبه وَقَعَ التَّفضيلُ وانتفَت المساواةُ .

الحادي والمئة : أنَّ سليمانَ لما توعَّدَ الهدهدَ بأن يعذِّبَهُ عذاباً شديداً أو يذبَحَهُ إنَّما نجا منه بالعلمِ، وأقدمَ عليهِ في خطابِهِ لهُ بقولِهِ أحطتُ بما لم تحط بِهِ خُبراً، وهذا الخطابُ إنَّما جرَّأهُ عليهِ العلمُ وإلّا فالهُدهُد مع ضعفهِ لا يتمكَّنُ من خطابِهِ لسيلمان مع قوَّتِهِ بمثلِ هذا الخطاب لولا سلطانُ العلم .

ومن هذا الحكايَةُ المشهورَةُ : أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ سُئلَ عن مسألَةٍ فقالَ : لا أعلمها .

فقال أحدُ تلامذته : أنا أعلمُ هذه المسألَةُ

فغضبَ الأستاذُ وهمَّ به، فقال له : أيُّها الأستاذ لستَ أعلم من سليمان ابن داود ولو بَلَغتَ في العلمِ ما بلغتَ، ولست أنا أجهل من الهدهدِ، وقد قال

لسليمان : ﴿ أحطتُ بما لم تحط به ﴾، فلم يَعتَب عليهِ ولم يعنِّفهُ .

الثاني والمئة : أنَّ مَن نالَ شيئاً من شرفِ الدُّنيا والآخرَةِ فإنَّما نالهُ بالعلمِ، وتأمَّل ما حَصَلَ لآدم من تميُّزهِ على الملائكَةِ واعترافِهم له بتعليمِ اللَّهِ لهُ الأسماءكلّها، ثمَّ ما حَصَلَ لهُ من تداركِ المصيبَةِ والتَّعويضِ عن سُكنى الجنَّةَ بما هو خَيرٌ له منها بعلمِ الكلمات التي تلقَّاها من ربِّهِ .

وما حَصَلَ ليوسف من التَّمكين في الأرضِ والعزَّةِ والعظمَةِ بعلمهِ بتعبيرِ تلكَ الرُّؤيا، ثمَّ علمهُ بوجوهِ استخراج أخيهِ من إخوتهِ بما يقرُّونَ به ويحكمونَ هم بهِ حتى آلَ الأمرُ إليهِ من العزِّ والعاقبَةِ الحميدَةِ، وكمالِ الحالِ التي توصَّلَ إليها بالعلمِ كما أشارَ إليها سبحانهُ في قوله : ﴿ كذلكَ كِدنا ليوسفَ ما كانَ ليأخُذَ أخاهُ في دينِ الملك إلّا أن يشاءُ اللَّهُ نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ وفَوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

جاءَ في تفسيرها : نَرفعُ درجات مَن نشاءُ بالعلمِ؛ كما رفعنا درجَةَ يوسفَ على إخوتهِ بالعلمِ .

وقال في إبراهيم ﷺ : ﴿ وتلكَ حجَّتنا آتيناها إبراهيمَ على قومهِ نَرفَعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

فهذا رفعهبعلمِ الحجَّةِ، والأوَّل رفعه بعلمِ السِّياسَةِ .

وكذلكَ ما حَصَلَ للخضر بسبَبِ علمهِ من تلمذةِ كليمِ الرَّحمن له، وتلطُّفهِ معه في السُّؤال حتى قال : ﴿ هَل أتَّبعُكَ على أن تُعلِّمَنِ ممَّا علِّمتَ رُشداً ﴾ [الكهف : ٦٦] .

وكذلكَ ما حَصَلَ لسليمان من علمِ منطقِ الطَّيرِ حتى وَصَلَ إلى مُلكِ

سبأ وقهَرَ ملكتهم، واحتوى على سريرِ مُلكها، ودخولـها تـحتَ طاعتهِ، ولذلكَ قال : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمنا منطَقَ الطَّيرِ وأوتينا من كلِّ شيءٍ إنَّ هذا لـهو الفَضلُ الـمُبين ﴾ [النمل : ١٦] .

وكذلكَ ما حَصَلَ لداودَ من علمهِ نسج الدُّروع من الوقايَةِ من سلاحِ الأعداءِ، وعدَّدَ سبحانه هذه النِّعمَة بهذا العلم على عبادهِ فقال : ﴿ وعلَّمناهُ صَنعَةَ لبوسٍ لكُم لتحصِنكم من بأسِكُم فَهَل أنتُم شاكرون ﴾[الأنبياء : ٨٠] .

وكذلكَ ما حَصَلَ للمسيحِ من علـمِ الكتابِ والـحكمَةِ والتَّوراةِ والإنجيل ما رفعهُ اللَّهُ بهِ إليهِ وفضَّلهُ وكرَّمهُ .

وكذلكَ ما حَصَلَ لسيِّدِ ولدِ آدم من العلـم الذي ذكرهُ اللَّهُ به نعمةً عليهِ فقال : ﴿ وأنزَلَ عليكَ الكتابَ والـحكمَةَ وعلَّمَكَ ما لـم تكُن تَعلـم وكانَ فَضلُ اللَّهِ عليكَ عظيماً ﴾ [النساء : ١١٣] .

الثالث والـمئـة : إنَّ اللَّهَ سبـحانهُ أثنى على إبراهيم خليلـهُ بقولـهِ تعالى : ﴿ وإنَّ إبراهيم كانَ أُمَّةً قانِتاً للَّهِ حنيفاً ولـم يكُن من الـمشركين * شاكراً لأنعمهِ اجتباهُ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢١] .

فهذه أربعُ أنواعٍ من الثَّناءِ :

○ **أحدها** : افتتحها بأنَّـهُ أمَّةٌ، والأمَّـةُ هو القدوَةُ الذي يؤتـمُّ به، وهي فعلةٌ من الائتمام كقدوَةٍ، وهو الذي يقتَدى به، والفَرقُ بينَ الأمَّة والإمامُ من وجهَين :

● أحدها : أنَّ الإمامَ كلّ ما يؤتَـمُّ به سواءٌ كانَ بقصدهِ وشعورهِ أو لا،

ومنه سمَّى الطَّريقُ إماماً كقولهِ تعالى : ﴿ وإن كانَ أصحابُ الأيكَةِ لظالمين فانتَقمنا منهم وإنَّهما لبإمامٍ مُبينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ - ٧٩]، أي : بطريقٍ واضحٍ لا يَخفى على السَّالكِ، ولا يسمَّى الطَّريقُ أمَّةً .

● الثَّاني : أنَّ الأُمَّةَ فيهِ زيادَة معنى، وهو الذي جَمَعَ صفاتِ الكمالِ من العلمِ والعملِ بحيثُ بقي فيها فَرداً وحدَهُ، فهو الجامعُ لخصالٍ تفرَّقَت في غيرهِ، فكأنَّهُ باينَ غَيرَهُ باجتماعها فيهِ وتفرُّقِها أو عدمها في غيرهِ، ولفظُ الأمَّةِ يشعرُ بهذا المعنى لما فيه من الميمِ المُضعَّفَة الدَّالَّةِ على الضَّمِّ بمخرجها وتكريرها، وكذلكَ ضُمَّ أوَّلُهُ؛ فإنَّ الضَّمَّةَ من الواوِ ومخرجها ينضمُّ عندَ النطقِ بها، وأتى بالتَّاءِ الدَّالَّةِ على الوحدَةِ كالغُرفَةِ واللقمَةِ، ومنه الحديث : « إنَّ زَيدَ ابن عمرو بن نُفيلٍ يُبعَثُ يومَ القيامَةِ أمَّةً وحدَهُ »[1] فالضمُّ والاجتماعُ لازمٌ

---

(١) أخرجه النسائي في « الكبرى » (٣ / ٢٢٨ - تحفة الأشراف)، وأبو يعلى (١٣ / ١٧٠ - ١٧٢)، والطبراني في « الكبير » (٤٦٦٣)، والحاكم (٣ / ٢١٦ - ٢١٧)، والذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٢١ - ٢٢٢) .

من طرق عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ويحيى بن عبدالرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة عن أسامة بن زيد عن زيد بن حارثة وذكر حديثاً طويلاً .

وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في « تلخيص المستدرك » .

وقال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٢٢) :

« في إسناده محمد ولا يحتج به، وفي بعضه نكارة » .

قلت : هذا **إسناد حسن**؛ لأنَّ فيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو صدوق، وقد أخرج له مسلم متابعة .

أمَّا النكارة التي في متنه وأشار إليها الذهبي؛ فسيأتي الكلام عليها - إن شاء اللّه .

وللحديث شواهد عن جماعة من الصحابة : =

....

= ١ - **حديث سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما :**
أخرجه أبو يعلى (٩٧٣)، والحاكم (٣ / ٤٤٠) من طريقين عنهما .
قلت : وهو صحيح .
٢ - سعيد بن زيد - رضي الله عنه :
أخرجه أحمد (١٦٤٩) والحاكم (٣ / ٤٣٩ - ٤٤٠)، والطبراني (٣٥٠) .
من طريق المسعودي عن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عن أبيه عن جده .
قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩ / ٤١٧) : « وفيه المسعودي وقد اختلط وبقية رجاله ثقات » .
وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - : « إسناده صحيح؛ المسعودي هو عبدالرحمن بن عبدالله، وكان قد تغير حفظه في آخر عمره، ويزيد بن هارون سمع منه بعد تغيره، وإنّما صححنا الحديث مع هذا لأنّه مثبت معناه من حديث ابن عمر بإسناد صحيح ».
قال أخونا المفضال الشيخ حمدي السلفي في تعليقه على « المعجم الكبير » للطبراني (١ / ١٥١ - ١٥٢) :
« قال شيخنا محب الله شاه : قوله : فمر زيد بن عمرو ... إلى قوله حتى بعث، **فيه نكارة شديدة**، فإنّها ترمي إلى أنّ الطعام الذي كان النّبي ﷺ وزيد بن حارثة رضي الله عنه يأكلانه إذ ذاك كان مما ذبح على النُّصب، وإنّما اجتنب النّبي ﷺ ما ذبح على النُّصب حين قال زيد بن عمرو ما قال، وهذا لا يصح ألبتّة، وهو كذب صراح، فإنَّ النّبي ﷺ لم يتناول مما ذبح علن النُّصب قبل ذلك اليوم ولا بعده، وهذا مما نعلمه بالضرورة، والحمل فيه عندي والله أعلم على نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد ووالده؛ فإنّهما لم يوثقهما غير ابن حبان، وتوثيقه حكمه معروف أظهر من أن نتكلّم عليه، والله أعلم .
وقال شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في تعليقه على « فقه السيرة » (ص ٨٥ - ٨٦) وفيه زيادة منكرة، وعلّة هذه الزيادة أنّها من رواية المسعودي وكان قد اختلط، وراوي هذا الحديث عنه يزيد بن هارون [عند أحمد] سمع منه بعد اختلاطه، ولذلك لم =

لمعنى الأمَّةِ، ومنهُ سُمِّيَت الأمَّةُ التي هي آحادُ الأُمَمِ، لأنَّهُم النَّاسُ المجتمعون على دينٍ واحدٍ أو عَصرٍ واحدٍ .

○ **الثَّاني** : قولُهُ : ﴿ قانتاً للَّهِ ﴾، والقنوتُ يفسر بأشياءَ، كلُّها ترجعُ إلى دوامِ الطَّاعَةِ .

○ **الثَّالث** : قولُهُ : ﴿ حنيفاً ﴾، والحنيفُ المُقبلُ على اللَّهِ، ويلزمُ هذا المعنى ميله عمَّا سواهُ، فالمَيلُ لازمُ معنى الحنيفِ لا أنَّهُ موضوعه لغَةً .

○ **الرَّابع** : قوله : ﴿ شاكراً لأنعمهِ ﴾، والشكرُ للنِّعَمِ مبنيٌّ على ثلاثَةِ أركانٍ :

الإقرارُ بالنِّعمَةِ وإضافتُها إلى المنعمِ بها، وصرفُها في مرضاتِهِ، والعملُ فيها بما يجبُ، فلا يكونُ العَبدُ شاكراً إلَّا بهذه الأشياءِ الثَّلاثَة .

والمقصودُ : أنَّهُ مدحَ خليلَهُ بأربَع صفاتٍ كلُّها تَرجعُ إلى العلمِ والعملِ

= يحسن صنعاً حضرة الأستاذ أحمد محمد شاكر حيث صرح في تعليقه على المسند أنَّ إسناده صحيح، ثمَّ صرح بعد سطور أنَّه إنَّما صححه مع اختلاطه لأنَّه ثبت معناه من حديث ابن عمر بسند صحيح، وليس فيه هذه الزيادة المنكرة، فكان عليه أن ينبّه عليها، لكي لا يتوهم أحد أنَّ معناها ثابت أيضاً في حديث ابن عمر .

قلت (أي الشيخ حمدي) : إنَّ ما قاله شيخنا الألباني كانَ وجيهاً لو لم يكن الراوي عند الطبراني عبداللَّه بن رجاء، فإنَّه روى عن المسعودي قبل اختلاطه كما في « الكواكب النيرات » (ص ٥٦) بتحقيقنا، فالصواب أنَّ الحمل فيه على نفيل ووالده كما قال شيخنا محب اللَّه شاه » أ هـ .

قلت : وانظر لزاماً « فتح الباري » (٧ / ١٤٤)، وعلى الجملة فقوله ﷺ مخبراً عن زيد بن عمرو بن نفيل : « يبعث أمّة وحده » صحيح غاية، وللَّه الحمد والمنّة على الإسلام والسُّنة .

بموجبِهِ وتعليمِهِ ونشرِهِ فعادَ الكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعملِ بموجبِهِ ودعوة الخلقِ إليهِ .

الرابع والمئة : ما في « الصَّحيح »[1] عن أبي هرَيْرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبي ﷺ أنَّهُ قال : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطَعَ عملُهُ إلّا من ثلاث : صَدَقَةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفعُ بهِ أو ولدٍ صالحٍ يَدعو لهُ » .

وهذا من أعظمِ الأدلَّةِ على شرفِ العلمِ وفضلهِ، وعظمِ ثمرتهِ فإنَّ ثوابَهُ يصلُ إلى الرَّجلِ بعدَ موتهِ ما دامَ ينتفعُ بهِ، فكأنَّهُ حيٌّ لم ينقطع عملُهُ معَ ماله من حياةِ الذِّكرِ والثَّناءِ، فجريانُ أجرهِ عليهِ إذا انقطَعَ عن النَّاسِ ثوابُ أعمالهم حياةٌ ثانيَةٌ، وخصَّ النَّبيُّ ﷺ هذه الأشياءَ الثَّلاثَة بوصولِ الثَّوابِ إلى الميِّتِ لأنَّهُ سببٌ لحصولها، والعَبدُ إذا باشرَ السَّبَبَ الذي يتعلَّقُ به الأمرُ والنَّهيُ يترتَّبُ عليهِ مسبَّبُهُ وإن كانَ خارجاً عن سعيهِ وكسبهِ، فلما كانَ هو السَّبَبُ في حصولِ هذا الوَلدِ الصَّالحِ والصَّدَقةِ الجاريَةِ والعلمِ النَّافعِ جرى عليهِ ثوابُهُ وأجرُهُ لتسبُّبهِ فيهِ، فالعَبدُ إنَّما يثابُ على ما باشرهُ أو على ما تولَّدَ منهُ، وقَد ذكرَ تعالى هذين الأصلين في كتابهِ في سورَةِ براءَة فقال : ﴿ ذلكَ بأنَّهُم لا يُصيبُهُم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخمَصَةٌ في سبيلِ اللَّهِ ولا يَطَؤونَ مَوطئاً يَغيظُ الكُفَّارَ ولا ينالونَ من عدوٍّ نَيلاً إلّا كُتِبَ لهم بهِ عَمَلٌ صالحٌ إنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين ﴾[التوبة : ١٢٠]، فهذه الأمورُ كلُّها متولِّداتٌ عن أفعالهم غَيرَ مقدورَةٍ لهم، وإنَّما المقدورُ لهم أسبابُها التي باشروها ثمَّ قال : ﴿ ولا يُنفِقونَ نَفَقَةً صَغيرَةً ولا كَبيرَةً ولا

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة - رضي اللّه عنه - بلفظ : « إذا مات الإنسان ... » .

يَقطَعونَ وادياً إلّا كُتِبَ لهم ليَجزيهُم اللَّهُ أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ ﴾ [التوبة : ١٢١]، فالنَّفَقَةُ وقطعُ الوادي أفعالٌ مقدورَةٌ لهم .

وقالَ في القسمِ الأوَّلِ : كُتبَ لهم بهِ عملٌ صالحٌ، إلّا أنَّ المتولِّدَ حاصلٌ عن شيئين أفعالهم وغيرها، فليسَت أفعالُهم سبباً مستقلّاً في حصولِ المتولِّدِ بل هي جزءٌ من أجزاءِ السَّببِ، فيكتبُ لهم من ذلكَ ما كانَ مقابلاً لأفعالهم .

وأيضاً؛ فإنَّ الظَّمَأَ والنَّصَبَ وغَيظَ العَدوِّ ليسَ من أفعالهم فلا يكتبُ لهم نفسُهُ، ولكن لما تولَّدَ عن أفعالِهم كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ .

وأمَّا القسمُ الآخَرُ : وهو الأفعالُ المقدورَةُ نفسُها كالإنفاقِ وقَطعِ الوادي فهو عملٌ صالحٌ فيكتبُ لهم نفسُهُ إذ هو مقدورٌ لهم حاصلٌ بإرادتهم وقدرتهم، فعادَ الثَّوابُ إلى الأفعالِ المقدورَةِ والمتولِّدِ عنها، وباللَّهِ التَّوفيق .

الخامس والمئة : إنَّ العالِمَ مشتغلٌ بالعلمِ والتَّعليمِ لا يزالُ في عبادَةٍ؛ فَنفسُ تعلُّمهِ وتَعليمهِ عبادَةٌ .

قال الرَّبيعُ :سمعتُ الشافعيَّ يقول : طلبُ العلم أفضلُ منَ الصَّلاةِ النَّافلَةِ .

وفي مسائلِ إسحاقَ بن منصورٍ قلتُ لأحمَدَ بن حنبلٍ قوله : تَذاكرُ العلمِ بعض ليلَةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها، أيّ علمٍ أرادَ ؟

قال : هو العلمُ الذي ينتفعُ به النَّاسُ في أمرِ دينهم .

قلتُ : في الوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ والطَّلاقِ ونحوِ هذا ؟

قال : نعم .

قال إسحاق : وقال لي إسحاق بن راهويهِ : هو كما قالَ أحمدُ .

ولـمَّا كانَ طلبُ العلمِ والبحثُ عنهُ وكتابتُهُ والتَّفتيشُ عليهِ من عَمَلِ القَلبِ والجوارح كانَ مِن أفضَلِ الأعمالِ، ومنزلتُهُ من عَملِ الجوارحِ كمنزلَةِ أعمالِ القَلبِ من الإخلاصِ والتَّوكُّلِ والمحبَّةِ والإنابَةِ والخشيَةِ والرِّضا ونحوها من الأعمالِ الظَّاهرَةِ .

فإن قيلَ : فالعلمُ إنَّما هو وسيلَةٌ إلى العَمَلِ ومرادٌ له، والعملُ هو الغايَةُ، ومعلومٌ أنَّ الغايَةَ أشرَفُ من الوسيلَةِ، فكيفَ تُفضَّلُ الوسائلَ على غاياتِها ؟

قيلَ : كلٌّ منَ العلمِ والعملِ ينقسمُ قسمين :

منهُ ما يكونُ وسيلَةً، ومنهُ ما يكونُ غايَةً، فليسَ العلمُ كلُّهُ وسيلَةً مرادَةً لغيرها، فإنَّ العِلمَ باللَّهِ وأسمائهِ وصفاتهِ هو أشرَفُ العلومِ على الإطلاقِ، وهو مطلوبٌ لنفسهِ مرادٌ لذاتهِ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ سَبعَ سماواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلهنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتَعلموا أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ اللَّهَ قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً ﴾ [الطلاق : ١٢]، فَقَد أخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ بينهنَّ، ليعلَمَ عبادُهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فهذا العلمُ هو غايَةُ الخَلقِ المطلوبَةُ وقال تعالى : ﴿ فاعلَم أنَّهُ لا إلهَ إلّا اللَّهَ ﴾ [محمَّد : ١٩]، فالعلمُ بوحدانيَّتهِ تعالى وأنَّهُ لا إلهَ إلّا هو مطلوبٌ لذاتهِ وإن كانَ لا يُكتَفى به وحدَهُ بل لابدَّ معهُ من عبادتهِ وحدَهُ لا شريكَ له، فهما أمرانِ مطلوبانِ لأنفسهما أن يُعْرَفَ الرَّبُّ تعالى بأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ وأحكامهِ، وأن يُعبَدَ بموجبها ومُقتَضاها فكما أنَّ عبادَتهُ مطلوبَةٌ مرادَةٌ لذاتها، فكذلكَ العلمُ بهِ ومعرفتُهُ .

وأيضاً؛ فإنَّ العلمَ مِن أفضَلِ أنواعِ العباداتِ كما تَقَدَّم تَقريرهُ، فهو متضمِّنٌ للغايَةِ والوَسيلَةِ .

وقولكم : أنَّ العمَلَ غايَةٌ إمَّا أن تريدوا به العملَ الذي يدخُلُ فيه عملُ القلبِ والجوارح أو العملُ المختَصُّ بالجوارحِ فَقَط، فإن أريدَ الأوَّل فهو حقٌّ، وهو يدلُّ على أنَّ العلمَ غايَةٌ مطلوبَةٌ، لأنَّهُ من أعمالِ القَلبِ كما تَقَدَّمَ، وإن أريدَ به الثَّاني وهو عملُ الجوارحِ فَقَط فليسَ بصحيح، فإنَّ أعمالَ القلوبِ مقصودَةٌ ومرادَةٌ لذاتها، بَل في الحقيقَةِ أعمالُ الجوارحِ وسيلَةٌ مرادةٌ لغَيره، فإنَّ الثَّوابَ والعقابَ والمَدحَ والذَّمَّ وتوابعَها هو للقَلب أصلاً وللجوارحِ تبعاً، وكذلكَ الأعمالُ المقصودَةُ بها أوَّلاً صلاح القَلبِ واستقامته وعبوديَّتهُ لربِّهِ ومليكهِ وجُعلَت أعمالُ الجوارحِ تابعَةً لهذا المقصودِ مرادَةً، وإن كانَ كثيرٌ منها مراداً لأجلِ المصلَحةِ المترتِّبَةِ عليهِ، فَمِن أجلِّها صلاحُ القَلبِ وزكاهُ وطهارتُهُ واستقامَتُهُ، فعلِمَ أنَّ الأعمالَ منها غايَةٌ ومنها وسيلَةٌ، وأنَّ العلمَ كذلكَ .

وأيضاً؛ فالعلمُ الذي هو وسيلَةٌ إلى العمَلِ فَقَط إذا تجرَّدَ عن العملِ لم ينتفع به صاحبهُ فالعمَلُ أشرَفُ منهُ .

وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُهُ المطلوبَةُ منه من نَفسِهِ، فهذا لا يقالُ إنَّ العمَلَ المجرَّدَ أشرَفُ منهُ، فكيفَ يكونُ مجرَّدُ العبادَة البَدنيَّةِ أفضلَ من العلمِ باللَّهِ وأسمائهِ وصفاتهِ وأحكامهِ في خلقهِ وأمرهِ، ومنَ العلمِ بأعمالِ القلوبِ وآفاتِ النُّفوسِ والطُّرقِ التي تفسدُ الأعمالَ وتمنعُ وصولَها من القَلبِ إلى اللَّهِ والمسافاتِ التي بينَ الأعمالِ والقَلبِ وبينَ القَلبِ والرَّبِّ تعالى وبما

تقطعُ تلكَ المسافاتُ إلى غيرِ ذلكَ من علمِ الإيمانِ وما يقوِّيهِ وما يضعِّفهُ ؟ فكيفَ يقال : أنَّ مجرَّدَ الظَّاهرِ بالجوارحِ أفضَلُ من هذا العلمِ ؟ بل من قامَ بالأمرينِ فهو أكملُ، وإذا كانَ في أحدهما فضلٌ فَفَضلُ هذا العلمِ خَيرٌ من فَضلِ العبادَةِ، فإذا كانَ في العَبدِ فضلَةٌ عن الواجبِ كانَ صرفُها إلى العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ أفضَلَ من صَرفها إلى مجرَّدِ العبادَةِ، فهذا فَصلُ الخطابِ في هذه المسألَةِ، واللَّهُ أعلم .

السادس والمئة : عن أبي كبشَةَ الأنماري قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّما الدُّنيا لأربَعَةِ نَفرٍ : عبدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مالاً وعلماً فهو يتَّقي في مالهِ ربَّهُ، ويَصلُ فيهِ رحمَه ويعلمُ للَّهِ فيهِ حقَّاً؛ فهذا بأحسَنِ المنازلِ عندَ اللَّهِ .

ورجلٍ آتاهُ اللَّهُ علماً ولم يؤتهِ مالاً فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالاً لعَملتُ بعَملِ فلانٍ فهو بنيَّتهِ وهما في الأجرِ سواء .

ورجلٍ آتاهُ اللَّهُ مالاً ولم يؤتهِ علماً فهو يخبِّطُ في مالهِ، ولا يتَّقي فيهِ ربَّهُ، ولا يَصلُ فيهِ رحمهُ، ولا يعلَمُ للَّهِ فيهِ حقَّاً فهذا بأسوأ المنازلِ عند اللَّهِ .

ورجلٍ لم يؤتهِ اللَّهُ مالاً ولا علماً فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّتهِ وهما في الوزرِ سواءٌ » .[1]

فقسَّم النَّبيُّ ﷺ أهلَ الدُّنيا أربعَةَ أقسامٍ :

○ **الأوَّل** : خيرهم من أوتيَ علماً ومالاً فهو محسنٌ إلى النَّاسِ وإلى نفسهِ بعلمهِ ومالهِ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

قلت : **وهو صحيح** .

○ **الثـانـي** : ويليهِ في الـمرتبَةِ مَن أوتـيَ علـماً ولـم يؤتَ مـالاً وإن كانَ أجرُهمـا سواءً؛ فذلكَ أنَّـمـا كانَ بالنيَّـةِ وإلّا فالـمُنفقُ الـمتصدِّق فوقهُ بدرَجَةِ الإنفاقِ والصَّدَقَةِ، والعالـمِ الذي لا مـالَ لـهُ إنَّـمـا ساواهُ في الأجرِ بالنيَّـةِ الـجازمَةِ الـمقترن بها مقدورُها وهو القولُ الـمجرَّدُ .

○ **الثَّـالـث** : مَن أوتـيَ مـالاً ولـم يؤتَ علـماً، فهذا أسوأُ النَّاسِ منزلَةً عندَ اللَّهِ، لأنَّ مـالَـهُ طريقٌ إلى هلاكِهِ، فلو عَدِمَهُ لكانَ خَيراً لـه، فإنَّـهُ أُعطـيَ ما يتزوَّدُ بهِ إلى الـجنَّةِ، فجعلـهُ زاداً إلى النَّار .

○ **الـرَّابـع** : مَن لـم يؤتَ مـالاً ولا علـماً، ومن نيَّتهُ أنَّـهُ لو كانَ لـه مـالٌ لعملَ فيه بمعصيَةِ اللَّهِ، فهذا يَلي الغنـيَّ الـجاهلَ في الـمرتبةِ، ويساويهِ في الوزرِ بنيَّتهِ الجازمَةِ الـمقتَرن بها مقدورُها وهو القولُ الذي لـم يَقدر على غيرهِ .

فقسَّمَ السُّعداءَ قسمين وجَعَلَ العلـمَ والعمَلَ بموجبهِ سببَ سعادتِهمـا، وقسَّمَ الأشقياءَ قسمين وجَعَلَ الـجَهلَ ومـا يترتَّبُ عليهِ سبَبَ شقاوتهمـا، فعادَت السَّعادَةُ بـجملتها إلى العلـمِ وموجبِهِ، والشقاوَةُ بـجملتها إلى الـجَهلِ وثمرتِهِ .

السابع والـمئـة : مـا ثَبَتَ عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّهُ قال : تفكُّرُ ساعَةً خيرٌ من عبادَةِ ستِّينَ سنةً .

وهذا لأنَّ الفكرَةَ عملُ القلبِ، والعبادَة عملُ الـجوارح، والقلبُ أشرَفُ من الـجوارح، فكانَ عملُـهُ أشرَفَ من عملِ الـجوارح .

أيضاً فالتَّفكُّر يوقعُ صاحبهُ من الإيمـانِ على مـالا يوقعُهُ العملُ الـمجرَّدُ، فإنَّ التَّفكُّرَ يوجبُ لـه من انكشافِ حقائقِ الأمورِ، وظهورِها لـهُ، وتَـمَـيُّزِ مراتبها

في الـخَيرِ والشرِّ، ومعرفَةِ مفضولـها من فاضلـها، وأقبـحِها من قبيحها، ومعرفَةِ أسبابها الـموصلَةِ إليها، وما يقاوِمُ تلكَ الأسبابَ ويدفعُ موجِبَها، والتمييز بين ما يَنبَغي السَّعيُ في تـحصيلهِ وبينَ ما يَنبغي السَّعيُ في دَفعِ أسبابِهِ، والفَرق بينَ الوهم والـخيالِ الـمانعِ لأكثرِ النُّفوسِ من انتهازِ الفرَصِ بعدَ إمكانها وبين السَّبَبِ الـمانعِ حَقيقَةً، فيشتغلُ به دونَ الأوَّلَ فما قَطَعَ العَبدَ عن كمـالـهِ وسعادتهِ العاجلَةِ والآجلَةِ قاطعٌ أعظمُ من الوَهمِ الغالبِ على النَّفسِ والـخيالِ الذي هو مركبُها بل بـحرُها الذي لا تنفَكُّ سابـحَةً فيه، وإنَّـما يقطعُ هذا العارضُ بفكرَةٍ صحيحَةٍ وعزمٍ صادقٍ يميزُ بهٌ بينَ الوَهمِ والحقيقَةِ .

وكذلكَ إذا فكَّرَ في عواقِبِ الأمورِ، وتـجاوَزَ فكرُهُ مباديها وضعها موضعها وعلم مراتبها، فإذا ورد عليه واردُ الذنبِ والشهوةِ فتجاوز فكرُه لذَّتَهُ وفَرحَ النَّفسِ به إلى سوءِ عاقبتهِ، وما يترتَّبُ عليهِ من الألـمِ والـحزنِ الذي لا يقاومُ تلكَ اللذَّةَ والفَرحَةَ، ومَن فكَّرَ في ذلكَ فإنَّهُ لا يكادُ يَقدمُ عليه .

وكذلكَ إذا وَرَدَ على قلبِهِ واردُ الرَّاحَةِ والدَّعَةِ والكَسَلِ والتَّقاعدِ عن مشقَّةِ الطَّاعاتِ وتَعبِها حتى عَبَرَ بفكرهِ إلى ما يترتَّبُ عليها من اللذَّاتِ والـخيراتِ والأفراحِ التي تغمرُ تلكَ الآلام التي في مباديها بالنِّسبَةِ إلى كمـالِ عواقبها، وكلَّـما غاصَ فكرُهُ في ذلكَ اشتدَّ طلبهُ لـها، وسَهُلَ عليهِ معاناتُها، واستقبلـها بنشاطٍ وقوَّةٍ وعَزيـمَةٍ، وكذلكَ إذا فكَّرَ في منتهى ما يستعبدهُ من الـمـالِ والـجاهِ والصُّوَرِ ونَظَرَ إلى غايَةِ ذلكَ بعَينِ فكرهِ استَحى من عَقلهِ ونَفسهِ أن يكونَ عبداً لذلكَ كما قيلَ :

لَـو فكَّـرَ العـاشِـقُ فـي مُنتَـهى

حُسـنِ الـذي يَسبيـهِ لـم يَسبه

وكذلكَ إذا فكَّرَ في آخرِ الأطعمَةِ المفتَخَرَة التي تفانَت عليها نفوسُ أشباهِ الانعامِ، وما يَصيرُ أمرُها إليهِ عندَ خروجها ارتَفَعَت همَّتهُ عن صرفها إلى الاعتناءِ بها، وجعلها معبودَ قلبِهِ الذي إليه يتوجَّه، وله يَرضى ويغضبُ، ويَسعى ويكدحُ، ويوالي ويُعادي .

فإذا وَقَعَ فكرُهُ على عاقبَةِ ذلكَ، وآخرِ أمرِهِ، وكانَت نفسُهُ حُرَّةً أبيَّةً ربأ بها أن يجعَلَها عبداً لما آخرُهُ أنتَنُ شيءٍ، وأخبثُهُ، وأفحشُهُ .

التَّذَكُّرُ والتَّفَكُّرُ

إذا عَرَفَ هذا، فالفِكرُ هو إحضارُ معرفتَين في القلبِ ليستثمرَ منهما معرفةً ثالثَةً، ومثالُ ذلكَ إذا أحضَرَ في قلبِهِ العاجلَةَ وعيشَها ونَعيمَها، وما يقترنُ به من الآفاتِ، وانقطاعه وزواله، ثمَّ أحضَرَ في قلبِهِ الآخرَةَ ونعيمَها ولذَّتَهُ ودوامَهُ، وفضلَهُ على نعيمِ الدُّنيا، وجَزَمَ بهذين العلمين أثمرَ لهُ ذلكَ علماً ثالثاً وهو أنَّ الآخرَةَ ونعيمَها الفاضلَ الدَّائمَ أولى عندَ كلِّ عاقلٍ بإيثارِهِ من العاجلَةِ المنقطعَةِ المنغصةِ، ثمَّ لهُ في معرفَةِ الآخرَةِ حالتانِ :

○ **إحداهما** : أن يكونَ قَد سمعَ ذلكَ من غيرِهِ من غَيرِ أن يُباشرَ قلبه بَرد اليَقين به، ولم يُفضِ قلبهُ إلى مكافَحَةِ حقيقَةِ الآخرَةِ، وهذا حالُ أكثَرِ النَّاسِ فيتجاذبانِهِ داعيان :

● داعي العاجلَةِ وإيثارُها، وهو أقوى الدَّاعيينَ عندَهُ، لأنَّهُ مشاهدٌ لهُ محسوسٌ .

● وداعي الآخرَةِ، وهو أضعَفُ الدَّاعيَين عندهُ، لأنَّهُ داعٍ عن سماعٍ لم يباشر قلبُهُ اليقينَ بهِ ولا كافَحَهُ حقيقتَهُ العلميَّةَ، فإذا تَرَكَ العاجلَةَ للآخرَةِ تُريهِ نَفسُهُ بأنَّهُ قَد تَرَكَ معلوماً لمظنونٍ، أو متحقِّقاً لموهومٍ، فلسانُ الحالِ ينادي

عليهِ لا أدعُ ذَرَّةً منقودَةً لدُرَّةٍ موعودَةٍ، وهذه الآفَةُ هي التي منعَت النُّفوسَ من الاستعدادِ للآخرَةِ وأن يَسعى لـها سَعيَها، وهي من ضَعفِ العلـمِ بها وتيقُّنِها، وإلّا فمعَ الـجزمِ التَّامِّ الذي لا يـخالجُ القَلبَ فيهِ شكٌّ لا يَقعُ التَّهاوُنُ بها وعَدمُ الرَّغبَةِ فيها، ولـهذا لو قُدِّمَ لرجلٍ طعامٌ في غايَةِ الطِّيبِ واللذَّةِ وهو شديدُ الـحاجَةِ إليهِ، ثمَّ قيلَ لـهُ : إنَّـهُ مَسمومٌ، فإنَّـهُ لا يُقدمُ عليهِ لعلـمهِ بأنَّ سوءَ ما تـجنى عاقبة تناولـهُ تَربو في الـمضرَّةِ على لذَّةِ أكلـهِ، فمـا بالُ الإيمـانِ بالآخِرَةِ لا يكونُ في قلبهِ بهذه الـمنزلَةِ ؟ ما ذاكَ إلّا لضَعفِ شجرَةِ العلـمِ والإيمان بها في القلب، وعدم استقرارها فيه .

○ **الثَّـانيَـة** : أن يتيَقَّنَ ويـجزمْ جزماً لا شكَّ فيهِ بأنَّ لـهُ داراً غَيرَ هذه الدَّارِ، ومعاداً لـهُ خُلقَ، وإنَّ هذه الدَّارَ طَريقٌ إلى الـمعادِ، ومنزلٌ من منازلِ السَّائرينَ إليهِ، ويعلـمُ معَ ذلكَ أنَّـها باقيَةٌ ونَعيمَها وعذابَها لا يزولُ، ولا نَسبَةَ لـهذا النَّعيم والعَذابِ العاجلِ إليهِ إلّا كمـا يُدخلُ الرَّجلُ أصبعهُ في اليَمِّ ثمَّ ينزعها، فالذي تَعَلَّقَ بها منهُ هو كالدُّنيا بالنِّسبَةِ إلى الآخرَةِ، فيثمرُ لـهُ هذا العلـمُ إيثارَ الآخرَةِ وطلبها، والاستعدادَ التَّامَّ لـها، وأن يَسعى لـها سَعيَها، وهذا يسمى تفكُّراً، وتذكُّراً، ونظراً، وتأمُّلاً، واعتباراً، وتدبُّراً، واستبصاراً، وهذه معان متقاربَةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتتفرَّقُ في آخَر .

ويسمَّى تفكُّراً؛ لأنَّـهُ استعمـالُ الفكرَةِ في ذلكَ، وإحضارُهُ عندَهُ .

ويسمَّى تذكُّراً؛ لأنَّـهُ إحضارٌ للعلـمِ الذي يـجبُ مراعاتُـهُ بَعدَ ذهولـهِ وغَيبتِهِ عنهُ، ومنهُ قولـه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقوا إذا مَسَّهُم طائفٌ من الشيطانِ تَذَكَّروا فإذا هُـم مُبصِرونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

ويُسمَّى نَظراً؛ لأنَّهُ التفاتٌ بالقَلبِ إلى المنظورِ فيهِ .

ويسمَّى تأمُّلاً؛ لأنَّهُ مراجَعَةٌ للنَّظَرِ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ حتى يتجلَّى لهُ، وينكشفَ لقلبهِ .

ويسمَّى اعتباراً؛ لأنَّهُ يعبرُ منهُ إلى غَيرِهِ، فيعبرُ من ذلكَ الذي قَد فكَّرَ فيهِ إلى معرفَةٍ ثالثةٍ، وهي المقصودُ من الاعتبارِ، ولهذا يسمَّى عبرَةً وهي على بناءِ الحالاتِ كالجلسَةِ، والرّكبَةِ، والقِتلَةِ إيذاناً بأنَّ هذا العلمَ والمعرفَةَ قَد صارَ حالاً لصاحبهِ يعبُرُ منهُ إلى المقصودِ به، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في ذلكَ لعِبرَةً لمَن يَخشى ﴾ [النازعات : ٢٦]، وقال : ﴿ إنَّ في ذلكَ لعبرَةً لأُولي الأبصار ﴾ [النور : ٤٤] .

ويسمَّى تدبُّراً؛ لأنَّهُ نَظرٌ في أدبارِ الأمورِ وهي أواخرها وعواقبها، ومنهُ تدبُّرُ القولِ، وقال تعالى : ﴿ أفَلَم يَدَّبَّروا القَولَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨]، ﴿ أفلا يتدبَّرونَ القرآنَ ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدوا فيهِ اختلافاً كبيراً ﴾ [النساء : ٨٢]، وتدبُّرُ الكلامِ أن يُنظَرَ في أوَّلهِ وآخرهِ، ثمَّ يعيد نَظرهُ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ولهذا جاءَ على بناءِ التفعُّل كالتَّجرُّع والتَّفهُّم والتَّبيُّن .

وسُمِّيَ استبصاراً - وهو استفعالٌ من التَّبصُّرِ : وهو تَبيُّنُ الأمرِ وانكشافُهُ وتجلِّيه للبَصيرَةِ .

وكلٌّ من التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ لهُ فائدَةٌ غيرُ فائدَةِ الآخَرِ؛ فالتَّذكُّر يُفيدُ تَكرارَ القَلبِ على ما علمَهُ وعرفَهُ، ليرسخَ فيهِ ويثبتَ، ولا ينمحي فيذهَبَ أثرُهُ من القَلبِ جملَةً، والتَّفكُّرُ يفيدُ تَكثيرَ العلمِ واستجلابَ ما ليسَ حاصلاً عندَ القلبِ، فالتَّفكُّرُ يحصلُهُ والتَّذكُّرُ يحفظُهُ، ولهذا قال الحَسَن : ما زالَ أهلُ

العلمِ يعودونَ بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّرِ، وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ، ويناطقونَ القلوبَ حتى نَطَقَت بالحكمَةِ .

فالتَّفكُّر والتَّذكُّر بذارُ العلمِ، وسقيُهُ مطارحتُهُ، ومذاكرتُهُ تلقيحُهُ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : ملاقاةُ الرِّجالِ تلقيحٌ لألبابها، فالمُذاكرَةُ بها لقاحُ العَقلِ، فالخَيرُ والسَّعادَةُ في خزانَةٍ مفتاحُها التَّفكُّرُ، فإنَّهُ لابدَّ من تفكُّرٍ وعلمٍ يكونُ نتيجتُهُ الفكرَ، وحال يحدُثُ للقَلبِ من ذلكَ العلمِ، فإنَّ كلَّ مَن علمَ شيئاً من المحبوبِ أو المكروهِ لابدَّ أن يبقى لقلبهِ حالةٌ وينصبغُ بصبغَةٍ من علمهِ، وتلكَ الحالُ توجبُ له إرادَةً، وتلكَ الإرادَةُ توجبُ وقوعَ العَمَلِ، فههنا خمسَةُ أمورٍ : الفكرُ وثمرتهُ العلمُ، وثمرتُهما الحالَةُ التي تَحدثُ للقَلبِ، وثمرةُ ذلكَ الإرادَةُ، وثمرتُها العملُ، فالفكرُ إذاً هو المبدأُ والمفتاحُ للخَيراتِ كلِّها، وهذا يكشفُ لكَ عن فَضلِ التَّفكُّرِ وشرفهِ، وأنَّهُ من أفضَلِ أعمالِ القَلبِ وأنفعها له حتى قيلَ : تفكُّرُ ساعَةٍ خَيرٌ من عبادَة سنَةٍ، فالفكرُ هو الذي ينقلُ من موتِ الفطنَةِ إلى حياةِ اليَقظَةِ، ومن المكارهِ إلى المحابِّ، ومن الرَّغبَةِ والحرصِ إلى الزُّهدِ والقناعَةِ، ومن سجنِ الدُّنيا إلى فضاءِ الآخرَةِ، ومن ضيقِ الجَهلِ إلى سَعَةِ العلمِ ورحبهِ، ومن مَرَضِ الشهوَةِ والإخلادِ إلى هذه الدَّارِ إلى شفاءِ الإنابَةِ إلى اللَّهِ والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، ومن مصيبَةِ العَمى والصَّمم والبُكمِ إلى نِعمَةِ البَصَرِ والسَّمعِ والفَهمِ عن اللَّهِ والعقلِ عنهُ، ومن أمراضِ الشبهات إلى بَردِ اليَقين وثلجِ الصُّدور .

وبالجملَةِ : فأصلُ كلِّ طاعَةٍ إنَّما هي الفكرُ، وكذلكَ أصلُ كلِّ معصيَةٍ إنَّما يحدثُ من جانبِ الفكرَةِ، فإنَّ الشيطانَ يصادفُ أرضَ القَلبِ خاليَةً فارغَةً فيبذُرُ فيها حبَّ الأفكارِ الرَّديَّةِ، فيتولَّدُ منهُ الإراداتُ والعزومُ، فيتولَّدُ

منها العملُ، فإذا صادَفَ أرضَ القَلبِ مشغولَةً ببَذرِ الأفكارِ النَّافعَةِ فيما خُلق لهُ، وفيما أمَرَ بهِ، وفيمَ هُيِّءَ لهُ وأُعدَّ لهُ من النَّعيمِ المقيمِ أو العذابِ الأليمِ لم يجد لبذرهِ موضعاً، وهذا كما قيل :

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهَوى

فَصادَفَ قلباً فارغاً فتمكَّنا

فإن قيلَ : فقَد ذكرتُم الفكرَ ومنفعتَهُ وعِظَمَ تأثيرهِ في الخَيرِ والشرِّ، فما متعلِّقُهُ الذي ينبغي أن يوقعَ عليهِ ويجري فيهِ، فإنَّهُ لا يتمُّ المقصودُ منهُ إلّا بذكرِ متعلِّقِهِ الذي يقعُ الفكرُ فيهِ، وإلّا ففكرٌ بغَيرِ متفكَّرٍ فيه محالٌ .

قيلَ : مَجرى الفِكر ومتعلّقهُ اربَعَةُ امورٍ :

○ **أحدها** : غايَةُ محبوبةٌ مرادةُ الحصول .

○ **الثَّاني** : طريقٌ موصلَةٌ إلى تلكَ الغايَةِ .

○ **الثَّالث** : مضرَّةٌ مطلوبَةُ الإعدامِ مكروهَةُ الحصولِ .

○ **الرَّابع** : الطَّريقُ المُفضي إليها الموقعُ عليها .

فلا تَتجاوَزُ أفكارُ العقلاءِ هذه الأمور الأربعَة، وأيُّ فكرٍ تخطَّاها فهو من الأفكارِ الرديَّةِ والخيالاتِ والأماني الباطلَةِ كما يتخيَّلُ الفقيرُ المعدَمُ نَفسهُ من أغنى البَشرِ، وهو يأخُذُ ويُعطى، وينعمُ ويحرمُ، وكما يتخيَّلُ العاجزُ نفسهُ من أقوى الملوكِ، وهو يتصرَّفُ في البلادِ والرَّعيَّةِ، ونظير ذلكَ من أفكارِ القلوبِ الباطوليَّة التي من جنسِ أفكارِ السّكران والمحشوشِ والضَّعيفِ العَقلِ، فالأفكارُ الرديَّةُ هي قوتُ الأنفسِ الخَسيسَةِ التي هي في غايَةِ الدَّناءَةِ، فإنَّها قَد قنعَت

بالخيالِ ورضيَت بالمحالِ، ثمَّ لا تزالُ هذه الأفكارُ تَقوى بها وتتزايَدُ حتى توجبَ لها آثاراً رديَّةً، ووساوسَ، وأمراضاً بطيئةَ الزَّوالِ، وإذا كانَ الفكرُ النَّافعُ لا يخرجُ عن الأقسامِ الأربعَةِ التي ذكرناها فلهُ أيضاً محلّانِ ومنزلانِ :

- أحدهما : هذه الدَّارُ .
- والآخرُ : دارُ القرارِ .

فأبناءُ الدُّنيا الذينَ ليسَ لهم في الآخرَةِ من خَلاقٍ عمَّروا بيوتَ أفكارهم بتلكَ الأقسامِ الأربعَةِ في هذه الدَّارِ، فأثمرَت لهم أفكارهم فيها ما أثمرَت، ولكن إذا حقَّت الحقائق، وبطلت الدُّنيا، وقامت الآخرَةُ تبيَّنَ الرَّابحُ من المغبون، وخسرَ هنالكَ المبطلونَ .

وأبناءُ الآخرَةِ الذينَ خُلقوا لها وعمَّروا بيوتَ أفكارهم على تلكَ الأقسام الأربعَة فيها .

ونحنُ نفصِّلُ ذلك بعونِ اللَّهِ وفضلهِ فنقول :

كلُّ طالبٍ لشيءٍ فهو محبٌّ لهُ، مؤثِّرٌ لقربهِ ساعٍ في طريقِ تحصيلهِ، متوصِّلٌ إليهِ بجهدهِ، وهذا يوجبُ له تعلُّقُ أفكارهِ بجمالِ محبوبهِ، وكمالهِ وصفاتهِ التي يحبُّ لأجلها، وتعلُّقها بما ينالهُ به من الخَيرِ والفَرحِ والسُّرورِ، ففكرُهُ في حالِ محبوبهِ دائرٌ بينَ الجمالِ والإجمالِ، والحُسنِ والإحسانِ، فكلَّما قويَت محبَّتُهُ ازدادَ هذا الفكرُ وقويَ وتضاعَفَ حتى يَستغرقَ أجزاءَ القَلبِ، فلا يبقى فيه فَضلٌ لغيرهِ بل يَصيرُ بينَ النَّاسِ بقالبِهِ، وقلبهِ كلِّهِ في حَضرَةِ مخبوبهِ، فإن كانَ هذا المحبوبُ هو المحبوبُ الحقُّ الذي لا تنبَغي المحبَّةُ إلّا لهُ، ولا يحبُّ غيرُهُ إلّا تبعاً لمحبَّتهِ، فهو أسعَدُ المحبِّينَ به، وقَد وَضَعَ

الحبَّ موضعَهُ، وتهيَّأت نفسُهُ لكمالها الذي خُلقَت لهُ، والذي لا كمالَ لها بدونهِ بوجهٍ، وإن كانَت تلكَ المحبَّةُ لغيرهِ من المحبوباتِ الباطلَةِ المتلاشيَةِ التي تفنى وتَبقى حزازاتُ القلوبِ بها على حالها، فَقَد وضَعَ المحبَّةَ في غيرِ موضعها، وظَلَمَ نفسهُ أعظَمَ ظلمٍ وأقبحهُ، وتهيَّأت بذلكَ نفسُهُ لغايَةِ شقائِها وألمِها .

وإذا عُرِفَ هذا عُرِفَ أنَّ تعلُّقَ المحبَّةِ بغيرِ الإلهِ الحقِّ هو عَيْنُ شقاءِ العَبدِ وخسرانِهِ، فأفكارُهُ المتعلِّقَةُ بها كلُّها باطلَةٌ، وهي مضرَّةٌ عليهِ في حياتهِ وبَعدَ موتِهِ، والمحبُّ الذي قَد مَلَكَ المحبوبُ أفكارَ قلبهِ لا يخرجُ فكرُهُ عن تعلُّقهِ بمحبوبهِ أو بنفسهِ، ثمَّ فكرُهُ في محبوبهِ لا يخرجُ عن حالتين :

○ **إحداهما** : فكرتهُ في جمالهِ وأوصافهِ .

○ **الثَّانيَة** : فكرتهُ في أفعالهِ وإحسانهِ وبرهِ ولطفهِ الدَّالَّةِ على كمالِ صفاتهِ .

وإن تعلَّقَ فكرُهُ بنفسهِ لم يخرج أيضاً عن حالتين :

● أحدهما : إمَّا أن يفكِّرَ في أوصافهِ المسخوطَةِ التي يبغضُها محبوبُهُ ويمقتُهُ عليها، ويسقطهُ من عينهِ، فهو دائماً يتوقَّعُ بفكرهِ عليها ليتجنَّبها ويبعدَ منها .

● والثانية : أن يفكِّرَ في الصِّفاتِ والأخلاقِ والأفعالِ التي تقرِّبُهُ منه، وتحبِّبُهُ إليهِ حتى يتَّصفَ بها .

فالفكرتانِ الأوَّلتانِ توجبُ لهُ زيادَةَ محبَّتهِ وقوَّتها وتضاعِفُها، والفكرتان الآخرتان توجبُ محبَّةَ محبوبهِ لهُ وإقبالَه عليهِ وقُربَهُ منه وعطفَهُ عليهِ وإيثارَهُ

على غيرِهِ، فالـمحبَّةُ التَّامَّةُ مستلزمَةٌ لـهذه الأفكارِ الأربعَةِ .

فالفكرَةُ الأولى والثَّانيَة تتعلَّقُ بعلـمِ التّوحيدِ وصفاتِ الإلـهِ الـمعبودِ سبـحانهُ وأفعالـهُ .

والثَّالثَةُ والرَّابعَةُ تتعلَّقُ بالطَّريقِ الـموصلَةِ إليها وقواطعِها وآفاتِها، وما يمنعُ منَ السَّيرِ فيها إليهِ ..

فتفكُّرِهِ في صفاتِ نفسهِ يميِّزُ لـه الـمحبوبُ لربِّهِ منها منَ الـمكروهِ لـهُ، وهذه الفكرَةُ توجبُ ثلاثَةَ أمورٍ :

○ **أحَدَها** : أنَّ هذا الوَصفَ هل هو مكروهٌ مبغوضٌ للَّهِ أم لا ؟

○ **الثَّاني** : هَل العَبدُ متَّصفٌ به أم لا ؟

○ **الثَّالث** : إذا كانَ متَّصفاً به فما طريقُ دفعهِ والعافيَةِ منه ؟ وإن لـم يكن متَّصفاً به فما طريقُ حفظِ الصحَّةِ وبقائهِ على العافيَةِ والاحترازِ منهُ ؟ وكذلكَ الفكرَةُ في الصِّفَةِ الـمحبوبَةِ تستدعي ثلاثَةَ أمور :

● أحدها : أنَّ هذه الصِّفَةَ هل هي محبوبةٌ للَّهِ مُرضيَةٌ لـهُ أم لا ؟

● الثَّاني : هَل العَبدُ متَّصفٌ بها أم لا ؟

● الثَّالث : أنَّهُ إذا كانَ متَّصِفاً بها فما طريقُ حفظِها ودوامِها وإن لـم يكُن متَّصفاً بها فما طريقُ اجتلائِها والتخلُّقِ بها ؟

ثمَّ فكرتُهُ في الأفعالِ على هذين الوجهَين أيضاً سواءٌ، ومجاري هذه الأفكارِ ومواقعها كثيرةٌ جداً لا تكادُ تنضبطُ وإنَّما يـحصرها ستَّةُ أجناسٍ :

الطَّاعاتُ الظَّاهِرَةُ والباطنَةُ .

المعاصي الظّاهِرَةُ والباطنَةُ .

الصِّفاتُ والأخلاقُ الحميدَة .

والأخلاقُ والصِّفاتُ الذَّميمَة .

فهذه مجاري الفكرَةِ في صفاتِ نفسهِ وأفعالِها، وأمَّا الفكرَةُ في صفاتِ المعبودِ وأفعالهِ فتوجبُ له التَّمييزَ بينَ الإيمانِ والكُفرِ، والتَّوحيدِ والشركِ، والإقرارِ والتَّعطيلِ، وتَنريهِ الرَّبِّ عمَّا لا يَليقُ بِهِ ووصفهُ بما هو أهلهُ من الجلالِ والإكرامِ .

ومجاري هذه الفكرَة تدبُّرُ كلامهِ وما تعَرَّفَ به سبحانهُ إلى عبادهِ على ألسنَةِ رسلهِ من أسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ، وما نَزَّهَ نَفسهُ عنهُ ممَّا لا يَنبغي لهُ ولا يَليقُ به سبحانهُ، وتدَبُّرُ أيَّامهِ وأفعالهِ في أوليائهِ وأعدائهِ التي قصَّها على عبادهِ وأشهَدهُم إيَّاها، ليَستدلُّوا بها على أنَّهُ إلهَهُم الحقُّ المبينُ الذي لا تنبَغي العبادَةُ إلّا لهُ، ويَستدلُّوا بها على أنَّهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٍ، وأنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٍ، وأنَّهُ شديدُ العقابِ، وأنَّهُ غفورٌ رحيمٌ، وأنَّهُ العزيزُ الحكيمُ، وأنَّهُ الفعَّالُ لما يريدُ، وأنَّهُ الذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمَةً وعلماً، وأنَّ أفعالَهُ كلَّها دائرَةٌ بينَ الحكمَةِ والرَّحمَةِ، والعَدلِ والمصلَحَةِ لا يخرجُ شيءٌ منها عن ذلكَ، وهذه الثَّمرَةُ لا سبيلَ إلى تَحصيلها إلّا بتدبُّرِ كلامهِ، والنَّظَرِ في آثارِ أفعالهِ .

وإلى هذين الأصلين نَدَبَ عبادَهُ في القرآنِ فقال في الأصلِ الأوَّلِ : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرونَ القرآنَ ﴾ [النساء : ٨٢]، ﴿ أفَلَم يَدَّبَّروا القولَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨]، ﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبَّروا آياتهِ ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال في الأصلِ الثَّاني : ﴿ قل انظُروا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ ﴾ [يونس : ١٠١]، ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألباب * الذينَ يَذكرونَ اللَّهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكَّرونَ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١] .

ونوَّعَ سبحانهُ الآياتِ في هذه السُّوَرِ :

فَجَعَلَ خَلقَ السَّمواتِ والأرضِ، واختلافَ لغاتِ الأُمَمِ وألوانهم آياتٍ للعالمين كلِّهم لاشتراكهم في العلمِ بذلكَ، وظهورهِ ووضوحِ دلالتهِ .

وجَعَلَ خَلقَ الأزواجِ التي تَسكُن إليها الرِّجالُ وإلقاءَ المودَّةِ والرَّحمَةِ بينهم آياتٍ لقومٍ يتفكَّرون، فإنَّ سكونَ الرَّجلِ إلى امرأتهِ، وما يكونُ بينهما من المودَّةِ والتَّعاطفِ والتَّراحمِ أمرٌ باطنٌ مشهودٌ بعَينِ الفكرَةِ والبَصيرَةِ، فمتى نَظَرَ بهذه العَينِ إلى الحكمَةِ والرَّحمَةِ والقُدرَةِ التي صَدَرَ عنها ذلكَ دلَّهُ فكرُهُ على أنَّهُ الإلهُ الحقُّ المبين الذي أقرَّت الفِطَرُ بربوبيَّتهِ وإلاهيَّتهِ وحكمتهِ ورحمتهِ .

وجَعَلَ المنامَ باللَّيلِ والنَّهارِ للتَّصرُّفِ في المعاش وابتغاءِ فَضلهِ آياتٍ لقومٍ يسمعونَ، وهو سمعُ الفَهمِ وتدبُّرُ هذه الآياتِ وارتباطها بما جُعلَت آيَةً لهُ ممَّا أخبَرَت به الرُّسُلُ من حياةِ العبادِ بعدَ موتهم وقيامِهم من قبورِهم كما أحياهم سبحانهُ بعدَ موتهم وأقامهم للتَّصرُّفِ في معاشهم، فهذه الآيَةُ إنَّما ينتفعُ بها من سمعَ ما جاءَت به الرُّسلُ وأصغى إليهِ واستدلَّ بهذه الآيَةِ عليهِ .

وجَعَلَ إرادتهم البَرقَ وإنزالَ الماءِ من السَّماءِ وإحياءَ الأرضِ بهِ آياتٍ لقومٍ يعقلونَ، فإنَّ هذه أمورٌ مرئيَّةٌ بالإبصارِ مشاهَدَةٌ بالحسِّ، فإذا نَظَرَ فيها ببصَرِ قلبهِ وهو عقلُهُ استدلَّ بها على وجودِ الرَّبِّ تعالى وقدرتهِ وعلمهِ ورحمتهِ

وحكمتهِ وإمكانِ ما أخبَرَ به من حياةِ الخلائقِ بَعدَ موتهم كما أحيا هذه الأرضَ بعدَ موتها، وهذه أمورٌ لا تُدركُ إلّا بِبَصَرِ القَلبِ وهو العقلُ، فإنَّ الحسَّ دلَّ على الآيَةِ، والعَقلَ دلَّ على ما جُعلَت لهُ آيةٌ، فَذَكَرَ سبحانهُ الآيَةَ المشهودَةَ بالبَصرِ والمدلولَ عليهِ المشهودَ بالعَقلِ فقال : ﴿ ومِن آياتهِ يُريكُم البَرقَ خَوفاً وطَمعاً وينزِّلُ من السَّماءِ ماءً فَيُحيي بهِ الأرضَ بعدَ موتها إنَّ في ذلكَ لآياتٌ لقَومٍ يعقلون ﴾ [الروم : ٢٤]، فتبارَكَ الذي جَعَلَ كلامَهُ حياةً للقلوبِ وشفاءً لما في الصُّدورِ .

وبالجملَةِ فلا شيءَ أنفعُ للقَلبِ من قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ، فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرينَ وأحوالِ العاملينَ ومقاماتِ العارفينَ، وهو الذي يورثُ المحبَّةَ والشوقَ والخَوفَ والرَّجاءَ والإنابَةَ والتَّوكُّلِ وللرِّضا والتَّفويضَ والشكرَ والصَّبرَ وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُهُ، وكذلكَ يزجرُ عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومَةِ التي بها فسادُ القَلبِ وهلاكُهُ، فلو علمَ النَّاسُ ما في قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ لاشتَغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأَهُ بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيَةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كرَّرَها ولو مئةَ مرَّةٍ ولو ليلَةً، فقراءَةُ آيَةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خَيرٌ من قراءَةِ ختمَةٍ بغيرِ تَدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفَعُ للقَلبِ وأدعى إلى حصولِ الإيمانِ وذوقِ حلاوَةِ القرآنِ، وهذه كانَت عادَةُ السَّلَفِ يُرَدِّدُ أحدُهم الآيَةَ إلى الصَّباحِ .

فقراءَةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هي أصلُ صلاحِ القَلبِ، ولهذا قال ابن مسعودٍ : لا تَهذوا القرآنَ هَذَّ الشِّعرِ، ولا تَنثروهُ نثرَ الدَّقل، وقفوا عند عجائبهِ، وحرِّكوا به القلوبَ، لا يكُن همُّ أحدِكُم آخرَ السُّورَةِ .

والتّفكُّر في القرآنِ نوعان :

- ● تفكُّرٌ فيه ليقعَ مرادُ الرَّبِّ تعالى منه .
- ■ وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ فيه .
- ○ **فالأوَّلُ** : تفكُّرٌ في الدَّليل القرآني .
- □ **والثَّاني** : تفكُّرٌ في الدَّليلِ العياني .
- ○ **الأوَّلُ** : تفكُّرٌ في آياتهِ المسموعَةِ .
- □ **والثَّاني** : تفكُّرٌ في آياتهِ المشهودَةِ .

ولهذا أنزَلَ اللَّهُ القرآنَ، ليُتدبَّرَ، ويُتفكَّرَ فيهِ، ويُعمَلَ بهِ، لا لمجرَّدِ تلاوتِهُ مع الإعراضِ عنهُ .

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

وإذا تأمَّلتَ ما دَعى اللَّهُ سبحانهُ في كتابهِ عبادَهُ إلى الفكرِ فيهِ أوقَعَكَ على العلمِ بهِ سبحانه وتعالى بوحدانيَّتِهِ، وصفاتِ كمالِهِ، ونعوتِ جلالِهِ من عمومِ قدرتِهِ وعلمِهِ، وكمالِ حكمَتِهِ، ورحمتِهِ، وإحسانِهِ، وبرِّهِ، ولطفهِ، وعَدلِهِ، ورضاهُ، وغضبهِ، وثوابهِ، وعقابهِ، فبهذا تَعَرَّفَ إلى عبادِهِ، ونَدَبَهُم إلى التَّفكُّرِ في آياتهِ .

ونَذكرُ لذلكَ أمثلَةً ممَّا ذَكرها اللَّهُ سبحانهُ في كتابهِ ليَستدلَّ بها على غَيرها :

فَمِنْ ذلكَ خَلْقُ الإنسانِ، وقَد نَدَبَ سبحانهُ إلى التَّفكُّرِ فيهِ والنَّظَرِ في غيرِ موضعٍ من كتابهِ، كقولِهِ تعالى : ﴿ فَليَنظُرِ الإنسانُ ممَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق : ٥]، وقوله تعالى : ﴿ وفي أنفُسكُم أفلا تُبصِرونَ ﴾ [الذاريات : ٢١]، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنِ كُنتُم في رَيبٍ منَ البَعثِ فإنَّا خَلَقناكُم من تُرابٍ ثمَّ من نُطفَةٍ ثمَّ من عَلَقَةٍ ثمَّ من مُضغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لكُم ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمَّى ثمَّ نُخرجكُم طفلاً ثمَّ لتَبلغوا أشدَّكُم ومنكُم مَن يُتَوفَّى ومنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لكَيلا يَعلَمَ من بَعدِ علمٍ شيئاً ﴾

[الحج : ٥]، وقال : ﴿ ولَقَد خَلَقنا الأنسانَ من سلالَةٍ من طينٍ * ثمَّ جَعَلناهُ نُطفَةً في قرارٍ مَكينٍ * ثمَّ خَلَقنا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقنا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلَقنا المُضغَةَ عظماً فَكَسَونا العِظامَ لَحماً ثمَّ أنشأناهُ خَلقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أحسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ يَدعو العَبدَ إلى النَّظَرِ والفكرِ في مبدأ خلقهِ ووسطهِ وآخرهِ إذ نَفسُهُ وخلقُهُ من أعظَمِ الدَّلائلِ على خالقهِ وفاطرهِ، وأقربُ شيءٍ إلى الإنسانِ نفسُهُ، وفيه من العجائبِ الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ اللَّهِ ما تَنقَضي الأعمارُ في الوقوفِ على بَعضهِ، وهو غافلٌ عنهُ، معرضٌ عن التَّفكيرِ فيهِ، ولو فكَّرَ في نفسهِ لزجرهُ ما يعلمُ من عجائبِ خلقِها عن كفرِه، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ * من أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ * من نُطفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثمّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ * ثمَّ أماتَهُ وأقبَرَهُ * ثمَّ إذا شاءَ أنشرَهُ ﴾ [عبس : ١٧ - ٢٢]، فلم يُكرِّر سبحانهُ على أسماعنا وعقولنا ذكرَ هذا لنسمعَ لفظَ النُّطفَةِ والعَلَقَةِ والمُضغَةِ والتُّرابِ، ولا لنتكلَّمَ بها فَقَط، ولا لمُجرَّد تَعريفنا بذلكَ بل لأمرٍ وراءَ ذلكَ كلِّهِ هو المقصودُ بالخطابِ، وإليهِ جَرى ذلكَ الحديث .

فانظُر الآن إلى **النُّطفَةِ** بعَينِ البَصيرَةِ، وهي قَطرَةٌ من ماءٍ مَهينٍ ضَعيفٍ مُستَقذَرٍ، لو مرَّت بها ساعَةٌ من الزَّمانِ فَسدَت وأنتَنَت كيفَ استَخرَجها العليمُ القَديرُ من بينِ الصُّلبِ والتَّرائبِ، منقادَةً لقدرتهِ، مُطيعَةً لمشيئته، مذلَّلَةَ الانقيادِ على ضيقِ طرقِها واختلافِ مجاريها إلى أن ساقَها إلى مُستَقرِّها ومجمعها ؟ وكيفَ جمَعَ سبحانهُ بينَ الذَّكَرِ والأُنثى وألقى المحبَّةَ بينهما ؟ وكيفَ قادهما بسلسلَةِ الشهوَةِ والمحبَّةِ إلى الإجتماعِ الذي هو

سببُ تخليقِ الوَلَدِ وتَكوينهِ ؟ وكيفَ قَدرَ اجتماعِ ذينكَ الماءين مع بُعدِ كلٍّ منهما عن صاحبِهِ وساقهما من أعماقِ العروقِ والأعضاءِ، وجمعهما في موضعٍ واحدٍ جَعَلَ لهما قَراراً مكيناً لا ينالهُ هواءٌ يُفسدهُ، ولا بَردٌ يجمّدهُ، ولا عارضٌ يَصلُ إليهِ، ولا آفَةٌ تَتسلَّطُ عليهِ، ثمَّ قَلَبَ تلكَ النُّطفَةَ البيضاءَ المُشرَبَةَ عَلَقَةً حمراءَ تَضربُ إلى سَوادٍ، ثمَّ جعلها مُضغَةَ لحمٍ مخالفَةً للعَلَقَةِ في لونها وحقيقتها وشكلها، ثمَّ جعلها عظاماً مجرَّدَةً لا كسوَةَ عليها مباينَةً للمُضغَةِ في شكلها وهيآتها وقَدرها وملمسها ولونها ؟

وانظر كيفَ قسَّمَ تلكَ الأجزاءَ المتشابهَةَ المتساويَةَ إلى الأعصابِ والعظامِ والعروقِ والأوتارِ واليابسِ واللينِّ وبيَّنَ ذلكَ ؟ ثمَّ كيفَ رَبَطَ بعضها ببَعضٍ أقوى رباطٍ وأشدَّهُ، وأبعَدَهُ عن الانحلالِ ؟ وكيفَ كساها لحماً ركَّبهُ عليها، وجعَلَهُ وعاءً لها، وغشاءً وحافظاً، وجعلها حاملَةً له مُقيمَةً له، فاللحمُ قائمٌ بها، وهي محفوظَةٌ بِهِ ؟ وكيفَ صوَّرها فأحسَنَ صورها، وشقَّ لها السَّمع والبَصَرَ والفمَ والأنفَ وسائرَ المنافذِ، ومدَّ اليَدينِ والرِّجلَينِ وبسطهما، وقسَّمَ رؤسهما بالأصابعِ، ثمَّ قسَّمَ الأصابع بالأناملِ، وركَّبَ الأعضاءَ الباطنَةَ من القَلبِ والمعدَةِ والكَبدِ والطُّحالِ والرِّئَةِ والرَّحمِ والمثانَةِ والأمعاءِ كلَّ واحدٍ منها لهُ قَدرٌ يخصُّهُ ومنفعَةٌ تخصُّهُ ؟

ثمَّ انظر الحكمَةَ البالغَةَ في تركيبِ **العظام** قواماً للبَدنِ وعماداً لهُ، وكيفَ قدَّرها ربُّها وخالقُها بتقاديرَ مختلَفَةٍ، وأشكالٍ مختلفَةٍ، فمنها الصَّغيرُ والكبيرُ، والطَّويلُ والقَصيرُ، والمُنحَني والمُستَدير، والدَّقيقُ والعَريضُ، والمصمتُ والمجوَّفُ ؟ وكيفَ ركَّبَ بَعضَها في بَعضٍ فمنها ما تركيبهُ

تركيبُ الذَّكرِ في الأُنثى، ومنها ما تركيبهُ تركيبُ اتِّصالٍ فَقَط ؟ وكيفَ اختَلَفَت أشكالُها باختلافِ منافعِها كالأضراسِ فإنَّها لما كانت آلَةً للطَّحنِ جُعلَت عَريضَةً، ولما كانَت الأسنانُ آلَةً للقَطعِ جُعلَت مُستدقَةً محدَّدَةً، ولما كان الإنسانُ مُحتاجاً إلى الحَرَكَةِ بجملَةِ بَدَنهِ وببَعضِ أعضائهِ للتَّردُّدِ في حاجتهِ لم يَجعَلِ عظامهُ عظماً واحداً بل عظاماً متعدِّدَةً، وجَعَلَ بينها مفاصلَ حتى تَتيسَّرَ بها الحَرَكَة، وكان قَدرُ كلٍّ واحدٍ منها وشكلُهُ على حَسَبِ الحركةِ المطلوبَةِ منهُ ؟ وكيفَ شدَّ أسرَ تلكَ المفاصلِ والأعضاءِ، وربَطَ بَعضَها ببعَضٍ بأوتارٍ ورباطاتٍ أنبتها من أحَدِ طَرَفي العظمِ، وألصَقَ أحَدَ طَرَفَي العظم بالطَّرفِ الآخَرِ كالرِّباطِ لهُ، ثمَّ جَعَلَ في أحَدِ طَرَفَي العظمِ زوائدَ خارجةً عنهُ، وفي الآخرِ نقراً غائصَةً فيه موافقَةً لشكلِ تلكَ الزَّوائدِ، ليدخُلَ فيها وينطبقُ عليها، فإذا أرادَ العَبدُ أن يحرِّكَ جزء من بَدَنهِ لم يمتنعُ عليهِ، ولولا المفاصلُ لتعذَّرَ ذلكَ عليهِ .

وتأمَّل كيفيَّةَ خَلقِ **الرَّأسِ** وكثرَةِ ما فيهِ من العظامِ حتى قيلَ : إنَّها خمسةٌ وخمسونَ عَظماً مختلفَةَ الأشكالِ والمقاديرِ والمنافعِ، وكيفَ ركَّبهُ سبحانهُ وتعالى على البَدنِ وجَعَلَهُ عالياً عُلوَّ الرَّاكبِ على مركوبهِ، ولما كانَ عالياً على البَدَنِ جَعَلَ فيه الحواسَّ الخمسَ، وآلاتِ الإدراكِ كلِّها من السَّمعِ والبَصَرِ والشمِّ والذَّوقِ واللمسِ .

وجَعَلَ **حاسَّةَ البَصَرِ** في مقدِّمَهِ ليكونَ كالطَّليعَةِ والحَرَسِ والكاشفِ للبَدنِ .

ثمَّ أركزَ سبحانهُ داخلها خَلقاً عَجيباً وهو إنسانُ العَينِ بقَدرِ العَدَسَةِ يُبصرُ به ما بينَ المشرقِ والمَغربِ والأرضِ والسَّماءِ، وجعَلَهُ من العَينِ بمنزلَةِ القَلبِ من الأعضاءِ، فهو مَلِكُها وتلكَ الطَّبقاتُ والأجفانُ والأهدابُ خَدَمٌ له وحُجّابٌ وحُرّاسٌ؛ فتباركَ اللَّهُ أحسَنُ الخالقين .

فانظر كيفَ حسَّنَ شكلَ العَينينِ وهيأتهما ومقدارهما ثمَّ جمَّلهما بالأجفانِ غطاءً لهما وستراً وحفظاً وزينَةً، فهما يتلقَّيانِ عن العَينِ الأذى والقذى والغبارَ، ويكنانهما من البارِدِ المؤذي والحارِّ المؤذي، ثمَّ غَرَسَ في أطرافِ تلكَ الأجفانِ الأهدابَ جمالاً وزينَةً ولمنافعِ أُخَر وراءَ الجمالِ والزِّينَةِ .

وشقَّ لهُ **السَّمعَ**، وخَلَقَ الأذنَ أحسَنَ خِلقَةٍ وأبلَغها في حصولِ المقصودِ منها؛ فجعلَها مجوَّفَةً كالصَّدَفَةِ لتجمعَ الصَّوتَ، فتؤدِّيه إلى الصِّماخِ، وليحسَّ بدبيبِ الحيوانِ فيها، فيبادرَ إلى إخراجِهِ وجَعلَ فيها غصوناً وتجاويفَ واعوجاجاتٍ تمسكُ الهواءَ والصَّوتَ الدَّاخلَ، فتكسرَ حدَّتهُ ثمَّ تؤدِّيهِ إلى الصِّماخِ، ومن حكمةِ ذلكَ أن يطولَ به الطَّريقُ على الحيوانِ فلا يَصلُ إلى الصِّماخِ حتى يستَيقظَ أو ينتبهَ لإمساكِهِ .

ثمَّ اقتَضَت حكمَةُ الرَّبِّ الخالقِ سبحانهُ أن جَعَلَ ماءَ الأذُنِ مُرّاً في غايَةِ المرارَةِ، فلا يجاوُزهُ الحيوانُ ولا يَقطعُهُ داخلاً إلى باطنِ الأذنِ بل إذا وَصَلَ إليهِ أعمَلَ الحيلَةَ في رجوعِهِ، وجعَلَ ماءَ العَينين ملحاً ليحفظهما، فإنَّهما شحمَةٌ قابلَةٌ للفسادِ، فكانَت ملوحَةُ مائها صيانَةً لها وحفظاً، وجَعَلَ ماءَ الفمِ عَذباً حلواً ليدركَ به طعومَ الأشياءِ على ما هي عليهِ إذ لو كانَ على غيرِ هذه الصِّفَةِ لأحالها إلى طبيعتِهِ كما أنَّ مَن عَرَّض لفمِهِ المرارَةَ استمرَّ طعمُ الأشياءِ التي

ليسَت بـمُرَّةٍ كما قيل :

ومَن يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مَريضٍ يـجد مُرّاً بِهِ الـماءَ الزُّلالا

ونَصَبَ سبحانهُ قَصَبَةَ **الأنـفِ** في الوجهِ فأحسَنَ شكلَهُ وهيأتَهُ ووَضعَهُ، وفتحَ فيه المِنخرَين، وحجَزَ بينهما بحاجزٍ، وأودَعَ فيهما حاسَّةَ الشمِّ التي تُدْرَكُ بها أنواع الرَّوائحِ الطَّيِّبَةِ، والخبيثَةِ، والنَّافعَةِ، والضَّارَّةِ، ليستنشقَ به الهواءَ، فيوصلهُ إلى القَلبِ، فيتروَّح به ويتغذَّى به، ثمَّ لم يجعَل في داخلهِ من الاعوجاجاتِ والغضونِ ما جَعَلَ في الأذنِ لئلّا يمسكَ الرَّائحَةَ فيضعفها ويقطعَ مجراها .

وأيضاً؛ فإنَّهُ لما كانَ عضواً واحداً وحاسَّةً واحدةً، ولم يكُن عضوَين وحاسَّتين كلأذنين والعَينين اللتين اقتَضَت الحكمَةُ تعدُّدهما، فإنَّهُ ربَّما أصيبت إحداهما أو عَرَضَت لها آفَةٌ تمنعها من كمالِها، فتكونُ الأُخرى سالمَةً فلا تَتَعطَّلُ منفعةُ هذا الحسِّ جملَةً، وكانَ وجودُ أنفينِ في الوجهِ شيئاً ظاهراً، فنَصَبَ أنفاً واحداً، وجعَلَ فيهِ منفذينِ حجَزَ بينهما بحاجزٍ يجري مجرى تَعدُّدِ العَينين والأذنين في المنفعَةِ وهو واحدٌ، فتبارَكَ اللَّهُ ربُّ العالمين، وأحسَنُ الخالقين .

وشقَّ سبحانهُ للعَبدِ **الفَـمَ** في أحسَنِ موضعٍ وأليَقهِ بِهِ، وأودَعَ فيهِ من المنافعِ وآلاتِ الذَّوقِ والكلامِ، وآلاتِ الطَّحنِ والقَطعِ ما يبهرُ العقولَ عجائبُهُ، فأودَعَهُ **اللسـانَ** الذي هو أحدُ آياتهِ الدَّالَّةِ عليهِ، وجعَلَهُ ترجماناً لملكِ الأعضاءِ مبيِّناً مؤدِّياً عنهُ، كما جَعَلَ الأذنَ رسولاً مؤدِّياً مبلِّغاً إليهِ، فهي رسولهُ

وبَريدُهُ الذي يؤدِّي إليهِ الأخبارَ، واللسانُ بَريدُهُ ورَسولُهُ الذي يؤدِّي عنهُ ما يريدُ .

واقتَضَت حكمتُهُ سبحانهُ أن جَعَلَ هذا الرَّسولَ مصوناً محفوظاً مستوراً غَيرَ بارزٍ مكشوفٍ كالأُذنِ والعَينِ والأنفِ، لأنَّ تلكَ الأعضاءَ لما كانت تؤدِّي من الخارجِ إليهِ جُعلَت بارزَة ظاهرَة، ولما كانَ اللسانُ مؤدِّياً منهُ إلى الخارجِ جعلَ لهُ ستراً مصوناً لعَدمِ الفائدَةِ في إبرازِهِ، لأنَّهُ لا يأخذُ من الخارجِ إلى القَلبِ .

وأيضاً؛ فلأنَّهُ لما كانَ أشرَفَ الأعضاءِ بعدَ القلبِ، ومنزلتهُ منه منزلَة تُرجُمانِهِ ووزيرِهِ ضُربَ عليهِ سرادقُ تَستُرهُ وتصونُهُ، وجُعلَ في ذلكَ السُّرادقِ كالقَلبِ في الصَّدرِ .

وأيضاً؛ فإنَّهُ من ألطَفِ الأعضاءِ وأليَنِها وأشدِّها رطوبَةً، وهو لا يتصرَّفُ إلّا بواسطَةِ الرُّطوبَةِ المحيطَةِ به، فلو كانَ بارزاً صارَ عُرضَةً للحرارةِ واليُبوسَةِ والنَّشافِ المانعِ لهُ من التَّصرُّفِ، ولغَيرِ ذلكَ من الحكَمِ والفوائدِ .

ثمَّ زيَّنَ سبحانهُ الفَمَ بما فيه من **الأسنانِ** التي هُنَّ جمالٌ لهُ وزينةٌ، وبها قوامُ العَبدِ وغذاؤهُ، وجَعلَ بعضَها أرحاءَ للطَّحنِ، وبعضها آلَةً للقَطعِ، فأحكَمَ أصولَها، وحدَّدَ رؤوسها، وبيَّضَ لونَها، ورتَّبَ صفوفها متساويَةَ الرُّؤوسِ متناسقَةَ التَّرتيبِ كأنَّها الدُّرُّ المنظومُ بياضاً وصفاءً وحُسناً، وأحاطَ سبحانهُ على ذلك حائطين، وأودعهما منَ المنافعِ والحكمِ ما أودعهما، وهما **الشفتانِ**، فحسَّنَ لونَهما، وشكلَهما، ووضعَهما، وهيَّأهما، وجعلَهما غطاءً للفَمِ وطبقاً لهُ، وجعلهما إتماماً لمخارجِ حروفِ الكلامِ ونهايَةً لهُ، كما

جَعَلَ أقصى الحَلقِ بدايَةً لهُ، واللسانَ وما جاوَرَهُ وسطاً، ولهذا كانَ أكثَرُ العمَلِ فيها لهُ إذ هو الواسطَةُ، واقتَضَت حكمتُهُ أن جَعلَ الشفتين لحماً صرفاً لا عظمَ فيهِ ولا عَصَبَ؛ ليتمكَّنَ بهما من مَصِّ الشرابِ، ويسهلَ عليهِ فتحُهما وطبقُهما، وخصَّ الفكَّ الأسفَلَ بالتَّحريكِ، لأنَّ تَحريكَ الأخفِّ أحسنُ، ولأنَّهُ يشتملُ على الأعضاءِ الشريفَةِ، فلم يخاطر بها في الحركةِ .

وخَلَقَ سبحانهُ **الحناجِرَ** مختلفَةَ الأشكالِ في الضِّيقِ والسَّعةِ، والخشونَةِ والملامسةِ، والصَّلابَةِ واللينِ، والطُّولِ والقِصَرِ، فاختلَفَت بذلكَ **الأصواتُ** أعظَمَ اختلافٍ، ولا يكادُ يشتبهُ صوتانِ إلّا نادراً. ولهذا كانَ الصَّحيحُ قبولَ شهادَةِ الأعمى لتمييزهِ بين الأشخاصِ بأصواتهم كما يميزُ البَصيرُ بينهم بصُوَرهم، والاشتباهُ العارضُ بينَ الأصواتِ كالاشتباهِ العارضِ بينَ الصُّوَرِ .

وزيَّنَ سبحانهُ **الرَّأسَ بالشعرِ**، وجَعَلهُ لباساً لهُ، لاحتياجهِ إليهِ، وزيَّنَ **الوجهَ** بما أنبتَ فيهِ من الشعورِ المختلفَةِ الأشكالِ والمقاديرِ، فزيَّنهُ بالحاجبينِ وجعلهما وقايَةً لما يتحدَّرُ من بَشرَةِ الرَّأسِ إلى العَينين، وقوَّسهما وأحسَنَ خطَّهما، وزيَّنَ أجفانَ العينين بالأهدابِ، وزيَّنَ الوجهَ أيضاً باللحيَةِ وجعلها كمالاً ووقاراً ومهابَةً للرَّجلِ، وزيَّنَ الشفتين بما أنبَتَ فوقهما من الشاربِ وتحتهما من العنفَقَة .

وكذلكَ خَلق سبحانهُ **اليَدينِ** اللتين هما آلَةُ العَبدِ وسلاحُهُ ورأسُ مالِ معاشهِ، فطوَّلهما بحيثُ يصلانِ إلى ما شاءَ من بَدنهِ، وعرَّضَ **الكفَّ**

ليتمكَّنَ بهِ من القَبضِ والبَسطِ، وقسَّمَ فيهِ **الأصابعَ الخمسَ**، وقسَّمَ كلَّ إصبَعٍ بثلاثِ أناملَ والإبهامَ باثنتين، ووضعَ الأصابعَ الأربعَةَ في جانبٍ والإبهامَ في جانبٍ، لتدورَ الإبهامُ على الجميع فجاءَت على أحسَنِ وضعٍ صَلَحت به للقَبضِ والبَسطِ، ومباشَرَةِ الأعمالِ، ولو اجتَمَعَ الأوَّلونَ والآخرونَ على أن يَستنبطوا بدقيقِ أفكارِهم وضعاً آخَرَ للأصابعِ سوى ما وُضعَت عليهِ لم يجدوا إليهِ سبيلاً، فتبارَكَ من لو شاءَ لسوَّاها وجعَلها طبقاً واحداً كالصَّفيحَةِ، فلم يتمكَّن العَبدُ بذلكَ من مصالحهِ وأنواعِ تَصرُّفاتِهِ ودقيقِ الصَّنائعِ والخطِّ وغير ذلكَ، فإن بَسطَ أصابِعَهُ كانَت طبقاً يضعُ عليهِ ما يريدُ، وإن ضمَّها وقبضَها كانَت دبُّوساً وآلَةً للضَّربِ، وإن جعلها بينَ الضَّمِّ والبَسطِ كانَت مغرفةً لهُ يتناوَلُ بها، ويُمسكُ فيها ما يتناولهُ، وركَّبَ **الأظفار** على رؤسها زينَةً لها وعماداً ووقايَةً، وليلتقطَ بها الأشياءَ الدَّقيقَةَ التي لا ينالها جسمُ الأصابعِ، وجعَلها سلاحاً لغيرهِ من الحيوانِ والطَّيرِ، وآلَةً لمعاشهِ، وليحكَّ الإنسانُ بها بَدَنَهُ عندَ الحاجَةِ، فالظُّفرُ الذي هو أقلُّ الأشياءِ وأحقرُها لو عدمهُ الإنسانُ ثمَّ ظَهَرَت به حكَّةٌ شديدَةٌ لاشتَدَّت حاجتُهُ إليهِ، ولم يقم مقامَهُ شيءٌ في حكِّ بَدنهِ، ثمَّ هَدى اليَدَ إلى موضعِ الحكِّ حتى تمتدَّ إليهِ ولو في النَّومِ والغَفلَةِ من غيرِ حاجَةٍ إلى طَلَبٍ، ولو استعانَ بغيرهِ لم يعثُر على موضعِ الحكِّ إلّا بَعدَ تَعَبٍ ومشقَّةٍ .

ثمَّ انظُر إلى الحكمَةِ البالغَةِ في جعلِ **عظامِ أسفَلِ البَدنِ** غليظَةً قويَّةً؛ لأنَّها أساسٌ لهُ، وعظام أعاليه دونها في الثَّخانَةِ والصَّلابَةِ؛ لأنَّها محمولَةٌ .

ثمَّ انظر كيفَ جَعلَ **الـرَّقـبَـة للـرَّأسِ** وركَّبها من سبعِ خرزاتٍ مجوَّفاتٍ مستديراتٍ، ثمَّ طبَّقَ بعضُها على بَعضٍ، وركَّبَ كلَّ خَرَزَةٍ تركيباً محكماً متقناً حتى صارَت كأنَّـها خَرَزةٌ واحدَةٌ، ثمَّ ركَّبَ الرَّقَبَةَ على الظَّهرِ والصَّدرِ، ثمَّ ركَّبَ **الـظَّـهـرَ** من أعلاهُ إلى منتهى عَظمِ العجزِ من أربعٍ وعشرينَ خَرَزةٍ مركَّبَة بعضها في بَعضٍ هي مجمعُ أضلاعهِ، والتي تُمسكها أن تنحلَّ وتنفصل، ثمَّ وصَلَ تلكَ العظامَ بَعضها ببَعضٍ، فوَصَلَ عظامَ الظَّهرِ بعظامَ الصَّدرِ، وعظامَ الكتفينِ بعظامِ العَضدَين، والعضدينِ بالذِّراعين، والذِّراعَين بالكَفِّ والأصابعِ .

وانظر كيفَ كسا **العظامَ العريضَة** كعظامِ الظَّهرِ والرَّأسِ كسوَةً من اللحمِ تناسبها، **والعظامَ الدَّقيقة** كسوَةً تناسبها كالأصابعِ، والمتوسِّطَةِ كذلكَ كعظامِ الذِّراعَينِ والعَضدَينِ، فهو مركَّبٌ على ثلاث مئةٍ وستِّينَ عظماً، مائتانِ وثمانيَةٍ وأربعونَ مفاصلَ، وباقيها صغارٌ حُشيَت خلالَ المفاصلِ، فلو زادَت عظماً واحداً لكانَ مضرَّةً على الإنسانِ يحتاجُ إلى قَلعهِ، ولو نَقَصَت عظماً واحداً كانَ نقصاناً يحتاجُ إلى جَبرهِ، فالطَّبيبُ ينظرُ في هذه العظامِ وكيفيَّةِ تركيبها ليعرفَ وجهَ العلاجِ في جَبرها، والعارفُ ينظرُ فيها ليَستدلَّ بها على عَظَمَةِ باريها وخالقها وحكمتهِ وعلمهِ ولطفهِ، وكم بينَ النَّظَرين .

ثمَّ إنَّهُ سبحانهُ رَبَطَ تلكَ الأعضاءَ والأجزاءَ **بالـرَّباطـاتِ**، فشدَّ بها أسرَها، وجعلها كالأوتارِ تمسكها وتحفظها حتى بلَغَ عَددها إلى خمسمائةٍ وتسعَةٍ وعشرينَ رباطاً، وهي مختلفَةٌ في الغلظَةِ والدِّقَّةِ والطُّولِ والقِصَرِ

والاستقامَةِ والانحناءِ بحسبِ اختلافِ مواضعها ومحالِّها، فجعَلَ منها أربَعَةً وعشرينَ رباطاً آلَةً لتحريكِ العَينِ وفتحها وضمِّها وإبصارها لو نَقَصَت منهنَّ رباطاً واحداً اختلَّ أمرُ العَينِ، وهكذا لكلِّ عضوٍ من الأعضاءِ رباطاتٌ هنَّ لهُ كالآلاتِ التي بها يتحرَّكُ ويتصرَّفُ ويفعلُ كلٌّ ذلكَ صنعُ الرَّبِّ الحكيمِ وتَقديرُ العَزيزِ العليم في قَطرَةِ ماءٍ مَهينٍ، فويلٌ للمكذِّبينَ، وبُعداً للجاحدين .

ومن عجائب خَلقهِ ما فيهِ من الأمورِ الباطنَةِ التي لا تُشاهَدُ كالقَلبِ والكَبدِ والطِّحال والرِّئَةِ والأمعاءِ والمثانَةِ، وسائرِ ما في بَطنهِ من الآلاتِ العجيبَةِ والقوى المتعدِّدَةِ المختلفَةِ المنافعِ .

فأمَّا **القَلبُ** فهو الملكُ المستعمِلُ لجميعِ آلاتِ البَدَنِ والمستخدمُ لها، فهو محفوفٌ بها محشودٌ مخدومٌ مستَقرٌّ في الوَسطِ، وهو أشرَفُ أعضاءِ البَدنِ، وبهِ قوامُ الحياةِ، وهو منبعُ الرُّوحِ الحيوانيِّ والحرارَةِ والغريزيَّة، وهو معدنُ العَقلِ والعلمِ والحلمِ والشجاعَةِ والكرمِ والصَّبرِ والاحتمالِ والحبِّ والإرادَةِ والرِّضا والغَضَبِ وسائرِ صفاتِ الكمالِ، فجميعُ الأعضاءِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ وقواها إنَّما هي جُندٌ من أجنادِ القَلبِ .

فإنَّ العَينَ طليعتهُ ورائدهُ الذي يكشفُ له المرئيَّاتِ، فإنَّ رأت شيئاً أدَّتهُ إليهِ ولشدَّةِ الارتباطِ الذي بينها وبينه إذا استقرَّ فيهِ شيءٌ ظَهرَ فيها فهي مرآتهُ المترجمَةُ للنَّاظرِ ما فيهِ .

كما أنَّ اللسانَ ترجمانُهُ المؤدِّي للسَّمعِ ما فيهِ، ولهذا كثيراً ما يَقرنُ سبحانهُ في كتابهِ بينَ هذه الثَّلاثِ كقوله : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مسئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وكذلكَ **الأذُن** هي رسولةُ الـمؤدِّي إليهِ .

وبالـجملَةِ فسائرُ الأعضاءِ خَدَمُهُ وجنودُهُ، وقال النَّبيُّ ﷺ : « ألا إنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صَلَحَت صَلَحَ لـها سائرُ الجَسَدُ وإذا فَسَدَت فَسَدَ لـها سائرُ الـجَسَدِ ألا وهي القَلبُ » .[١]

وجُعلَت الرِّئَةُ له كالـمروَحةِ تروحُ عليهِ دائماً، لأنَّهُ أشدُّ الأعضاءِ حَرارَةً بل هو منبعُ الـحرارَةِ .

فأعِدِ الآنَ النَّظَرَ فيكَ وفي نَفسكَ مرَّةً ثانيَةً :

مَنِ الذي دبَّركَ بألطَفِ التَّدبيرِ، وأنتَ جنينٌ في بَطنِ أُمِّكَ في موضعٍ لا يَدَ تنالُكَ، ولا بَصَرَ يدركُكَ، ولا حيلَةَ لكَ في التمـاسِ الغذاءِ، ولا في دَفعِ الضَّرَرِ، فمَن الذي أجرى إليكَ من دمِ الأُمِّ ما يَغذوكَ كما يَغذو الماءُ النَّباتَ، وقَلَبَ ذلكَ الدَّمَ لبناً، ولم يَزَل يُغذِّيكَ بهِ في أضيَقِ المواضعِ وأبعدها من حيلَةِ التكسُّبِ والطَّلبِ حتى إذا كَمُلَ خلقُكَ واستحكَمَ، وقَوِيَ أديمُكَ على مباشَرَةِ الـهواءِ، وبصرُكَ على ملاقاةِ الضِياءِ، وصَلبت عظامُكَ على مباشَرَةِ الأيدي والتَّقلُّبِ على الغَبراءِ هاجَ الطَّلقُ بأُمِّكَ فأزعجكَ إلى الـخروجِ أيُّما إزعاجٍ إلى عالمِ الابتلاءِ، فركضَكَ الرَّحمُ ركضَةً من مكانكَ كأنَّهُ لم يضمُّكَ قطُّ، ولم يَشتمل عليكَ، فيا بعدَ ما بينَ ذلكَ القبولِ والاشتمالِ حينَ وُضِعتَ نُطفَةً، وبينَ هذا الدَّفعِ والطَّردِ والإخراجِ، وكانَ مُبتهجاً بـحملكَ فصارَ يَستغيثُ ويعجُّ إلى ربِّكَ من

(١) أخرجه البخاري (١ / ١٢٦ - فتح)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان ابن بشير - رضي اللّٰه عنهما .

ثقلكَ، فمَن الذي فَتَحَ لكَ بابهُ حتى وَلَجتَ، ثمَّ ضمَّهُ عليكَ حتى حُفِظَتَ وكَمُلَتَ، ثمَّ فتحَ لكَ البابَ ووَسَّعهُ حتى خَرَجتَ منه كلمحِ البَصَرِ لم يخنُقُكَ ضيقُهُ، ولم تَحبسكَ صعوبَةُ طَريقكَ فيه، فلو تأمَّلتَ حالكَ في دخولكَ من ذلكَ البابِ وخروجكَ منهُ لذَهَبَ بكَ العَجَبُ كلَّ مذهَبٍ .

فمَن الذي أوحى إليهِ أن يتضايَقَ عليكَ وأنتَ نُطفةٌ حتى لا تَفسُدَ هناكَ، وأوحى إليهِ أن يتَّسعَ لكَ وينفسحَ حتى تَخرجَ منهُ سليماً إلى أن خَرَجتَ فريداً وحيداً ضَعيفاً لا قشرَةَ ولا لباسَ ولا متاعَ ولا مالَ أحوجُ خَلقِ اللّهِ وأضعفُهُم وأفقرُهُم، فَصُرفَ ذلكَ اللبنُ الذي كنتَ تَتَغذَّى بهِ في بَطنِ أمِّكَ إلى خزانتين معلَّقتين على صَدرها تَحملُ غذاءَكَ على صَدرها كما حملتكَ في بَطنها، ثمَّ ساقهُ إلى تينكِ الخزانَتينِ ألطَفَ سَوقٍ على مجارٍ وطرقٍ قَد تهيَّأت له، فلا يزالُ واقفاً في طرقهِ ومجاريهِ حتى تَستوفي ما في الخزانَةُ، فيجري وينساقُ إليكَ فهو بئرٌ لا تَنقطعُ مادَّتُها، ولا تَنسدُّ طرقُها، يسوقُها إليكَ في طرقٍ لا يَهتدي إليها الطوَّافُ، ولا يَسلكُها الرِّجالُ ؟

فمَن رقَّقَهُ لكَ وصفَّاهُ، وأطابَ طَعمَهُ وحَسَّنَ لونَهُ، وأحكمَ طَبخَهُ أعدَلَ إحكامٍ؛ لا بالحارِّ المُؤذي، ولا بالباردِ الرَّدي، ولا المُرِّ، ولا المالحِ، ولا الكريهِ الرَّائحَةِ بل قَلَبَهُ إلى ضَربٍ آخَرَ منَ التَّغذيَةِ والمَنفعَةِ خلافَ ما كانَ في البَطنِ، فوافاكَ في أشدِّ أوقاتِ الحاجَةِ إليهِ على حينِ ظمأٍ شديدٍ وجوعٍ مفرطٍ، جمَعَ لكَ فيهِ بينَ الشرابِ والغذاءِ، فحينَ تولَدُ قَد تلمَّظت وحرَّكت شفتيكَ للرِّضاعِ، فتجدُ الثَّديَ المعلَّقَ كالادواةِ قَد تَدلَّى إليكَ وأقبلَ بَدرِّهِ عليكَ، ثمَّ جعَلَ في رأسهِ تلكَ الحلمَةَ التي هي بمقدارِ صغرِ فمكَ؛ فلا يَضيقُ عنها ولا

تَتعَبُ بالتقامها، ثمَّ نَقَبَ لكَ في رأسها نَقباً لطيفاً بحَسَبِ احتمالكَ، ولم يوسِّعهُ فتختنقَ باللبنِ، ولم يُضيِّقهُ فتمصَّهُ بكلفَةٍ بل جعَلَهُ بقَدرٍ اقتَضتهُ حكمتُهُ ومصلحتُكَ .

فمَن عطفَ عليكَ قَلبَ الأُمِّ وَوَضَعَ فيهِ الحنانَ العَجيبَ والرَّحمَةَ الباهرَةَ حتى تكونَ في أهنأِ ما يكونُ من شأنها وراحتِها ومَقيلها، فإذا أحسَّت منكَ بأدنى صوتٍ أو بُكاءٍ قامَت إليكَ، وآثَرَتكَ على نَفسها على عَدَدِ الأنفسِ منقادَةً إليكَ بغيرِ قائدٍ ولا سائقٍ إلّا قائد الرَّحمَةِ وسائق الحنانِ، تودُّ لو أنَّ كلَّ ما يؤلمكَ بجسمِها، وأنَّهُ لم يطرقكَ منهُ شيءٌ، وأنَّ حياتَها تُزادُ في حياتكَ ؟

فمن الذي وضعَ ذلكَ في قلبها حتى إذا قَوِيَ بدنُكَ، واتَّسعتَ أمعاؤكَ، وخشنَت عظامُكَ، واحتَجتَ إلى غذاءٍ أصلَبَ من غذائكَ؛ ليشتَدَّ به عظمُكَ، ويَقوى عليهِ لحمُكَ، وَضَعَ في فيكَ آلةَ القَطعِ والطَّحنِ، فَنَصَبَ لَكَ أسناناً تَقطَعَ بها الطَّعامَ، وطواحينَ تَطحنُهُ بها ؟

فمن الذي حَبَسها عنكَ أيَّامَ رضاعِكَ رَحمَةً بأُمِّكَ ولُطفاً بها، ثمَّ أعطاكها أيَّامَ أكلكَ رحمَةً بكَ وإحساناً إليكَ ولطفاً بكَ، فلو أنَّكَ خَرَجتَ منَ البَطنِ ذا سنٍّ ونابٍ وناجذٍ وضرسٍ كيفَ كانَ حالُ أمُّكَ بكَ، ولو أنَّكَ مُنعتها وقتَ الحاجَةِ إليها كيفَ كانَ حالكَ بهذه الأطعمَةِ التي لا تُسيغُها إلّا بَعدَ تَقطيعها وطَحنها، وكلَّما ازدَدتُ قوَّةً وحاجَةً إلى الأسنانِ في أكلِ المطاعمِ المُختلفَةِ زيدَ لكَ في تلكَ الآلاتِ حتى تَنتَهي إلى النَّواجذِ، فتَطيقَ نَهشَ اللحمِ، وقَطعَ الخبزِ، وكسرِ الصَّلبِ، ثمَّ إذا ازدَدتَ قوَّةً زيدَ لكَ فيها تَنتَهي إلى الطَّواحينِ التي هي آخرُ الأضراسِ، فمن الذي ساعَدَكَ بهذه الآلاتِ وأنجَدَكَ بها

ومكَّنَكَ بها من ضروبِ الغذاءِ ؟

ثمَّ أنَّهُ اقتَضَت حكمتُهُ أن أخرجَكَ من بَطنِ أمِّكَ لا تَعلمُ شيئاً بل غبيّاً لا عَقلَ ولا فَهمَ ولا علمَ، وذلكَ من رَحمتهِ بكَ، فإنَّكَ على ضَعفكَ لا تَحتملُ العَقلَ والفَهمَ والمَعرفَةَ بل كنتَ تَتمزَّقُ وتَتَصدَّعُ بل جعَلَ ذلكَ ينتقلُ فيكَ بالتَّدريجِ شيئاً فشيئاً، فلا يصادفُكَ ذلكَ وَهلَةً واحدَةً بل يُصادفكَ يَسيراً يَسيراً حتى يتكامَلَ فيكَ .

واعتَبر ذلكَ بأنَّ الطِّفلَ إذا سُبيَ صَغيراً من بَلدهِ ومن بينِ أبويهِ ولا عَقلَ لهُ فإنَّهُ لا يؤلمهُ ذلكَ، وكلَّما كانَ أقربَ إلى العَقلِ كانَ أشقَّ عليهِ وأصعَبَ حتى إذا كانَ عاقلاً فلا تَراهُ إلّا كالوالهِ الحيرانَ، ثمَّ لو وُلدتَ عاقلاً فهيماً كحالكَ في كِبَرِكَ تَنغَّصتَ عليكَ حياتُكَ أعظَمَ تَنغيصٍ، وتنكَّدت أعظَمَ تَنكيدٍ؛ لأنَّكَ تَرى نَفسكَ محمولاً رَضيعاً معصَّباً بالخِرَقِ مربَّطاً بالقِمْطِ مسجوناً في المَهدِ عاجزاً ضَعيفاً عمَّا يحاولهُ الكبيرُ فكيفَ كانَ يكونُ عيشك مع تعلُّقكَ التَّامِّ في هذه الحالَةِ .

ثمَّ لم يكُن يوجَدُ لكَ منَ الحلاوَةِ واللطافَةِ والوقعِ في القَلبِ والرَّحمَةِ بكَ ما يوجَدُ للمولودِ الطِّفلِ بل تكونُ أنكدُ خَلقِ اللَّهِ وأثقلُهم وأعنتُهم وأكثرُهم فضولاً، وكانَ دخولُكَ هذا العالمَ وأنتَ غبيٌّ لا تَعقلُ شيئاً ولا تَعلمُ ما فيهِ أهله محضَ الحكمةِ والرَّحمَةِ بكَ والتَّدبيرِ، فتلقى الأشياءَ بذهنٍ ضَعيفٍ ومَعرفَةٍ ناقصَةٍ، لا يزالُ يتزايَدُ فيكَ العقلُ والمَعرفَةُ شيئاً فشيئاً حتى تألَفَ الأشياءَ، وتَتَمرَّنَ عليها، وتَخرجَ منَ التَّأمُّلِ لها والحيرَةِ فيها، وتَستقبلها بحسنِ التَّصرُّفِ فيها والتَّدبيرِ لها والإتقانِ لها .

فارجع الآنَ إلى نَفسكَ، وكرِّر النَّظَرَ فيكَ فهو يَكفيكَ، وتأمَّل أعضاءَكَ وتَقديرَ كلِّ عضوٍ منها للأرَبِ والمَنفعةِ المهيَّأِ لـها :

فاليَدانِ للعلاجِ، والبَطشِ، والأخذِ والإعطاءِ، والمُحارَبَةِ والدَّفعِ .

والرِّجلانِ لحملِ البَدنِ، والسَّعيِ، والرُّكوبِ، وانتصافِ القامَةِ .

والعينانِ للاهتداءِ، والجمالِ، والزِّينَةِ، والملاحَةِ، ورؤيَةِ ما في السّمواتِ والأرضِ وآياتِهما وعجائِبِهما .

والفمُ للغذاءِ، والكلامِ، والجمالِ وغيرِ ذلكَ .

والأنفُ للنَّفسِ، وإخراجِ فضَلاتِ الدِّماغِ، وزينَةٍ للوجهِ .

واللسانُ للبيانِ، والتَّرجمَةِ عنكَ .

والأُذنانِ صاحبتا الأخبارِ تؤدِّيانها إليكَ .

واللسانُ يبلِّغُ عنكَ .

والمعدَةُ خزانَةٌ يَستقرُّ فيها الغذاءُ، فتنضجُهُ، وتَطبخُهُ وتصلحُهُ إصلاحاً آخَرَ وطبخاً آخَرَ غيرَ الإصلاحِ والطَّبخِ الذي تولَّيته من خارجٍ، فأنتَ تعاني إنضاجَهُ وطَبخَه وإصلاحَهُ حتى تظنَّ أنَّهُ قَد كملَ، وأنَّهُ قَد استَغنى عن طبخٍ آخَرَ وإنضاجٍ آخَرَ، وطباخُهُ الدَّاخلُ ومنضجُهُ يعاني من نضجِهِ وطبخِهِ مالا تَهتدي إليهِ ولا تَقدرُ عليهِ، فهو يوقدُ عليهِ نيراناً تذيبُ الحَصى، وتذيب مالا تُذيبهُ النَّارُ، وهي في ألطَفِ موضعٍ منكَ لا تَحرقُكَ ولا تَلتَهبُ، وهي أشدُّ حرارَةً منَ النَّارِ وإلّا فما يُذيبُ هذه الأطعمَةِ الغَليظَةِ الشديدَةِ جدَّاً حتى يجعلها

ماءً ذائباً .

وجعَلَ الكبدَ للتَّخليصِ، وأخذِ صفوِ الغذاءِ وألطفِهِ، ثمَّ رتَّبَ منها مجاري وطرقاً يسوقُ بها الغذاءَ إلى كلِّ عضوٍ وعظمٍ وعَصَبٍ ولحمٍ وشعرٍ وظفرٍ، وجعلَ المنازلَ والأبوابَ لإدخالِ ما ينفعُكَ وإخراجِ ما يضرُّكَ، وجَعَلَ الأوعيَةَ المختلفَةَ خرائنَ تحفظُ مادَّةَ حياتكَ، فهذه خرانَةٌ للطَّعامِ، وهذه خزانَةٌ للحرارَةِ، وهذه خزائنُ للدَّمِ، وجعَلَ منها خزائنَ مؤدِّياتٍ لئلّا تَختلطَ بالخزائنِ الأُخَرِ، فجَعَلَ خزائن للمرَّةِ السَّوداءِ، وأُخرى للمرَّةِ الصَّفراءِ ،وأُخرى للبولِ، وأُخرى للمني .

فتأمَّل حالَ الطَّعامِ في وصولهِ إلى المعدَةِ، وكيفَ يسري منها في البَدنِ، فإنَّهُ إذا استقرَّ فيا اشتملَت عليهِ وانضمَّت، فتطبخهُ وتجيدَ صنعَتَهُ، ثمَّ بعثهُ إلى الكبدِ في مجارٍ دقاقٍ، وقَد جَعَلَ بين الكبدِ وبين تلكَ المجاري غشاءً رقيقاً كالمصفاتِ الضيِّقَةِ الأبخاشِ تَصفيَةً، فلا يصلُ إلى الكبدِ منهُ شيءٌ غليظٌ خشنٌ فينكؤها، لأنَّ الكبدَ رقيقةٌ لا تَحملُ الغليظَ، فإذا قبلتهُ الكبدُ أنفَذتهُ إلى البَدنِ كلِّهِ في مجارٍ مهيّأة فلهُ بمنزلَةِ المجاري المُعَدَّةِ للماءِ، ليسلكَ في الأرضِ فيعمُّها بالسَّقي، ثمَّ يبعَثُ ما بقي منَ الخبثِ والفضولِ إلى مغايضَ ومصارفَ قد أُعدَّت لها، فما كانَ من مرَّةٍ صَفراءَ بَعَثَت به المرارَةِ، وما كانَ من مرَّةٍ سوداءَ بعثَت بِهِ إلى الطُّحالِ، وما كانَ من الرُّطوبَةِ المائيَّةِ بعثَت به إلى المثانَةِ، فمن ذا الذي تولَّى ذلك كلَّهُ وأحكمَهُ ودبَّرَهُ وقدَّرَهُ أحسَنَ تَقديرٍ ؟

وكأنِّي بكَ أيُّها المسكينُ تقولُ : هذا كلُّهُ من فعلِ الطَّبيعَةِ، وفي الطَّبيعة عجائبٌ وأسرارٌ، فلو أرادَ اللَّهُ أن يَهديكَ لسألتَ نفسكَ بنفسكَ، وقُلتَ :

أخبريني عن هذه الطَّبيعَةِ أهيَ ذاتٌ قائمَةٌ بنفسها لـها علمٌ وقدرةٌ على هذه الأفعالِ العجيبَةِ أم ليسَت كذلكَ أم عَرضٌ وصفَةٌ قائمَةٌ بالمطبوعِ تابعَةٌ له محمولةٌ فيهِ ؟

فإن قالَت لكَ : بل هي ذاتٌ قائمَةٌ بنفسها لـها العلمُ التَّامُّ والقدرةُ والإرادَةُ والحكمَةُ .

فقُل لـها : هذا هو الـخالقُ الباريءُ المصوّرُ، فلم تسمينه طبيعيَّةً، وياللَّهِ مَن ذكرِ الطَّبائعِ ومَن يرغبُ فيها، فهلّا سمَّيتهُ بما سمَّى به نَفسهُ على ألسنِ رسلهِ، ودَخلَت في جملَةِ العقلاءِ والسُّعداءِ، فإنَّ هذا الذي وَصَفتَ به الطَّبيعَةَ صفتُهُ تعالى .

وإن قالَت لكَ : بلِ الطَّبيعَةُ عَرضٌ محمولٌ مفتقرٌ إلى حاملٍ، وهذا كلُّهُ فعلـها بغيرِ علمٍ منها ولا إرادَةٍ ولا قدرَةٍ ولا شعورٍ أصلاً، وقد شوهدَ من آثارها ما شوهدَ .

فقُل لـها : هذا مالا يصدِّقهُ ذو عَقلٍ سليمٍ كيفَ تَصدرُ هذه الأفعالُ العجيبَةُ والحكمُ الدَّقيقَةُ التي تَعجزُ عقولُ العقلاءِ عن معرفتها وعن القدرَةِ عليها ممَّن لا عَقلَ لهُ ولا قدرَةَ ولا حكمَةَ ولا شعورَ ؟

وهل التَّصديقُ بمثلِ هذا إلّا دخولٌ في سلكِ الـمجانين والمبرسمين ؟

ثمَّ قال لـها بَعدُ : ولو ثبَتَ لكَ ما ادَّعَيْتَ فمعلومٌ أنَّ مثلَ هذه الصِّفَةِ ليسَت بـخالقَةٍ لنفسها، ولا مُبدعَةٍ لذاتها، فمَن ربُّها ومُبدِعُها وخالقُها ؟ ومَن طبَّعها وجعَلـها تفعلُ ذلكَ ؟ فهيَ إذاً من أدلِّ الدَّلائلِ على بارئها وفاطِرها وكمالِ قدرتهِ وعلمهِ وحكمتهِ، فلم يَـجُد عليكَ تَعطيلُكَ ربَّ العالم وجَحدُكَ

لصفاتِهِ وأفعالِهِ إلّا مخالفتكَ العقلَ والفطرَةَ، ولو حاكمناكَ إلى الطَّبيعَةِ لرأيناكَ أنَّكَ خارجٌ عن موجبها؛ فلا أنتَ مع موجبِ العَقلِ ولا الفطرة ولا الطَّبيعةِ ولا الإنسانيَّةِ أصلاً، وكفى بذلك جهلاً وضلالاً.

فإن رجعت إلى العقلِ، وقُلتَ : لا يوجَدُ حكمَةٌ إلّا من حكيمٍ قادرٍ عليمٍ، ولا تَدبيرٌ مُتقَنٌ إلّا من صانعٍ قادرٍ مختارٍ مدبِّرٍ عليمٍ بما يُريدُ قادرٌ عليهِ لا يُعجِزُهُ ولا يؤودُهُ .

قيلَ لكَ : فإذا أقرَرتَ ويحكَ بالخلّاقِ العظيمِ الذي لا إلهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سواهُ، فدَع تَسميتهُ طبيعيَّةً أو عَقلاً فعَّالاً أو موجباً بذاتِهِ، وقُل : هذا هو اللَّهُ الخالقُ البارىءُ المصوِّرُ ربُّ العالمين، وقيُّومُ السَّمواتِ والأرضين، وربُّ المشارقِ والمغاربِ الّذي أحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأتقَنَ ما صَنَعَ، فمالكَ جَحَدتَ أسماءَهُ وصفاتَهُ وذاتَهُ، وأضفتَ صنيعَهُ إلى غيرِهِ وخَلَقهُ إلى سواهُ مع أنَّكَ مضطرٌّ إلى الإقرارِ بِهِ، وإضافَةِ الإبداعِ والخلقِ والرُّبوبيَّةِ والتَّدبيرِ إليهِ ولا بدَّ، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، على أنَّكَ لو تأمَّلتَ قولَكَ : طبيعةٌ ومعنى هذه اللفظَةِ؛ لدلَّكَ على الخالقِ البارىءِ لفظها كما دلَّ العقولَ عليهِ معناها؛ لأنَّ طبيعَةَ فعيلَة بمعنى مفعولَةٍ أي مطبوعَةٌ، ولا يُحتَملُ غيرُ هذا ألبتَّة، لأنَّها على بناءِ الغرائزِ التي رُكِّبَت في الجسمِ، ووُضعَت فيهِ كالسَّجيَّةِ، والغريزَةِ، والبَحيرَةِ، والسَّليقَةِ، والطَّبيعَةِ، فهي التي طُبعَ عليها الحيوانُ وطبعَت فيهِ، ومعلومٌ أنَّ طبيعَةً من غيرِ طابعٍ لها محالٌ، فَقَد دلَّ لفظُ الطَّبيعَةِ على الباري تعالى كما دلَّ معناها عليهِ .

والمُسلمونَ يقولونَ : إنَّ الطَّبيعَةَ خلقٌ من خَلقِ اللَّهِ مسخَّرٌ مَربوبٌ، وهي

سنَّتُهُ في خليقَتهِ التي أجراها عليهِ، ثمَّ إنَّهُ يتَصرَّفُ كيفَ شاءَ وكما شاءَ، فيسلبها تأثيرَها إذا أرادَ، ويَقلبَ تأثيرَها إلى ضدِّهِ إذا شاءَ، ليُريَ عبادَهُ أنَّهُ وَحدَهُ البارىءُ المصوِّرُ، وأنَّهُ يخلقُ ما يشاءُ كما يشاءُ : ﴿ إنَّما أمرُهُ اذا أرادَ شيئاً أن يَقولَ لهُ كُن فَيكون ﴾ [يس : ٨٢] .

وإنَّ الطَّبيعَةَ التي انتَهى نظرُ الخفافيشِ إليها إنَّما هي خَلقٌ من خَلقهِ بمنزلَةِ سائرِ مخلوقاتهِ، فكيفَ يحسنُ بمَن لهُ حظٌّ من إنسانيَّةٍ أو عَقلٍ أن يَنسى مَن طَبَعها وخَلَقها، ويحيلُ الصُّنعَ والإبداعَ عليها ؟ ولم يَزَل اللَّهُ سبحانهُ يَسلبُها قوَّتُها ويحيلها ويقلبُها إلى ضدٍّ ما جُعلَت لهُ حتى يُريَ عبادَهُ أنَّها خَلقُهُ وصُنعُهُ مسخَّرَةٌ بأمرهِ ﴿ ألا لهُ الخَلقُ والأمرُ تبارَكَ اللَّهُ ربُّ العالمين ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

ثمَّ من أينَ للطَّبيعَةِ هذا الاختلاف والفَرقُ الحاصلُ في النَّوعِ الإنسانيِّ بينَ صورهم؛ فَقَلَّ أن يُرى إثنانِ مُتشابهان من كلِّ وجهٍ، وذلكَ من أندَرِ ما في العالَمِ ؟ بخلافِ أصنافِ الحيوانِ كالنَّعمِ والوحوشِ والطَّيرِ وسائرِ الدَّوابِّ، فإنَّكَ تَرى السِّربَ من الظباءِ، والثُّلَّةَ منَ الغنمِ، والذَّودَ منَ الإبلِ، والصُّوارَ من البَقرِ تتشابهُ حتى لا يُفرَّقَ بينَ واحدٍ منها وبينَ الآخَرِ إلّا بَعدَ طولِ تأمُّلٍ، أو بعلامَةٍ ظاهرَةٍ، والنَّاسُ مختلفَةٌ صورُهم وخلقتُهُم، فلا يكادُ اثنان منهم يجتمعان في صفَةٍ واحدَةٍ وخِلقَةٍ واحدَةٍ بل ولا صوتٍ واحدٍ ولا حُنجرةٍ واحدَةٍ، والحكمَةُ البالغَةُ في ذلكَ أنَّ النَّاسَ يحتاجونَ إلى أن يتعارَفوا بأعينهم وحلاهم لما يَجري بينهم من المعاملاتِ، فلولا الفرقُ والاختلافُ في الصُّوَرِ؛ لَفَسَدَت أحوالُهم، وتشتَّتَ نظامُهُم، ولم يُعرَف الشاهدُ من المَشهودِ عليهِ، ولا المَدينُ

من ربِّ الدَّينِ، ولا البائعُ من الـمُشتري، ولا كانَ الرَّجلُ يعرفُ عرسَهُ من غيرها للاختلاطِ، ولا هي تَعرفُ بَعلـها من غيرهِ، وفي ذلكَ أعظمُ الفسادِ والخَلَلِ، فمن الذي ميَّزَ بينَ حُلاهم وصوَرِهم وأصواتِهـم، وفرَّقَ بينها بفروقٍ لا تُنالـها العبارَةُ، ولا يُدركُها الوَصفُ ؟

فَسَلِ المُعطِّلَ : أهذا فعلُ الطَّبيعَةِ ؟ وهل في الطَّبيعَةِ اقتضاءُ هذا الاختلافِ والافتراقِ في النَّوعِ ؟ وأينَ قولُ الطَّبائعيُّونَ أنَّ فعلـها متشابهٌ، لأنَّـها واحدَةٌ في نَفسها لا تَفعلُ بإرادَةٍ ولا مَشيئةٍ، فلا يمكنُ اختلافُ أفعالـها فكيفَ يـجمعُ المعطِّلَ بينَ هذا وهذا : ﴿ فإنَّـها لا تَعمى الأبصارُ ولكن تَعمى القلوبُ التي في الصُّدورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وربَّـما وقَعَ في النَّوعِ الإنساني تشابه بين اثنين لا يكادُ يُـميَّزُ بينهمـا، فتَعظُمَ عليهم المؤنَةُ في معاملتهمـا، وتَشتدُّ الـحاجَةُ إلى تَـمييزِ المُستحقِّ منهمـا والمؤاخَذِ بذنبهِ ومَن عليهِ الـحقُّ، وإذا كانَ هذا يعرضُ في التَّشابهُ في الأسماء كثيراً، ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى، فما الظنُّ لو وضع التشابه في الـخلقَةِ والصُّورَةِ ؟

ولـمَّـا كانَ الحيوانُ البَهيمُ والطَّيرُ والوحوشُ لا يضرُّها هذا التَّشابهُ شيئاً لم تَدع الحكمَةُ إلى الفَرقِ بين كلِّ زوجين منها؛ فتباركَ اللَّهُ أحسَنُ الـخالقينَ الذي وسِعَت حكمتهُ كلَّ شيءٍ .

ثمَّ تأمَّل هذا الصَّوتَ الـخارجَ من الـحلقِ وتهيئةَ آلاتِهِ، والكلامَ وانتظامَهُ، والـحروفَ ومخارجَها وأدواتَها ومقاطعَها وأجراسَها تـجدُ الحكمَةَ الباهرَةَ في هواءٍ ساذجٍ يـخرجُ من الـجَوفِ، فيسلُكُ في أُنبوبَةِ الحنجرَةِ حتى ينتهي إلى

الـحَلقِ واللِّسانِ والشَّفتين والأسنانِ، فيُحدِثُ لـه هناكَ مقاطعُ ونهاياتٌ وأجراسٌ يسمعُ لـه عندَ كلِّ مَقطعٍ ونهايَةٍ جرسٍ مبينٍ منفصلٍ عن الآخَرِ يـحدثُ بسببهِ الـحرفُ، فهو صوتٌ واحدٌ ساذجٌ يـجري في قَصَبَةٍ واحدَةٍ حتى ينتهي إلى مقاطعَ وحدود تسمعُ لـه منها تسعَة وعشرين حرفاً يدورُ عليها الكلامُ كلُّهُ؛ أمرُهُ ونَهيُهُ، وخبرُهُ واستخبارُهُ، ونظمُهُ ونثرُهُ، وخطبُهُ ومواعظُهُ، وفضولُـهُ، فمنهُ الـمُضحكُ، ومنهُ الـمُبكي، ومنهُ المؤيسُ، ومنهُ المطمعُ، ومنهُ المخوِّفُ، ومنه المرجيُّ، والـمُسلِّي، والـمُحزنُ، والقابضُ للنَّفسِ والجوارحِ والـمُنشطُ لـها، والذي يسقمُ الصَّحيحَ ويبرئُ السَّقيمَ، ومنهُ مـا يزيلُ النعمَ ويـحلُّ النِّقَمَ، ومنهُ مـا يُستَدفعُ به البلاءُ ويُستجلَبُ به النَّعمـاءُ، وتُستمـالُ به القلوبُ ويؤلِّفُ به بينَ المتباغضينَ، ويوالي به بينَ المتعادينَ، ومنهُ مـا هو بضدِّ ذلكَ، ومنهُ الكلمةُ التي لا يُلقي لـها صاحبها بالاً يَهوي بها في النَّارِ أبعَدَ مـا بينَ المشرقِ والمَغربِ، والكلمةُ التي لا يُلقي لـها بالاً صاحبُها يركُضُ بها في أعلا عليِّين في جوارِ ربِّ العالمين، فسبحانَ مَن أنشأ ذلكَ كلَّهُ من هواءٍ ساذجٍ يـخرجُ من الصَّدرِ لا يَدري مـا يُرادُ بهِ، ولا أينَ ينتهي، ولا أينَ مستقرُّهُ .

هذا إلى مـا في ذلكَ من اختلافِ الألسنَةِ واللُّغاتِ التي لا يـحصيها إلّا اللَّهُ، فيجتمعُ الجمعُ منَ النَّاسِ من بلادٍ شتى فيتكلَّمُ كلٌّ منهم بلغَةٍ، فتسمعُ لغاتٍ مختلفَةً، كلاماً منتظمـاً مؤلَّفاً، ولا يَدري كلٌّ منهم مـا يقولُ الآخَرُ، واللسانُ الذي هو جارحَةٌ واحدٌ في الشَّكلِ والمنظَرِ، وكذلكَ الحلقُ والأضراسُ والشفتانِ، والكلامُ مختلفٌ متفاوتٌ أعظم تفاوُتٍ، فالآيَةِ في ذلك كالآية في الأرضِ التي تُسقى بماءٍ واحدٍ وتـخرجُ مع ذلكَ من أنواعِ النَّباتِ والأزهارِ

والحبوبِ والثمارِ تلك الأنواعَ المُختلفَة المُتباينَة، ولهذا أخبرَ اللَّهُ سبحانهُ في كتابهِ أنَّ في كلٍّ منهما آياتٍ، فقال : ﴿ وَمِن آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢]، وقال : ﴿ وَفي الأرضِ قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ وجنَّاتٌ مِن أعنابٍ وزَرعٌ ونَخيلٌ صنوانٌ وغَيرُ صنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ﴾ [الرعد : ٤] .

فانظر الآنَ في الحنجرَةِ كيفَ هي كالأُنبوبِ لخروجِ الصَّوتِ، واللسانِ والشفتين والأسنانِ لصياغَةِ الحروفِ والنَّغماتِ، ألا تَرى أنَّ مَن سَقَطَت أسنانُهُ لم يُقِمِ الحروفَ التي تَخرجُ منها ومنَ اللسانِ، ومَن سقَطَت شفتُهُ كيفَ لم يقِمِ الرَّاءَ واللامَ، ومَن عَرَضَت له آفَةٌ في حَلقهِ كيفَ لَم يتمكَّن منَ الحروفِ الحلقيَّةِ .

وقد شبَّهَ أصحابُ التَّشريحِ مخرجَ الصَّوتِ بالمزمارِ، والرِّئَةَ بالزقِّ الذي يُنفخُ فيهِ من تَحتهِ ليدخُلَ الرِّيحُ فيهِ، والفضلاتِ التي تقبضُ على الرِّئَةِ ليَخرجَ الصَّوتُ منَ الحُنجرَةِ بالأكفِّ التي تَقبضُ على الزِّقِّ حتى يَخرجَ الهواءُ في القَصَبِ والشِّفتين والأسنانِ التي تَصوغُ الصَّوتَ حروفاً ونغماً بالأصابعِ التي تَختلفُ على المزمارِ، فتَصوغهُ ألحاناً، والمقاطعَ التي ينتهي إليها الصَّوتُ بالأبخاشِ التي في القَصبَةِ، حتى قيلَ : إنَّ المزمارَ إنَّما اتَّخذَ على مثالِ ذلكَ منَ الإنسانِ، فإذا تَعجَّبتَ منَ الصِّناعَةِ التي تعملُها أكفُّ النَّاسِ حتى تَخرجَ منها تلكَ الأصواتُ فما أحراكَ بطولِ التَّعجُّبِ منَ الصِّناعَةِ الإلهيَّةِ التي أخرجَت تلكَ الحروفَ والأصواتَ منَ اللحمِ والدَّمِ والعروقِ والعظامِ ؟

ويا بُعدَ ما بَينهما، ولكنَّ المألوفَ المُعتادَ لا يقعُ عندَ النُّفوسِ موقعَ

التَّعجّبِ، فإذا رَأتَ ما لا نسبةَ لهُ إليهِ أصلاً إلّا أنَّهُ غَريبٌ عندها تَلقَّتهُ بالتَّعجُّب وتَسبيحِ الرَّبِّ تعالى، وعندها من آياتهِ العَجيبَةِ الباهرَةِ ما هو أعظمُ من ذلكَ ممَّا لا يُدركهُ القياسُ .

ثمَّ تأمَّل اختلافَ هذه النَّغماتِ، وتبايُنَ هذه الأصواتِ مع تشابهِ الحناجرِ والحلوقِ والألسنَةِ والشفاهِ والأسنانِ، فمَن الذي مَيَّزَ بينها أتمَّ تَمييزٍ مع تشابهِ محالِّها سوى الخلَّاقِ العليمِ ؟

وفرقٌ بينَ نَظرِ الطَّبيبِ والطَّبائعي في هذه الأُمورِ، فنظرُهُما فيها مَقصورٌ على النَّظرِ في حفظ الصحَّة ودفع السَّقم، فهو يَنظرُ فيها من هذه الجهَةِ فقط، وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالَتِها على خالِقِها وباريها، ومالهُ فيها منَ الحكَمِ البالغَةِ، والنِّعَمِ السَّابغَةِ، والآلاءِ التي دعا العبادَ إلى شكرِها وذكرِها .

ثمَّ تأمَّل حكمَةَ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في الحفظِ والنِّسيانِ الذي خَصَّ بهِ نوعَ الإنسانِ، ومالهُ فيهما منَ الحكمِ، وما للعَبدِ فيهما منَ المصالحِ، فإنَّهُ لولا القوَّةُ الحافظَةُ التي خُصَّ بها لَدَخلَ عليهِ الخَلَلُ في أمورهِ كلِّها، ولم يَعرف مالهُ وما عليهِ، ولا ما أخذَ ولا ما أعطى، ولا ما سمعَ ورأى، ولا ما قالَ ولا ما قيلَ لهُ، ولا ذكرَ مَن أحسَنَ إليهِ ولا مَن أساءَ إليهِ، ولا مَن عاملهُ ولا مَن نَفعهُ؛ فيقربَ منهُ، ولا مَن ضرَّهُ؛ فيَنأى عنهُ، ثمَّ كانَ لا يَهتَدي إلى الطَّريقِ الذي سلكهُ أوَّلَ مرَّةٍ ولو سلكَهُ مراراً، ولا يَعرفُ علماً ولو درسَهُ عمرَهُ، ولا ينتفعُ بتجربَةٍ ولا يَستطيعُ أن يعتبرَ شيئاً على ما مَضى بل كانَ خليقاً أن ينسلخَ منَ الإنسانيَّةِ أصلاً .

فتأمَّل عظيمَ المنفعَةِ عليكَ في هذه الخلالِ وموقعَ الواحدَةِ منها فَضلاً عن جميعهنَّ .

ومن أعجَبِ النِّعَمِ عليهِ نعمَةُ النِّسيانِ، فإنَّهُ لولا النِّسيانُ لما سلا شيئاً، ولا انقَضَت لهُ حَسرَةٌ، ولا تعزَّى عن مُصيبَةٍ، ولا ماتَ لهُ حُزنٌ، ولا بطلَ لهُ حقدٌ، ولا تَمتَّعَ بشيءٍ من متاعِ الدُّنيا مع تذكُّرِ الآفاتِ، ولا رجا غَفلَةَ عَدوٍّ ولا نَقمةً من حاسدٍ .

فتأمَّل نعمَةَ اللَّهِ في الحفظِ والنِّسيانِ مع اختلافهما وتضادِّهما، وجعَلهُ في كلٍّ واحدٍ منهما ضَرباً منَ المصلَحَةِ .

ثمَّ تأمَّل هذا الخُلُقَ الذي خُصَّ به الإنسانُ دونَ جميعِ الحيوانِ وهو **خُلُقَ الحياءِ** الذي هو من أفضَلِ الأخلاقِ وأجلِّها، وأعظمِها قَدراً، وأكثرِها نَفعاً، بل هو خاصَّةُ الإنسانيَّةِ، فمَن لا حياءَ فيهِ ليسَ معهُ منَ الإنسانيَّةِ إلّا اللحمُ والدَّمُ وصورتُهما الظَّاهرَةُ كما أنَّهُ ليسَ معهُ من الخَيرِ شيءٌ، ولولا هذا الخُلقُ لم يُقرِ الضَّيفَ، ولم يوفِ بالوَعدِ، ولم يُؤدِّ أمانَةً، ولم يَقضِ لأحَدٍ حاجَةً، ولا تَحرَّى الرَّجلَ الجميلَ فآثَرَهُ، والقبيحَ فتجنَّبهُ، ولا سَترَ لهُ عَورَةً، ولا امتنَعَ من فاحشَةٍ، وكثيرٌ من النَّاسِ لولا الحياءُ الذي فيه لم يؤدِّ شيئاً من الأمورِ المفتَرَضَةِ عليهِ، ولم يَرعَ لمخلوقٍ حقَّاً، ولم يصل لهُ رَحماً، ولا برَّ لهُ والداً، فإنَّ الباعثَ على هذه الأفعالِ إمَّا دينيٌّ وهو رجاءُ عاقبتها الحميدَةِ، وإمَّا دُنيويٌّ علويٌّ وهو حياءُ فاعلِها من الخَلقِ، قَد تبيَّنَ أنَّهُ لولا الحياءُ إمَّا من الخالقِ أو من الخلائقِ لم يَفعلها صاحبُها .

قال رسول اللّه ﷺ : « استَحيوا منَ اللَّهِ حقَّ الحياءِ » .

قالوا : وما حقُّ الحياءِ ؟

قال : « أن تَحفظَ الرَّأسَ وما حَوى، والبَطنَ وما وَعى، وتذكر المقابرَ والبلى » .[1]

وقال ﷺ : « إذا لم تَستَحِ فاصنَع ما شئتَ » .[2]

وأصحُّ القولين فيهِ قولُ أبي عُبيدٍ والأكثرين أنَّهُ تَهديدٌ كقولهِ تعالى : ﴿ اعمَلوا ما شئتُم ﴾ [فصلت : ٤٠]، وقوله : ﴿ كُلوا وتَمتَّعوا قَليلاً ﴾ [المرسلات : ٤٦] .

وقالت طائفَةٌ : هو إذنٌ وإباحَةٌ والمعنى : إنَّكَ إذا أَردتَ أن تَفعلَ فعلاً فانظُر قبلَ فعلهِ فإن كانَ ممَّا يُستحيا فيهِ منَ اللَّهِ ومنَ النَّاسِ فلا تَفعلهُ، وإن كانَ ممَّا لا يُستحيا منهُ فافعلهُ، فإنَّهُ ليسَ بقبيحٍ .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وأحمد (١ / ٣٨٧)، والحاكم (٤ / ٣٢٣)، والبغوي في « شرح السُّنة » (١٤ / ٢٣٤) وغيرهم .

من طريق أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مرّة الهمداني عن عبداللَّه بن مسعود مرفوعاً .

قلت : وإسناده ضعيف؛ لضعف الصباح بن محمد .

ولكنّه لم يتفرد به كما قال الترمذي؛ فقد تابعه عقبة بن عبدالغافر عن أبي عبيدة بن عبداللَّه بن مسعود عن أبيه به .

أخرجه الطبراني في « الصغير » (١ / ١٧٧) .

وعقبه بن عبدالغافر ثقة، ولكن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه .

وبالجملة؛ فالحديث حسن بمجموع طرقه، واللَّه أعلم .

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ٥١٥ و ١٠ / ٥٢٧ - فتح) من حديث عبداللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه .

وعندي أنَّ هذا الكلامَ صورتُهُ صورَةُ الطَّلبِ، ومعناهُ معنى الخبرِ[1]، وهو في قوَّةِ قولِهم : مَن لا يَستحي صنَعَ ما يَشتهي، فليسَ بإذنٍ، ولا هو تَهديد، وإنَّما هو في معنى الخبرِ .

والمعنى : أنَّ الرَّادعَ عن القبيحِ إنَّما هو الحياءُ، فمَن لم يَستحِ فإنَّهُ يَصنعُ ما شاءَ، وإخراجُ هذا المعنى في صيغَةِ الطَّلبِ لنُكتَةٍ بديعَةٍ جدّاً، وهي أنَّ للإنسانِ آمرَينِ وزاجرَينِ : آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، ولهُ آمرٌ وزاجرٌ من جهَةِ الهَوى والطَّبيعَةِ فمَن لم يطِع آمرَ الحياءِ وزاجرَهُ أطاعَ آمرَ الهوى والشهوَةِ ولابدَّ، فإخراجُ الكلامِ في قالبِ الطَّلبِ يتضمَّنُ هذا المعنى دونَ أن يقالَ : مَن لا يَستحي صنَعَ ما يَشتهي .

ثمَّ تأمَّل نعمَةَ اللَّهِ على الإنسانِ بالبيانَين : **البيانِ النُّطقيِّ**، **والبيانِ الخطيِّ**، وقَد اعتدَّ بهما سبحانهُ في جملَةٍ من اعتدَّ به من نعمَهِ على العَبدِ، فقال في أوَّلِ سورَةٍ أنزلَت على رسولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿ اقرأ باسمِ ربِّكَ الَّذي خَلَق * خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق * اقرأ وربُّكَ الأكرَم * الَّذي علَّمَ بالقَلَمِ * علَّمَ الإنسانَ ما لَم يَعلَم ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

فتأمَّل كيفَ جمعَ في هذه الكلماتِ مراتبَ الخَلقِ كلِّها ! وكيفَ تَضمَّنَت مراتبَ الوجوداتِ الأربعَة بأوجَزِ لَفظٍ وأوضحِه وأحسنِه !

فذكرَ أوَّلاً عمومَ الخَلقِ، وهو أعطاءُ الوجودِ الخارجيِّ .

ثمَّ ذكرَ ثانياً خصوصَ خَلقِ الإنسانِ، لأنَّهُ موضعُ العبرَةِ، والآيةُ فيهِ

(١) وانظر لزاماً رسالتي : « الحياء في ضوء القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة » نشر دار ابن الجوزي .

عظيمَةٌ، ومن شهودهِ عمَّا فيه محضُ تَعدُّدِ النِّعَمِ. وذكرَ مادَّةَ خَلقهِ ههُنا منَ العَلَقَةِ، وفي سائرِ المواضعِ يذكرُ ما هوَ سابقٌ عليها، إمَّا مادَّةُ الأصلِ وهو التُّرابُ والطِّين أو الصَّلصالُ الذي كالفخَّار، أو مادَّةُ الفَرعِ وهو الماءُ المَهينُ، وذكرَ في هذا الموضعِ أوَّلَ مبادىءِ تعلُّقِ التَّخليقِ وهو العَلَقَةُ، فإنَّهُ كانَ قبلها نُطفَةً؛ فأوَّلُ انتقالها إنَّما هو إلى العَلَقَةِ .

ثمَّ ذكرَ ثالثاً التَّعليمَ بالقَلمِ الذي هو من أعظَمِ نعَمهِ على عبادهِ، إذ بهِ تُخلَّدُ العلومُ، وتُثبَّتُ الحقوقُ، وتعلمُ الوصايا، وتُحفَظُ الشهاداتُ، ويضبَطُ حسابُ المعاملاتِ الواقعَةِ بينَ النَّاسِ، وبهِ تُقيَّدُ أخبارُ الماضينَ للباقينَ اللاحقينَ، ولولا الكتابَةُ لانقَطَعَت أخبارُ بَعضِ الأزمنَةِ عن بَعضٍ، ودرِّسَت السُّنَنُ، وتخبَّطَت الأحكامُ، ولم يَعرفِ الخَلَفُ مذاهبَ السَّلفِ، وكانَ معظَمُ الخَلَلِ الدَّاخلِ على النَّاسِ في دينهم ودنياهم إنَّما يعتريهم منَ النِّسيانِ الذي يَمحو صُوَرَ العلمِ من قلوبهم، فجعَلَ لهم الكتابَ وعاءً حافظاً للعلمِ منَ الضَّياعِ كالأوعيَةِ التي تحفَظُ الأمتعَةَ منَ الذَّهابِ واليطلانِ، فنعمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بتعليمِ القلمِ بعدَ القرآنِ من أجلِّ النِّعَمِ، والتَّعليم به وإن كانَ ممَّا يخلصُ إليهِ الإنسانُ بالفطنَةِ والحيلَةِ، فإنَّهُ الذي بَلَغَ به ذلكَ وأوصلهُ إليهِ، عطيَّة وهبها اللَّهُ منهُ، وفَضلٌ أعطاهُ اللَّهُ إيَّاهُ، وزيادَةٌ في خَلقهِ وفَضلهِ، فهو الذي علَّمهُ الكتابَةَ وإن كانَ هو المُتعلِّم، ففعلهُ فعلُ مطاوعٍ لتعليمِ الذي علَّمَ بالقَلمِ، فإنَّه علَّمهُ فتعلَّمَ كما أنَّهُ علَّمهُ الكلامَ فتكلَّمَ .

هذا ومَن أعطاهُ الذِّهنَ الذي يعي به، واللسانَ الذي يُتَرجمُ به، والبنانَ الذي يخطُّ بهِ، ومَن هيَّأ ذهنَهُ لقبولِ هذا التَّعليمِ دونَ سائرِ الحيواناتِ، ومنَ

الذي أنطَقَ لسانَهُ، وحرَّكَ بنانَهُ، ومنِ الذي دَعَمَ البنانَ بالكفِّ، ودعَمَ الكفَّ بالسَّاعدِ ؟ فكم للَّهِ من آيَةٍ نحنُ غافلونَ عنها في التَّعليمِ بالقَلَمِ !

فَقِف وقفَةً في حالِ الكتابَةِ، وتأمَّل حالَكَ وقَد أمسَكتَ القَلمَ وهو جمادٌ ووَضَعتهُ على القرطاسِ وهو جمادٌ؛ فتولَّدَ من بينهما أنواعُ الحكَمِ، وأصنافُ العلومِ، وفنونُ المراسلاتِ والخُطَبُ والنَّظمُ والنَّثرُ وجواباتُ المسائلِ، فمَن الذي أجرى فَلَكَ المعاني على قَلبكَ، ورَسَمها في ذهنكَ، ثمَّ أجرى العباراتِ الدَّالَّة عليها على لسانكَ، ثمَّ حرَّكَ بها بنانَكَ حتى صارَت نَقشاً عجيباً معناهُ أعجبُ من صورتِهِ، فتَقضي بهِ مآربَكَ، وتبلُغ به حاجةً في صَدرِكَ، وترسله إلى الأقطارِ النَّائيَةِ والجهاتِ المُتباعدَةِ فيقومَ مقامَكَ، ويترجمُ عنكَ، ويتكلَّمَ على لسانكَ، ويقومَ مقامَ رسولِكَ ويجدي عليكَ مالا يجدي مَن ترسلهُ سوى من علَّمَ بالقَلمِ علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم ؟

والتَّعليمُ بالقَلَمِ يستلزمُ المراتبَ الثَّلاثَة : الوجودَ الذِّهنيَّ، والوجودَ اللفظيَّ، والوجودَ الرَّسميَّ، فَقَد دلَّ التَّعليمُ بالقَلَمِ على أنَّهُ سبحانهُ هو المُعطي لهذه المراتبِ، ودلَّ قولهُ : ﴿ خَلَقَ ﴾ على أنَّهُ يعطي الوجودَ العَينيَّ، فدلَّت هذه الآياتُ مع اختصارِها ووَجازَتِها وفَصاحتِها على أنَّ مراتبَ الوجودِ بأسرها مُسنَدَةٌ إليهِ تعالى خَلقاً وتَعليماً، وذكرَ خلقين وتعليمين خَلقاً عامَّاً وخَلقاً خاصَّاً، وتعليماً خاصَّاً وتَعليماً عامَّاً، وذكرَ من صفاتهِ ههُنا اسمَ الأكرَم الذي فيه كلُّ خَيرٍ وكلُّ كمالٍ، فله كلُّ كمالٍ وَصفاً، ومنهُ كلُّ خَيرٍ فعلاً، فهو الأكرمُ في ذاتهِ وأوصافهِ وأفعالهِ، وهذا الخَلقُ والتَّعليمُ إنَّما نَشَأ من كرمهِ وبرِّهِ وإحسانهِ لا من حاجَةٍ دَعَتهُ إلى ذلكَ، وهو الغنيُّ الحميدُ .

وقوله تعالى : ﴿ الرَّحمنُ * علَّمَ القُرآنَ * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَهُ البيانَ ﴾ [الرحمن : ١ - ٤]، دلَّت هذه الكلماتُ على إعطائِهِ سبحانهُ مراتبَ الوجودِ بأسرها .

فقولهُ : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ إخبارٌ عن الإيجادِ الخارجيِّ العَينيِّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخَلقِ لما تَقدَّم .

وقولهُ : ﴿ علَّمَ القرآنَ ﴾ إخبارٌ عن إعطاءِ الوجودِ العلميِّ الذِّهنيِّ، فإنَّما تَعلَّمَ الإنسانُ القرآنَ بتعليمهِ، كما أنَّهُ إنَّما صارَ إنساناً بخلقهِ، فهو الذي خَلَقَهُ وعلَّمهُ .

ثمَّ قال : ﴿ علَّمهُ البيانَ ﴾ والبيانُ هنا يتناوَلُ مراتبَ ثلاثَة كل منها يُسمَّى بياناً :

- **أحدُها** : البيان الذِّهنيّ الذي يُميّزُ فيه بينَ المعلوماتِ .
- **الثَّاني** : البيان اللفظيّ الذي يُعبّرُ به عن تلكَ المعلوماتِ، ويُترجمُ عنها فيه لغيرهِ .
- **الثَّالث** : البيانُ الرَّسميُّ الخطيُّ الذي يَرسمُ به تلكَ الألفاظَ، فيتبيَّنُ النَّاظرُ معانيها كما يتبيَّنُ للسَّامعِ معاني الألفاظِ، فهذا بيانٌ للعَين، وذاكَ بيانٌ للسَّمعِ، والأوَّلُ بيانٌ للقَلبِ .

وكثيراً ما يجمعُ سبحانهُ بينَ هذه الثَّلاثَةِ كقولهِ : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مَسؤولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦]، وقوله : ﴿ واللَّهُ أخرَجَكُم مِن بطونِ أُمَّهاتكُم لا تَعلمونَ شيئاً وجَعلَ لكُم السَّمعَ والأبصارَ

والأفئدَةَ لعلَّكُم تَشكرون ﴾ [النحل : ٧٨]، ويذمُّ من عدمِ الانتفاعِ بها في اكتسابِ الـهُدى والعلمِ النَّافعِ كقولـه : ﴿ صمٌّ بُكمٌ عمـيٌّ ﴾ [البقرة : ١٨ ، ١٧١]، وقولـه : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ على قلوبهِم وعَلى سَمعهِم وعَلى أبصارهِم غشاوَةٌ ﴾ [البقرة : ٧] .

ثمَّ تأمَّل حكمَةَ اللطيفِ الـخبيرِ فيما أعطى الإنسانَ علمَهُ بما فيهِ صلاحُ معاشِهِ ومعادِهِ، ومَنَعَ عنهُ عِلمَ مالا حاجَةَ لـهُ بهِ، فَجَهلـهُ بهِ لا يضرُّ، وعلمهُ لا يَنتفعُ به انتفاعاً طائلاً .

ثمَّ يسَّرَ عليهِ طَرقَ ما هو مُحتاجٌ إليهِ منَ العلمِ أتَـمَّ تَيسيرٍ، وكلَّما كانَت حاجتُهُ إليهِ منَ العلمِ أعظمَ كانَ تَيسيرُهُ إيَّاهُ عليهِ أتـمَّ، فأعطاهُ معرفَةَ خالقهِ وبارئهِ ومُبدعهِ سبحانهُ والإقرارَ به، ويسَّرَ عليهِ طرقَ هذه المعرفَةِ فليسَ في العلومِ ما هو أجلُّ منها ولا أظهرُ عندَ العَقلِ والفِطرَةِ، وليسَ في طُرقِ العلومِ التي تُنالُ بها أكثرُ من طرقها ولا أدلُّ ولا أبيَنُ ولا أوضحُ، فكلّ ما تراهُ بعينكَ أو تَسمعُهُ بأذنكَ أو تعقلُهُ بقلبكَ، وكلَّما يَـخطرُ ببالكَ، وكلَّما نالتهُ حاسَّةٌ من حواسِّكَ، فهو دليلٌ على الرَّبِّ تبارَكَ وتعالى، فطرقُ العلمِ بالصَّانعِ فطريَّةٌ ضروريَّةٌ ليسَ في العلومِ أجلى منها، وكلُّ ما استدلَّ به على الصَّانعِ فالعلمُ بوجودهِ أظهرُ من دلالتهِ، ولـهذا قالت الرُّسلُ لأمَـمِهِم : ﴿ أفي اللَّهِ شكٌّ ﴾ [إبراهيم : ١٠]، فخاطبوهم مخاطَبَةَ من لا يَنبغي أن يـخطرَ لـهُ شكٌّ ما في وجودِ اللَّهِ سبحانهُ .

ونَصَبَ منَ الأدلَّةِ على وجودهِ ووَحدانيَّتهِ وصفاتِ كمالـهِ الأدلَّةَ على اختلافِ أنواعها، ولا يطيقُ حصرَها إلّا اللَّهُ، ثمَّ رَكَزَ ذلكَ في الفطرَةِ، وَوَضعَهُ في العَقلِ جملَةً .

ثمَّ بَعَثَ الرُّسلَ مذكِّرينَ به ولـهذا يقولُ تعالى : ﴿ فَذكِّر فإنَّ الذِّكرى تنفعُ المُؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥]، وقوله : ﴿ فَذكِّر إن نَفَعَتِ الذِّكرى ﴾ [الأعلى : ٩] .

ومفصلين[1] لما في الفطرَةِ والعَقلِ العلم به جملَةً؛ فانظر كيفَ وجد الإقرارُ به وبتوحيدِهِ وصفاتُ كمالِهِ ونُعوتِ جلالِهِ وحكمتِهِ في خَلقِهِ وأمرِهِ المقتضيَةِ إثبات رسالَةِ رسلِهِ ومجازات الـمُحسن بإحسانِهِ والـمُسيء بإساءتِهِ مودعاً في الفطرةِ مركوزاً فيها، فلو خلِّيَت على ما خُلقَت عليهِ لم يَعرض لـها ما يُفسدُها ويحوِّلُها ويغيِّرُها عمَّا فُطرَت عليهِ، ولأقرَّت بوحدانيَّتِهِ ووجوبِ شكرِهِ وطاعتِهِ وبصفاتِهِ وحكمتِهِ في أفعالِهِ وبالثَّوابِ والعقابِ، ولكنَّها لما فَسَدَت وانحرَفَت عن المنهجِ الذي خُلقَت عليهِ أنكرَت ما أنكرَت، وجَحَدَت ما جَحَدَت، فبَعَثَ اللَّهُ رسلَهُ مذكِّرينَ لأصحابِ الفطرِ الصَّحيحَةِ السَّليمَةِ، فانقادوا طَوعاً واختياراً ومحبَّةً وإذعاناً بما جَعَلَ من شواهدِ ذلكَ في قلوبهم حتى إنَّ منهم من لم يسأل عن الـمُعجزَةِ والخارقِ بل علمَ صحَّةَ الدَّعوَةِ من ذاتها، وعلمَ أنَّـها دعوَةُ حقٍّ بُرهانُها فيها .

ومعذرينَ ومقيمينَ[1] البيِّنَةَ على أصحابِ الفِطَرِ الفاسدَةِ، لئلّا تـحتجَّ على اللَّهِ بأنَّهُ ما أرشدَها ولا هداها، فيحق القولُ عليها بإقامَةِ الـحجَّةِ، فلا يكونُ سبحانهُ ظالماً لـها بتعذيبِها وإشقائِها، وقد بيَّنَ ذلكَ سبحانهُ في قوله : ﴿ إن هوَ إلّا ذكرٌ وقُرآنٌ مُبينٌ * لِيُنذرَ من كانَ حيَّاً ويحقَّ القولُ على الكافرين ﴾ [يس : ٦٩ - ٧٠] .

---

(١) معطوف على قوله : « ثمَّ بعث الرسل مذكّرين به »؛ كما في حاشية الأصل .

فتأمَّل كيفَ ظَهَرَت معرفَةُ اللَّهِ والشهادَةُ لهُ بالتَّوحيدِ وإثباتِ أسمائِهِ وصفاتِهِ ورسالَةِ رسلِهِ والبَعثِ للجزاءِ مسطورَةً مثبتَةً في الفطَرِ، ولم يكُن ليعرفَ بها أنَّها ثابتَةٌ في فطرتِهِ، فلمَّا ذكَّرتُهُ الرُّسلُ ونبَّهتُهُ رأى ما أخبَروهُ بِهِ مُستقرّاً في فطرتِهِ، شاهداً به عقلُهُ بل وجوارحُهُ ولسانُ حالِهِ، وهذا أعظمُ ما يكونُ منَ الإيمانِ وهو الذي كتبهُ سبحانهُ في قلوبِ أوليائِهِ وخاصَّتِهِ فقال : ﴿ أُولئكَ كتَبَ في قلوبهم الإيمانَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فتَدبَّر هذا الفَصلَ فإنَّهُ من الكنوزِ في هذا الكتابِ، وهو حَقيقٌ بأن تُثنى عليهِ الخناصرُ، وللَّهِ الحَمدُ والمنَّةُ .

والمقصودُ أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أعطى العَبدَ من هذه المعارف وَطَرَّقَها ويسَّرَها عليهِ ما لم يُعطِهِ من غيرها؛ لعظَمِ حاجتهِ في معاشِهِ ومعادِهِ إليها، ثمَّ وَضَعَ في العَقلِ منَ الإقرارِ بحُسنِ شرعهِ ودينهِ الذي هو ظلُّهُ في أرضهِ، وعدلُهُ بينَ عبادهِ، ونورُهُ في العالم مالَو اجتَمَعَت عقولُ العالمينَ كلِّهم فكانوا على عَقلِ أعقَلِ رجلٍ واحدٍ منهم لما أمكنهمْ أن يَقترحوا شيئاً أحسَنَ منهُ، ولا أعدَلَ، ولا أصلَحَ، ولا أنفَعَ للخليقَةِ في معاشِها ومعادِها، فهو أعظمُ آياتهِ، وأوضحُ بيِّناتهِ، وأظهَرُ حُجَجِهِ على أنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو، وأنَّهُ المُتَّصف بكلِّ كمالٍ، المنزَّه عن كلِّ عَيبٍ ومثالٍ، فَضلاً عن أن يحتاجَ إلى إقامَةِ شاهدٍ من خارجٍ عليهِ بالأدلَّةِ والشواهدِ لتكثيرِ طرقِ الهُدى، وقَطعِ المعذرَةِ، وإزاحَةِ العلَّةِ والشبهَةِ : ﴿ ليَهلكَ من هَلَكَ عَن بيِّنَةٍ ويَحيى مَن حيَّ عَن بيِّنَةٍ وإنَّ اللَّهَ لسميعٌ عليمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

فأثبَتَ في الفطرَةِ حسنَ العَدلِ، والإنصافِ، والصِّدقِ، والبرِّ، والإحسانِ،

والوَفاءِ بالعَهدِ، والنَّصيحَةِ للخَلقِ، ورحمَةِ المسكين، ونَصرِ المظلومِ، ومواساةِ أهلِ الحاجَةِ والفاقَةِ، وأداءِ الأماناتِ، ومقابَلةِ الإحسانِ بالإحسانِ، والإساءَةِ بالعَفوِ والصَّفحِ، والصَّبرِ في مواطنِ الصَّبرِ، والبَذلِ في مواطنِ البَذلِ، والانتقامِ في مواضعِ الانتقامِ، والحلمِ في مَوضعِ الحلمِ، والسَّكينَةِ، والوَقار، والرَّأفَةِ، والرِّفقِ، والتُّؤدَةِ، وحُسنِ الأخلاقِ، وجميلِ المُعاشرَةِ مع الأقاربِ والأباعدِ، وسترِ العوراتِ، وإقالَةِ العَثراتِ، والإيثارِ عندَ الحاجاتِ، وإغاثَةِ اللهفاتِ، وتَفريجِ الكرباتِ، والتَّعاونِ على أنواعِ الخَيرِ والبرِّ، والشجاعَةِ، والسَّماحَةِ، والبَصيرَةِ، والثَّباتِ، والعَزيمَةِ، والقوَّةِ في الحقِّ، واللينِ لأهلهِ والشدَّةِ على أهلِ الباطلِ والغلظَةِ عليهم، والإصلاحِ بينَ النَّاسِ، وتَعظيمِ مَن يَستحقُّ التَّعظيمَ، وإهانَةِ من يَستحقُّ الإهانَةَ، وتَنزيلِ النَّاسِ منازلَهم، وإعطاءِ كلِّ ذي حَقٍّ حقَّهُ، وأخذِ ما سهلَ عليهم وطوَّعَت به أنفسُهم منَ الأعمالِ والأموالِ والأخلاقِ، ولإرشادِ ضالِّهم وتَعليمِ جاهلِهم، واحتمالِ جَفوتهم، واستواءِ قريبهم وبَعيدهم في الحقِّ، فأقربهم إليهِ أولاهم بالحقِّ وإن كانَ بَعيداً، وأبعدهم عنهُ أبعدهم من الحقِّ وإن كانَ حبيباً قريباً، إلى غيرِ ذلكَ من معرفَةِ العقلِ الذي وَضعهُ بينهم في المُعاملاتِ والمُناكحاتِ والجناياتِ .

وما أودعَ في فِطَرِهم من حسنِ شكرِهِ وعبادَتهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ نعمَهُ عليهم توجِبُ بَذلَ قدرتِهم وطاقتِهم في شكرهِ والتَّقرُّبِ إليهِ وإيثاره على ما سواهُ، وأثبتَ في الفطَرِ علمَها بقبيحِ أضدادِ ذلكَ .

ثمَّ بَعَثَ رسلَهُ في الأمرِ بما أثبتَ في الفِطَرِ حسنَهُ وكمالَهُ، والنَّهي عمَّا أثبتَ فيها قبحَهُ وعَيبَهُ وذمَّهُ، فطابَقَت الشريعَةُ المنزَّلةُ للفطرَةِ المكمِّلةِ مطابقَة

التَّفصيلِ بجملتِهِ، وقامَت شواهدُ دينهِ في الفطرَةِ تُنادي للإيمانِ حيَّ على الفلاحِ، وصَدَعَت تلكَ الشواهدُ والآياتُ دياجي ظلمِ الإباءِ كما صَدَعَ الليل ضوءُ الصَّباحِ، وقبلَ حاكمُ الشريعَةِ شهادَةَ العَقلِ والفطرَةِ لما كانَ الشاهدُ غيرَ متَّهمٍ ولا مُعرَّضٍ للجراح .

وكذلكَ أعطاهُم منَ العلومِ المتعلِّقَةِ بصلاحِ معاشِهم ودُنياهم بقَدرِ حاجاتِهم، كعلمِ الطبِّ، والحسابِ، وعلمِ الزِّراعَةِ والغراسِ، والصَّنائعِ، واستنباطِ المياهِ، وعقدِ الأبنيَةِ، وصنعَةِ السُّفنِ، واستخراجِ المعادنِ وتَهيئَتِها لما يُرادُ منها، وتَركيبِ الأدويَةِ، وصنعَةِ الأطعمَةِ، ومَعرفَةِ ضروبِ الحيلِ في صَيدِ الوَحشِ والطَّيرِ ودوابِّ الماءِ، والتَّصرُّفِ في وجوهِ التِّجاراتِ، ومَعرفَةِ وجوهِ المكاسبِ وغيرِ ذلكَ ممَّا فيهِ قيامُ معايشهم .

ثمَّ مَنَعهم سبحانهُ علمَ ما سوى ذلكَ ممَّا ليسَ في شأنهم، ولا فيهِ مصلحةٌ لهم، ولا نشأتهم قابلَة لهُ كعلمِ الغَيبِ، وعلم ما كانَ وكلِّ ما يكونُ، والعلمِ بعَددِ القَطرِ وأمواجِ البَحرِ وذرَّاتِ الرِّمالِ ومساقطِ الأوراقِ وعَددِ الكواكبِ ومقاديرِها، وعلمِ ما فوقَ السَّماواتِ وما تَحتَ الثَّرى، وما في لجَجِ البحارِ وأقطارِ العالم، وما يكنُّهُ النَّاسُ في صدورهم، وما تَحملُ كلُّ أُنثى وما تَغيضُ الأرحامُ وما تَزدادُ إلى سائرِ ما عَزَبَ عنهم علمُه، فمَن تكلَّفَ معرفَةَ ذلكَ فَقَد ظَلَمَ نَفسهُ وبَخَسَ منَ التَّوفيقِ حظَّهُ، ولم يَحصُل إلّا على الجَهلِ المركَّبِ والخيالِ الفاسدِ في أكثرِ أمرِهِ، وجَرَت سنَّةُ اللَّهِ وحكمتهُ أنَّ هذا الضَّربَ منَ النَّاسِ أجهلُهم بالعلمِ النَّافعِ وأقلُّهم صواباً، فتَرى عندَ مَن لا يَرفعونَ به رأساً منَ الحكمِ والعلمِ والحقِّ النَّافعَ مالا يَخطُرُ ببالهم أصلاً، وذلكَ من

حكمَةِ اللَّهِ في خَلقهِ وهو العزيزُ الحكيمُ، ولا يعرفُ هذا إلّا مَن اطَّلعَ على ما عندَ القومِ من أنواعِ الخيالِ، وضروبِ المُحالِ، وفنون الوساوسَ والهَوى والهَوَس والخَبطِ، وهم يَحسبونَ أنَّهُم على شيءٍ ألا إنَّهم الكاذبونَ، فالحمدُ للَّهِ الذي منَّ على المُؤمنينَ : ﴿ إذْ بَعَثَ فيهم رَسولاً مِن أنفُسهِم يَتلو عَلَيهم آياتهِ ويُزكّيهم ويُعلِّمهم الكتابَ والحِكمَةَ وإن كانوا مِن قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وفي ذلك من وجوه أُخَر الحكمة غير ما ذكرناه .

والمقصود : التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان، والأمرُ أضعافُ أضعافُ ما يخطر بالبال أو يجري فيه المقال، وإنَّما فائدة هذه الشَّذرَةِ التي هي كلٌّ شيءٍ بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه .

لخلق السماوات أكبر من خلق الناس

فارجع الآنَ إلى النُّطفَةِ وتأمَّل حالَـها أوَّلاً، وما صارَت إليهِ ثانياً، وأنَّـهُ لو اجتَمَعَ الإنسُ والجنُّ على أن يخلقوا لـها سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قُدرَةً أو علماً أو روحاً بل عظماً واحداً من أصغَرِ عظامها بل عرقاً من أدقِّ عروقها بل شعرَةً واحدَةً لعجزوا عن ذلكَ، بل ذلكَ كلُّهُ آثارُ صنعِ اللَّهِ الذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ في قَطرَةٍ من ماءٍ مَهينٍ، فمَن هذا صَنْعُهُ في قَطرَةِ ماءٍ فكيفَ صنعُهُ في ملكوتِ السَّماواتِ وعلوِّها وسِعَتِها واستدارتِها وعظمِ خلقِها وحسنِ بنائها وعجائبِ شمسِها وقمرِها وكواكبِها ومقاديرِها وأشكالِها وتفاوتِ مشارقِها ومغاربِها فلا ذرَّة فيها تنفكُّ عن حكمَةٍ بل هي أحكمُ خَلقاً وأتقَنُ صنعاً وأجمَعُ للعجائب من بَدَنِ الإنسانِ بل لا نَسبَةَ لجميعِ ما في الأرضِ إلى عجائبِ السَّماواتِ، قال اللَّه تعالى : ﴿ أأنتُم أشدُّ خَلقاً أم السَّماء بناها * رَفَعَ سَمكَها فسوَّاها ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ والفلكِ التي تجري في البحرِ بما ينفعُ النَّاسَ ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ... لآياتٍ لقَومٍ يعقلون ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ [آل عمران : ١٩٠] .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ، فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ ما تَحتَ السَّماواتِ بالإضافَةِ إلى السَّماواتِ كقَطرَةٍ في بحرٍ، ولهذا قلَّ أن تجيءَ سورَةٌ في القرآنِ إلّا وفيها ذكرُها إمّا إخباراً عن عظمِها وسعتِها، وإمّا إقساماً بها، وإمّا دعاءً إلى النَّظَرِ فيها، وإمّا إرشاداً للعبادِ أن يَستدلُّوا بها على عَظَمَةِ بانيها ورافِعِها، وإمّا استدلالاً منه سبحانهُ بخلقها على ما أخبَرَ به من المعادِ والقيامةِ، وإمّا استدلالاً منهُ بربوبيَّتهِ لها على وحدانيَّتهِ وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو، وإمّا استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئامِ أجزائها وعَدمِ الفطورِ فيها على تمامِ حكمتهِ وقدرتهِ .

وكذلكَ ما فيها من الكواكبِ والشمسِ والقمرِ والعجائبِ التي تتقاصَرُ عقولُ البَشرِ عن قليلها فكم من قَسمٍ في القرآنِ بها، كقولهِ : ﴿ والسَّماءِ ذاتِ البروجِ ﴾ [البروج : ١]، ﴿ والسَّماءِ والطَّارق ﴾ [الطارق : ١]، ﴿ والسَّماءِ وما بناها ﴾ [الشمس : ٥]، ﴿ والسَّماءِ ذاتِ الرَّجعِ ﴾ [الطارق : ١١]، ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : ١]، ﴿ والنَّجمِ إذا هَوى ﴾ [النجم : ١]، و ﴿ النَّجمِ الثَّاقب ﴾ [الطارق : ٣]، ﴿ فلا أُقسِمُ بالخُنَّسِ ﴾ [التكوير : ١٥] .

ولم يُقسم في كتابهِ بشيءٍ من مخلوقاتهِ أكثَرَ من السَّماءِ والنُّجومِ والشمسِ والقَمَرِ، وهو سبحانهُ يقسمُ بما يقسمُ بهِ من مخلوقاتهِ لتضمُّنهِ الآياتِ والعجائبَ الدَّالَّةَ عليهِ، وكلَّما كان أعظَمَ آيَةً وأبلَغَ في الدَّلالَةِ كانَ إقسامهُ بهِ

أكثَرَ من غيرهِ، ولـهذا يعظمُ هذا القَسمَ كقوله : ﴿ فلا أُقسمُ بِمواقِعِ النُّجومِ * وإنَّهُ لَقَسَمٌ لو تَعلَمونَ عظيمٌ ﴾ [الواقعَة : ٧٥ - ٧٦] .

والـمقصودُ أنَّهُ سبحانهُ إنَّما يُقسمُ من مخلوقاتهِ بما هو من آياتهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتهِ ووحدانيَّتهِ، وقد أثنى سبحانهُ في كتابهِ على المتفكِّرينَ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ وذَمَّ الـمُعرضين عن ذلك، فقال : ﴿ وجَعَلنا السَّماءَ سَقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعرضونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢]؛ وتأمَّل خَلقَ هذا السَّقفِ الأعظمِ مع صلابتهِ وشدَّتهِ ووثاقتهِ من دخانٍ وهو بخارُ الماءِ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وبنَينا فَوقَكُم سَبعاً شداداً ﴾ [النبأ : ١٢]، وقال تعالى : ﴿ أأنتُم أشدُّ خَلقاً أم السَّماءَ بناها * رَفَعَ سَمكَها فسوَّاها ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٢٨]، فانظر إلى هذا البناءِ العظيمِ الشديد الواسعِ الذي رَفَعَ سمكهُ أعظَمَ ارتفاعٍ، وزيَّنهُ بأحسَنِ زينَةٍ، وأودعهُ العجائبَ والآياتِ، وكيفَ ابتدأ خَلقَهُ من بخارٍ ارتَفَعَ منَ الماءِ وهو الدُّخان ؟

فسُبحانَ مَن لا يُقدرُ الخلقُ قَدْرَه
ومَن هو فَوقَ العَرشِ فَردٌ مُوَحدُ

لَقَد تعرَّفَ إلى خَلقهِ بأنواعِ التَعرفاتِ ونَصَبَ لهم الدَّلالاتِ، وأوضَحَ لهم الآياتِ البيِّناتِ، ليهلكَ من هَلَكَ عَن بيِّنَةٍ، ويَحيى من حيَّ عن بيِّنَةٍ، وإنَّ اللَّهَ لسميعٌ عليمٌ .

فارجع البَصَرَ إلى السَّماءِ، وانظُر فيها وفي كواكبها ودَورانِها، وطلوعِها، وغروبِها، وشمسِها وقمرِها، واختلافِ مشارقِها ومغاربِها ودؤوبِها في الحَرَكَةِ على الدَّوامِ من غَيرِ فتورٍ في حَركتها ولا تغيُّرٍ في سيرها، بل تَجري في منازلَ

قَد رُتِّبَت لها بحسابٍ مقدَّرٍ لا يَزيدُ ولا يَنقصُ، إلى أن يطويها فاطِرُها وبَديعُها .

وانظر إلى كثرةِ كواكبِها، واختلافِ ألوانِها، ومقاديرِها فبعضُها يميلُ إلى الحُمرَةِ، وبعضُها إلى البياضِ، وبعضُها إلى اللونِ الرَّصاصي .

ثمَّ انظر إلى مسيرِ **الشمسِ** في فلكها في مدَّةِ سنةٍ، ثمَّ هيَ في كلِّ يومٍ تطلعُ وتغربُ بسَيرٍ سخَّرها لهُ خالقها لا تَتَعدَّاهُ ولا تَقصُرُ عنهُ، ولولا طلوعُها وغروبُها لما عُرِفَ الليلُ والنَّهارُ، ولا المواقيتُ، ولأطبَقَ الظَّلامُ على العالَمِ أو الضِّياءُ، ولم يتميَّزْ وقتُ المعاشِ من وقتِ السُّباتِ والرَّاحَةِ، وكيفَ قدَّرَ لها السَّميعُ العليمُ سَفَرَينِ متباعدين :

○ **أحدِهما** : سفرها صاعدَةً إلى أوجها .

○ **والثَّاني** : سفرها هابطَةً إلن حضيضها .

تنتقلُ في منازلِ هذا السَّفرِ منزلَةً منزلَةً حتى تبلغَ غايتها منهُ، فأحدَثَ ذلكَ السَّفَرُ بقدرةِ الرَّبِّ القادرِ اختلافَ الفصولِ من الصَّيفِ والشتاءِ والخريفِ والرَّبيعِ، فإذا انخَفَضَ سيرُها عن وَسَطِ السَّماءِ بَرَدَ الهَواء وظَهَرَ الشتاءُ، وإذا استوَت في وَسَطِ السَّماءِ اشتَدَّ القَيظُ، وإذا كانت بينَ المسافتين اعتَدَلَ الزَّمانُ وقامَت مصالحُ العبادِ والحيوانِ والنَّباتِ بهذه الفصولِ الأربَعَةِ، واختَلَفَت بسببها الأقواتُ وأحوالُ النَّباتِ وألوانُهُ ومنافعُ الحيوانِ والأغذيَةِ وغيرها .

وانظر إلى **القمرِ** وعجائبِ آياتهِ كيفَ يبديهِ اللَّهُ كالخَيطِ الدَّقيقِ ثمَّ يتزايَدُ نورُهُ ويتكاملُ شيئاً فشيئاً كلَّ ليلَةٍ حتى يَنتَهي إلى بدارِهِ وكمالِهِ وتمامِهِ، ثمَّ يأخُذُ في النُّقصانِ حتى يعودَ إلى حالتهِ الأولى؛ ليظهَرَ من ذلكَ مواقيتُ العبادِ

في معاشِهم وعبادتِهم ومناسكِهم، فتميَّزَت به الأشهرُ والسُّنونَ وقامَ حسابُ العالمِ مع ما في ذلكَ من الحكمِ والآياتِ والعبرِ التي لا يُحصيها إلّا اللَّهُ .

وبالجملَةِ فما من كوكبٍ من الكواكبِ إلّا وللرَّبِّ تباركَ وتعالى في خَلقهِ حِكمٌ كثيرَةٌ، ثمَّ في مقدارهِ، ثمَّ في شكلهِ ولونهِ، ثمَّ في موضِعِهِ من السَّماءِ وقربهِ من وسطِها وبُعدهِ، وقربهِ من الكوكبِ الذي يليهِ وبُعدِهِ منهُ، وإذا أردتَ معرفَةَ ذلكَ على سبيلِ الإجمالِ فقسهُ بأعضاءِ بَدَنِكَ واختلافِها وتفاوُتِ ما بينَ المتجاوراتِ منها، وبعدِ ما بينَ المتباعداتِ، وأشكالِها ومقاديرِها، وتفاوُتِ منافِعِها وما خُلقَت لهُ، وأينَ نسبَةُ ذلكَ إلى عظمِ السَّماواتِ وكواكبِها وآياتِها .

ثمَّ إنَّهُ سبحانهُ أمسكَ السَّماواتِ مع عظَمِها وعظمِ ما فيها وثبَّتَها من غيرِ علاقَةٍ من فوقِها ولا عمدٍ من تحتها : ﴿ خَلَقَ السَّماواتِ بغَيرِ عَمَدٍ تَرَونها وألقى في الأرضِ رواسيَ أن تَميدَ بكُم وبثَّ فيها من كلِّ دابَّةٍ وأنزلنا من السَّماءِ ماءً فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ * هذا خَلقُ اللَّهِ فأروني ماذا خَلَقَ الَّذينَ من دونهِ بل الظَّالمونَ في ضلالٍ مُبينٍ ﴾ [لقمان : ١٠ - ١١] .

سَفَرُ القلبِ إلى عرش الرَّبِّ

والنَّظرُ في هذه الآياتِ وأمثالِها نوعان :

○ **أحدهما** : نظرٌ إليها بالبَصرِ الظَّاهرِ، فيرى مثلاً زُرقَةَ السَّماءِ، ونجومَها، وعلُوَّها، وسعتَها، وهذا نَظرٌ يشاركُ الإنسانُ فيه غيرَهُ من الحيواناتِ، وليسَ هو المقصودُ بالأمرِ .

○ **الثَّاني** : أن يتجاوَزَ هذا إلى النَّظرِ بالبَصيرَةِ الباطنَةِ، فتفتحُ لهُ أبوابُ السَّماءِ، فيجولُ في أقطارِها وملكوتها وبينَ ملائكَتِها، ثمَّ يُفتحُ له بابٌ بعَد بابٍ حتى ينتهي به سيرُ القلبِ إلى عرشِ الرَّحمن، فينظر سعَتهُ وعظمَتهُ وجلالَهُ ومجدَهُ ورفعتَهُ، ويرى السَّماواتِ السَّبع والأرضينَ السَّبع بالنِّسبَةِ إليهِ كحلقَةٍ ملقاةٍ بأرضِ فلاةٍ، ويرى الملائكَةَ حافّينَ من حولِهِ لهم زجلٌ بالتَّسبيحِ والتَّحميد والتَّقديسِ والتَّكبيرِ، والأمرُ ينزلُ من فوقِهِ بتدبيرِ الممالكِ والجنودِ التي لا يعلمها إلّا ربُّها ومليكُها، فينزلُ الأمرُ بإحياءِ قومٍ، وإماتَةِ آخرينَ، وإعزازِ قومٍ، وإذلالِ آخَرين، وإسعادِ قومٍ، وشقاوَةِ آخَرين، وإنشاءِ مُلكٍ، وسلبِ مُلكٍ، وتحويلِ نعمَةٍ من محلٍّ إلى محلٍّ، وقضاء الحاجاتِ على اختلافِها وتبايُنِها وكثرَتِها من جَبرِ كسرٍ، وإغناءِ فَقيرٍ، وشفاءِ مريضٍ، وتَفريجِ كربٍ، ومغفرَةِ

ذنبٍ، وكشفِ ضُرٍّ، ونَصرِ مظلومٍ، وهدايَةِ حَيران، وتعليمِ جاهلٍ، وردِّ آبقٍ، وأمانِ خائفٍ، وإجارَةِ مُستجيرٍ، ومددِ لضعيفٍ، وإغاثَةِ لـملهوفٍ، وإعانَةٍ لعاجزٍ، وانتقامٍ من ظالـمٍ، وكفِّ العدوانِ، فهي مراسيم دائرةٌ بين العَدلِ والفَضلِ، والحكمَةِ والرَّحمَةِ تنفذُ في أقطارِ العوالـمِ لا يشغلُهُ سمعُ شيءٍ منها عن سمعِ غيرهِ، ولا تغلطهُ كثرَةُ المسائلِ والحوائجِ على اختلافها وتباينها واتِّحادِ وقتها، ولا يتبرَّمُ بإلحاحِ الـمُلحِّينَ، ولا تنقصُ ذرةٌ من خزائنهِ لا إلـهَ إلّا هو العزيزُ الحكيمُ، فحينئذٍ يقومُ القلبُ بينَ يَدي الرَّحمن مُطرقاً لـهيبتهِ خاشعاً لعظمتهِ عانٍ لعزَّتهِ، فيسجدَ بين يدي الـملكِ الـحقِّ الـمُبينِ سَجدَةً لا يَرفعُ رأسهُ منها إلى يومِ الـمزيدِ، فهذا سَفَرُ القلبِ وهو في وطنهِ ودارهِ ومحلِّ ملكِهِ، وهذا من أعظمِ آياتِ اللَّهِ، وعجائبِ صنعهِ، فيالهُ من سفرٍ ما أبركهُ وأروحَهُ، وأعظَمَ ثمرتهُ وربحهُ، وأجلَّ منفعتهُ، وأحسَنَ عاقبتهُ، سفرٌ هو حياةُ الأرواحِ، ومفتاحُ السَّعادَةِ، وغنيمَةُ العقولِ والألبابِ لا كالسَّفرِ الذي هو قطعَةٌ من العذابِ .

وفي الأرض آيات للموقنين

وإذا نَظرتَ إلى هذه الأرضِ وكيفَ خُلقَت ؟ رأيتَها من أعظمِ آياتِ فاطرِها وبديعِها خلقَها سبحانهُ فِراشاً ومِهاداً وذلَّلها لعبادِه، وجَعَلَ فيها أرزاقَهم وأقواتَهم ومعايشَهم، وجَعَلَ فيها السُّبلَ لينتقلوا فيها في حوائجِهم وتصرُّفاتِهم، وأرساها بالجبالِ، فجعلها أوتاداً تحفظُها لئلّا تميدَ بهم، ووسَّعَ أكنافَها، ودحاها فمدَّها وبسطها، وطَحاها فوسَّعها من جوانبها، وجعلها كفاتاً للأحياءِ تضمُّهُم على ظَهرها ما داموا أحياءً، وكفاتاً للأمواتِ تضمُّهُم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطنٌ للأحياءِ، وبطنها وطنٌ للأمواتِ، وقَد أكثَرَ تعالى من ذكرِ الأرضِ في كتابِهِ، ودعا عبادَهُ إلى النَّظرِ إليها والتَّفكُّرِ في خلقها، فقال تعالى : ﴿ والأرضَ فرشناها فنعمَ الماهدون ﴾ [الذاريات : ٤٨]، ﴿ اللَّهُ الذي جَعَلَ لكُم الأرضَ قراراً ﴾ [غافر : ٦٤]، ﴿ الذي جَعَلَ لكُم الأرضَ فراشاً ﴾ [البقرة : ٢٢]، ﴿ أفلا يَنظرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلقَت * وإلى السَّماءِ كيفَ رُفعَت * وإلى الجبالِ كيفَ نُصِبَت * وإلى الأرضِ كيفَ سُطِحَت ﴾ [الغاشية : ١٧ - ٢٠]، ﴿ إنَّ في السَّماواتِ والأرضِ لآياتٌ للمؤمنين ﴾ [الجاثية : ٣] .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ، فانظُر إليها وهي ميِّتةٌ هامدَةٌ خاشعَةٌ، فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت، فتحرَّكَت، وربَت، فارتَفعَت، واخضرَّت، وأنبتَت من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، فأخرَجَت عجائبَ النَّباتِ في المنظرِ والمخبرِ، بهيج للنَّاظرينَ، كريم للمتناولينَ، فأخرَجَت الأقواتَ على اختلافها وتبايُنِ مقاديرها، وأشكالها، وألوانها، ومنافعها، والفواكهَ والثِّمارَ وأنواعَ الأدوِيَةِ ومراعي الدَّوابِّ والطَّيرِ .

ثمَّ انظر قَطعَها المتجاوراتِ وكيفَ ينزلُ عليها ماءٌ واحدٌ فتنبتُ الأزواجَ المختلفَةَ المتباينةَ في اللَّونِ والشَّكلِ والرَّائحَةِ والطَّعمِ والمنفعَةِ، واللقاحُ واحدٌ، والأمُّ واحدَةٌ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرضِ قِطَعٌ متجاوِراتٌ وجنَّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونَخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّلُ بَعضها على بَعضٍ في الأُكُلِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَومٍ يعقلون ﴾ [الرعد : ٤]، فكيفَ كانَت هذه الأجنَّةُ المختلفَةُ مودعَةً في بطنِ هذهِ الأمِّ ؟ وكيفَ كانَ حِمْلُها من لقاحٍ واحدٍ ؟ صُنْع اللَّهِ الذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ لا إلـهَ إلّا هو، ولولا أنَّ هذا من أعظمِ آياتهِ لما نبَّهَ عليهِ عبادَهُ وهداهم إلى التَّفكيرِ فيه .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وتَرى الأرضَ هامدَةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وربَت وأنبتَت مِن كلِّ زوجٍ بهيجٍ * ذلكَ بأنَّ اللَّهَ هو الحقُّ وأنَّهُ يُحيي المَوتى وأنَّهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ * وأنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ اللَّهَ يبعثُ من في القبور ﴾ [الحج : ٥ - ٧]، فجعَلَ النَّظَرَ في هذه الآيَةِ وما قبلها من خَلقِ الجَنينِ دليلاً على هذه النَّتائجِ الخَمسِ مستلزماً للعلم بها .

ثمَّ انظر كيفَ أحكَمَ جوانبَ الأرضِ بالجبالِ الرَّاسياتِ الشوامخِ الصُّمِّ الصِّلابِ ؟ وكيفَ نَصَبها فأحسَنَ نَصبَها ؟ وكيفَ رَفَعها وجَعلها أصلَبَ أجزاءِ

الأرضِ لئلّا تضمحلَّ على تطاوُلِ السِّنين وترادفِ الأمطارِ والرِّياحِ، بل أتقَنَ صنعها، وأحكَمَ وضعها، وأودعها من المنافعِ والمعادنِ والعيونِ ما أودعها، ثمَّ هدى النَّاسَ إلى استخراجِ تلكَ المعادنِ منها، وألهمهم كيفَ يَصنعونَ منها النُّقودَ والحُلِيَّ والزِّينَةَ واللِّباسَ والسِّلاحَ وآلَةَ المعاشِ على اختلافها، ولولا هدايتُهُ سبحانهُ لهم إلى ذلكَ لما كانَ لهم علمُ شيءٍ منهُ ولا قدرَةٌ عليهِ ؟

الهواء والرياح :

ومن آياتهِ الباهرَةِ هذا الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بينَ السَّماءِ والأرضِ يُدركُ بحسِّ اللمسِ عند هبوبهِ يُدركُ جسمهُ، ولا يُرى شخصُهُ، فهو يجري بينَ السَّماءِ والأرضِ، والطَّيرُ متحلِّقَةٌ فيه، سابحَةٌ بأجنحتها في أمواجهِ، كما تَسبحُ حيواناتُ البحرِ في الماءِ، وتضطربُ جوانبُهُ وأمواجُهُ عندَ هيجانهِ كما تضطربُ أمواجُ البَحرِ، فإذا شاءَ سبحانهُ وتعالى حرَّكهُ بحركةِ الرَّحمَةِ؛ فجعَلَهُ رخاءً ورحمَةً وبشرى بين يدَي رحمتهِ، ولاقحاً للسَّحابِ يلقحهُ بحمل الماءِ كما يلقحُ الذَّكرُ الأُنثى بالحملِ .

وتُسمَّى رياحُ الرَّحمَةِ المُبشراتُ، والنَّشرُ، والذَّارياتُ، والمُرسلاتُ، والرَّخاءُ واللواقحُ، ورياحُ العَذابِ العاصفُ، والقاصفُ - وهما في البحرِ - والعقيمُ، والصَّرصَرُ - وهما في البرِّ - وإن شاءَ حرَّكهُ بحركةِ العذابِ، فجعلهُ عقيماً وأودعهُ عذاباً أليماً، وجعلهُ نقمَةً على من يشاءُ من عباده، فيجعلهُ صَرصراً ونحساً وعاتياً ومُفسداً لما يمرُّ عليهِ، وهي مختلفَةٌ في مهابِّها، فمنها صبا ودبورُ وجنوبُ وشمالُ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظمُ اختلافٍ، فريحٌ ليِّنَةٌ رطبَةٌ تُغَذِّي

النَّباتاتَ وأبدانَ الحيوانِ، وأُخرى تجفِّفُهُ، وأُخرى تهلكُهُ وتعطبُهُ، وأُخرى تشدُّهُ وتصلبُهُ، وأُخرى توهنهُ وتُضعفُهُ .

ولهذا يُخبرُ سبحانهُ عن رياحِ الرَّحمَةِ بصيغَةِ الجمعِ لاختلافِ منافعها وما يحدثُ منها، فريحٌ تُثيرُ السَّحابَ، وريحٌ تُلقحُهُ، وريحٌ تحملُهُ على متونِها، وريحٌ تُغَذِّي النَّباتات .

ولمَّا كانتِ الرِّياحُ مختلفَةً في مهابِّها وطبائعها جَعَلَ لكلِّ ريحٍ ريحاً مقابلتها تكسرُ سورَتها وحدَّتها، ويبقى ليِّنُها ورحمتُها، فرياحُ الرَّحمَةِ متعدِّدَةٌ، وأمَّا ريحُ العذابِ فإنَّهُ ريحٌ واحدَةٌ، ترسلُ من وجهٍ واحدٍ لإهلاكِ ما تُرسلُ بإهلاكهِ، فلا تقومُ لها ريحٌ أُخرى تقابلها وتكسرُ سورَتها وتَدفعُ حدَّتها بل تكونُ كالجيشِ العظيمِ الذي لا يقاومُهُ شيءٌ يدمِّرُ كلَّ ما أتى عليهِ .

وتأمَّلَ حكمَةَ القرآنِ وجلالَتهُ وفصاحَتَهُ كيفَ طَرَدَ هذا في البَرِّ ؟ وأمَّا في البحرِ فجاءَت ريحُ الرَّحمَةِ فيهِ بلفظِ الواحدِ، كقوله تعالى : ﴿ هو الَّذي يُسيِّرُكُم في البرِّ والبَحرِ حتى إذا كُنتُم في الفُلكِ وجَرَينَ بِهِم بريحٍ طيِّبَةٍ وفَرحوا بها جاءَتها ريحٌ عاصفٌ وجاءَهُم المَوجُ من كلِّ مكانٍ ﴾ [يونس : ٢٢]، فإنَّ السُّفنَ إنَّما تَسيرُ بالرِّيحِ الواحدَةِ التي تأتي من وجهٍ واحدٍ، فإذا اختَلَفَت الرِّياحُ على السُّفن وتقابلت لم يتمَّ سَيرُها، فالمقصودُ منها في البحرِ خلافُ المقصودِ منها في البرِّ، إذ المقصودُ في البحرِ أن تكونَ واحدَةً طيِّبَةً لا يعارضها شيءٌ، فأفردَت هنا، وجُمعَت في البرِّ .

ثمَّ إنَّهُ سبحانهُ أعطى هذا المخلوقَ اللطيفَ الذي يُحرِّكهُ أضعَف المخلوقاتِ ويخرقهُ من الشدَّةِ والقوَّةِ والبأسِ ما يقلقُ به الأجسامَ الصَّلبَةَ القويَّةَ المُمتنعَةَ

ويزعجها عن أماكنها ويفتّتها ويحملها على متنه، فانظُر إليهِ مع لطافتهِ وخفَّتهِ إذا دَخَلَ في الزقِّ مثلاً وامتلأ بهِ ثمَّ وضعَ عليهِ الجسمُ الثَّقيلُ كالرَّجلِ وغيرهِ وتحامَلَ عليهِ ليغمسَهُ في الماءِ لم يُطق، ويضع الحَديدُ الصَّلبُ الثَّقيلُ على وجهِ الماءِ فيرسب فيهِ، فامتنَعَ هذا اللطيفُ من قَهرِ الماءَ لهُ، ولم يمتنع منهُ القويُّ الشديدُ، وبهذه الحكمَةِ أمسَكَ اللَّهُ سبحانهُ السُّفنَ على وجهِ الماءِ مع ثقلها وثقلِ ما تحويهِ، وكذلكَ كلُّ مجوَّفٍ حلَّ فيهِ الهواءُ فإنَّهُ لا يرسبُ فيهِ، لأنَّ الهواءَ يمتنعُ من الغَوصِ في الماءِ، فتتعلَّقُ بهِ السَّفينَةُ المشحونَةُ الموقرةُ، فتأمَّل كيفَ استجارَ هذا الجسمُ الثَّقيلُ العظيمُ بهذا اللطيفِ الخفيفِ، وتعلَّقَ بهِ حتى أمِنَ منَ الغرَقِ، وهذا كالذي يَهوي في قليبٍ فيتعلَّقُ بذيلِ رجلٍ قويٍّ شديدٍ يمتنعُ عن السُّقوطِ في القليبِ، فينجو بتعلُّقهِ بهِ، فسبحانَ مَن علَّقَ هذا المركبَ العظيمَ الثَّقيلَ بهذا الهواءِ اللطيفِ من غيرِ علاقَةٍ ولا عُقدَةٍ تُشاهَد .

السحاب :

ومن آياتِه : ﴿ السَّحاب المُسخَّر بينَ السَّماءِ والأرضِ ﴾ [البقرة : ١٦٤]، كيفَ يُنشئهُ سبحانهُ بالرِّياحِ فتثيرهُ كسيفاً ثمَّ يؤلِّفُ بينهُ، ويضمُّ بعضَهُ إلى بَعضٍ، ثمَّ تلقحهُ الرِّيحُ وهي التي سمَّاها سبحانهُ لواقحَ، ثمَّ يسوقُهُ على متونها إلى الأرضِ المُحتاجَةِ إليهِ، فإذا علاها واستوى عليها أهرقَ ماءَهُ عليها، فيرسل سبحانهُ عليهِ الرِّيحَ وهو في الجوِّ، فتذروهُ، وتفرِّقهُ، لئلّا يؤذي ويَهدمَ ما ينزلُ عليهِ بجملتهِ حتى إذا رويَت وأخَذَت حاجَتها منهُ أقلَعَ عنها وفارقها، فهي روايا الأرضِ محمولَةً علىظهورِ الرِّياحِ .

وفي « الصَّحيح »[1] عن النَّبيِّ ﷺ قال : « بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرضِ إذ سمعَ صَوتاً في سحابَةٍ إسقِ حَديقَةَ فلانٍ، فمرَّ الرَّجلُ معَ السَّحابَةِ حتى أتَت على حديقَةٍ فلمَّا توسَّطتها أفرَغَت فيها ماءَها، فإذا برجلٍ معهُ مسحاةٌ يَسحي الماءَ بها فقال : ما اسمُكَ يا عَبدَاللَّه ؟ قال : فلان، للاسمِ الذي سمعَهُ في السَّحابَةِ » .

وبالجُملَةِ فإذا تأمَّلتَ السَّحابَ الكَثيفَ المُظلمَ كيفَ تراهُ يجتمعُ في جوٍّ صافٍ لا كدورَةَ فيه ؟ وكيفَ يخلقهُ اللَّهُ متى شاءَ وإذا شاءَ ؟ وهو مع لينهِ ورخاوتهِ حاملٌ للماءِ الثَّقيلِ بينَ السَّماءِ والأرضِ إلى أن يأذَنَ لهُ ربُّهُ وخالقُهُ في إرسالِ ما معهُ من الماءِ فيرسلهُ، وينزلهُ منهُ مقطعاً بالقَطَراتِ كل قَطرَةٍ بَقدرٍ مخصوصٍ اقتَضَتهُ حكمتُهُ ورحمتُهُ، فيرش السَّحابُ الماءَ على الأرضِ رشّاً ويرسلُهُ قَطراتٍ مفصَّلةٍ لا تختلطُ قَطرةٌ منها بأُخرى، ولا يتقدَّمُ متأخِّرُها ولا يتأخَّرُ متقدِّمُها، ولا تُدركُ القَطرَةُ صاحِبَتها فتمزجَ بها بل تنزلُ كلُّ واحدَةٍ في الطَّريقِ الذي رُسمَ لها لا تَعدلُ عنهُ حتى تُصيبَ الأرضَ قَطرَةً قَطرَةً قد عُيِّنَت كلُّ قَطرَةٍ منها لجزءٍ من الأرضِ لا تَتعدَّاهُ إلى غيرهِ، فلو اجتَمَعَ الخلقُ كلُّهُم على أن يَخلقوا منها قَطرَةً واحدَةً أو يحصوا عَدَدَ القَطرِ في لَحظَةٍ واحدَةٍ لعَجزوا عنهُ .

فتأمَّلَ كيفَ يسوقهُ سبحانهُ رزقاً للعبادِ والدَّوابِّ والطَّيرِ والذَرِّ والنَّمل، يسوقُه رزقاً للحيوان الفلاني في الأرض الفلانيَّة بجانب الجبل الفلاني فَيَصِلُ إليهِ على شدَّةٍ من الحاجَةِ والعَطَشِ في وقتٍ كذا وكذا .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٤) .

النَّبات :

ثمَّ كيفَ أودعهُ في الأرضِ ثمَّ أخرَجَ به أنواعَ الأغذيَةِ والأدويَةِ والأقواتِ، فهذا **النَّباتُ** يغذِّي، وهذا يصلُحُ الغذاءَ، وهذا ينفذهُ، وهذا يضعفُ، وهذا سُمٌّ قاتلٌ، وهذا شفاءٌ من السُّمِّ، وهذا يمرضُ، وهذا دواءٌ من المَرَضِ، وهذا يبردُ، وهذا يسخنُ، وهذا إذا حَصَلَ في المعدَةِ قمعَ الصَّفراءَ من أعماقِ العروقِ، وهذا إذا حَصَلَ فيها ولَّدَ الصَّفراءَ واستحالَ إليها، وهذا يَدفعُ البَلغَمَ والسَّوداءَ، وهذا يَستحيلُ إليهما، وهذا يهيجُ الدَّمَ، وهذا يسكِّنهُ، وهذا ينوِّمُ، وهذا يمنعُ النَّومَ، وهذا يفرحُ، وهذا يجلبُ الغمَّ إلى غير ذلكَ من عجائبِ النَّباتِ التي لا تَكادُ تخلو ورقَةٌ منه ولا عرقٌ ولا ثمرَةٌ من منافع تعجزُ عقولُ البَشرِ عن الإحاطَةِ بهِ وتَفصيلها .

وانظر إلى مجاري الماءِ في تلكَ العروقِ الرَّقيقَةِ الضَّئيلَةِ الضَّعيفَةِ التي لا يكادُ البَصرُ يدركها إلّا بَعدَ تَحديقهِ كيفَ يقوى قسرهُ واجتذابهُ من مقرِّهِ ومركزهِ إلى فوق، ثمَّ ينصرفُ في تلكَ المجاري بحسبِ قبولها وسعتها وضيقها، ثمَّ تتفرَّقُ وتَتشعَّبُ وتدقُّ إلى غايَةٍ لا ينالها البَصرُ .

ثمَّ انظر إلى تكوُّنِ حملِ الشجرَةِ ونقلتهِ من حالٍ إلى حالٍ كتنقُّلِ أحوالِ الجنينِ المغيَّبِ عن الأبصارِ ترى العَجَبَ العُجابَ، فتبارَكَ اللَّهُ ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين، بيْنا تراها حَطباً قائماً عارياً لا كسوَةَ عليها إذ كساها ربُّها وخالقها من الزَّهرِ أحَسَنَ كسوَةٍ، ثمَّ سلبها تلكَ الكسوَةَ وكساها من الورقِ كسوةً هي أثبَتُ من الأولى، ثمَّ اطلع فيها حملَها ضعيفاً ضئيلاً بعدَ أن أخرَجَ

ورقها صيانَةً وثوباً لتلكَ الثَّمرَةِ الضَّعيفَةِ لتستجنَّ بهِ منَ الحرِّ والبَردِ والآفاتِ، ثمَّ ساقَ إلى تلك الثِّمارِ رزقها وغذَّاها في تلك العروقِ والمجاري، فتغذَّت به كما يتغذَّى الطفلُ بلبانِ أمِّهِ، ثمَّ ربَّاها ونمَّاها شيئاً فشيئاً حتى استوَت وكملت وتناهى إدراكها، فأخرَجَ ذلك الجنى اللَّذيذَ اللَّين من تلكَ الحطَبَةِ الصَّمَّاءِ .

هذا وكم للَّهِ من آيَةٍ في كلِّ ما يقعُ الحسُّ عليهِ ويبصرُهُ العبادُ وما لا يبصرونهُ تفنى الأعمارُ دونَ الإحاطَةِ بها وبجميعِ تفاصيلها .

اللّيل والنهار :

ومن آياتهِ سبحانهُ وتعالى **الليلُ والنَّهارُ** وهما من أعجَبِ آياتهِ وبدائعِ مصنوعاتهِ، ولهذا يُعيدُ ذكرهما في القرآنِ ويبديهِ، كقوله تعالى : ﴿ ومن آياتهِ الليلُ والنَّهارُ ﴾ [فصلت : ٣٧]، وقوله : ﴿ وهو الَّذي جَعَلَ الليلَ لباساً والنَّومَ سُباتاً وجَعَلَ النَّهارَ نُشوراً ﴾ [الفرقان : ٤٧]، وقوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ وهوَ الَّذي خَلَقَ الليلَ والنَّهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ في فلكٍ يسَبحونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣]، وقوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ اللَّه الَّذي جَعَلَ لكُم الليلَ لتَسكنوا فيهِ والنّهارَ مُبصراً ﴾ [غافر : ٦١] .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ، فانظر إلى هاتينَ الآيتين وما تَضمَّنتاهُ من العِبَرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللَّهِ وحكمَتِه، كيفَ جَعَلَ الليلَ سكناً ولباساً يغشى العالَمَ فتسكنُ فيهِ الحركاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتِها، والطَّيرُ إلى أوكارها، وتستجمُّ فيه النُّفوسُ، وتستريحُ من كدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ، حتى إذا أخَذَت منه النُّفوسُ راحتَها وسباتَها وتطلَّعَت إلى معايشها وتصرُّفِها جاءَ فالقُ

الإصباحِ سبحانهُ وتعالى بالنَّهارِ، يقدمُ جيشَهُ بشيرُ الصَّباحِ، فهَزَمَ تلكَ الظُّلمَةِ ومزَّقِها كلَّ مُـمزَّقٍ، وكشفَها عن العالـم فإذا هم مُبصرونَ، فانتَشرَ الـحيوانُ وتَصرَّفَ في معاشِهِ ومصالحِهِ وخَرَجَت الطُّيورُ من أوكارها، فيالـهُ من معادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرَةِ اللَّهِ سبحانهُ على المعادِ الأكبرِ، وتكرُّرُهْ ودوامُ مشاهَدَةِ النُّفوسِ إليهِ بـحيثُ صارَ عادَةً ومألفاً منعها من الاعتبارِ به والاستدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيَةِ، وإحياءِ الخَلقِ بَعدَ مَوتهم، ولا ضَعفَ في قدرَةِ القادرِ التَّامِّ القُدرَةِ، ولا قصورَ في حكمتِهِ ولا في علمِهِ يوجبُ تـخلُّفُ ذلك، ولكنَّ اللَّهَ يَهدي من يشاءُ ويُضلُّ من يشاءُ .

وهذا أيضاً من آياتهِ الباهرَةِ أن يعمى عن هذه الآياتِ الواضحَةِ البيِّنَةِ من شاءَ من خلقهِ، فلا يَهتَدي بها ولا يبصرها كمن هو واقفٌ في الماءِ إلى حَلقهِ، وهو يَستغيثُ من العَطَشِ، وينكرُ وجودَ المـاءِ، وبهذا وأمثالـهِ يُعرَفُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ، ويُشكرُ، ويُـحمَدُ، ويُتَضرَّعُ إليهِ، ويُسألُ .

البحار :

ومن آياتهِ وعجائبِ مصنوعاتهِ **البحارُ المكتَنِفَةُ لأقطارِ الأرضِ**، التي هي خلجانٌ من البَحرِ الـمحيطِ الأعظمِ بـجميعِ الأرضِ حتى أنَّ المكشوفَ منَ الأرضِ والجبالِ والمدنِ بالنِّسبَةِ إلى الماءِ كجزيرَةٍ صَغيرَةٍ في بحرٍ عظيمٍ، وبقيَّة الأرضِ مغمورَةٌ بالماءِ، ولولا إمساكُ الرَّبِّ تباركَ وتعالى لـهُ بقدرتهِ ومشيئتهِ وحَبْسهِ الماء لطَفَحَ على الأرضِ وعلاها كلِّها هذا طبعُ المـاءِ، ولـهذا حارَ عقلاءُ الطَّبيعيِّين في سَبَبِ بروزِ هذا الـجزءِ من الأرضِ مع اقتضاءِ طبيعَةِ الماءِ للعلوِّ عليهِ

وأن يغمرَهُ، ولم يجدوا ما يحيلونَ عليهِ ذلكَ إلّا الاعترافَ بالعنايَةِ الأزليَّةِ والحكمَةِ الإلهيَّةِ التي اقتَضَت ذلكَ، لعَيشَ الحيوانُ الأرضي في الأرضِ، وهذا حقٌّ، ولكنَّهُ يوجِبُ الاعترافَ بقُدرَةِ اللَّهِ وإرادتِهِ ومَشيئتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ وصفاتِ كمالِهِ ولا مَحيصَ عنه .

وإذا تأمَّلتَ عجائبَ البَحرِ وما فيهِ من الحيواناتِ على اختلافِ أجناسِها وأشكالِها ومقاديرِها ومنافعِها ومضارِّها وألوانِها، حتى أنَّ فيها حيواناً أمثال الجبالِ لا يقومُ له شيءٌ، وحتى إنَّ فيه من الحيواناتِ ما يُرى ظهورُها فيظنُّ أنَّها جزيرَةٌ، فينزلُ الرُّكَّابُ عليها، فتحسُّ بالنَّارِ إذا أوقدَت؛ فتتحرَّكُ؛ فيُعلمُ أنَّهُ حيوانٌ، وما من صنفٍ من أصنافِ حيوانِ البرِّ إلّا وفي البَحرِ أمثالُهُ، حتى الإنسان والفرس والبَعير وأصنافها، وفيه أجناسٌ لا يُعهَدُ لها نَظيرٌ في البرِّ أصلاً، هذا مع ما فيهِ من الجواهرِ واللؤلؤِ والمرجانِ، فترى اللؤلؤَةَ كيف أودعت في كنٍّ كالبيتِ لها، وهيَ الصَّدفَةُ تَكِنُّها وتَحفظها، ومنه اللؤلؤُ المكنونِ، وهو الذي في صَدفهِ لم تمسَّهُ الأيدي .

وتأمَّل كيفَ نَبَتَ المرجانُ في قَعرهِ في الصَّخرَةِ الصمَّاءِ تحتَ الماءِ على هَيئةِ الشَّجرِ، هذا مع ما فيهِ من العَنبَرِ وأصنافِ النَّفائسِ التي يقذفُها البَحرُ وتستخرَجُ منه .

ثمَّ انظر إلى عجائبِ السُّفنِ وسيرها في البَحرِ تشقُّهُ وتمخرُهُ بلا قائدٍ يقودُها ولا سائقٍ يسوقُها، وإنَّما قائدُها وسائقُها الرِّياحُ التي يسخِّرها اللَّهُ لإجرائها، فإذا حُبسَ عنها القائدُ والسَّائقُ ظلَّت راكدَةً على وجه الماءِ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ومِن آياتهِ الجوارِ في البَحرِ كالأعلامِ * إن يشأ يُسكِنِ الرِّيحَ فيَظلَلنَ

رواكدَ علىٰ ظَهرهِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شكورٍ ﴾ [الشورى : ٣٢ - ٣٣]، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وهوَ الَّذي سخَّرَ البَحرَ لتأكلوا منهُ لَحماً طريًّا وتَستَخرِجوا منهُ حِليَةً تَلبسونَها وتَرى الفُلكَ مواخِرَ فيهِ ولِتَبتَغوا من فَضلِهِ ولعلَّكُم تَشكرون ﴾ [النحل : ١٤]، فما أعظمَها من آيَةٍ وأبينَها من دلالَةٍ، ولهذا يكرِّرُ سبحانهُ ذكرَها في كتابهِ كثيراً .

وبالجملَةِ فعجائبُ البَحرِ وآياتُهُ أعظمُ وأكثرُ من أن يُحصيها إلّا اللَّهُ سبحانهُ، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّا لمَّا طَغى الماءُ حَمَلناكُم في الجاريَة * لنَجعَلها لكُم تَذكرَةً وتَعِيَها أُذنٌ واعيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ - ١٢] .

خلْقُ الحيوان :

ومن آياتهِ سبحانهُ **خَلقُ الحيوانِ** على اختلافِ صفاتهِ وأجناسهِ وأشكالهِ ومنافعهِ وألوانهِ وعجائبِهِ المودَعةِ فيه، فمنهُ الماشي على بَطنهِ، ومنهُ الماشي على رجليهِ، ومنهُ الماشي على أربع، ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ في رجليهِ وهو ذو المخالبِ، ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ المناقير كالنَّسرِ والرَّخمِ والغُرابِ، ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ الأسنان، ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ الصَّياصي وهي القرونُ يُدافعُ بها عن نَفسهِ مَن يرومُ أخذَهُ، ومنهُ ما أعطى منها قوَّةً يَدفَعُ بها عن نَفسهِ لم يَحتَج إلى سلاحٍ كالأسَدِ فإنَّ سلاحَهُ قوَّتُهُ، ومنهُ ما جُعِلَ سلاحُهُ في ذَرَقِهِ وهو نوعٌ من الطَّيرِ إذا دنا منهُ مَن يُريدُ أخذَهُ ذَرَقَ عليهِ فأهلكَهُ .

ونَحنُ نَذكرُ هنا فصولاً منثورَةً مُختَصَرَةً من هذا البابِ، الذي هو من أهمِّ فصولِ الكتابِ بل هو لبُّ هذا القسمِ الأوَّلِ .

الحرّ والبرد :

ثمَّ تأمَّلَ هذه الحكمَةَ البالغَةَ في **الحرِّ والبَردِ**، وقيامِ الحيوانِ والنَّباتِ عليهما، وفكِّر في دخولِ أحدِهما على الآخَرِ بالتَّدريجِ والمهلةِ حتى يبلغَ نهايتَهُ، ولو دخَلَ عليهِ مفاجأةً لأضرَّ ذلكَ بالأبدانِ وأهلكَها وبالنَّباتِ، كما لو خَرجَ الرَّجلُ من حمَّامٍ مُفرطِ الحرارَةِ إلى مكانٍ مُفرطٍ في البرودَةِ، ولولا العنايَةُ والحكمَةُ والرَّحمَةُ والإحسانُ لما كان ذلكَ .

فإن قلتَ : هذا التَّدريجُ والمهلةُ إنَّما كانَ لإبطاءِ سيرِ الشَّمسِ في ارتفاعها وانخفاضها .

قيلَ لكَ : فما السَّببُ في ذلكَ الانخفاض والارتفاع ؟

فإن قلتَ : السَّببُ في ذلكَ بعدُ المسافَةِ من مشارقها ومغاربها .

قيلَ لكَ : فما السَّببُ في بعد المسافَةِ ؟

ولا تزالُ المسألة متوجِّهَة عليكَ كلّما عَيَّنت سبباً حتى تفضي بك إلى أحَدِ أمرين :

إمَّا مكابَرة ظاهرة، ودعوى أنَّ ذلكَ اتِّفاقٌ من غيرِ مُدَبِّرٍ، ولا صانعٍ .

وإمَّا الاعتراف بربِّ العالمين والإقرار بقيُّومِ السَّماواتِ والأرضين والدُّخول في زمرَةِ أولي العَقلِ من العالمين .

ولن تـجدَ بين القسمين واسطَةً أبداً، فلا تُتعَب ذهنَكَ بهذياناتِ الملحدينَ، فإنَّـها عندَ مَن عَرفَها من هوسِ الشياطين وخيالاتِ المُبطلين، وإذا طَلَعَ فجرُ الـهُدى وأشرَقَت النبوَّةُ؛ فعساكرُ تلكَ الـخيالاتِ والوساوسِ في أوَّلِ المنهزمين،

والله متمُّ نورِهِ ولو كرِهَ الكافرون .

النّار :

ثمَّ تأمَّلَ الحكمَةَ في **خَلقِ النَّارِ** على ما هيَ عليهِ من الكُمونِ والظُّهورِ، فإنَّها لو كانَت ظاهرَةً أبداً كالماءِ والهواءِ كانت تحرِقُ العالَمَ وتنتشرُ، ويعظمُ الضَّرَرُ بها والمفسَدَةُ، ولو كانَت كامنَةً لا تَظهرُ أبداً لفاتَت المصالحُ المُترتِّبَةُ على وجودها، فاقتَضَت حكمَةُ العزيزِ العليمِ أن جَعَلَها مخزونَةً في الأجسامِ يخرجها ويبقيها الرَّجلُ عند حاجتهُ إليها، فيمسكها ويحبسها بمادَّةٍ يجعلها فيها من الحطَبِ ونحوِهِ، فلا يزالُ حابسها ما احتاجَ إلى بقائِها، فإذا استغنى عنها وتركَ حَبْسَها بالمادَةِ خَبَت بإذنِ ربِّها وفاطِرِها، فَسَقَطت المؤنَةُ والمضرَّةُ ببقائها، فسبحانَ من سخَّرَها وأنشأَها على تَقديرٍ مُحكمٍ عجيبٍ اجتَمَعَ فيهِ الاستمتاعُ والانتفاعُ والسَّلامَةُ من الضَّرَرِ، قال تعالى : ﴿ أفرأيتُم النَّارَ التي تورون ﴾، إلى قوله : ﴿ فَسبِّح باسمِ ربِّكَ العَظيم ﴾ [الواقعة : ٧١ - ٧٦] .

فسبحانَ ربِّنا العظيمِ لَقَد تَعَرَّفَ إلينا بآياتهِ، وشفانا ببيِّناتِهِ، وأغنانا بها عن دلالاتِ العالمين، فأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ جعَلَها **تذكرَةً** بنارِ الآخرَةِ؛ فنستجيرَ منها، ونَهربَ إليهِ منها، **ومتاعاً** للمقوين - وهم المسافرون النَّازلونَ بالقواءِ، والقواءُ هي الأرضُ الخاليَةُ - وهم أحوَجُ إلى الانتفاعِ بالنَّارِ للإضاءَةِ والطَّبخِ والخبزِ والتَّدفي والأُنس وغير ذلك .

ثمَّ تأمَّلَ حكمتَهُ تعالى في كونهِ خَصَّ بها الإنسانَ دونَ غيرهِ من

الحيواناتِ، فلا حاجَةَ بالحيوانِ إليها بخلافِ الإنسانِ، فإنَّهُ لو فَقدها لعظم الدَّاخل عليهِ في معاشهِ ومصالِحهِ، وغيرِه من الحيواناتِ لا يستعملُها ولا يتمتَّعُ بها .

ونبّهُ من مصالحِ النَّارِ على خلَّةٍ صغيرَةِ القَدرِ عظيمَةِ النَّفعِ، وهي هذا المصباحُ الذي يتَّخذُهُ النَّاسُ فيقضون به من حوائِجِهم ما شاءوا من ليلِهم، ولولا هذه الخلَّةُ لكانَ النَّاسُ نصفَ أعمارهم بمنزلةِ أصحابِ القبورِ، فمَن كانَ يَستطيع كتابَةً أو خياطَةً أو صناعَةً أو تصرُّفاً في ظلمَةِ الليل الدَّاجي، وكيفَ كانَت تكونُ حالُ من عَرضَ له وجعٌ في وقتٍ من الليلِ فاحتاجَ إلى ضياءٍ أو دواءٍ أو استخراجِ دمٍ أو غيرِ ذلك .

ثمَّ انظر إلى ذلك النُّور المحمولِ في ذُبالَةِ المصباحِ على صغَرِ جوهرِهِ كيف يضيءُ ما حولَكَ كلَّهُ، فترى به القريبَ والبَعيدَ، ثمَّ انظُر إلى أنَّهُ لو اقتبَسَ منه كل مَن يفرضُ أو يقدرُ من خَلقِ اللَّهِ كيفَ لا يفنى ولا ينفَذ ولا يضعفُ .

وأمَّا منافعُ النَّارِ في انضاجِ الأطعمَةِ والأدويَةِ وتجفيفِ مالا ينتفعُ إلّا بجفافهِ، وتحليلِ مالا ينتفعُ إلّا بتحليلهِ، وعَقدِ مالا ينتفعُ إلّا بعقدهِ وتركيبهِ، فأكثرُ من أن يُحصى .

ثمَّ تأمَّل ما أعطيته النَّارُ منَ الحركَةِ الصَّاعدَةِ بطبعها إلى العلوِّ، فلولا المادَّةُ تمسكُها لذهبَت صاعدَةً كما أنَّ الجسمَ الثَّقيلَ لولا الممسكُ يمسكهُ لذهَبَ نازلاً، فمَن أعطى هذا القوَّةَ التي يطلبُ بها الهبوطَ إلى مُستقرِّهِ، وأعطى هذه القوَّةَ التي يطلبُ بها الصُّعودَ إلى مُستقرِّها، وهل ذلكَ إلّا بتقديرِ العزيزِ العليمِ .

الجبال :

ثمَّ تأمَّلَ الحكمَةَ العجيبَةَ في **الجبالِ** الذي يحسبُها الجاهلُ الغافلُ فضلَةً في الأرضِ لا حاجَةَ إليها، وفيها منَ المنافِعِ مالا يُحصيهِ إلّا خالقُها وناصبُها، وفي حديثِ إسلامِ ضمام بن ثَعلَبَة قولهُ للنَّبيِّ ﷺ : بالذي نَصَبَ الجبالَ وأودَعَ فيها المنافعَ آللَّهُ أمَرَكَ بكذا وكذا ؟

قال : « اللهمَّ نَعَم » .(١)

○ **فمن منافِعها** : أنَّ الثَّلجَ يَسقطُ عليها، فيَبقى في قُلَلِها حاصلاً لشراب النَّاسِ إلى حينِ نفاذِهِ، وجُعِلَ فيها ليذوبَ أوَّلاً فأوَّلاً، فتجيءُ منهُ السُّيولُ الغزيرَةُ، وتَسيلُ منهُ الأنهارُ والأودِيَةُ، فيَنبتُ في المروجِ والوِهادِ والربا ضروبُ النَّباتِ والفواكهِ والأدويَةِ التي لا يكونُ مثلُها في السَّهلِ والرَّملِ، فلولا الجبالُ لسَقَطَ الثَّلجُ على وجهِ الأرضِ، فانحلَّ جملَةً، وساحَ دفعَةً، فعُدِمَ وقت الحاجَةِ إليهِ، وكانَ في انحلالهِ جملَةً السُّيولِ التي تُهلكُ ما مرَّت عليه، فيضرُّ بالنَّاسِ ضَرَراً لا يُمكنُ تلافيهِ ولا دَفعهُ لأذيَّتِهِ .

○ **ومن منافِعها** : ما يكونُ في حصونِها وقُلَلِها من المغاراتِ والكهوفِ والمعاقلِ التي بمنزلَةِ الحصونِ والقلاعِ، وهي أيضاً أكنانٌ للنَّاسِ والحيوانِ .

○ **ومن منافِعها** : ما يُنحَتُ من أحجارِها للأبنيَةِ على اختلافِ أصنافها، والأرحيَّةِ وغيرها .

---

(١) أخرجه البخاري : (١ / ١٤٨ - فتح) من حديث أنس - رضي اللّه عنه . وفي الباب عن أبي هريرة، وابن عباس - رضي اللّه عنهما .

○ **ومن منافِعها** : ما يوجَدُ فيها من المعادنِ على اختلافِ أصنافها من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ والحَديدِ والرَّصاصِ والزَّبرجَدِ والزُّمرُّد، وأضعافِ ذلكَ من أنواعِ المعادنِ الذي يعجزُ البَشرُ عن معرفتها على التَّفصيل حتى إنَّ فيها ما يكونُ الشيءُ اليَسيرُ منهُ تَزيدُ قيمتُهُ ومنفعتُهُ على قيمَةِ الذَّهبِ بأضعافِ مضاعَفَةٍ، وفيها من المنافعِ مالا يعلمُهُ إلّا فاطرُها ومبدعُها سبحانهُ .

○ **ومن منافِعها** : أنَّـها تَرُدُّ الرِّياحَ العاصفَةَ، وتكسرُ حدَّتَها، فلا تَدعها تَصدُمُ ما تَحتَها، ولـهذا فالسَّاكنونَ تَحتها في أمانٍ منَ الرِّياحِ العظامِ المؤذيَةِ .

○ **ومن منافِعها** : أنَّـها تَرُدُّ عنهم السُّيولَ إذا كانت في مجاريها، فتَصرفُها عنهم ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشمالِ، ولولاها خَرَّبَت السُّيولُ في مجاريها ما مرَّت به، فتكون لـهم بمنزلَةِ السَّدِّ والسَّكَن .

○ **ومن منافِعها** : أنَّـها أعلامٌ يُستَدلُّ بها في الطُّرقاتِ، فهي بمنزلَةِ الأدلَّةِ المَنصوبَةِ المُرشدَةِ إلى الطُّرقِ؛ ولـهذا سمَّاها اللَّهُ أعلاماً، فقال : ﴿ ومِن آياتهِ الجوارِ في البَحرِ كالأعلامِ ﴾ [الشورى : ٣٢] فالجواري هيَ السُّفُنُ، والأعلامُ الجبالُ واحدُها عَلَمٌ .

قالت الخنساءُ :

وإنَّ صَخراً لتأتـمُّ الـهُداةُ بهِ ... كأنَّـهُ عَلَـمٌ في رأسهِ نـارُ

فَسُمِّي الجبَلُ عَلَماً من العلامَةِ والظُّهورِ .

○ **ومن منافِعها** : ما يَنبتُ فيها من العقاقيرِ والأدويَةِ التي لا تكونُ في السُّهولِ والرِّمالِ، كما أنَّ ما يَنبتُ في السُّهولِ والرِّمالِ لا يَنبتُ مثلُهُ في

الـجبالِ، وفي كلٍّ من هذا وهذا منافعُ وحكمٌ لا يُحيطُ به إلّا الخلّاقُ العليمُ .

○ **ومن منافِعها** : أنَّها تكونُ حصوناً من الأعداءِ يتحرَّزُ فيها عبادُ اللَّهِ من أعدائهم كما يتحصَّنونَ بالقلاعِ بل تكونُ أبلغُ وأحصَنُ من كثيرٍ من القلاعِ والمُدنِ .

○ **ومن منافِعها** : ما ذكرَهُ اللَّهُ تعالى في كتابهِ أن جعَلها للأرضِ أوتاداً تثبتها، ورواسيَ بمنزلَةِ مراسي السُّفنِ، وأعظِمْ بها من منفعَةٍ وحكمةٍ .

هذا وإذا تأمَّلتَ خِلْقَتَها العجيبَةَ البَديعَةَ على هذا الوَضعِ وجَدتَها في غايَةِ المُطابَقَةِ للحكمَةِ، فإنَّها لو طالَت واستَدقَّت كالحائطِ لتَعذَّرَ الصُّعودُ عليها والانتفاعُ بها، وسَتَرَت عن النَّاسِ الشمسَ والهواءَ، فلم يتمكَّنوا من الانتفاعِ بها، ولو بُسطَت على وجهِ الأرضِ لضيَّقَت عليهم المزارِعَ والمساكنَ، ولملأت السَّهلَ، ولما حَصَلَ لهم بها الانتفاعُ من التَّحصُّنِ والمغاراتِ والأكنانِ، ولما سَتَرَت عنهم الرِّياحَ، ولما حَجَبَت السُّيولَ، ولو جُعلَت مَستَديرَة شكلَ الكرَةِ لم يتمكَّنوا من صُعودها، ولما حَصَلَ لهم بها الانتفاعُ التَّامُّ، فكانَ أولى الأشكالِ والأوضاعِ بها وأليقها وأوقعُها على وفقِ المَصلَحَةِ هذا الشكل الذي نُصبَت عليهِ، ولَقد دعانا اللَّهُ سبحانهُ في كتابهِ إلى النَّظرِ فيها، وفي كيفيَّةِ خَلقها فقال : ﴿ أفلا يَنظرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَت * وإلى السَّماءِ كيفَ رُفِعَت * وإلى الجبالِ كيفَ نُصِبَت ﴾ [الغاشية : ١٧ - ١٩] .

فخلقُها ومنافعَها من أكبَرِ الشواهدِ على قُدرَةِ باريها وفاطرِها وعلمِهِ وحكمتهِ ووَحدانيَّتِهِ، هذا معَ أنَّها تسبِّحُ بحمدهِ، وتخشعُ لهُ وتَسجُدُ، وتَشقَّقُ

وتَهبِطُ من خَشيتِهِ، وهي التي خافَت من ربِّها وفاطِرها وخالقها على شدَّتِها وعظمِ خَلقِها منَ الأمانَةِ إذ عَرَضها عليها، وأشفَقَت من حملها .

● ومنها الجبلُ الذي كلَّمَ اللَّهُ عليهِ موسى كليمَهُ ونجيَّهُ .

● ومنها الجبلُ الذي تَجلَّى لهُ ربُّهُ فساخَ وتَدكدَكَ .

● ومنا الجبَلُ الذي حبَّبَ اللَّهُ رسولَهُ وأصحابَهُ إليهِ، وأحبَّهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابُهُ .

● ومنها الجبلانِ اللذانِ جعلهما اللَّهُ سوراً على نبيِّهِ، وجَعَلَ الصَّفا ذيلَ أحدهما، والمَروَةَ ذيلَ الآخَر، وشَرَعَ لعبادهِ السَّعيَ بينهما، وجَعَلَهُ من مناسكِهِم وتَعبُّداتِهِم .

● ومنها جبلُ الرَّحمَةِ المَنصوبُ عليهِ ميدانُ عَرفاتٍ، فللَّهِ كَمَ بهِ من ذنبٍ مَغفورٍ، وعَثرَةٍ مُقالَةٍ، وزلَّةٍ معفوٌّ عنها، وحاجَةٍ مقضيَّةٍ، وكُربَةٍ مفروجَةٍ، وبليَّةٍ مَرفوعَةٍ، ونعمَةٍ متجدِّدَةٍ، وسعادَةٍ مُكتَسَبَةٍ، وشقاوةٍ ممحوَّةٍ، كيفَ وهو الجَبَلُ المخصوصُ بذلكَ الجمعِ الأعظمِ والوَفدِ الأكرمِ الذين جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ وقوفاً لربِّهِم، مُستكينينَ لعظمته، خاشعينَ لعزَّتِهِ، شعثاً غبراً حاسرينَ عن رؤوسهم يَستقيلونَهُ عَثراتِهِم، ويسألونَهُ حاجاتِهِم، فَيَدنو منهم ثمَّ يُباهي بهِم الملائكَةَ، فللَّهِ ذاكَ الجبَلُ وما يَنزلُ عليهِ من الرَّحمَةِ والتَّجاوُزِ عن الذُّنوبِ العظامِ.

● ومنها جبلُ حراء الذي كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَخلو فيهِ بربِّهِ حتى أكرَمهُ اللَّهُ برسالتهِ وهو في غارِهِ، فهو الجبلُ الذي فاضَ منهُ النُّورُ على أقطارِ العالَمِ؛ فإنَّهُ ليَفخَرُ على الجبالِ وحُقَّ لهُ ذلكَ، فسبحانَ مَن اختَصَّ برحمتهِ وتكريمِهِ من

شاءَ من الجبالِ والرِّجالِ، فجَعَلَ منها جبالاً هيَ مغناطيسُ القلوبِ كأنَّها مركَّبةٌ منه، فهيَ تَهوي إليهِ كلَّما ذَكَرتها، وتَهفو نَحوَها، كما اختَصَّ منَ الرِّجالِ مَن خصَّهُ بكرامَتهِ، وأتمَّ عليهِ نعمَتَهُ، ووَضَعَ عليهِ محبَّةً منهُ، فأحبَّهُ وحبَّبهُ إلى ملائكتهِ وعبادِهِ المُؤمنينَ، وَوَضَعَ لهُ القبولَ في الأرضِ بينهم .

وإذا تـأمَّلـتَ البـقـاعَ وجَـدتَـهـا
تَشقى كما تَشقى الرِّجالُ وتَسعَدُ

هذا وإنَّها لتعلمُ أنَّ لها موعداً ويوماً تُنسَفُ فيها نَسفاً، وتَصيرُ كالعِهنِ من هَولِهِ وعظمِهِ، فهيَ مُشفِقَةٌ من هَولِ ذلكَ المَوعدِ منتظرَة لهُ .

فهذا حالُ الجبالِ وهي الحجارَةُ الصَّلبَةُ، وهذه رقَّتُها وخشيتُها وتَدكدكها من جلالِ ربِّها وعظمتهِ، وقَد أخبَرَ عنها فاطرُها وباريها إنَّهُ لو أنزَلَ عليها كلامَهُ لخَشَعَت ولَتَصدَّعَت من خَشيَةِ اللّهِ، فيا عجباً من مضغَةِ لحمٍ أقسى من هذه الجبالِ تَسمعُ آياتِ اللّهِ تُتلى عليها، ويُذكرُ الرَّبُّ تباركَ وتعالى فلا تَلينُ ولا تَخشَعُ ولا تنيبُ، فليسَ بمستنكرٍ على اللّهِ عزَّ وجلَّ ولا يخالفُ حكمتهُ أن يخلقَ لها ناراً تُذيبها إذ لم تَلِن بكلامهِ وذكرِهِ وزواجرِهِ ومواعظه، فمَن لم يَلِن للّهِ في هذه الدَّارِ قلبُهُ، ولم يُنِب إليهِ، ولم يُذِبْه بحبِّهِ والبُكاءِ من خَشيتِهِ، فليَتمتَّع قليلاً؛ فإنَّ أمامَهُ المليِّنُ الأعظمُ، وسيردُّ إلى عالمِ الغَيبِ والشهادَةِ، فيَرى ويعلم .

النَّقدان : الذَّهب والفضَّة :

ثمَّ تأمَّلَ حكمَةَ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ في عزَّةِ هذين **النَّقدين الذَّهبِ**

والفضَّةِ وقصورِ خيرَةِ العالـمِ عمَّا حاولوا من صنعتهمـا، والتَّشبُّهِ بخلقِ اللَّهِ إيَّاهمـا مع شدَّةِ حرصِهِم وبلوغِ أقصى جُهدِهم واجتهادهم في ذلكَ، فلم يَظفروا بسوى الصَّنعَةِ ولو مكِّنوا أن يَصنعوا مثلَ ما خَلَقَ اللَّهُ من ذلكَ لَفَسَدَ أمرُ العالَـمِ، واستفاضَ الذَّهبُ والفضَّةُ في النَّاسِ حتى صارا كالسَّعفِ والفخَّارِ، وكانَت تَتعطَّلُ المصلحَةُ التي وضعا لأجلها، وكانَت كثرتُهمـا جداً سبَبَ تعطُّلِ الانتفاعِ بهمـا، فإنَّهُ لا يَبقى لـهمـا قيمَةٌ، ويبطلُ كونُهمـا قِيَماً لنفائسِ الأموالِ والمعاملاتِ وأرزاقِ المقاتَلَةِ، ولم يتسخَّر بعضُ النَّاسِ لبَعضٍ إذ يَصيرُ كلُّهم أرباب ذَهبٍ وفضَّةٍ، فلو أغنى خلقَهُ كلَّهم لأفقرَهم كلَّهم، فمَن يَرضى لنفسهِ بامتهانها في الصَّنائعِ التي لا قوامَ للعالمِ إلّا بها، فسبحانَ مَن جَعَلَ عزَّتَهمـا سبَبَ نظامِ العالَـمِ، ولم يجعلها في العزَّةِ كالكبريتِ الأحمَرِ الذي لا يُوصلُ إليهِ، فتفوتُ المصلَحَةُ بالكُليَّةِ بل وضعهمـا وأنبتهمـا في العالَـمِ بقَدرٍ اقتَضَتهُ حكمتُهُ ورحمتُهُ ومصالـحُ عبادهِ .

وقرأتُ بـخطِّ الفاضلِ جبريل بن رَوحٍ الأنباري قال : أخبَرني بَعضُ من تداوَلَ المعادِنَ : أنَّـهُم أوغَلوا في طَلبِها إلى بَعضِ نواحي الـجبَلِ، فانتَهوا إلى موضعٍ وإذا فيهِ أمثالُ الـجبالِ منَ الفضَّةِ، ومن دونِ ذلكَ وادٍ يَـجري متصلِّباً بماءٍ غزيرٍ لا يُدركُ ولا حيلةَ في عبورهِ، فانصَرفوا إلى حَيثُ يعملونَ ما يَعبرونَ به، فلمَّا هَيَّئوهُ وعادوا راموا طريقَ النَّهرِ فما وقفوا لـه على أثَرٍ، ولا عَرَفوا إلى أينَ يتوجَّهونَ، فانصَرفوا آيسينَ .

وهذا أحدُ ما يدلُّ على بُطلانِ صناعَةِ الكيمياءِ، وأنَّـها عندَ التَّحقيقِ زَغلٌ وصبغَةٌ لا غَير، وقد ذكرنا بُطلانها وبيَّنَّا فسادها من أربَعينَ وَجهاً في رسالَةٍ

مُفرَدةٍ .

والمقصودُ : أنَّ حكمَةَ اللَّهِ تعالى اقتَضَت عزَّةَ هذينِ الجوهَرَين وقلَّتَهما بالنِّسبَةِ إلى الحديدِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، لصلاحِ أمرِ النَّاسِ، واعتَبر ذلكَ بأنَّهُ إذا ظَهَرَ الشيءُ الظَّريفُ المُستحسنُ ممَّا يحدثُهُ النَّاسُ من الأمتعَةِ كانَ نَفيساً عزيزاً ما دامَ فيهِ قلَّةٌ وهو مرغوبٌ فيهِ، فإذا فَشى وكثرَ في أيدي النَّاسِ وقَدَرَ عليهِ الخاصُّ والعامُّ سَقَطَ عندهم، وقلَّت رغباتُهم فيهِ، ومن هذا قولُ القائلِ : نفاسَةُ الشيءِ من عِزَّتهِ، ولهذا كانَ أزهدُ النَّاس في العالمِ أهلهُ وجيرانهُ[1]،

---

(١) **أصله موقوف على عروة بن الزبير بإسناد صحيح .**

أخرجه أبو خيثمة في « العلم » (٩١) : ثنا عبداللَّه بن نمير عن هشام بن عروة عن أبيه؛ قال : « كان يقال : أزهد النَّاس في عالم أهله » .

قال شيخنا - حفظه اللَّه : « هذا هو أصل هذا الحديث، موقوف غير مرفوع، وذكر بعضهم عن كعب الأحبار أنَّ هذا في التوراة » .

قلت : ما ورد عن كعب الأحبار أخرجه البيهقي في « المدخل » (٧٠١) : أخبرنا أبو زكريا ابن أبي إسحاق أنبا أبو الحسن الطرائفي ثنا عثمان بن سعيد ثنا زكريا بن نافع الرملي ثنا السري بن يحيى عن عبيداللَّه بن العيزار عن كعب؛ قال : « إني لأجد في كتاب اللَّه المنزل أنَّ أزهد النَّاس في العالم جيرانه » .

وأخرجه أيضاً (٧٠٢) من حديث عكرمة .

وقال : (٧٠٣) : « وروي ذلك أيضاً عن الحسن البصري، وروي من وجه آخر مرفوعاً » .

قلت : المرفوع أخرجه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٢٣٧ - ٢٣٨)، وابن عدي في « الكامل » (٦ / ٢٨٦٦) من حديث جابر أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال :

« من أزهد النَّاس في العالم ؟ » .

قيل : يا رسول اللَّه أهل بيته . =

وأرغبهم فيهِ البُعداءُ عنهُ .

وانبتنا فيها كل شيء موزون :

وتأمَّلَ الحكمَةَ البَديعَةَ في تَيسيرهِ سبحانهُ على عبادهِ ما هم أحوَجُ إليهِ وتوسيعه وبذله، فكلَّما كانوا أحوَجَ إليهِ كانَ أكثَرَ وأوسَعَ، وكلَّما استَغنوا عنهُ كانَ أقلَّ، وإذا توسَّطَتِ الحاجَةُ توَسَّطَ وجودُهُ، فلم يكُن بالعامِّ ولا بالنَّادرِ على مراتبِ الحاجاتِ وتفاوتها، فاعتبرَ هذا بالأصولِ الأربعَةِ : التَّرابِ، والماءِ، والهواءِ، والنَّارِ .

وتأمَّل سَعَةَ ما خَلَقَ اللَّهُ منها وكثرتَهُ؛ فتأمَّل سعَةَ الهواءِ وعمومَه ووجودَه بكلِّ مكانٍ، لأنَّ الحيوانَ مخلوقٌ في البَرِّ لا يمكنهُ الحياة إلَّا بهِ، فهو معهُ أينما كانَ وحيثُ كانَ؛ لأنَّهُ لا يَستغني عنه لحظَةً واحدَةً، ولولا كثرتُهُ وسعتُهُ وامتدادُهُ في أقطارِ العالَمِ لاختَنَقَ العالَمُ من الدُّخانِ والبُخارِ المُتصاعِدِ المُنعَقِدِ .

= قال : « لا؛ جيرانه » .

ثمَّ قال ابن الجوزي : « هذا حديث موضوع على رسول اللَّه ﷺ، وإنَّما يروى عن بعض العلماء، والمتهم به المنذر؛ قال الفلاس : كان كذاباً . وقال الدارقطني : متروك . » .

قال السيوطي في « اللآلئ المصنوعة » (١ / ٢١٢) : « له طريق أخرى رواه أبو نعيم من حديث أبي الدرداء، وقال الديلمي : وفي الباب عن أسامة بن زيد وأبي هريرة » .

وقال ابن عراق في « تنزيه الشريعة » (١ / ٢٦٤) : « حديث أبي الدرداء في سنده عبدالواحد الدمشقي؛ قال الذهبي : لا يدرى من ذا، ولا حدث عنه غير محمد بن سوقة، وبقيّة رجاله محتج بهم، واللَّه أعلم » .

فتأمَّل حكمَةَ ربِّكَ في أن سخَّرَ لهُ الرِّياحَ، فإذا تصاعَدَ إلى الجوِّ أحالتهُ سحاباً أو ضباباً، فأذهَبت عن العالَمِ شرَّهُ وأذاهُ؛ فَسَل الجاحدَ : مَن الذي دبَّرَ هذا التَّدبيرَ وقدَّرَ هذا التَّقديرَ ؟ وهل يقدرُ العالَمُ كلُّهُم لو اجتَمعوا أن يُحيلوا ذلكَ ويقلبوهُ سحاباً أو ضباباً أو يذهبوهُ عن النَّاسِ ويكشفوهُ عنهم ؟ ولو شاءَ ربُّهُ تعالى لحبَسَ عنهُ الرِّياحَ فاختَنَقَ على وجهِ الأرضِ؛ فأهلَكَ ما عليها من الحيوانِ والنَّاسِ .

الأقوات والثمار :

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ الإلهيَّةَ في إخراجِ **الأقواتِ والثِّمارِ والحبوبِ والفواكهِ** متلاحقَةً شيئاً بَعدَ شيءٍ متتابعَةً ولم يخلقها كلَّها جملَةً واحدَةً، فإنَّها لو خُلقَت كذلكَ على وجهِ الأرضِ ولم تكُن تنبتُ على هذه السُّوقِ والأغصانِ لدخَلَ الخَلَلُ وفاتَت المصالحُ التي رُتِّبَت على تلاحقها وتتابعها، فإنَّ كلَّ فَصلٍ وأوانٍ يَقتَضي منَ الفواكهِ والنَّباتِ غيرَ ما يَقتَضيهِ الفَصلُ الآخَرُ، فهذا حارٌّ، وهذا باردٌ، وهذا مُعتَدلٌ، وكلٌّ في فصلهِ موافقٌ للمصلَحَةِ لا يَليقُ به غيرُ ما خُلقَ فيهِ .

ثمَّ إنَّهُ سبحانهُ خَلَقَ تلكَ الأقواتَ مقارنةً لمنافعَ أُخَرَ من العَصفِ والخَشبِ والوَرَقِ والنورِ والعَسفِ والكَربِ، وغيرهما من منافعِ النَّباتِ والشجرِ غير الأقواتِ كعَلَفِ البهائمِ، وأداةِ الأبنيَةِ والسُّفنِ والرِّحالِ والأواني وغيرها، ومنافعِ النورِ منَ الأدويَةِ، والمنظرِ البَهيجِ الذي يسوقُ النَّاظرِين، وحُسْنِ مرائي الشجرِ وخِلْقَتِها البَديعَةِ الشاهدَةِ لفاطرِها ومبدعِها بغايَةِ الحكمَةِ واللطفِ .

ثمَّ إذا تأمَّلتَ إخراجَ ذلك النور البَهيّ من نَفسِ ذلكَ الحَطَبِ، ثمَّ الورق الأخضر، ثمَّ إخراجَ تلكَ الثِّمارِ على اختلافِ أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يُرادُ منها، ثمَّ تأمَّلَ أينَ كانَت مستودَعَةً في تلكَ الخشبَةِ وهاتيكَ العيدانِ، وجُعلَت الشجرَةُ لها كالأمِّ فهَل كان في قدرَةِ الأبِ العاجزِ الضَّعيفِ إبرازُ هذا التَّصوير العجيبِ وهذا التَّقديرِ المُحكمِ، وهذه الأصباغِ الفائقَةِ، وهذه الطُّعومِ اللذيذَةِ والرَّوائحِ الطيِّبَةِ، وهذه المناظرِ العجيبَةِ .

فَسَل الجاحدَ : مَن تولَّى تَقديرَ ذلكَ وتَصويرَهُ وإبرازَهُ وتَرتيبَهُ شيئاً فشيئاً وسوقِ الغذاءِ إليهِ في تلكَ العروقِ اللطافِ التي يكادُ البَصَرُ يعجزُ عن إدراكها وتلكَ المجاري الدِّقاقِ ؟

فَمَن الذي تولَّى ذلكَ كلَّهُ ؟ ومَن الذي اطلَعَ لها الشَّمسَ، وسخَّرَ لها الرِّياحَ، وأنزَلَ عليها المطَرَ، ودفعَ عنها الآفاتِ ؟

وتأمَّل تَقديرَ اللطيفِ الخبيرِ؛ فإنَّ الأشجارَ لما كانَت تَحتاجُ إلى الغذاءِ الدَّائم كحاجَةِ النَّاسِ وسائرِ الحيوانِ ولم يكُن لها قوَّةُ أفواهٍ كأفواهِ الحيوانِ ولا حرَكَة تَنبعثُ بها لتناوُلِ الغذاء جُعلَت أصولُها مركوزَةً في الأرضِ ليسرعَ لها الغذاءُ، وتمتصُّهُ من أسفَلِ الثَّرى، فتؤدِّيهِ إلى أغصانها، فتؤدِّيهِ الأغصانُ إلى الوَرَقِ والثَّمَرِ، كلٌّ لهُ شربٌ معلومٌ لا يتَعدَّاهُ يصلُ إليهِ في مجاري وطرقٍ قد أُحكمَت غايَةَ الإحكامِ، فتأخذ الغذاءَ مِن أسفَلِ فتلقمه بعروقها كما يلتقمُ الحيوانُ غذاءَهُ بفمِهِ، ثمَّ تقسِّمُهُ على حِمْلِها بحسبِ ما يحتملهُ، فتُعطي كلَّ جُزءٍ منه بحسبِ ما يحتاجُ إليهِ لا تَظلمُهُ ولا تزيدُهُ على قَدرِ حاجتهِ .

فَسَل الجاحدَ : مَن أعطاها هذا ومَن هداها إليهِ ووَضَعَهُ فيها ؟

فلو اجتَمَعَ الأوَّلونَ والآخرونَ هلِ كانَت قدرتهم وإرادتهم تصلُ إلى تَربيَةِ ثمرةٍ واحدَةٍ منها، هكذا بإشارَةٍ أو صناعَةٍ أو حيلَةٍ أو مزاوَلَةٍ ؟ وهل ذلكَ إلّا مِن صنعِ من شهدَت له مَصنوعاتُهُ ودلَّت عليهِ آياتُهُ ؟

كما قيلَ :

فَواعَجباً كيفَ يعصى الإله ... أم كيفَ يَجحَدُهُ الجاحدُ
وللَّهِ في كلِّ تَحريكَةٍ ... وَتَسكينَةٍ أبداً شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيَةٌ ... تَدلُّ على أنَّهُ واحدُ

ثُمَّ استوى على سوقه :

ثمَّ تأمَّل إذا نَصَبتَ خَيمَةً أو فُسطاطاً كيفَ تمدُّهُ من كلِّ جانبٍ بالأطنابِ ليثبتَ فلا يَسقط ولا يتعوَّج، هكذا تجدُ النَّباتَ والشجَرَ له عروقٌ ممتدَّةٌ في الأرضِ منتشرَةٌ إلى كلِّ جانبٍ، لتمسكَهُ وتقيمَهُ، وكلَّما انتَشرَت أعاليهِ امتدَّت عروقُهُ وأطنابُهُ من أسفَلِ الجهاتِ، ولولا ذلكَ كيفَ كانَت تثبتُ هذه النَّخيلُ الطِّوالُ الباسقاتُ والدَّوحُ العظامُ على الرِّياحِ العواصفِ ؟

وتأمَّل سبقَ الخلق الإلهيَّة للصِّناعَةِ البَشريَّةِ حتى يُعَلِّمَ النَّاسَ نصبَ الخيَم والفساطيطِ من خلقهِ للشجرِ والنَّباتِ، لأنَّ عروقها أطنابٌ لها كأطنابِ الخيمَةِ وأغصانِ الشجرِ يُتَّخَذُ منها الفساطيط ثمَّ يحاكي بها الشجَرَةَ .

الـورق :

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ في **خَلقِ الوَرقِ**، فإنَّكَ تَرى في الوَرَقَةِ الواحدَةِ من جملَةِ العروقِ المُمتدَّةِ فيها المبثوثَةِ فيها ما يَبهَرُ النَّاظرَ .

فمنها غلاظٌ ممتدَّةٌ في الطُّولِ والعَرضِ، ومنها دقاقٌ تتخلَّلُ تلكَ الغلاظُ منسوجَةً نسجاً دقيقاً معجباً لو كانَ ممَّا يتولَّى البشر صنعَ مثلهِ بأيديهم لما فَرغوا من ورقَةٍ في عامٍ كاملٍ، ولاحتاجوا فيه إلى آلاتٍ وحركاتٍ وعلاجٍ تعجزُ قدرتُهم عن تحصيلهِ، فبثَّ الخلَّاقُ العليمُ في أيَّامٍ قلائلَ من ذلكَ ما يملأُ الأرضَ سهلَها وجبالَها بلا آلاتٍ ولا مُعينٍ ولا معالجَةٍ إن هيَ إلّا إرادتُهُ النَّافذَةُ في كلِّ شيءٍ وقدرتُهُ التي لا يمتنعُ منها شيءٌ : ﴿ إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ كُن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] .

فتأمَّل الحكمَةَ في تلكَ العروقِ المتخلِّلَةِ الوَرَقَةِ بأسرِها لتسقيها وتوصلَ إليها المادَّةَ، فتحفَظَ عليها حياتَها ونضارتَها بمنزلَةِ العروقِ المَبثوثَةِ في الأبدانِ التي توصلُ الغذاءَ إلى كلِّ جزءٍ منهُ .

وتأمَّل ما في العروقِ الغلاظِ من إمساكها الورق بصلابتِها ومتانتِها لئلا تَتمزَّق وتضمحلَّ، فهي بمنزلَةِ الأعصابِ لبدنِ الحيوانِ، فتراها قد أُحكِمَت صنعتُها ومُدَّت العروقُ في طولها وعرضِها لتتماسَكَ فلا يعرضُ لها التَّمزُّقُ .

ثمَّ تأمَّل حكمَةَ اللطيفِ الخبيرِ في كونها جعلَت زينةً للشجرِ وستراً ولباساً للثَّمَرَةِ ووقايَةً لها منَ الآفاتِ التي تمنعُ كمالَها، ولهذا إذا جُرِّدَت الشجرَةُ عن ورقها فَسَدَت الثَّمَرَةُ ولم ينتفع بها .

وانظر كيفَ جعلَت وقايَةً لمنبَتِ الثَّمَرَةِ الضَّعيفَةِ من اليَبَسِ، فإذا ذَهَبَت

الثَّمَرةُ بقي الورقُ وقايَةً لتلكَ الأفنانِ الضَّعيفَةِ من الحرِّ حتى إذا طَفئت تلكَ الجمرَةُ ولم يضرَّ الأفنان عراها من ورقِها وسلبها إيَّاهُ، لتكتَسي لباساً جديداً أحسَنَ منه، فتبارَكَ اللَّهُ ربُّ العالمين الذي يعلمُ مَساقطَ تلكَ الأوراقِ ومنابتِها، فلا تخرجُ منها ورقةٌ إلّا بإذنِهِ، ولا تسقطُ إلّا بعلمِهِ، ومع هذا فلو شاهَدها العبادُ على كثرتها وتنوُّعها وهي تسبِّحُ بحمدِ ربِّها مع الثِّمارِ والأفنانِ والأشجارِ لشاهدوا من جمالها أمراً آخَرَ، ولرأوا خلقَتَها بعَينٍ أخرى، ولعلموا أنَّها لشأنٍ عظيمٍ خلقَت، وأنَّها لم تُخلَق سدىً .

قال تعالى : ﴿ والنَّجم والشجرُ يَسجُدان ﴾ [الرَّحمن : ٦] .

فالنَّجمُ ما ليسَ له ساقٌ منَ النَّباتِ، والشجرِ ما لهُ ساقٌ .

وكلُّها ساجدَةٌ للَّهِ مسبِّحَةٌ بحمدِهِ : ﴿ وإن مِن شيءٍ إلّا يُسبِّحُ بحَمدِهِ ولكن لا تفقَهونَ تَسبيحَهُم إنَّهُ كانَ حليماً غفوراً ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

ولعلَّكَ أن تكونَ ممَّن غَلُظَ حجابُهُ، فَذَهَبَ إلى أنَّ التَّسبيحَ دلالَتُها على صانِعِها فقَط، فاعلَم أنَّ هذا القولَ يظهَرُ بطلانهُ من أكثَرِ من ثلاثينَ وجهاً، قَد ذكرنا أكثرها في موضعٍ آخَر .

وفي أيِّ لغةٍ تسمَّى الدلالَةُ على الصَّانعِ تَسبيحاً وسجوداً وصلاةً وتأويباً وهبوطاً من خشيتِهِ كما ذكرَ تعالى في كتابِهِ، فتارَةً يخبرُ عنها بالتَّسبيحِ، وتارَةً بالسُّجودِ، وتارَةً بالصَّلاةِ كقوله تعالى : ﴿ والطَّير صافَّات كلٌّ قَد عَلِمَ صلاتَهُ وتَسبيحَهُ ﴾ [النور : ٤١]؛ أفترى أنَّ معنى الآيَةِ قَد عَلِمَ اللَّهُ دلالتَهُ عليهِ، وسمَّى تلكَ الدَّلالَةَ صلاةً وتَسبيحاً، وفرَّقَ بينهما وعَطَفَ أحدهما على الآخَرِ، وتارَةً يخبرُ عنها بالتَّأويبِ كقوله : ﴿ يا جبالُ أوِّبي معهُ ﴾ [سبأ : ١٠]،

وتارَةً يخبرُ عنها بالتَّسبيحِ الخاصِّ بوقتٍ دونَ وقتٍ كالعشيِّ والإشراقِ أفترى دلالتها على صانعها إنَّما يكونُ في هذين الوَقتين ؟

وبالجملَةِ فبطلانُ هذا القولِ أظهرُ لذوي البصائرِ من أن يَطلبوا دليلاً على بطلانهِ، والحمدُ للَّهِ .

العَجَمُ والنَّوى :

ثمَّ تأمَّلْ حكمتَهُ سبحانهُ في **إبداعِ العجمِ والنَّوى في جوفِ الثَّمرَةِ**، وما في ذلكَ من الحكَمِ والفوائدِ التي :

● منها : أنَّهُ كالعظمِ لبدنِ الحيوانِ، فهو يمسكُ بصلابتهِ رخاوَةَ الثَّمرَةِ ورقَّتَها ولطافَتَها، ولولا ذلكَ لشدخَت وتفسَّخَت، ولأسرَعَ إليها الفسادُ، فهو بمنزلَةِ العظمِ، والثَّمرَةُ بمنزلَةِ اللحمِ الذي يكسوهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ العظامَ .

● ومنها : أنَّ في ذلكَ بقاءَ المادَّةِ وحفظَها إذ ربَّما تعطَّلَت الشجرَةُ أو نوعُها، فخَلَقَ فيها ما يقومُ مقامَها عند تعطُّلها وهو النَّوى الذي يغرسُ فيعودُ مثلها .

● ومنها : ما في تلكَ الحبوبِ من أقواتِ الحيواناتِ، وما فيها من المنافعِ والأدهانِ والأدويَةِ والأصباغِ، وضروبٍ أُخَر من المصالحِ التي يتعلَّمُها النَّاسُ، وما خفيَ عليهم منها أكثرُ .

فتأمَّلِ الحكمَةَ في إخراجِه سبحانهُ هذه الحبوب لمنافع فيها، وكسوتها لحماً لذيذاً شهيَّاً يتفكَّهُ به ابنُ آدَمَ .

ثمَّ تأمَّلَ هذه الحكمَةَ البَديعَةَ في أن جَعَلَ للثَّمَرَةِ الرَّقيقَةِ اللطيفَةِ التي

يفسدها الهواءُ والشمسُ غلافاً يحفظُها، وغشاءً يواريها؛ كالرُّمَّانِ والجوزِ واللَّوزِ ونحوِهِ، وأمَّا ما لا يفسدُ إذا كانَ بارزاً فجعَلَ لهُ أوَّلَ خروجهِ غشاءً يواريهِ لضعفهِ ولقلَّةِ صبرهِ على الحرِّ، فإذا اشتدَّ وقويَ تفتَّقَ عن ذلكَ الغشاءِ وضحى للشمسِ والهواءِ؛ كطلعِ النَّخلِ وغيرهِ .

الرُّمان :

ثمَّ تأمَّل خِلقَةَ **الرُّمَّانِ** وماذا فيهِ من الحكَمِ والعجائبِ، فإنَّكَ ترى داخلَ الرُّمَّانَةِ كأمثالِ القلالِ شحماً متراكماً في نواحيها، وتَرى ذلكَ الحبَّ فيها مرصوفاً رصفاً، ومنضوداً نَضداً لا تمكنُ الأيدي أن تنضدَهُ، وترى الحبَّ مقسوماً أقساماً وفرقاً، وكلَّ قسمٍ وفرقَةٍ منهُ ملفوفاً بلفائفَ وحُجُبٍ منسوجَةٍ أعجَبَ نَسجٍ وألطَفهُ وأدقَّهُ على غيرِ منوالٍ إلّا منوال : ﴿ كُن فَيكونُ ﴾ .

ثمَّ ترى الوعاءَ المُحكَمَ الصَّلبَ قَد اشتَمَلَ على ذلكَ كلِّهِ، وضمَّهُ أحسَنَ ضمٍّ .

فتأمَّل هذه الحكمَةَ البَديعَةَ في الشَّحمِ المودعِ فيها، فإنَّ الحبَّ لا يمدُّ بعضهُ بَعضاً إذ لو مدَّ بعضهُ بَعضاً لاختَلَطَ وصارَ حبَّةً واحدَةً، فجعَلَ ذلكَ الشحم خلالَهُ ليمدَّهُ بالغذاءِ .

والدَّليلُ عليهِ أنَّكَ تَرى أصولَ الحبِّ مركوزَةً في ذلكَ الشحمِ، وهذا بخلافِ حبِّ العنبِ، فإنَّهُ استغنى عن ذلكَ بأن جَعَلَ لكلِّ حبَّةٍ مجرىً تشربُ منه، فلا تَشربُ حقَّ أختها بل يجري الغذاءُ في ذلك العرقِ مجرى واحداً ثمَّ ينقسمُ منهُ في مجاري الحبوبِ كلِّها، فينبعثُ منهُ في كلِّ مجرىً غذاءُ تلكَ

الحبَّةِ، فتبارَكَ اللَّهُ أحسَنُ الخالقين .

ثمَّ إنَّهُ لفَّ ذلكَ الحبَّ في تلكَ الرُّمَّانَةِ بتلكَ اللفائفِ، ليضمَّهُ ويمسكَهُ، فلا يَضطربُ، ولا يتبدَّدُ، ثمَّ غشيَ فوقَ ذلكَ بالغشاءِ الصَّلبِ صوناً له وحفظاً وممسكاً لهُ بإذنِ اللَّهِ وقدرَتهِ، فهذا قليلٌ من كثيرٍ من حكمَةِ هذه الثَّمَرَةِ الواحدَةِ، ولا يمكنُنا ولا غيرنا استقصاءَ ذلكَ ولو طالَت الأيَّامُ واتَّسَعَ الفكرُ، ولكنَّ هذا منبهٌ على ما وراءَهُ، واللبيبُ يكتفي ببعضِ ذلكَ .

وأمَّا من غَلَبَت عليهِ الشقاوَةُ : ﴿ وكأيِّن مِن آيَةٍ في السَّماواتِ والأرضِ يَمرُّونَ عليها وهُم عنها مُعرضونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥]، غافلونَ عن موضعِ الدَّلالَةِ فيها .

الرَّيعُ والنَّماء :

ثمَّ تَأمَّل هذا **الرَّيعَ والنَّماءَ** الذي وضَعَهُ اللَّهُ في الزَّرعِ حتى صارَت الحبَّةُ الواحدَةُ ربَّما أنبتَت سبعمائَةِ حبَّةٍ، ولو أنبتَت الحبَّةُ حبَّةً واحدَّةً مثلها لا يكونُ في الغلَّةِ متَّسعٌ لما يُرَدُ في الأرضِ من الحبِّ وما يكفي النَّاسُ ويقوتُ الزَّارعُ إلى إدراكِ زرعهِ، فصارَ الزَّرعُ يريع هذا الريعَ ليفي بما يحتاجُ إليهِ للقوتِ والزِّراعَةِ، وكذلكَ ثمارُ الاشجارِ والنَّخيلِ، وكذلكَ ما يخرجُ مع الأصلِ الواحدِ منها من الصِّنوانِ ليكونَ لما يقطعُهُ النَّاسُ ويستعملونَهُ في مآربهم خَلَفاً، فلا تبطُلُ المادَّةُ عليهم ولا تنقصُ، ولو أنَّ صاحبَ بلدٍ من البلادِ أرادَ عمارتَهُ لأعطى أهلَهُ ما يبذرونهُ فبهم وما يقيتهُم إلى استواءِ الزَّرعِ، فاقتَضَت حكمَةُ اللطيفِ الخبيرِ أن أخرَجَ منَ الحبَّةِ الواحدَةِ حبَّاتٍ عديدَةٍ، ليقيتَ الخارجُ

النَّاسَ، ويدَّخرونَ منهُ ما يزرعونَ .

البُرّ والشّعير :

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ في الحبوبِ **كالبُرِّ والشعيرِ** ونحوهما كيفَ يخرجُ الحبُّ مدرجاً في قشورٍ على رؤوسها أمثالُ الأسنَّةِ، فلا يتمكَّنُ جندُ الطَّيرِ من إفسادِها والعَبَثِ فيها، فإنَّهُ لو صادَفَ الحبَّ بارزاً لا صوانَ عليهِ ولا وقايَةَ تحولُ دونهُ لتمكَّنَ منهُ كلَّ التَّمكُّنِ، فأفسَد وعابَ وعاثَ وأكبَّ عليهِ أكلاً ما استطاعَ، وعجزَ أربابُ الزَّرعِ عن ردِّهِ، فجعَلَ اللطيفُ الخبيرُ عليه هذه الوقاياتِ؛ لتصونَهُ؛ فينال الطَّيرُ منهُ مقدارَ قوَّتِهِ، ويبقى أكثرُهُ للإنسانِ، فإنَّهُ أولى بهِ، لأنَّهُ هو الذي كدَحَ فيهِ وشَقيَ بهِ، وكانَ الذي يحتاجُ إليهِ أضعافُ حاجَةِ الطَّيرِ .

الأشجار :

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ الباهرَةَ في هذه **الأشجار** كيفَ تراها في كلِّ عامٍ لها حملٌ ووضعٌ، فهي دائماً في حملٍ وولادَةٍ، فإذا أذنَ لها ربُّها في الحملِ احتبَست الحرارَةُ الطَّبيعيَّةُ في داخلِها، واختبأت فيها، ليكونَ فيها حملها في الوقتِ المقدَّرِ لها، فيكونَ ذلكَ الوقتُ بمنزلَةِ وقتِ العلوقِ، ومبدأ تكوينِ النُّطَفِ، فتعملُ المادَّةُ في أجوافِها عملَها وتهيئتها للعلوقِ حتى إذا آنَ وقتُ الحملِ دبَّ فيها الماءُ، فلانَت أعطافُها وتحرَّكَت للحملِ، وسَرى الماءُ في أفنانِها، وانتَشرَت فيها الحرارَةُ والرُّطوبَةُ حتى إذا آنَ وقتُ الولادَةِ كُسيَت من سائرِ الملابسِ

الفاخرَةِ منَ النورِ والوَرَقِ ما تَتَبَختَرُ فيه، وتميسُ به، وتفخَرُ على العقيمِ، فإذا ظَهَرَت أولادها وبانَ للنَّاظرِ حملُها عُلمَ حينئذٍ كرمُها وطيبُها من لؤمها وبخلها، فتولَّى تغذيَةَ ذلكَ الحملِ من تَولَّى غذاءَ الأجنَّةِ في بطونِ أمَّهاتها، وكساها الأوراقَ وصانها من الحرِّ والبَردِ، فإذا تكامَلَ الحملُ وآنَ وقتُ الفطامِ تَدلَّت إليكَ أفنانُها كأنَّما تناوَلكَ ثمرَةَ دَرِّها، فإذا قابَلتها رأيتَ الأفنانَ كأنَّها تلقاكَ بأولادها، وتُحيِّيكَ وتُكرمُكَ بهم، وتقدِّمهم إليكَ حتى كأنَّ مُناولاً يناولكَ إيَّاهُم بيدهِ ولا سيَّما قطوفُ جنَّاتِ النَّعيمِ الدَّانيَةِ التي يتناولها المؤمنُ قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وكذلكَ ترى الرَّياحينَ كأنَّها تُحيِّيكَ بأنفاسها، وتقابلكَ بطيبِ رائحتها، وكلُّ هذا إكراماً لكَ وعنايَةً بأمركَ وتَخصيصاً لكَ وتَفضيلاً على غيركَ منَ الحيواناتِ، أفيجملُ بكَ الاشتغالُ بهذه النِّعَم عن المُنعم بها، فكيفَ إذا استعَنتَ بها على معاصيهِ وصَرَفتها في مساخطهِ ؟ فكيفَ إذا جَحَدتَهُ وأضفتَها إلى غيرهِ كما قال : ﴿ وتَجعَلونَ رزقَكم أنَّكُم تُكذِّبونَ ﴾ [كالواقعة : ٨٢] ؟

فجديرٌ بمَن لهُ مسكةٌ من عَقلٍ أن يسافرَ بفكرهِ في هذه النِّعَم والآلاءِ ويكرِّرَ ذكرَها لعلَّهُ يوقفهُ على المرادِ منها، ما هو ؟ ولأيِّ شيءٍ خُلِقَ ؟ ولماذا هُيِّيءَ ؟ وأيُّ أمرٍ طُلبَ منهُ على هذه النِّعَم ؟ كما قال تعالى : ﴿ واذْكروا آلاءَ اللَّهِ لعلَّكُم تُفلحونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩]، فَذكرُ آلائِه تباركَ وتعالى ونعمِهُ على عبدهِ سببُ الفلاحِ والسَّعادَةِ؛ لأنَّ ذلكَ لا يزيدهُ إلّا مَحبَّةً للَّهِ وحمداً وشكراً وطاعَةً وشهودَ تَقصيرهِ بل تَفريطِه في القليلِ ممَّا يجبُ للَّهِ عليهِ وللَّهُ درُّ القائلِ :

قَـد هَـيَّـؤكَ لأمـرٍ لَـو فَـطِـنـتَ لَـهُ

فَاربأ بِنَفسِكَ أن تَرعى مَعَ الـهَـمَلِ

اليقطين والبطيخ والجزر :

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ في شجرَةِ **اليَقطينِ والبطِّيخِ والجَزَرِ** كيفَ لما اقتَضَت الحكمَةُ أن يكونَ حملهُ ثماراً كباراً جَعَلَ نباتَهُ مُنبسطاً على الأرضِ إذ لو انتَصَبَ قائماً كما ينتصبُ الزَّرعُ لضعفَت قوَّتُهُ عن حملِ هذه الثِّمارِ الثَّقيلَةِ، ولنَقَصَت قبلَ إدراكها وانتهائها إلى غاياتها، فاقتَضَت حكمَةُ مبدعِها وخالقِها أن بسطَهُ ومدَّهُ على الأرضِ ليلقي عليها ثمارَهُ، فتحملها عنهُ الأرضُ فترى العِرقَ الضَّعيفَ الدَّقيقَ من ذلكَ منبسطاً على الأرضِ، وثمارهُ مبثوثَةٌ حواليهِ كأنَّها حيوانٌ قد اكتنفها أجراؤها فهي ترضعهم، ولما كانَ شجرُ اللوبيا والباذنجانِ والباقلّاءِ وغيرها ممَّا يقوى على حملِ ثمرتهِ أنبتَهُ اللَّهُ منتصباً قائماً على ساقهِ إذ لا يلقى من حملِ ثمارهِ مؤنَةً ولا يَضعفُ عنهُ .

النّخلة :

ثمَّ تأمَّل هذه **النَّخلَةَ** التي هي إحدى آياتِ اللَّهِ تجدُ فيها منَ الآياتِ والعجائبِ ما يبهرُكَ، فإنَّهُ لما قَدَّرَ أن يكونَ فيهِ إناثٌ تحتاجُ إلى اللقاحِ جُعلَت فيها ذكورٌ تلقِّحُها بمنزلَةِ الحيوانِ وإناثهِ، ولذلكَ اشتدَّ شبهها من بينِ سائرِ الأشجارِ بالإنسانِ خصوصاً بالمؤمنِ كما مثَّلهُ النَّبيُّ ﷺ [1]، وذلكَ من وجوهٍ

---

(١) وذلك كما جاء في حديث ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : =

كثيرَةٍ :

* **أحـدهـا** : ثباتُ أصلِها في الأرضِ، واستقرارُهُ فيها، وليست بمنزلَةِ الشجرَةِ التي اجتُثَّت من فوقِ الأرضِ ما لـها من قَرار .

* **الثَّـانـي** : طيبُ ثمرتِها وحلاوتُها وعمومُ المنفعَةِ بها، كذلكَ المؤمنُ طيِّبُ الكلامِ طيِّبُ العملِ، فيهِ المنفَعَةُ لنفسهِ ولغيرهِ .

* **الثَّـالـث** : دوامُ لباسها وزينتِها فلا يَسقطُ عنها صَيفاً ولا شتاءً، كذلكَ المؤمنُ لا يزولُ عنهُ لباسُ التَّقوى وزينتُها حتى يوافي ربَّهُ تعالى .

* **الـرَّابـع** : سهولَةُ تناوُلِ ثمرتِها وتيسُّره أمَّا قَصيرُها فلا يُحوِجُ المتناوِلَ أن يَرقاها، وأمَّا باسقُها فصعودُهُ سَهلٌ بالنِّسبَةِ إلى صعودِ الشجرِ الطِّوالِ وغيرها، فتراها كأنَّـها قَد هُيِّئت منها المراقي والدّرجُ إلى أعلاها، وكذلكَ المؤمنُ خيرُهُ سهلٌ قَريبٌ لمَن رامَ تناولـهُ لا بالغرِّ ولا باللئيمِ .

* **الـخامـس** : إنَّ ثمرَتَها من أنفعِ ثمـارِ العالَـمِ، فإنَّـهُ يؤكلُ رطبُهُ فاكهَةً وحلاوَةً، ويابسُهُ يكونَ قوتاً وأدماً وفاكهَةً، ويتَّخذُ منهُ الـخلُّ والنَّاطفُ والـحلوى، ويدخلُ في الأدويَةِ والأشربَةِ وعموم المنفعَةِ بِهِ وبالعِنَبِ فوقَ كلِّ الثِّمـارِ .

= « إنَّ من الشَّجر شجرة لا يسقط ورقها وأنَّها مَثَلُ المسلم فحدِّثوني ما هي » .

فوقع النَّاسُ في شجر البوادي ووقع في نفسي أنَّها النخلة فاستحيَيتُ، ثمَّ قالوا : حدثنا ما هي يا رسول اللّه .

قال : « هي النخلة » .

أخرجه البخاري (١/ ١٤٥ - فتح) ومسلم (٢٨١١) .

* **السادس** : من وجوه التشبيه أنَّ النخلة أصبرُ الشَّجر على الرياحِ والجهد، وغيرها مِن الدوح العظام تميلُها الريحُ تارة، وتقلعُها تارةً، وتعصفُ أفنانَها، ولا صَبرَ لكثيرٍ منها على العَطشِ كصَبرِ النَّخلَةِ، فكذلكَ المؤمنُ صبورٌ على البلاءِ لا تزعزعُهُ الرِّياحُ .

* **السَّابع** : أنَّ النَّخلَةَ كلَّها منفعَةٌ لا يَسقطُ منها شيءٌ بغيرِ منفعَةٍ، فثمرُها منفعةٌ، وجذعُها فيه من المنافعِ مالا يجهَلُ للأبنيَةِ والسُّقوفِ وغير ذلكَ، وسَعَفُها تسقفُ به البيوتُ مكانَ القَصَبِ، ويسترُ بهِ الفُرجُ والخلَلُ، وخوصُها يُتَّخَذُ منه المكاتلُ والزَّنابيلُ وأنواعُ الآنيَةِ والحصرُ وغيرها، وليفُها وكربها فيه منَ المنافعِ ما هو معلومٌ عندَ النَّاسِ، وقَد طابَقَ بعضُ النَّاسِ هذه المنافع وصفاتَ المُسلمِ وجَعَلَ لكلِّ منفعَةٍ منها صفَةً في المُسلم تقابلها، فلما جاءَ إلى الشوكِ الذي في النَّخلَةِ جَعَلَ بإزائهِ من المسلمِ صفَةَ الحدَّةِ على أعداءِ اللَّهِ وأهلِ الفجورِ، فيكونَ عليهم في الشدَّةِ والغلظَةِ بمنزلَةِ الشوكِ وللمؤمنينَ والمتَّقينَ بمنزلَةِ الرُّطبِ حلاوَةً وليناً : ﴿ أشدَّاءُ على الكفَّارِ رُحماءُ بينهُم ﴾ [الفتح : ٢٩] .

* **الثَّامن** : أنَّها كلمَّا طالَ عمرُها ازدادَ خيرُها، وجادَ ثمرُها، وكذلكَ المؤمنُ إذا طالَ عمرُهُ ازدادَ خيرُهُ، وحَسُنَ عملُهُ .

* **التَّاسع** : إنَّ قلبَها من أطيَبِ القلوبِ وأحلاه، وهذا أمرٌ خُصَّت به دونَ سائرِ الشجرِ، وكذلكَ قلبُ المؤمنِ من أطيَبِ القلوب .

* **العاشر** : إنَّها لا يتعطَّلُ نفعُها بالكليَّةِ أبداً، بل إن تَعطَّلَت منها منفَعَةٌ

ففيها منافعُ أخَر، حتى لو تَعَطَّلَت ثمارها سنةً لكانَ للنَّاسِ في سَعفِها وخوصِها وليفِها وكربها منافعُ، وهكذا المؤمنُ لا يَخلو عن شيءٍ من خصالِ الخَيرِ قَط، إن أجدَبَ منهُ جانبٌ منَ الخيرِ أخصَبَ منهُ جانبٌ، فلا يزالُ خَيرُهُ مأمولاً وشرُّهُ مأموناً .

فهذا فَصلٌ معتَرِضٌ ذكرناهُ استطراداً للحكمَةِ في خَلقِ النَّخلَةِ وهيئَتِها، فلنرجع إليهِ، فتأمَّل خِلْقَةَ الجذعِ الذي لها كيفَ هو تجدُهُ كالمنسوجِ من خيوطٍ ممدودَةٍ كالسَّدا، وأُخرى معتَرِضَةٌ كاللحمَةِ كنحوِ المنسوجِ باليَدِ وذلكَ لتُشدَّ وتصلبَ فلا تَتقصَّف من حملِ الحيوانِ الثَّقيلِ، وتصبرُ على هزِّ الرِّياحِ العاصفَةِ، ولبثها في السُّقوفِ والجسورِ والأواني وغير ذلكَ ممَّا يتَّخذُ منها، وهكذا سائرُ الخشبِ وغيرها إذا تأمَّلتهُ شبهَ النَّسجِ ولا تراهُ مصمتاً كالحجَرِ الصَّلدِ بل ترى بعضهُ كأنَّهُ داخل بعضاً طولاً وعَرضاً كتداخلِ أجزاءِ اللحمِ بعضُها في بَعضٍ، فإنَّ ذلكَ أمتَنُ له وأهيأُ لما يُرادُ منه، فإنَّهُ لو كانَ مصمتاً كالحجارَةِ لم يمكن أن يُستعمل في الآلاتِ والأبوابِ والأواني والأمتعَةِ والأسرَّةِ والتَّوابيتِ وما أشبَهَا، ومن بديعِ الحكمَةِ في الخَشَبِ أن جعل يطفو على الماءِ، وذلكَ للحكمَةِ البالغَةِ إذ لولا ذلكَ لما كانَت هذه السُّفُنُ تحملُ أمثالَ الجبالِ من الحمولاتِ والأمتعَةِ وتمخُرُ البَحرَ مقبلَةً ومدبرَةً، ولولا ذلكَ لما تهيَّأ للنَّاسِ هذه المرافقُ لحملِ هذه التِّجاراتِ العظيمَةِ والأمتعَةِ الكثيرةِ، ونقلها من بلدٍ إلى بلدٍ من حيث لو نُقلَت في البرِّ لعظُمَت المؤنَةُ في نَقلها، وتَعذَّرَ على النَّاسِ كثيرٌ من مصالحهم .

الأدويـة :

ثمَّ تأمَّل أحوالَ هذه **العقاقيرِ والأدويَةِ** التي يـخرجُها اللَّهُ من الأرضِ، وما خصَّ به كلَّ واحدٍ منها، وجَعَلَ عليهِ من العَملِ والنَّفعِ، فهذا يغورُ في المفاصلِ فيستَخرجُ الفضولَ الغليظَةَ القاتلَةَ لو احتسبت، وهذا يَستخرجُ المِرَّةَ السَّوداءَ، وهذا يستخرجُ المِرَّةَ الصَّفراءَ، وهذا يحلِّلُ الأورامَ، وهذا يسكِّنُ الـهيجانَ والقَلَقَ، وهذا يجلبُ النَّومَ ويعيدُهُ إذا أعوَزهُ الإنسانُ، وهذا يـخفِّفُ البَدنَ إذا وجَدَ الثِّقَلَ، وهذا يفرِّحُ القَلبَ إذا تراكمَت عليهِ الغمومُ، وهذا يـجلو البَلغَم ويكشطهُ، وهذا يـحدُّ من البَصَرِ، وهذا يطيِّبُ النَّكهَةَ، وهذا يسكِّنُ هيجانَ الباءَةِ، وهذا يهيِّجُها، وهذا يبرِّدُ الـحرارَةَ ويطفئها، وهذا يقتلُ البرودَةَ ويهيِّجُ الـحرارَةَ، وهذا يَدفعُ ضَرَرَ غيرهِ من الأدويَةِ والأغذيَةِ، وهذا يقاومُ بكيفيَّتِهِ كيفيَّةَ غيرهِ فيعتدلان فيعتدلُ المزاجُ بتناولـهمـا، وهذا يسكِّنُ العَطَشَ، وهذا يصرفُ الرِّياحَ الغليظَةَ ويطردها، وهذا يعطي اللونَ إشراقاً ونضارَةً، وهذا يزيدُ في أجزاءِ البَدنِ بالسِّمنِ، وهذا ينقصُ منها، وهذا يدبغُ المعدَةَ، وهذا يـجلوها ويغسلـها، إلى أضعافِ ذلكَ ممَّـا لا يُحصيهِ العبادُ .

فسَل المعطِّلَ : مَن جَعَلَ هذه المنافعَ والقوى في هذه النَّباتاتِ والحشائشِ والـحبوبِ والعروقِ ؟

ومَن أعطى كلّاً منها خاصيَّتَهُ ؟

ومن هَدى العبادَ بل الحيوانَ إلى تناوُلِ ما ينفعُ منهُ وتَركِ ما يضرُّ ؟

ومَن فطنَ لـها النَّاسَ والحيوانَ البهيمَ ؟

وبأيِّ عقلٍ وتـجربَةٍ كانَ يقفُ على ذلكَ ويعرفُ ما خُلقَ لـهُ كما زَعَمَ

مَن قلَّ نصيبُهُ منَ التَّوفيقِ، لولا إنعامُ الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ ثمَّ هدى، وهَب أنَّ الإنسانَ فطنَ لـهذه الأشياءَ بذهنهِ وتجاربهِ وفكرهِ وقياسهِ فمَن الذي فَطنَ لـها البهائمَ في أشياء كثيرَةٍ ؟

منها : مـالا يَهتَدي إليها الإنسانُ، حتى صارَ بعضُ السِّباعِ يتداوى من جراحهِ ببَعضِ تلكَ العقاقير منَ النَّباتاتِ فيبرَأُ، فَمَن الذي جَعَلَهُ يقصدُ ذلكَ النَّباتَ دونَ غيرهِ ؟

وقَد شوهِدَ بَعضُ الطَيرِ يـحتقِنُ عند الـحَصرِ بماءِ البَحرِ فيسهل عليهِ الـخارجُ، وبعضُ الطَّيرِ يتناولُ إذا اعتلَّ شيئاً من النَّباتِ فتعودَ صحَّتُهُ، وقَد ذكَرَ الأطبَّاءُ في مبادىءِ الطِّبِّ في كتبهم من هذ عجائبَ .

فَسَلِ المعطِّلَ : مَن ألـهمها ذلكَ ؟ ومَن أرشدها إليهِ ؟ ومَن دلَّها عليهِ ؟

أفيجوزُ أن يكونَ هذا من غيرِ مدبِّرٍ عزيزٍ حكيمٍ، وتقديرِ عزيزٍ عليمٍ، وتَقديرِ لطيفٍ خَبيرٍ، بَهَرَت حكمتُهُ العقولَ، وشهدَت لـهُ الفطرُ بما استَودَعها من تَعريفهِ بأنَّـهُ اللَّهُ الذي لا إلـهَ إلّا هو الـخالقُ البارىءُ المصوِّرُ الذي لا تنبَغي العبادَةُ إلّا لـهُ، وإنَّـهُ لو كانَ معهُ في سماواتهِ وأرضهِ إلـهٌ سواهُ لَفَسَدَت السَّماواتُ والأرضُ، واختلَّ نظامُ الملكِ، فسبحانَهُ وتعالى عـمَّا يقولُ الظَّالمون والجاحدونَ علوَّاً كبيراً .

ولعلَّكَ أن تقولَ : ما حكمَةُ هذا النَّباتِ المبثوثِ في الصَّحاري، والقفارِ، والجبالِ، التي لا أنيسَ بها ولا ساكنَ، وتظنُّ أنَّـهُ فضلةٌ لا حاجَةَ إليهِ، ولا فائدَةَ في خلقهِ، وهذا مقدارُ عقلِكَ، ونهايَةُ علمِكَ، فكَم لباريهِ وخالقهِ فيه من حكمَةٍ وآيَةٍ، من طعمٍ لوحشٍ وطَيرٍ ودوابّ مساكنها حيثُ لا تَراها تـحتَ الأرضِ

وفوقها، فذلكَ بمنزلَةِ مائدَةٍ نَصَبها اللّهُ لهذه الطُّيورِ والدَّوابِّ تتناوَلُ منها كفايَتَها، ويَبقى الباقي كما يَبقى الرِّزقُ الواسعُ الفاضلُ عن الضَّيفِ، لسعةِ ربِّ الطَّعامِ، وغناه التَّامِّ، وكثرَةِ إنعامِهِ .

والأنعامُ خلقَها

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ البالغَةَ في إعطائِهِ سبحانهُ **بهيمَةَ الأنعامِ** الأسماعَ والأبصارَ ليتمَّ تناولها لمصالحها، ويكملَ انتفاعُ الإنسانِ بها، إذ لو كانَت عمياءَ أو صمَّاءَ لم يتمكَّن منَ الانتفاعِ بها، ثمَّ سلبها العقولَ على كبرِ خَلقِها التي للإنسانِ ليتمَّ تَسخيرُهُ إيَّاها، فيقودُها ويَصرفُها حيثُ شاءَ، ولو أعطيَت العقولُ على كبرِ خَلقها لامتنَعَت من طاعتِهِ واستَعصَت عليهِ، ولم تكُن مسخَّرَةً لهُ، فأُعطيَت منَ التَّمييزِ والإدراكِ ما تَتمُّ به مصلحتُها ومصلحةُ منَ ذللت لهُ، وسُلبَت من الذِّهنِ والعَقلِ ما ميَّزَ به عليها الإنسانَ، وليظهَرَ أيضاً فضيلَةُ التَّمييزِ والاختصاصِ .

ثمَّ تأمَّل كيفَ قادَها وذلَّلها على كبرِ أجسامها ولم يكُن يطيقها لولا تَسخيرُهُ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لكُم منَ الفُلكِ والأنعامِ ما تَركبونَ * لتَستووا على ظهورهِ ثمَّ تذكروا نعمة ربِّكُم إذا استوَيتُم عليهِ وتَقولوا سُبحانَ الَّذي سخَّرَ لنا هذا وما كُنَّا لهُ مُقرنين ﴾ [الزخرف : ١٢ - ١٣]، أي مطيقين ضابطين .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَم يَرَوا أنَّا خَلَقنا لَهُم ممَّا عَمِلَت أيدينا أنعاماً فهُم

لـهـا مـالكونَ * وذلَّلناها لَـهُـم فَمِنها رَكوبُهُم ومنها يأكُلونَ ﴾ [يس : ٧١ - ٧٢]، فترى البَعيرَ على عظَمِ خلقَته يقودُهُ الصَّبيُّ الصَّغيرُ ذليلاً منقاداً، ولو أُرسلَ عليهِ لسوَّاهُ بالأرضِ، ولفصَّلهُ عضواً عضواً .

فسَل المعطِّلَ : مَن الذي ذلَّلهُ وسخَّرهُ وقادهُ على قوَّتِهِ لبشرٍ ضَعيفٍ من أضعَفِ المخلوقاتِ ؟ وفرَغَ بذلكَ التَّسخيرِ النَّوعَ الإنساني لمصالحِ معاشهِ ومعادهِ، فإنَّهُ لو كانَ يزاولُ من الأعمالِ والأحمالِ ما يُزاولُ الحيوانُ لشغلَ بذلكَ عن كثيرٍ من الأعمالِ، لأنَّهُ كانَ يحتاجُ مكانَ الجمَلِ الواحدِ إلى عدَّةِ أناسيّ يحملونَ أثقالَهُ وحملَهُ ويعجزونَ عن ذلكَ، وكانَ ذلكَ يستفرغُ أوقاتَهم، ويصدُّهُم عن مصالِحِهم، فأُعينوا بهذه الحيواناتِ مع مالـهم فيها من المنافعِ التي لا يحصيها إلّا اللَّهُ من الغذاءِ والشرابِ والدَّواءِ واللباسِ والأمتعَةِ والآلاتِ والأواني والرُّكوبِ والحَرثِ والمنافعِ الكثيرَةِ والجَمالِ .

لتستوا على ظهوره

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ البالغَةَ في أن جَعَلَ **ظهورَ الدَّوابِّ مَبسوطَةً** كأنَّها سَقفٌ على عَمَدِ القوائمِ ليتهيَّأَ ركوبُها وتَستقرَّ الحمولَةُ عليها، ثمَّ خولفَ هذا في الإبِلِ فجعَلَ ظهورَها مسنَّمَةً معقودَةً كالقَبوِ لما خُصَّت به من فَضلِ القوَّةِ، وعظمِ ما تحملُهُ، والأقباءُ تحملُ أكثَرَ ممَّا تحملُ السُّقوفُ، حتى قيلَ : إنَّ عقدَ الأقباءِ إنَّما أُخذَ من ظهورِ الإبلِ .

وتأمَّل كيفَ لما طوَّلَ قوائمَ البعيرِ طوَّلَ عنقَهُ، ليتناوَلَ المَرعى من قيامٍ، فلو قَصُرَت عُنُقُهُ لم يُمكنهُ ذلكَ مع طولِ قوائمِه، وليكونَ أيضاً طولُ عنقِهِ موازناً

للحملِ على ظَهرهِ إذا استقلَّ به كما تَرى طولَ قَصَبَةِ القبَّانِ، حتى قيلَ : إنَّ القبَّانَ إنَّما عُملَ من خلقَةِ الجَمَلِ من طولِ عنقهِ وثقلِ ما يحملهُ، ولهذا تَراهُ يمدُّ عنقهُ إذا استَقلَّ بالحملِ كأنَّهُ يُوازنهُ موازَنَةً .

ثمَّ تأمَّل حكَمَةً عجيبَةً جُعلَت **للبهائمِ والوُحوشِ والسِّباعِ والدَّوابِّ** على كثرتها لا يُرى منها شيءٌ، وليسَت شيئاً قليلاً فتَخفى لقلَّتها بل قَد قيلَ : إنَّها أكثَرُ من النَّاسِ؛ واعتبر ذلكَ بما تَراهُ في الصَّحاري من أسرابِ الظِّباءِ والبَقَرِ والوُعولِ والذِّئابِ والنُّمورِ وضروبِ الهوامِ على اختلافها وسائرِ دوابِّ الأرضِ وأنواعِ الطُّيورِ التي هيَ أضعافُ أضعافُ بني آدمَ لا تكادُ تَرى منها شيئاً ميِّتاً لا في كناسهِ، ولا في أوكارهِ، ولا في مساقطهِ، ولا في مراعيهِ بطرقهِ ومواردهِ ومناهلهِ ومعاقلهِ ومعاصمهِ إلّا ما عَدا عليهِ عادٍ إمَّا افتَرَسهُ سبعٌ أو رماهُ صائدٌ أو عَدا عليهِ عادٍ أشغلهُ وأشغَلَ بني جنسهِ عن إحرازِ جسمهِ وإخفاءِ جيفتهِ، فدلَّ ذلكَ على أنَّها إذا أحسَّت بالمَوتِ ولم تُغلَب على نَفسها كَمَنَت حيثُ لا يوصَلُ إلى جسمها، وقبرَت جيفَها قبلَ نزولِ البينِ بها، ولولا ذلكَ لامتلأت الصَّحارى بجيفها، وأفسَدَت الهواءَ بروائحها، فعادَ ضَرَرُ ذلكَ بالنَّاسِ، وكانَ سبيلاً إلى وقوعِ الوباءِ، وقَد دلَّ على هذا قولُهُ تعالى في قصَّةِ ابني آدمَ : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غراباً يَبحَثُ في الأرضِ ليريَهُ كيفَ يواري سوأَةَ أخيهِ قال يا وَيلَتي أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغُرابِ فأُواري سَوأَةَ أخي فأصبَحَ منَ النَّادمين ﴾ [المائدة : ٣١] .

وتأمَّل الحكمَةَ في إرسالِ اللَّه لابنِ آدمَ الغرابَ المؤذِّن اسمهُ بغربَةِ القاتلِ من أخيهِ، وغُربَتِهِ هو من رحمَةِ اللَّهِ تعالى، وغربَتِهِ من أبيهِ وأهلهِ واستيحاشهِ منهم

واستيحاشهم منهُ، وهو من الطُّيورِ التي تنفرُ منها الإنسُ ومن نعيقها وتَستَوحش بها، فأرسَلَ إليهِ مثلَ هذا الطَّائرِ حتى صارَ كالمُعلِّم لهُ والأُستاذِ، وصارَ بمنزلَةِ المتعلِّمِ والمُستَنِدِ، ولا تُنكَرُ حكمَةُ هذا البابِ وارتباطُ المُسمَّياتِ فيه بأسمائها .

وشواهدُ هذا البابِ أكثَرُ من أن نَذكُرَها هاهُنا وهذا بابٌ لَطيفُ، المنزعِ شديدُ المناسَبَةِ بينَ الأسماءِ والمسمَّياتِ، وكثيراً ما أولعَ النَّاسُ قَديماً وحَديثاً بنعيقِ الغرابِ، واستدلالهم به على البَينِ والاغترابِ، وينسبونَهُ إلى الشؤمِ، ويَنفرونَ منهُ وينفرُ منهم، فكانَ جَديراً أن يرسلَ هذا الطَّائرُ إلى القاتلِ من ابنَي آدمَ دونَ غيرهِ منَ الطُّيورِ، فكأنَّهُ صورَةُ طائرهِ الذي ألزمهُ في عنقه، وطارَ عنهُ من عملهِ، ولا تظنّ أنَّ إرسالَ الغرابِ وَقَعَ اتِّفاقاً خالياً من الحكمَةِ، فإنَّكَ إذا خَفيَ عليكَ وجهُ الحكمَةِ فلا تُنكرها، واعلم أنَّ خفاءَها من لطفها وشرفها، ولِلَّهِ تعالى فيما يخفي وجهُ الحكمَةِ فيهِ على البَشرِ الحكمُ الباهرَةُ المتضمِّنَةُ للغاياتِ المحمودَةِ .

الفيل :

ثمَّ تأمَّل **شَفَرَ الفيلِ** وما فيهِ من الحِكَمِ الباهرَةِ، فإنَّهُ يقومُ مقامَ اليَدِ في تناوُلِ العَلَفِ والماءِ وإيرادِهما إلى جَوفهِ، ولولا ذلكَ ما تستطاعَ أن يتناوَلَ شيئاً من الأشياءِ منَ الأرضِ، لأنَّهُ ليسَت له عُنُقٌ يمدُّها كسائرِ الأنعامِ، فلمَّا عُدمَ العنقُ أُخلفَ عليهِ مكانهُ الخرطومُ الطَّويلُ ليسدَّ مسدَّهُ، وجُعلَ قادراً على سَدلهِ ورَفعهِ وثنيهِ والتَّصرُّفِ به كيفَ شاءَ، وجُعلَ وعاءً أجوَفَ ليِّنَ الملمسِ، فهو يتناوَلُ به حاجتَهُ، ويحملُهُ ما أرادَ إلى جوفهِ، ويحبسُ فيهِ ما يريدُ، ويكيدُ

به إذا شاءَ، ويعطي ويتناوَلُ إذا أرادَ .

فَسَلِ المُعطِّلَ : مَن الذي عوَّضهُ، ومَن أخلَفَ عليهِ مكانَ العضوِ الذي منعهُ ما يقومُ له مقامَهُ، وينوبَ منابَهُ غيرُ الرَّؤوف الرَّحيم بخلقهِ، المتكفِّل بمصالحهم اللطيف بهم ؟ وكيفَ يتأتَّى ذلكَ معَ الإهمالِ وخلوِّ العالَمِ عن قَيِّمهِ وبارئهِ ومبدعهِ وفاطرهِ لا إلهَ إلّا هو العَزيزُ الحكيمُ ؟

فإن قلتَ : فما بالهُ لم يُخلَق ذا عُنقٍ كسائرِ الأنعامِ وما الحكمَةُ في ذلكَ ؟

قيلَ : واللَّهُ أعلمُ بحكمته في مصنوعاتهِ، لأنَّ رأسَهُ وأذنيهِ أمرٌ هائلٌ عَظيمٌ وحملٌ ثَقيلٌ، فلو كانَ ذا عُنقٍ كسائرِ الأعناقِ لانهدَّت رقبتُهُ بثقلهِ ووَهَنَت بحملهِ فجعلَ رأسَهُ مُلصقاً بجسمهِ، لئلّا ينالُهُ منهُ شيءٌ من الثِّقلِ والمؤنَةِ، وخَلقَ لهُ مكانَ العُنقِ هذا المشفَرَ الطَّويل يتناوَلُ به غذاءَهُ، ولما طالَت عنقُ البَعيرِ للحكمَةِ في ذلكَ صَغُرَ رأسهُ بالنِّسبَةِ إلى عظَمِ جُثَّتهِ، لئلّا يؤذيهِ ثقلُهُ، ويوهنَ عنقَهُ، فَسُبحانَ مَن فاتَت حكمُهُ عدَّ العادِّينَ وحَصرَ الحاصرين .

النّملة :

ثمّ تأمَّل هذه **النَّملَةَ** الضَّعيفَةَ وما أُعطيتهُ من الفِطنَةِ أو الحيلَةِ في جمعِ القوتِ وادِّخارهِ، وحفظهِ ودَفعِ الآفَةِ عنه، فإنَّكَ تَرى في ذلكَ عِبَراً وآياتٍ .

فترى جماعَةَ النَّملِ إذا أرادَت إحرازَ القوتِ خَرَجَت من أسرابها طالبَةً لهُ، فإذا ظَفرَت بهِ أخَذَت طريقاً من أسرابها إليهِ وشرَعَت في نقلهِ، فتراها رفقتينْ رفقَةٌ حاملةٌ تحملهُ إلى بيوتها سرباً ذاهباً، ورفقَةٌ خارجَةٌ من بيوتها إليهِ لا

تـخالطُ تلكَ في طريقها بل هما كالـخيطينِ بمنزلَةِ جماعَةِ النَّاسِ الذَّاهبينَ في طريقٍ والجماعَةِ الرَّاجعينَ من جانبهم .

فإذا ثقل عليها حملُ الشيءِ من تلكَ اجتَمَعَت عليهِ جماعَةٌ من النَّملِ وتساعَدَت على حملهِ بمنزلَةِ الـخشبَةِ والـحجَرِ الذي تتساعَدُ الفئةُ منَ النَّاسِ عليهِ، فإذا كانَ الذي ظَفرَ به منهنَّ واحدَةٌ ساعَدها رفقتُها عليهِ إلى بيتها، وخلُّوا بينها وبينهُ، وإن كانَ الذي صادفهُ جماعَةٌ تَساعَدنَ عليهِ ثمَّ تقاسمتهُ على بابِ البَيتِ .

ولَقَد أخبرَ بعضُ العارفينَ أنَّهُ شاهَدَ منهنَّ يوماً عجباً، قال :

رأيتُ نملَةً جاءَت إلى شقِّ جرادَةٍ فزاوَلتهُ فلم تُطِق حملَهُ منَ الأرضِ، فَذَهَبَت غيرَ بَعيدٍ ثمَّ جاءَت معها بـجماعَةٍ منَ النَّملِ .

قال : فَرَفعَتُ ذلكَ الشقَّ من الأرضِ فلمَّا وَصَلَت النَّملَةُ برفقتها إلى مكانِه دارَت حولَهُ ودُرنَ معها فلم يـجدنَ شيئاً فرجعنَ فَوضَعتُهُ ثمَّ جاءَت فصادفتهُ فزاوَلتهُ فلم تُطق رَفعَهُ، فَذَهَبَت غيرَ بَعيدٍ ثمَّ جاءَت بهنَّ فَرَفعتُهُ فدُرنَ حولَ مكانِهِ فلم يـجدنَ شيئاً، فَذَهبنَ فوضَعتهُ فعادَت فجاءَت بهنَّ فرفَعتُهُ فدُرنَ حولَ المكانِ، فلـمَّـا لم يَجدنَ شيئاً تـحلَّقنَ حلَقَةً وجعَلنَ تلكَ النَّملَةَ في وسطها ثمَّ تحامَلنَ عليها فقطَّعنها عضواً عضواً وأنا أنظُر .

ومن عَجيبِ أمرِ الفطنَةِ فيها إذا نَقَلَت الـحبَّ إلى مساكنها كسَرتهُ لئلّا ينبتَ، فإن كانَ مـمَّـا ينبتُ الفلقتانِ منهُ كسرتهُ أربعاً، فإذا أصابهُ نَدى وبللٌ وخافَت عليهِ الفسادَ أخرَجتهُ للشمسِ ثمَّ تردَّهُ إلى بيوتها، ولـهذا تَرى في بَعضِ الأحيانِ حبّاً كثيراً على أبوابِ مساكنها مكسَّراً، ثمَّ تعودُ عن قريبٍ فلا تَرى منهُ

واحدَةً .

ومن فطنتها أنَّـها لا تَتَّخذُ قريتَها إلى على نَشرٍ منَ الأرضِ لئلّا يَفيضَ عليها السَّيلُ فيغرقها، فلا تَرى قَريَةَ نملٍ في بَطنِ وادٍ، ولكن في أعلاه وما ارتفَعَ عن السَّيل منهُ .

ويكفي في فطنتها ما نَصَّ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ في كتابهِ من قولـها لجماعَةِ النَّملِ وقد رأت سليمانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام وجنودَهُ :﴿ يا أيُّها النَّملُ ادْخُلوا مَساكنَكُم لايَحطمنَّكُم سُلَيمانُ وجنودهُ وهم لا يَشعرون ﴾ [النمل : ١٨]، فتكلَّمَت بعَشرَةِ أنواعٍ منَ الخطابِ في هذه النَّصيحَةِ :

النِّداءِ، والتَّنبيهِ، والتَّسميَةِ، والأمرِ، والنَّصِّ، والتَّحذيرِ، والتَّخصيصِ، والتَّفهيمِ، والتَّعميمِ، والاعتذارِ، فاشتملَت نَصيحَتُها مع الاختصارِ على هذه الأنواعِ العشرَةِ .

ولذلكَ أعجَبَ سليمانَ قولُها وتبسَّمَ ضاحكاً منهُ، وسألَ اللَّهَ أن يوزعَهُ شكرَ نعمتهِ عليهِ لما سمعَ كلامَها، ولا تُستَبعَدُ هذه الفطنةُ من أمَّةٍ من الأمَمِ تُسبِّحُ بحَمدِ ربِّها كما في « الصَّحيح » عن النَّبيِّ ﷺ قال :

« نَزَلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحتَ شجرَةٍ فلَدَغتهُ نملَةٌ فأمَرَ بجهازهِ فأخرَجَ ثمَّ أحرَقَ قريَةَ النَّملِ فأوحى اللَّهُ إليهِ، من أجلِ أن لَدَغتكَ نملَةٌ أحرَقتَ أمَّةً منَ الأُمَمِ تُسبِّحُ فهلّا نملَةً واحدَةً » .[1]

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٥٤ ، ٣٥٦ - فتح)، ومسلم (٢٢٤١) (١٥٠) من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

ولا طائرٌ يطير بجناحيه

ثمَّ تأمَّل **جسمَ الطَّائرِ وخِلقَته**، فإنَّهُ حينَ قُدِّرَ بأن يكونَ طائراً في الجوِّ خُفِّفَ جسمُهُ، وأدمجَ خلقتُهُ، واقتَصَرَ به من القوائمِ الأربعِ على اثنتين، ومنَ الأصابعِ الخمسِ على أربعٍ، ومن مخرجِ البولِ والزِّبلِ على واحدٍ يجمعهما جميعاً، ثمَّ خُلقَ ذا جؤجؤٍ محدود ليسهُلَ عليهِ اختراقُ الهواءِ كيفَ توجَّهُ فيهِ، كما يُجعَلُ صَدرُ السَّفينَةِ بهذه الهَيئَةِ؛ ليشقَّ الماءَ بسرعَةٍ وتَنفَذَ فيهِ، وجُعلَ في جناحيهِ وذنبهِ ريشاتٌ طوالٌ متانٌ لينهَضَ بها للطَّيرانِ، وكسي جسمُهُ كلُّهُ الرِّيش، ليتداخَلَهُ الهواءُ فيحملُهُ، ولما قُدِّرَ أن يكونَ طعامُهُ اللحمَ والحبَّ يبلعه بلعاً بلا مَضغٍ نُقصَ من خلقِهِ الأسنانُ وخُلِقَ لهُ منقارٌ صَلبٌ يتناوَلُ به طعامَهُ، فلا يتفسَّخُ من لَقطِ الحبِّ، ولا يتعفَّفُ من نَهشِ اللحمِ، ولما عُدمَ الأسنانُ وكانَ يَزدردُ الحبَّ صحيحاً واللَّحمَ غَريضاً أُعينَ بفَضلِ حرارَةٍ في الجوفِ تَطحنُ الحبَّ وتَطبخُ اللحمَ؛ فاستَغنى عن المضغِ، والذي يدلُّكَ على قوَّةِ الحرارَةِ التي أُعينَ بها أنَّكَ تَرى عجمَ الزَّبيبِ وأمثالهِ يخرجُ من بَطنِ الإنسانِ صحيحاً، وينطبخُ في جوفِ الطَّائرِ حتى لا يُرى لهُ أثَرٌ .

ثمَّ اقتَضَت الحكمَةُ أن جُعلَ يَبيضُ بيضاً ولا يَلدُ ولادَةً، لئلّا يثقلَ عن

الطَّيرانِ؛ فإنَّهُ لو كانَ ممَّا يحملُ ويمكُثُ حملُهُ في جوفه حتى يستحكمَ ويثقلَ لأثقلَهُ وعاقَهُ عن النُّهوضِ والطَّيرانِ .

وتأمَّل الحكمَةَ كونِ الطَّائرِ المُرسَلِ السَّائحِ في الجوِّ يُلهَمُ صَبر نَفسهِ أسبوعاً أو أسبوعَين باختيارهِ قاعداً على بيضهِ حاضناً له، ويحتملُ مشقَّةَ الحبسِ، ثمَّ إذا خَرَجَ فراخَهُ تحمَّلَ مشقَّةَ الكَسبِ وجَمعَ الحبِّ في حوصلتهِ وبزَق فراخَهُ، وليسَ بذي رويَّةٍ ولا فكرَةٍ في عاقبَةِ أمرهِ، ولا يؤمِّلُ في فراخهِ ما يؤمِّلُ الإنسانُ في ولدهِ من العَونِ والرِّفدِ وبقاءِ الذِّكر .

فهذا من فعلِهِ يَشهَدُ بأنَّهُ معطوفٌ على فراخهِ لعلَةٍ لا يعلمها هو، ولا يفكِّرُ فيها من دوامِ النَّسلِ وبقائهِ .

البَيضة :

ثمَّ تأمَّل خِلقَةَ **البَيضَةِ** وما فيها من المحِّ الأصفَرِ الخاثرِ والماءِ الأبيَضِ الرَّقيقِ، فبعضُهُ ينشأُ منهُ الفرخُ، وبعضهُ يغتذي منهُ إلى أن يخرجَ من البَيضَةِ، وما في ذلكَ من الحكمَةِ، فإنَّهُ لما كانَ نشوُ الفرخِ في تلكَ البَشرَةِ المنخفِضَةِ التي لا نفاذَ فيها للواصلِ من خارجٍ جُعلَ معهُ في جوفِ البيضَةِ منَ الغذاءِ ما يكتفي بهِ إلى خروجهُ .

الحوصلة :

وتأمَّل الحكمَةَ في **حَوصَلةِ الطَّائرِ** وما قدِّرَت لهُ، فإنَّ في مسلكِ الطَّعامِ إلى القابضَةِ ضيقٌ لا ينفَذُ فيهِ الطَّعامُ إلّا قليلاً، فلو كانَ الطَّائرُ لا يَلتقطُ

حبَّةً ثانيَةً حتى تَصلَ الأولى إلى جوفهِ لطالَ ذلكَ عليهِ، فمتى كانَ يَستَوفي طعامَهُ وإنَّما يختلسهُ اختلاساً لشدَّةِ الحَذَرِ، فجُعلَت لهُ الحوصَلَةُ كالمخلاةِ المعلَّقَةِ أمامَهُ ليوعي فيها ما ازدردَ من الطُّعمِ بسُرعَةٍ ثمَّ ينقلُ إلى القابضَةِ على مهلٍ .

وفي الحوصَلَةِ أيضاً خصلَةٌ أخرى، فإنَّ منَ الطَّيرِ ما يحتاجُ إلى أن يزقَّ فراخَهُ؛ فيكونَ ردُّهُ الطعمَ من قربٍ ليسهُلَ عليهِ .

الألوان والأصباغ والوشي :

ثمَّ تأمَّل هذه **الألوانَ والأصباغَ والوَشيَ** التي تَراها في كثيرٍ من الطَّيرِ كالطَّاووسِ والدرَّاجِ وغيرهما التي لو خُطَّت بدَقيقِ الأقلامِ ووُشيَت بالأيدي لم يكُن هذا، فَمِن أينَ في الطَّبيعَةِ المجرَّدَةِ هذا التَّشكيلُ والتَّخطيطُ والتَّلوينُ والصَّبغُ العجيبُ البَسيطُ والمُركَّبُ الذي لو اجتمَعَت الخليقَةُ على أن يحاكوهُ لتعذَّرَ عليهم ؟

فتأمَّل ريشَ الطَّاووسِ كيفَ هو ؟ فإنَّكَ تراهُ كنسجِ الثَّوبِ الرَّفيعِ من خيوطٍ رفاعٍ جدَّاً قد أُلِّفَ بعضُها إلى بَعضٍ كتأليفِ الخَيطِ إلى الخَيطِ بل الشَّعرَةِ إلى الشعرَةِ، ثمَّ ترى النَّسجَ إذا مدَدتَهُ ينفتحُ قليلاً قليلاً ولا ينشقُّ؛ ليتداخَلهُ الهواءُ، فينتقلُ الطَّائرُ إذا طارَ، فترى في وَسَطِ الرِّيشةِ عموداً غَليظاً قد نُسجَ عليهِ ذلكَ الثَّوبُ التي كهَيئةِ الشعرِ ليمسِكَهُ بصلابتهِ، وهو القَصَبةُ التي تكونُ في وسَطِ الرِّيشَةِ، وهو معَ ذلكَ أجوَفُ يشتملُ على الهواءِ، فيحملُ الطَّائرَ، فأيُّ طبيعَةٍ فيها هذه الحكمَةُ والخبرَةُ واللطفُ ؟

ثمَّ لو كانَ ذلكَ في الطَّبيعَةِ كما يقولونَ؛ لكانَت من أدلِّ الدَّلائلِ وأعظمِ

البراهين على قدرَةِ مبدِعِها ومنشئها وعلمهِ وحكمتِهِ، فإنَّهُ لم يكُن ذلكَ لـها من نَفسها بل إنَّـما هو لـها ممَّن خَلَقَها وأبدعَها، فما كذَّبهُ المعطِّلُ هو أحدُ البراهينِ والآياتِ التي على مثلـها يَزدادُ إيمـانُ المؤمنين، وهكذا آياتُ اللَّهِ يُضلُّ به من يشاءُ ويَهدي من يشاءُ .

هذا خلقُ اللّه :

تأمَّل هذا **الطَّائرَ الطَّويلَ السَّاقينِ** واعرف الـمنفعَةَ في طولِ ساقَيهِ، فإنَّهُ يَرعى أكثرَ مرعاه في ضَحضاحِ الماءِ، فتَراهُ يركِّزُ على ساقيهِ كأنَّـهُ دستٌ فوقَ مركبٍ، ويتأمَّل ما دبَّ في الماءِ، فإذا رأى شيئاً من حاجتهِ خطا خطواً رفيقاً حتى يتناولـهُ، ولو كانَ قَصيرَ القائمتين كان إذا خطا نَـحوَ الصَّيدِ ليأخذَهُ لصَقَ بطنُهُ بالماءِ فيثيرَهُ، ويَذعرَ الصَّيدَ منه فيفرَّ، فخُلقَ لـهُ ذلكَ العمودانِ ليُدركَ بهـما حاجتَهُ ولا يُفسدَ عليهِ مطلبُهُ، وكلُّ طائرٍ فلهُ نَصيبٌ من طولِ السَّاقينِ والعُنقِ ليمكنَهُ تناوُلَ الطّعمِ منَ الأرضِ، ولو طالَ ساقاهُ وقصُرَت عنقهُ لم يمكِّنهُ أن يتناوَلَ شيئاً من الأرضِ، وربَّما أُعينَ معَ عنقهِ بطولِ المناقيرِ ليَزدادَ مطلبُهُ سهولَةً عليهِ وإمكاناً .

ثمَّ تأمَّل هذه العصافيرَ كيفَ تطلبُ أكلَها بالنَّهارِ كلِّهِ فلا هي تفقدهُ ولا هيَ تَـجدهُ مجموعاً معدًّاً بل تنالهُ بالـحرَكَةِ والطَّلبِ في الـجهاتِ والنَّواحي، فسبحانَ الذي قدَّرَهُ ويسَّرهُ كيفَ لم يجعلهُ ممَّـا يتعذَّرُ عليها إذا التمستهُ، ويفوتها إذا قَعَدَت عنهُ، وجعلـها قادرَةً عليهِ في كلِّ حينٍ وأوانٍ بكلِّ أرضٍ ومكانٍ حتى منَ الـجدرانِ والأسطحَةِ والسُّقوفِ تناولـهُ بالـهوينا منَ السَّعيِ، فلا

يشاركها فيهِ غيرُ بني جنسها منَ الطَّيرِ، ولو كانَ ما تَقتاتُ به يوجَدُ معدّاً مجموعاً كلَّهُ كانَت الطَّيرُ تشاركها فيهِ وتغلبها عليهِ، وكذلكَ لو وجدتهُ معدّاً مجموعاً لأكبَّت عليهِ بحرصٍ ورَغبَةٍ فلا تقلعُ عنه، وإن شبعَت حتى تبشمَ وتَهلكَ، وكذلكَ النّاسُ لو جُعلَ طعامُهم معدّاً لهم بغَيرِ سَعيٍ ولا تَعَبٍ أدى ذلكَ إلى الشَّرَهِ والبطنَةِ، ولكثرَ الفسادُ وعمَّت الفواحشُ والبَغيُ في الأرض، فسبحانَ اللطيفُ الخبيرُ الذي لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً.

وانظر في هذه الطَّيرِ التي لا تَخرجُ إلّا بالليلِ كالبومِ والهامِ والخفَّاشِ، فإنَّ أقواتها هُيِّئت لها في الجوِّ لا منَ الحبِّ ولا منَ اللحمِ بل من البعوضِ والفراشِ وأشباههما ممَّا تلقطهُ منَ الجوِّ، فتأخذَ منهُ بقَدرِ الحاجَةِ ثمَّ تأوي إلى بيوتها، فلا تَخرج إلى مثلِ ذلكَ الوَقتِ بالليلِ، وذلكَ أنَّ هذه الضُّروب منَ البعوضِ والفراشِ وأشباههما مبثوثَةٌ في الجوِّ لا يكادُ يخلو منها موضعٌ منهُ، واعتبر ذلكَ بأن بأن نَضَع سراجاً بالليلِ في سطحٍ أو عَرَصَةِ الدَّارِ فيجتمعُ عليهِ من هذا الضَّربِ شيءٌ كثيرٌ، وهذا الضَّربُ منَ الفراشِ ونحوها ناقصُ الفطنَةِ ضعيفُ الحيلَةِ ليسَ في الطَّيرِ أضعَفُ منهُ ولا أجهَلُ، وفيما يُرى من تهافتهِ على النَّارِ وأنتَ تَطردهُ عنها حتى يحرقَ نفسَهُ دليلٌ على ذلكَ، فجعَلَ معاش هذه الطُّيورِ التي تخرجُ بالليلِ من هذا الضَّربِ فتقتاتُ منهُ، فإذا أتى النَّهارُ انقَطَعَت إلى أوكارها، فالليلُ لها بمنزلَةِ النَّهارِ لغيرها منَ الطَّيرِ، ونهارُها بمنزلَةِ ليلِ غيرها، ومع ذلكَ فساقَ لها الذي تكفَّلَ بأرزاقِ الخَلقِ رزقَها وخَلَقهُ لها في الجوِّ، ولم يَدعها بلا رزقٍ مع ضعفها وعجزها، وهذه إحدى الحكَم والفوائدِ في خَلقِ هذه الفراشِ والجنادبِ والبَعوضِ، فكم فيها من رزقٍ لأُمَّةٍ تُسبِّحُ بحمدِ

ربِّها، ولولا ذلكَ لانتَشرَت وكثرت حتى أضرَّت بالنَّاسِ ومنعَتهم القرارَ، فانظُر إلى عجيبِ تَقديرِ اللَّهِ وتدبيرِهِ كيفَ اضطرَّ العقولَ إلى أن شهدَت بربوبيَّتِهِ وقدرتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ، وأنَّ ذلكَ الذي تشاهدهُ ليسَ باتِّفاقٍ ولا بإهمالٍ من سائرِ وجوهِ الأدلَّةِ التي لا تتمكَّنُ الفِطَرُ من جَحدها أصلاً .

وإذ قَد جَرى الكلامُ إلى الخفاشِ فهو من الحيواناتِ العَجيبَةِ الخِلقَةِ بين خلقَةِ الطُّيورِ وذواتِ الأربعِ، وهو إلى ذواتِ الأربعِ أقربُ فإنَّهُ ذو أُذنين ناشرتين وأسنانٍ ودُبرٍ وهو يَلِدُ ولداً ويرضعُ ويمشي على أربعٍ، وكلُّ هذه صفَةُ ذواتِ الأربعِ، وله جناحانِ يَطيرُ بهما مع الطُّيورِ، ولما كانَ بَصَرهُ يَضعُفُ عن نورِ الشمسِ كانَ نهارُهُ كليلِ غيرِهِ، فإذا غابَت الشمسُ انتَشَرَ ومن ذلكَ سُمِّي ضَعيفُ البَصَرِ أخفَش، والخَفَشُ ضَعفُ البَصر، ولما كانَ كذلكَ جُعلَ قوَّتُهُ من هذه الطُّيورِ الضِّعافِ التي لا تَطيرُ إلّا بالليل .

وَقَد زَعَمَ بَعضُ مَن تكلَّمَ في الحيوانِ أنَّهُ ليسَ يطعمُ شيئاً، وإنَّما غذاؤهُ منَ النَّسيمِ البَاردِ فقط، وهذا كذبٌ عليهِ وعلى الخِلقَةِ، لأنَّهُ يبولُ وقَد تكلَّمَ الفقهاءُ في بولِهِ هلْ هو نجسٌ، لأنَّهُ بولُ غير مأكولٍ أو نَجسٍ معفوٌّ عنه يَسيرهُ لمشقَّةِ التَّحرُّزِ منه على قولين هما روايتانِ عن أحمد، وبعض الفقهاء لا يَنجسُ بولهُ بحالٍ، وهذا أقيسُ الأقوالِ إذ لا نَصَّ فيهِ، ولا يصحُّ قياسُهُ على الأبوالِ النَّجسَةِ لعَدمِ الجامعِ المؤثِّرِ ووضوحِ الفَرقِ، وليس هذا موضعُ استيفاءِ الحجَجِ في هذه المسألَةِ من الجانبين .

والمقصودُ : أنَّهُ لو كانَ لا يأكلُ شيئاً لم يكُن لهُ أسنانٌ إذ لا معنى للأسنانِ في حقِّ مَن لا يأكلُ شيئاً، ولهذا لما عُدمَ الطِّفلُ الرَّضيعُ الأكلَ لم يُعطَ

الأسنانَ؛ فلمَّا كبرَ واحتاجَ للغذاءِ أُعينَ عليهِ بالأسنانِ التي تقطعهُ والأضراسِ التي تطحنهُ، وليسَ في الخليقَةِ شيءٌ مُهمَلٌ، ولا عن الحكمَةِ بمعطِّلٍ، ولا شيءٌ ولا معنى له، وأمَّا الحكَمُ والمنافعُ في خَلقِ الخفَّاشِ فَقَد ذكرَ منها الأطبَّاءُ في كتبهم ما انتهَت إليهِ معرفتهم حتى إنَّ بولَهُ يدخُلُ في بَعضِ الأكحالِ، فإذا كانَ بولُهُ الذي لا يخطرُ بالبالِ فيهِ منفعَةٌ ألبتَّة فما الظَّنُّ بجملتهِ ؟

ولَقَد أخبَرَ بَعضُ مَن أشهَدُ بصدقهِ أنَّهُ رأى رخماً - وهو طائرٌ معروفٌ - قَد عَشَّشَ في شجرةٍ، فنَظَرَ إلى حيَّةٍ عظيمَةٍ قَد أقبَلَت نحوَ عشهِ فاتحةً فاها لتبتلعهُ، فبينما هو يضطربُ في حيلَةِ النَّجاةِ منها إذ وجَدَ حسكَةً[1] في العشِّ؛ فألقاها في فمِ الحيَّةِ، فلم تَزَل تَلتوي حتى ماتَت .

(١) شوكَة صلبة معروفة .

وأوحى ربك إلى النحل

ثمَّ تأمَّل **أحوالَ النَّحلِ** وما فيها من العِبَرِ والآياتِ، فانظُر إليها وإلى اجتهادِها في صَنعَةِ العَسَلِ، وبنائها البيوت الـمُسدَّسَة التي هي من أتـمِّ الأشكالِ وأحسنِها استدارَةً، وأحكمِها صُنعاً، فإذا انضمَّ بعضُها إلى بَعضٍ لم يكُن بينَها فُرجَةٌ ولا خَلَلٌ كلُّ هذا بغَيرِ قياسٍ ولا آلَةٍ ولا بيكارٍ،وتلكَ من أثَرِ صنعِ اللَّهِ وإلـهامِهِ إيَّاها وإيحائهِ إليها، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوحى ربُّكَ إلى النَّحلِ أنِ اتَّـخِذي منَ الـجبالِ بيوتاً ﴾ إلى قوله : ﴿ لآيات لقَومٍ يتفكَّرون ﴾ [النحل : ٦٨ - ٦٩] .

فتأمَّل كمالَ طاعَتِها وحُسنَ ائتمارِها لأمرِ ربِّها اتَّـخَذَت بيوتها في هذه الأمكنَةِ الثَّلاثَةِ في الـجبالِ والشقفان وفي الشجرِ وفي بيوتِ النَّاسِ حيثُ يعرشونَ أي يبنونَ العروشَ وهي البيوتَ، فلا يُرى للنَّحلِ بيتٌ غيرَ هذه الثَّلاثَةِ ألبتَّة .

وتأمَّل كيفَ أكثرُ بيوتِها في الـجبالِ والشقفانِ وهو البيتُ الـمقدَّمُ في الآيَةِ، ثمَّ في الأشجارِ وهي من أكثَرِ بيوتها، وممَّا يَعرشُ النَّاسُ وأقلُّ بيوتِها بينهم حيثُ يعرشونَ، وأمَّا في الجبالِ والشجرِ فبيوتٌ عظيمَةٌ يؤخَذُ منها من

العَسلِ الكثير جدًّا .

وتأمَّل كيفَ أدَّاها حُسنُ الامتثالِ إلى أن اتَّخذَت البيوتَ أوَّلاً، فإذا استقرَّ لها بيتٌ خرَجَت منهُ؛ فرَعَت وأكلَت منَ الثِّمارِ ثمَّ آوَت إلى بيوتها، لأنَّ ربَّها سبحانهُ أمَرها باتِّخاذِ البيوتِ أوَّلاً ثمَّ بالأكلِ بَعدَ ذلكَ ثمَّ إذا أكلَت سلكَت سُبلَ ربِّها مذلَّلةً لا يَستَوعِرُ عليها شيءٌ تَرعى ثمَّ تعودُ .

ومن عجيبِ شأنِها أنَّ لها أميراً يُسمَّى اليَعسوبُ لا يتمُّ لها رواحٌ ولا إيابٌ ولا عملٌ ولا مَرعى إلّا بهِ، فهيَ مؤتمِرَةٌ لأمرِهِ، سامعَةٌ لهُ مطيعَةٌ، ولهُ عليها تكليفٌ وأمرٌ ونَهيٌ، وهي رعيَّةٌ لهُ منقادَةٌ لأمرِهِ، متَّبعَةٌ لرأيِهِ، يدبِّرُها كما يدبِّرُ الملكُ أمرَ رعيَّتِهِ حتى إنَّها إذا آوَت إلى بيوتها وقَفَ على بابِ البَيتِ فلا يَدعُ واحدَةً تزاحمُ الأخرى ولا تَتَقدَّمَ عليها في العبورِ بل تعبرُ بيوتها واحدَةً بعدَ واحدةٍ بغَيرِ تَزاحُمٍ ولا تَصادُمٍ ولا تراكُمٍ كما يَفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعسكرِهِ إلى معبرٍ ضيِّقٍ لا يجوزهُ إلّا واحدٌ واحدٌ .

ومن تَدَبَّرَ أحوالَها وسياساتِها وهدايتَها واجتماعَ شملِها وانتظامَ أمرِها وتَدبيرَ ملكِها وتفويضَ كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها يتعجَّبُ منها كلَّ العجَبِ، ويعلمُ أنَّ هذا ليسَ في مقدورها، ولا هو من ذاتها، فإنَّ هذه الأعمالَ محكمَةٌ مُتقَنةٌ في غايَةِ الإحكامِ والإتقانِ، فإذا نَظَرتَ إلى العاملِ رأيتهُ من أضعَفِ خَلقِ اللَّهِ وأجهَلهِ بنفسهِ وبحالهِ وأعجزِه عن القيامِ بمصلحتهِ فضلاً عمَّا يَصدرُ عنهُ من الأمورِ العجيبَةِ .

ومن عجيبِ أمرها أنَّ فيها أميرين لا يجتمعانِ في بيتٍ واحدٍ، ولا يتأمرانِ على جمعٍ واحدٍ، بل إذا اجتمَعَ منها جندانِ وأميران قتلوا أحَدَ الأميرين وقطَّعوهُ،

واتَّفقوا على الأميرِ الواحدِ من غيرِ معاداةٍ بينهم ولا أذىً من بعضهم لبَعضٍ بل يصيرونَ يداً واحدةً وجنداً واحداً .

فيه شفاء للنّاس :

ومن أعجَبِ أمرِها ما لا يَهتَدي لـهُ أكثرُ النَّاسِ ولا يَعرفونَهُ، وهو النَّتاجُ الذي يكونُ لـها، هل هو على وجهِ الولادَةِ والتَّوالدِ أو الاستحالَةِ ؟ فقلَّ من يعرفُ ذلكَ أو يَفطنُ له، وليسَ نتاجها على واحدٍ من هذين الوَجهين، وإنَّما نتاجُها بأمرٍ من أعجَبِ العجيبِ، فإنَّها إذا ذَهَبَت إلى المَرعى أخَذَت تلكَ الأجزاءَ الصَّافيَةَ التي على الوَرقِ من الوَردِ والزَّهرِ والحشيشِ وغيرِهِ وهي الطلُّ فتمصُّها، وذلكَ مادَّةُ العَسلِ، ثمَّ إنَّها تكبسُ الأجزاءَ المنعقدَةَ على وجهِ الوَرَقَةِ وتعقدها على رجلها كالعَدَسَةِ؛ فتملأُ بها المسدَّساتِ الفارغَةَ منَ العَسلِ، ثمَّ يقومُ يَعسوبُها على بيتِهِ مبتدئاً منهُ فينفخُ فيهِ، ثمَّ يطوفُ على تلكَ البيوتِ بيتاً بيتاً وينفخُ فيها كلِّها؛ فتدبُّ فيها الحياةُ بإذنِ اللّهِ عَزَّ وجلَّ، فتَتَحرَّكُ وتخرجُ طيوراً بإذنِ اللَّهِ، وتلكَ إحدى الآياتِ والعجائبِ التي قلَّ من يتفطَّنُ لها، وهذا كلُّهُ من ثمرَةِ ذلكَ الوَحيِ الإلهيِّ أفادها وأكسبها هذا التَّدبيرَ والسَّفرَ والمعاشَ والبناءَ والنَّتاجَ .

فَسَل المعطِّلَ : مَن الذي أوحى إليها أمرَها، وجَعَلَ ما جَعَلَ في طباعها ؟

ومَن الذي سهَّلَ لها سُبلَهُ ذُلُلاً منقادَةً لا تَستَعصي عليها ولا تَستَوعِرُها ولا تَضلُّ عنها على بُعدها ؟

ومن الذي هداها لشأنها ؟

ومَن الذي أنزَلَ لها منَ الطلِّ ماءً إذا جَنَتهُ ردَّتهُ عَسلاً صافياً مختلفاً ألوانُهُ في غايَةِ الحلاوَةِ واللذاذَةِ والمنفَعَةِ من بينِ أبيضَ يُرى فيه الوجهُ أعظمَ من رؤيتِهِ في المرآةِ، وَسَمَهُ لي مَن جاءَ به وقال : هذا أفخَرُ ما يعرفُ النَّاسُ من العَسَلِ وأصفاهُ وأطيبهُ، فإذا طعمُهُ ألذُّ شيءٍ يكونُ من الحلوى، ومن بينِ أحمَرَ وأخضَرَ ومُورَّدٍ وأسوَدَ وأشقَرَ وغيرِ ذلك من الألوانِ والطُّعومِ المُختلفَةِ فيهِ بحسَبِ مراعيهِ ومادَّتِها .

وإذا تأمَّلتَ ما فيهِ منَ المنافعِ والشِّفاءِ ودخولهِ في غالبِ الأدويَةِ حتى كانَ المتقدِّمونَ لا يَعرفونَ السُّكَّرَ، ولا هو مذكورٌ في كتبهم أصلاً، وإنَّما كانَ الذي يستعملونهُ في الأدويَةِ هو العسلُ، وهو المذكورُ في كتبِ القومِ، ولعمرُ اللَّهِ إنَّهُ لأنفعُ من السُّكَّرِ، وأجدى وأجلى للأخلاطِ وأقمعُ لها، وأذهَبُ لضررِها، وأقوى للمعدَّةِ، وأشدُّ تَفريحاً للنَّفس وتَقويَةً للأرواحِ، وتَنفيذاً للدَّواءِ وإعانَةً لهُ على استخراجِ الدَّاءِ من أعماقِ البَدنِ، ولهذا لم يجيء في شيءٍ منَ الحديثِ قَط ذكرُ السُّكَّرِ، ولا كانوا يعرفونهُ أصلاً، ولو عُدمَ منَ العالَم لما احتاجَ إليهِ، ولو عُدمَ العسلُ لاشتدَّت الحاجَةُ إليهِ، وإنَّما غَلَبَ على بَعضِ المدنِ استعمالُ السكَّرِ حتى هَجَروا العَسَلَ واستطابوهُ عليهِ ورأوهُ أقلَّ حدَّةً وحرارَةً منهُ، ولم يعلموا أنَّ من منافعِ العَسلِ ما فيهِ من الحدَّةِ والحرارَةِ، فإذا لم يُوافق مَن يستعلمهُ كسَرَها بمقابلها فيصيرُ أنفعَ لهُ من السُّكَّر .

وسنفردُ - إن شاءَ اللَّهُ - مقالَةً نبيِّنُ فيها فَضلَ العَسلِ على السكَّرِ من طرقٍ عَديدَةٍ لا تُمنعُ، وبراهينُ كثيرةٍ لا تُدفعُ، ومتى رأيتَ السكَّرَ يجلوا بلغَماً، ويذيبُ خلطاً، أو يَشفي من داءٍ، وإنَّما غايتُهُ بعضُ التَّنفيذِ للدَّواءِ إلى العروقِ

للطافتهِ وحلاوتهِ، وأمَّا الشفاءُ الحاصلُ منَ العسلِ فَقَد حرَمهُ اللَّهُ كثيراً منَ النَّاسِ حتى صاروا يَذمُّونهُ ويخشونَ غائلتهُ من حرارتهِ وحدَّتهِ، ولا ريبَ أنَّ كونَهُ شفاءً، وكونَ القرآنِ شفاءً، والصَّلاةَ شفاءً، وذكَرَ اللَّهَ والإقبالَ عليهِ شفاءً، أمرٌ لا يعمُّ الطَّبائعَ والأنفسَ، فهذا كتابُ اللَّهِ هو الشفاءُ النَّافعُ، وهو أعظمُ الشفاءِ، وما أقلَّ المستشفين به بل لا يَزيدُ الطَّبائعَ الرَّديئةَ إلّا رداءَةً، ولايَزيدُ الظَّالمينَ إلّا خساراً، وكذلكَ ذكرُ اللَّهِ والإقبالُ عليهِ والإنابَةُ إليهِ والفزعُ إلى الصَّلاةِ كم قَد شفيَ بهِ من عليلٍ ؟ وكم قَد عوفيَ به من مَريضٍ ؟ وكم قامَ مقامَ كثيرٍ من الأدويَةِ التي لا تبلغُ قريباً من مبلغهِ في الشفاءِ ؟ وأنتَ تَرى كثيراً منَ النَّاسِ بل أكثرهم لا نَصيبَ لهم منَ الشفاءِ بذلكَ أصلاً، ولَقَد رأيتُ في بَعضِ كتبِ الأطبَّاءِ المُسلمين في ذكرِ الأدويَةِ المُفرَدَةِ ذكرَ الصَّلاةِ، ذكرَها في بابِ الصَّاد، وذكرَ من منافعها في البَدنِ التي توجبُ الشِّفاءَ وجوهاً عديدَةً ومن منافعها في الرُّوحِ والقَلبِ .

وسمعتُ شيخَنا أبا العبَّاس ابن تيميَّة رحمهُ اللَّه يقول : وقَد عُرضَ لهُ بَعضُ الألمِ ،فقال له الطَّبيبُ : أضرُّ ما عليكَ الكلامُ في العلمِ، والفكرُ فيهِ، والتوجُّهُ والذكرُ، فقال : ألستُم تَزعمونَ أنَّ النَّفسَ إذا قويَت وفَرحَت أوجَبَ فرحُها لها قوَّةً تَعينُ بها الطَّبيعَة على دَفعِ العارضِ، فإنَّهُ عدوُّها، فإذا قويَت عليهِ قَهَرتهُ ؟

فقال له الطَّبيبُ : بلى .

فقال : إذا اشتغَلت نَفسي بالتَّوجُّهِ والذِّكرِ والكلامِ في العلمِ، وظفرَت بما يشكلُ عليها منهُ، فرِحَت بهِ وقَويَت، فأوجَبَ ذلكَ دفعَ العارضَ هذا، أو نَحوَهُ

من الكلامِ .

والمقصودُ : أنَّ تركَ كثيرٍ من النَّاسِ الاستشفاءَ بالعَسَلِ لا يخرجُهُ عن كونهِ شفاءً، كما أنَّ تَركَ أكثرهم الاستشفاءَ بالقرآنِ من أمراضِ القلوبِ لا يخرجُهُ عن كونهِ شفاءً لها، وهو شفاءٌ لما في الصُّدورِ، وإن لم يستَشفِ به أكثرُ المَرضى كما قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ من ربِّكُم وشفاءٌ لما في الصُّدورِ وهدىً ورحمَةٌ للمُومنين ﴾ [يونس : ٥٧]، فعمَّ بالمَوعظَةِ والشفاءِ، وخصَّ بالهُدى والمعرفَةِ، فهو نفسهُ شفاءٌ استُشفِيَ به أو لم يُستَشفَ به، ولم يَصِف اللَّهُ في كتابِه بالشفاءِ إلّا القرآنَ والعَسَلَ، فهما الشفاآنِ، هذا شفاءُ القلوبِ من أمراضِ غيِّها وضلالها وأدواءِ شُبهاتِها وشهواتِها، وهذا شفاءٌ للأبدانِ من كثيرٍ من أسقامِها وأخلاطِها وآفاتِها .

وَلَقَد أصابني أيَّام مقامي بمكَّةَ أسقامٌ مختَلفَةٌ ولا طَبيبٌ هناكَ ولا أدوِيَةٌ كما في غيرها من المُدنِ، فكنتُ استَشفي بالعَسلِ وماءِ زَمزَمَ، ورأيتُ فيهما مِنَ الشفاءِ أمراً عجباً .

وتأمَّل إخبارَهُ سبحانهُ وتعالى عن القرآنِ بأنَّهُ نَفسهُ شفاءٌ، وقال عن العَسَل : ﴿ فيهِ شفاءٌ للنَّاسِ ﴾ [النحل : ٦٩]، وما كانَ نَفسُهُ شفاءً أبلَغ ممَّا جُعلَ فيهِ شفاءٌ، وليسَ هذا موضعَ استقصاءِ فوائدِ العَسلِ ومنافعهِ .

وإنّ لكم في الأنعامِ لعِبرةً

ثمَّ تأمَّل العبرَةَ التي ذكرَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ في **الأنعامِ**، وما سقانا من بطونِها منَ اللَّبنِ الخالصِ السَّائغِ الهنيءِ المريءِ الخارجِ من بينِ الفَرثِ والدَّمِ، فتأمَّل كيفَ ينزلُ الغذاءُ من أفواهها إلى المعدَةِ، فينقلبُ بعضُهُ دماً بإذنِ اللَّهِ، وما يَسري في عروقها وأعضائِها وشعورِها ولحومِها، فإذا أرسلتهُ العروقُ في مجاريها إلى جملَةِ الأجزاءِ قلبَهُ كلُّ عضوٍ وعَصَبٍ وغُضروفٍ وشعرٍ وظُفرٍ وحافرٍ إلى طبيعتهِ، ثمَّ يبقى الدَّمُ في تلكَ الخزائنِ التي لهُ إذ بهِ قوامُ الحيوانِ ثمَّ يَنصبُ ثقلُهُ إلى الكِرْشِ، فيَصيرُ زِبلاً ثمَّ ينقلبُ باقيهِ لبناً صافياً أبيضَ سائغاً للشاربينَ، فيخرجُ من بينِ الفَرثِ والدَّمِ حتى إذا أُنْهكَت الشاةُ أو غيرُها حَلباً خَرَجَ الدَّمُ مشوباً بحمرَةٍ، فصفَّى اللَّهُ سبحانهُ الألطَفَ من الثفل بالطَّبخِ الأوَّلِ، فانفَصَلَ إلى الكبدِ وصارَ دماً وكانَ مخلوطاً بالأخلاطِ الأربعَةِ، فأذهَبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كلَّ خَلطٍ منها إلى مقرِّهِ وخزانتهِ المُهيَّأةِ له منَ المرارَةِ والطُّحالِ والكليَةِ وباقي الدَّمِ الخالصِ يدخُلُ في أوردَةِ الكبدِ فينصبُّ من تلكَ العروقِ إلى الضَّرعِ، فيقلبُهُ اللَّهُ تبارَكَ وتعالى من صورَةِ الدَّمِ وطبعهِ وطعمهِ إلى صورَةِ اللبنِ وطبعهِ وطعمهِ، فاستُخرِجَ منَ الفَرثِ والدَّمِ .

فَسَل المعطِّلَ الجاحدَ : منَ الذي دبَّرَ هذا التَّدبيرَ، وقدَّرَ هذا التَّقديرَ، وأتقَنَ هذا الصُّنعَ، ولَطَفَ هذا اللطفَ، سوى اللطيفُ الخبيرُ ؟!

السَّمَكُ :

ثمَّ تأمَّل العِبرَةَ في **السَّمكِ** وكيفيَّةِ خِلقَتِهِ، وأنَّهُ خُلقَ غيرَ ذي قوائمَ لأنَّهُ لا يَحتاجُ إلى المشيِ إذ كانَ مسكنُهُ الماءَ، ولم يُخلَق له رئةٌ؛ لأنَّ منفعَةَ الرِّئةِ التَّنفُّسُ، والسَّمكُ لم يَحتَج إليهِ لأنَّهُ ينغمسُ في الماءِ، وخُلقَت له عوضَ القوائمِ أجنحةٌ شدادٌ يَقذفُ بها من جانبيهِ كما يَقذفُ صاحبُ المركبِ بالمقاذيفِ من جانبي السَّفينَةِ، وكسي جلدُهُ قشوراً متداخَلَةً كتداخُلِ الجَوشنِ[1] ليَقيهُ من الآفاتِ، وأُعينَ بقوَّةِ الشَّمِّ لأنَّ بَصَرهُ ضَعيفٌ والماءُ يحجُبُهُ، فصارَ يشمُّ الطَّعامَ من بُعدٍ فيَقصدَهُ .

وقد ذُكرَ في بَعضِ كتُبِ الحيوانِ : أنَّ مِن فيهِ إلى صماخهِ منافذَ، فهو يصبُّ الماءَ فيها بفيهِ ويرسلُهُ من صماخَيهِ، فيتروَّحُ بذلكَ كما يأخذُ الحيوانُ النَّسيمَ الباردَ بأنفهِ ثمَّ يرسلهُ ليتروَّحَ به[2]، فإنَّ الماءَ للحيوانِ البَحريِّ كالهواءِ للحيوانِ البريِّ، فهما بحرانِ أحدُهما ألطَفُ من الآخَرِ؛ بحرُ هواءٍ يسبحُ فيهِ حيوانُ البرِّ، وبحرُ ماءٍ يَسبحُ فيهِ حيوانُ البَحرِ، فلو فارَقَ كلٌّ من الصِّنفَينِ بحرَهُ إلى البَحرِ الآخَرِ ماتَ، فكما يَختنقُ الحيوانُ البريُّ في الماءِ يختنقُ الحيوانُ البحريُّ في الهواءِ، فسبحانَ من لا يُحصي العادُّونَ آياتهِ، ولا يحيطونَ بتفصيلِ

---

(١) هو الدِّرع .

(٢) يتنفس السَّمكُ الأوكسجين المذاب في الماء بواسطة خياشيمه .

آيَةٍ منها على الانفرادِ بل إن علموا فيها وجهاً جَهلوا منها أوجُهاً .

فتأمَّل الحكمَةَ البالغَةَ في كونِ السَّمَكِ أكثَرَ الحيوانِ نَسلاً، ولهذا تَرى في جوفِ السَّمكَةِ الواحدَةِ منَ البَيضِ مالا يُحصى كثرَةً .

وحكمَةُ ذلكَ أن يتَّسعَ لما يَغتَذي به من أصنافِ الحيوانِ؛ فإنَّ أكثرَها يأكلُ السَّمَكَ حتى السِّباعَ، لأنَّها في حافاتِ الآجامِ جاثمَةً تعكفُ على الماءِ الصَّافي، فإذا تَعذَّرَ عليها صَيدُ البَرِّ رَصَدَت السَّمكَ فاختَطفتهُ، فلما كانَت السِّباعُ تأكلُ السَّمَكَ والطَّيرُ تأكلُهُ والنَّاسُ تأكلُهُ والسِّماكُ الكبارُ تأكلهُ ودوابُّ البَرِّ تأكلُهُ وقَد جعلهُ اللَّهُ سبحانهُ غذاءً لهذه الأصنافِ اقتَضَت حكمتُهُ أن يكونَ بهذه الكثرَةِ، ولو رأى العبدُ ما في البَحرِ من ضروبِ الحيواناتِ والجواهرِ والأصنافِ التي لا يُحصيها إلّا اللَّهُ ولا يَعرفُ النَّاسُ منها إلّا الشيءَ القليلَ الذي لا نسبَةَ لهُ أصلاً إلى ما غابَ عنهم، لرأى العَجَبَ، ولعَلِمَ سِعَةَ مُلكِ اللَّهِ، وكثرَةَ جنودِهِ التي لا يعلمها إلّا هوَ .

الجراد :

وهذا **الجرادُ** وهو جندٌ من جنودِ اللَّهِ، ضَعيفُ الخِلقَةِ، عجيبُ التَّركيبِ، فيهِ خَلقُ سبعِ حيواناتٍ، فإذا رأيتَ عساكرَهُ قَد أقبَلَت أبصرتَ جُنداً لا مردَّ لـه، ولا يُحصى منهُ عَددٌ ولا عدَّةٌ، فلو جمعَ الملكُ خيلَهُ ورجلَهُ ودوابَّهُ وسلاحَهُ ليصدَّهُ عن بلادهِ لما أمكنهُ ذلكَ، فانظُر كيفَ ينسابُ على الأرضِ كالسَّيلِ، فيَغشى السَّهلَ والجبَلَ والبَدوَ والحضَرَ حتى يَسترَ نورَ الشمسِ بكثرتهِ، ويسدَّ وجهَ السَّماءِ بأجنحتهِ، ويبلغَ منَ الجوِّ إلى حيثُ لا يبلغُ طائرٌ

أكبر جناحين منه .

فَسَلِ المُعطِّلَ : من الذي بَعَثَ هذا الجُندَ الضَّعيفَ الذي لا يَستطيعُ أن يردَّ عن نفسهِ حيواناً رامَ أخذهُ بليَّةً على العسكرِ أهلِ القوَّةِ والكثرَةِ والعَدِدِ والحيلَةِ، فلا يَقدرونَ بأجمعهم عل دفعهِ بل ينظرونَ إليهِ يستبدُّ بأقواتِهم دونَهُم، ويمزِّقُها كلَّ مُمزَّقٍ، ويذرُ الأرضَ قَفراً منها وهم لا يَستطيعونَ أن يَردُّوهُ، ولا يحولوا بينهُ وبينها ؟

وهذا من حكمتهِ سبحانهُ أن يسلِّطَ الضَّعيفَ من خَلْقِهِ الذي لا مؤنَةَ لهُ على القويِّ فينتقم به منهُ، وينزل به ما كانَ يحذرهُ منهُ حتى لا يَستطيعَ لذلكَ ردّاً ولا صَرفاً، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ونُريدُ أن نمُنَّ عَلى الَّذينَ استُضعفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُم أئمَّةً ونَجعَلَهُم الوارثِينَ * ونُمكِّنَ لهُم في الأرضِ ونُريَ فِرعَونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يَحذَرون ﴾ [القصص : ٥ - ٦] .

فواحسرتاهُ على استقامَةٍ معَ اللَّهِ وإيثارٍ لمرضاتهِ في كلِّ حالٍ يُمَكِّنُ به الضَّعيفُ المُستَضعَفُ حتى يَرى من استَضعفَهُ أنَّهُ أولى باللَّهِ ورسولهِ منهُ، ولكن اقتَضَت حكمَةُ اللَّهِ العَزيزِ الحكيمِ أن يأكلَ الظَّالمُ الباغي ويتمتَّعَ في خفارَةِ ذنوبِ المظلومِ المبغيِّ عليهِ، فذنوبُهُ من أعظَمِ أسبابِ الرَّحمَةِ في حقِّ ظالمِهِ كما أنَّ المسؤولَ إذا ردَّ السَّائلَ فهو في خفارَةِ كذبهِ، ولو صَدَقَ السَّائلُ لما أفلَحَ من ردَّهُ، وكذلكَ السَّارقُ وقاطعُ الطَّريقِ في خفارَةِ منعِ أصحابِ الأموالِ حقوقَ اللَّهِ فيها، ولو أدُّوا ما للَّهِ عليهم فيها لحفِظَها اللَّهُ عليهم .

وهذا أيضاً بابٌ عظيمٌ من حكمَةِ اللَّهِ يطلعُ النَّاظرُ فيهِ على أسرارٍ من أسرارِ التَّقديرِ، وتَسليطِ العالمِ بعضهم على بَعضٍ، وتمكينِ الجُناةِ والبُغاةِ،

فسبحانَ مَن لهُ في كلِّ شيءٍ حكمَةٌ بالغَةٌ وآيَةٌ باهرَةٌ حتى إنَّ الحيواناتِ العاديَّةِ على النَّاسِ في أموالِهم وأرزاقِهم وأبدانِهم تَعيشُ في خفارَةِ ما كسَبَت أيديهم، ولولا ذلكَ لم يُسلِّط عليهم منها شيءٌ .

ولعلَّ هذا الفَصلَ الاستطراديَّ أنفعُ لمتأمِّلهِ من كثيرٍ من الفصولِ المتقدِّمَةِ، فإنَّهُ إذا أعطاهُ حقَّهُ منَ النَّظرِ والفكرِ عَظُمَ انتفاعُهُ به جدّاً، واللَّهُ الموفِّق .

ويُحكى : أنَّ بَعضَ أصحابِ الماشيَةِ كانَ يشوبُ اللَّبنَ ويبيعُهُ على أنَّهُ خالصٌ، فأرسلَ اللَّهُ عليهِ سيلاً؛ فذَهَبَ بالغَنمِ، فجعَلَ يعجبُ، فأُتيَ في منامهِ فقيلَ له : أتَعجَبُ من أخذِ السَّيلِ غنمكَ ؟ إنَّهُ تلكَ القَطراتِ التي شبتَ بها اللَّبنَ اجتَمعَت وصارَت سيلاً .

فقِس على هذه الحكايَةِ ما تراهُ في نَفسكَ وفي غيركَ، تَعلَم حينئذٍ أنَّ اللَّهَ قائمٌ بالقسطِ، وأنَّهُ قائمٌ على كلِّ نَفسٍ بما كَسَبَت، وأنَّهُ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ .

وتأمَّل حكمَةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في حبسِ الغَيثِ عن عبادهِ، وابتلائهم بالقَحطِ إذ منَعوا الزَّكاةَ، وحَرموا المساكينَ، كيفَ جوزوا على منعِ ما للمساكينِ قبلهم من القوتِ بمنعِ اللَّهِ مادَّةَ القوتِ والرِّزقِ وحبسها عنهم، فقال له بلسانِ الحالِ : منعتُم الحقَّ، فمُنعتُم الغَيثَ فهلّا استنزلتُموهُ ببَذلِ ما للَّهِ قبلكُم .

وتأمَّل من حكمَةِ اللَّهِ تعالى في صَرفهِ الهُدى والإيمانَ عن قلوبِ الذينَ يَصرفونَ النَّاسَ عنهُ، فصدَّهُم عنهُ كما صدُّوا عبادَهُ صدّاً بصدٍّ ومنعاً بمنعٍ .

وتأمَّل حكمتَهُ تعالى في محقِ أموالِ المُرابينَ، وتَسليطِ المُتلفاتِ عليها،

كما فعَلوا بأموالِ النَّاسِ ومحقوها عليهم وأتلفوها بالرِّبا جُوزوا إتلافاً بإتلافٍ، فقلَّ أن تَرى مُرابياً إلّا وآخرتُهُ إلى محقٍ وقلَّةٍ وحاجَةٍ .

وتأمَّل حكمتَهُ تعالى في تَسليطِ العدوِّ على العبادِ إذا جارَ قويُّهُم على ضَعيفهم، ولم يؤخَذ للمظلومِ حقُّهُ من ظالمِهِ، كيفَ يسلِّطُ عليهم مَن يفعلُ بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواءً .

وهذه سنَّةُ اللَّهِ تعالى منذ قامَت الدُّنيا إلى أن تُطوى الأرضُ، ويُعيدها كما بدأها .

وتأمَّل حكمَتَهُ تعالى في أن جَعَلَ ملوكَ العبادِ وأُمراءَهُم وولاتَهُم من جنسِ أعمالهم، بل كأنَّ أعمالَهم ظَهَرَت في صورِ ولاتِهم وملوكِهم، فإن استقاموا استقامَت ملوكهُم، وإن عَدَلوا عَدلت عليهم، وإن جاروا جارَت ملوكُهُم وولاتُهُم، وإن ظَهَرَ فيهم المكرُ والخديعَةُ فولاتُهُم كذلكَ، وإن منَعوا حقوقَ اللَّهِ لديهم وبَخلوا بها منعَت ملوكُهُم وولاتُهم ما لهم عندَهم منَ الحقِّ وبخلوا بها عليهم، وإن أخَذوا ممَّن يَستَضعفونهُ ما لا يَستَحقُّونهُ في معاملتِهم أخذَت منهم الملوكُ ما لا يَستحقُّونهُ، وضربَت عليهم المكوس والوظائف، وكلَّما يَستخرجونهُ منَ الضَّعيفِ يستخرجهُ الملوكُ منهم بالقوَّةِ، فعمَّالهم ظَهَرَت في صوَرِ أعمالهم، وليسَ في الحكمَةِ الإلهيَّةِ أن يولَّى على الأشرارِ الفجَّارِ إلّا مَن يكونُ من جنسهم، ولمَّا كانَ الصَّدرُ الأوَّلُ خيارَ القرونِ وأبرَّها كانَت ولاتُهم كذلكَ، فلمَّا شابوا شابَت لهم الولاةُ، فحكمَةُ اللَّهِ تأبى أن يُوَلِّي علينا في مثلِ هذه الأزمانِ مثلَ مُعاوَيَةَ وعمرَ بن عبدالعَزيزِ فَضلاً عن مثلِ أبي بكرٍ وعمرَ بل وُلاتُنا على قَدرنا، وولاةُ مَن قبلنا على قَدرهم، وكلٌّ من الأمرين موجبُ الحكمةِ

ومُقتضاها، ومَن له فطنَةٌ إذا سافَرَ بفكرِهِ في هذا البابَ رأى الحكمَةَ الإلـهيَّةَ سائرَةً في القضاءِ والقَدرِ، ظاهرَةً وباطنَةً فيهِ كما في الـخَلقِ والأمرِ سواءً، فإيَّاكَ أن تَظنَّ بظنِّكَ الفاسدِ أنَّ شيئاً من أقضيتِه وأقدارِهِ عارٍ عن الحكمَةِ البالغَةِ بل جميعُ أقضيتِهِ تعالى وأقدارِهُ واقعَةٌ على أتمِّ وجوهِ الحكمَةِ والصَّوابِ، ولكنَّ العقولَ الضَّعيفَةَ محجوبَةٌ بضَعفِها عن إدراكِها كما أنَّ الأبصارَ الخفَّاشيَّةَ محجوبَةٌ بضعفها عن ضوءِ الشمسِ، وهذه العقولُ الضِّعافُ إذا صادَفَها الباطلُ جالَت فيهِ وصالَت، ونَطَقَت وقالت كما أنَّ الـخفَّاش إذا صادفهُ ظلامُ الليلِ طارَ وسارَ:

خفافيشُ أعشاها النَّهارُ بضوئِهِ

ولازَمها قِطَعٌ منَ الليلِ مُظلِمُ

وتأمَّل حكمتَهُ تبارَكَ وتعالى في عقوباتِ الأُمَمِ الخاليَةِ وتنويعها عليهم بحسبِ تنوُّعِ جرائِمِهم، كما قال تعالى: ﴿ وعاداً وثمودَ وقَد تبيَّنَ لكُم مِن مساكِنِهِم ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ... يظلمونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨ - ٤٠].

وتأمَّل حكمتَهُ تعالى في مسخِ مَن مسخَ منَ الأُمَمِ في صوَرٍ مختلفَةٍ مناسبَةٍ لتلكَ الجرائمِ، فإنَّها لما مُسخَت قلوبهم وصارَت على قلوبِ تلكَ الحيواناتِ وطباعِها اقتَضَت الحكمَةُ البالغَةُ أن جُعلَت صورُهم على صوَرِها، لتَتمَّ المُناسَبَةُ ويكملُ الشَّبهُ، وهذا غايةُ الحكمَةِ، واعتبر هذا بمَن مُسخوا قرَدَةً وخنازيرَ كيفَ غلبَت عليهم صفاتُ هذه الحيواناتِ وأخلاقُها وأعمالُها، ثمَّ إن كنتَ منَ المُتوسِّمينَ فاقرأ هذه النُّسخَةَ من وجوهِ أشباهِهم ونظرائهم كيفَ تراها باديَةً

عليها وإن كانَت مَستورَةً بصورَةِ الإنسانيَّةِ .

واقرأ نسخَةَ القردَةِ من صورِ أهلِ المكرِ والخَديعَةِ والفسقِ الذينَ لا عقولَ لـهم بل هم أخفُّ النَّاسِ عقولاً، وأعظمُهم مكراً وخداعاً وفسقاً، فإن لم تَقرأ نسخَةَ القرَدَةَ من وجوهِهِم فلَستَ من المُتوسِّمينَ .[1]

واقرأ نسخَةَ الخنازيرِ من صوَرِ أشباههم ولا سيَّما أعداءُ خيارِ خَلقِ اللَّهِ بعدَ الرُّسلِ وهم أصحابُ رسولِ اللَّه ﷺ، فإنَّ هذه النُّسخَةَ ظاهرَةٌ على وجوهِ الرَّافضَةِ يقرأُها كلُّ مؤمنٍ كاتبٍ وغير كاتبٍ، وهي تظهرُ وتَخفى بحسبِ خنزيريَّةِ القلبِ وخبثِهِ، فإنَّ الخنزيرَ أخبثُ الحيواناتِ وأردؤها طباعاً، ومن خاصيَّتهِ أنَّهُ يَدعُ الطيِّباتِ فلا يأكلها، ويقومُ الإنسانُ عن رجيعهِ فيبادرُ إليهِ .

فتأمَّل مطابَقَةَ هذا الوَصفِ لأعداءِ الصَّحابَةِ كيفَ تجدُهُ منطبقاً عليهم، فإنَّهُم عَمَدوا إلى أطيَبِ خَلقِ اللَّهِ وأطهرِهم، فعادوهم، وتبرَّؤوا منهم، ثمَّ والوا كلَّ عدوٍّ لهم منَ النَّصارى واليَهودِ والمُشركينَ، فاستَعانوا في كلِّ زمانٍ على حَربِ المؤمنينَ المُوالينَ لأصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمُشركينَ والكفَّارِ[2]،

---

(١) وكذلك فاقرأ هذه النسخة في صور المستغربين العلمانيين والحداثين من هذه الأمَّة الذين مسخت عقولهم وأفكارهم وقيمهم وتصوراتهم، فتنوا بمدينة الرجل الأبيض حتى أضحى صيد مخططات أبناء القردة في سرور يحسب نفسه على شيء؛ لأنَّه انعتق من أسر القديم أي قديم .

ولذلك تجدهم يحاكون بني الأصفر في كل شرٍّ، ويجلبون من وراء البحار كل ضر.

(٢) هذا التأصيل الإيماني من هذا العالم الرباني وشيخ الإسلام الثاني لم نزل نراه ماثلاً أمام المتوسمين في كل عصر ومصر، فهاهم الروافض يعيثون فساداً في العالم، ويتحالفون مع كل عدو لأهل السُّنة . =

وصرَّحوا بأنَّهُم خيرٌ منهم، فأيُّ شبَهٍ ومناسَبةٍ أولى بهذا الضَّربِ منَ الخنازيرِ، فإن لم تقرأ هذه النُّسخَةَ من وجوههم فلستَ من المُتوسِّمين.[1]

وأمَّا الأخبارُ التي تكادُ تبلغُ حدَّ التَّواترِ بمَسخِ مَن مُسخَ منهم عندَ الموتِ خنزيراً فأكثرُ من أن تذكرَ ههُنا، وقد أفرَدَ لها الحافظُ ابن عبدالواحدِ المَقدسيّ كتاباً.

وتأمَّل حكمتَهُ تعالى في عذابِ الأُمَمِ السَّالفَةِ بعذابِ الاستئصالِ لما كانوا أطوَلَ أعماراً، وأعظَمَ قوىً، وأعتى على اللَّهِ وعلى رسولهِ، فلما تَقاصَرَت الأعمارُ وضعفَت القُوى رُفعَ عذابُ الاستئصالِ، وجُعِلَ عذابُهم بأيدي المُؤمنين، فكانَت الحكمَةُ في كلٍّ واحدٍ من الأمرينِ ما اقتضَتهُ في وَقتِهِ.

وتأمَّل حكمَتَهُ تبارَكَ وتعالى في إرسالِ الرُّسلِ في الأُمَمِ واحداً بَعدَ واحدٍ، كلَّما ماتَ واحدٌ خَلفهُ آخرُ، لحاجتها إلى تَتابُعِ الرُّسلِ والأنبياءِ،

= ولكن عجبي لا ينقضي من بعض أهل السُّنة الذين لم يزالوا مخدوعين بكذب وإفك آيات إبليس في « طهران » و « قم » على الرغم مما حلَّ بهم أو قريباً منهم (!)

(١) وكذلك فاقرأ النسخة الخنزيرية في صور الذين استنوقوا فذهبت غيرتهم على عقيدتهم وأعراضهم، فأضحوا كما قال القائل :

أبُنَـيَّ إنَّ مـن الرِّجـال بهـيمـةً ... في صورة الرجل السَّميع المبصر
فَطِـنٌ بكـلِّ مصيبـة في مالـه ... فإذا أصيـب بدينـه لـم يشعـر

ولذلك فقد استبعرت النساء، فكثر الخبث ... فالهلاك الهلاك .

ما كانـت العذراء تبـدي سترهـا ... لو كان في هذي الجموع رجال

والرجولة لا تعني الفحولة بل هي صفة كمال ترقى بالمجتمع المسلم إلى علياء الاستقامة وقمَّة الاستقرار .

وانظر بحثاً نفيساً حولها في مجلّتنا : « **الأصالة** » العدد الثاني (ص ٥ - ٦) .

لضَعفِ عقولـها، وعَدمِ اكتفائها بآثارِ شريعَةِ الرَّسولِ السَّابقِ، فلمَّا انتهَت النُّبوَّةُ إلى مُحمَّدِ بن عبدِاللَّهِ رسولِ اللَّهِ ونبيِّه أرسلهُ إلى أكملِ الأمَمِ عقولاً ومعارفَ، وأصحَّها أذهاناً، وأغزرِها علوماً، وبَعثهُ بأكمَلِ شريعَةٍ ظَهَرَت في الأرضِ منذ قامَتِ الدُّنيا إلى حينِ مَبعثِهِ، فأغنى اللَّهُ الأمَّةَ بكمالِ رسولـها وكمالِ شريعتهِ وكمالِ عقولِـها وصحَّةِ أذهانِها عن رسولٍ يأتي بَعدَهُ، أقامَ لـهُ من أُمَّتِهِ ورثَةً يحفظونَ شريعتَهُ، ووكَّلـهم بها حتى يؤدُّوها إلى نُظرائِهم، ويَزرعوها في قلوبِ أشباهِهم، فلم يَحتاجوا معهُ إلى رسولٍ آخرَ، ولا نبيٍّ، ولا مُحدثٍ، ولـهذا قال ﷺ : « إنَّـهُ قَد كانَ قبلَكُم في الأُمَـمِ مَحدَّثونَ فإن يكُن في أُمَّتي أحدٌ فعمرُ » .(١)

فجزَمَ بوجودِ المُحدثين في الأُمَمِ وعلَّقَ وجودَهُ في أُمَّتهِ بحرفِ الشرطِ، وليسَ هذا بنقصانٍ في الأُمَّةِ على مَن قبلـهم، بل هذا من كمال أُمَّتِه على من قبلها، فإنَّها لكمالِها وكمالِ نبيِّها وكمالِ شريعته لا تحتاج إلى مُحَدَّثٍ، بل إن وُجدَ فهو صالحٌ للمتابَعَةِ والاستشهادِ لا أنَّهُ عُمدَةٌ، لأنَّـها في غُنيَةٍ بما بَعَثَ اللَّهُ به نبيَّها عن كلِّ منامٍ أو مُكاشفَةٍ أو إلـهامٍ أو تَحديثٍ، وأمَّا مَن قبلـها فللحاجَةِ إلى ذلكَ جُعلَ فيهم المُحدثون .

ولا تظنَّ أنَّ تَخصيصَ عمرَ رضيَ اللَّهُ عنهُ بهذا تَفضيلٌ لهُ على أبي بكرٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٦ / ١٢ و ٧ / ٤٢ - فتح) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

وأخرجه مسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة - رضي الله عنها .

وعند مسلم، قال عبدالله بن وهب : تفسير محدثون : ملهمون .

الصِّدِّيق بل هذا من أقوى مناقبِ الصِّدِّيقِ، فإنَّهُ لكمالِ مَشربهِ من حَوضِ النُّبوَّةِ، وتمامِ رضاعهِ من ثَدي الرِّسالَةِ استغنى بذلكَ عمَّا تَلقَّاهُ من تَحديثٍ أو غيرهِ، فالذي يتلقَّاهُ من مشكاةِ النُّبوَّةِ أتمُّ منَ الذي يتلقَّاهُ عمرُ من التَّحديثِ، فتأمَّل هذا الموضعَ، وأعطهِ حقَّهُ منَ المعرفَةِ، وتأمَّل ما فيهِ من الحكمَةِ البالغَةِ الشاهدَةِ للَّهِ بأنَّهُ الحكيمُ الخَبيرُ، وأنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ أكملُ خلقِهِ، وأكملُهُم شريعَةً، وإنَّ أُمَّتَهُ أكملُ الأُمَمِ، وهذا فَصلٌ معتَرضٌ وهو أنفعُ فصولِ الكتابِ، ولولا الإطالَةِ لوسَّعنا فيهِ المقالُ، وأكثَرنا فيهِ منَ الشواهدِ والأمثالِ، ولَقَد فتَحَ اللَّهُ الكريمُ فيه البابَ، وأرشدَ فيهِ إلى الصَّواب، وهو المَرجو لتمامِ نعمتهِ، ولا قوَّةَ إلّا باللَّهِ العليِّ العظيم .

قصدُ السَّبيل في الحكمةِ والتعليل

ومن حكمتهِ سبحانهُ ما مَنَعهُم منَ العلمِ علمِ السَّاعَةِ ومعرفَةِ آجالـهم وفي ذلكَ منَ الـحكمَةِ البالغَةِ مالا يَـحتاجُ إلى نَظرٍ؛ فلو عَرَفَ الإنسانُ مقدارَ عمرهِ فإن كانَ قَصيرَ العمرِ لم يتهنَّأ بالعَيشِ، وكيفَ يتهنَّأ به وهو يترقَّبُ الموتَ في ذلكَ الوَقتِ ؟ فلولا طولُ الأملِ لـخربَت الدُّنيا، وإنَّـما عمارتُها بالآمـالِ، وإن كانَ طويلَ العمرِ وقَد تَـحقَّقَ ذلكَ، فهو واثقٌ بالبَقاءِ، فلا يُبالي بالانهمـاكِ في الشهواتِ والمعاصي وأنواعِ الفَسادِ ويقولُ : إذا قَرُبَ الوَقتُ أحدَثتُ تَوبَةً، وهذا مذهَبٌ لا يَرتضيهُ اللَّهُ تعالى عزَّ وجلَّ من عبادهِ، ولا يقبلهُ منهم، ولا تَصلحُ عليهِ أحوالُ العالمِ ،ولا يَصلحُ العالمُ إلّا على هذا الذي اقتَضَتهُ حكمتُهُ، وسَبَقَ في علمهِ، فلو أنَّ عَبداً من عبيدكَ عملَ على أن يُسخطُكَ أعواماً ثمَّ يُرضيكَ ساعَةً واحدَةً إذا تَيَقَّنَ أنَّهُ صائرٌ إليكَ لم تَقبَل منهُ، ولو يفز لديكَ بمـا يفوزُ به من همُّهُ رضاكَ، وكذا سنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ أنَّ العَبدَ إذا عايَنَ الانتقالَ إلى اللَّهِ تعالى لم يَنفعهُ توبةٌ ولا إقلاعٌ، قال تعالى : ﴿ ولَـيسَت التَّوبَةُ للذَّينَ يَعلمونَ السَّـيِّئاتِ حتى إذا حَضَرَ أحَدَهُـم الـموتُ قالَ إنِّي تُبتُ الآنَ ﴾ [النساء : ١٨]، وقولـه : ﴿ فلـمَّـا رَأَوا بأسَنا قالوا آمَنَّا باللَّهِ وَحدَهُ وكَفرنا بما

كُنَّا بِهِ مُشركينَ * فَلَم يكُ يَنفعهُم إيمانُهُم لما رَأَوا بأسنا سُنَّتَ اللَّهِ التي خَلَت في عبادِهِ ﴾ [غافر : ٨٤ - ٨٥] .

واللَّهُ تعالى إنَّما يغفرُ للعَبدِ إذا كانَ وقوعُ الذَّنبِ منه على وجهِ غَلَبَةِ الشَّهوَةِ وقوَّةِ الطَّبيعَةِ، فيواقعُ الذَّنبَ مع كراهتِهِ لهُ من غير إصرارٍ في نَفسِهِ، فهذا تُرجى لهُ مغفرَةُ اللَّهِ وصَفحُهُ وعفوُهُ؛ لعلمِهِ تعالى بضَعفِهِ وغَلَبَةِ شهوتِهِ لهُ، وأنَّهُ يَرَى كلَّ وَقتٍ مالا صَبرَ له عليهِ، فهو إذا واقعَ الذَّنبَ واقعَهُ مواقعَةَ ذليلٍ خاضعٍ لربِّهِ خائفٍ مختلجٍ في صَدرِهِ شهوَةَ النَّفسِ الذَّنبَ وكراهَةَ الإيمانِ لهُ، فهو يجيبُ داعيَ النَّفسِ تارَةً، وداعيَ الإيمانِ تاراتٍ، فأمَّا مَن بَنى أمرَهُ على أن لا يَقفَ عن ذَنبٍ، ولا يقدِّمَ خَوفاً، ولا يَدَع للَّهِ شَهوَةً، وهو فرحٌ مَسرورٌ يَضحَكُ ظَهراً لبَطنٍ إذا ظفِرَ بالذَّنبِ، فهذا الذي يُخافُ عليهِ أن يُحالَ بينَهُ وبينَ التَّوبَةِ، ولا يُوَفَّقُ لها، فإنَّهُ من معاصيهِ وقبائحهِ عَلى نَقدٍ عاجلٍ يتقاضاهُ سلَفاً وتَعجيلاً، ومن توبتِه وإيابِه ورجوعِه إلى اللَّهِ على دَينٍ مؤجَّلٍ إلى انقضاءِ الأجلِ، وإنَّما كانَ هذا الضَّربُ منَ النَّاسِ يُحالُ بينهم وبينَ التَّوبةِ غالباً، لأنَّ النُّزوعَ عن اللذَّاتِ والشَّهواتِ إلى مخالفَةِ الطَّبعِ والنَّفسِ والاستمرارَ على ذلكَ شديدٌ على النَّفسِ صَعبٌ عليها أثقلُ منَ الجبالِ ولا سيَّما إذا انضافَ إلى ذلكَ ضعفُ البَصيرَةِ وقلَّةُ النَّصيبِ منَ الإيمانِ، فنَفسُهُ لا تطوِّعُ لهُ أن يَبيعَ نَقداً بنسيئةٍ ولا عاجلاً بآجلٍ، كما قال بَعضُ هؤلاءِ وقَد سُئلَ ؟ إيُّما أحبُّ إليكَ درهمٌ اليومَ أو دينارٌ غَداً ؟ فقال : لا هذا ولا هذا ولكن ربعُ درهمٍ من أَوَّلِ أمسٍ .

فحرامٌ على هؤلاءِ أن يُوَفَّقوا للتَّوبَةِ إلّا أن يشاءَ اللَّهُ، فإذا بَلَغَ العَبدُ حدَّ

الكِبَرِ وضعفَت بَصيرتُهُ، وَوهت قواهُ، وقَد أوجبَت لهُ تلكَ الأعمالُ قوّةً في غيِّهِ وضَعفاً في إيمانهِ صارَت كالمَلَكَةِ لهُ بحيثُ لا يتمكَّنُ من تَركها، فإنَّ كثرَةَ المزاولاتِ تعطي المَلَكاتِ، فَتبقى للنَّفسِ هَيئةٌ راسخَةٌ وملكةٌ ثابتَةٌ في الغيِّ والمعاصي، وكلَّما صَدَرَ عنهُ واحدٌ منها أثَّرَ أثَراً زائداً على أثَرِ ما قبلهُ فيَقوى الأثرانِ وهلمَّ جرًّا، فيهجمُ عليهِ الضَّعفُ والكِبَرُ وَوَهنُ القوَّةِ على هذه الحالِ، فينتقلُ إلى اللَّهِ بنجاستهِ وأوساخهِ وأدرانهِ لم يتطهَّر للقدومِ على اللَّهِ، فما ظنُّهُ بربِّهِ ولو أنَّهُ تابَ وأنابَ وقتَ القدرَةِ والإمكانِ لقُبلَت توبتُهُ ومُحيَت سيِّئاتهُ، ولكن حيلَ بينهم وبينَ ما يَشتهونَ، ولا شيءَ أشهى لمن انتَقلَ إلى اللَّهِ على هذه الحالُ منَ التَّوبَةِ، ولكن فرَّطَ في أداءِ الدَّينِ حتى نَفِدَ المالُ ولو أدَّاهُ وَقتَ الإمكانِ لقبلهُ ربُّهُ، وسيعلمُ المُسرفُ والمفرِّطُ أيَّ ديَّانٍ أدانَ وأيّ غريمٍ يتقاضاهُ يومَ يكونُ الوَفاءُ منَ الحسناتِ، فإن فنِيَت فَيُحَمَّلُ السِّيِّئاتِ .

فبانَ أنَّ من حكمَةِ اللَّهِ ونعمهِ على عبادهِ أن سَتَر عنهم مقاديرَ آجالهم ومبلَغَ أعمارهم؛ فلا يَزالُ الكيِّسُ يترقَّبُ الموتَ، وَقَد وَضَعهُ بينَ عَينيهِ فينكفُّ عمَّا يَضرُّهُ في معادهِ، ويَجتهدُ فيما يَنفعُهُ ويسرُّ به عندَ القدومِ .

فإن قلتَ : فها هو مع كونهِ قَد غيِّبَ عنهُ مقدارُ أجلهِ وهو يترقَّبُ الموتَ في كلِّ ساعَةٍ ومعَ ذلكَ يقارفُ الفواحشَ وينتهكُ المحارمَ، فأيُّ فائدَةٍ وحكمَةٍ حَصلَت بسترِ أجلهِ عنهُ ؟

قيلَ : لعَمرُ اللَّهِ أنَّ الأمرَ كذلكَ، وهو الموضعُ الذي حيَّرَ الألبابَ والعقلاءَ، وافتَرَقَ النَّاسُ لأجلهِ فِرَقاً شتى، فَفِرقَةٌ أنكرَت الحكمَةَ وتَعليلَ أفعالِ الرَّبِّ جملَةً، وقالوا : بالجَبْرِ المحضِ وسدُّوا على أنفسهم البابَ، وقالوا : لا تُعلّلُ أفعالُ

الرَّبِّ تعالى، ولا هيَ مقصودٌ بها مصالحُ العبادِ، وإنَّما مَصدَرُها مَحضُ المشيئةِ وصرفُ الإرادَةِ، فأنكروا حكمَةَ اللَّهِ في أمرِهِ ونَهيِهِ .

وفرقةٌ نَفَت لأجلِهِ القَدرَ جملَةً، وزَعموا أنَّ أفعالَ العبادِ غيرُ مخلوقَةٍ للَّهِ حتى يطلبَ لها وجوه الحكمَةِ، وإنَّما هي خلقهم وإبداعُهم، فهي واقعَةٌ بحسَبِ جَهلِهم وظلمِهم وضَعفِهم، فلا يقعُ على السَّدادِ والصَّوابِ إلّا أقلُّ القليلِ منها .

فهاتانِ الطَّائفتانِ متقابلتانِ أعظمُ تقابلٍ :

○ **فالأولى** غَلَت في الجَبرِ وأنكارِ الحِكَم المقصودَةِ في أفعالِ اللَّهِ .

○ **والثَّانيَةُ** غَلَت في القَدَرِ، وأخرجَت كثيراً منَ الحوادثِ بل أكثرها عن مُلكِ الرَّبِّ وقدرَتِهِ، وهدى اللَّهُ أهلَ السنَّةِ الوَسَطَ لما اختَلفوا فيهِ منَ الحقِّ بإذنِهِ، فأثبتوا للَّهِ عَزَّ وجلَّ عمومَ القُدرَةِ والمَشيئةِ، وأنَّهُ تعالى أن يكونَ في مُلْكِهِ مالا يشاءُ أو يشاءُ مالا يكونُ، وأنَّ أهلَ سماواتِهِ وأرضِهِ أعجزُ وأضعَفُ من أن يَخلقوا مالا يخلقهُ اللَّهُ، أو يحدثوا مالا يشاءُ بل ما شاءَ اللَّهُ كانَ، وَوُجِدَ وجودُهُ بمشيئتِهِ، وما لم يشأ لم يكُن وامتنَعَ وجودُهُ لعَدمِ المَشيئَةِ لهُ، وأنَّهُ لا حَولَ ولا قوَّةَ إلّا بِهِ، ولا تَتَحرَّكُ في العالَمِ العلويِّ والسُّفلي ذرَّةٌ إلّا بإذنِهِ، ومع ذلكَ فلهُ في كلِّ ما خَلَقَ وقَضى وقدَّرَ وشرَعَ منَ الحكَمِ البالغَةِ والعواقبِ الحميدَةِ ما اقتَضاهُ كمالُ حكمتِهِ وعلمِهِ وهو العليمُ الحكيمُ، فما خلق شيئاً ولا قضاه ولا شَرَعَه إلّا لحكمة بالغة، وإن تقاصرت عنها عقولُ البشر فهو الحكيمُ القديرُ، فلا تُجحَدُ حكمتُهُ كما لا تُجحَدُ قدرتُهُ .

والطَّائفَةُ الأولى جَحَدَت الحكمَةَ، والثَّانيَةُ جَحَدَت القدرَةَ، والأُمَّةُ الوَسطُ

أثبتَت لهُ كمالَ الحكمَةِ وكمالَ القدرَةِ .

فالفرقَةُ الأولى تَشهَدُ في المَعصيَةِ مجرَّدَ المشيئةِ والخَلقَ العاري عن الحكمَةِ، وربَّما شهدَت الجبرَ وأنَّ حركاتِهم بمنزلَةِ حركاتِ الأشجارِ ونحوِها .

والفرقَةُ الثَّانيَةُ تَشهدُ في المَعصيَةِ مجرَّدَ كونها فاعلَةً محدثَةً مختارَةً هي التي شاءَت ذلكَ بدونِ مَشيئةِ اللَّهِ .

والأُمَّةُ الوَسطُ تَشهَدُ عِزَّ الرُّبوبيَّةِ وقَهرَ المشيئةِ ونفوذَها في كلِّ شيءٍ، وتَشهَدُ مع ذلكَ فعلَها وكَسبَها واختيارَها وإيثارَها شهواتِها على مرضاتِ ربِّها، فيوجبُ الشهودُ الأوَّلُ لها سؤالَ ربِّها والتَّذلُّلَ والتَّضرُّعَ لهُ أن يوفِّقَها لطاعتهِ، ويحولُ بينها وبينَ معصيتهِ، وأن يثبِّتَها على دينهِ، وَيَعصمَها بطواعيَّتهِ، ويوجبُ الشهودُ الثَّاني لها اعترافَها بالذَّنبِ وإقرارَها به على نَفسها، وأنَّها هي الظَّالمةُ المُستحقَّةُ للعقوبَةِ، وتَنزيهَ ربِّها عن الظُّلمِ، وأن يعذِّبَها بغير استحقاق منها أو يعذبَها على ما لَم تَعمَلْهُ، فيجتمعَ لها منَ الشهودينِ شهودُ التَّوحيدِ والشرعِ والعَدلِ والحكمَةِ .

وقَد ذكرنا في « الفتوحاتِ القدسيَّةِ » مشاهدَ الخَلقِ في مواقعةِ الذَّنبِ، وأنَّها تَنتهي إلى ثمانيَةِ مشاهدَ :

* **أحدُها** : المشهَدُ الحيوانيُّ البَهيميُّ الذي شهودُ صاحبِه مَقصورٌ على شهواتِ لذَّتهِ بهِ فَقَط، وهو في هذا المشهَدِ مشاركٌ لجميع الحيواناتِ، وربَّما يَزيدُ عَليها في اللذَّةِ وكثرَةِ التَّمتُّع .

* **والثَّاني** : مَشهَدُ الجَبرِ وأنَّ الفاعلَ فيهِ سواهِ والمحرِّكَ لهُ غيرُهُ، ولا

ذَنبَ لهُ هو، وهذا مَشهدُ المُشركين وأعداءِ الرُّسل .

* **الثّالث** : مَشهدُ القَدرِ وهو أنَّهُ هو الخالقُ لفعلِهِ المُحدثُ لهُ بدونِ مَشيئةِ اللَّهِ وخَلقِهِ، وهذا مَشهَدُ القدريَّةِ المجوسيَّةِ .

* **الرَّابع** : مَشهَدُ أهلِ العلمِ والإيمانِ، وهو مَشهدُ القَدرِ والشرعِ يَشهدُ فعلَهُ وقضاءَ اللَّهِ وقدرِهِ .

* **الخامس** : مَشهدُ الفَقرِ والفاقَةِ والعجزِ والضَّعفِ، وأنَّهُ إن لم يُعنْهُ اللَّهُ ويثبِّتْهُ ويوفِّقْهُ فهو هالكٌ، والفرقُ بينَ مشهَدِ هذا ومَشهَدِ الجبريَّة ظاهرٌ .

○ **السَّادس** : مَشهدُ التَّوحيدِ وهو الذي يَشهدُ فيهِ انفرادَ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ بالخَلقِ والإبداعِ ونفوذِ المشيئةِ، وأنَّ الخَلقَ أعجزُ من أن يَعصوهُ بغَيرِ مشيئتهِ، والفرقُ بينَ هذا المشهدِ وبينَ المشهَدِ الخامسِ أنَّ صاحبَه شاهدٌ لكمالِ فقرهِ وضَعفهِ وحاجتهِ، وهذا شاهدٌ لتفرُّدِ اللَّهِ بالخَلقِ والإبداعِ، وأنَّهُ لا حَولَ ولا قوَّةَ إلّا بهِ .

* **السَّابع** : مَشهَدُ الحكمَةِ وهو أن يَشهدَ حكمَةَ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في قضائهِ وتَخليتِهِ بينَ العَبدِ والذَّنبِ، وللَّهِ في ذلك حكمٌ تَعجزُ العقولُ عن الإحاطَةِ بها، وذكرنا منها في ذلكَ الكتابِ قريباً من أربعينَ حكمَةً، وقَد تَقدَّمَ في أوَّلِ هذا الكتابِ التَّنبيهُ على بَعضِها .

* **الثّامن** : مَشهدُ الأسماءِ والصِّفاتِ، وهو أن يَشهدَ ارتباطَ الخَلقِ والأمرِ والقضاءِ والقَدرِ بأسمائهِ تعالى وصفاتهِ، وأنَّ ذلكَ موجبُها ومُقتَضاها، فأسماؤهُ الحُسنى اقتَضَت ما اقتَضتهُ منَ التَّخليَةِ بينَ العَبدِ وبينَ الذَّنبِ، فإنَّهُ

الغفارُ التَّوابُ العفوُّ الحليمُ، وهذه أسماءُ تُطلَبُ آثارُها وموجباتُها ولا بدَّ، فلو لم تُذنبوا لَذَهَبَ اللَّهُ بكُم ولجاءَ بقومٍ يُذنبونَ فيَستغفرونَ فيغفرَ لهم، وهذا المَشهدُ والذي قبلهُ أجلُّ هذه المشاهدِ وأشرفُها، وأرفعُها قَدراً، وهما لخواصِّ الخليقَةِ، فتأمَّل بُعدَ ما بينهما وبينَ المَشهَدِ الأوَّلِ، وهذان المَشهدانِ يطرحانِ العَبدَ على بابِ المحبَّةِ، ويَفتحانِ لهُ منَ المعارفِ والعلومِ أموراً لا يعبُرُ عنها، وهذا بابٌ عَظيمٌ من أبوابِ المعرفَةِ قلَّ من استفتحهُ منَ النَّاسِ، وهو شهودُ الحكمَةِ البالغَةِ في قضاءِ السيِّئاتِ وتَقديرِ المعاصي، وإنَّما استفتحَ النَّاسُ بابَ الحكمِ في الأوامرِ والنَّواهي وخاضوا فيها وأتَوا بما وصَلَت إليهِ علومُهم، واستَفتحوا أيضاً بابَها في المخلوقاتِ كما قدَّمناهُ وأتَوا فيهِ بما وَصَلَت إليهِ قواهُم، وأمَّا هذا البابُ فكما رأيت كلامَهم فيهِ فقلَّ أن تَرى لأحدهم فيهِ ما يَشفي أو يلمّ، وكيفَ يطَّلعُ على حكمةِ هذا البابِ من عندَهُ أنَّ أعمالَ العبادِ ليسَت مخلوقةً للَّهِ، ولا داخلَةً تحتَ مَشيئتهِ أصلاً ؟ وكيفَ يتطلَّبُ لها حكمَةً أو يثبتها، أم كيفَ يطَّلعُ عليها من يقولُ هي خَلقُ اللَّهِ ولكنَّ أفعالَهُ غير معلَّلةٍ بالحكمِ، ولا يدخلها لامُ تَعليلٍ أصلاً، وإن جاءَ شيءٌ من ذلكَ صُرفَ إلى لامِ العاقبَةِ لا إلى لامِ العلَّةِ والغايَةِ ؟ فأمَّا إذا جاءَت الباءُ في أفعالهِ صُرفَت إلى باءِ المُصاحَبَةِ لا إلى باءِ السَّببيَّةِ، وإذا كانَ المتكلِّمونَ عندَ النَّاسِ هم هؤلاءِ الطَّائفتانَ، فإنَّهُم لا يرونَ الحقَّ خارجاً عنهما، ثمَّ كثيرٌ منَ الفضلاءِ يتحيَّرُ إذا رأى بعضَ أقوالهم الفاسدَةِ ولا يَدري أينَ يَذهبُ ؟

ولمَّا عُرِّبَت كتبُ الفلاسفَةِ صارَ كثيرٌ منَ النَّاسِ إذا رأى أقوالَ المتكلِّمينَ الضَّعيفَةِ وقَد قالوا : إنَّ هذا هو الذي جاءَ به الرَّسولُ قطعَ القَنطَرَةِ، وعدَّى إلى

ذلكَ البرِّ، وكلُّ ذلكَ منَ الجَهلِ القبيحِ والظَّنِّ الفاسدِ أنَّ الحقَّ لا يخرجُ عن أقوالهم، فما أكثر خروج الحقِّ عن أقوالهم (!) وما أكثر ما يَذهبونَ في المسائلِ التي هي حقٌّ وصوابٌ إلى خلافِ الصَّوابِ (!)

والمقصودُ : أنَّ المُتكلِّمينَ لو أجمَعوا على شيءٍ لم يكُن إجماعُهم حجَّةً عندَ أحدٍ منَ العلماء فكيفَ إذا اختَلفوا ؟!

والمقصودُ : أنَّ مشاهدةَ حكمَةِ اللَّهِ في أقضيتِهِ وأقدارِهِ التي يُجريها على عبادِهِ باختيارهم وإرادتهم هي من ألطَفِ ما تكلَّمَ فيهِ النَّاسُ وأدقِّهُ وأغمضِهُ، وفي ذلكَ حِكَمٌ لا يعلمها إلّا الحكيمُ العليمُ سبحانهُ، ونَحنُ نُشيرُ إلى بَعضها :

فمنها : أنَّهُ سبحانهُ يحبُّ التَّوابينَ حتى إنَّهُ مِن محبَّتهِ لهم يَفرحُ بتَوبَةِ أحدهم أعظم من فَرحِ الواحدِ براحلتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ الدويَّةِ المُهلكَةِ إذا فَقَدها، وأيسَ منها، وليسَ في أنواعِ الفَرحِ أكملُ ولا أعظمُ من هذا الفَرحِ، ولولا المحبَّةُ التَّامَّةُ للتَّوبَةِ ولأهلها لم يَحصُلِ هذا الفَرحُ .

ومن المعلومِ أنَّ وجودَ المسبَّبِ بدونِ سببِهِ مُمتنعٌ، وهل يوجد ملزومٌ بدون لازمه، أو غايةٌ بدون وسيلتها ؟ وهذا معنى قول بعض العارفين : ولو لم تكُن التَّوبَةُ أحبُّ الأشياءِ إليهِ لما ابتلى بالذَّنبِ أكرمَ المخلوقاتِ عليهِ، فالتَّوبَةُ هي غايَةُ كمالِ كلِّ آدميٍّ، وإنَّما كانَ كمالُ أبيهم بها فكم بين حالهِ وقَد قيلَ لهُ : ﴿ إنَّ لكَ ألّا تَجوعَ فيها ولا تَعرى * وأنَّكَ لا تَظمأُ فيها ولا تَضحى ﴾ [طه : ١١٨ - ١١٩]، وبينَ قولهِ : ﴿ ثمَّ اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليهِ وهدى ﴾ [طه : ١٢٢]، فالحالُ الأولى حالُ أكلٍ وشربٍ وتمتُّعٍ، والحالُ الأخرى حالُ

اجتباءٍ واصطفاءٍ وهدايَةٍ، فيا بُعدَ ما بينهما (!)

ولما كانَ كمالُهُ بالتَّوبَةِ كانَ كمالُ بنيهِ أيضاً بها كما قال تعالى : ﴿ ليُعذِّبَ اللَّهُ المُنافقينَ والمُنافقاتِ والمُشركينَ والمُشركاتِ ويتوبَ اللَّهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ [الأحزاب : ٧٣]، فكمالُ الآدميِّ في هذه الدَّارِ بالتَّوبَةِ النَّصوحِ وفي الآخرَةِ بالنَّجاةِ منَ النَّارِ ودخولِ الجنَّةِ وهذا الكمالُ مُرتَّبٌ على كمالِهِ الأوَّل .

والمقصودُ : أنَّهُ سبحانهُ لمحبَّتِهِ التَّوبَةَ وفرحه بها يَقتَضي على عبدِهِ بالذَّنبِ، ثمَّ إن كانَ ممَّن سَبقَت لهُ الحُسنى قَضى لهُ بالتَّوبَةِ، وإن كانَ ممَّن غَلَبَت شقاوتُهُ أقامَ عليهِ عَدلَهُ وعاقبَه بذنبِهِ .

ومنها : أنَّهُ سبحانهُ يحبُّ أن يتفضَّلَ عليهم، ويتمَّ عليهم نعمَهُ، ويريهم مواقعَ برِّهِ وكرمِهِ، فلمحبَّتِهِ الإفضال والإنعام ينوِّعهُ عليهم أعظمَ الأنواعِ وأكثرَها في سائرِ الوجوهِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ، ومن أعظمِ أنواعِ الإحسانِ والبرِّ أن يحسنَ إلى مَن أساءَ، ويَعفو عمَّن ظَلَمَ، ويغفرَ لمَن أذنَبَ، ويتوبَ على مَن تابَ إليهِ، ويقبلَ عذرَ مَن اعتَذرَ إليهِ، وقَد نَدَبَ عبادَهُ إلى هذه الشيمِ الفاضلَةِ والأفعالِ الحميدَةِ، وهو أولى بها منهم، وأحقُّ، وكانَ لهُ في تَقديرِ أسبابها منَ الحكَمِ والعواقبِ الحميدَةِ ما يَبهرُ العقولَ فسبحانهُ وبحمدِهِ .

هذا ولو شاءَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أن لا يُعصى في الأرضِ طَرفَةَ عَينٍ لم يُعصَ، ولكن اقتَضَت مَشيئتهُ ما هو موجب حكمتهِ سبحانه، فمَن أجهَلُ باللَّهِ ممَّن يقولُ : إنَّهُ يُعصى قَسراً بغيرِ اختيارهِ ومَشيئتهِ ؟ سبحانهُ وتعالى عمَّا يقولونَ علوّاً كبيراً .

ومنها : أنَّهُ سبحانهُ لهُ الأسماءُ الحُسنى، ولكلِّ اسمٍ من أسمائهِ أثرٌ من الآثارِ في الخَلقِ والأمرِ لابدَّ من ترتُّبهِ عليهِ، كترَتُّبِ المَرزوقِ والرِّزقِ على الرزَّاقِ، وتَرتُّبِ المَرحومِ وأسبابِ الرَّحمَةِ على الرَّاحِمِ، وترتُّبِ المرئيَّاتِ والمَسموعاتِ على السَّميعِ والبَصيرِ، ونظائرِ ذلكَ في جميعِ الأسماءِ، فلو لم يكُن في عبادهِ مَن يَخطىءُ ويُذنبُ ليتوبَ عليهِ، ويغفرَ له، ويَعفو عنهُ، لم يَظهَر أثَرُ أسمائهِ الغَفور والعفوّ والحليم والتَّواب وما جَرى مجراها، وظهورِ أثَرِ هذه الأسماءِ ومتعلِّقاتها في الخَليقَةِ كظهورِ آثارِ سائرِ الأسماءِ الحُسنى ومتعلِّقاتها، فكما أنَّ اسمهُ الخالقُ يَقتَضي مخلوقاً، والباري يَقتَضي مبروأً، والمُصوِّرَ يَقتَضي مُصوَّراً ولابدَّ، فأسماؤهُ الغفَّارُ التَّوابُ تَقتَضي مغفوراً لهُ ما يغفرهُ لهُ، وكذلكَ مَن يتوبُ عليهِ، وأموراً يتوبُ عليهِ من أجلها، ومَن يحكُمُ عنهُ ويَعفو عنهُ وما يكونُ متعلّقُ الحلمِ والعَفوِ، فإنَّ هذه الأُمورَ متعلِّقَةٌ بالغَيرِ ومعانيها مستلزِمَةٌ لمتعلِّقاتها .

وهذا بابٌ أوسعُ من أن يُدركَ واللبيبُ يكتفي منهُ باليسيرِ، وغليظُ السحابِ في وادٍ ونحنُ في وادٍ :

وإن كانَ أثلُ الوادِ يجمعُ بينَنا
فغَيرُ خفيٍّ شيحه من خزامهِ

فتأمَّل ظهورَ هذين الاسمين اسمِ الرزَّاقِ واسمِ الغفَّارِ في الخليقَةِ تَرى ما يُعجبُ العقولَ، وتأمَّل آثارَهما حقَّ التَّأمُّلِ في أعظمِ مجامعِ الخَليقَةِ، وانظر كيفَ وَسِعَهُم رزقُهُ ومغفرتُهُ، ولولا ذلكَ لما كانَ لهُ من قيامٍ أصلاً، فلكلٍّ منهم نَصيبٌ منَ الرِّزقِ والمغفرَةِ، فإمَّا متَّصلاً بنشأتهِ الثَّانيَةِ، وإمَّا مُختصّاً بهذه النَّشأةِ .

ومنها : أنَّهُ سبحانهُ يُعرِّفُ عبادَهُ عزَّهُ في قضائهِ وقَدرهِ ونفوذِ مَشيئتهِ وجريانِ حكمتهِ، وأنَّهُ لا مَحيصَ للعَبدِ عمَّا قَضاهُ عليهِ ولا مفرَّ لـهُ منهُ، بل هو في قَبضَةِ مالكهِ وسيِّدهِ، وأنَّهُ عبدُهُ وابنُ عبدهِ وابنُ أمتهِ ناصيتُهُ بيدهِ ماضٍ فيه حكمُهُ، عَدلٌ فيه قضاؤهُ .

ومنها : أنَّهُ يعرِّفُ العَبدَ حاجَتهُ إلى حفظهِ لـهُ ومَعونَتَهُ وصيانتَهُ، وأنَّهُ كالوَليدِ الطِّفلِ في حاجتهِ إلى مَن يَحفظُهُ ويصونُهُ، فإن لم يَحفَظْهُ مولاهُ الحَقُّ فهو هالكٌ ولابدَّ، وقَد مَدَّتِ الشياطينُ أيديها إليهِ من كلِّ جانبٍ تُريدُ تمزيقَ حالـهِ كلِّهِ وإفسادَ شأنهِ كلِّهِ، وأنَّ مولاهُ وسيِّدَهُ إن وكَلَهُ إلى نَفسهِ وكَلَهُ إلى ضَيعَةٍ وعَجزٍ وذَنبٍ وخَطيئةٍ وتَفريطٍ، فهلاكُهُ أدنى إليهِ من شراكِ نَعلهِ .

فَقَد أجمَعَ العلماءُ باللَّهِ : على أنَّ التَّوفيقَ أن لا يَكِلَ اللَّهُ العَبدَ إلى نَفسهِ، وأجمعوا على أنَّ الخُذلانَ أن يُخلِّي بينهُ وبينَ نَفسهِ .

ومنها : أنَّهُ سبحانهُ يستجلبُ من عبدهِ بذلكَ ما هو من أعظمِ أسبابِ السَّعادَةِ لـه، من استعاذَتهِ، واستعانتهِ به من شرِّ نَفسهِ وكيدِ عدوِّهِ، ومن أنواعِ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ والابتهالِ والإنابَةِ والفاقَةِ والمحبَّةِ والرَّجاءِ والخَوفِ، وأنواعٍ من كمالاتِ العَبدِ تبلغُ نحوَ المئَةِ، ومنها ما لا تُدركهُ العبارَةُ وإنَّما يدركُ بوجودهِ، فيحصلُ للرُّوحِ بذلكَ قربٌ خاصٌّ لم يكُن يحصُلُ بدونِ هذه الأسبابِ، ويجدُ العَبدُ من نفسهِ كأنَّهُ مُلقىً على بابِ مولاهُ بَعدَ أن كانَ نائياً عنه وهذا الذي أثمَرَ لـهُ أنَّ اللَّهَ يحبُّ التَّوابينَ، وهو ثمرةٌ للَّه أفرحُ بتوبَةِ عبدهِ، وأسرارُ هذا الوَجهِ يَضيقُ عنها القلبُ واللسانُ، فكم بينَ عبادَةٍ يدلُّ صاحبُها على ربِّهِ بعبادتهِ شامخٌ

بأنفه كلَّما طَلَبَ منهُ أوصافَ العَبدِ قامَت صُوَرُ تلكَ الأعمالِ في نَفسهِ فحَجَبَتهُ عن معبودِهِ وإلـهِهِ، وبينَ عبادَةِ من قَد كسرَ الذلُّ قلبَهُ كلَّ الكسرِ وأحرَقَ ما فيهِ منَ الرُّعوناتِ والحماقاتِ والخيالاتِ، فهو لا يَرى نَفسَهُ إلّا مُسيئاً كما لا يَرَى ربَّهُ إلّا مُحسناً، فهو لا يَرضى أن يَرى نَفسَهُ طَرفَةَ عينٍ قَد كَسرَ ازدراؤهُ على نَفسهِ قلبَهُ وذلَّلَ لسانَهُ وجوارحَهُ وطأطأ منهُ ما ارتَفَعَ من غيرِهِ، فقلبُهُ واقفٌ بينَ يَدي ربِّهِ وقوفَ ناكسِ الرَّأسِ خاشعٍ خاضعٍ غاضِّ البَصَرِ خاشعِ الصَّوتِ هادىءِ الحرْكاتِ قَد سجَدَ بينَ يَديهِ سجدَةً إلى الـمَماتِ، فلو لم يكُن من ثَمَرَةِ ذلكَ القضاءِ والقَدَرِ إلّا هذا وَحدَهُ لكَفى به حكمَةً، واللَّهُ الـمُستعانُ .

ومنها : أنَّهُ سبحانهُ يَستخرجُ بذلكَ من عبدهِ تمامَ عبوديَّتِهِ، فإنَّ تمامَ العبوديَّة هو بتَكميلِ مقامِ الذلِّ والانقيادِ، وأكملُ الـخَلقِ عبوديَّةً أكملُهم ذُلّاً للَّهِ وانقياداً وطاعَةً، والعَبدُ ذليلٌ لمولاهُ الـحقِّ بكلِّ وجهٍ من وجوهِ الذلِّ، فهو ذليلٌ لعزِّهِ، وذليلٌ لقَهرِهِ، وذليلٌ لربوبيَّتِهِ فيهِ وتصرُّفِهِ، وذليلٌ لإحسانهِ إليهِ وإنعامهِ عليهِ، فإنَّ مَن أحسَنَ إليكَ فَقَد استَعبَدَكَ وصارَ قلبُكَ معبَّداً لـهُ وذليلاً تَعَبَّدَ لـهُ لـحاجتهِ إليهِ على مَدى الأنفاسِ في جَلبِ كلِّ ما يَنفعهُ ورَفعِ كلِّ ما يضرُّهُ .

وهنا نوعانِ من أنواعِ التَّذلُّلِ والتَّعبُّدِ لـهما أثرٌ عجيبٌ يقتضيانِ من صاحبهما منَ الطَّاعَةِ والفَوزِ مالا يَقتضيهِ غيرهما :

○ **أحدهما** : ذلُّ المحبَّةِ وهذا نوعٌ آخَرُ غيرُ ما تَقَدَّمَ، وهو خاصَّةُ المحبَّةِ ولبُّها بل وروحُها وقوامُها وحَقيقتُها ،وهو المرادُ على الـحقيقَةِ منَ العَبدِ لو فَطنَ،

وهذا يَستخرجُ من قَلبِ المحبِّ من أنواعِ التَّقرُّبِ والتَّوَدُّدِ والتَّملُّقِ والإيثارِ والرِّضا والحمدِ والشكرِ والصَّبرِ والتندُّمِ وتحمُّلِ العظائمِ مالا يَستخرجُهُ الخوفُ وَحدَهُ ولا الرَّجاءُ وَحدَهُ، كما قالَ بَعضُ الصَّحابَةِ : إنَّهُ ليستخرجُ محبَّتهُ من قلبي من طاعتهِ مالا يَستخرجهُ خوفُهُ أو كما قال، فهذا ذلُّ المُحبِّينَ .

○ **الثَّاني** : ذلُّ المَعصيَةِ، فإذا انضافَ هذا إلى هذا هناكَ فنِيَت الرُّسومُ، وتلاشَت الأنفسُ، واضمحلَّت القُوى، وبطُلَت الدَّعاوى جملَةً، وذَهَبَت الرُّعوناتُ، وطاحَت الشطحاتُ، ومُحيَ منَ القَلبِ واللسانِ أنا وأنا، واستراحَ المسكينُ من شكاوى الصَّدودِ والإعراضِ والهَجرِ، وتجرد الشهودانِ فلم يَبقَ إلّا شهودُ العزِّ والجلالِ الشهودُ المحضُ الذي تَفَرَّدَ بهِ ذو الجلالِ والإكرامِ الذي لا يشاركهُ أحدٌ من خلقهِ في ذرَّةٍ من ذرَّاتهِ، وشهودُ الذُّلِّ والفَقرِ المحضِ من جميعِ الوجوهِ بكلِّ اعتبارٍ، فيشهدُ غايَةَ ذلِّهِ وانكسارهِ وعزَّةِ محبوبهِ وجلالهِ وعظمتهِ وقدرتهِ وغناه، فإذا تجرَّدَ لهُ هذانِ الشهودانِ، ولم يَبقَ ذرَّةٌ من ذرَّاتِ الذلِّ والفَقرِ والضَّرورَةِ إلى ربِّهِ إلّا شاهَدها فيهِ بالفعلِ، وقَد شهِدَ مقابلها هناكَ، فللَّهِ أيُّ مقامٍ أُقيمَ فيهِ هذا القلبُ إذ ذاكَ، وأيُّ قُربٍ حَظِيَ بهِ، وأيُّ نَعيمٍ أدركهُ، وأيُّ روحٍ باشرهُ ؟

فتأمَّل الآنَ موقعَ الكسرَةِ التي حَصَلَت لهُ بالمَعصيَةِ في هذا الموطنِ ما أعجبَها وما أعظَمَ موقعها ! كيفَ جاءَت فمحَقَت من نَفسه الدَّعاوى والرُّعوناتِ وأنواعَ الأماني الباطلَةِ، ثمَّ أوجَبَت لهُ الحياء والخجلَ من صالحِ ما عملَ، ثمَّ أوجَبَت له استكثارَ قليلِ ما يرد عليهِ من ربِّهِ لعلمهِ بأنَّ قَدْرَهُ أصغرُ

من ذلكَ وأنَّهُ لا يستحقُّهُ، واستقلالَ أمثالِ الجبالِ من عملهِ الصَّالح بأنَّ سيِّئاتهِ وذنوبَه تـحتاجُ من المكفِّراتِ والماحياتِ إلى أعظمِ من هذا، فهو لا يزالُ محسناً وعندَ نَفسهِ المُسيء المُذنب متكسِّراً ذللاً خاضعاً لا يَرتفعُ لهُ رأسٌ ولا ينقامُ لهُ صَدرٌ، وإنَّما ساقهُ إلى هذا الذلِّ والذي أورثهُ إيَّاهُ مباشرةُ الذَّنبِ فأيُّ شيءٍ أنفعُ لهُ من هذا الدَّواءِ ؟

لَعَلَّ عَتبَكَ مَحمودٌ عَواقِبُهُ

ورُبَّما صَحَّت الأجسامُ بالعِلَلِ

ونكتَةُ هذا الوجهِ : أنَّ العَبدَ متى شهدَ صلاحَهُ واستقامَتهُ شمخَ بأنفهِ، وتعاظَمَت نفسُهُ، وظنَّ أنَّهُ وأنَّهُ؛ أي : عظيماً، فإذا ابتُليَ بالذَّنبِ تصاغَرَت إليهِ نَفسُهُ وذلَّ وخَضَعَ وتيقَّنَ أنَّهُ وأنَّهُ؛ أي : عبداً ذليلاً .

ومنها : أنَّ العَبدَ يعرفُ حقيقَةَ نفسهِ وأنَّها الظَّالمَةُ، وأنَّ ما صَدَرَ منها من شرٍّ صَدَرَ من أهلهِ ومعدنهِ إذ الجَهلُ والظُّلمُ منبعُ الشرِّ كلِّهِ، وأنَّ كلَّ ما فيها من خَيرٍ وعلمٍ وهُدى وإنابَةٍ وتَقوى فهو من ربِّها تعالى هو الذي زكَّاها بهِ وأعطاها إيَّاهُ لا منها، فإذا لم يشأ تَزكيَةَ العَبدِ تَرَكهُ معَ دواعي ظُلمهِ وجَهلهِ، فهو تعالى الذي يزكِّي من يشاءُ منَ النُّفوسِ فتَزكو، وتأتي بأنواعِ الخَيرِ والبرِّ، ويتركُ تَزكيَةَ مَن يشاءُ منها، فتأتي بأنواعِ الشرِّ والخَبَثِ .

وكانَ من دعاءِ النَّبيِّ ﷺ : « اللهمَّ آتِ نَفسي تَقواها وزكِّها أنتَ خَيرُ مَن زكَّاها أنتَ وليُّها ومَولاها » .[1]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم - رضي الله عنه .

فإذا ابتَلى اللَّهُ العَبدَ بالذَّنبِ عَرَفَ نَفسهُ ونَقصها، فرُتِّبَ لـهُ على ذلكَ التَّعريفِ حكمٌ ومصالـحُ عَديدةٌ .

● منها : أنَّـهُ يأنفُ من نَقصِها، ويـجتهدُ في كمـالِـها .

● ومنها : أنَّـهُ يعلمُ فَقرَها دائماً إلى مَن يتولَّاها ويـحفظها .

● ومنها : أنَّـهُ يَستريحُ ويريحُ العبادَ من الرُّعوناتِ والـحمـاقاتِ التي ادَّعاها أهلُ الـجَهلِ في أنفسهم من قدمٍ أو اتِّصالٍ بالقَديمِ، أو اتِّـحادٍ به، أو حُلولٍ فيهِ أو غيرِ ذلكَ منَ الـمحالاتِ، فلولا أنَّ هؤلاءِ غابَ عنهُم شهودُهم لنقص أنفسهم وحقيقتها لم يقَعوا فيمـا وَقَعوا فيهِ .

ومنها : تَعريفُهُ سبحانهُ عَبدهُ سَعَةَ حلمهِ وكرمهِ في سترهِ عليهِ، وأنَّـهُ لو شاءَ لعاجلَهُ على الذَّنبِ ولـهتكَهُ بينَ عبادهِ فلم يطب لـهُ معهُم عَيشٌ أبداً، ولكن جلَّلـهُ بسترهِ وغشاهُ بـحلمهِ وقيَّضَ لـهُ من يـحفظهُ وهو في حالتهِ تلكَ بل كانَ شاهداً وهو يبارزهُ بالمعاصي والآثامِ، وهو مع ذلكَ يـحرسُهُ بعينه التي لا تنام؛ فأيُّ حلمٍ أعظمُ من هذا الـحلمِ، وأيُّ كرمٍ أوسعُ من هذا الكرمِ ؟!

فلولا حلمُـهُ وكرمُهُ ومغفرتُـهُ لما استقرَّت السَّماواتُ والأرضُ في أماكنها ؟ وتأمَّل قولـه تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُـمسكُ السَّماواتِ والأرضَ أن تَزولا ولئن زالَتا إن أمسكَهُمـا مِن أحَدٍ مِن بَعدهِ إنَّه كان حليماً غفوراً ﴾ [فاطر : ٤١]؛ هذه تَقتَضي الحلمَ والمغفرَةَ فلولا حلمُـهُ ومغفرتُـهُ لزالتا عن أمـاكنهمـا ومن هذا قولُـهُ : ﴿ تكادُ السَّماواتُ يَتَفطَّرنَ منهُ وتَنشقُّ الأرضُ وتـخرُّ الـجبالُ هدًّاً ٭ أن دَعَوا للرَّحمنِ ولَداً ﴾ [مريم : ٩٠ - ٩١] .

ومنها : تعريفهُ عبدهُ أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلى النَّجاةِ إلّا بعفوهِ ومغفرتهِ، وأنَّهُ رهينٌ بحقِّهِ، فإن لم يتغمَّدْهُ بعفوهِ ومغفرتهِ وإلّا فهو منَ الهالكين لا محالَةَ، فليسَ أحدٌ من خلقهِ إلّا وهو محتاجٌ إلى عَفوهِ ومغفرتهِ كما هو مُحتاجٌ إلى فَضلهِ ورحمتهِ .

ومنها : تَعريفهُ عبدهُ كرمَهُ سبحانهُ في قبولِ توبتهِ ومغفرتهِ لهُ على ظلمهِ وإساءتهِ، فهو الذي جادَ عليهِ بأن وفَّقهُ للتَّوبَةِ وألهمَهُ إيَّاها ثمَّ قبلها منهُ فتابَ عليهِ أوَّلاً وآخراً، فتَوبَةُ العَبدِ محفوفَةٌ بتَوبَةٍ قَبلها عليهِ منَ اللَّهِ إذناً وتَوفيقاً، وتوبَةٌ ثانيَةٌ منهُ عليهِ قبولاً ورضاً؛ فلهُ الفَضلُ في التَّوبَةِ والكرمِ أوَّلاً وآخراً، لا إلهَ إلّا هو .

ومنها : إقامَةُ حجَّةِ عَدلهِ على عَبدهِ، ليَعلمَ العبدُ أنَّ للَّهِ علَيهِ الحجَّةَ البالغَةَ، فإذا أصابهُ ما أصابهُ منَ المكروهِ فلا يقال : من أينَ هذا ولا من أينَ أُتيتَ ولا بأيِّ ذَنبٍ أصَبتَ ؟ فما أصابَ العَبد من مُصيبَةٍ قَط دقيقَةٍ ولا جليلةٍ إلّا بما كسَبَت يداهُ، وما يَعفو اللَّهُ عنهُ أكثرُ، وما نَزَلَ بلاءٌ قطُّ إلّا بذَنبٍ ولا رُفِعَ بلاءٌ إلا بتَوبةٍ، ولهذا وَضَعَ اللَّهُ المصائبَ والبلايا والمحَن رحمَةً بينَ عبادهِ يكفِّرُ بها من خطاياهُم، فهيَ من أعظمِ نعمِهِ عليهم وإن كرِهَتها أنفسُهم، ولا يَدري العَبدُ أيُّ النِّعمَتينِ عليهِ أعظمُ نعمَتهُ عليهِ فيما يَكرهُ أو نعمتهِ عليهِ فيما يحبُّ، وما يصيبُ المؤمنَ من همٍّ ولا وَصَبٍ ولا أذىً حتى الشوكَةَ يُشاكها إلّا كفَّرَ اللَّهُ بها من خطاياه، وإذا كانَ للذُّنوبِ عقوباتٌ ولابدَّ فكلَّما عوقِبَ به العَبدُ من ذلكَ قبلَ المَوتِ خَيرٌ لهُ ممَّا بَعدهُ وأيسَرُ وأسهَلُ بكثيرٍ .

ومنها : أن يعامِلَ العَبدُ بني جنسهِ في إساءتهم إليهِ وزلّاتهم معهُ، بما يحبُّ أن يعاملَهُ اللَّهُ بهِ في إساءتهِ وزلّاتهِ وذنوبهِ، فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ فمَن عفا عَفى اللَّهُ عنهُ، ومَن سامَحَ أخاهُ في إساءتهِ إليهِ سامحهُ اللَّهُ في سيِّئاتهِ، ومَن أغضى وتجاوَزَ تجاوَزَ اللَّهُ عنهُ، ومَن استقصى استقصى عليهِ، ولا تَنسَ حالَ الذي قَبضَت الملائكَةُ روحَهُ فقيلَ لهُ : هَل عملتَ خَيراً هَل عملتَ حسنَةً ؟ قال : ما أعلمهُ .

قيلَ : تذكَّرَ ؟

قال : كنتُ أُبايعُ النَّاسَ، فكنتُ أنظرُ الموسرَ، وأتجاوَزُ عن المُعسرِ، أو قال : كنتُ آمَرُ فتياني أن يتجاوَزوا في السكَّةِ .

فقال اللَّهُ : نحنُ أحقُّ بذلكَ منكَ وتجاوَزَ اللَّهِ عنهُ .[1]

فاللَّهُ عَزَّ وجَلَّ يعاملُ العَبدَ في ذنوبهِ بمثلِ ما يعاملُ بهِ العَبدُ النَّاسَ في ذنوبهم، فإذا عَرَفَ العَبدُ ذلكَ كانَ في ابتلائهِ بالذُّنوبِ منَ الحكَمِ والفوائدِ ما هو أنفعُ الأشياءِ لهُ .

ومنها : أنَّ للَّهِ عزَّ وجَلَّ على القلوبِ أنواعاً منَ العبوديَّةِ منَ الخشيَةِ والخَوفِ والإشفاقِ وتوابعِها منَ المحبَّةِ والإنابَةِ وابتغاءِ الوَسيلَةِ إليهِ وتوابعها، وهذه العبوديَّاتُ لها أسبابٌ تَهيِّجُها وتَبعثُ عليها، فكلّ ما قيَّضهُ الربُّ تعالى لعبدهِ منَ الأسبابِ الباعثَةِ على ذلكَ المهيِّجَةِ لهُ فهو من أسبابِ رحمتهِ لهُ، ورُبَّ ذَنبٍ قَد هاجَ لصاحبهِ منَ الخَوفِ والإشفاقِ والوَجَلِ والإنابَةِ والمحبَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ٣٠٩ - فتح) نحوه .

والإيثارِ والفَرارِ إلى اللَّهِ مالا يهيِّجهُ لهُ كثيرٌ من الطَّاعاتِ، وكم من ذَنبٍ كانَ سبباً لاستقامَةِ العَبدِ وفرارِهِ إلى اللَّهِ وبُعدهِ عن طرقِ الغيِّ، وهو بمنزلَةِ مَن خَلطَ فأحسَّ بسوءِ مزاجهِ، وكانَ عندهُ أخلاطٌ مزمنَةٌ قاتلَةٌ وهو لا يَشعرُ بها فَشربَ دواءً أزالَ تلكَ الأخلاطَ العفنَةَ التي لو دامَت لترامَت بهِ إلى الفسادِ والعَطبِ، وأنَّ مَن تبلغُ رَحمتُهُ ولطفُهُ وبرُّهُ بعَبدهِ هذا المبلغَ وما هو أعجبُ وألطَفُ منهُ لَحقيقٌ بأن يكونَ الحبُّ كلُّهُ لهُ والطَّاعاتُ كلُّها لهُ، وأن يُذكرَ فلا يُنسى، ويُطاعَ فلا يُعصى، ويُشكرَ فلا يُكفَر .

ومنها : أنَّهُ يعرِّفُ العَبدَ مقدارَ نعمَةِ مُعافاتهِ وفَضلهِ في تَوفيقهِ لهُ وحفظهِ إيَّاه، فإنَّهُ مَن تَربَّى في العافيَةِ لا يعلمُ ما يُقاسيهِ المُبتَلى ولا يَعرفُ مقدارَ النِّعمَةِ، فلو عَرَفَ أهلُ طاعَةِ اللَّهِ أنَّهُم هم المُنعَمُ عليهم في الحقيقَةِ، وأنَّ للَّهِ عَليهم منَ الشُّكرِ أضعافَ ما على غيرهم، وإن تَوَسَّدوا التُّرابَ ومَضغوا الحصى فهم أهلُ النِّعمَةِ المُطلَقَةِ، وأنَّ مَن خَلَّى اللَّهُ بينهُ وبينَ معاصيهِ، فَقَد سَقَطَ من عينهِ وهانَ عليهِ، وإنَّ ذلكَ ليسَ من كرامتهِ على ربِّهِ، وإن وسَّعَ اللَّهُ عليهِ في الدُّنيا ومدَّ لهُ من أسبابها، فإنَّهُم أهلُ الابتلاءِ على الحقيقَةِ، فإذا طالبَتِ العَبدَ نَفسُهُ بما تُطالبُهُ منَ الحظوظِ والأقسامِ وأرَتهُ أنَّهُ في بليَةٍ وضائقَةٍ تداركَهُ اللَّهُ برحمتهِ وابتلاهُ ببَعضِ الذُّنوبِ، فرأى ما كانَ فيهِ من المُعافاةِ والنِّعمَةِ، وأنَّهُ لا نسبَةَ لما كانَ فيهِ منَ النِّعمِ إلى ما طَلَبتهُ نَفسُهُ منَ الحظوظِ فحينئذٍ يكونُ أكثرَ أمانيهِ وآمالهِ العودُ إلى حالَهِ وأن يمتِّعَهُ اللَّهُ بعافيتهِ .

ومنها : أنَّ الذَّنبَ يوجبُ لصاحبِهِ التَّقيظَ والتَّحرُّزَ من مصائدِ عدوِّهِ ومكامنهِ، ومن أينَ يدخُلُ عليهِ اللُّصوصُ والقطَّاعُ ومكامنهم، ومن أينَ يَخرجونَ عليهِ، وفي أيِّ وَقتٍ يخرجونَ، فهو قَد استعدَّ لـهُم وتأهَّبَ وعَرَفَ بماذا يستدفعُ شرَّهُم وكيدَهُم، فلو أنَّهُ مرَّ عليهم على غرَّةٍ وطمأنينةٍ لم يأمَن أن يظفَروا بهِ ويجتاحوهُ جملَةً .

ومنها : أنَّ القلبَ يكونُ ذاهلاً عن عدوِّهِ مُشتغلاً ببعضِ مهمَّاتهِ، فإذا أصابهُ سهمٌ من عدوِّهِ استجمعَت لهُ قوَّتُهُ وحاسَّتُهُ وحميَّتُهُ وطَلَبَ بثأرهِ إن كانَ قلبهُ حرّاً كريماً كالرَّجلِ الشجاعِ إذا جُرِحَ، فإنَّهُ لا يقومُ لهُ شيءٌ بل تراهُ بعدَها هائجاً طالباً مقداماً، والقلبُ الجبانُ المهينُ إذا جُرِحَ كالرَّجلِ الضَّعيفِ المَهينِ إذا جُرحَ ولَّى هارباً والجراحاتُ في أكتافهِ، وكذلكَ الأسدُ إذا جرحَ فإنَّهُ لا يُطاقُ، فلا خَيرَ فيمَن لا مروءَةَ لهُ بطَلَبِ أخذِ ثارهِ من أعدى عدوِّهِ، فما شيءٌ أشفى للقَلبِ من أخذهِ بثأرهِ من عدوِّهِ، ولا عدوَّ أعدى لهُ من الشيطانِ، فإن كانَ قلبهُ من قلوبِ الرِّجالِ المُتسابقينَ في حَلَبَةِ المَجدِ جدَّ في أخذِ الثَّأرِ وغاظَ عدوَّهُ كلَّ الغَيظِ وأضناهُ، كما جاءَ عن بَعضِ السَّلفِ : إنَّ المُؤمنَ ليُنضي شيطانه كما يُنضي أحدُكُم بَعيرَهُ في سفرهِ .

ومنها : إنَّ مثلَ هذا يصيرُ كالطَّبيبِ ينتفعُ بهِ المَرضى في علاجهم ودوائهم، والطَّبيبُ الذي عَرَفَ المَرَضَ مباشرَةً وعَرَفَ دواءَهُ وعلاجَهُ أحذَقُ وأخبَرُ من الطَّبيبِ الذي إنَّما عَرَفَهُ وَصفاً هذا في أمراضِ الأبدانِ، وكذلكَ في أمراضِ القلوبِ وأدواتها .

وقال عمرُ بن الخطَّاب : إنَّما تنقضُ عُرى الإسلامِ عُروَةً عُروَةً إذا نشأ في الإسلامِ من لا يَعرفُ الجاهليَّةَ .

ولهذا كانَ الصَّحابَةُ أعرَفُ الأمَّة بالإسلامِ وتفاصيلهِ وأبوابهِ وطرقهِ، وأشدُّ النَّاسِ رَغبَةً فيه ومحبَّةً لهُ وجهاداً لأعدائهِ وتكلُّماً بأعلامهِ وتَحذيراً من خلافهِ؛ لكمالِ علمهِم بضدِّهِ، فجاءَهُم الإسلامُ وكلُّ خصلَةٍ منهُ مُضادَّةٌ لكلِّ خصلَةٍ ممَّا كانوا عليهِ فازدادوا لهُ مَعرفَةً وحبّاً وفيهِ جهاداً بمعرفتهم بضدِّهِ، وذلكَ بمنزلَةِ من كانَ في حَصرٍ شَديدٍ وضيقٍ ومرَضٍ وفَقرٍ وخَوفٍ ووَحشةٍ، فقيَّضَ اللَّهُ لهُ من نَقَلهُ منهُ إلى فَضاءٍ وسعَةٍ وأمنٍ وعافيَةٍ وغنىً وبَهجَةٍ وسُرورٍ، فإنَّهُ يَزدادُ سرورهُ وغبطَتهُ ومحبَّتهُ بما نقلَ إليهِ بحسبِ معرفتهِ بما كانَ فيهِ، وليسَ حالُ هذا كمن وُلدَ في الأمنِ والعافيَةِ والغنى والسرور، فإنَّهُ لم يَشعر بغيرهِ وربَّما قيِّضَت لهُ أسبابٌ تُخرجهُ عن ذلكَ إلى ضدِّهِ، وهو لا يَشعرُ، وربَّما ظنَّ أنَّ كثيراً من أسبابِ الهلاكِ والعَطَبِ تُفضي بهِ إلى السَّلامَةِ والأمنِ والعافيَةِ، فيكونَ هلاكُهُ على يَدي نَفسهِ وهو لا يَشعرُ، وما أكثر هذا الضَّربِ من النَّاسِ، فإذا عَرَفَ الضِّدَّينِ، وعلمَ مُبايَنَةَ الطَّرفينِ، وعَرَفَ أسبابَ الهلاكِ على التَّفصيلِ كانَ أحرى أن تَدومَ لهُ النِّعمَةُ مالم يُؤثِرْ أسبابَ زوالها على علمٍ، وفي مثلِ هذا قالَ القائلُ :

عَرَفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِّيهِ
وَمَن لا يَعرف الشَّر منَ النَّاسِ يَقع فيهِ

وهذه حالُ المؤمنِ يكونُ فَطِناً حاذقاً أعرَف النَّاسِ بالشَّرِّ وأبعدهم منهُ، فإذا تكلَّمَ في الشَّرِّ وأسبابهِ ظَنَنتهُ منَ شرِّ النَّاسِ، فإذا خالَطتهُ وعَرفتَ طويَّتهُ رأيتهُ من

أبرِّ النَّاسِ .

والمقصودُ : أنَّ مَن بُليَ بالآفاتِ صارَ من أعرَفِ النَّاسِ بطرقها، وأمكنهُ أن يسدَّها على نَفسهِ وعلى مَن استَنصحهُ منَ النَّاسِ ومَن لم يستَنصحهُ .

ومنها : أنَّهُ سبحانهُ يُذيقُ عَبدَهُ ألَمَ الحجاب عنهُ والبُعدَ وزوالَ ذلكَ الأُنسِ والقُربِ ليَمتحنَ عَبدَهُ، فإن أقامَ على الرِّضا بهذهِ الحال ولم يَجد نَفسَهُ تطالبُهُ بحالها الأوَّلِ معَ اللَّهِ بل اطمأنَّت وسَكَنَت إلى غَيرهِ علمَ أنَّهُ لا يصلحُ فوضَعهُ في مرتبتهِ التي تَليقُ بهِ، وإن استغاثَ استغاثَةَ المَلهوفِ، وتَقلَّقَ تَقلُّقَ المكروبِ، ودعا دُعاءَ المُضطرِّ، وعلمَ أنَّهُ قَد فاتَتهُ حياتُهُ حقّاً فهو يَهتفُ بربِّهِ أن يردَّ عليهِ حياتَهُ، ويعيدَ عليهِ مالا حياةَ لهُ بدونهِ علمَ أنَّهُ موضعٌ لما أُهل لهُ فَرَدَّ عليهِ أحوَجَ ما هو إليهِ، فَعَظُمَت بهِ فَرحتُهُ، وكمُلَت بهِ لذَّتُهُ، وتَمَّت به نعمتُهُ، واتَّصَلَ به سرورُهُ، وعلمَ حينئذٍ مقدارهُ، فَعَضَّ عليهِ بالنَّواجذِ، وثَنى عليهِ الخناصرَ، وكانَ حالهُ كحالِ ذلكَ الفاقدِ لراحلتهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ المُهلكَةِ إذا وَجَدها بَعدَ معايَنَةِ الهلاكِ، فما أعظَمَ موقع ذلكَ الوجدان عندَهُ، وللَّهِ أسرارٌ وحكمٌ ومنبِّهاتٌ وتَعريفاتٌ لا تنالها عقولُ البَشرِ .

فَقُل لِغَليظِ القَلبِ وَيحَكَ ليسَ ذا
بِعشِّك فادرُج طالباً عشَّكَ البالي

ولا تكُ ممَّن مدَّ باعاً إلى جنا
فَقَصَّرَ عنهُ قالَ ذا ليسَ بالحالي

فالعَبدُ إذا بُليَ بَعدَ الأُنسِ بالوَحشةِ وبَعدَ القُربِ بنارِ البعادِ اشتاقَت نَفسهُ إلى لَذَّةِ تلكَ المُعامَلَةِ، فحنَّت وأنَّت وتَصدَّعَت وتَعَرَّضَت لنفحاتِ مَن ليسَ

لها منهُ عِوَضٌ أبداً، ولا سيَّما إذا تذكَّرتَ برَّهُ ولطفَهُ وحنانَهُ وقُربَهُ، فإنَّ هذه الذِّكرى تمنعها القرارَ وتهيجُ منها البلابلَ، كما قال القائلِ وقَد فاتهُ طوافُ الوداعِ فركبَ الأخطارَ ورجَعَ إليهِ :

ولَمَّا تَذكَّرتُ المنازلَ بالحمى
ولَم يُقضَ لي تَسليمة المُتزوِّدِ
تَيقَّنتُ أنَّ العَيشَ ليسَ بِنافعي
إذا أنا لَم أنظُر إليها بموعِدِ

وإنِ استَمرَّ إعراضُه ولم تَحنَّ إلى معهَدِها الأوَّلِ، ولَم تحسَّ بفاقتها الشديدَةِ وضَرورتِها إلى مراجعَةِ قُربها من ربِّها فهي ممَّن إذا غابَ لَم يُطلب، وإذا أبِقَ لَم يُستَرجَع، وإذا جَنى لَم يُستَعتَب، وهذه هي النُّفوسُ التي لَم تُؤهَّل لما هنالكَ وبحسَبِ المُعتَرضِ هذا الحرمانِ، فإنَّهُ يكفيهِ، وذلكَ ذنبٌ عقابهُ فيهِ .

ومنها : أنَّ الحكمَةَ الإلهيَّةَ اقتَضَت تَركيبَ الشهوَةِ والغَضَبِ في الإنسانِ، وهاتانِ القوَّتانِ فيهِ بمنزلَةِ صفاتهِ الذَّاتيَّةِ لا يَنفكُّ عنهما وبهما وقَعَتِ المحنَةُ والابتلاءُ، وعرِّضَ لنَيلِ الدَّرجاتِ العُلى، واللحاقِ بالرَّفيقِ الأعلى، والهبوطِ إلى أسفَلِ سافلينَ، فهاتانِ القوَّتانِ لا يَدَعانِ العَبدَ حتى يُنيلانهِ منازلَ الأبرارِ أو يضعانهِ تَحتَ أقدامِ الأشرارِ، ولن يَجعَلَ اللَّهُ من شهوته مَصروفَة إلى ما أعدَّ لهُ في دارِ النَّعيمِ، وغَضبهُ حميَّة للَّهِ ولكتابهِ ولرسولهِ ولدينهِ، كمَن جَعَلَ شهوتهُ مَصروفَةً في هواهُ، وأمانيهِ العاجلَةِ، وغَضبه مَقصورٌ على حظِّهِ ولو انتهكت محارمُ اللَّهِ وحدودُهُ وعطِّلَت شرائعُهُ وسنَنُهُ بَعدَ أن يكونَ هو ملحوظاً

بعَينِ الاحترامِ والتَّعظيمِ والتَّوقيرِ ونفوذِ الكلمَةِ، وهذه حالُ أكثَرِ الرُّؤساءِ أعاذَنا اللَّهُ منها، فلَن يجعَلَ اللَّهُ هذينِ الصِّنفَينِ في دارٍ واحدَةٍ، فهذا صَعَدَ بشهوتهِ وغضبهِ إلى أعلى عليِّين، وهذا هوى بهما إلى أسفَلِ سافلين .

والمقصودُ : أنَّ تركيبَ الإنسانِ على هذا الوَجهِ هو غايَةُ الحكمَةِ، ولابدَّ أن يَقتَضي كلُّ واحدٍ من القوَّتينِ أثَرَهُ، فلابدَّ من وقوعِ الذَّنبِ والمُخالفاتِ والمَعاصي، فلابدَّ من تَرتُّبِ آثارِ هاتَينِ القوَّتينِ عليهما، ولو لَم يُخلقا في الإنسانِ لم يكُن إنساناً، بل كانَ مَلَكاً، فالتَّرتُّبُ من موجباتِ الإنسانيَّةِ كما قال النَّبيُّ ﷺ : « كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ وخَيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ » .[1]

فأمَّا من اكتَنَفتهُ العصمَةُ، وضُربَت عليهِ سرادقاتُ الحفظِ، فهم أقلُّ أفرادِ النَّوعِ الإنسانيِّ وهم خلاصتُهُ ولبُّهُ .

ومنها : أنَّهُ يوجبُ لهُ الإمساك عَن عيوبِ النَّاسِ والفكر فيها، فإنَّهُ في شغلٍ بعَيبِ نَفسهِ، فطوبى لمَن شغَلهُ عَيبُهُ عن عيوبِ النَّاسِ، وَويلٌ لمَن نَسِيَ عَيبَهُ وتفرَّغَ لعيوبِ النَّاسِ، هذا من علامَةِ الشقاوَةِ كما أنَّ الأوَّلَ من أماراتِ السَّعادَةِ .

ومنها : أنَّهُ إذا وَقَعَ في الذَّنبِ شهِدَ نَفسَهُ مثلَ إخوانهِ الخطَّائينَ، وشهِدَ أنَّ المُصيبَةَ واحدةٌ والجميعُ مشتَركونَ في الحاجَةِ بل في الضَّرورَةِ إلى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (٣ / ١٩٨)، والدارمي (٢ / ٣٠٣)، والحاكم (٤ / ٢٤٤) من حديث أنس - رضي اللَّه عنه .
قلت : **وإسناده حسن إن شاء اللَّه**، لأنَّ فيه علي بن مسعدة، وقد بيَّنت حاله في تعليقي على « رسالة في القلب » لشيخ الإسلام (ص ١٥ - ١٦)، فانظره .

مَغفرَةِ اللَّهِ وعَفوهِ ورَحمتهِ، فكما يحبُّ أن يَستغفرَ لهُ أخوهُ المسلمُ كذلكَ هو أيضاً يَنبغي أن يَستغفرَ لأخيهِ المُسلم، فيَصيرُ هجيراهُ : ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمُسلمينَ والمُسلماتِ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ .

فإذا شهدَ العَبدُ أنَّ إخوانهُ مصابونَ بمثلِ ما أُصيبَ بهِ محتاجونَ إلى ما هو محتاجٌ إليهِ لم يَمتنع من مساعَدتهم إلّا لفَرطِ جهلٍ بمغفرَةِ اللَّهِ وفَضلهِ، وحقيقٌ بهذا أن لا يُساعدَ، فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العَملِ .

حِكْمَةُ الابتلاء

وإذا تأمَّلتَ حكمتَهُ سبحانهُ فيما ابتَلى بهِ عبادَهُ وصَفوتَهُ بما ساقَهُم بهِ إلى أجلِّ الغاياتِ وأكملِ النِّهاياتِ التي لم يكونوا يَعبرونَ إليها إلّا على جسرٍ منَ الابتلاءِ والامتحانِ، وكانَ ذلكَ الجسرُ لكمالهِ كالجسرِ الذي لا سبيلَ إلى عبورهم إلى الجنَّةِ إلّا عليهِ، وكانَ ذلكَ الابتلاءُ والامتحانُ عَيْنَ المنهجِ في حقِّهِم والكرامَةِ، فصورتُهُ صورَةُ ابتلاءٍ وامتحانٍ، وباطنُهُ فيهِ الرَّحمَةُ والنِّعمَةُ، فكم للَّهِ من نعمَةٍ جسيمَةٍ ومنَّةٍ عَظيمَةٍ تُجنى من قطوفِ الابتلاءِ والامتحانِ .

آدم عليه الصلاة والسلام :

فتأمَّل حالَ أبينا آدمَ ﷺ وما آلَت إليهِ محنتُهُ منَ الاصطفاءِ والاجتباءِ والتَّوبَةِ والهدايَةِ ورفعَةِ المنزلَةِ، ولولا تلكَ المحنَةُ التي جَرَت عليهِ وهي إخراجهُ منَ الجنَّةِ وتوابعُ ذلكَ لما وَصَلَ إلى ما وَصَلَ إلى ما وَصَلَ إليهِ، فكم بينَ حالتهِ الأولى وحالتهِ الثَّانيَةِ في نهايتهِ .

نوح عليه الصلاة والسلام :

وتأمَّل حالَ أبينا الثَّاني نوحٍ ﷺ وما آلت إليهِ محنتُهُ وصَبرُهُ على قومهِ تلكَ القرون كلها حتى أقرَّ عَينَهُ وأغرَقَ أهلَ الأرضِ بدَعوتهِ، وجَعَلَ العالَمَ بَعدهُ من ذريَّتهِ، وجعَلَهُ خامسَ خمسَةٍ وهم أُولو العزمِ الذينَ هم أفضلُ الرُّسلِ، وأمرَ رسولَهُ ونبيَّهُ محمداً ﷺ أن يَصبرَ كصَبرهِ وأثنى عليهِ بالشكرِ فقالَ : ﴿ أَنَّهُ كانَ عَبداً شكوراً ﴾ [الإسراء : ٣]، فوصفهُ بكمالِ الصَّبرِ والشكرِ .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

ثمَّ تأمَّل حالَ أبينا الثَّالثِ إبراهيمَ ﷺ إمامِ الحنفاءِ، وشيخِ الأنبياءِ، وعمودِ العالَمِ، وخَليلِ ربِّ العالمين من بني آدمَ .

وتأمَّل ما آلَت إليهِ محنتُهُ وصَبرُهُ وبذلُهُ نَفسه للَّهِ، ونصرُهُ دينَهُ إلى أن اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَليلاً لنَفسهِ، وأمَرَ رسولَهُ وخليلهُ محمَّداً ﷺ أن يتَّبعَ ملَّتَهُ .

وأُنبِّهُكَ على خصلَةٍ واحدَةٍ ممَّا أكرمهُ اللَّهُ بهِ في محنتهِ بذَبحِ وَلَدهِ، فإنَّ اللَّهَ تباركَ وتعالى جازاهُ على تَسليمهِ ولده لأمرِ اللَّهِ بأن بارَكَ في نَسلهِ وكثَّرهُ حتى ملأ السَّهلَ والجبَلَ، فإنَّ اللَّهَ تبارَكَ وتعالى لا يتكرَّمُ عليهِ أحدٌ وهو أكرمُ الأكرمين، فمَن تَرَكَ لوجهِهِ أمراً أو فعلَهُ لوجهِهِ بذلَ اللَّهُ لهُ أضعافَ ما تَركَهُ من ذلكَ الأمرِ أضعافاً مُضاعَفَةً، وجازاهُ بأضعافِ ما فعلهِ لأجلهِ أضعافاً مُضاعَفَةً، فلما أمَرَ إبراهيمَ بذَبحِ ولدهِ فبادَرَ لأمرِ اللَّهِ، ووافَقَ عليهِ الوَلَدُ أباهُ رضاءً منهما وتسليماً، وعلمَ اللَّهُ منهما الصِّدقَ والوفاءَ، فداهُ بذبحٍ عَظيمٍ،

وأعطاهما ما أعطاهما منَ فَضلهِ، وكانَ من بَعضِ عطاياه أن بارَكَ في ذريَّتهما حتى ملؤوا الأرضَ، فإنَّ المَقصودَ بالوَلدِ إنَّما هوَ التَّناسلُ وتَكثيرُ الذريَّةِ، ولهذا قالَ إبراهيمُ : ﴿ ربِّ هَب لي منَ الصَّالحينَ ﴾ [الصافات : ١٠٠]، وقال : ﴿ ربِّ اجعَلني مُقيمَ الصَّلاةَ ومن ذُريَّتي ﴾ [إبراهيم : ٤٠]، فغايَةُ ما كانَ يَحذرُ ويَخشى من ذبحِ ولدهِ انقطاعُ نَسلهِ، فلمَّا بَذَلَ ولَدهُ للَّهِ، وَبذل الولدُ نَفسَهُ ضاعَفَ اللَّهُ النَّسلَ وباركَ فيهِ، وكثرَ حتى ملؤوا الدُّنيا وجَعَلَ النبوَّةَ والكتابَ في ذريَّتهِ خاصَةً، وأخرَجَ منهم محمَّداً ﷺ .

موسى عليه الصلاة والسلام :

ثمَّ تأمَّل حالَ الكليمِ موسى ﷺ وما آلَت إليهِ محنتُهُ وفتونهُ من أوَّلِ ولادتهِ إلى منتَهى أمرهِ حتى كلَّمهُ اللَّهُ تَكليماً وقرَّبهُ منهُ، وكتبَ لهُ التَّوراةَ بيدهِ، ورَفَعَهُ إلى أعلى السَّماواتِ، واحتَمَلَ لهُ ما لا يحتملُ لغيرهِ، فإنَّهُ رمى الألواحَ على الأرضِ حتى تكسَّرَت وأخَذَ بلحيَةِ نبيِّ اللَّهِ هارونَ، وجرَّهُ إليهِ، ولطمَ وجهَ مَلَكَ الموتِ فَفَقأ عينهُ، وخاصَمَ ربَّهُ ليلَةَ الإسراءِ في شأنِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وربّهُ يحبُّهُ على ذلكَ كلِّهِ، ولا سَقَطَ شيءٌ منهُ من عينهِ، ولا سَقَطَت منزلتُهُ عندَهُ، بل هو الوَجيهُ عندَ اللَّهِ القريبُ، ولولا ما تَقَدَّمَ لهُ منَ السَّوابقِ وتحملِ الشدائدِ والمحَنِ العظامِ في اللَّهِ ومقاساة الأمرِ الشديدِ بينَ فرعونَ وقومهِ ثمَّ بني إسرائيلَ وما آذوهُ بهِ، وما صَبَرَ عليهم للَّهِ لم يكُن ذلك .

عيسى عليه الصلاة والسلام :

ثمَّ تأمَّل حالَ المسيحِ ﷺ وصبرَه على قومِهِ، واحتمالَه في اللَّهِ، وما تَحمَّلَهُ منهم حتى رَفَعهُ اللَّهُ إليهِ، وطهَّرهُ منَ الذينَ كفَروا، وانتَقَمَ من أعدائهِ، وقطَّعهم في الأرضِ، ومزَّقهم كلَّ ممزَّقٍ، وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخرِ الدَّهرِ .

محمد صلى الله عليه وسلم :

فإذا جئتَ إلى النَّبيِّ ﷺ وتأمَّلتَ سيرتَهُ مع قومِهِ وصَبرَهِ في اللَّهِ واحتمالَه ما لم يَحتملهُ نبيٌّ قبلهُ، وتلوُّنَ الأحوالِ عليهِ من سلمٍ وخَوفٍ، وغنى وفَقرٍ، وأمنٍ وإقامَةٍ في وطنهِ وظَعنٍ عنهُ، وتَركهِ للَّهِ، وقتلِ أحبابهِ وأوليائهِ بينَ يديهِ، وأذى الكفَّارِ لهُ بسائرِ أنواعِ الأذى منَ القَولِ والفعلِ والسِّحرِ والكذبِ والافتراءِ عليهِ والبُهتانِ، وهو معَ ذلكَ كلِّهِ صابرٌ على أمرِ اللَّهِ يَدعو إلى اللَّهِ، فَلَم يُؤذَ نبيٌّ ما أُوذيَ، ولم يَحتمل في اللَّهِ ما احتَمَلهُ، ولم يُعطَ نبيٌّ ما أُعطيهِ، فَرَفعَ اللَّهُ لهُ ذكرهُ، وقَرَنَ اسمهُ باسمهِ، وجَعَلهُ سيِّدَ النَّاسِ كلِّهم، وجعَلَهُ أقرَبَ الخلقِ إليهِ وسيلَةً، وأعظمهم عندَهُ جاهاً، وأسمعهم عندَهُ شفاعَةً، وكانَت تلكَ المحَنُ والابتلاءُ عَينَ كرامتهِ، وهي ممَّا زادهُ اللَّهُ بها شرفاً وفَضلاً، وساقهُ بها إلى أعلى المقاماتِ، وهذا حالُ وَرَثتهِ من بَعدهِ الأمثل فالأمثلِ كلٌّ لهُ نَصيبٌ منَ المحنَةِ يسوقهُ اللَّهُ بهِ إلى كمالهِ بحسبِ متابَعَتهِ لهُ، ومَن لا نَصيبَ لهُ من ذلكَ فحظُّهُ منَ الدُّنيا حظُّ من خُلقَ لها وخُلقَت لهُ، وجَعَلَ خَلاقَهُ ونَصيبَهُ فيها، فهو يأكلُ منها رَغَداً ويتمتَّعُ فيها حتى ينالهُ نَصيبُهُ

منَ الكتابِ، يُمتَحنُ أولياءُ اللَّهِ وهو في دَعَةٍ وخَفضِ عَيشٍ، ويخافونَ وهو آمنٌ، ويَحزنونَ وهو في أهلهِ مَسرورٌ لهُ شأنٌ ولهم شأنٌ، وهو في وادٍ وهم في وادٍ، همُّهُ ما يقيمُ به جاهَهُ، ويسلَّمُ بهِ مالُهُ، وتُسمعُ به كلمتُهُ لزمَ من ذلكَ ما لزمَ، ورضيَ مَن رَضي، وسخِطَ مَن سخط، وهمُّهُم إقامَةُ دينِ اللَّهِ وإعلاءُ كلمتِهُ وإعزازُ أوليائهِ وأن تكونَ الدَّعوَةُ لهُ وَحدَه، فيكونَ هو وَحدهُ المعبود لا غَيرهُ، ورسولُهُ المُطاع لا سواهُ، فللَّهِ سبحانهُ منَ الحكَمِ في ابتلائهِ أنبيائهِ ورسلهِ وعبادِه المؤمنينَ ما تَتقاصَرُ عقولُ العالمينَ عن معرفتهِ، وهَل وَصَلَ مَن وَصَلَ إلى المقاماتِ المَحمودَةِ والنِّهاياتِ الفاضلَةِ إلّا على جسرِ المحنَةِ والابتلاءِ ؟

كذا المعالي إذا ما رُمتَ تُدرِكُها
فاعبُر إليها على جسرٍ منَ التَّعبِ

والحمدُ للَّهِ وَحدَهُ، وصلَّى اللَّهُ على مُحمَّدٍ وصَحبهِ وسلَّم تَسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يومِ الدِّين، ورضيَ اللَّهُ عن أصحابِ رَسولِ اللَّهِ أجمَعين .

الإعلام بمحاسن الإسلام

وإذا تأمَّلتَ الحكمَةَ الباهرَةَ في هذا الدِّينِ القَويمِ والملَّةِ الحنيفيَّةِ والشريعَةِ المُحمَّديَّةِ التي لا تنالُ العبارَةُ كمالَها، ولا يدركُ الوَصفُ حُسنَها ولا تَقترحُ عقولُ العقلاءِ ولو اجتَمَعَت وكانَت على أكملِ عَقلِ رجلٍ منهم فَوقَها، وحسبُ العقولِ الكاملَةِ الفاضلَةِ أن أدرَكَت حُسنَها وشهدَت بفَضلِها، وأنَّهُ ما طَرَقَ العالَم شريعَة أكمَلَ ولا أجلَّ ولا أعظَمَ منها، فهي نفسُها الشاهدُ والمَشهودُ لهُ، والحُجَّةُ والمُحتَجُّ لهُ، والدَّعوى والبُرهانُ، ولو لم يأتِ الرَّسولُ ببُرهانٍ عَليها لكفى بها بُرهاناً وآيَةً وشاهداً على أنَّها من عندِ اللَّهِ، وكلُّها شاهدَةٌ لهُ بكمالِ العلمِ وكمالِ الحكمَةِ وسَعَةِ الرَّحمَةِ والبرِّ والإحسانِ والإحاطَةِ بالغَيبِ والشهادَةِ والعلمِ بالمبادىءِ والعواقبِ، وأنَّها من أعظَمِ نعَمِ اللَّهِ التي أنعَمَ بها على عبادِهِ، فما أنعَمَ عليهم بنعمَةٍ أجلَّ من أن هداهم لها، وجَعلهم من أهلِها وممَّن ارتَضاهم لها، فلهذا امتنَّ على عبادِهِ بأن هداهم لها قال تعالى: ﴿ لَقَد مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذ بَعَثَ فيهم رَسولاً من أنفُسهم يَتلو عليهم آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمَةَ وإن كانوا من قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال مُعَرِّفاً لعبادِهِ ومُذَكِّراً لهم عَظيمَ نعمَتهِ عليهم مُستَدعياً منهم شُكرَهُ على أن جعلهم من أهلها : ﴿ اليومَ أكملتُ لكُم دينَكُم ... ﴾ [المائدة : ٣] .

وتأمَّل كيفَ وَصَفَ الدِّينَ الذي اختارَهُ لهم بالكمالِ، والنِّعمَةِ التي أسبَغها عليهم بالتَّمامِ، إيذاناً في الدِّينِ بأنَّهُ لا نَقصَ ولا عَيبَ ولا خَلَلَ، وليس بخارج عن الحكمَةِ بوجهٍ بل هو الكاملُ في حُسنهِ وجلالتهِ، ووَصَفَ النِّعمَةَ بالتَّمامِ إيذاناً بدوامِها واتِّصالِها، وأنَّهُ لا يَسلبهم إيَّاها بعد إذ أعطاهموها بل يتمُّها لهم بالدَّوامِ في هذه الدَّارِ وفي دارِ القَرارِ .

وتأمَّل حُسنَ اقترانِ التَّمامِ بالنِّعمَةِ، وحُسنَ اقترانِ الكمالِ بالدِّينِ وإضافَة الدِّينِ إليهم إذ هُم القائمونَ به المُقيمونَ لهُ، وأضافَ النِّعمَةَ إليهِ إذ هو وليُّها ومُسديها والمُنعمُ بها عليهم، فهي نعمتُهُ حقّاً، وهم قابلوها، وأتى في الكمالِ باللامِ المؤذنَةِ بالاختصاصِ وأنَّهُ شيءٌ خُصُّوا به دونَ الأُمَمِ، وفي إتمامِ النِّعمَةِ بعلى المؤذنَةِ بالاستعلاءِ والاشتمالِ والإحاطَةِ، فجاءَ ﴿ أتمَمتُ ﴾ في مُقابَلةِ ﴿ أكملتُ ﴾ و ﴿ عليكم ﴾ في مقابلة ﴿ لكم ﴾ و ﴿ نعمتي ﴾ في مُقابَلَةِ ﴿ دينكُم ﴾، وأكَّدَ ذلكَ وزادهُ تَقريراً وكمالاً وإتماماً للنِّعمَةِ بقوله : ﴿ وَرَضيتُ لكُم الإسلامَ ديناً ﴾ .

وكانَ بَعضُ السَّلفِ الصَّالحِ يقولُ : يا لهُ من دينٍ لو أنَّ لهُ رجالاً !

وَقَد ذكرنا فَصلاً مختَصَراً في دلالَةِ خَلقهِ على وَحدانيَّتهِ وَصفاتِ كمالهِ ونعوتِ جلالهِ وأسمائهِ الحُسنى، وأردنا أن نَختمَ بهِ القسمَ الأوَّلَ من الكتابِ ثمَّ رأينا أن نتبعهُ فَصلاً في دلالَةِ دينهِ وشرعهِ على وحدانيَّتهِ وعلمهِ وحكمتهِ

ورحمتهِ وسائرِ صفاتِ كمالـهِ إذ هذا من أشرَفِ العلومِ التي يكتسبها العَبدُ في هذه الدَّارِ، ويدخلُ بها إلى الدَّارِ الآخرَةِ، وَقَد كانَ الأولى بنا الإمساك عن ذلكَ؛ لأنَّ ما يَصفُهُ الواصفونَ منه وتَنتَهي إليهِ علومهم هو كما يُدخِلُ الرَّجلُ أصبعَهُ في اليَمِّ ثمَّ ينزعها فهو يَصِفُ البَحرَ مما يعلقُ على إصبعهِ منَ البَللِ وأينَ ذلكَ منَ البَحرِ ؟ فيظنُّ السَّامعُ أنَّ تلكَ الصِّفَةَ أحاطَت بالبَحرِ وإنَّما هي صفَةُ ما عَلِقَ بالإصبَعِ منهُ، وإلّا فالأمرُ أجلُّ وأعظمُ وأوسعُ من أن تُحيطَ عقولُ البَشرِ بأدنى جزءٍ منهُ، وماذا عَسى أن يَصفَ بهِ النَّاظرُ إلى قُرصِ الشمسِ من ضوئِها وقَدرِها وحُسنِها وعجائبِ صنعِ اللَّهِ فيها ؟ ولكن قَد رضيَ اللَّهُ من عبادهِ بالثَّناءِ عليهِ وذكرِ آلائهِ وأسمائهِ وصفاتهِ وحكمتهِ وجلالهِ مع أنَّهُ لا يُحصى ثناءٌ عليهِ أبداً بل هو كما أثنى على نَفسهِ؛ فلا يبلغُ مخلوقٌ ثناءً عليهِ تباركَ وتعالى ولا وصفَ كتابِه ودينِه بما يَنبَغي لهُ، بل لا يبلغُ أحدٌ منَ الأمَّةِ ثناءً على رسولهِ كما هو أهلٌ أن يُثنى عليهِ بل هو فَوقَ ما يُثنونَ بهِ عليهِ، ومع هذا إنَّ اللَّهَ تعالى يحبُّ أن يُحمَدَ ويُثنى عليهِ وعلى كتابهِ ودينهِ ورسولهِ؛ فهذه مقدِّمَةُ اعتذارٍ بينَ يَدي القُصورِ والتَّقصيرِ من راكبِ هذا البَحرِ الأعظمِ، واللَّهُ عليمٌ بمقاصدِ العبادِ ونياتهم، وهو أولى بالعُذرِ والتَّجاوُزِ .

بين البصر والبصيرة

وبصائرُ النَّاسِ في هذا النُّورِ الباهرِ تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ :

○ **أحدها** : مَن عُدِمَ بَصيرَةَالإيمانِ جملَةً فهو لا يَرى من هذا الصِّنفِ إلّا الظُّلماتِ والرَّعدِ والبَرقِ، فهو يَجعَلُ أصبعَيهِ في أُذنهِ منَ الصَّواعقِ ويدَهُ على عينهِ منَ البَرقِ خشيَةَ أن يخطفَ بَصَرَهُ ولا يجاوزُ نَظرهُ ما وراءَ ذلكَ منَ الرَّحمَةِ وأسبابِ الحياةِ الأبديَّةِ، فهذا القسمُ هو الذي لم يَرفَع بهذا الدِّينِ رأساً ولم يَقبَل هدى اللّهِ الذي هَدى بهِ عبادَهُ ولو جاءتهُ كلُّ آيَةٍ؛ لأنَّهُ ممَّن سَبَقَت لهُ الشقاوَةُ، وحقَّت عليهِ الكلمَةُ، ففائدَةُ إنذارِ هذا إقامَةُ الحجَّةِ عليهِ ليعذَّبَ بذنبهِ لا بمجرَّدِ علمِ اللّهِ فيهِ .

○ **الثَّاني** : أصحابُ البَصيرَةِ الضَّعيفَةِ الخفَّاشيَّةِ الذينَ نسبَةُ أبصارهم إلى هذا النُّورِ كنسبَةِ أبصارِ الخفَّاشِ إلى جُرمِ الشمسِ، فهم تَبَعٌ لآبائهم وأسلافِهم، دينُهُم دينُ العادَةِ والمنشأ، وهم الذينَ قالَ فيهم أميرُ المؤمنينَ عليٌّ بن أبي طالبٍ : « أو مُنقاداً للحقِّ لا بَصيرَةَ لهُ في إصابَته »، فهؤلاءِ إذا كانوا مُنقادينَ

لأهلِ البَصائرِ لا يتخالجهُم شكٌّ ولا ريبٌ فهم على سبيلِ نَجاةٍ .

الثَّالث : وهو خلاصَةُ الوجودِ ولبابُ بني آدمَ وهم أولو البَصائرِ النَّافذَةِ الذينَ شهدَت بصائرهم هذا النُّورَ المُبينَ، فكانوا منهُ على بَصيرَةٍ ويَقينٍ ومُشاهَدَةٍ لحُسنهِ وكمالهِ بحيثُ لو عُرِضَ على عقولِهم ضدُّهُ لرأوهُ كالليلِ البَهيمِ الأسوَدِ، وهذا هو المحكُّ والفرقانُ بينهم وبينَ الذينَ قبلهم، فإنَّ أولئكَ بحسبِ داعيهم ومَن يقرن بهم كما قالَ فيهم عليٌّ بن أبي طالبٍ : « أتباعُ كلِّ ناعقٍ يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ لم يَستضيئوا بنورِ العلمِ ولم يَلجئوا إلى ركنٍ وثيق » هذا علامَةُ مَن عَدِمَ البَصيرَةَ؛ فإنَّكَ تراهُ يَستَحسنُ الشيءَ وضدَّهُ ويمدحُ الشيءَ ويذمَّهُ بعينهِ إذا جاءَ في قالبٍ لا يَعرفهُ فيعظِّمُ طاعةَ الرَّسولِ ويَرى عَظيماً مخالفَتهُ ثمَّ هو من أشدِّ النَّاسِ مخالفَةً لهُ ونَفياً لما أثبتهُ ومعاداةً للقائمينَ بسنَّتِهِ، وهذا من عَدِمَ البَصيرَةِ، فهذا القسمُ الثَّالث إنَّما عملهم على البصائرِ وبها تفاوُتُ مراتبهم في درجاتِ الفَضلِ كما قالَ بَعضُ السَّلفِ وَقَد ذكَرَ السَّابقينَ فقال : إنَّما كانوا يعملونَ على البصائرِ وما أوتيَ أحدٌ أفضَلَ من بَصيرَةٍ في دينِ اللَّهِ ولو قصَّرَ في العَملِ قال تعالى : ﴿ واذكُر عبادَنا إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويَعقوبَ أُولي الأيدي والأبصارِ ﴾ [ص : ٤٥] .

قال ابنُ عبَّاسٍ : أُولي القوَّةِ في طاعَةِ اللَّهِ، والأبصارِ في المعرفَةِ في أمرِ اللَّهِ .

وقال قتادَةُ ومجاهدٌ : أُعطوا قوَّةً في العبادَةِ، وبَصَراً في الدِّينِ .

واعلمُ النَّاسِ أبصرُهم بالحقِّ إذا اختلَفَ النَّاسُ وإن كانَ مقصِّراً في العملِ، وتحتَ كلٍّ من هذه الأقسامِ أنواعٌ لا يُحصي مقاديرَ تفاوُتِها إلّا اللَّهُ .

إذا عُرِفَ هذا؛ فالقسمُ الأوَّلُ لا يَنتفعُ بهذا البابِ ولا يزدادُ بهِ إلّا ضلالَةً، والقسمُ الثَّاني ينتفعُ بهِ بقَدرِ فَهمِهِ واستعدادِهِ، والقسمُ الثَّالثُ وإليهم هذا الحديثُ يُساقُ وهم أولو الألبابِ الذينَ يخصُّهُم اللَّهُ في كتابهِ بخطابِ التَّنبيهِ والإرشادِ وهم المُرادونَ على الحقيقَةِ بالتَّذكرَةِ قال تعالى : ﴿ وما يتَذَكَّرُ إلّا أولو الالبابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

أليس اللّٰه بأحكم الحاكمين؟

قَد شهدَت الفطرُ والعقولُ بأنَّ للعالمِ ربًّا قادراً حليماً عليماً رحيماً كاملاً في ذاتِهِ وصفاتِهِ، لا يكونُ إلّا مُريداً للخَيرِ لعبادِهِ، مجرياً لهم الشريعَةَ والسُّنَّةَ الفاضلَةَ العائدَةَ باستصلاحهم الموافقَةَ لما ركِّبَ في عقولهم من استحسانِ الحَسَنِ واستقباحِ القبيحِ، وما جَبَلَ طباعَهُم عليهِ من إيثارِ النّافعِ لهم المُصلحِ لشأنهم، وتَركِ الضّارِّ المُفسدِ لهم، وشهدَت هذه الشريعَةُ لهُ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرّاحمينَ، وأنَّهُ المُحيطُ بكلِّ شيءٍ علماً، وإذا عرفَ ذلكَ فليسَ منَ الحكمَةِ الإلهيَّةِ بل ولا الحكمَةِ في ملوكِ العالمِ أنَّهُم يسوُّونَ بينَ مَن هو تَحتَ تَدبيرِهم في تَعريفهم كلما يعرفهُ الملوكُ وأعلامهِم جميعَ ما يعلمونهُ، واطلاعِهم على كلِّ ما يَجرونَ عليهِ سياساتِهم في أنفسهم وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلدٍ فيها إلّا أخبَروا من تَحتَ أيديهم بالسَّببِ في ذلكَ والمَعنى الذي قَصدوهُ منهُ، ولا يأمرونَ رعيَّتَهُم بأمرٍ ولا يَضربونَ عليهم بَعثاً ولا يسوسونهم سياسَةً إلّا أخبَروهم بوجهِ ذلكَ وسببهِ وغايتِهِ ومدَّتهِ بل لا تنصرفُ بهم الأحوالُ في مطاعمهم وملابسِهِم ومراكبِهِم إلّا أوقفوهُم على أغراضهم فيهِ، ولا شكَّ أنَّ هذا منافٍ للحكمَةِ والمَصلَحةِ بينَ المَخلوقينَ،

فكيفَ بشأنِ ربِّ العالمينَ وأحكمِ الحاكمينَ الذي لا يشاركهُ في علمهِ ولا حكمتهِ أحدٌ أبداً ؟ فحسبُ العقولِ الكاملَةِ أن تَستدلَّ بما عرَفَت من حكمتهِ على ما غابَ عنها، وتعلمَ أنَّ لـهُ حكمَةً في كلِّ ما خَلَقهُ وأمَرَ بهِ وشرَعَـهُ، وهل تَقتَضي الحكمَةُ أن يـخبرَ اللَّهُ تعالى كلَّ عبدٍ من عباده بكلِّ ما يفعلهُ ويوقفهم على وجهِ تَدبيرِهِ في كلِّ ما يريدهُ ،وعلى حكمتهِ في صَغيرِ ما ذرأ وبرأ من خليقتهِ، وهل في قوى المخلوقاتِ ذلكَ ؟ بل طَوى سبحانهُ كثيراً من صنعهِ وأمرهِ عن جميعِ خَلقهِ فلم يُطلع على ذلكَ مَلكَاً مقرَّباً ولا نبيَّاً مُرسلاً، والـمُدبِّرُ الـحكيمُ منَ البَشرِ إذا ثَبَتَت حكمتهُ وابتغاؤهُ الصَّلاحَ لـمَن تَـحتَ تَدبيرهِ وسياستهِ كفى في ذلكَ تتبُّع مقاصده فيمَن يوَلِّـي ويَعزلُ، وفي جنسِ ما يأمرُ بهِ ويَنهى عنهُ، وفي تَدبيرهِ لرعيَّتهِ وسياستهِ لـهم دونَ تفاصيلِ كلِّ فعلٍ من أفعالـهِ، اللـهمَّ إلّا أن يبلغَ الأمرُ في ذلكَ مبلغاً لا يوجَدُ لفعلهِ منفذٌ ومساغٌ في المصلحَةِ أصلاً،، فحينئذٍ يـخرجُ بذلكَ عن استحقاقِ اسمِ الـحكيمِ ولن يَـجدَ أحدٌ في خَلقِ اللَّهِ ولا في أمرهِ ولا واحداً من هذا الضَّربِ بل غايَةُ ما تـخرجهُ نَفسُ المتعنِّتِ أموراً يعجزُ العَقلُ عن معرفَةِ وجوهها وحكمتها، وأمَّا أن يَنفي ذلكَ عنها فمعاذَ اللَّهِ إلّا أن يكونَ ما أخرجهُ كذبٌ على الـخَلقِ والأمرِ فلم يَـخلقِ اللَّهُ ذلكَ ولا شرعَهُ .

وإذا عُرفَ هذا فَقَد عُلِمَ انَّ ربَّ العالمين أحكَمُ الحاكمين والعالِـمُ بكلِّ شيءٍ والغنـيُّ عن كلِّ شيءٍ والقادرُ على كلِّ شيءٍ، ومن هذا شأنهُ لم تـخرج أفعالـهُ وأوامرُهُ قطُّ عن الـحكمَةِ والرَّحمَةِ والـمَصلَحَةِ وما يَـخفى على العبادِ من معاني حكمتهِ في صنعهِ وإبداعهِ وأمرهِ وشرعهِ فيكفيهم فيه معرفتُهُ بالوَجهِ العامِّ

أن تَضمَّنَتهُ حكمَةٌ بالغَةٌ وإن لم يَعرفوا تَفصيلَها، وأنَّ ذلكَ من علمِ الغَيبِ الذي استأثَرَ اللَّهُ به، فيكفيهم في ذلكَ الإسنادُ إلى الحكمَةِ البالغَةِ العامَّةِ الشاملَةِ التي عَلموا ما خفيَ منها بما ظَهَرَ لهم، هذا وإنَّ اللَّهَ تعالى بَنى أمورَ عبادِهِ على أن عرَّفهم معاني جلائلِ خَلقهِ وأمرهِ دونَ دقائقهما وتفاصيلهما، وهذا مطَّردٌ في الأشياءِ أصولِها وفروعِها، فأنتَ إذا رأيتَ الرَّجلَينِ مثلاً أحدهما أكثرُ شَعْراً من الآخَرِ أو أشدَّ بياضاً أو أحدُّ ذهناً لأمكنَكَ أن تَعرفَ من جهَةِ السَّببِ الذي أجرى اللَّهُ عليهِ سنَّةَ الخلقيَّةِ وَجهَ اختصاصِ كلٍّ واحدٍ منهما بما اختُصَّ بهِ، وهكذا في اختلافِ الصُّوَرِ والأشكالِ، ولكن لو أرَدتَ أن تَعرفَ ماذا كانَ شعرُ هذا مثلاً يزيدُ على شعرِ الآخَرِ بعَددٍ معيَّنٍ أو المعنى الذي فَضَّلهُ به في القَدرِ المَخصوصِ والتَّشكيلِ المَخصوصِ ومَعرفَةِ القَدْرِ الذي بينهما منَ التَّفاوُتِ وسببهِ لما أمكنَ ذلكَ أصلاً، وقِس على هذا جميعَ المخلوقاتِ منَ الرِّمالِ والجبالِ والأشجارِ ومقاديرِ الكواكبِ وهيآتها، وإذا كانَ لا سبيلَ إلى معرفَةِ هذا في الخَلقِ بل يَكفي فيهِ العلَّةُ العامَّةُ والحكمَةُ الشاملَةُ فهكذا في الأمرِ يعلمُ أنَّ جميعَ ما أمَرَ به متضمِّنٌ لحكمَةٍ بالغَةٍ، وأمَّا تفاصيلُ أسرارِ المأموراتِ والمَنهيَّاتِ فلا سبيلَ إلى علمِ البَشريَّةِ، ولكن يُطلعُ اللَّهُ من شاءَ من خَلقهِ على ما شاءَ منهُ، فاعتصِم بهذا الأصل .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

أهميَّة الشريعة

حاجَةُ النَّاسِ إلى الشريعَةِ ضَروريَّةٌ فوقَ حاجتِهم إلى كلِّ شيءٍ، ولا نسبَةَ لحاجتهم إلى علمِ الطبِّ إليها؛ ألا ترى أنَّ أكثَرَ العالم يَعيشونَ بغَيرِ طَبيبٍ، ولا يكونُ الطَّبيبُ إلّا في بَعضِ المُدنِ الجامعَةِ، وأمَّا أهلُ البَدوِ كلُّهم وأهلُ الكفورِ كلُّهم وعامَّةُ بني آدمَ فلا يَحتاجونَ إلى طَبيبٍ وهم أصحُّ أبداناً وأقوى طَبيعَةً ممَّن هو متقيِّدٌ بالطَّبيبِ ولعلَّ أعمارَهم متقاربَةٌ، وقَد فَطَرَ اللَّهُ بني آدَمَ على تناوُلِ ما يَنفعهم واجتنابِ ما يضرُّهُم، وجعَلَ لكلِّ قومٍ عادَةً وعُرفاً في استخراجِ ما يهجمُ عليهم منَ الأدواءِ حتى أنَّ كثيراً من أُصولِ الطبِّ إنَّما أُخذَت عن عوائدِ النَّاسِ وعُرفهم وتجاربهم، وأمَّا الشريعةُ فمَبناها على تَعريفِ مواقعِ رِضى اللَّهِ وسَخطهِ في حركاتِ العبادِ الاختياريَّةِ؛ فمبناها على الوَحيِ المَحضِ .

والحاجَةُ إلى التَّنفُّسِ فَضلاً عن الطَّعامِ والشرابِ؛ لأنَّ غايَةَ ما يقدرُ في عَدَمِ التَّنفُّسِ والطَّعامِ والشرابِ موتُ البَدنِ وتعطُّلُ الرُّوحِ عنهُ، وأمَّا ما يقدرُ عندَ عَدمِ الشريعَةِ فَفَسادُ الرُّوحِ والقَلبِ جملَةً وهلاكُ الأَبدِ، وشتَّانَ بينَ هذا وهلاكِ البَدنِ بالمَوتِ؛ فليسَ النَّاسُ قطُّ إلى شيءٍ أحوَجَ منهم إلى مَعرفَةِ ما

جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ والقيامِ بهِ والدَّعوَةِ إليهِ والصَّبرِ عليهِ وجهادِ مَن خَرجَ عنهُ حتى يَرجعَ إليهِ، وليسَ للعالَـمِ صلاحٌ بدونِ ذلكَ ألبتَّةَ، ولا سبيلَ إلى الوُّصولِ إلى السَّعادَةِ والفَوزِ الأكبَرِ إلَّا بالعبورِ على هذا الـجسرِ .

حُسْنُ الشَّريعة مركوز في الفِطَر

الشرائعُ كلُّها في أُصولها وإن تبايَنت متَّفقةٌ مَركوزٌ حُسنُها في العقولِ، ولو وَقعَت على غيرِ ما هيَ عليهِ لخَرَجَت عن الحكمَةِ والمَصلَحَةِ والرَّحمَةِ، بل منَ المُحالِ أن تأتي بخلافِ ما أتَت بهِ : ﴿ وَلَو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَهُم لَفَسَدَت السَّماواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وكيفَ يجوِّزُ ذو العَقلِ أن تَرِدَ شريعَةُ أحكمِ الحاكمينَ بضدِّ ما وَرَدَت بهِ ؟

فالصَّلاةُ وَقَد وُضعَت على أكمَلِ الوُجوهِ وأحسَنِها التي تَعبَّدَ بها الخالقُ تبارَكَ وتعالى عبادَهُ؛ مِن تَضمُّنِها للتَّعظيمِ لهُ بأنواعِ الجوارحِ مَن نطقِ اللسانِ وعملِ اليَدَينِ والرِّجلينِ والرَّأسِ وحواسِّهِ وسائرِ أجزاءِ البَدنِ كلّ يأخذُ حظَّهُ من الحكمَةِ في هذه العبادَةِ العَظيمَةِ المقدارِ، مع أخذِ الحواسِّ الباطنَةِ بحظِّها منها، وقيامِ القَلبِ بواجبِ عبوديَّتِهِ فيها؛ فهي مُشْتَمِلَةٌ على الثَّناءِ والحَمدِ والتَّمجيدِ والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ وشهادَةِ الحقِّ والقيامِ بينَ يَدي الرَّبِّ مقامَ العَبدِ الذَّليلِ الخاضعِ المُدبَّرِ المَربوبِ، ثمَّ التَّذلُّلُ لهُ في هذا المقامِ والتَّضرُّعُ والتَّقرُّبُ إليهِ بكلامهِ، ثمَّ انحناءُ الظَّهرِ ذُلّاً لهُ وخشوعاً واستكانَةً،

ثمَّ استواؤهُ قائماً ليَستعدَّ لخضوعٍ أكملَ لهُ منَ الخضوعِ الأوَّلِ وهو السُّجودُ من قيامٍ؛ فيَضَع أشرَفَ شيءٍ فيهِ وهو وَجهُهُ على التُّرابِ خُشوعاً لربِّهِ واستكانَةً وخُضوعاً لعظَمتهِ وذلّاً لعزَّتهِ، وقَد انكَسَرَ لهُ قَلبُهُ وذلَّ لهُ جسمُهُ وخَشعَت جوارحُهُ، ثمَّ يستوي قاعداً يتضرَّعُ لهُ ويتذلَّلُ بينَ يَديهِ ويسألُهُ من فَضلهِ، ثمَّ يعودُ إلى حالهِ منَ الذُّلِّ والخشوعِ والاستكانَةِ، فلا يَزالُ هذا دأبُهُ حتى يَقضيَ صلاتَهُ، فيجلسَ عندَ إرادَةِ الانصرافِ منها مُثنياً عَلى ربِّهِ مُسلِّماً على نبيِّهِ وعلى عبادهِ، ثمَّ يُصلِّي على رسولهِ، ثمَّ يسألُ ربَّهُ من خَيرهِ وبرِّهِ وفَضلهِ؛ فأيُّ شيءٍ بَعدَ هذه العبادَةِ منَ الحُسنِ ؟ وأيُّ كمالٍ وراءَ هذا الكمالِ ؟ وأيُّ عُبوديَّةٍ أشرفُ من هذه العبوديَّة ؟ فمَن جوَّزَ عَقلُهُ أن تَرِدَ الشريعَةُ بضدِّها من كلِّ وَجهٍ في القَولِ والعَمَلِ، وأنَّهُ لا فَرقَ في نَفسِ الأمرِ بينَ هذه العبادَةِ وبينَ ضدِّها من السُّخريَةِ والسبِّ والبَطَرِ وكشفِ العَورَةِ والبَولِ على السَّاقينِ والضَّحكِ والصَّفيرِ وأنواعِ المجونِ وأمثالِ ذلكَ؛ فليعزِّ عقلَهُ، وليسألَ اللَّهَ أن يَهبَهُ عَقلاً سواهُ .

وأمَّا حُسنُ **الزَّكاةِ** وما تَضمَّنَتهُ من مواساةِ ذوي الحاجاتِ والمَسكنَةِ والخلَّةِ من عبادِ اللَّهِ الذينَ يعجزونَ عن إقامَةِ نفوسهم ويُخافُ عليهم التَّلفُ إذا خَلا الأغنياءُ وأنفسهم، وما فيها منَ الرَّحمَةِ والإحسانِ والبرِّ والطّهارَةِ وإيثارِ أهلِ الإيثارِ والاتِّصافِ بصِفَةِ الكرَمِ والجودِ والفَضلِ والخروجِ من سماتِ أهلِ الشحِّ والبُخلِ والدَّناءَةِ فأمرٌ لا يَستريبُ عاقلٌ في حُسنهِ ومَصلحتهِ، وأنَّ الآمرَ به أحكمُ الحاكمينَ، وليسَ يجوزُ في العَقلِ ولا في الفطرَةِ ألبتَّةِ أن تَرِدَ شريعَةٌ منَ الحكيمِ العليمِ بضدِّ ذلكَ أبداً .

وأمَّا **الصَّوْمُ** فناهيكَ بهِ من عبادَةٍ تكفُّ النَّفسَ عن شهواتِها، وتُخرِجُها عن شبهِ البهائمِ إلى شبَهِ الملائكَةِ المُقرَّبينَ؛ فإنَّ النَّفسَ إذا خُلِّيَت ودواعي شهواتِها التَحقَت بعالَمِ البَهائم، فإذا كفَّت شهواتَها للَّهِ ضيَّقَت مجاري الشيطانِ، وصارَت قريبَةً منَ اللَّهِ بتَركِ عادتها وشهواتها محبَّةً لهُ وإيثاراً لمرضاتهِ وتقرُّباً إليهِ، فيدعُ الصَّائمُ أحبَّ الأشياءِ إليهِ وأعظمَها لصوقاً بنفسهِ من الطَّعامِ والشرابِ والجماعِ من أجلِ ربِّهِ، فهو عبادَةٌ ولا تَتَصوَّرُ حَقيقتُها إلّا بتَركِ الشهوَةِ للَّهِ، فالصَّائمُ يَدَعُ طَعامَهُ وشرابَهُ وشهواتهِ من أجلِ ربِّهِ، وهذا مَعنى كونِ الصَّومِ لهُ تباركَ وتعالى، وبهذا فسَّرَ النَّبيُّ ﷺ هذه الإضافَةَ في الحديثِ؛ فقال : « يقولُ اللَّهُ تعالى : كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ الحسنَةُ بعَشرَةِ أمثالها قال اللَّهُ إلّا الصَّوم فإنَّهُ لي وأنا أجزي بهِ يَدعُ طعامَهُ وشرابَهُ من أجلي »[1] حتى إنَّ الصَّائمَ ليتَصوَّرُ بصورَةِ مَن لا حاجَةَ لهُ في الدُّنيا إلّا في تَحصيلِ رضى اللَّهِ، وأيُّ حُسنٍ يَزيدُ على حُسنِ هذه العبادَةِ التي تَكسرُ الشهوَةَ، وتَقمعُ النَّفسَ، وتُحيي القَلبَ وتُفرحهُ، وتُزهِدُ في الدُّنيا وشهواتِها، وتَرغَبُ فيما عندَ اللَّهِ، وتذكرُ الأغنياءَ بشأنِ المساكينِ وأحوالهم وأنَّهُم قَد أخذوا بنصيبٍ من عَيشهم، فتَعطفُ قلوبُهم عليهم ويعلمونَ ما هم فيهِ من نِعمِ اللَّهِ فيَزدادوا لهُ شكراً .

وبالجملَةِ فعَونُ الصَّومِ على تَقوى اللَّهِ أمرٌ مَشهورٌ، فما استعانَ أحدٌ على تَقوى اللَّهِ وحفظِ حدودِه واجتنابِ محارمهِ بمثلِ الصَّومِ، فهو شاهدٌ لمَن

---

(١) أخرجه البخاري (٤ / ١١٨ - فتح)، ومسلم (١١٥١) (١٦٤) من حديث أبي هريرة - رضي اللَّه عنه .

شرعَهُ وأمَرَ بهِ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ، وأنَّهُ إنَّما شرَعهُ إحساناً إلى عبادهِ ورحمَةً بهم ولطفاً بهم لا بُخلاً عليهم برزقهِ، ولا مجرَّدَ تَكليفٍ وتَعذيبٍ خالٍ منَ الحكمَةِ والمَصلحَةِ، بل هو غايَةُ الحكمَةِ والرَّحمَةِ والمَصلحَةِ، وإنَّ شرعَ هذه العباداتِ لهم من تمامِ نعمتهِ عليهم ورحمتهِ بهم .

وأمَّا **الحجُّ** فشأنٌ آخَرُ لا يدركهُ إلّا الحُنفاءُ الذينَ ضَرَبوا في المحبَّةِ بسهمٍ، وشأنُهُ أجلُّ من أن تُحيطَ بهِ العبارَةُ وهو خاصَّةُ هذا الدِّينِ الحنيفِ حتى قيلَ في قوله تعالى : ﴿ حُنفاءَ للَّهِ غَيرَ مُشركينَ ﴾ [الحج : ٣١]، أي : حُجَّاجاً، وجَعَلَ اللَّهُ بَيْتَهُ الحرامَ قياماً للنَّاسِ، فهو عمودُ العالَمِ الذي عليهِ بناؤهُ، فلو تركَ النَّاسُ كلُّهُم الحجَّ سنَةً لخرَّت السَّماءُ على الأرضِ هكذا قال تُرجمانُ القرآنِ ابنُ عبَّاسٍ، فالبَيتُ الحرامِ قيامُ العالمِ فلا يزالُ قياماً ما زالَ هذا البيتُ محجوجاً، فالحجُّ هو خاصَّةُ الحنيفةِ، ومعونَةُ الصَّلاةِ وسرُّ قولِ العَبدِ لا إلهَ إلّا اللَّهُ، فإنَّهُ مؤسَّسٌ على التَّوحيدِ المَحضِ والمحبَّةِ الخالصَةِ وهو استزارَةُ المَحبوبِ لأحبَّائهِ ودعوتُهم إلى بيتهِ ومحلِّ كرامتهِ، ولهذا إذا دَخَلوا في هذه العبادَةِ فشعارهم لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك إجابَةَ محبٍّ لدَعوَةِ حبيبهِ، ولهذا كانَ للتَّلبيَةِ موقعٌ عندَ اللَّهِ، وكلَّما أكثرَ العَبدُ منها كانَ أحبُّ إلى ربِّهِ وأحظى فهو لا يملكُ نَفْسَهُ أن يقولَ لبَّيكَ لبَّيكَ حتى ينقطعَ نَفَسَهُ .

وأمَّا أسرارُ ما في هذه العبادَةِ منَ الإحرامِ واجتنابِ العوائدِ، وكشفِ الرَّأسِ نَزعِ الثِّيابِ المُعتادَةِ والطَّوافِ، والوُقوفِ بعَرَفَةَ، ورمي الجمارِ، وسائرِ شعائرِ الحجِّ فممَّا شهدَت بحسنهِ العقولُ السَّليمَةُ والفطرُ المُستقيمَةُ،

وعلمَت بأنَّ الذي شَرَعَ هذه لا حكمَةَ فوقَ حكمتهِ .

وأمَّا **الجهاد** فناهيكَ به من عبادَةٍ هي سنامُ العباداتِ وذروتُها وهو المحكُّ والدَّليلُ المفرّقُ بينَ المُحبِّ والمُدَّعي، فالمُحبُّ قَد بَذَلَ مهجَتهُ ومالَهُ لربِّهِ وإلـهِهِ متقرّباً إليهِ ببَذلِ أعزِّ ما بحضرتهِ يودُّ لو أنَّ لهُ بكلِّ شعرَةٍ نَفساً يبذلها في حبِّهِ ومرضاتهِ ويَودُّ أن لو قتلَ فيهِ ثمَّ أُحيي ثمَّ قُتلَ ثمَّ أُحيي ثمَّ قُتلَ فهو يَفدي بنفسهِ حَبيبهُ وعَبدهُ ورسولهُ ولسانُ حالهِ يقول :

يفديكَ بالنَّفسِ صبٌّ لو يكونُ لهُ
أعزّ مِن نَفسهِ شيءٌ فَداكَ بهِ

فهو قَد سلَّمَ نَفسَهُ ومالَهُ لمشتريها، وعَلمَ أنَّهُ لا سبيلَ إلى أخذِ السِّلعَةِ إلّا ببَذلِ ثمنها : ﴿ إنَّ اللَّهَ اشتَرى منَ المؤمنينَ أنفسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لَهُم الجنَّةَ يُقاتلونَ في سبيلِ اللَّهِ فيَقتلونَ ويُقتَلونَ ﴾، وإذا كانَ من المعلومِ المستقرِّ عندَ الخَلقِ أنَّ علامَةَ المحبَّةِ الصَّحيحَةِ بَذلُ الرُّوحِ والمالِ في مَرضاتِ المحبوبِ، فالمحبوبُ الحقُّ الذي لا تنبَغي المحبَّةُ إلّا لهُ، وكلُّ محبَّةٍ سوى محبَّته فالمحبَّةُ لهُ باطلةٌ أولى بأن يشرعَ لعبادهِ الجهادَ الذي هو غايَةُ ما يتقرَّبونَ به إلى إلـههم وربِّهم، وكانَت قرابينُ مَن قبلهم منَ الأُمَمِ في ذبائحهم وقرابينهم تَقديمَ أنفسهم للذَّبحِ في اللَّهِ مولاهم الحقِّ، فأيُّ حسنٍ يَزيدُ على حُسنِ هذه العبادَةِ، ولهذا ادَّخَرها اللَّهُ لأكملِ الأنبياءِ وأكملِ الأُمَمِ عَقلاً وتَوحيداً ومحبَّةً للَّهِ .

وأمَّا **الضَّحايا** والهدايا فقربانٌ إلى الخالقِ سبحانهُ تقومُ مقامَ الفديَةِ

عن النَّفسِ المُستحقَّةِ للتَّلفِ فديَةً وعوضاً وقرباناً إلى اللَّهِ وتَشَبُّهاً بإمامِ الحنفاءِ وإحياءً لسنَّتهِ أن فَدى اللَّهُ ولَدَهُ بالقربانِ فجعَلَ ذلكَ في ذريَّتهِ باقياً أبَداً .

وأمَّا **الأيمانُ والنُّذورُ** فعقودٌ يعقدُها العَبدُ على نَفسَهِ يؤكِّدُ بها ما ألزَمَ نَفسهُ منَ الأُمورِ باللَّهِ، وللَّهِ فهي تَعظيمٌ للخالقِ ولأسمائهِ ولحقِّهِ، وأن تكونَ العقودُ به ولهُ، وهذا غايَةُ التَّعظيمِ فلا يعقدُ بغَيرِ اسمهِ ولا لغيرِ القُربِ إليهِ بل إن حَلَفَ فباسمهِ تَعظيماً وتَبجيلاً وتَوحيداً وإجلالاً، وإن نَذَرَ فلهُ تَوحيداً وطاعَةً ومحبَّةً وعبوديَّةً، فيكونُ هو المَعبودُ وَحدَهُ والمُستعانُ بهِ وَحدَهُ .

وأمَّا **المَطاعمُ والمشاربُ والمناكحُ** فهي داخلَةٌ فيما يقيمُ الأبدانَ ويحفظُها منَ الفسادِ والهلاكِ، وفيما يعودُ ببقاءِ النَّوعِ الإنساني ليتمَّ بذلكَ قوامُ الأجسادِ وحفظُ النَّوعِ، فيتحمَّلُ الأمانَةَ التي عُرِضَت على السَّماواتِ والأرضِ، ويَقوى على حملها وأدائها، ويتمكَّنُ من شكرِ مَولى الإنعامِ ومُسديهِ، وفَرقٌ في هذه الأنواعِ بينَ المُباحِ والمَحظورِ والحَسنِ والقَبيحِ والضَّارِّ والنَّافعِ والطَّيِّبِ والخَبيثِ، فحرَّمَ منها القبيحَ والخبيثَ والضَّارَّ، وأباحَ منها الحَسَنَ والطيِّبَ والنَّافعَ - كما سيأتي إن شاءَ اللَّهُ .

وتأمَّل ذلكَ في المناكحِ؛ فإنَّ منَ المستقرِّ في العقولِ والفطَرِ أنَّ قضاءَ هذا الوَطرِ في الأُمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ والعمَّاتِ والخالاتِ والجدَّاتِ مستقبحٌ في كلِّ عَقلٍ مُستهجنٌ في كلِّ فطرَةٍ، ومنَ المُحالِ أن يكونَ المُباحُ من ذلكَ مُساوياً للمَحظورِ في نَفسِ الأمرِ، ولا فَرقَ بينهما إلّا مجرَّدُ التَّحكُّمِ

بالـمَشيئةِ سبحانَكَ هذا بُهتانٌ عَظيمٌ .

وكيفَ يكونُ في نَفسِ الأمرِ نكاحُ الأمِّ واستفراشُها مساوياً لنكاحِ الأجنبيَّةِ واستفراشِها ؟

وإنَّما فرَّقَ بينهما مَحضُ الأمرِ .

وكذلكَ منَ الـمُحالِ أن يكونَ الدَّمُ والبولُ والرَّجيعُ مساوياً للخبزِ والماءِ والفاكهَةِ ونَحوِها، وإنَّما الشارعُ فرَّقَ بينهما فأباحَ هذا وحرَّمَ هذا مع استواءِ الكلِّ في نفسِ الأمرِ .

وكذلكَ أخذُ المالِ بالبيعِ والهبَةِ والوَصيَّةِ والميراث لا يكونُ مساوياً لأخذِهِ بالقهرِ والغلبةِ والغَصبِ والسَّرقَةِ والجنايَةِ حتى يكونَ إباحةُ هذا وتَحريمُ هذا راجعاً إلى مَحضِ الأمرِ والنَّهي المفرِّقِ بينَ المُتماثلينِ .

وكذلكَ الظُّلمُ والكذبُ والزُّورُ والفواحشُ كالزِّنا واللواطِ وكَشفِ العورَةِ بينَ الملأِ ونَحوِ ذلكَ كيفَ يسوغُ عَقلُ عاقلٍ أنَّهُ لا فَرقَ قطُّ في نَفسِ الأمرِ بينَ ذلكَ وبينَ العَدلِ والإحسانِ والعفَّةِ والصِّيانَةِ وسترِ العَورَةِ، وإنَّما الشارعُ يحكمُ بإيجابِ هذا وتَحريمِ هذا .

وهذا ممَّا لو عُرِضَ على العقولِ السَّليمَةِ التي لم تدخل ولم يمسَّها ميلٌ للمثالاتِ الفاسدَةِ وتَعظيمُ أهلها وحسنُ الظَّنِّ بهم لكانَت أشدَّ إنكاراً لهُ وشهادَةً ببطلانهِ من كثيرٍ من الضَّروريَّاتِ، وهَل ركَّبَ اللَّهُ في فطرَةِ عاقلٍ قَطُّ أنَّ الإحسانَ والإساءَةَ والصِّدقَ والكذبَ والفجورَ والعفَّةَ والعَدلَ والظُّلمَ وقتلَ النُّفوسِ وانجاءَها بل السُّجودُ للَّهِ وللصَّنمِ سواءٌ في نَفسِ الأمرِ لا فَرقَ بينهما وإنَّما الفرقُ بينهما الأمرُ المجرَّدُ ؟ وأيُّ جحدٍ للضَّروريَّاتِ أعظمُ من هذا !

وهل هذا إلّا بمنزلَةِ مَن يقولُ أنَّهُ لا فَرقَ بينَ الرَّجيعِ والبَولِ والدَّمِ والقيءِ وبينَ الخبزِ والماءِ واللَّحمِ والفاكهَةِ والكلُّ سواءٌ في نَفسِ الأمرِ ؟ وإنَّما الفرقُ بالعوائدِ فأيُّ فَرقٍ بينَ مدَّعي هذا الباطلِ وبينَ مدّعي ذلكَ الباطلِ ؟ وهل هذا إلّا بهتٌ للعَقلِ والحِسِّ والضَّرورَةِ والشرعِ والحكمَةِ ؟ وإذا كانَ لا مَعنى عندهم للمَعروفِ إلّا ما أمَرَ به فصارَ معروفاً بالأمرِ، ولا للمنكرِ إلّا ما نَهى عنهُ فصارَ منكراً بنهيِهِ، فأيُّ معنى لقوله : ﴿ يأمُرهم بالمَعروفِ ويَنهاهُم عَنِ المُنكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ؟ وهل حاصلُ ذلكَ زائدٌ على أن يقالَ يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عمَّا ينهاهم عنهُ ؟ وهذا كلامٌ ينزَّهُ عنهُ آحادُ العقلاءِ فَضلاً عن كلامِ ربِّ العالمين، وهل دلَّت الآيَةُ إلى على أنَّهُ أمرهم بالمعروفِ الذي تعرفهُ العقولُ وتقرُّ بحسنهِ الفطَرُ، فأمرهم بما هو معروفٌ في نَفسهِ عندَ كلِّ عَقلٍ سليمٍ، ونهاهم عمَّا هو منكَرٌ في الطِّباعِ والعقولِ بحيثُ إذا عُرِضَ على العقولِ السَّليمَةِ أنكرتهُ أشدُّ الإنكارِ، كما أنَّ ما أمَرَ بهِ إذا عُرِضَ عِلى العَقلِ السَّليمِ قبله أعظَمَ قبولٍ وشهدَ بحسنهِ كما قالَ بَعضُ الأعرابِ - وَقَد سئلَ بمَ عَرَفتَ أنَّهُ رسولُ اللَّهِ ؟ فقال : ما أمَرَ بشيءٍ فقال العقلُ ليتهُ يَنهى عنهُ، ولا نَهى عن شيءٍ فقال ليتهُ أمَرَ به .

فهذا الأعرابيُّ أعرفُ باللَّهِ ودينهِ ورسولهِ من هؤلاءِ، وقَد أقرَّ عقلُهُ وفطرتُهُ بحُسنِ ما أمَرَ به وقُبحِ ما نَهى عنهُ حتى كانَ في حقِّهِ من أعلامِ نبوَّتهِ وشواهدِ رسالتهِ، ولو كانَ جهَةَ كونهِ معروفاً ومنكراً هو الأمرُ المُجرَّدُ لم يكُن فيهِ دليلٌ بل كانَ يُطلَبُ لهُ الدَّليلُ من غيرهِ، ومَن سَلَكَ ذلكَ المسلكَ الباطلَ لم يمكنهُ أن يَستدلَّ على صحَّتهِ ونبوَّتهِ بنفسِ دعوتهِ ودينهِ، ومعلومٌ أنَّ نَفسَ

الدِّينِ الذي جاءَ بهِ والمِلَّةَ التي دعا إليها من أعظمِ براهينِ صدقهِ وشواهدِ نبوَّتهِ، ومَن لم يثبت لذلكَ صفاتٍ وُجوديَّةٍ أوجَبَت حُسنَهُ وقبولَ العقولِ لهُ ولضدِّهِ صفاتٌ أوجَبَت قبحَهُ ونفورَ العقلِ عنهُ فَقَد سدَّ على نَفسهِ بابَ الاستدلالِ بنفسِ الدَّعوَةِ وجعَلها مُستدلاً عليهِ فَقَط .

وممَّا يدلُّ على صحَّةِ ذلكَ قولهُ تعالى : ﴿ ويحلُّ لهُم الطَّيِّباتِ ويحرِّمَ عليهم الخَبائثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]، فهذا صريحٌ في أنَّ الحلالَ كانَ طيِّباً قبلَ حلِّهِ، وأنَّ الخَبيثَ كانَ خبيثاً قبلَ تحريمِهِ، ولم يُستَفَد طيبُ هذا وخُبثُ هذا من نَفسِ الحلِّ والتَّحريمِ لوجهَينِ اثنين :

○ **أحدهما** : أنَّ هذا علمٌ من أعلامِ نبوَّتهِ التي احتجَّ اللَّهُ بها على أهلِ الكتابِ فقال : ﴿ الَّذينَ يتَّبعونَ الرَّسولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجدونهُ مَكتوباً عندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ يأمرُهُم بالمَعروفِ ويَنهاهُم عنِ المُنكَرِ ويُحلُّ لهم الطِّيباتِ ويُحرِّمُ عليهم الخبائثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]، فلو كانَ الطَّيِّبُ والخَبيثُ إنَّما استُفيدَ منَ التَّحريمِ والتَّحليلِ لم يكُن في ذلكَ دليل، فإنَّهُ بمنزلةِ أن يقالَ يحلُّ لهم ما يحلُّ ويحرِّمُ عليهم ما يحرِّمُ .

وهذا أيضاً باطلٌ، فإنَّهُ لا فائدَةَ فيهِ، وهو **الوَجهُ الثَّاني** فَثَبَتَ أنَّهُ أحلَّ ما هو طيِّبٌ في نَفسهِ قبلَ الحلِّ، فكساهُ بإحلالهِ طيِّباً آخَر فصارَ منشأُ طيبهِ منَ الوجهَينِ معاً، فتأمَّل هذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّلِ يطلعُكَ على أسرارِ الشريعَةِ، ويُشرفكَ على محاسنها وكمالها وبَهجتها وجلالها، وأنَّهُ منَ المُمتَنعِ في حكمَةِ أحكمِ الحاكمينَ أن تَردَ بخلافِ ما وَرَدَت بهِ، وأنَّ اللَّه تعالى يتنزَّهُ عن ذلكَ كما يتنزَّهُ عن سائرِ ما لا يَليقُ بهِ .

ومـمَّـا يدلُّ على ذلكَ قولهُ تعالى : ﴿ قُل إنَّـمـا حرَّمَ ربِّي الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإثمَ والبَغيَ بغيرِ الـحقِّ وأن تُشركوا باللَّهِ ما لم ينزِّل به سلطاناً وأن تقولوا على اللَّهِ ما لا تَعلمونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣]، وهذا دليلٌ على أنَّـها فواحشُ في نَفسها لا تَستَحسنها العقولُ، فَتَعلَّقَ التَّحريمُ بها لفُحشها، فإنَّ تَرتيبَ الـحكمِ على الوَصفِ المُناسبِ المُشتقِّ يدلُّ على أنَّـه هو العلَّةُ الـمقتضيَةُ لهُ وهذا دليلٌ في جميعِ هذه الآياتِ التي ذكرناها، فدلَّ على أنَّـهُ حرَّمها لكونها فواحش، وحرَّمَ الـخبيثَ لكونهِ خبيثاً، وأمَرَ بالمعروفِ لكونهِ معروفاً، والعلَّةُ يـجبُ أنِ تغايرَ المعلولَ، فلو كانَ كونهُ فاحشَةً هو معنى كونهِ منهياً عنهُ، وكونهُ خبيثاً هو معنى كونهِ مـحرَّماً كانَت العلَّةُ عينَ المعلولِ وهذا مُـحالٌ فتأمَّلهُ، وكذا تَـحريمُ الإثمِ والبَغيِ دليلٌ على أنَّ هذا وَصفٌ ثابتٌ لهُ قبلَ التَّحريمِ .

ومن هذا قولهُ تعالى : ﴿ ولا تَقربوا الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحشةً ومَقتاً وساءَ سبيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢]، فعلَّلَ النَّهـيَ في المَوضعَينِ بكونِ المَنهـيِّ عنهُ فاحشةً، ولو كانَ جهَة كونهِ فاحشةً هو النَّهـيُ لكانَ تَعليلاً للشيءِ بنفسهِ، ولكانَ بمنزلَةِ أن يقالَ : لا تَقربوا الزِّنا، فإنَّهُ يقولُ لكم لا تَقربوهُ، أو فإنَّهُ منهـيٌّ عنهُ، وهذا مـحالٌ من وجهين :

- **أحدهمـا** : أنَّهُ يتضمَّنُ إخلاءَ الكلامِ منَ الفائدَةِ .
- **الثَّـانـي** : انَّهُ تَعليلٌ للنَّهـيِ بالنَّهـيِ .

ومن ذلكَ قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تُصيبهم مُصيبَةٌ بِـمـا قَدَّمَت أيديهم

فَيَقولوا ربَّنا لولا أرسَلتَ إلينا رَسولاً فنَتَّبِعَ آياتِكَ ونكونَ منَ المؤمنينَ ﴾ [القصص : ٤٧]، فأخبَرَ تعالى أنَّ ما قَدَّمَت أيديهم قبلَ البعثَةِ سببٌ لإصابتهم بالمُصيبَةِ، وأنَّهُ سبحانهُ لو أصابهم بما يَستحقُّونَ من ذلكَ لاحتَجُّوا عليهِ بأنَّهُ لم يُرسل إليهم رَسولاً ولم ينزِّل عليهم كتاباً، فَقَطَعَ هذه الحجَّةَ بإرسالِ الرَّسولِ وإنزالِ الكتابِ، لئلّا يكونَ للنَّاسِ على اللّهِ حجَّةٌ بَعدَ الرُّسلِ، وهذا صَريحٌ في أنَّ أعمالهم قبلَ البعثَةِ كانَت قبيحَةً بحيثُ استَحقُّوا أن يصيبوا بها المُصيبَةَ، ولكنَّهُ سبحانهُ لا يعذِّبُ إلّا بَعدَ إرسالِ الرُّسلِ، وهذا هو فَصلُ الخطابِ .

وتَحقيقُ القولِ في هذا الأصلِ العَظيمِ أنَّ القُبحَ ثابتٌ للفعلِ في نَفسهِ، وأنَّهُ لا يعذِّبُ اللَّهُ عليهِ إلّا بَعدَ إقامَةِ الحجَّةِ بالرِّسالَةِ، وهذه النّكتَةُ هي التي فاتَت المُعتزلَةَ والكلابيَّةَ كليهما فاستطالَت كلُّ طائفَةٍ منهما على الأخرى لعَدَمِ جمعهما بينَ هذينِ الأمرينِ؛ فاستطالَت الكلابيَّةُ على المُعتزلَةِ بإثباتهم العذابَ قبلَ إرسالِ الرُّسلِ وتَرتيبهم العقابَ على مجرَّدِ القُبحِ العقليِّ وأحسنوا في ردِّ ذلكَ عليهم واستطالَت المُعتزلَةُ عليهم، في إنكارهم الحُسن والقُبحَ العَقليَّين جملَةً، وجعلهم انتفاء العذابِ قبلَ البعثَةِ دليلاً على انتفاءِ القُبحِ واستواءِ الأفعالِ في أنفسها وأحسنوا في ردِّ هذا عليهم، فكلُّ طائفَةٍ استطالَت على الأُخرى بسببِ إنكارها الصَّوابَ .

وأمَّا مَن سَلَكَ هذا المَسلَكَ الذي سلكناهُ فلا سبيلَ لواحدَةٍ من الطَّائفيتَينِ إلى ردِّ قولهِ ولا الظَّفرِ عليهِ أصلاً، فإنَّهُ موافقٌ لكلِّ طائفَةٍ على ما معها منَ الحقِّ، مقرِّرٌ لهُ مخالفٌ لها في باطلها منكرٌ لهُ، وليسَ معَ النُّفاةِ قَطُّ

دليلٌ واحدٌ صحيحٌ على نَفيِ الـحُسَنِ والقُبحِ العَقليَّينِ، وإنَّ الأفعالَ المُتضادَّةَ كلَّها في نَفسِ الأمرِ سواءٌ لا فَرقَ بينها إلّا بالأمرِ والنَّهـيِ، وكلُّ أدلَّتِهم على هذا باطلَةٌ؛ كما سنذكرها ونذكرُ بطلانَها - إن شاءَ تعالى .

ليسَ معَ المعتزلَةِ دليلٌ واحدٌ صحيحٌ قطُّ يدلُّ على إثباتِ العذابِ على مجرَّدِ القُبحِ العَقليِّ قبلَ بعثَةِ الرُّسلِ، وأدلَّتُهم على ذلكَ كلُّها باطلَةٌ كما سنذكرها ونَذكرُ بطلانَها - إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

وممَّا يدلُّ على ذلكَ أيضاً أنَّه سبحانهُ يحتجُّ على فسادِ مَذهَبِ مَن عبدَ غيرهُ بالأدلَّةِ العقليَّةِ التي تَقبلها الفِطَرُ والعقولُ، ويجعلُ ما ركَّبهُ في العقولِ من حُسنِ عبادَةِ الخالقِ وحدَهُ وقُبحِ عبادَةِ غيرهِ من أعظمِ الأدلَّةِ على ذلكَ، وهذا في القرآنِ أكثرُ من أن يذكرَ هـهُنا، ولولا أنَّهُ مُستقرٌّ في العقولِ والفطَرِ حُسنُ عبادتهِ وشكرهِ وقبحُ عبادَةِ غيرهِ وتركُ شكرهِ لما احتَجَّ عليهم بذلكَ أصلاً، وإنَّما كانَت الحجَّةُ في مجرَّدِ الأمرِ، وطريقَةُ القرآنِ صريحَةٌ في هذا كقولهِ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعبُدوا ربَّكُم الَّذي خَلَقَكُم والَّذينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تتَّقونَ الَّذي جَعَلَ لكُمِ الأرضَ فراشاً والسَّماءَ بناءً وأنزَلَ منَ السَّماءِ ماءً فأخرَجَ بهِ منَ الثَّمراتِ رزقاً لكُم فلا تَجعَلوا للَّهِ أنداداً وأنتُم تعلمونَ ﴾ [البقرة : ٢١]، فَذَكَرَ سبحانهُ أمرَهم بعبادتهِ وذكرَ اسمَ الرَّبِّ مُضافاً إليهم لمُقتَضى عبوديَّتِهم لربِّهم ومالكهم، ثمَّ ذكَرَ ضروبَ إنعامهِ عليهم بإيجادهم وإيجادِ مَن قبلهم وجَعَلَ الأرضَ فراشاً لهم يمكِّنهُم الاستقرارَ عليها والبناءَ والسُّكنى، وجَعَلَ السَّماءَ بناءً وسقفاً، فَذَكرَ أرضَ العالَمِ وسقفَهُ .

ثمَّ ذكرَ إنزالَ مادَّةِ أقواتهم ولباسهم وثمارهم مُنبِّهاً بهذا على استقرارِ

حُسنِ عبادَةِ مَن هذا شأنهُ وتَشكره في الفطرِ والعقولِ وقُبحِ الإشراكِ بهِ وعبادَةِ غيرهِ .

ومن هذا قولهُ تعالى حاكياً عن صاحبِ ياسين أنَّهُ قال لقومهِ مُحتجّاً بما تقرُّ بهِ فطرُهم وعقولُهم : ﴿ ومالي لا أعبُدُ الَّذي فَطَرني وإليهِ تُرجَعونَ ﴾ [يس : ٢٢] .

فتأمَّل هذا الخطابَ كيفَ تَجدُ تَحتهُ أشرَفَ معنى وأجلَّهُ، وهو أنَّ كونهُ سبحانهُ فاطراً لعبادهِ يَقتَضي عبادتهم لهُ، وأنَّ من كانَ مَفطوراً مَخلوقاً فحقيقٌ بهِ أن يعبدَ فاطرَهُ وخالقهُ ولاسيَّما إذا كانَ مرَدُّهُ إليهِ فمبدأهُ منهُ ومَصيرهُ إليهِ، وهذا يوجبُ عليهِ التَّفرُّغَ لعبادتهِ ثمَّ احتَجَّ عليهم بما تُقرُّ به عقولُهم وفطرُهم من قُبحِ عبادَةِ غيرهِ، وأنَّها أقبحُ شيءٍ في العقلِ وأنكرهِ، فقال : ﴿ أأتَّخذُ من دونهِ آلهَةً إن يُرِدنِ الرَّحمنُ بِضُرٍّ لا تُغنِ عنِّي شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون إنِّي إذاً لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [يس : ٢٣] .

أفلا تَراهُ كيفَ لم يَحتجَّ عليهم بمجرَّدِ الأمرِ بل احتَجَّ عليهم بالعقلِ الصَّحيحِ ومُقتَضى الفطرَةِ .

ومن هذا قولهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ ضُربَ مَثَلٌ فاستَمعوا لهُ إنَّ الَّذينَ تَدعونَ من دونِ اللَّهِ لَن يَخلُقوا ذُباباً ولو اجتَمعوا لهُ وإن يَسلبهُم الذُّبابُ شيئاً لا يَستنقذونهُ منهُ ضعفَ الطَّالبُ والمَطلوبُ ما قَدَروا اللَّهَ حقَّ قَدرهِ أنَّ اللَّهَ لقويٌّ عزيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣] .

فَضَرَبَ لهم سبحانهُ مَثلاً من عقولهم يدلُّهُم على قُبحِ عبادتهم لغَيرهِ، وأنَّ هذا أمرٌ مُستقرٌّ قبحُهُ وهجنتُهُ في كلِّ عَقلٍ وإن لم يَرد به الشرعُ، وهل في

العَقلِ أنكرُ وأقبحُ من عبادَةِ من لو اجتَمَعوا كلُّهُم لم يَخلقوا ذُباباً واحداً، وإن يَسلبهُم الذُّبابُ شيئاً لم يَقدروا على الانتصارِ منهُ واستنقاذِ ما سَلَبَهُم إيَّاهُ، وتَرَكِ عبادَةِ الخلّاقِ العليمِ القادرِ على كلِّ شيءٍ الذي ليسَ كمثلهِ شيء ؟ أفلا تَراهُ كيفَ احتَجَّ عليهم بما ركَّبهُ في العقولِ من حُسنِ عبادتهِ وَحدهُ وقُبحِ عبادَةِ غيرهِ ؟

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثلاً رَجُلاً فيه شركاءُ مُتشاكسونَ ورَجُلاً سَلَماً لرجُلٍ هَل يَستَوِيانِ مثلاً ﴾ [الزمر : ٢٩] .

هذا مَثلٌ ضَربهُ اللَّهُ لمَن عَبَدَهُ وَحدَهُ فسلَّمَ لهُ، ولمن عَبَدَ من دونهِ آلهَةً فهم شركاءُ فيهِ مُتشاكسونَ عَسرونَ فَهَل يَستوي في العقولِ هذا وهذا ؟

وَقَد أكثَرَ تعالى من هذه الأمثالِ ونَوَّعها مُستدلّاً بها على حُسنِ شكرهِ وعبادتهِ وقُبحِ عبادَةِ غيره، ولم يَحتجَّ عليهم بنَفسِ الأمرِ بل بما ركَّبهُ في عقولهم منَ الإقرارِ بذلكَ، وهذا كثيرٌ في القرآنِ فمَن تتبَّعهُ وَجَدَهُ .

وقال تعالى : ﴿ وقَضى ربُّكَ ألّا تَعبُدوا إلّا إيَّاهُ وبالوالدينِ إحساناً ﴾ [الإسراء : ٢٣]، فَذَكَرَ توحيدَهُ وذكرَ المناهي التي نهاهم عنها والأوامرَ التي أمَرَهُم بها، ثمَّ خَتَمَ الآيَةَ بقوله : ﴿ كلُّ ذلكَ كانَ سيِّئُهُ عندَ ربِّكَ مَكروهاً ﴾ [الإسراء : ٣٥]، أي مخالفَةُ هذه الأوامرِ وارتكابِ هذه المناهي سيِّئةٌ مكروهَةٌ للَّهِ، تأمَّل قولهُ : ﴿ سيِّئهُ عندَ ربِّكَ مكروهاً ﴾ أي أنَّهُ سيءٌ في نَفسِ الأمرِ عندَ اللَّهِ حتى لو لم يَرد به تَكليفٌ لكانَ سيِّئهُ في نَفسهِ عندَ اللَّهِ مكروهاً لهُ، وكراهتهُ سبحانهُ لهُ لما هو عليهِ منَ الصِّفَةِ التي اقتَضَت أن كرهَهُ

ولو كانَ قبحُهُ إنَّما هو مجرَّدُ النَّهي لم يكُن مكروهاً للَّهِ، إذ لا مَعنى للكراهَةِ عندهم إلّا كونه منهيّاً عنهُ فيعودُ قولهُ : ﴿ كلُّ ذلكَ كانَ سيِّئهُ عندَ ربِّكَ مكروهاً ﴾ إلى مَعنى كلُّ ذلكَ نُهيَ عنهُ عندَ ربِّكَ، ومعلومٌ أنَّ هذا غيرُ مُرادٍ منَ الآيَةِ .

وأيضاً فإذا وَقَعَ ذلكَ منهم؛ فهو عندَ النُّفاةِ للحُسنِ والقُبحِ محبوبٌ للَّهِ مرضيٌّ لهُ؛ لأنَّهُ إنَّما وَقَعَ بإرادتهِ والإرادَةِ عندهم هي المحبَّةُ لا فَرقَ بينهما، والقرآنُ صريحٌ في أنَّ هذا كلَّهُ قبيحٌ عندَ اللَّهِ مكروهٌ مبغوضٌ لهُ وقَعَ أو لم يقَع، وجَعَلَ سبحانهُ هذا البُغضَ والقُبحَ سبباً للنَّهيِ عنهُ، ولهذا جَعَلهُ علَّةً وحكمَةً للأمرِ، فتأمَّلهُ، والعلَّةُ غيرُ المَعلولِ .

وقال تعالى : ﴿ أم لَم يَعرفوا رسولَهم فهُم لهُ مُنكرون أم يقولونَ بهِ جِنَّةٌ بل جاءَهُم بالحقِّ وأكثرهم للحقِّ كارهونَ وَلَو اتَّبعَ الحقُّ أهواءَهُم لَفَسَدَت السَّماواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ بل آتيناهُم بذكرِهِم فهُم عَن ذكرِهِم مُعرِضون ﴾ [المؤمنون : ٦٩ - ٧١] .

فأخبرَ سبحانهُ أنَّ الحقَّ لو اتَّبَعَ أهواءَ العبادِ فجاءَ شرعُ اللَّهِ ودينُهُ بأهوائهم لَفَسَدَت السَّماواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ، ومعلومٌ أنَّ عندَ النُّفاةِ يجوزُ أن يَرِدَ شرعُ اللَّهِ ودينُهُ بأهواءِ العبادِ، وأنَّهُ لا فَرقَ في نَفسِ الأمرِ بينَ ما وَرَدَ بهِ وبينَ ما تَقتَضيهِ أهواؤهُم إلّا مجرَّدُ الأمرِ، وأنَّهُ لو وَرَدَ بأهوائهم جازَ وكانَ تعبُّداً وديناً، وهذه مُخالَفَةٌ صَريحَةٌ للقُرآنِ .

وأنَّهُ منَ المُحالِ أن يتَّبعَ الحقُّ أهواءَهُم، وأنَّ أهواءَهُم مُشتملَةٌ على

قُبحٍ عَظيمٍ لو وَرَدَ الشرعُ بهِ لَفَسَدَ العالَـمُ أعلاهُ وأسفلُهُ وما بينَ ذلكَ، ومعلومٌ أنَّ هذا الفسادَ إنَّـما يكونُ لقُبحِ خلافِ ما شرعَهُ اللَّهُ وأمرَ بهِ ومنافاتهِ لصلاحِ العالَـمِ علويّهِ وسفليّهُ، وأنَّ خرابَ العالَـمِ وفسادَهُ لازمٌ لـحصولهِ ولشرعهِ، وأنَّ كمالَ حكمةِ اللَّهِ وكمالَ علمهِ ورحمتهِ وربوبيَّتهِ يأبى ذلكَ ويمنعُ منهُ، ومن يقول : الـجميعُ في نَفسِ الأمرِ سواءٌ ؟ يـجوِّزُ وُرودُ التَّعبُّدِ بكلِّ شيءٍ سواءً كانَ من مُقتَضى أهوائِهِم أو خلافها .

ومثلِ هذا قولُـهُ تعالى : ﴿ لو كانَ فيهما آلـهَةٌ إلّا اللَّهُ لَفَسَدتا فسبحانَ اللَّهِ ربِّ العَرشِ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

أي : لو كانَ في السَّماواتِ والأرضِ آلـهةٌ تُعبَدُ غير اللَّه لَفَسَدتا وبَطَلَتا، ولم يقُل أربابٌ بل قال آلـهَةٌ والإلهُ هو الـمَعبودُ الـمألوهُ، وهذا يدلُّ على أنَّـهُ منَ الـمُمتَنعِ الـمُستحيلِ عَقلاً أن يشرعَ اللَّهُ عبادَةَ غيرهِ أبداً، وأنَّـهُ لو كانَ معهُ مَعبودٌ سواهُ لَفَسَدَت السَّماواتُ والأرضُ، فقُبحُ عبادَةِ غيرهِ قَد استقرَّ في الفِطَرِ والعقولِ، وإن لـم يَرِدِ عنهُ شرعٌ بل العقلُ يدلُّ على أنَّـهُ أقبحُ القبيحِ على الإطلاقِ، وأنَّـهُ منَ الـمحالِ أن يشرعَـهُ اللَّهُ قَط؛ فصلاحُ العالَـمِ في أن يكونَ اللَّهُ وَحدَهُ هو الـمَعبودُ، وفسادُهُ وهلاكُهُ في أن يُعبَدَ معهُ غيرُهُ، ومُـحالٌ أن يشرعَ لعبادهِ ما فيهِ فسادُ العالَـمِ وهلاكُهُ بل هو الـمنزَّهُ عن ذلك .

وَقَد أنكَرَ تعالى على مَن نَسبَ إلى حكمَتهِ التَّسوِيَةَ بينَ الـمُختلفَينِ، كالتَّسويَةِ بينَ الأبرارِ والفجّارِ؛ فقال تعالى : ﴿ أم نَـجعَـل الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالـحاتِ كالـمفسدين في الأرضِ أم نـجعل الـمتقين كالفجار ﴾ [ص : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترجوا السيئات أن نـجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالـحات سواءً مَحياهُـم ومَمـاتُهُم ساءَ ما يَـحكمونَ ﴾ [الـجاثية : ٢١] .

فدلَّ على أنَّ هذا حكمٌ سيِّىءٌ قَبيحٌ يُنَزَّهُ اللَّهُ عنهُ، ولَـم يُنكِرْهُ سبحانهُ من جِهَةِ أنَّـهُ أخبَرَ بأنَّـهُ لا يكونُ، وإنَّـمـا سيِّىء أنكَرَهُ من جِهَةِ قُبحِهِ في نَفسِهِ، وأنَّـهُ حُكمٌ سيِّىءٌ يتعالى ويتنزَّهُ عنهُ لمنافاتِهِ لـحكمتِهِ وغناهِ وكمالِهِ ووقوعِ أفعالِهِ كلِّها على السَّدادِ والصَّوابِ والـحكمَةِ، فلا يَليقُ بهِ أن يَـجعَلَ البرَّ كالفاجِرِ ولا الـمُـحسنَ كالـمُسيءِ ولا الـمؤمنَ كالـمُفسدِ في الأرضِ، فَدَلَّ على أنَّ هذا قبيحٌ في نفسهِ تعالى اللَّهُ عن فعلهِ .

ومن هذا أيضاً إنكارُهُ سبحانهُ على مَن جوَّزَ أن يتركَ عبادَهُ سدىً، فلا يأمرُهم ولا ينهاهم ولا يُثيبُهم ولا يُعاقبُهم وأنَّ هذا الـحُسبانَ باطلٌ واللَّهُ مُتعالٍ عنهُ لمنافاتِهِ لـحكمتِهِ وكمالِهِ كما قال تعالى : ﴿ أَيَـحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدىً ﴾ [القيامة : ٣٦] .

قال الشافعي رضيَ اللَّهُ عنهُ : أي مُهملاً لا يؤمَرُ ولا يُنهى .

وقال غيرهُ : لا يُثابُ ولا يُعاقَبُ .

والقولانِ واحدٌ؛ لأنَّ الثَّوابَ والعقابَ غايَةُ الأمرِ والنَّهيِ؛ فهو سبحانهُ خَلَقَهُم للأمرِ والنَّهيِ في الدُّنيا، والثَّوابِ والعقابِ في الآخرَةِ، فأنكرَ سبحانهُ على مَن زَعَمَ أنَّهُ يُتركُ سدىً إنكارَ مَن جَعَلَ في العَقلِ استقباحَ ذلكَ واستهجانَهُ، وأنَّـهُ لا يَليقُ أن يُنسَبَ ذلكَ إلى أحكمِ الـحاكمينَ .

ومثلهُ قوله تعالى : ﴿ أفَـحَسِبتُم أنَّـما خَلَقناكُم عَبَثاً وأنَّكُم إلينا لا

تُرجَعونَ فَتعالى اللَّهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلهَ إلّا هوَ ربُّ العَرشِ الكريمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

فنزَّهُ نَفسَهُ سبحانهُ وباعَدَها عن هذا الحُسبانِ، وأنَّهُ يتعالى عنهُ، ولا يَليقُ بهِ لقُبحهِ ولمنافاتهِ لحكمتهِ ومُلكهِ وإلهيَّتهِ أفلا تَرَى كيفَ ظَهَرَ في العقلِ الشهادَةُ بدينهِ وشرعهِ وبثوابهِ وعقابهِ، وهذا يدلُّ على إثباتِ المَعادِ بالعَقلِ كما يَدلُّ على إثباتهِ بالسَّمعِ، وكذلكَ دينُه وأمرُه وما بَعَثَ به رسولَهُ هو ثابتٌ في العقولِ جملَةً، ثمَّ علمَ بالوَحيِ فَقَد تطابَقَت شهادَةُ العَقلِ والوَحيِ على تَوحيدهِ وشرعهِ والتَّصديقِ بوعدهِ ووعيدهِ، وأنَّهُ سبحانهُ دعا عبادَهُ على ألسنَةِ رسلهِ إلى ما وُضعَ في العقولِ حُسنُهُ والتَّصديق به جُملَةً؛ فجاءَ الوَحيُ مُفصِّلاً مُبيِّناً ومُقرِّراً ومذكِّراً لما هو مَركوزٌ في الفِطَرِ والعقولِ، ولهذا سألَ هرقلُ أبا سُفيانَ في جُملَةِ ما سألهُ مِن أدلَّةِ النُّبوَّةِ وشواهدها عمَّا يأمرُ بهِ النَّبيُّ ﷺ فقال : بمَ يأمركُم ؟

قال : يأمُرنا بالصَّلاةِ والصِّدقِ والعَفافِ .[1]

فَجَعَلَ ما يأمرُ بهِ من أدلَّةِ نبوَّتهِ، فإنَّ أكذَبَ الخَلقِ وأفجرَهم مَن ادَّعى النُّبوَّةَ وهو كاذبٌ فيها على اللَّهِ، وهذا محالٌ أن يأمرَ بما لا يَليقُ بكذبهِ وفجورهِ وافترائهِ؛ فدَعوتهُ تَليقُ به، وأمَّا الصَّادقُ البارُّ الذي هو أصدَقُ الخَلقِ وأبرُّهم فدَعوتُهُ لا تكونُ إلّا أكمَلَ دَعوَةٍ وأشرفَها وأجلَّها وأعظمها؛ فإنَّ العقولَ والفطَرَ تَشهدُ بحُسنِها وصدقِ القائمِ بها، فلو كانَت الأفعالُ كلُّها

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٣١ - ٣٣ - فتح)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - عن أبي سفيان - رضي اللَّه عنه .

سواءً في نَفسِ الأمرِ لم يَكُن هناكَ فرقانٌ بينَ ما يـجوزُ أن يَدعوَ إليهِ الرَّسولُ ومالا يَـجوزُ أن يَدعو إليهِ، إذِ العرفُ وضدُّهُ إنَّـما يعلمُ بنَفسِ الدَّعوَةِ والأمرِ والنَّهي .

وكذلكَ مسألةُ النَّجاشي لـجَعفرَ وأصحابهِ عـمَّا يَدعو إليهِ الرَّسولُ؛ فدلَّ على أنَّـهُ منَ الـمُستقرِّ في العقولِ والفِطَرِ إنقسامُ الأفعالِ إلى قَبيحٍ وحَسنٍ في نَفسهِ، وأنَّ الرُّسلَ تَدعو إلى حُسنِها وتَنهى عن قَبيحِها، وأنَّ ذلكَ من آياتِ صدقِهم وبراهينِ رسالتِهم وهو أولى وأعظمُ عندَ أُولي الألبابِ والـحِجى من مـجرَّدِ خوارقِ العاداتِ وإن كانَ انتفاعُ ضعفاءِ العقولِ بالـخوارقِ في الإيـمانِ أعظمَ من انتفاعهم بنفسِ الدَّعوَةِ وما جاءَ به منَ الإيـمانِ؛ فطُرقُ الهدايَةِ متنوِّعَةٌ رحمَةً منَ اللَّهِ بعبادهِ ولطفاً بهم لتفاوُتِ عقولِهم وأذهانِهم وبصائرِهم؛ فمنهم مَن يَهتدي بنفسِ ما جاءَ به وما دعا إليهِ من غيرِ أن يطلبَ منهُ برهاناً خارجاً عن ذلكَ كـحالِ الكُمَّلِ منَ الصَّحابَةِ كالصِّـدِّيقِ رضيَ اللَّهُ عنهُ، ومنهم مَن يَهتَدي بـمعرفتهِ بـحالهِ ﷺ وما فُطِرَ عليهِ منَ كمالِ الأخلاقِ والأوصافِ والأفعالِ، وأنَّ عادَةَ اللَّهِ أن لا يُـخزي مَن قامَت بهِ تلكَ الأوصافُ والأفعالُ لعلمهِ باللَّهِ ومعرفتهِ بهِ، وأنَّهُ لا يُـخزي مَن كانَ بهذه المثابَةِ كما قالَت أُمُّ الـمُؤمنينَ خَديجَةُ - رضيَ اللَّهُ عنها - لهُ ﷺ :

« أبشر فواللَّهِ لَن يُـخزيكَ اللَّهُ أبداً؛ إنَّكَ لتَصلُ الرَّحمَ، وتَصدقُ الـحَديثَ، وتَـحملُ الكَلَّ، وتُقري الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الـحقِّ » .[1]

---

(١) مضى تخريجه (ص ٢٢٣) .

فاستدلَّت بمعرفتها باللَّهِ وحكمتهِ ورَحمتهِ على أنَّ مَن كانَ كذلكَ؛ فإنَّ اللَّهَ لا يُخزيهِ ولا يَفضحهُ بل هو جديرٌ بكرامَةِ اللَّهِ واصطفائهِ ومحبَّتهِ وتوبتهِ .

وهذه المقاماتُ في الإيمانِ عَجزَ عنها أكثرُ الخَلقِ، فاحتاجوا إلى الآياتِ والخوارقِ والآياتِ المَشهودَةِ بالحسِّ، فآمَنَ كثيرٌ منهم عليها، وأضعَفُ النَّاسِ إيماناً مَن كانَ إيمانُهُ صادراً من المَظهَرِ ورؤيَةِ غلبتهِ ﷺ للنَّاسِ، فاستَدلُّوا بذلكَ المَظهرِ والغَلَبَةِ والنُّصرَةِ على صحَّةِ الرِّسالَةِ، فأينَ بصائرُ هؤلاءِ من بصائرِ مَن آمَنَ بهِ وأهلُ الأرضِ قَد نَصَبوا لهُ العَداوَةَ وَقد نالهُ من قومهِ ضروبُ الأذى، وأصحابهُ في غايَةِ قلَّةِ العَدَدِ والمخافَةِ منَ النَّاسِ، ومع هذا فقلبهُ مُمتَلىءٌ بالإيمانِ واثقٌ بأنَّهُ سيظهَرُ على الأُمَمِ، وأنَّ دينهُ سيَعلو كلَّ دينٍ، وأضعفُ هؤلاءِ إيماناً مَن إيمانهُ إيمانُ العادَةِ والمربا والمنشأ؛ فإنَّهُ نشأَ بينَ أبَوينِ مُسلمينِ وأقاربَ وجيرانٍ وأصحابٍ كذلكَ، فنشأ كواحدٍ منهم ليسَ عندهُ منَ الرَّسولِ والكتابِ إلّا اسمهما، ولا منَ الدِّينِ إلّا ما رأى عليهِ أقاربَهُ وأصحابَهُ فهذا دينُ العوائدِ وهو أضعَفُ شيءٍ، وصاحبُهُ بحَسبِ مَن يقترنُ به، فلو قُيِّضَ لهُ من يخرجهُ عنهُ لم يكن عليهِ كلفَةٌ في الانتقالِ عنهُ .

والمقصودُ : أنَّ خواصَّ الأمَّةِ ولُبابَها لما شهدَت عقولهم حسنَ هذا الدِّينِ وجلالتهِ وكمالهِ، وشهدَت قُبحَ ما خالفهُ ونَقصَهُ ورداءَتهُ خالطَ الإيمانُ بهِ ومحبَّتُه بشاشَةَ قلوبهم؛ فلو خُيِّرَ بينَ أن يُلقى في النَّارِ وبينَ أن يَختارَ ديناً غيرهُ لاختارَ أن يُقذَفَ في النَّارِ وتُقطَّعَ أعضاؤهُ ولا يَختار ديناً غيرهُ، وهذا الضَّربُ منَ النَّاسِ هم الذينَ استقرَّت أقدامهم في الإيمانِ،وهم أبعَدُ النَّاسِ

عن الارتدادِ عنهُ، وأحقُّهُم بالثَّباتِ عليهِ إلى يومِ لقاءِ اللَّهِ، ولهذا قالَ هرَقلُ لأبي سُفيانَ : أيرتدُّ أحدٌ منهم عن دينهِ سخطَةً لهُ ؟

قال : لا .

قال : فكذلكَ الإيمانُ إذ خالطَت بشاشتُهُ القلوبَ لا يَسخطهُ أحدٌ .[1]

والمَقصودُ : أنَّ الدَّاخلينَ في الإسلامِ المُستَدلِّينَ على أنَّهُ من عندِ اللَّهِ لحُسنهِ وكمالهِ وأنَّهُ دينُ اللَّهِ الذي لا يجوزُ أن يكونَ من عندِ غيرهِ هم خواصُّ الخَلقِ، والنُّفاةُ سَدُّوا على أنفسهم هذا الطَّريقَ، فلا يمكنهم سلوكَهُ .

(١) مضى تخريجه (ص ٤٧٢) .

مراتبُ الأعمالِ في الحُسْنِ والقُبْحِ

وتَحقيقُ هذا المقامِ بالكلامِ في مقامَيِن :

○ **أحدهما** : في الأعمالِ خصوصاً ومراتبها في الحُسنِ والقُبحِ .

○ **الثَّاني** : في المَوجوداتِ عموماً ومراتبها في الخَيرِ والشرِّ .

أمَّا المقامُ الأوَّلُ : فالأعمالُ إمَّا أن تَشتملَ على مَصلحَةٍ خالصَةٍ أو راجحَةٍ، وإمَّا أن تَشتملَ على مَفسدَةٍ خالصَةٍ أو راجحَةٍ، وإمَّا أن تَستَويَ مَصلحتُها ومَفسدتُها فهذه أقسامَ خمسَةٌ منها أربعَةٌ تأتي بها الشرائعُ، فتأتي بما مَصلحتهُ خالصَةٌ أو راجحَةٌ آمرَةٌ بهِ مُقتضيَةٌ لهُ، وما مَفسدتُهُ خالصَةٌ أو راجحَةٌ فحُكمها فيهِ النَّهيُ عنهُ وطلبُ إعدامهِ، فتأتي بتَحصيلِ المَصلَحَةِ الخالصَةِ والرَّاجحَةِ أوْ تكميلها بحَسَبِ الإمكانِ، وتَعطيلِ المَفسَدَةِ الخالصَةِ أو الرَّاجحَةِ أو تَقليلهما بحَسبِ الإمكانِ، فمدارُ الشرائعِ والدِّياناتِ على هذه الأقسامِ الأربعَةِ .

وتنازَعَ النَّاسُ هنا في مسألتين :

● **المسألةُ الأولى** : في وجودِ المَصلَحَةِ الخالصَةِ والمَفسَدَةِ الخالصَةِ :

فمنهم مَن منعهُ، وقال : لا وجودَ لهُ؛ لأنَّ المَصلَحَةَ هيَ النَّعيمُ واللذَّةُ وما يُفضي إليهِ، والمَفسَدَةُ هي العذابُ والألمُ وما يُفضي إليهِ .

والمأمورُ بهِ لابدَّ أن يَقترَنَ به ما يحتاجُ معهُ إلى الصَّبرِ على نَوعٍ منَ الألمِ وإن كانَ فيهِ لذَّةُ سرورٍ وفَرَحٍ، فلابدَّ من وقوعِ أذىً، لكن لما كانَ هذا مغموراً بالمَصلَحَةِ لم يُلتَفَت إليهِ ولم تُعطَّل المَصلَحَةُ لأجلهِ، فتَركُ الخَيرِ الكثيرِ الغالبِ لأجلِ الشرِّ القَليلِ المَغلوبِ شرٌّ كثيرٌ .

وكذلكَ الشرُّ المَنهيُّ عنهُ إنَّما يفعلهُ الإنسانُ لأنَّ لهُ فيهِ غَرَضاً ووَطَراً ما، وهذه مَصلَحَةٌ عاجلَةٌ لهُ، فإذا نهي عنهُ وتَركَهُ فاتَت عليهِ مَصلحتُهُ ولذَّتهُ العاجلَةُ وإن كانَت مَفسدتهُ أعظمُ من مصلحتهِ بل مَصلحتُهُ مَغمورَةٌ جدَّاً في جَنبِ مَفسدتهِ كما قال تعالى في الخَمرِ والمَيسرِ : ﴿ قُل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للنَّاسِ وإثمُهُما أكبَرُ من نَفعهما ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

فالرِّبا والظُّلمُ والفواحشُ والسِّحرُ وشربُ الخَمرِ وإن كانَت شروراً ومفاسدَ ففيها منفعَةٌ ولذَّةٌ لفاعلها، ولذلكَ يؤثرها ويَختارُها، وإلّا فلو تجرَّدَت مَفسدتُها من كلِّ وَجهٍ لما آثَرَها العاقلُ ولا فَعَلها أصلاً، ولما كانَت خاصَّةُ العَقلِ النَّظرَ فيهِ إلى العواقبِ والغاياتِ كانَ أعقلُ النَّاسِ أتركَهُم لما تَرجَّحَت مَفسدتُهُ في العاقبَةِ؛ وإن كانَت فيهِ لذَّةٌ ما ومنفعَةٌ يَسيرَةٌ بالنِّسبَةِ إلى مَضرَّتهِ .

ونازعهم آخَرونَ وقالوا : القسمَةُ تَقتَضي إمكانَ هذينِ القسمينِ، والوجودُ يدلُّ على وقوعِهما، فإنَّ معرفَةَ اللَّهِ ومحبَّتَهُ والإيمانَ بهِ خَيرٌ مَحضٌ من كلِّ وَجهٍ لا مَفسَدَةَ فيهِ بوجهٍ ما .

ومعلومٌ أنَّ الجنَّةَ خيرٌ مَحضٌ لا شرَّ فيها أصلاً، وأنَّ النَّارَ شرٌّ محضٌ لا خَيرَ فيها أصلاً، وإذا كانَ هذانِ القسمانِ موجدينِ في الآخرَةِ فما المخلُّ بوجودهما في الدُّنيا ؟

وأيضاً، فالمَخلوقاتُ كلُّها منها ما هوَ خَيرٌ مَحضٌ لا شرَّ فيهِ أصلاً كالأنبياءِ والملائكَةِ، ومنها ما هو شرٌّ مَحضٌ لا خَيرَ فيهِ أصلاً كإبليسَ والشياطينَ، ومنها ما هوَ خَيرٌ وشرٌّ وأحدُهما غالبٌ على الآخَرِ فمنَ النَّاسِ مَن يغلبُ خَيرهُ على شرِّهُ، ومنهم مَن يغلبُ شرُّهُ على خَيرِهُ، فهكذا الأعمالُ منها ما هو خالصُ المَصلَحَةِ وراجحُها، وخالصُ المَفسَدَةِ وراجحُها هذا في الأعمالِ كما أنَّ ذلكَ في العُمَّالِ .

وَقَد قال اللّهُ في السَّحَرَةِ : ﴿ ويَتَعلَّمونَ ما يَضُرُّهُم ولا يَنفعُهُم ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

فهذا دليلٌ على أنَّهُ مضرَّةٌ خالصَةٌ لا مَنفعَةَ فيهِ، إمَّا لأنَّ بَعضَ أنواعهِ مضرَّةٌ خالصَةٌ لا مَنفَعَةَ فيها بوجهٍ، فما كلُّ السِّحرِ يُحصِّلُ غرضَ السَّاحرِ بل يتعلَّمُ مائةَ بابٍ منهُ حتى يحصلَ غرضَهُ ببابٍ والباقي مَضرَّةٌ خالصَةٌ، وقِس على هذا فهذا منَ القسمِ الخالصِ المَفسدَةِ وإمَّا لأنَّ المنفعَةَ الحاصلَةَ للسَّاحرِ لما كانَت مَغمورَةً مستَهلَكَةً في جَنبِ المَفسَدَةِ العَظيمَةِ فيهِ جَعلَت كُلّاً منفعَةً، فيكونَ من القسمِ الرَّاجحِ المَفسَدَةِ .

وعلى القولينِ فكلُّ مأمورٍ بهِ فهو راجحُ المَصلَحَةِ على تَركهِ، وإن كانَ مَكروهاً للنُّفوسِ قال تعالى : ﴿ كُتبَ عليكُم القتالُ وهو كرهٌ لكُم وعَسى أن تَكرهوا شيئاً وهو خَيرٌ لكُم وعَسى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكُم واللّهُ يعلمُ

وأنتُم لا تَعلمونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

فبيَّنَ أنَّ الجهادَ الذي أُمِروا بهِ - وإن كانَ مَكروهاً للنُّفوسِ شاقَّاً عليها - فمصلحتهُ راجحَةٌ، وهو خَيرٌ لهم، وأحمَدُ عاقبَةً، وأعظمُ فائدَةً منَ التَّقاعُدِ عنهُ، وإيثارِ البقاءِ والرَّاحَةِ، فالشرُّ الذي فيهِ مَغمورٌ بالنِّسبَةِ إلى ما تَضمَّنهُ منَ الخَيرِ، وهكذا كلُّ مَنهيٍّ عنهُ فهو راجحُ المَفسَدَةِ وإن كانَ مَحبوباً للنُّفوسِ موافقاً للهَوى فمضرَّتهُ ومَفسدتهُ أعظمُ ممَّا فيهِ منَ المنفعَةِ، وتلكَ المَنفعَةُ واللذَّةُ مغمورَةٌ مستهلكَةٌ في جَنبِ مضرَّتهِ كما قال تعالى : ﴿ وإثمُهما أكبرُ مِن نَفعِهما ﴾ [البقرة : ٢١٩]، وقال : ﴿ وعَسى أن تُحبُّوا شيئاً وهوَ شرٌّ لكُم ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وفَصلُ الخطابِ في المسألَةِ إذا أُريدَ بالمَصلَحَةِ الخالصَةِ أنَّها في نَفسها خالصَةٌ منَ المَفسَدَةِ لا يشوبُها مَفسَدَةٌ فلا رَيبَ في وجودها، وإن أُريدَ بها المَصلَحَةُ التي لا يَشوبها مَشقَّةٌ ولا أذىً في طريقها والوَسيلَةُ إليها ولا في ذاتِها فليسَت بموجودَةٍ بهذا الاعتبارِ، إذ المصالحُ والخَيراتُ واللذَّاتُ والكمالاتُ كلُّها لا تُنالُ إلّا بحظٍّ منَ المشقَّةِ، ولا يُعبَرُ إليها إلّا على جسرٍ منَ التَّعبِ، وقَد أجمَعَ عُقلاءُ كلِّ أُمَّةٍ على أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنَّعيمِ، وأنَّ مَن آثَرَ الرَّاحَةَ فاتَتهُ الرَّاحَةُ، وأنَّ بحَسبِ ركوبِ الأهوالِ واحتمالِ المشاقِّ تكونُ الفَرحَةُ واللَّذَّةُ فلا فَرحَةَ لمَن لا همَّ لهُ، ولا لذَّةَ لمَن لا صَبرَ لهُ، ولا نَعيمَ لمَن لا شقاءَ لهُ، ولا راحَةَ لمَن لا تَعَبَ لهُ، بل إذا تعَبَ العَبدُ قليلاً استراحَ طويلاً، وإذا تَحمَّلَ مشقَّةَ الصَّبرِ ساعَةً قادَهُ لحياةِ الأبدِ، وكلُّ ما فيهِ أهلُ النَّعيمِ المُقيمِ فهو صَبرُ ساعَةٍ واللّهُ المُستعانُ ولا قوَّةَ إلّا باللّهِ، وكلَّما كانَت

النُّفوسُ أشرَفَ والـهِمَّةُ أعلا كانَ تَعبُ البَدنِ أوفرَ وحظُّهُ منَ الرَّاحَةِ أقلَّ كما قال الـمُتَنبِّي :

وإذا كانَت النُّفوسُ كباراً   تَعِبَت في مُرادِها الأجسامُ

وقال مُسلمٌ في « صَحيحهِ » قال يَحيى بنُ أبي كثيرٍ : « لا يُنالُ العلمُ براحَةِ البَدنِ » .[1]

ولا رَيبَ عندَ كلِّ عاقلٍ أنَّ كمالَ الرَّاحَةِ بِحَسَبِ التَّعَبِ، وكمالِ النَّعيمِ بِحَسَبِ تَحمُّلِ المَشاقِّ في طريقِهِ، وإنَّما تَخلصُ الرَّاحَةُ واللذَّةُ والنَّعيمُ في دارِ السَّلامِ فأمَّا في هذه الدَّارِ فكلّا ولـمَّا، وبهذا التَّفصيلُ يزولُ النِّزاعُ في الـمَسألةِ، وتعودُ مسألةُ وفاقٍ .

● **وأمَّا الـمَسألةُ الثَّانيَةُ** : وهي ما تَساوَت مَصلحتهُ ومَفسدتهُ، فَقَد اختُلفَ في وجودِهِ وحُكمِهِ؛ فأثبَتَ وجودَهُ قومٌ ونفاهُ آخَرونَ .

والـجوابُ : أنَّ هذا القسمَ لا وُجودَ لهُ وإن حَصَرَهُ التَّقسيمُ بل التَّفصيلُ إمَّا أن يكونَ حصولُهُ أولى بالفاعلِ وهو راجحُ الـمَصلَحَةِ، وإمَّا أن يكونَ عدمُهُ أولى به وهو راجحُ الـمَفسَدَةِ، وأمَّا فِعلٌ يكونُ حصولُهُ أولى لـمصلحتهِ وعدمُهُ أولى بهِ لـمفسدتهِ وكلاهما متساويانِ، فهذا مـمَّا لَم يقُم دليلٌ على ثبوتهِ بل الدَّليلُ يَقتَضي نَفيَهُ، فإنَّ الـمَصلحَةَ والـمَفسدَةَ والـمَنفعَةَ والـمَضرَّةَ واللَّذَّةَ والألَـمَ إذا تقابلا فلابدَّ أن يغلبَ أحدُهما الآخَرَ؛ فيصيرَ الـحُكمُ للغالبِ، وأمَّا أن يتدافعا ويتصادما بـحيثُ لا يغلبُ أحدهما الآخَرُ فغيرُ واقعٍ، فإنَّهُ إمَّا أن يقالَ : يوجَدُ الأثرانِ معاً وهو مُـحالٌ لتصادُمهما في الـمحلِّ

---

(١) مضى تخريجه (ص ١٧٢) .

الواحدِ، وإمَّا أن يقالَ : يمتنعُ وجودُ كلٍّ منَ الأثرينِ وهو مُمتنعٌ لانَّهُ تَرجيحٌ لأحدِ الجائزَين من غيرِ مرجِّحٍ، وهذا المُحالُ إنَّما نَشأَ من فَرضِ تَدافعِ المُؤثِّرينَ وتَصادمهما فهو محالٌ، فلابدَّ أن يقهَرَ أحدهما صاحبهُ فيكونَ الحُكمُ لهُ، فإن قيلَ : ما المانعُ من أن يمتنعَ وجودُ الأثرينِ ؟ قولكُم إنَّهُ محالٌ لوجودِ مُقتَضيهِ إن أردتُم بهِ المُقتَضى السَّالمَ عن المُعارضِ فغيرُ موجودٍ، وإن أرَدتُم المُقتَضى المُقارنَ لوجودِ المعارضِ فتخلُّفُ أثرهِ عنهُ غيرُ مُمتنعٍ، والمُعارضُ قائمٌ هـهُنا في كلٍّ منهما، فلا يمتنعُ تخلُّفُ الأثرينِ .

فالجوابُ : أنَّ المُعارضَ إذا كانَ قَد سلبَ تأثيرَ المقتَضى في موجبهِ مع قوَّتهِ وشدَّةِ اقتضائهِ لأثرهِ ومع هذا فَقَد قويَ على سلبهِ قوَّةَ التَّأثيرِ والاقتضاءِ؛ فلأنَّ يَقوى على سلبهِ قوَّةَ منعهِ لتأثيرهِ هو في مُقتَضاهُ وموجبِه بطريقِ الأولى، ووجهُ الأولويَّةِ أنَّ اقتضاءَهُ لأثرهِ أشدُّ من منعهِ تأثيرَ غيرهِ، فإذا قويَ على سلبهِ للأقوى؛ فسلبهِ للأضعَف أولى وأحرى .

فإن قيلَ : هذا ينتقضُ بكلِّ مانعٍ يمنعُ تأثيرَ العلَّةِ في مَعلولها وهو باطلٌ قَطعاً .

قيلَ : لا ينتقضُ بما ذكرتُم، والنَّقضُ مندفعٌ؛ فإنَّ العلَّةَ والمانعَ هـهُنا لم يتدافعا ويتصادَما، ولكنَّ المانعَ أضعفَ العلَّةِ فبطلَ تأثيرُها، فهو عائقٌ لها عنِ الاقتضاءِ، وأمَّا في مسألتنا فالعلَّتانِ مُتصادمتانِ مُتعارضتانِ كلٌّ منهما تَقتَضي أثرها، فلو بَطلَ أثرُهما لكانَت كلُّ واحدَةٍ مؤثِّرَة غيرَ مؤثِّرةٍ غالبَةً مَغلوبَةً مانعَةً مَمنوعَةً، وهذا يمتنعُ، وهو دليلٌ يشبهُ دليلَ التَّمانع .

وسرُّ الفَرقِ أنَّ العلَّةَ الواحدَةَ إذا قارَنها مانعٌ منعَ تأثيرَها لم تَبقَ مُقتضيَةً

لهُ بل المانعُ عاقَها عن اقتضائها، وهذا غيرُ مُمتنعٍ، وأمَّا العلَّتانِ المُتمانعتانِ اللَّتانِ كلٌّ منهما مانعَةٌ للأُخرى من تأثيرها، فإنَّ تمانعَهما وتقابلَهما يَقتضي إبطالَ كلِّ واحدَةٍ منهما للأخرى، وتأثيرَها فيها، وعدمَ تأثيرها معاً، وهو جمعٌ بينَ النَّقيضينِ؛ لأنَّها إذا بطلَت لم تكُن مؤثِّرَةً، وإذا لم تكُن مؤثِّرَةً لم تُبطِل غيرها، فتكونَ كلٌّ منهما مؤثِّرَةً غيرَ مؤثِّرَةٍ باطلَةٍ غيرَ باطلَةٍ وهذا مُحالٌ، فثَبَتَ أنَّهما لابدَّ أن تُأثرَ إحداهما في الأُخرى بقوَّتِها فيكونُ الحُكمُ لها .

فإن قيلَ : فما تقولونَ فيمَن توسَّطَ أرضاً مغصوبَةً ثمَّ بدا لهُ في التَّوبَةِ فإن أمَرتموهُ باللُّبثِ فهو محالٌ، وإن أمرتموهُ بقَطعها والخروجِ منَ الجانبِ الآخَرِ فَقَد أمرتموهُ بالحَركَةِ والتَّصرُّفِ في مُلكِ الغيرِ، وكذلكَ إن أمَرتموهُ بالرُّجوعِ فهو حركَةٌ منهُ وتصرُّفٌ في أرضِ الغَصبِ ؟

فهذا قَد تعارَضَت فيهِ المَصلَحَةُ والمَفسَدَةُ فما الحُكمُ في هذه الصُّورَةِ ؟

وكذلكَ مَن توَسَّطَ بينَ فئةٍ مثبَّتةٍ بالجراحِ منتَظرينَ للمَوتِ وليسَ لهُ انتقالٌ إلّا على أحدهم، فإن أقامَ على مَن هو فَوقهُ قَتَلهُ، وإن انتَقَلَ إلى غيرهِ قتلهُ، فتعارَضَت هنا مَصلحَةُ النَّقلَةِ مفسدتَها على السَّواءِ ؟

وكذلكَ مَن طلعَ عليهِ الفَجرُ وهو مجامعٌ، فإن أقامَ أفسَدَ صومَهُ، وإن نَزعَ؛ فالنَّزعُ منَ الجماعِ، والجماعُ مركَّبٌ منَ الحركتينِ، فههُنا أيضاً قَد تضادَّت العلَّتانِ ؟

وكذلكَ أيضاً إذا تَترَّسَ الكفَّارُ بأسرى منَ المُسلمينَ هم بعدَدِ المقاتلَةِ ودارَ الأمرُ بينَ قتلِ التُّرسِ وبينَ الكفِّ عنهُ وقتلَ الكفَّارُ المُقاتلَةَ المُسلمين، فههُنا أيضاً قَد تقابَلَت المَصلَحَةُ والمَفسَدَةُ على السَّواءِ ؟

وكذلكَ ايضاً إذا أُلقيَ في مركبهم نارٌ وعايَنوا الـهلاكَ بها، فإن أقاموا احتَرقوا وإن لـجؤا إلى الماءِ هَلَكوا بالغَرقِ ؟

وكذلكَ الرَّجلُ إذا ضاقَ عليهِ الوَقتُ ليلَةَ عَرَفَةَ ولم يَبقَ منهُ إلّا ما يسعُ قدرَ صلاةِ العشاءِ، فإن اشتغَلَ بها فاتَهُ الوقوفُ، وإن اشتَغَلَ بالذَّهابِ إلى عَرَفَة فاتَتهُ الصَّلاةُ فهــهُنا قَد تعارَضَت المَصلحتانِ والمَفسدتانِ علىٰ السَّواءِ ؟

وكذلكَ الرَّجلُ إذا استيَقَظَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وهو جُنُبٌ ولم يبقَ منَ الوَقتِ إلّا ما يسعُ قَدرَ الغُسلِ أو الصَّلاةِ بالتَّيمُّم، فإن اغتَسَلَ فاتَتهُ مَصلحَةُ الصَّلاةِ في الوَقتِ، وإن صلَّى بالتَّيـمُّـم فاتَتهُ مَصلَحَةُ الطَّهارَةِ، فَقَد تقابَلَت المصلحةُ والمَفسَدَةُ ؟

وكذلكَ إذا اغتَلَمَ[١] البَحرُ بحيثُ يعلمُ رُكبانُ السَّفينَةِ أنَّـهُـم لا يَـخلصونَ إلّا بتَغريقِ شَطرِ الرُّكبانِ، لتخفَّ بهم السَّفينَةُ، فإن ألقوا شطرهم كانَ فيهِ مَفسَدَةٌ، وإن تركوهم كانَ فيهِ مَفسَدَةٌ، فَقَد تقابلَت المَفسدتانِ والمَصلحتانِ على السَّواءِ .

وكذلكَ لو أُكرهَ رجلٌ على إفسادِ درهمٍ من درهمين متساويين أو اتلاف حيوان من حيوانين متساويين، أو شربِ قَدحٍ من قَدَحين متساويين أو وجَدَ كافرينِ قويَّين في حالِ الـمُبارَزَةِ لا يـمُكنهُ إلّا قتلَ أحدِهما، أو قَصدَ الـمُسلمينَ عدوَّانِ متكافئانِ من كلِّ وجهٍ في القربِ والبُعدِ والعَدَدِ والعداوَةِ، فإنَّهُ في هذه الصَّوَرِ كلِّها تساوَت الـمصالحُ والـمفاسدُ، ولا يـمكنكُم تَرجيحُ

---

(١) اشتدَّ وهاج .

أحدٍ من المَصلحتَينِ ولا أحدٍ منَ المَفسدتينِ .

ومعلومٌ أنَّ هذه حوادثُ لا تَخلو من حكمٍ للَّهِ فيها، وأمَّا ما ذكرتم من امتناعِ تقابلِ المَصلَحَةِ والمَفسدَةِ على السَّواءِ فكيفَ عليكم إنكارهُ وأنتُم تقولونَ بالمُوازَنَةِ وإنَّ منَ النَّاسِ مَن تَستوي حسناتُهُ وسيِّئاتُهُ، فيَبقى في الأعرافِ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ لتقابُلِ مُقتَضى الثَّوابِ والعقابِ في حقِّهِ، فإنَّ حسناتهِ قَصَّرَت به عن دخولِ النَّارِ، وسيِّئاتهِ قصَّرَت به عن دخولِ الجنَّةِ، وهذا ثابتٌ عن الصَّحابَةِ حُذيفَةَ بن اليمانِ وابنِ مَسعودٍ وغيرهما ؟

فالجوابُ من وَجهينِ : مُجمَلٌ ومفصَّلٌ .

أمَّا المُجملُ : فليسَ في شيءٍ ممَّا ذكرتم دليلٌ على محلِّ النِّزاعِ، فإنَّ موردَ النِّزاعِ أن تَتقابَلَ المَصلحَةُ والمَفسَدَةُ، وتتساويا فيتدافَعا، ويبطلَ أثرُهما، وليسَ في هذه الصُّوَرِ شيءٌ كذلكَ، وهذا يتبيَّنُ بالجوابِ التَّفصيليِّ عنها صورَةً صورَةً.

فأمَّا مَن توسَّطَ أرضاً مَغصوبَةً، فإنَّهُ مأمورٌ من حينِ دَخَلَ فيها بالخروجِ منها فحُكمُ الشارعِ في حقِّهِ المُبادَرَةُ إلى الخروجِ وإن استلزَمَ ذلكَ حركَةً في الأرضِ المَغصوبَةِ، فإنَّها حركَةٌ تَتَضمَّنُ تَركَ الغَصبِ فهي من بابِ مالا خلاصَ عن الحرامِ إلَّا بهِ، وإن قيلَ : إنَّها واجبَةٌ فوجوبٌ عَقليٌّ لزوميٌّ لا شارعيٌّ مَقصودٌ، فمفسدَةُ هذه الحركَةِ مَغمورَةٌ في مَصلَحَةِ تَفريغِ الأرضِ والخروجِ عن الغَصبِ، وإذا قدِّرَ تَساوي الجوابِ بالنِّسبَةِ إليهِ، فالواجبُ القَدرُ المُشتركُ وهو الخروجُ من أحدها، وعلى كلِّ تَقديرٍ فمفسَدَةُ هذه الحركَةِ مغمورَةٌ جدّاً في مَصلَحَةِ تَركِ الغَصبِ فليسَ ممَّا نَحنُ فيهِ بسبيلٍ .

وأمّا مسألَةُ مَن توسَّطَ بينَ قتلى لا سبيلَ لهُ إلى المقامِ أو النَّقلَةِ إلّا بقتلِ أحدهم، فهذا ليسَ مكلَّفاً في هذه الحالِ بل هو في حُكمِ الملجأِ، والملجأُ ليسَ مكلَّفاً اتِّفاقاً، فإنَّهُ لا قَصدَ لهُ ولا فعلَ، وهذا ملجأٌ من حيثُ أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلى تَركِ النَّقلَةِ عن واحدٍ إلّا إلى الآخَرِ فهو ملجأٌ إلى لبثهِ فوقَ واحدٍ ولابدَّ، ومثلُ هذا لا يوصفُ فعلهُ بإباحَةٍ ولا تَحريمٍ ولا حكمَ من أحكامِ التَّكليفِ، لأنَّ أحكامَ التَّكليفِ منوطَةٌ بالاختيارِ، فلا تَتعلَّقُ بمَن لا اختيارَ لهُ، فلو كانَ بعضهم مسلماً وبعضهم كافراً مع اشتراكهم في العصمَةِ فَقد قيلَ يلزمهُ الانتقالُ إلى الكافرِ أو المقامُ عليهِ، لأنَّ قتلَهُ أخفُّ مَفسدَةً من قتلِ المُسلمِ، ولهذا يجوزُ قتلُ مَن لا يقتلهُ في المعركَةِ إذا تَترَّسَ بهم الكفَّارُ، فيرميهم ويَقصدَ الكفَّارَ .

وأمّا مَن طَلَعَ عليهِ الفَجرُ وهو مُجامعٌ، فالواجبُ عليهِ النَّزعُ عَيناً ويحرمُ عليهِ استدامَةُ الجماعِ واللبثُ، وإنَّما اختُلفَ في وجوبِ القضاءِ والكفَّارَةِ عليهِ على ثلاثَةِ أقوالٍ في مَذهبِ أحمَدَ وغيرهِ :

- **أحدها** : عليهِ القضاءُ والكفَّارَةُ وهذا اختيارُ القاضي أبي يَعلى .
- **الثَّاني** : لا شيءَ عليهِ وهذا اختيارُ شيخنا وهو الصَّحيحُ .
- **الثَّالث** : عليهِ القضاءُ دونَ الكفَّارَةِ .

وعلى الأقوالِ كلِّها فالحُكمُ في حقِّهِ وجوبُ النَّزعِ، والمَفسدَةُ التي في حركَةِ النَّزعِ مَفسدَةٌ مغمورَةٌ في مَصلحَةِ إقلاعهِ ونَزعهِ، فليسَت المسألَةُ من مواردِ النِّزاعِ .

وأمَّا إذا تَترَّسَ الكفَّارُ بأسرى منَ المُسلمين بعددِ المُقاتلةِ، فإنَّهُ لا يجوزُ رميهم إلّا أن يُخشى على جيشِ المُسلمين، وتكونَ مصلحَةُ حفظِ الجيشِ أعظمُ من مصلحَةِ حفظِ الأسارى، فحينئذٍ يكونُ رميُ الأسارى ويكونُ من بابِ دفع أعظمِ المفسدتين باحتمالِ أدناهما، فلو انعكسَ الأمرُ وكانَت مَصلحَةُ الأسرى أعظمُ من رميهم لم يَجُز رميُهم .

فهذا البابُ مبنيٌّ على دَفعِ أعظمِ المَفسدتينِ بأدناهما، وتَحصيلِ أعظمِ المَصلحتين بتفويتِ أدناهما، فإن فُرِضَ الشكُّ وتساوى الأمرانِ لم يَجُز رميُ الأسرى؛ لأنَّهُ على يَقينٍ من قتلهم وعلى ظنٍّ وتَخمينٍ من قتلِ أصحابهِ وهلاكهم، ولو قدرَ أنَّهُم تيقَّنوا ذلكَ ولم يكُن في قتلهم استباحَةُ بيضَةِ الإسلامِ وغلبَةِ العدوِّ على الدِّيارِ لم يجُز أن يَقيَ نفوسهم بنفوسِ الأسرى، كما لا يجوزُ للمكرهِ على قتلِ المَعصومِ أن يقتله ويقِيَ نفسه بنفسهِ بل الواجبُ عليهِ أن يستسلمُ للقَتلِ، ولا يجعلَ النُّفوسَ المَعصومَةَ وقايَةً لنفسهِ .

وأمَّا إذا أُلقيَ في مركبهم نارٌ؛ فإنَّهُم يفعلونَ ما يَرَونَ السَّلامَةَ فيهِ، وإن شكُّوا هَلِ السَّلامَةُ في مقامهم أو في وقوعهم في الماءِ أو تيقَّنوا الهلاكَ في الصُّورتينِ أو غلبَ على ظنِّهِم غلبةٌ متساويَةٌ لا يترجَّحُ أحدُ طَرَفيها ففي الصُّوَرِ الثَّلاث قولانِ لأهلِ العلم وهما روايتانِ مَنصوصتانِ عن أحمَدَ :

* **أحداهما** : أنَّهُم يُخيَّرونَ بينَ الأمرينِ لأنَّهما موتَتانِ قد عرضتا لهم فلهم أن يختاروا أيسرهما عليهم إذ لابدَّ مِن أحدهما وكلاهما بالنِّسبَةِ إليهم سواءٌ، فيخيَّرونَ بينهما .

* **الثَّانـي** : أن يلزمَهم المقامُ ولا يُعينونَ على أنفسهم، لئلّا يكونَ موتُهُم بسببٍ من جهتهم، وليتمَحَّصَ موتُهُم شهادَةً بأيدي عدوِّهِم .

وأمَّا الذي ضاقَ عليهِ وقتُ الوقوفِ بعرفَة والصَّلاة، فإنَّ الواجبَ في حقِّهِ تَقوى اللَّهِ بحسبِ الإمكانِ، وقَد اختُلفَ في تَعيين ذلكَ الواجبِ على ثلاثةِ أقوالٍ في مذهبِ أحمَدَ وغيرِهِ :

● أحدهما : أنَّ الواجبَ في حقِّهِ مُعيناً إيقاعَ الصَّلاةِ في وقته،ا فإنَّها قَد تضيَّقَت، والحجُّ لم يتضيَّق وقتهُ، فإنَّهُ إذا فعلهُ في العامِ القابلِ لم يكُن قَد أخرجهُ عن وقتهِ بخلافِ الصَّلاةِ .

● والثَّاني : أنَّـهُ يقدِّمُ الحجَّ ويَقضي الصَّلاةَ بَعدَ الوَقتِ، لأنَّ مَشقَّةَ فواتِهِ وتكلفةَ إنشاءِ سفرٍ آخَرَ أو إقامَةً في مكَّةَ إلى قابلٍ ضررٌ عظيمٌ تأباهُ الحنيفيَّةُ السَّمحَةُ، فيشتغلُ بإدراكهِ ويَقضي الصَّلاةَ .

● والثَّالث : يَقضي الصَّلاةَ وهو سائرٌ إلى عرَفَةَ، فيكونَ في طريقهِ مُصلِّياً كما يُصلِّي الهاربُ من سَيلٍ أو سَبعٍ أو عدوٍّ اتِّفاقاً أو الطَّالبُ لعدوٍّ يَخشى فواتَـهُ على أصحِّ القولينِ .

وهذا أقيسُ الأقوالِ وأقربُها إلى قواعدِ الشرعِ ومقاصدِهِ، فإنَّ الشريعَةَ مبناها على تَحصيلِ المصالحِ بحسبِ الإمكانِ، وأن لا يفوتَ منها شيءٌ، فإن أمكنَ تَحصيلُها كلُّها حُصِّلَت، وإن تزاحَمَت ولم يمكن تَحصيلُ بَعضِها إلّا بتفويتِ البَعضِ قُدِّمَ أكملُها وأهمُّها وأشدُّها طلباً للشارعِ .

وأمَّا مسألةُ المُستيقظ قبلَ طلوعِ الشمسِ جُنباً وضيق الوَقتِ عليهِ

بـحيثُ لا يتَّسعُ للغسلِ والصَّلاةِ، فهذا الواجبُ في حقِّهِ عندَ جمهورِ العلماءِ أن يغتسلَ وإن طَلَعَت الشمسُ ولا تُجزيهِ الصَّلاةُ بالتَّيمُّم، لأنَّهُ واجدٌ للماءِ وإن كانَ غيرَ مفرّطٍ في نومهِ فلا إثمَ عليهِ كما لو نامَ حتى طَلَعَت الشمسُ، والواجبُ في حقِّهِ الـمُبادَرَةُ إلى الغسلِ والصَّلاةِ وهذا وقتُها في حقِّ أمثالهِ، وعلى هذا القولُ الصَّحيحُ، فلا يتعارَضُ هـهُنا مَصلَحَةٌ ومَفسدَةٌ مُتساويتانِ بل مَصلَحَةُ الصَّلاةِ بالطَّهارَةِ أرجحُ من إيقاعها في الوَقتِ بالتَّيمُّم .

وفي الـمسألَةِ قولٌ ثانٍ - وهو روايَةٌ عن مالكٍ - أنَّهُ يتيمَّمُ ويُصلِّي في الوَقتِ، لأنَّ الشارعَ لهُ التفاتٌ إلى إيقاعِ الصَّلاةِ في الوَقتِ بالتَّيمُّم أعظمُ من التفاتهِ إلى إيقاعها بطهارَةِ الماءِ خارجَ الوَقتِ، والعدمُ الـمُبيحُ للتَّيمُّم هو العدمُ بالنِّسبةِ إلى وَقتِ الصَّلاةِ لا مُطلقاً، فإنَّهُ لابدَّ أن يـجدَ الـماءَ ولو بَعدَ حينٍ، ومعَ هذا فأوجَبَ عليهِ الشارعُ التَّيمُّمَ؛ لأنَّهُ عادمٌ للماءِ بالنِّسبَةِ إلى وَقتِ الصَّلاةِ، وهكذا هذا النَّائمُ وإن كانَ واجداً للماءِ ولكنَّهُ عادمٌ بالنِّسبَةِ إلى الوَقتِ .

وصاحبُ هذا القولِ يقولُ مَصلحَةُ إيقاعِ الصَّلاةِ في الوَقتِ بالتَّيمُّم أرجحُ في نَظرِ الشارعِ من إيقاعها خارجَ الوَقتِ بطهارَةِ الماءِ؛ فعَلى كلا القولينِ لم تَتساوَ الـمَصلحَةُ والـمَفسدَةُ، فثبتَ أنَّهُ لا وجودَ لهذا القسمِ في الشرعِ .

وأمَّا مسألةُ اغتلامِ البَـحرِ فلا يَـجوزُ إلقاءُ أحدٍ منهم في البَحرِ بالقرعَةِ ولا غيرها لاستوائهم في العصمَةِ، وقَتلُ مَن لا ذَنبَ [له] وقايَةً لنفسِ القاتلِ بهِ وليسَ أولى بذلكَ منهُ ظلمٌ .

نعَم لو كانَ في السَّفينَةِ مالٌ أو حيوانٌ وجَبَ إلقاءُ المالِ ثمَّ الـحيوانِ،

لأنَّ المَفسَدَةَ في فواتِ الأموالِ والحيواناتِ أولى من المفسدَةِ في فواتِ أنفسِ النَّاسِ المَعصومَةِ .

وأمَّا سائرُ الصُّوَرِ التي تَساوَت مفاسدُها كإتلافِ الدِّرهمين والحيوانين وقتلِ أحدِ العدوَّين؛ فهذا الحُكمُ فيهِ التَّخييرُ بينهما، لأنَّهُ لابدَّ من إتلافِ أحدهما وقايَةً لنفسهِ، وكلاهما سواءٌ فيخيَّرُ بينهما وكذلكَ العدوَّانِ المُتكافئانِ يُخيَّرُ بينَ قتالهما كالواجبِ المُخيَّرِ والوَليّ .

وأمَّا مَن تساوَت حسناتهُ وسيِّئاتهُ وتدافعَ أثرُهما فهو حجَّةٌ عليكُم، فإنَّ الحُكمَ للحسناتِ وهي تغلبُ السَّيِّئاتِ، فإنَّهُ لا يدخُلُ النَّارَ ولكنَّهُ يبقى على الأعرافِ مدَّةً ثمَّ يصيرُ إلى الجنَّةِ، فَقَد تبيَّنَ غلبةُ الحسناتِ لجانبِ السيِّئاتِ، ومَنعِها من ترتُّبِ أثرِها عليها، وأنَّ الأثَرَ هو أثرُ الحسناتِ فَقَط، فبانَ أنَّهُ لا دليلَ حَكمَ لكُم على وجودِ هذا القسمِ أصلاً، وأنَّ الدَّليلَ يدلُّ على امتناعهِ .

فإن قيلَ لكُم : فما قولكُم فيما إذا عارَضَ المَفسَدَةَ مَصلَحَةٌ أرجحُ منها، وتَرتَّبَ الحُكمُ على الرَّاجحِ هل يترتَّبُ عليهِ مع بقاءِ المَرجوحِ منَ المَصلَحَةِ والمَفسَدَةِ ؟ لكنَّهُ لما كانَ مَغموراً لم يلتفت إليهِ أو يقولونَ : أنَّ المَرجوحَ زالَ أثرَهُ بالرَّاجحِ فلم يبقَ لهُ أثرٌ .

ومثالُ ذلكَ : أنَّ اللَّهَ تعالى حرَّمَ المَيتَةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزيرِ لما في تناولها منَ المَفسَدَةِ الرَّاجحَةِ وهو خبثُ التَّغذيَةِ، والغاذي شبيهٌ بالمُغتَذي، فيصيرَ المُغتَذي بهذه الخبائثِ خبيثَ النَّفسِ، فمن محاسنِ الشريعَةِ تحريمُ هذه الخبائثِ، فإن اضطرَّ إليها وخافَ على نَفسهِ الهلاكَ إن لم يتناوَلها أُبيحت

لهُ، فهَل إباحتُها والحالةُ هذه مع بقاءِ وَصفِ الخبثِ فيها لكن عارضهُ مَصلحَةٌ أرجحُ منهُ وهي حفظُ النَّفسِ أو أباحتُها أزالَت وَصفَ الخبثِ منها، فما أُبيحَ إلّا طيِّبٌ وإن كانَ خبيثاً في حالِ الاختيارِ .

قيلَ : هذا موضعٌ دقيقٌ وتَحقيقُهُ يَستدعي اطِّلاعاً على أسرارِ الشريعَةِ والطَّبيعَةِ. فلا تَستهونهُ وأعطِهِ حقَّهُ منَ النَّظرِ والتَّأمُّلِ، وقد اختَلَفَ النَّاسُ فيهِ على قولين :

فكثيرٌ منهم أو أكثرهم سلكَ مسالكَ التَّرجيحِ مع بقاءِ وَصفِ الخبثِ فيه، وقال : مَصلحَةُ حفظِ النَّفسِ أرجحُ من مفسدَةِ خبثِ التَّغذيَةِ .

وهذا قولُ من لم يُحقِّق النَّظرَ ويُمعِنِ التَّأمُّلَ بل استرسلَ مع ظاهرِ الأُمورِ، والصَّوابُ أنَّ وَصفَ الخُبْثِ مُنتَفٍ حالَ الاضطرارِ .

وكَشفُ الغطاءِ عن المسألَةِ : أنَّ وَصفَ الخبثِ غيرُ مستقلٍّ بنفسهِ في المحل المتغذَّى به بل متولِّدٌ من القابلِ والفاعلِ فهو حاصلٌ منَ المتغذِّي والمغتَذي به، ونظيرهُ تأثيرُ السُّمِّ في البَدنِ هو موقوفٌ على الفاعلِ والمحلِّ القابلِ، إذا علمَ ذلكَ فتناوَلُ هذه الخبائثِ في حالِ الاختيارِ يوجبُ حصولَ الأثرِ المَطلوبِ عدمهُ، فإذا كانَ المُتناوِلُ لها مُضطرّاً، فإنَّ ضرورتَهُ تمنعُ قبولَ الخبثِ الذي في المُغتَذى بهِ فلم تَحصُل تلكَ المَفسَدَةُ لأنَّها مَشروطَةٌ بالاختيارِ الذي بهِ يقبلُ المحلُّ خبثَ التَّغذيَةِ، فإذا زالَ الاختيارُ زالَ شرطُ القبولِ فلم تَحصُل المَفسَدَةُ أصلاً .

وإن اعتاصَ هذا على فهمكَ فانظُر في الأغذيَةِ والأشربَةِ الضَّارَّةِ التي لا يتخلَّفُ عنها الضَّرَرُ إذا تناوَلها المُختارُ الواجدُ لغيرها، فإذا اشتدَّت ضرورتُهُ

إليها ولم يَجد منها بدّاً فإنَّها تنفعهُ ولا يتولَّدُ لهُ منها ضررٌ أصلاً، لأنَّ قبولَ طبيعتهِ لها وفاقَتَهُ إليها ومَيلَهُ منعَهُ منَ التَّضرُّرِ بها بخلافِ حالِ الاختيارِ .

وأمثلَةُ ذلكَ مَعلومَةٌ مَشهودَةٌ بالحسِّ، فإذا كانَ هذا في الأوصافِ الحسِّيَّةِ المُؤثِّرَةِ في محالِّها بالحسِّ فما الظَّنُّ بالأوصافِ المعنَويَّةِ التي تأثيرُها إنَّما يعلمُ بالعقلِ أو بالشرعِ ؟

فلا تظنَّ أنَّ الضَّرورَةَ أزالَت وَصفَ المحلِّ وبدَّلته، فإنَّا لم نقُل هذا، ولا يقولهُ عاقلٌ، وإنَّما الضَّرورَةُ منعَت تأثيرَ الوَصفِ وأبطلَتهُ فهي من بابِ المانعِ الذي يمنعُ تأثيرَ المُقتَضي لا أنَّهُ يزيلُ قوَّتَهُ ألا تَرى أنَّ السَّيفَ الحادَّ إذا صادَفَ حَجَراً فإنَّهُ يمنعُ قَطعَهُ وتأثيرَهُ، لأنَّهُ يزيلُ حدَّتهُ وتهيُّأهُ لقطعِ القابلِ .

ونَظيرُ هذا الملابسُ المُحرَّمَةُ إذا اضطرَّ إليها، فإنَّ ضَرورَتَهُ تمنعُ ترتُّبَ المَفسدَةِ التي حُرِّمَت التي حرِّمَت لأجلها .

فإن قال : فهذا ينتقضُ عليكم بتحريمِ نكاحِ الأمَةِ فإنَّهُ حُرِّمَ للمَفسَدَةِ التي تَتضمّنهُ من إرقاقِ وَلَدِهِ، ثمَّ أُبيحَ عندَ الضَّرورَةِ إليهِ وهي خوفُ العنَتِ الذي هو أعظمُ فساداً من إرقاقِ الوَلدِ، ومع هذا فالمَفسدَةُ قائمَةٌ بعينها ولكن عارضَها مصلحَةُ حفظِ الفَرجِ عن الحرامِ وهي أرجحُ عندَ الشارعِ من رقِّ الوَلدِ .

قيل : هذا لا ينتقضُ بما قرَّرناهُ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ لما حرَّمَ نكاحَ الأمَّةِ لما فيهِ من مَفسدَةِ رقِّ الوَلدِ واشتغالِ الأمَّةِ بخدمَةِ سيِّدها، فلا يحصلُ لزوجها منَ السَّكنِ إليها والإيواءِ ودوامِ المعاشرَةِ ما تقرُّ به عينهُ وتسكنُ به نفسهُ أباحهُ عندَ الحاجَةِ إليهِ بأن لا يقدرَ على نكاحَ حرَّةٍ، ويَخشى على نَفسهِ مواقعَةَ

المَحظورِ، وكانَت المَصلَحَةُ لهُ في نكاحِها في هذه الحالِ أرجحَ من تلكَ المفاسدِ .

وليسَ هذا حالُ ضرورةٍ يُباحُ لها المَحظورُ فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ لا يضطرُّ عبدَهُ إلى الجماعِ بحيثُ إن تركهُ ماتَ بخلافِ الطَّعامِ والشرابِ، ولهذا لا يُباحُ الزِّنا بضرورَةٍ كما يُباحُ الخنزيرُ والميتَةُ والدَّمُ، وإنَّما الشهوَةُ وقضاءُ الوَطرِ يشقُّ على الرَّجلِ تحمُّلهُ وكفُّ النَّفسِ عنهُ لضعفهِ وقلَّةِ صبرهِ فرَحِمَهُ أرحمُ الرَّاحيمنَ وأباحَ لهُ أطيبَ النِّساءِ وأحسنَهن أربعاً منَ الحرائرِ وما شاءَ من مُلكِ يمينهِ منَ الإماءِ، فإن عَجزَ عن ذلكَ أباحَ لهُ نكاحَ الأمَةِ رحمَةً به وتَخفيضاً عنهُ لضعفهِ .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ومَن لَم يَستَطِع مِنكُم طَولاً أن يَنكِحَ المُحصَناتِ المُؤمناتِ فَمِمَّا مَلَكَت أيمانُكُم مِن فَتياتِكُم المؤمناتِ واللَّهُ أعلمُ بإيمانكُم ﴾ [النساء : ٢٥]، إلى قولهِ : ﴿ واللَّهُ يريدُ أن يَتوبَ عليكُم ويُريدُ الَّذينَ يتَّبعونَ الشَّهواتِ أن تَميلوا مَيلاً عَظيماً يُريدُ اللَّهُ أن يُخفِّفَ عنكُم وخُلقَ الإنسانُ ضَعيفاً ﴾ [النساء : ٢٧] .

فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ شرعَ لهم هذه الأحكامَ تَخفيفاً عنهم لضعفهم، وقلَّةِ صبرهم رحمَةً بهم وإحساناً إليهم، فليسَ هـهُنا ضَرورةٌ تُبيحُ المَحظورَ، وإنَّما هي مَصلحَةٌ أرجحُ من مصلَحَةٍ ومَفسدَةٌ أقلُّ من مَفسدَةٍ، فاختارَ لهم أعظَمَ المَصلحتين وإن فاتَت أدناهما، ودفعَ عنهم أعظَمَ المَفسدتين وإن فاتَت أدناهما، وهذا شأنُ الحكيمِ اللطيفِ الخَبيرِ البرِّ المُحسنِ .

وإذا تأمَّلتَ شرائعَ دينهِ التي وضَعها بينَ عبادهِ وجَدتها لا تَخرجُ عن

تَحصيلِ المصالحِ الخالصَةِ أو الرَّاجحَةِ بحسبِ الإمكانِ وإن تزاحمَت قدمُ أهمِّها وأجلِّها وإن فاتَت أدناهما، وتَعطيلِ المفاسدِ الخالصَةِ أو الرَّاجحَةِ بحسبِ الإمكانِ وإن تَزاحمَت عطلُ أعظمهما فساداً باحتمالِ أدناها، وعلى هذا وضعَ أحكمُ الحاكمينَ شرائعَ دينهِ دالَّةً عليهِ شاهدَةً لهُ بكمالِ علمهِ وحكمتهِ ولطفهِ بعبادهِ وإحسانهِ إليهم .

وهذه الجُملَةُ لا يستريبُ فيها مَن لهُ ذوقٌ منَ الشريعَةِ وارتضاعٌ من ثَديها ورودٌ من صَفوِ حوضها، وكلَّما كانَ تضلُّعهُ منها أعظمَ كانَ شهودُهُ لمحاسنها ومصالحها أكملَ ولا يمكنُ أحدٌ من الفقهاءِ أن يتكلَّمَ في مآخذِ الأحكامِ وعِلَلها والأوصافِ المُؤثِّرَةِ فيها حقَّاً وفَرقاً إلّا على هذه الطَّريقَةِ، وأمَّا طريقَةُ إنكارِ الحكمِ والتَّعليلِ ونَفي الأوصافِ المُقتضيَةِ لحُسنِ ما أمَرَ بهِ وقُبحِ ما نَهى عنهُ وتأثيرِها واقتضائها للحُبِّ والبُغضِ الذي هو مَصدرُ الأمرِ والنَّهيِ بطريقَةٍ جدليَّةٍ كلاميَّةٍ لا يتصوَّرُ بناءُ الأحكامِ عليها، ولا يمكِّنُ فقيهاً أن يستعملها في بابٍ واحدٍ من أبوابِ الفقهِ، كيف والقرآنُ وسنَّةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ مَملوآنِ من تَعليلِ الأحكامِ بالحكمِ والمصالحِ وتَعليلِ الخلقِ بهما، والتَّنبيهِ على وجوهِ الحكمِ التي لأجلها شرعَ تلكَ الأحكامِ، ولأجلها خَلَقَ تلكَ الأعيانَ ولو كانَ هذا في القرآنِ والسُّنَّةِ في نحوِ مائةِ موضعٍ أو مائتين لسقناها، ولكنَّهُ يزيدُ على ألفِ موضعٍ بطرقٍ متنوِّعَةٍ .

فتارَةً يذكرُ لامَ التَّعليلِ الصَّريحَةِ .

وتارَةً يذكرُ المَفعولَ لأجلهِ الذي هو المَقصودُ بالفعلِ، وتارَةً يذكرُ من أجلِ الصَّريحَةِ في التَّعليلِ وتارَةً يذكرُ أداةَ كي ،وتارَةً يذكرُ الفاءَ وإن، وتارَةً

يذكرُ أداةَ لعلَّ المُتضمِّنَةَ للتَّعليلِ الـمُجرَّدَةِ عن مَعنى الرَّجاءِ المُضافِ إلى الـمَخلوقِ، وتارَةً ينبِّهُ على السَّببِ يذكرهُ صريحاً، وتارةً يذكرُ الأوصافَ المُشتقَّةَ المُناسبَةَ لتلكَ الأحكامِ ثمَّ يرتِّبها عليها ترتيبَ المُسبَّباتِ على أسبابها، وتارَةً يُنكرُ على مَن زَعَمَ أنَّـهُ خَلَقَ خَلقهُ وشرعَ دينهُ عَبثاً وسدىً، وتارَةً يُنكرُ على من ظنَّ أنَّـهُ يُسوِّي بينَ الـمختلفين اللذين يقتضيانِ أثرينِ مُـختلفين، وتارَةً يـخبِرُ بكمالِ حكمتهِ وعلمهِ الـمُقتضي أنَّـهُ لا يفرِّقُ بينَ مُتماثلينِ ولا يُسوِّي بينَ مُختلفين، وأنَّـهُ يُنزلُ الأشياءَ منازلها ويرتِّبها مراتبها، وتارَةً يَستدعي من عبادهِ التَّفكُّرَ والتَّأمُّلَ والتَّدبُّرَ والتَّعقُّلَ لـحُسنِ ما بعثَ به رسولَـهُ وشرعَهُ لعبادهِ كما يستدعي منهم التَّفكُّرَ والنَّظَرَ في مخلوقاتهِ وحِكَمِها وما فيها منَ المنافعِ والمَصالحِ، وتارَةً يذكرُ منافعَ مـخلوقاتهِ مُنَبِّهاً بها على ذلكَ وأنَّـهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو، وتارَةً يـختمُ على آياتِ خَلقهِ وأمرهِ بأسماءٍ وصفاتٍ تُناسبها وتَقتَضيها، والقرآنُ مـملوءٌ من أوَّلهِ إلى آخرهِ بذكرِ حِكَمِ الـخَلقِ والأمرِ ومصالـحِهما ومنافعِهما وما تَضمَّناهُ منَ الآياتِ الشاهدَةِ الدَّالَّةِ عليهِ، ولا يُنكرُ من لهُ أدنى اطِّلاعٍ على معاني القرآنِ إنكارَ ذلكَ، وهل جَعَلَ اللَّهُ سبحانهُ في فطرِ العبادِ استواءَ العَدلِ والظُّلمِ، والصِّدقِ والكذبِ، والفُجورِ والعفَّةِ، والإحسانِ والإساءَةِ، والصَّبرِ والعفوِ، والإحتمالِ والطَّيشِ، والانتقامِ والـحدَّةِ، والكرمِ والسَّماحَةِ، والبَذلِ والبُخلِ، والشحِّ والإمساكِ، بل الفطرَةُ على الفُرقانِ بينَ ذلكَ كالفطرَةِ على قبولِ الأغذيَةِ النَّافعَةِ وتَركِ مالا يَنفعُ ولا يُغذِّي، ولا فَرقَ في الفطرَةِ بينهما أصلاً .

وإذا تأمَّلتَ الشريعَةَ التي بَعَثَ اللَّهُ بها رَسولَـهُ حقَّ التَّأمُّلِ وَجَدتها مِن

أوّلها إلى آخرها شاهدَةً بذلكَ ناطقَةً بهِ، ووَجَدَت الحكمَةَ والمَصلَحَةَ والعَدلَ بادياً على صفحاتها مُنادياً عليها يَدعو العقولَ والألبابَ إليها، وأنّهُ لا يجوزُ على أحكمِ الحاكمينَ ولا يَليقُ بهِ أن يَشرَعَ لعبادهِ ما يُضادّها وذلكَ لأنَّ الذي شرَعها علمَ ما في خلافِها منَ المَفاسدِ والقبائحِ والظُّلمِ والسَّفهِ الذي يتعالى عن إرادتهِ وشرعهِ، وأنَّهُ لا يصلحُ العبادُ إلّا عليها ولا سعادَةَ لهم بدونها ألبتَّةَ .

فتأمَّل محاسنَ الوُضوءِ بينَ يَدي الصَّلاةِ وما تَضمَّنتهُ منَ النَّظافَةِ والنَّزاهَةِ ومُجانبَةِ الأوساخِ والمُستَقذراتِ .

وتأمَّل كيفَ وَضعَ على الأعضاءِ الأربعَةِ التي هي آلَةُ البَطشِ والمَشيِ ومَجمعِ الحواسِّ التي تعلقُ أكثرُ الذُّنوبِ والخطايا بها، ولهذا خصَّها النَّبيُّ ﷺ بالذِّكرِ في قولهِ : « إنَّ اللَّهَ كَتَبَ على ابنِ آدمَ حظَّهُ منَ الزِّنا أدركَ ذلكَ ولا مَحالَةَ فالعَينُ تَزني وزِناها النَّظرُ والأذنُ تَزني وزِناها الإستماعُ واليدُ تَزني وزِناها البَطشُ والرِّجلُ تَزني وزِناها المَشيُ والقلبُ يتمَنَّى ويَشتَهي والفَرجُ يُصدِّقُ ذلكَ ويُكذِّبهُ » .[1]

فلمَّا كانَت هذه الأعضاءُ هي أكثرُ الأعضاءِ مُباشرَةً للمعاصي كانَ وَسخُ الذُّنوبِ ألصقُ بها وأعلقُ من غيرها، فشرَعَ أحكمُ الحاكمينَ الوُضوءَ عليها ليتَضمَّنَ نظافتَها وطهارَتها منَ الأوساخِ الحسيَّةِ وأوساخِ الذُّنوبِ والمعاصي، وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هذا المَعنى بقولهِ : « إذا توضَّأَ العَبدُ

---

(١) أخرجه البخاي (١١ / ٢٦ ، ٥٠٢ - ٥٠٣ - فتح)، ومسلم (٢٦٥٧) (٢١) .

المُسلم خَرَجَت خطاياهُ معَ الماءِ أو معَ آخرِ قَطرَةٍ منَ الماءِ حتى يخرجَ من تَحتِ أظفارِهِ » .(١)

والأحاديثُ في هذا البابِ كثيرةٌ .

فاقتَضَت حكمَةُ أحكمِ الحاكمينَ ورحمتُهُ أن شرعَ الوُضوءَ على هذه الأعضاءِ التي هي من أكثرِ الأعضاءِ مُباشَرَةً للمعاصي، وهي الأعضاءُ الظَّاهِرَةُ البارِزَةُ للغُبارِ والوَسخِ أيضاً، وهي أسهَلُ الأعضاءِ غُسلاً فلا يشقُّ تكرارُ غَسلِها في اليومِ والليلَةِ، فكانَت الحكمَةُ الباهِرَةُ في شرعِ الوضوءِ عليها دونَ سائرِ الأعضاءِ، وهذا يدلُّ على أنَّ المَضمَضَةَ من آكدِ أعضاءِ الوُضوءِ، ولهذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يُداومُ عليها ولم يُنقلُ عنهُ بإسنادٍ قَطُّ أنَّهُ أخلَّ بها يوماً واحداً، وهذا يدلُّ على أنَّها فَرضٌ لا يصحُّ الوضوءُ بدونها كما هو الصَّحيحُ من مذهبِ أحمَدَ وغيرِهِ منَ السَّلفِ، فمَن سوَّى بينَ هذه الأعضاءِ وغيرها وجَعَلَ تَعيينَها بمُجرَّدِ الأمرِ الخالي عن الحكمَةِ والمَصلحَةِ فَقَد ذهَبَ مَذهباً فاسداً، فكيفَ إذا زَعَمَ مع ذلكَ أنَّهُ لا فَرقَ في نَفسِ الأمرِ بينَ التَّعبُّدِ بذلكَ وبينَ أن يتعبَّدَ بالنَّجاسَةِ وأنواعِ الأقذارِ والأوساخِ والأنتانِ والرَّائحَةِ الكريهَةِ ؟ ويجعلُ ذلكَ مكانَ الطَّهارَةِ والوضوءِ وأنَّ الأمرَينِ سواءٌ، وإنَّما يحكمُ بمجرَّدِ المَشيئَةِ بهذا الأمرِ دونَ ضدِّهِ، ولا فَرقَ بينهما في نَفسِ الأمرِ، وهذا قولٌ تصوُّرُهُ كافٍ في الجَزمِ ببُطلانهِ .

وجميعُ مسائلِ الشريعَةِ كذلكَ آياتٌ بيِّناتٌ ودلالاتٌ واضحاتٌ وشواهدُ ناطقاتٌ بأنَّ الذي شرَعها لهُ الحكمَةُ البالغَةُ، والعلمُ المُحيطُ، والرَّحمَةُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥) من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه .

والعنايةُ بعبادِهِ، وإرادَةُ المصَّالحِ لهم وسَوقِهِم بها إلى كمالهم وعواقبهم الحميدَةِ .

وقَد نبَّهَ سبحانهُ عبادَهُ على هذا فقال : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا قُمتُم إلى الصَّلاةِ فَاغسِلوا وُجوهَكُم وأيدِيَكُم إلى المرافقِ وامسَحوا بِرؤسِكُم وأرجُلِكُم إلى الكَعبينِ ﴾ [المائدة : ٦٠]، إلى قوله : ﴿ ما يُريدُ اللَّهُ ليَجعَلَ عليكُم مِن حَرجٍ ولكن يريدُ ليُطهِّرَكُم وليُتمَّ نعمَتَهُ عَليكُم لَعلَّكُم تَشكرونَ ﴾ [المائدة : ٦٠] .

فأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ لم يأمرهم بذلكَ حَرجاً عليهم وتَضييقاً ومشقَّةً، ولكن إرادَةَ تَطهيرِهم وإتمامِ نعمتهِ عليهم، ليَشكروهُ على ذلكَ، فلهُ الحمدُ كما هوَ أهلهُ، وكما يَنبغي لكرَمِ وَجهِهِ وعزِّ جلالهِ .

مناقشة أدلة نفاة التحسين والتقبيح

فإن قيلَ : فما جوابُكُم عن الأدلَّةِ التي ذكرَها نُفاةُ التَّحسِينِ والتَّقبيحِ على كثرتها ؟

قيلَ : قَد كَفَونا بحمدِ اللَّهِ مؤنَةَ إبطالها بقَدحهم فيها، وَقَد أبطَلَها كلَّها واعترَض عليها فُضلاءُ أتباعِها وأصحابِها أبو عَبدِاللَّهِ بن الخطيبِ وأبو الحُسينِ الآمديِّ، واعتمدَ كلٌّ منهم على مَسلكٍ من أفسَدِ المسالكِ، واعتمَدَ القاضي على مَسلكٍ من جنسهما في المفاسدِ، فاعتَمَدَ هؤلاءِ الفضلاءِ على ثلاثِ مسالكَ فاسدَةٍ، وتَعرَّضوا لإبطالِ ما سِواها والقدحِ فيهِ، ونَحنُ نَذكرُ مسالكهم التي اعتَمَدوا عليها ونُبَيِّنُ فسادَها وبُطلانَها :

فأمَّا ابنُ الخَطيبِ اعتمَدَ على المَسلكِ المَشهورِ : وهو أنَّ فعلَ العَبدِ غيرُ اختياريٍّ، وما ليسَ بفعلٍ اختياريٍّ لا يكونُ حَسناً ولا قَبيحاً عَقلاً بالأتِّفاقِ، لأنَّ القائلينَ بالحُسنِ والقُبحِ العقليّينَ يَعترفونَ بأنَّهُ إنَّما يكونُ كذلكَ إذا كانَ اختياريّاً، وقَد ثبتَ أنَّهُ اضطراريٌّ فلا يوصفُ بحُسنٍ ولا قُبحٍ على المَذهبينِ .

أمَّا بيانُ كونهِ غير اختياريٍّ؛ فلأنَّهُ لم يتمكَّن العَبدُ من فعلهِ وتَركهِ

فواضحٌ وإن كانَ متمَكِّناً من فعلهِ وتَركهِ كانَ جائزاً، فأمَّا أن يفتقرَ تَرجيحُ الفاعليَّةِ على التَّاركيَّةِ إلى مرَجِّحِ أولا، فإن لم يفتقر كانَ اتِّفاقيّاً والاتِّفاقُ لا يوصَفُ بالـحُسنِ والقُبحِ، وإن افتقَرَ إلى مرَجِّحٍ فهو معَ مرَجِّحهِ إمَّا أن يكونَ لازماً وإمَّا جائزاً، فإن كانَ لازماً فهو اضطراريٌّ، وإن كانَ جائزاً عادَ التَّقسيمُ، فإمَّا أن ينتَهي إلى ما يكونُ لازماً فيكونُ ضَروريّاً أولا، فيَتهي إليهِ فيتسَلسَلُ وهو مُـحالٌ أن يكونَ اتِّفاقيّاً، فلا يوصَفُ بـحُسنٍ ولا قُبحٍ .

فهذا الدَّليلُ هو الذي يصولُ به ويـجولُ ويثبتُ به الـجبرُ، ويُرَدُّ بهِ على القَدريَّةِ، ويُنفى به التَّحسينُ والتَّقبيحُ، وهو فاسدٌ من وجوهٍ متعدِّدَةٍ :

● **أحدها** : أنَّهُ يتضمَّنُ التَّسويَةَ بينَ الـحركَةِ الضَّروريَّةِ والاختياريَّةِ وعَدَمِ التَّفريقِ بينهما وهو باطلٌ بالضَّرورَةِ والـحسِّ والشرعِ، فالاستدلالُ على أنَّ فعلَ العَبدِ غيرُ اختياريٍّ استدلالٌ على ما هو مَعلومُ البُطلانِ ضرورَةً وحسّاً وشرعاً، فهو بـمنزلَةِ الاستدلالِ على الـجمعِ بينَ النَّقيضينِ وعلى وجودِ الـمُـحالِ .

● **الثَّـانـي** : لو صحَّ الدَّليلُ المَذكورُ لزمَ منهُ أن يكونَ الربُّ تعالى غيرَ مُـختارٍ في فعلهِ، لأنَّ التَّقسيمَ الـمَذكورَ والتَّرديدَ جارٍ فيهِ بعَينهِ بأن يُقالَ : فعلهُ تعالى إمَّا أن يكونَ لازماً أو جائزاً، فإن كانَ لازماً كانَ ضروريّاً، وإن كانَ جائزاً فإن احتاجَ إلى مُرجِّحٍ عادَ التَّقسيمُ وإلّا فهو اتِّفاقيٌّ، ويَكفي في بُطلانِ الدَّليلِ المَذكورِ أن يستلزمَ كون الرَّبِّ غيرَ مُـختارٍ .

● **الثَّـالـث** : أنَّ الدَّليلَ المذكور لو صحَّ لزمَ بُطلانُ الـحُسنِ والقُبحِ الشرعيَّينِ، لأنَّ فعلَ العَبدِ ضروريٌّ أو اتِّفاقيٌّ وما كانَ كذلكَ فإنَّ الشرعَ لا

يُحسِّنهُ ولا يُقبِّحهُ، لأنَّهُ لا يردُ بالتَّكليفِ بهِ فَضلاً عن أن يَجعلهُ متعلّقَ الحُسنِ والقُبحِ .

• **الرابع** : أنَّ هذا الدَّليلَ الذي ذكرتهُ بعَينهِ حجَّةٌ على أنَّهُ اختياريٌّ، لأنَّهُ وجَبَ بالاختيارِ، وما وَجَبَ بالاختيارِ لا يكونُ إلّا اختياريّاً، وإلّا كانَ اختياريّاً غيرَ اختياريٍّ وهو جمعٌ بينَ النَّقيضَينِ، والدَّليلُ المَذكورُ حجَّةٌ على فسادِ قولكَ، وأنَّ الفعلَ الواجبَ بالاختيارِ اختياريٌّ .

• **الخامس** : أنَّ صدورَ الفعلِ عن المُختارِ بشرطِ تعلق اختيارهِ بهِ لا يُنافي كونهُ مَقدوراً لهُ، وإلّا كانَت إرادتُهُ وقُدرتُهُ غيرَ مَشروطَةٍ في الفعلِ وهو مُحالٌ، وإذا لم يُنافِ ذلكَ كونهُ مَقدوراً فهو اختياريٌّ قَطعاً .

• **السادس** : أنَّ غايَةَ هذا الدّليلِ أن يكونَ الفعلُ لازماً عندَ وجودِ سببهِ وأنتَ لم تُقِم دَليلاً على أنَّ ما كانَ كذلكَ يمتنعُ تَحسينُهُ وتَقبيحُهُ سوى الدَّعوَةِ المُجرَّدَةِ، فأينَ الدَّليلُ على أنَّ ما كانَ لازماً بهذا الاعتبارِ يمتنعُ تَحسينهُ وتَقبيحهُ ؟ ودليلكَ إنَّما يدلُّ على أنَّ ما كانَ غَيرَ اختياريٍّ منَ الأفعالِ امتنَعَ تَحسينهُ وتَقبيحهُ، فمحلُّ النِّزاعِ لم يتناوَلهُ الدَّليلُ المَذكورُ، وما تناوَلهُ وصَحَّت مقدِّماتُهُ فهو غيرُ مُتنازعٍ فيهِ؛ فدليلكَ لم يُفد شيئاً .

• **السابع** : أنَّ هذا الدَّليلَ لو صحَّ لزِمَ بُطلانُ الشرائعِ والتَّكاليفِ جملَةً، لأنَّ التَّكليفَ إنَّما يكونُ بالأفعالِ الاختياريَّةِ إذ يَستحيلُ أن يُكلَّفَ المُرتعشُ بحركةِ يَدهِ، وأن يُكلَّفَ المَحمومُ بتَسخينِ جلدهِ والمَقرورُ بقرّهِ، وإذا كانَت الأفعالُ اضطراريَّةً غيرَ اختياريَّةٍ لم يتصوَّر تعلُّقُ التَّكاليفِ والأمرِ

والنَّهيِ بها، فلو صحَّ الدَّليلُ المَذكورُ لبطُللَت الشرائعُ جملَةً :

وأمَّا الدَّليلُ الذي اعتمَدَ عليهِ **الآمديُّ** : فهو :

● **الأوَّل** : أنَّ حُسنَ الفعلِ لو كانَ أمراً زائداً على ذاتهِ لزِمَ قيامَ المَعنى بالمَعنى وهو مُحالٌ، لأنَّ العَرضَ لا يقومُ بالعَرضِ .

وهذا في البُطلانِ من جنسِ ما قبلهُ، فإنَّهُ مَنقوضٌ ما لا يُحصى منَ المعاني التي توصَفُ بالمعاني كما يُقالُ : علمٌ ضروريٌّ، وعلمٌ كَسبيٌّ، وإرادَةٌ جازمَةٌ، وحركَةٌ سريعَةٌ، وحركَةٌ بَطيئةٌ، وحركَةٌ مُستَديرَةٌ، وحركَةٌ مُستَقيمَةٌ، ومزاجٌ مُعتَدلٌ، ومزاجٌ مُنحرفٌ، وسوادٌ برَّاقٌ، وحُمرَةٌ قانيَةٌ، وخُضرَةٌ ناصعَةٌ، ولونٌ مُشرقٌ، وصَوتٌ شجٌّ، وحسٌّ رَخيمٌ، ورَفيعٌ، وَدقيقٌ، وَغليظٌ، وأضعافُ أضعافُ ذلكَ ممَّا لا يُحصى ممَّا توصفُ المعاني والأعراضُ فيهِ بمعانٍ وأعراضٍ وجوديَّةٍ، ومَن ادَّعى أنَّها عدميَّةٌ فهو مُكابرٌ، وهل شكَّ أحدٌ في وَصفِ المعاني بالشدَّةِ والضَّعفِ ؟ فيقالُ : همٌّ شديدٌ، وحبٌّ شديدٌ، وحزنٌ شديدٌ، وألمٌ شديدٌ، ومُقابلها فوَصفُ المعاني بصفاتها أمرٌ معلومٌ عندَ كلِّ العقلاءِ .

● **الثَّاني** : أنَّ قولهُ : يلزمُ منهُ قيامَ المعنى بالمَعنى غيرُ صحيحٍ بل المَعنى يوصَفُ بالمَعنى ويقومُ به تَبعاً لقيامهِ بالجَوهَرِ الذي هو المحلُّ، فيكونُ المعنيانِ جميعاً قائمينَ بالمحلِّ، وأحدهما تابعٌ للآخرِ، وكلاهما تَبَعٌ للمحلِّ، فما قامَ العَرضُ بالعَرضِ وإنَّما قامَ العَرضانِ جميعاً بالجَوهَرِ؛ فالحركَةُ والسُّرعَةُ قائمتانِ بالمُتحرِّكِ، والصَّوتُ وشجاهُ وغلظهُ ودقَّتُهُ وحُسنُهُ وقُبحُهُ

قائمَةٌ بالـحاملِ لهُ، والـمُحالِ إنَّـمـا هو قيامُ الـمَعنى بالـمَعنى من غيرِ أن يكونَ لهما حاملٌ، فأمَّا إذا كانَ لهـمـا حامِلٌ، وأحدهما صفَةٌ للآخَرِ، وكلاهما قامَ بالـمحلِّ الحاملِ؛ فليسَ بـمحالٍ، وهذا في غايَةِ الوُضوحِ .

● **الثَّالث** : أنَّ حُسنَ الفعلِ وقُبحَه شرعاً أمرٌ زائدٌ عليهِ، لأنَّ الـمَفهومَ منهُ زائدٌ على المَفهومِ من نَفسِ الفعلِ، وهما وجوديَّانِ لا عَدميَّانِ؛ لأنَّ نَقيضهما يـحملُ على العَدمِ فهو عَدمـيٌّ فهُمـا إذاً وجوديَّانِ، لأنَّ كونَ أحدِ النَّقيضينِ عَدميّاً يستلزمُ كونَ نَقيضهِ وجوديّاً، فلو صحَّ دليلكُم المَذكورُ لزمَ أن لا يوصفَ بالـحُسنِ والقُبحِ شرعاً، ولا خلاصَ عن هذا بالتزامِ كونِ الـحُسنِ والقُبحِ الشرعيَّينِ عَدميَّينِ ولا سبيلَ إليهِ، لأنَّ الثَّوابَ والعقابَ والـمَدحَ والذَّمَّ مرتَّبٌ عليهما تَرتُّبَ الأثرِ على مُآثِرهِ والـمُقتَضي على مُقتَضيهِ، وما كانَ كذلكَ لم يكُن عَدَماً مـحضاً إذ العدمَ الـمَحضُ لا يترتَّبُ عليهِ ثوابٌ ولا عقابٌ ولا مَدحٌ ولا ذمٌّ .

وأيضاً، فإنَّهُ لا معنى لكونِ الفعلِ حسناً وقبيحاً شرعاً إلّا أنَّهُ يشتملُ على صفَةٍ لأجلها كانَ حَسناً مَـحبوباً للرَّبِّ متعلّقة للذَّمِّ والعقابِ، وهذه أمورٌ وجودِيَّةٌ ثابتَةٌ لهُ في نَفسهِ ومحبَّةُ الرَّبِّ لهُ وأمرُهُ بهِ كساهُ أمراً وجوديّاً زادهُ حُسناً إلى حُسنهِ، وبُغضُه لهُ ونَهيُهُ عنهُ كساهُ أمراً وجوديّاً زادهُ قبحاً إلى قبحهِ، فجَعْلُ ذلكَ كلِّهِ عَدَماً مَحضاً ونَفياً صَرفاً لا يرجعُ إلى أمرٍ ثبوتـيٍّ في غايَةِ البُطلانِ والإحالَةِ، وظَهرَ أنَّ هذا الدَّليلَ في غايَةِ البُطلانِ، ولم نَتعَرَّض للوجوهِ التي قَدحوا بها فيهِ؛ فإنَّها مع طولها غيرَ شافيَةٍ ولا مُقنعَةٍ، فمَن اكتفى

بها فهي موجودَةٌ في كتبهم .

وأمَّا المَسلكُ الذي اعتمَدهُ كثيرٌ منهم **كالقاضي وأبي المعالي وأبي عَمرو بن الحاجب** منَ المُتأخِّرينَ؛ فهو : أنَّ الحُسنَ والقُبحَ لو كانا ذاتيَّينِ لما اختلفا باختلافِ الأحوالِ والمُتعلَّقاتِ والأزمانِ، ولاستحالَ ورودُ النَّسخِ على الفعلِ، لأنَّ ما ثَبتَ للذَّاتِ فهو باقٍ ببقائها لا يزولُ وهي باقيةٌ، ومعلومٌ أنَّ الكذبَ يكونُ حُسناً إذا تَضمَّنَ عصمَةَ دمِ نَبيٍّ أو مُسلمٍ ولو كانَ قُبحُهُ ذاتيّاً لهُ لكانَ قبيحاً أينَ وجدَ ؟

وكذلكَ ما نُسِخَ منَ الشريعَةِ لو كانَ حسنُهُ لذاتهِ لم يستحلَّ قبيحاً، ولو كانَ قُبحهُ لذاتهِ لم يَستحِل حسناً بالنَّسخِ .

وأيضاً لو كانَ ذاتيّاً لاجتمَعَ النَّقيضانِ في صدقِ مَن قال لأكذِبنَّ غداً، فإنَّهُ لا يَخلو إمَّا أن يكذبَ في الغَدِ أو يَصدقَ فإن كذَبَ لزمَ قُبحُهُ لكونهِ كذباً وحُسنُهُ لاستلزامهِ صدق الخبرِ الأوَّلِ، والمُستلزمُ للحسنِ حَسَنٌ فيجتمعُ في الخبرِ الثَّاني الحُسنُ والقُبحُ وهما نَقيضانِ، وإن صَدَقَ لزمَ حُسنُ الخبر الثَّاني من حيثُ أنَّهُ صدقٌ في نَفسهِ وقبحُه من حيثُ إنَّهُ مُستلزمٌ لكذبِ الخبرِ الأوَّلِ؛ فلزمَ النَّقيضانِ .

وأيضاً فلو كانَ القَتلُ والجَلدُ وقَطعُ الأطرافِ قَبيحاً لذاتهِ أو لصفَةٍ لازمَةٍ للذَّاتِ لم يكُن حَسناً في الحدودِ والقصاصِ، لأنَّ مُقتَضى الذَّاتِ لا يتخلَّفُ عنها إذا تَخلَّفَ فيما ذكرنا منَ الصُّوَرِ وغيرها دلَّ على أنَّهُ ليسَ ذاتيّاً .

فهذا تَقريرُ هذا المَسلكِ، وهو من أفسَدِ المسالكِ لوجوهٍ :

○ **أحدها** : أنَّ كونَ الفعلِ حَسناً أو قبيحاً لذاتِهِ أو لصفَةٍ **لم يُعنَ بهِ أنَّ ذلكَ يقومُ بحقيقَةٍ لا ينفكُّ عنها بحالٍ مثلَ كونهِ عَرَضاً وكونهِ مُفتقراً إلى محلٍّ يقومُ بهِ وكون الحركة حركةً والسَّواد لوناً، ومِن هٰهُنا غَلطَ علينا المُنازعونَ لنا في المسألةِ، وألزمونا ما لا يلزمُنا، وإنَّما نَعني بكونهِ حَسناً أو قبيحاً لذاتِهِ أو لصفتهِ أنَّهُ في نَفسهِ منشأٌ للمَصلحَةِ والمَفسدَةِ وتَرتُّبهما عليهِ كتَرتُّبِ المُسبَّباتِ على أسبابها المُقتضيَةِ لها**، وهذا كتَرتُّبِ الريِّ على الشُّربِ، والشِّبعِ على الأكلِ، وتَرتُّبِ منافعِ الأغذيَةِ والأدويَةِ ومضارِّها عليها، فحُسنُ الفَعلِ أو قُبحُه هو من جنسِ كونِ الدَّواءِ الفلانيِّ حَسناً نافعاً أو قبيحاً ضارّاً، وكذلكَ الغذاءُ واللِّباسُ والمَسكنُ والجماعُ والاستفراغُ والنَّومُ والرِّياضَةُ وغيرها، فإنَّ تَرتُّبَ آثارِها عليها ترتُّبُ المَعلوماتِ والمُسبِّباتِ على علَلِها وأسبابها، ومع ذلكَ فإنَّها تَختلفُ باختلافِ الأزمانِ والأحوالِ والأماكنِ والمحلِّ القابلِ ووجودِ المعارضِ، فتخلف الشِّبعِ والرَّيِّ عن الخُبزِ واللَّحمِ والماءِ في حقِّ المَريضِ ومَن به علَّةٌ تمنعهُ من قبولِ الغذاءِ لا تُخرجهُ عن كونهِ مُقتضياً لذلك لذاتهِ حتى يقالَ لو كانَ كذلكَ لذاتهِ لم يتخلَّف، لأنَّ ما بالذَّاتِ لا يتخلَّفُ، وكذلكَ تخلّفُ الانتفاعِ بالدَّواءِ في شدَّةِ الحرِّ والبَردِ وفي وَقتِ تَزايدِ العلَّةِ لا يخرجهُ عن كونهِ نافعاً في ذاتهِ، كذلكَ تخلّفُ الانتفاعِ باللباسِ في زمنِ الحرِّ مثلاً لا يدلُّ على أنَّهُ ليسَ في ذاتهِ نافعاً ولا حَسناً، فهذه قُوى الأغذيَةِ والأدويَةِ واللِّباسِ ومنافعُ الجماعِ والنَّومِ تَتخلَّفُ عنها آثارُها زماناً ومكاناً وحالاً وبحسبِ القبولِ والاستعدادِ؛ فتكونَ نافعَةً حسنةً في زمانٍ دونَ زمانٍ

ومكانٍ دونَ مكانٍ وحالٍ دونَ حالٍ، وفي حقِّ طائفَةٍ أو شخصٍ دونَ غيرهم، ولم يَخرجها ذلكَ عَن كونها مُقتضيَةً لآثارها بقُواها وصفاتِها، فهكذا أوامرُ الرَّبِّ تباركَ وتعالى وشرائعُهُ سواء يكونُ الأمرُ منشأَ المَصلحَةِ وتابعاً للمأمورِ في وَقتٍ دونَ وقتٍ، فيأمرهُ به تباركَ وتعالى في الوَقتِ الذي علمَ أنَّهُ مصلحةٌ فيهِ، ثمَّ يَنهى عنهُ في الوَقتِ الذي يكونُ فعلُهُ فيهِ مَفسدَةٌ؛ على نَحوِ ما يأمرُ الطَّبيبُ بالدَّواءِ والحميَةِ في وَقتٍ هو مَصلحةٌ للمريضِ، وينهاهُ عنهُ في الوَقتِ الذي يكونُ تناولهُ مَفسدَةً بل أحكمُ الحاكمينَ الذي بَهَرَت حكمتُهُ العقولَ أولى بمراعاةِ مصالحِ عبادهِ ومفاسدهم في الأوقاتِ والأحوالِ والأماكنِ والأشخاصِ.

وهل وُضعَت الشرائعُ إلّا على هذا ؟ فكانَ نكاحُ الأُختِ حسناً في وَقتهِ حتى لم يكُن بدٌّ منهُ في التَّناسلِ وحفظِ النَّوعِ الإنسانيِّ، ثمَّ صارَ قبيحاً لما استُغنى عنهُ، فحرَّمهُ على عبادهِ، فأباحهُ في وَقتٍ كانَ فيهِ حسناً، وحرَّمهُ في وَقتٍ صارَ فيهِ قبيحاً، وكذلكَ كلُّ ما نسخهُ منَ الشرعِ بل الشريعَةُ الواحدَةُ كلُّها لا تخرجُ عن هذا وإن خفيَ وجهُ المَصلحَةِ والمَفسدَةِ فيهِ على أكثرِ النَّاسِ .

وكذلكَ إباحَةُ الغنائمِ كانَ قبيحاً في حقِّ مَن قبلنا لئلّا تَحملهم إباحتُها على القتالِ لأجلها، والعمل لغيرِ اللَّهِ؛ فتفوتَ عليهم مَصلحَةُ الإخلاصِ التي هي أعظمُ المصالحِ، فحمى أحكمُ الحاكمينَ جانبَ هذه المَصلحَةِ العَظيمَةِ بتَحريمها عليهم؛ ليتمحَّضَ قتالهم للَّهِ لا للدُّنيا، فكانَت المَصلحَةُ في حقِّهم تَحريمها عليهم، ثمَّ لما أوجَدَ هذه الأُمَّةَ التي هي أكملُ الأُمَمِ عقولاً،

وأرسخُهم إيماناً وأعظمُهم توحيداً وإخلاصاً، وأرغبُهم في الآخرةِ، وأزهدُهم في الدُّنيا أباحَ لهم الغنائمَ، وكانَت إباحتها حسنَةً بالنِّسبَةِ إليهم وإن كانَت قَبيحَةً بالنِّسبَةِ إلى مَن قبلهم؛ فكانَت كإباحَةِ الطَّبيبِ اللَّحم للصَّحيحِ الذي لا يُخشى عليهِ من مضرَّتهِ، وحميتهِ منهُ للمريضِ المَحمومِ .

وهَذا الحُكمُ فيما شرعَ في الشريعَةِ الواحدَةِ في وَقتٍ ثمَّ نُسخَ في وَقتٍ آخَرَ؛ كالتَّخييرِ في الصَّومِ في أوَّلِ الإسلامِ بينَ الإطعامِ وبينهُ لما كانَ غيرَ مألوفٍ لهم ولا مُعتادٍ، والطِّباعُ تأباهُ إذ هو هَجرُ مألوفِها ومَحبوبِها ولم تَذُق بعدُ حلاوَتهُ وعواقبَهُ المَحمودَةَ وما في طيِّهِ منَ المصالحِ والمنافعِ؛ فخُيِّرَت بينهُ وبينَ الإطعامِ ونَدَبَت إليهِ، فلما عَرفَت علَّتهُ يعني حكمتَهُ وألفتهُ، وعَرفَت ما تَضمَّنهُ منَ المصالحِ والفوائدِ حُتِّمَ عليها عَيناً ولم يُقبل منها سواهُ، فكانَ التَّخييرُ في وَقتهِ مصلحَةً وتَعيينُ الصَّومِ في وَقتهِ مصلحَةً، فاقتَضَت الحكمَةُ البالغَةُ شرعَ كلِّ حكمٍ في وَقتهِ، لأنَّ المَصلحَةَ فيهِ في ذلكَ الوَقتِ .

وكانَ فَرضُ الصَّلاةِ أوَّلاً ركعتينِ لما كانوا حَديثي عَهدٍ بالإسلامِ، ولم يَكونوا مُعتادينَ لها، ولا ألِفَتها طباعهُم وعقولُهم، فُرضَت عليهم بوصفِ التَّخفيفِ، فلما ذَلَّت بها جوارحُهم، وطوّعَت بها أنفسهم، واطمأنَّت إليها قلوبهم، وباشرَت نَعيمَها ولذَّتها وطيبَها وذاقَت حلاوَةَ عبوديَّةِ اللَّهِ فيها ولذَّةَ مُناجاتهِ زيدَت ضعفَها، وأقرَّت في السَّفرِ على الفَرضِ الأوَّلِ لحاجَةِ المُسافرِ إلى التَّخفيفِ ولمشقَّةِ السَّفرِ عليهِ، فتأمَّل كيفَ جاءَ كلُّ حكمٍ في وقتهِ مُطابقاً للمَصلَحَةِ والحكمَةِ شاهداً للَّهِ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ الذي بهرَت حكمتُهُ العقولَ والألبابَ، وبدا على صفَحاتها بأنَّ ما خالفَها هو

الباطلُ، وأنَّها هي عَينُ المَصلَحَةِ والصَّوابِ .

ومِن هذا أمرُهُ سبحانهُ لهم بالإعراضِ عن الكافرينَ وتَركِ أذاهم والصَّبرِ عليهم والعَفوِ عنهم لما كانَ ذلكَ عَينَ المَصلحَةِ، لقلَّةِ عَددِ المُسلمينَ وَضَعفِ شوكتهم وغلبَةِ عدوِّهِم، فكانَ هذا في حقِّهِم إذ ذاكَ عَينَ المَصلحَةِ، فلما تَحيَّزوا إلى دارٍ وَكَثُرَ عَددُهم وقويَت شوكتُهم وتجرَّأت أنفسُهم لمناجَزَةِ عَدوِّهم أذِنَ لهم في ذلكَ إذناً من غيرِ إيجابٍ عليهم، ليُذيقهم حلاوَةَ النَّصرِ والظَّفرِ وعزَّ الغَلَبَةِ، وكانَ الجهادُ أشقُ شيءٍ على النُّفوسِ فجعلهُ أوَّلاً إلى اختيارهم إذناً لا حَتماً، فلما ذاقوا عزَّ النَّصرِ والظَّفرِ وعَرفوا عواقبَهُ الحميدَةَ أوجبهُ اللَّهُ عليهم حَتماً، فانقادوا لهُ طَوعاً ورَغبَةً ومحبَّةً، فلو أتاهم الأمرُ مُفاجأةً على ضَعفٍ وقلَّةٍ لنَفَروا عنهُ أشدَّ النِّفارِ .

وتأمَّل الحكمَةَ الباهرَةَ في شرعِ الصَّلاةِ أوَّلاً إلى بيتِ المَقدسِ إذ كانَت قبلَةَ الأنبياءِ، فبُعثَ بما بُعثَ بهِ الرُّسلُ وبما يُعرفهُ أهلُ الكتابِ، وكانَ استقبالُ بيتِ المقدسِ مُقرِّراً لنبوَّتهِ، وأنَّهُ بعثَ بما بُعثَ بهِ الأنبياءُ قبلهُ، وأنَّ دعوتهُ هي دَعوَةُ الرُّسلِ بعَينها وليسَ بدعاً منَ الرُّسلِ ولا مُخالفاً لهم بل مُصدِّقاً لهم مؤمناً بهم، فلما استقرَّت أعلامُ نبوَّتِه في القلوبِ، وقامَت شواهدُ صدقهِ من كلِّ جهَةٍ، وشهدَت القلوبُ لهُ بأنَّهُ رسولُ اللَّهِ حقَّاً وإن أنكروا رسالتَهُ عناداً وحسداً وبَغياً، وعلمَ سبحانهُ أنَّ المَصلحَةَ لهُ ولأُمَّتِهِ أن يَستقبلوا الكَعبَةَ البيتَ الحرامَ أفضلَ بقاعِ الأرضِ وأحبَّها إلى اللَّهِ وأعظمَ البيوتِ وأشرفَها وأقدمَها قرَّرَ قبلَهُ أموراً كالمُقدِّماتِ بينَ يَديهِ لعِظَمِ شأنهِ، فذَكَرَ النَّسخَ أوَّلاً، وأنَّهُ إذا نَسخَ آيَةً أو حكماً أتى بخيرٍ منهُ أو مثله، وأنَّهُ على كلِّ

شيءٍ قَديرٌ، وأنَّ لهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، ثمَّ حذَّرهم التَّعنُّتَ على رسولهِ والإعراضَ كما فَعَلَ أهلُ الكتابِ قبلهم، ثمَّ حذَّرهم من أهلِ الكتابِ وعداوتِهم وأنَّـهُم يَودُّونَ لو ردُّوهُـم كفَّاراً فلا يَسمعوا منهم ولا يَقبلوا قولهم، ثمَّ ذكرَ تَعظيمَ دينِ الإسلامِ وتَفضيلهِ على اليَهوديَّةِ والنَّصرانيَّةِ وأنَّ أهلهُ هم السُّعداءُ الفائزونَ لا أهلَ الأماني الباطلَةِ، ثمَّ ذكرَ اختلافَ اليَهودِ والنَّصارى وشهادَةَ بَعضهم على بَعضٍ بأنَّـهُم ليسوا على شيءٍ. فَحقيقٌ بأهلِ الإسلامِ أن لا يَقتَدوا بهم وأنَّ يخالفوهم في هَديهم الباطلِ، ثمَّ ذكرَ جُرمَ مَن منعَ عبادَهُ من ذكرِ اسمهِ في بيوتهِ ومساجدهِ وأن يُعبدَ فيها وظُلمَهُ وأنَّهُ بذلكَ ساعٍ في خرابها، لأنَّ عمارَتها إنَّما هي بذكرِ اسمهِ وعبادتهِ فيها، ثمَّ بيَّنَ أنَّ لهُ المَشرقَ والمغربَ وأنَّهُ سبحانهُ لعظمتهِ وإحاطتهِ حيثُ استقبلَ المُصلَّى فثمَّ وجههُ تعالى، فلا يظنُّ الظَّانُّ أنَّهُ إذا استقبلَ البيتَ الحرامَ خَرَجَ عن كونهِ مُستقبِلاً ربَّهُ وقبلتهُ فإنَّ اللَّهَ واسعٌ عليمٌ، ثمَّ ذكرَ عبوديَّةَ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ لهُ وأنَّـهُم كلٌّ لهُ قانِتونَ، ثمَّ نبَّه على عدمِ المَصلحَةِ في موافقَةِ أهلِ الكتابِ وأنَّ ذلكَ لا يعودُ باستصلاحهم ولا يُرجى معهُ إيمانهم، وأنَّـهُم لن يَرضوا عنهُ حتى يتَّبعَ ملَّتَهم وضِمْنَ هذا تَنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ موافقتهم في القبلَةِ لا مَصلحَةَ فيها فسواءٌ وافَقتَهم فيها أو خالفتَهُم فإنَّهُم لَن يَرضوا عنكَ حتى تَتَّبعَ ملَّتَهم، ثمَّ أخبرَ أنَّ هداهُ هو الهُدى الحقُّ، وحذَّرهُ من اتِّباعِ أهوائهم، ثمَّ انتَقلَ إلى تَعظيمِ إبراهيمَ صاحبِ البيتِ وبانيهِ والثَّناءِ عليهِ وذكرَ إمامتَه للنَّاسِ وإنَّهُ أحقُّ مَن اتُّبعَ، ثمَّ ذكرَ جلالَةَ البيتِ وفَضلَهُ وشرفهُ وأنَّهُ أمنٌ للنَّاسِ ومثابَةٌ لهم يثوبونَ إليهِ ولا يقضونَ منهُ وَطَراً، وفي هذا تنبيهٌ على

أنَّهُ أحقُّ بالاستقبالِ من غيرِهِ، ثمَّ أمرهم أن يتَّخذوا من مقامِ إبراهيم مُصلَّى، ثمَّ ذكرَ بناءَ إبراهيمَ وإسماعيلَ البيتَ وتَطهيرهُ بعَهدِهِ وإذنهُ ورفعها قواعدَهُ وسؤالَهما ربَّهما القبولَ منهما وأن تَجعلَهما مُسلمينَ لهُ، ويَريهما مناسِكَهُما، ويَبعَثَ في ذريِّتِهما رسولاً منهم يَتلو عليهم آياتهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهُم الكتابَ والحكمَةَ، ثمَّ أخبَرَ عن جَهلِ مَن رغبَ عن ملَّةِ إبراهيمَ وسَفَهِ ونُقصانِ عَقلِهِ، ثمَّ أكَّدَ عليهم أن يكونوا على ملَّةِ إبراهيمَ وأنَّهُم إن خَرجوا عنها إلى اليَهوديَّةِ أو نَصرانيَّةِ أو غَيرها كانوا ضُلّالاً غيرَ مُهتَدين .

وهذه كلُّها مُقدِّماتٌ بينَ يَدي الأمرِ باستقبالِ الكعبَةِ لِمَن تأمَّلها وتدبَّرها وعلمَ ارتباطها بشأنِ القبلَةِ، فإنَّه يعلمُ بذلكَ عظَمَةَ القرآنِ وجلالَتَهُ وتَنبيهَهُ على كمالِ دينهِ وحُسنهِ وجلالتِهِ، وأنَّهُ هو عينُ المَصلحَةِ لعبادِهِ لا مَصلحَةَ لهم سواهُ، وشوَّقَ بذلكَ النُّفوسَ إلى الشهادَةِ لهُ بالحُسنِ والكمالِ والحكمَةِ التَّامَّةِ، فلما قرَّرَ ذلكَ كلَّهُ أعلمهم بما سيقولُ السُّفهاءُ منَ النَّاسِ إذا تَركوا قبلَتَهم لئلّا يفجأهم من غيرِ علمٍ به، فيعظُمَ موقعهُ عندهم، فلما وَقَعَ لم يصعُب عليهم بل أخبَرَ أنَّ لهُ المَشرقَ والمغربَ يَهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، ثمَّ أخبَرَ أنَّهُ كما جعلهم أمَّةً وسطاً خياراً اختارَ لهم أوسَطَ جهاتِ الاستقبالِ وخَيرَها كما اختارَ لهم خَيرَ الأنبياءِ، وشرعَ لهم خَيرَ الأديانِ، وأنزَلَ عليهم خَيرَ الكتبِ، وجعلهم شهداءَ على النَّاسِ كلِّهم لكمالِ فَضلهم وعلمهم وعدالتهم، وظَهرَت حكمتُهُ في أن اختارَ لهم أفضلَ قبلَةٍ وأشرفَها لتتكامَلَ جهاتُ الفَضلِ في حقِّهم بالقبلَةِ والرَّسولِ والكتابِ والشريعَةِ، ثمَّ نبَّهَ سبحانهُ على حكمتِهِ البالغَةِ في أن جَعَلَ القبلَةَ أوَّلاً هي بيتَ المقدسِ؛ ليعلَمَ سبحانهُ

واقعاً في الخارجِ ما كانَ مَعلوماً لهُ قبلَ وقوعهِ مَن يتَّبعُ الرَّسولَ في جميعِ أحوالهِ، وينقادُ لهُ ولأوامرِ الرَّبِّ تعالى، ويَدينُ بها كيفَ كانَت وحيثُ كانَت، فهذا هو المُؤمنُ حقّاً الذي أعطى العبوديَّةَ حقَّها، ومَن ينقلبُ على عقبيهِ ممَّن لم يَرسخْ، في الإيمانِ قلبُهُ ولم يستقرَّ عليهِ قدمُهُ فعارَضَ وأعرَضَ ورجعَ على حافرهِ، وشكَّ في النُّبوَّةَ وخالطَ قلبَهُ شبهَةُ الكفَّارِ الذينَ قالوا : إن كانَت القبلَةُ الأولى حقّاً فَقَد خرجتم عن الحقِّ، وإن كانَت باطلاً فَقَد كنتم على باطلٍ، وضاقَ عَقلُهُ المَنكوسُ عن القسمِ الثَّالثِ الحقِّ وهو أنَّها كانَت حقّاً ومَصلحَةً في الوقت الأوَّل، ثمَّ صارت مفسدة باطلة الاستقبال في الوَقتِ الثَّاني، ولهذا أخبَرَ سبحانهُ عن عِظَمِ شأنِ هذا التَّحويلِ والنَّسخِ في القبلَةِ فقال : ﴿ وإن كانَت لكَبيرَةً إلّا عَلى الَّذينَ هَدى اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٣]، ثمَّ أخبَرَ أنَّهُ سبحانهُ لم يكُن يُضيِّع ما تَقدَّمَ لهم منَ الصَّلواتِ إلى القبلَةِ الأولى، وأنَّ رأفتَهُ ورحمتَهُ بهم تأبى إضاعَةَ ذلكَ عليهم وقَد كانَ طاعَةً لهم، فلما قرَّرَ سبحانهُ ذلكَ كلَّهُ، وبيَّنَ حُسنَ هذه الجهَةِ بعَظَمَةِ البَيتِ وعلوِّ شأنهِ وجلالتهِ قال : ﴿ قَد نَرى تقلُّبَ وَجهِكَ في السَّماءِ فَلنُوَلِّينَّكَ قِبلَةً تَرضاها فَوَلِّ وَجهَكَ شطرَ المَسجِدِ الحرامِ وحَيثُ ما كُنتُم فَوَلُّوا وُجوهكُم شطرَهُ ﴾ [البقرة : ١٤٤]، وأكَّدَ ذلكَ عليهم مرَّةً بَعدَ مرَّةٍ اعتناءً بهذا الشأنِ وتَفخيماً لهُ، وأنَّهُ شأنٌ يَنبغي الاعتناءُ بهِ والاحتفالُ بأمرهِ، فتدبَّرَ هذا الاعتناءَ وهذا التَّقريرَ وبيانَ المصالحِ النَّاشئةِ من هذا الفَرعِ من فروعِ الشريعَةِ وبيانَ المفاسدِ النَّاشئةِ من خلافهِ، وأنَّ كلَّ جهَةٍ في وَقتها كانَ استقبالُها هو المَصلحَةُ، وأنَّ للرَّبِّ تعالى الحكمَةَ البالغَةَ في شرعِ القبلَةِ الأولى وتَحويلِ عبادهِ عنها إلى

المَسجدِ الحرامِ .

فهذا مَعنى كَونِ الحَسَنِ والقبحِ ذاتيّاً للفعلِ لا ناشئاً من ذاتهِ، ولا ريبَ عندَ ذَوي العقولِ أنَّ مثلَ هذا يَختلفُ باختلافِ الأزمانِ والأمكنَةِ والأحوالِ والأشخاصِ .

وتأمَّل حكمَةَ الرَّبِّ تعالى في أمرهِ إبراهيمَ خَليله والخلَّةُ منزلَةٌ تَقتَضي إفرادَ الخَليلِ بالمَحبَّةِ وأن لا يكونَ لهُ فيها مُنازِعٌ أصلاً بل قَد تَخلَّلَت محبَّتَهُ جميعَ أجزاءِ القَلبِ والرُّوحِ فلَم يبقَ فيها مَوضعٌ خالٍ فَضلاً عن أن يكونَ محلّاً لمحبَّةِ غيرهِ، فلمَّا سألَ إبراهيمُ الوَلَدَ وأعطيه أخَذَ شعبَةً من قلبهِ كما يأخذُ الوَلدُ شعبَةً من قلبِ والدهِ، فغارَ المَحبوبُ على خَليلهِ أن يكونَ في قلبهِ موضعٌ لغيرهِ، فأمرَهُ بذَبحِ الوَلَدِ ليُخرجَ حُبَّهُ من قلبهِ، ويكونَ اللَّهُ أحبَّ إليهِ وآثَرَ عندهُ، ولا يَبقى في القَلبِ سوى محبَّتِه فوطَّنَ نَفسَهُ على ذلكَ وعَزَمَ عليهِ، فخلصتِ المحبَّةُ لوَليِّها ومُستحقِّها، فحصلَت مَصلحَةُ المأمورِ بهِ منَ العَزمِ عليهِ وتَوطينِ النَّفسِ على الامتثالِ، فبقيَ الذَّبحُ مَفسدَةً لحصولِ المَصلحَةِ بدونهِ فنسخَهُ في حقِّهِ لما صارَ مَفسدَةً وأمرهُ به لما كانَ عَزمهُ عليهِ وتوطينُ نَفسهِ مَصلحَةً لهما، فأيُّ حكمَةٍ فوقَ هذا ؟ وأيُّ لُطفٍ وبَرٍّ وإحسانٍ يَزيدُ على هذا ؟ وأيُّ مَصلحَةٍ فوقَ هذه المَصلحَةِ بالنِّسبَةِ إلى هذا الأمرِ ونَسخَهُ ؟

وإذا تأمَّلتَ الشرائعَ النَّاسخَةَ والمَنسوخَةَ وجَدتها كلَّها بهذه المَنزلَةِ، فمنها ما يكونُ وجهُ المَصلحَةِ فيهِ ظاهراً مَكشوفاً، ومنها ما يكونُ ذلكَ فيهِ خَفيّاً لا يُدركُ إلّا بفَضلِ فطنَةٍ وجَودَةِ إدراكٍ .

من حِكَمِ النَّسْخِ في الشريعة الإسلاميّة :

وهـهُنا سرٌّ بديعٌ من أسرارِ الـخَلقِ والأمرِ بهِ يتبيَّنُ لكَ حَقيقَةُ الأمرِ، وهو : أنَّ اللَّهَ لَـم يَـخلُق شيئاً ولـم يأمر بشيءٍ ثمَّ أبطلهُ وأعدمهُ بالكُلِّيَّةِ بل لابدَّ أن يثبتهُ بوجهٍ ما؛ لأنَّـهُ إذا خَلَقَهُ لـحكمَةٍ لهُ في خَلقهِ وكذلكَ أمرُهُ بهِ وشرْعُهُ إيَّاهُ هو لـما فيهِ منَ الـمَصلحَةِ، ومعلومٌ أنَّ تلكَ المَصلحَةَ والحكمَةَ تَقتَضي إبقاءَهُ، فإذا عارَضَ تلكَ الـمَصلحَةَ مَصلحةٌ أُخرى أعظمُ منها كانَ ما اشتلمت عليهِ أولى بالـخَلقِ والأمرِ ويَبقى في الأولى ما شاءَ منَ الوَجهِ الذي يتضمَّنُ المَصلحَةَ ويكونَ هذا من بابِ تزاحمِ المَصالحِ والقاعدَةُ فيها شرعاً وخَلقاً تَـحصيلها واجتماعها بـحسبِ الإمكانِ فإن تَعذَّرَ قُدِّمَت الـمَصلحَةُ العُظمى وإن فاتَت الصُّغرى وإذا تأمَّلتَ الشريعَةَ والـخَلقَ رأيتَ ذلكَ ظاهراً وهذا سرٌّ قلَّ مَن تَفَطَّنَ لهُ منَ النَّاسِ فتأمَّل الأحكامَ الـمَنسوخَةَ حكماً حكماً كيفَ تَـجدُ الـمَنسوخَ لم يبطُل بالكليَّةِ بل لهُ بقاءٌ بوجهٍ :

فمن ذلكَ نَسخُ القبلَةِ وبقاءُ بيتِ المَقدسِ مُعظَّماً مُـحترماً تُشدُّ إليهِ الرِّحالُ، ويُقصدُ بالسَّفرِ إليهِ وحطِّ الأوزارِ عندهُ واستقبالهِ معَ غيرهِ منَ الـجهاتِ في السَّفرِ، فلم يبطُل تَعظيمُـهُ واحترامُهُ بالكليَّةِ وإن بطلَ خُصوصُ استقبالهِ بالصَّلواتِ فالقَصدُ إليهِ ليُصلَّى فيهِ، باقٍ وهو نوعٌ من تَعظيمهِ وتَشريفهِ بالصَّلاةِ فيه والتَّوجُّهِ إليهِ قَصداً لفضيلتهِ وشرعِـهِ لهُ نسبَةٌ منَ التَّوجُّهِ إليهِ بالاستقبالِ بالصَّلواتِ فقدَّمَ البيتَ الـحرامَ عليهِ في الاستقبالِ لأنَّ مَصلحَتَـهُ أعظمُ وأكملُ وبقيَ قَصدُهُ وشدُّ الرِّحالِ إليهِ والصَّلاةُ فيهِ منشأً،

فتمَّت للأُمَّةِ المُحمَّديَّةِ المَصلحتانِ المُتعلِّقتانِ بهذينِ البَيتينِ، وهذا نهايَةُ ما يكونُ منَ اللُّطفِ وتَحصيلِ المصالحِ وتَكميلها لهم، فتأمَّل هذا الموضع .

ومن ذلكَ نَسخُ التَّخييرِ في الصَّومِ بتَعيينهِ، فإنَّ لهُ بقاءً وبياناً ظاهراً وهو أنَّ الرَّجلَ كانَ إذا أرادَ أفطَرَ وتَصدَّقَ فحصلَت لهُ مَصلحَةُ الصَّدقَةِ دونَ مَصلحَةِ الصَّومِ، وإن شاءَ صامَ ولم يفد فحصلَت لهُ مَصلحَةُ الصَّومِ دونَ الصَّدقَةِ، فحتَّمَ الصَّومَ على المُكلَّفِ لأنَّ مصلحتَهُ أتمُّ وأكملُ من مصلحَةِ الفديَةِ، ونَدَبَ إلى الصَّدقَةِ في شهرِ رَمضانَ فإذا صامَ وتَصدَّقَ حَصَلَت لهُ المَصلحتانِ معاً وهذا أكملُ ما يكونُ منَ الصَّومِ وهو الذي كانَ يفعلهُ النَّبيُّ ﷺ فإنَّهُ : « كانَ أجوَدَ ما يكونُ في رمضانَ »[1]، فلم تبطُل المَصلحَةُ الأولى جملَةً بل قدَّمَ عليها ما هو أكملُ منها وجوباً، وشرعَ الجمعُ بينها وبينَ الأُخرى نَدباً واستحباباً .

ومن ذلكَ نَسخُ ثباتِ الواحدِ منَ المُسلمينَ للعَشرَةِ منَ العَدوِّ بثباتِهِ للاثنين، ولم تبطُل الحكمَةُ الأولى من كلِّ وَجهٍ بل بقيَ استحبابُهُ وإن زالَ وجوبُهُ، بل إذا غَلَبَ على ظنِّ المُسلمينَ ظفرهم بعدوِّهم وهم العَشرَةُ أمثالهم وجَبَ عليهم الثَّباتُ وحَرُمَ عليهم الفرارُ، فلم تَبطُل الحكمَةُ الأولى من كلِّ وجهٍ .

ومن ذلكَ نَسخُ وجوبِ الصَّدقَةِ بينَ يَدي مناجاةِ الرَّسولِ ﷺ لم يبطُل حكمَةُ بالكليَّةِ، بل نُسخَ وجوبُهُ وبقيَ استحبابُهُ والنَّدبُ إليهِ، وما عُلمَ من

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٣٠ - فتح)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما .

تَنبيهِ وإشارتهِ وهو أنّهُ إذا استحبّت الصَّدقَةُ بينَ يَدي مُناجاةِ المَخلوقِ فاستحبابُها بينَ يَدي مُناجاةِ اللَّهِ عندَ الصَّلواتِ والدُّعاءِ أولى، فكانَ بَعضُ السَّلفِ الصَّالحِ يتصدَّقُ بينَ يَدي الصَّلاةِ والدُّعاءِ إذا أمكنهُ ويتأوَّلُ هذه الأولويَّة، ورأيتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ يفعلُهُ ويتحرَّاهُ ما أمكنهُ وفاوضتهُ فيه فذَكَرَ لي هذا التَّنبيهَ والإشارَةَ .

ومن ذلكَ نَسخُ الصَّلواتِ الخمسينَ التي فَرَضها اللَّهُ على رسولهِ ليلَةَ الإسراءِ بخُمسٍ؛ فإنَّها لم تبطُل بالكليَّةِ بل أُثبِتَت خَمسينَ في الثَّوابِ والأجرِ، خمساً في العملِ والوُجوبِ، وقَد أشارَ تعالى إلى هذا بعينهِ حيثُ يقولُ على لسانِ نبيِّهِ : « لا يُبدَّلُ القولُ لديَّ هي خمسٌ وهي خَمسونَ في الأجرِ » .[1]

فتأمَّل هذه الحكمَةَ البالغَةَ والنِّعمَةَ السَّابغَةَ فإنَّهُ لما اقتضَت المَصلحَةُ أن تكونَ خَمسينَ تكميلاً للثَّوابِ وسوقاً لهم لها إلى أعلا المنازلِ واقتَضَت أيضاً أن تكونَ خمساً لعَجزِ الأُمَّةِ وضَعفهم وعدمِ احتمالهم الخَمسينَ جَعَلها خمساً من وجهٍ وخَمسينَ من وَجهٍ جمعا بينَ المصالحِ وتكميلاً لها، ولو لم نَطَّلِع من حكمتهِ في شرعهِ وأمرهِ ولُطفهِ بعبادهِ ومُراعاةِ مصالحهم وتَحصيلها لهم على أتمِّ الوُجوهِ إلّا على هذه الثَّلاثَةِ وَحدَها لكَفى بها دليلاً على ما وراءَها، فسبحانَ مَن لهُ في كلِّ ما خَلَقَ وأمَرَ حكمَةٌ بالغَةٌ شاهدَةٌ لهُ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ، وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هوَ ربُّ

---

(١) جزء من حديث الإسراء أخرجه البخاري (١ / ٤٥٨ - فتح)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أنَّ رسول اللَّه ﷺ (وذكره) .

العالـمينَ .

وأمَّا ما خَلقَهُ سبحانهُ فإنَّهُ أوجدَهُ لـحكمَةٍ في إيـجادِهِ فإذا اقتَضَت حكمتُهُ إعدامَـهُ جملَةً أعدَمَهُ وأحدَثَ بدلهُ، وإذا اقتَضَت حكمتُهُ تَبديلَهُ وتَغييرَهُ وتَـحويلَهُ من صورَةٍ إلى صورَةٍ بَدَّلَهُ وغيَّرَهُ وحوَّلَهُ ولم يُعدمْهُ جملةً، ومِن فَهمِ مسألةِ المعادِ وما جاءَت بِهِ الرُّسلُ فيهِ، فإنَّ القرآنَ والسنَّةَ إنَّـما دلّا على تَغييرِ العالَـمِ وتَـحويلِهِ وتَبديلِهِ لا جَعلِهِ عَدماً مَـحضاً وإعدامِهِ بالكُليَّةِ فدلَّ على تَبديلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ والسَّماواتِ : ﴿ يومَ تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

فهذا هو الذي أخبرَ بِهِ القُرآنُ والسُّـنَّـةُ ولا سبيلَ لأحدٍ منَ الـملاحدَةِ الفلاسفَةِ وغيرهم إلى الأعتراضِ على هذا الـمَعادِ الذي جاءَت بِهِ الرُّسلُ بـحرفٍ واحدٍ، وإنَّـما اعتراضاتُـهُم على الـمعادِ الذي عليهِ طائفَةٌ منَ الـمُتكلِّمينَ أنَّ الرُّسلَ جاؤا بِهِ وهو أنَّ اللَّهَ يعدمُ أجزاءَ العالَـمِ العُلويِّ والسُّفليِّ كلَّها فيجعلها عَدَماً مَـحضاً، ثمَّ يُعيدُ ذلكَ العَدمَ وجوداً .

ويا ليتَ شعري أينَ في القُرآنِ والسُّـنَّـةِ أنَّ اللَّهَ يعدمُ ذرَّاتِ العالَـمِ وأجزاءَهُ جملَةً ثمَّ ينقلبُ ذلكَ العدمُ وجوداً، وهذا هو الـمعادُ الذي أنكرَتهُ الفلاسفَةُ ورَمَتهُ بأنواعِ الاعتراضاتِ وضُروبِ الإلزاماتِ واحتاجَ المُتكلِّمونَ إلى تَعسُّفِ الـجوابِ وتَقريرِهِ بأنواعٍ منَ الـمُكابَراتِ، وأمَّا الـمعادُ الذي أخبرَت بِهِ الرُّسلُ فبريءٌ من ذلكَ كلِّهِ مَصونٌ عنهُ لا مَطمعَ للعَقلِ في الاعتراضِ عليهِ، ولا يَقدحُ فيهِ شبهَةٌ واحدَةٌ، وقَد أخبرَ سبحانهُ أنَّـهُ يُـحيي العظامَ بَعدَ ما صارَت

رَميماً، وأنَّهُ قَد علمَ ما تَنقُصُ الأرضُ من لحومِ بني آدمَ وعظامِهم، فيرد ذلكَ إليهم عندَ النَّشأةِ الثَّانيةِ، وأنَّهُ يُنشيءُ تلكَ الأجساد بعَينها بَعدَ ما بليَت نشأةً أُخرى، ويرد إليها تلكَ الأرواحَ، فلم يَدلَّ على أنَّهُ يعدمُ تلكَ الأرواحَ ويُفنيها حتى تَصيرَ عَدَماً مَحضاً، فلم يَدلَّ القرآنُ على أنَّهُ يَعدمُ تلكَ الأرواحِ ثمَّ يَخلقُا خَلقاً جديداً، ولا دلَّ على أنَّهُ يُفني الأرضَ والسَّماواتِ ويَعدمهما عَدماً صَرفاً ثمَّ يجدِّدُ وجودهما، وإنَّما دلَّت النُّصوصُ على تَبديلهما وتَغيرهما من حالٍ إلى حالٍ، فلو أُعطيَت النُّصوصُ حقَّها لارتَفعَ أكثرُ النِّزاعِ منَ العالَمِ، ولكن خفيَت النُّصوصُ وفُهِمَ منها خلاف مُرادِها، وانضافَ إلى ذلكَ تَسليطُ الآراءِ عليها واتِّباعُ ما تَقضي بِهِ، فتضاعفَ البلاءُ، وعظمَ الجَهلُ، واشتدَّت المحنَةُ، وتفاقمَ الخَطبُ، وسببُ ذلكَ كلُّه الجَهلُ بما جاءَ بِهِ الرَّسولُ وبالمُرادِ منهُ، فليسَ للعَبدِ أنفعُ من سمعِ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ وعَقلِ مَعناهُ، وأمَّا مَن لم يَسمعهُ ولم يَعقلهُ فهو منَ الذينَ قال اللَّهُ فيهم : ﴿ وَقالوا لَو كُنَّا نَعقِلُ أو نَسمعُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ ﴾ [الملك : ١٠] .

فلنرجع إلى الكلامِ عن الدَّليلِ المَذكورِ وهو أنَّ الحُسنَ أو القُبحَ لو كانَ ذاتيّاً لما اختلَفَ إلى آخرهِ فنقولُ :

○ **الأوَّل** : قَد بيَّنا أنَّ اختلافهُ بحسبِ الأزمنَةِ والأمكنَةِ والأحوالِ والشروطِ لا يُخرجهُ عن كونهِ ذاتيّاً .

○ **الثَّاني** : أنَّهُ ليسَ المَعنى من كونهِ ذاتيّاً إلّا أنَّهُ ناشيءٌ منَ الفعلِ، وهذا لا يوجبُ اختلافهُ بدليلِ ما ذَكَرنا منَ الصُّوَر .

○ **الثَّالث** : أنَّهُ يَجوزُ اقتضاءِ الذَّاتِ الواحدَةِ لأمرينِ مُتنافيَينِ بحسبِ شرطينِ مُتنافيَين، فيَقتَضي التَّبريد مثلاً في محلٍّ مُعينٍّ بشرطٍ مُعينٍّ والتَّسخين في محلٍّ آخرَ بشرطٍ آخرَ، والجسمُ في حيِّزهِ يَقتَضي السُّكون فإذا خَرَجَ عن حيِّزهِ اقتَضى الحركةَ، واللحمُ يَقتَضي الصحَّةَ بشرطِ سلامَةِ البَدنِ منَ الحمَّى والمَرضِ المُمتنعِ منهُ الغذاءُ ويَقتَضي المَرَضَ بشرطِ كونِ الجسمِ مَحموماً ونَحوهِ، ونظائرُ ذلكَ أكثرُ من أن تُحصي .

فإن قيلَ : محلُّ النِّزاعِ أنَّ الفعلَ لذاتهِ أو لوَصفٍ لازمٍ لهُ يَقتَضي الحُسنَ والقُبحَ، والشرطانِ مُتنافيانِ يمتنعُ أن يكونَ كلُّ واحدٍ منهما وَصفاً لازماً لأنَّ اللازمَ يمتنعُ انفكاكُ الشيءِ عنهُ .

قيل : مَعنى كونهِ يَقتَضي الحُسنَ والقُبحَ لذاتهِ أو لوَصفهِ اللازمِ أنَّ الحُسنَ ينشأُ من ذاتهِ أو من وَصفهِ بشرطٍ مُعيَّنٍ، والقُبحَ ينشأُ من ذاتهِ أو من وَصفهِ بشرطٍ آخرَ، فإذا عُدمَ شرطُ الاقتضاءِ أو وُجدَ مانعٌ يمنعُ الاقتضاءَ زالَ الأمرُ المُترتِّبُ بحسبِ الذَّاتِ أو الوَصفِ لزوالِ شرطهِ أو لوجودِ مانعهِ، وهذا واضحٌ جدَّاً .

○ **الرَّابع** : أنَّ قولكم يحسنُ الكذبُ إذا تَضمَّنَ عصمَةَ نَبيٍّ أو مُسلمٍ فهذا فيهِ طَريقانِ :

● أحدهما : لا نُسلِّمُ أنَّهُ يحسنُ الكذبَ فَضلاً عن أن يَجبَ بل لا يكونُ الكذبُ إلّا قَبيحاً، وأمَّا الذي يسنُ فالتَّعريضُ والتَّوريَةُ كما وَرَدَت بهِ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ وكما عرَّضَ إبراهيمُ للملكِ الظَّالمِ بقولهِ : هذه أُختي لزوجتهِ،

وكما قال : إنِّي سَقيمٌ فَعرَّضَ بأنَّهُ سقيمٌ قلبهُ من شركهم أو سَيسقمُ يوماً ما، وكما فَعَلَ في قولِهِ : ﴿ بَل فَعَلَهُ كَبيرُهُم هذا فَاسألوهُم إن كانوا يَنطقونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٣] .

فإنَّ الخَبَرَ والطَّلَبَ كلاهما معلَّقٌ بالشرطِ، والشرطُ متَّصلٌ بهما، ومعَ هذا فسمَّاها ﷺ ثلاثُ كذباتٍ، وامتنَعَ بها من مقامِ الشفاعَةِ[1]، فكيفَ يصحُّ دَعواكُم أنَّ الكذبَ يجبُ إذا تَضَمَّنَ عصمَةَ مُسلمٍ مع ذلكَ ؟!

فإن قيلَ : كيفَ سمَّاها إبراهيمُ كذباتٍ وهي تَوريةٌ وتَعريضٌ صَحيحٌ .

قيل : لا يَلزمُنا جوابُ هذا السُّؤالِ إذِ الغَرَضُ إبطال استدلالكُم، وقَد حَصَلَ؛ فالجوابُ عنهُ تبرُّعٌ منَّا وتَكميلٌ للفائدَةِ، ولم أجد في هذا المقامِ للنَّاسِ جواباً شافياً يسكُنُ القلبُ إليهِ، وهذا السُّؤالُ لا يَختصُّ بهِ طائفَةٌ معيَّنَةٌ بل هو واردٌ عليكُم بعَينهِ .

وقَد فَتَحَ اللَّهُ الكريمُ بالجوابِ عنهُ فنقولُ : الكلامُ لهُ نسبتانِ نسبَةٌ إلى المُتكلِّمِ وقَصدِه وإرادتِه، ونسبَةٌ إلى السَّامعِ وإفهامِ المُتكلِّم إيَّاهُ مَضمونهُ، فإذا أخبرَ المُتكلِّمُ بَخبَرٍ مُطابقٍ للواقعِ وقَصَدَ إفهامَ المُخاطَبِ فهو صدقٌ منَ الجهتَينِ، وإن قَصَدَ خلافَ الواقعِ وقَصَدَ مع ذلكَ إفهامَ المُخاطبِ خلافَ ما قَصَدَ بل مَعنى ثالثاً لا هو الواقعُ ولا هو المُرادُ فهو كذبٌ من الجهتينِ بالنِّسبتينِ معاً، وإن قَصَدَ مَعنىً مُطابقاً صحيحاً وقَصَدَ مع ذلكَ التَّعميَةَ على

---

(١) جزء من حديث الشفاعة؛ أخرجه البخاري (٦ / ٣٩٥ - فتح)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة - رضي اللّه عنه .

وفي الباب عن أنس - رضي اللّه عنه .

المُخاطَبِ وإفهامَهُ خلافَ ما قَصَدَهُ فهو صدقٌ بالنِّسبَةِ إلى قَصدِهِ كذبٌ بالنِّسبَةِ إلى إفهامِهِ، ومن هذا البابِ التَّوريَةُ والمعارِيضُ، وبهذا أطلقَ عليها إبراهيمُ الخليلُ ﷺ اسمَ الكذبِ مع أنَّهُ الصَّادقُ في خبرِهِ، ولم يُخبر إلّا صدقاً فتأمَّل هذا المَوضعَ الذي أشكلَ على النَّاسِ، وقَد ظَهَرَ بهذا أنَّ الكذبَ لا يكونُ قَطُّ إلّا قَبيحاً، وإنَّ الذي يحسنُ ويجبُ إنَّما هو التَّوريَةُ وهي صدقٌ، وقَد يُطلَقُ عليها الكذبُ بالنِّسبَةِ إلى الإفهامِ لا إلى العنايَةِ .

● الثَّاني : أنَّ تخلُّفَ القُبحِ عن الكذبِ لفواتِ شرطٍ أو قيامِ مانعٍ يَقتَضي مَصلحَةً راجعَةً على الصِّدقِ لا تُخرجهُ عن كونهِ قَبيحاً لذاتهِ، وتَقريرهِ ما تَقدَّمَ .

وقَد تَقدَّمَ أنَّ اللّهَ سبحانهُ حرَّمَ المَيتَةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزيرِ للمَفسدَةِ التي في تَناوُلها وهي ناشئةٌ من ذواتِ هذه المُحرَّماتِ، وتخلُّف التَّحريم عنها عندَ الضَّرورَةِ لا يوجبُ أن تكونَ ذاتُها غيرَ مُقتضيَةٍ للمَفسدَةِ التي حُرِّمَت لأجلها، فهكذا الكذبُ المُتضمِّنُ نَجاةَ نبيٍّ أو مُسلمٍ .

○ **الخامس** : قولهُ لو كانَ ذاتيّاً لاجتمعَ النَّقيضانِ في صدقِ مَن قال لأكذبنَّ غداً إلى آخرِ ما ذكرَ .

جوابهُ : أنَّهُ مَتى يجتمعُ النَّقيضانِ إذا كانَ الحُسنُ والقُبحُ باعتبارٍ واحدٍ من جهَةٍ واحدَةٍ، أو كانا باعتبارينِ من جهتَينِ أو أعمَّ من ذلكَ .

فإن عَنَيتُم الأوَّلَ فمسلَّمٌ، ولكن لا نسلِّمُ الملازَمَةَ، فإنَّهُ لا يَلزمُ من اجتماعِ الحُسنِ والقُبحِ في الصُّورَةِ المَذكورَةِ أن يكونَ لجهَةٍ واحدَةٍ واعتبارٍ

واحدٍ، فإنَّ اجتماعَ الحُسنِ والقُبحِ فيهما باعتبارينِ مُختلفينِ من جهتينِ متُباينتَين، وهذا ليسَ مُمتنعاً فإنَّهُ إذا كانَ كذباً كانَ قبيحاً بالنَّظرِ إلى ذاتهِ وحَسناً بالنَّظرِ إلى تَضمُّنهِ صدقَ الخبرِ الأوَّلِ، ونَظيرهُ أن يقولَ :

واللَّهُ لأشربنَّ الخمرَ غَداً، أو واللَّهِ لأسرقنَّ هذا الثَّوبَ غداً ونحوهُ .

وإن عنَيتُم الثَّاني فهو حقٌّ، ولكن لا نُسلِّم انتفاءَ اللازمِ .

وإن عَنَيتُم الثَّالثَ منَعنا الملازمَةَ أيضاً على التَّقديرِ الأوَّلِ، وانتفاءَ اللازمِ على التَّقديرِ الثَّاني، وهذا واضحٌ جدّاً .

○ **السادس** : قولهُ : القَتلُ والضَّربُ حَسَنٌ إذا كانَ حدّاً أو قَصاصاً وقبيحٌ إذا في غيرهِ، فلو كانَ ذاتيّاً لاجتمعَ النَّقيضانِ .

كلامٌ في غايَةِ الفسادِ، فإنَّ القَتلَ والضَّربَ واحدٌ بالنَّوعِ، والقبيح ما كانَ ظُلماً وعُدواناً والحسن منهُ ما كانَ جزاءً على إساءَةٍ إمَّا حدّاً وإمَّا قَصاصاً فلم يَرجع الحَسَنُ والقُبحُ إلى واحدٍ بالعَينِ، ونَظيرُ ذلكَ هذا السُّجودُ فإنَّهُ في غايَةِ الحُسنِ لذاتهِ إذا كانَ عُبوديَّةً وخُضوعاً للواحدِ المَعبودِ، وفي غايَةِ القُبحِ إذا كانَ لغيرهِ، ولو سلَّمنا القَتلَ والضَّربَ الواحدَ بالعينِ إذا كانَ حدّاً أو قصاصاً فإنَّهُ يكونُ حسناً قَبيحاً لم يكُن ذلكَ مُحالاً؛ لأنَّهُ باعتبارينِ فهو حَسَنٌ لما تَضمَّنهُ منَ الزَّجرِ والنَّكالِ وعقوبَةِ المُستحقِّ، وقبيحٌ بالنَّظرِ إلى المَقتولِ المَضروبِ، فهو قَبيحٌ لهُ حَسَنٌ في نَفسهِ، وهذا كما أنَّهُ مكروهٌ مَبغوضٌ لهُ وهو مَحبوبٌ مَرضيٌّ لفاعلهِ والآمرُ به، فأيُّ مُحالٍ في هذا، فَظَهَرَ أنَّ هذا الدَّليلَ فاسدٌ، واللَّهُ أعلمُ .

فهذه أقوى أدلَّةِ النُّفاةِ باعترافهم بضَعفِ ما سواها، فلا حاجَةَ لنا إلى ذكرها وبيانِ فَسادِها، فَقَد تبيَّنَ الصُّبحُ لذي عَينين، وجُلبَت عليكَ المسألةُ رافلَةً في حُلَلِ أدلَّتها الصَّحيحَةِ وبراهينها المُستَقيمَةِ، ولا تَغضُضِ طَرفَ بَصيرتكَ عن هذه المسألةِ، فإنَّ شأنَها عَظيمٌ وخَطبها جَسيمٌ .

أصلُ المسألة

وإذ قَد انتَهينا في هذه المسألةِ إلى هذا الموضعِ وهو بَحرُها ومعظمُها فلنَذكُر سرَّها وغايتَها وأصولها التي أُثْبِتَت عليها، فبذلكَ تتمُّ الفائدَةُ، فإنَّ كثيراً منَ الأُصوليِّينَ ذكروها مجرَّدَةً ولم يتَعرَّضوا لسرِّها وأصلها الذي أثْبِتَت عليهِ وللمسألَةِ ثلاثةُ أصولٍ هي أساسُها :

◻ **الأوَّل** : هَل أفعالُ الرَّبِّ تعالى معلَّلَةُ بالحِكَمِ والغاياتِ، وهذه من أجلِّ مسائلِ التَّوحيدِ المُتعلِّقَةِ بالخَلقِ والأمرِ وبالشرعِ والقَدرِ ؟

◻ **الثَّاني** : أنَّ تلكَ الحِكَمُ المَقصودَةَ فعلٌ يقومُ بهِ سبحانهُ وتعالى قيامَ الصِّفَةِ بهِ فيرجعُ إليهِ حكمُها ويشتقُّ لهُ اسمها أم يرجعُ إلى المَخلوقِ فَقَط من غيرِ أن يعودَ إلى الرَّبِّ منها حكمٌ أو يَشتقُّ لهُ منها اسمٌ ؟

◻ **الثَّالث** : هَل تعلُّقُ إرادَةِ الرَّبِّ تعالى بجميعِ الأفعالِ تعلُّقٌ واحدٌ ؟ فما وجدَ منها فهو مرادٌ لهُ مَحبوبٌ مرضيٌّ طاعَةً كانَ أو مَعصيَةً، وما لم يوجَدُ منها فهو مكروهٌ لهُ مَبغوضٌ غيرَ مُرادٍ طاعَةً كانَ أو مَعصيَةً، فهو يحبُّ الأفعالَ الحسنَةَ التي هي منشأُ المصالحِ وإن لم يشأ تكوينها وإيجادَها لأنَّ

في مشيئتهِ لإيجادها فواتَ حكمَةٍ أُخرى هي أحبُّ إليهِ منها ويبغضِ الأفعالِ القَبيحَةِ التي هي منشأُ المفاسدِ ويمنعها ويمقتُ أهلَها وإن شاءَ تَكوينَها وإيجادها لما تستلزمهُ من حكمَةٍ ومَصلحَةٍ هي أحبّ إليهِ منها ؟

ولابدَّ من توسُّطِ هذه الأفعالِ في وجودها، فهذه الأصولُ الثَّلاثَةُ عليها مدارُ هذه المسألة ومسائلُ القَدرِ والشرعِ .

وقَد اختَلَفَ النَّاسُ فيها قَديماً وحَديثاً إلى اليومِ :

فالجبريَّةُ تَنفي الأصولَ الثَّلاثَةَ، وعندهم أنَّ اللَّهَ لا يَفعلُ لحكمةٍ، ولا يأمرُ لها، ولا يدخُلُ في أمرهِ وخَلقهِ لامُ التَّعليلِ بوجهٍ، وإنَّما هي لامُ العاقبَةِ، كما لا يدخلُ في أفعالهِ باءُ السَّببيَّة وإنَّما هي باءُ المُصاحَبَةِ .

ومنهم من يثبتُ الأصلَ الثَّالثَ ويَنفي الأصلينِ الأوَّلينِ، كما هو أحدُ القولينِ للأشعريِّ وقولِ كثيرٍ من أئمَّةِ أصحابهِ، وأحدُ القولينِ لأبي المعالي .

والمَشهورُ من مَذهَبِ **المُعتزلَةِ** إثباتُ الأصلِ الأوَّلِ وهو التَّعليلُ بالحُكمِ والمصالحِ ونفيُ الثَّاني بناءً على قواعدهم الفاسدَةِ في نَفيِّ الصِّفاتِ، فأمَّا الأصلُ الثَّالث فهم فيهِ ضدُّ الجبريَّةِ من كلِّ وجهٍ، فهما طَرفا نَقيضٍ فإنَّهُم لا يثبتونَ لأفعالِ العبادِ سوى المحبَّةَ لحُسنها والبُغضِ لقُبحها، وأمَّا المَشيئةُ لها فعندهم أنَّ مشيئةَ اللَّهِ لا تَتعلَّقُ بها بناءً منهم على نَفيِ خَلقِ أفعالِ العبادِ، فليسَت عندهم إرادَةُ اللَّهِ لها إلّا بمَعنى محبَّتهِ لحُسنها فَقَط، وأمَّا قَبيحها فليسَ مراداً للَّهِ بوجهٍ، وأمَّا الجبريَّةُ فعندهم أنَّهُ لم يتعلَّق بها سوى المَشيئةِ والإرادَةِ وأمَّا المحبَّةُ عندهم فهي نَفسُ الإرادَةِ والمَشيئةِ فما شاءَ فَقَد أحبَّهُ

ورضيَهُ .

وأمَّا **أصحابُ القولِ الوَسطِ وهم أهلُ التَّحقيقِ من الأصوليِّينَ والفقهاءِ والـمُتكلِّمينَ**، فيثبتونَ الأصولَ الثَّلاثَةَ؛ فيثبتونَ الـحكمَةَ المَقصودَةَ بالفعلِ في أفعالهِ تعالى وأوامرهِ، ويَـجعلونَها عائدَةً إليهِ حكماً ومشتقّاً لهُ اسمُها، فالمعاصي كلُّها مَمقوتَةٌ مكروهَةٌ وإن وَقعَت بمشيئتِهِ وخَلقهِ، والطَّاعاتُ كلُّها مَـحبوبَةٌ لهُ مرضيَّةٌ وإن لم يشأها مـمَّـن لم يطعهُ ومَن وجُدَت منهُ، فَقَد تَعلَّقَ بها الـمَشيئةُ والـحبُّ فما لم يوجَد من أنواعِ المعاصي فلم تَتَعلَّق بهِ مشيئتُهُ ولا مـحبَّتهُ وما وجُدِ منها تَعَلَّقَت به مشيئتُهُ دونَ محبَّتهِ، وما لم يوجَد منَ الطَّاعاتِ المقدَّرَةِ تعلَّقَ بها مـحبَّتهُ دونَ مَشيئتهِ، وما وَجَدَ منها تَعلّق به مـحبَّتُهُ ومشيئتهُ .

ومَن لم يُحكِّم هذه الأصولَ الثَّلاثَةَ لم يَستقرَّ لهُ في مسائلِ الحكمِ والتَّعليلِ والتَّحسينِ والتَّقبيحِ قَدَمٌ بل لابدَّ من تناقضهِ، ويتسلَّط عليهِ خصومُهُ من جهَةِ نَفيهِ لواحدٍ منها .

ولهذا لما رأى القدريَّةُ والـجبريَّةُ أنَّـهُم لو سلَّموا للمُعتزلَةَ شيئاً من هذا تَسلَّطوا عليهم بهِ سدُّوا على أنفسهم البابَ بالكليَّةِ وأنكروها جملَةً فلا حكمَةَ عندهم ولا تَعليلَ ولا مـحبَّةَ تَزيدُ على المَشيئةِ .

ولما أنكَرَ المُعتزلَةُ رجوعَ الحكمَةِ إليهِ تعالى سلَّطوا عليهم خصومهم فأبدوا تناقضهم وكشفوا عَوراتهم .

ولما سَلَكَ **أهلُ السُّـنَّـةِ القولَ الوَسطَ** وتوَسَّطوا بينَ الفريقينِ لم

يطمع أحدٌ في مُناقضتهم ولا في إفسادِ قولهم .

وأنتَ إذا تأمَّلتَ حجَجَ الطَّائفتينِ وما ألزمتهُ كلٌّ منهما للأُخرى علمتَ أنَّ مَن سَلَكَ القولَ الوَسَطَ لم يلزمهُ شيءٌ من إلزاماتهم ولا تناقضهم، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين هادي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ .

مذاهب النُّفاة

وَقَد سلَّمَ كثيرٌ من النُّفاةِ أن كونَ الفعلِ حَسناً أو قبيحاً بمعنى الملاءَمَةِ والمُنافرَةِ والكمالِ والنُّقصانِ عقليٌّ، وقال : نَحنُ لا نُنازعكُم في الحُسنِ والقُبحِ بهذين الاعتبارينِ، وإنَّما النِّزاعُ في إثباتِهِ عَقلاً بمعنى كونهِ متعلِّقَ المَدحِ والذَّمِّ عاجلاً والثَّوابِ والعقابِ أجلاً؛ فعندنا لا مَدخَلَ للعَقلِ في ذلكَ وإنَّما يُعلمُ بالسّمعِ المُجرَّدِ .

قال هؤلاءِ :

فيُطلَقُ الحسنُ والقبحُ بمعنى الملاءَمَةِ والمُنافرَةِ وهو عقليٌّ، وبمعنى الكمالِ والنُّقصانِ وهو عقليٌّ، وبمعنى استلزامهُ للثَّوابِ والعقابِ وهو محلُّ النِّزاعِ .

وهذا التَّفصيلُ لو أُعطيَ حقَّهُ والتزمَت لوازمُهُ رُفعَ النِّزاعُ وأعادَ المسألَةَ اتِّفاقيَّةً .

وأنَّ كونَ الفعلِ صفةُ كمالٍ أو نُقصانٍ يستلزمُ إثباتَ تعلُّقِ الملاءَمَةِ والمُنافرَةِ؛ لأنَّ الكمالَ مَحبوبٌ للعالمِ والنَّقصَ مَبغوضٌ لهُ، ولا مَعنى للملاءَمَةِ والمُنافرَةِ إلّا الحبّ والبغض فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ يحبُّ الكاملَ منَ

الأفعالِ والأقوالِ والأعمالِ ،ومحبَّتُهُ لذلكَ بحسبِ كمالهِ ويبغضُ النَّاقصَ منها ويمقتُهُ ومقتُهُ لهُ بحسَبِ نقصانهِ .

ولهذا أسلَفنا أنَّ من أُصولِ المسألَةِ إثباتَ صفَةِ الحبِّ والبغضِ للَّهِ؛ فتأمَّل كيفَ عادَت المسألَةُ إليهِ وتَوقَّفت عليهِ، واللَّهُ سبحانهُ يحبُّ كلَّ ما أمَرَ بهُ ويبغُضُ كلَّ ما نَهى عنهُ، ولا يُسمَّى ذلكَ ملاءَمَةً أو مُنافَرَةً بل يُطلَقُ عليهِ الأسماءُ التي أطلقَها على نَفسهِ، وأطلقَها عليهِ رسوله من محبَّتهِ للفعلِ الحسنِ المأمورِ بهِ وبُغضهِ للفعلِ القبيحِ ومقتهِ لهُ، وما ذاكَ إلّا لكمالِ الأوَّلِ ونُقصانِ الثَّاني، فإذا كانَ الفعلُ مُستلزماً للكمالِ والنُّقصانِ واستلزامه لهُ عَقليٌّ، والكمالُ والنُّقصانُ يستلزمُ الحبَّ والبغضَ الذي سمَيتموهُ ملاءَمَةً ومُنافَرَةً واستلزامهُ عَقليٌّ، فبيانُ كونِ الفعلِ حَسناً كاملاً مَحبوباً مُرضياً وكونهُ قَبيحاً ناقصاً مَسخوطاً مَبغوضاً أمرٌ عَقليٌّ بقيَ حديثُ المَدحِ والذَّمِّ والثَّوابِ والعقابِ، ومَن أحاطَ علماً بما أسلَفنا في ذلكَ انكشفَت لهُ المسألَةُ، وأسفَرَت عن وجهِها، وزالَ عنها كلُّ شبهَةٍ وإشكالٍ .

فأمَّا المَدحُ والذَّمُّ فترتُّبُهُ على النُّقصانِ والكمالِ والمتَّصفِ بهِ وذمُّهم لمؤثرِ النَّقصِ والمتَّصفِ به أمرٌ عَقليٌّ فطريٌّ، وإنكارُهُ يُزاحمُ المُكابَرَةَ .

وأمَّا العقابُ فقَد قرَّرنا أنَّ ترتُّبَهُ على فعلِ القَبيحِ مَشروطٌ بالسَّمعِ، وإنَّهُ إنَّما انتَفى عندَ انتفاءِ السَّمعِ انتفاءَ المَشروطِ لانتفاءِ شرطهِ لا انتفاءَهُ لانتفاءِ سببهِ، فإنَّ سببَهُ قائمٌ ومُقتَضيه موجودٌ إلّا أنَّهُ لم يتمَّ لتوقُّفهِ علن شرطهِ، وعلى هذا فكونهُ متعلِّقاً للثَّوابِ والعقابِ والمَدحِ والذَّمِّ عقليٌّ وإن كانَ وقوعُ العقابِ مَوقوفاً على شرطٍ وهو السَّمعُ، وهَل يُقالُ : إنَّ الإستحقاقَ ليسَ بثابتٍ لأنَّ

وُرودَ السَّمعِ شرطٌ فيهِ ؟

هذا فيهِ طريقانِ للنَّاسِ، ولعلَّ النِّزاعَ لَفظيٌّ : فإن أُريدَ بالاستحقاقِ الاِستحقاق التَّام فالحقُّ نَفيُهُ .

وإن أُريدَ بهِ قيامُ السَّببِ والتَّخلُّفِ لفواتِ شرطٍ أو وجودِ مانعٍ فالحقُّ إثباتُهُ .

فعادَت الأقسامُ الثَّلاثَةُ أعني الكمالَ والنُّقصانَ والمُلاءَمَةَ والمُنافرَةَ والمَدحَ والذَّمَّ إلى عُرفٍ واحدٍ وهو كونُ الفعلِ مَحبوباً أو مَبغوضاً، ويلزمُ من كونهِ مَحبوباً أن يكونَ كمالاً وأن يَستحقَّ عليهِ المَدحَ والثَّوابَ، ومن كونهِ مَبغوضاً أن يكونَ نَقصاً يَستحقُّ بهِ الذَّمَّ والعقابَ، فَظَهَرَ أنَّ التزامَ لوازمَ هذا التَّفصيلِ وإعطاءَهُ حقَّهُ يَرفعُ النِّزاعَ ويعيدُ المسألَةَ اتِّفاقيَّةً، ولكن أُصول الطَّائفتين تأبى التزامَ ذلكَ، فلابدَّ لهما منَ التَّناقضِ إذا طَرَدوا أصولَهم، وأمَّا مَن كانَ أصلُهُ إثباتَ الحكمَةِ واتِّصافَ الرَّبِّ تعالى بها وإثباتَ الحبِّ والبُغضِ لهُ وأنَّهما أمرٌ وراءَ المَشيئةِ العامَّةِ، فأصولٌ مستلزمَةٌ لفروعهِ، وفروعُهُ دالَّةٌ على أصولهِ، فأصولُهُ وفروعُهُ لا تَتناقَضُ، وأدلَّتهُ لا تَتمانَعُ ولا تَتعارَضُ .

قال النُّفاةُ : لو قَدَّرَ نَفسَهُ وقَد خُلِقَ تامُّ الخِلقَةِ كاملُ العَقلِ دُفعَةً واحدَةً مِن أن يتخلَّقَ بأخلاقِ قومٍ ولا تأدَّبَ بتأديبِ الأبوينِ ولا تَربَّى في الشرعِ ولا تعلَّمَ من متَعلِّمٍ ثمَّ عُرِضَ عليهِ أمرانِ :

- **أحدهما** : الإثنانِ أكثرُ منَ الواحدِ .
- **والثَّاني** : أنَّ الكذبَ قَبيحٌ؛ بمَعنى : أنَّهُ يَستحقُّ منَ اللَّهِ تَعالى

لَوماً عليهِ، لم نَشكَّ أنَّهُ لا يتوقَّفُ في الأوَّلِ ويتوقَّفُ في الثَّاني، ومَن حكمَ بأنَّ الأمرينِ سيَّان بالنِّسبةِ إلى عَقلهِ خَرَجَ عن قضايا العقولِ، وعانَدَ كعِنادِ الفُضولِ، كيفَ ولو تَقرَّرَ عندهُ أنَّ اللَّهَ تعالى لا يتضرَّرُ بكذبٍ ولا يَنتفعُ بصدقٍ وأنَّ القَولين في حُكمِ التَّكليفِ على وَتيرَةٍ واحدَةٍ لم يمكنهُ أن يردَّ أحدَهما دونَ الثَّاني بمجرَّدِ عَقلهِ .

والذي يوضِّحهُ : أنَّ الصِّدقَ والكذبَ على حَقيقَةٍ ذاتيَّةٍ لا تَتَحقَّقُ ذاتهما إلّا بأركانِ تلكَ الحَقيقَةِ، مثلاً كما يقالُ : إنَّ الصِّدقَ إخبارٌ عن أمرٍ على ما هو عليهِ والكذبُ إخبارٌ عن أمرٍ على خلافِ ما هو بهِ، ونَحنُ نعلمُ أنَّ مَن أدركَ هذه الحَقيقَةَ عَرَفَ المحقّقَ ولم يَخطُر ببالهِ كونَهُ حَسناً أو قَبيحاً، فلم يَدخُل الحُسنُ والقُبحُ إذاً في صفاتهما الذَّاتيَّةِ التي تَحقَّقَت حقيقتُهما بها ولوازمُهما في الوَهمِ بالبديهةِ كما بيَّنا، ولألزمَها في الوجودِ ضَرورَةً فإنَّ منَ الأخبارِ التي هي صادقَةٌ ما يُلامُ عليهِ منَ الدَّلالَةِ على هَربٍ من ظالمٍ ،ومنَ الأخبارِ التي هيَ كاذبَةٌ ما يُثابُ عليها مثلُ إنكارِ الدَّلالَةِ عليهِ، فلَم يَدخُل كونُ الكذبِ قَبيحاً في حدِّ الكذبِ ولا لزومهِ في الوَهمِ ولا لزمهُ في الوجودِ؛ فلا يَجوزُ أنَّ يعدَّ منَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ التي تَلزمُ النَّفسَ وجوداً وعَدماً عندهم؛ ولا يَجوزُ أن يعدَّ من الصِّفاتِ التَّابعَةِ للحدوثِ فلا يُعقَلُ بالبَديهَةِ ولا بالنَّظرِ، فإنَّ النَّظرَ لابدَّ أن يردَّ إلى الضَّروريِّ أي البَديهيّ، وإذ لا بَديهيَّ فلا مَرَدَّ لهُ أصلاً فلم يَبقَ لهم إلّا الاستوراحُ إلى عاداتِ النَّاسِ من تَسميَةِ ما يضرُّ بهم قَبيحاً وما يَنفعهُم حَسناً .

ونَحنُ لا نُنكرُ أمثالَ تلكَ الأسامي على أنَّها تَختلفُ بعادَةِ قَومٍ وزمانٍ

ومكانٍ دونَ مكانٍ وإضافَةٍ، دونَ إضافَةٍ وما يَختلفُ بتلكَ النّسبِ والإضافاتِ لا حَقيقَةَ لهُ في الذّاتِ، فربَّما يستَحسنُ قومٌ ذبحَ الحيوانِ وربَّما يَستقبحهُ قومٌ، وربَّما يكونُ بالنِّسبَةِ إلى قومٍ وزمانٍ حَسناً وربَّما يكون قبيحاً، لكنَّا وَضَعنا الكلامَ في حُكمِ التّكليفِ بحيثُ يجبُ الحُسنُ به وجوباً يُثابُ عليهِ قَطعاً ولا يتطرَّقُ إليهِ لومٌ أصلاً، ومثلُ هذا يمتنعُ إدراكهُ عَقلاً، فهذه طَريقَةُ أهلِ الحقِّ على أحسَنِ ما تَقرَّرَ، وأحسَنِ ما تَحرَّرَ .

وأيضاً؛ فنَحنُ لا نُنكرُ اشتهارَ حسنِ الفضائلِ التي ذُكرَ ضَربهُم بها الأمثالَ وقُبحِها بينَ الخَلقِ، ولكنَّا نثبتها إمَّا بالشرائعِ وإمَّا بالأغراضِ، ونَحنُ إنَّما نُنكرها في حقِّ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ لانتفاءِ الأغراضِ عنهُ فأمَّا إطلاقُ النَّاسِ هذه الألفاظ فيما يَدورُ بينهم فيستمدُّ منَ الأغراضِ ولكن قَد تَبدو الأغراضُ وتَخفى فلا ينتبهُ لها إلّا المحقِّقونَ .

ونَحنُ ننبّهُ على مثاراتِ الغَلَطِ فيهِ وهيَ ثلاثَةُ مَثاراتٍ يغلطُ الوَهمُ فيها :

○ **الأولى** : أنَّ الإنسانَ يطلقُ اسمَ القبحِ على ما يُخالفُ غَرَضهُ وإن كانَ يوافقُ غَرَضَ غيرهِ من حيثُ أنَّهُ لا يلتفتُ إلى الغَيرِ، فإنَّ كلَّ طَبعٍ مَشغوفٌ بنفسهِ ومُستحقرٌ لغيرهِ، فيَقضي بالقُبحِ مُطلقاً، وربَّما يُضيفُ القُبحَ إلى ذاتِ الشيءِ، ويقولُ : هو في نَفسهِ قَبيحٌ، فَقَد قَضى بثلاثَةِ أمورٍ هو مُصيبٌ في واحدٍ منها وهو أصلُ الاستِقباحِ مُخطىءٌ في أمرين :

□ أحدهما : إضافَةُ القُبحِ إلى ذاتهِ، وغَفلَ عن كونهِ قَبيحاً لمخالفَةِ غَرَضهِ .

□ والثَّاني : حكمُهُ بالقُبحِ مُطلقاً ومَنشؤهُ عدمُ الالتفاتِ إلى غَيرِهِ بل عن الالتفاتِ إلى بَعضِ أحوالِ نَفسِهِ، فإنَّهُ قَد يَستَحسنُ في بَعضِ الأحوالِ عَينَ ما يَستقبحهُ إذا اختَلَفَ الغَرَضُ .

○ **الثَّانيَـةُ** : سببُها أنَّ الوَهمَ غالبٌ للعَقلِ في جميعِ الأحوالِ إلّا في حالةٍ نادرَةٍ قَد لا يَلتفتُ الوَهمُ إلى تلكَ الـحالَةِ النَّادرَةِ عندَ ذكرِها؛ كحُكمِهِ على الكذبِ بأنَّـهُ قَبيحٌ مُطلقاً، وغفلتِهُ عن الكذبِ الذي يُستفادُ منهُ عصمَةُ نَبيٍّ أو وَليٍّ إذا قَضَى بالقُبحِ مُطلقاً، واستمرَّ عليهِ مرَّةً، وتكرَّرَ ذلكَ على سمعِهِ ولسانِهِ انغرَسَ في قلبِهِ استقباحُهُ والنَّفرَةُ منهُ، فلو وَقَعَت تلكَ الـحالَةُ النَّادرَةُ وَجَدَ في نَفسهِ نُفرَةً عنهُ لطولِ نشوهِ على الاستقباحِ، فإنَّهُ أُلقيَ إليهِ منذُ الصِّبا على سبيلِ التَّأديبِ والإرشادِ أنَّ الكذبَ قبيحٌ لا يَنبغي أن يقدِمَ عليهِ أحدٌ ولا يُنَبَّهَ على حُسنهِ في بَعضِ الأحوالِ خيفَةً من أن لا تَستَحكمَ نفرتُـهُ عن الكذبِ فيقدمَ عليهِ وهو قَبيحٌ في أكثرِ الأحوالِ، والسَّماعُ في الصِّغَرِ كالنَّقشِ في الـحجَرِ، وينغرسُ في النَّفسِ، ويجدُ التَّصديقَ بها مُطلقاً وهو صدقٌ لكن لا عَلى الإطلاقِ بل في أكثرِ الأحوالِ اعتَقدَهُ مُطلقاً .

○ **الثَّـالثَـةُ** : سببُها سبقُ الوَهمِ إلى العَكسِ؛ فإنَّ مَن رأى شيئاً مَقروناً بشيءٍ يظنُّ أنَّ الشيءَ لا مَـحالَةَ مَقرونٌ بهِ مُطلقاً، ولا يَدري أنَّ الأخصَّ أبداً مَقرونٌ بالأعمِّ والأعمَّ، لا يَلزمُ أن يكونَ مَقروناً بالأخصِّ، ومثالُـهُ نفرَةُ نَفسِ الذي نَهَشته الـحيَّةُ عن الـحبلِ المرقَّشِ اللونِ؛ لأنَّـهُ وَجَدَ الأذى مَقروناً بهذِهِ الصُّورَةِ، فتوهَّمَ أنَّ هذه الصُّورَةَ مَقرونَةٌ بالأذى، وكذلكَ ينفرُ عن العَسلِ إذا

شبَّهَهُ بالعَذرَةِ لأنَّهُ وَجدَ الاستقذارَ مقروناً بالرطبِ الأصفرِ، فتوهَّمَ أنَّ الرَّطبَ الأصفرَ يقترنُ بهِ الاستقذارُ، وقَد يغلبُ عليهِ الوَهمُ حتى يتعذَّرَ الأكلُ، وإن كانَ حكمُ العَقلِ يكذِّبُ الوَهمَ، ولكن خُلِقَت قوى النَّفسِ مُطيعَةً للأوهامِ وإن كانَت كاذبَةً حتى إنَّ الطَّبعَ ينفرُ عن حسناءَ سمِّيَت باسمِ اليَهودِ إذ وجَدَ الاسمَ مَقروناً بالقُبحِ، فظنَّ أنَّ القُبحَ أيضاً يلازمُ الاسمَ، ولهذا يوردُ على بَعضِ العوامِّ مسألةٌ عَقليَّةٌ جليَّةٌ فيقبلها، فإذا قُلتَ : هذا مَذهَبُ الأشعريِّ أو المُعتزليِّ أو الظَّاهريِّ أو غيرِهِ نفَرَ عنهُ إن كانَ سيِّئَ الاعتقادِ فيمَن نَسَبتَها إليهِ، وليسَ هذا طبعُ العاميِّ بل طبعُ أكثرِ العُقلاءِ المُتوسِّمينَ بالعلمِ إلّا العُلماء الرَّاسخينَ الذينَ أراهم اللّهُ الحقَّ حقّاً وقوّاهم على اتِّباعهِ، وأكثرُ الخَلقِ تَرى نفوسهم مُطيعَةً للأوهامِ الكاذبَةِ مع علمهم بكذبها، وأكثرُ إقدامِ الخَلقِ وإحجامِهم بسببِ هذه الأوهامِ، فإنَّ الوَهمَ عَظيمُ الاستيلاءِ، وكذلكَ ينفِّرُ طبعُ الإنسانِ عنِ المَبيتِ في بيتٍ فيهِ ميِّتٌ مع قطعَةٍ بأنَّهُ لا يتَحرَّكُ، ولكنَّهُ يتوهَّمُ في كلِّ ساعَةٍ حركتَهُ ونُطقَهُ .

فإذا انتبَهتَ لهذا المثاراتِ عَرَفتَ بها سرَّ القضايا التي تَستَحسنُها العقولُ وسرَّ استحسانِها إيَّاها، والقضايا التي تَستَقبحُها العقولُ وسرُّ استقباحها لها، ولنضرب لذلكَ مَثَلَينِ وهما ممَّا يحتجُّ بهما عَلينا أهلُ الإثباتِ :

* **الأوَّلُ** : المَلكُ العظيمُ المُستَولي على الأقاليمِ إذا رَأى ضَعيفاً مُشرفاً على الهلاكِ، فإنَّهُ يميلُ إلى إنقاذِهِ ويَستحسنُهُ، وإن كانَ لا يَعتقدُ أصلَ الدِّينِ لِيَنتظرَ ثواباً أو مجازاةً ولا سيَّما إذا لم يَعرفهُ المسكينُ ولم يَرَهُ بأن كانَ أعمى أصمَّ لا يَسمعُ الصَّوتَ، وإن كانَ لا يُوافقُ ذلكَ غَرضَهُ بل ربَّما يتعبُ

بلِ يحكمُ العقلاءِ بحُسنِ الصَّبرِ على السَّيفِ إذا أُكرِهَ على كلمَةِ الكُفرِ، أو على إفشاءِ السِّرِّ ونَقضِ العَهدِ، وهو على خلافِ غَرَضِ الكَفَرَةِ، وعلى الجُملَةِ فاستحسانُ مكارمِ الأخلاقِ وإفاضَةِ النِّعَمِ لا يُنكرهُ إلّا مَن عانَدَ .

* **الثّاني** : العاقلُ إذا سَنَحَت لهُ حاجَةٌ وأمكنَ قضاؤها بالصِّدقِ كما أمكنَ بالكذبِ بحيثُ تَساوَيا في حصولِ الغَرَضِ منهما كلَّ التَّساوي فإنَّهُ يؤثرُ الصِّدقَ ويَختارُهُ ويميلُ إليهِ طبعهُ، وما ذاكَ إلّا لحُسنهِ، فلولا أنَّ الكذبَ على صفَةٍ يجبُ عندَهُ الاحترازُ عنهُ وإلّا لما تَرَجَّحَ الصِّدقُ عندهُ .

وهذا الغَرَضُ واضحٌ في حقِّ من أنكرَ الشرائعَ وفي حقِّ من لم تَبلُغهُ الدّعوَةُ حتى لا يُلزمونَنا كون التَّرجيح بالتَّكليفِ .

فهذا من حُجَجِهِم، ونَحنُ نُجيبُ عن ذلكَ، فنبيِّنُ أنَّهُ لا يثبتُ حكمٌ على هذينِ المثالينِ، فنقولُ : أمَّا إنقاذُ الملكِ وحسنُه حتى في حقِّ من لم تبلغهُ الدَّعوَةُ وأنكر الشرائعَ، فسبَبهُ دَفعُ الأذى الذي يَلحقُ الإنسانَ من رقَّةِ القلبِ وهو طَبعٌ يَستحيلُ الانفكاكَ عنهُ، وذلكَ لأنَّ الإنسانَ يقِّدرُ نَفسَهُ في تلكَ البليَةِ ويقدِّرُ غيرهُ مُعرضاً عن الإنقاذِ فيَستقبحهُ منهُ لمخالفَةِ غَرَضَه، فيعودُ ويَقدِّرُ ذلكَ الاستقباحَ منَ المشرفِ على الهلاكِ في حقِّ نَفسهِ فيَدفعُ عن نَفسهِ ذلكَ القُبحَ المُتوَهَّمَ، فإنَّ فَرضَ بَهيمَةٍ أو شَخصٍ لا رقَّةَ فيهِ يفيدُ تَصوُّرهُ لو تَصوَّرهُ فيَبقى أمرٌ آخرُ وهو طلبُ الثَّناءِ على إحسانهِ، فإن فَرَضَ بحيثُ لا يَعلمُ أنَّهُ المنقذُ فيتوقَّعُ أن يعلمَ فيكونُ ذلكَ التَّوقُّعُ باعثاً، فإن فَرَضَ في موضعٍ يَستَحيلُ أن يُعلمَ فيَبقى ميلٌ وترجيحٌ يُضاهي نَفرَةَ طبعِ السَّليمِ عنِ الحَبلِ،

وذلك أنَّهُ رأَى هذه الصُّورَةَ مَقرونَةً بالثَّناءِ، فيظنُّ أنَّ الثَّناءَ مَقرونٌ بها بكلِّ حالٍ كما أنَّهُ لما رأَى الأذى مَقروناً بصورَةِ الحَبلِ فطبعهُ ينفرُ عن الأذى فينفرُ عن المَقرونِ بهِ، فالمَقرونُ باللذيذِ لذيذٌ والمَقرونُ بالمَكروهِ مكروهٌ بل الإنسانُ إذا جالَسَ مَن عشقَهُ في مكانٍ فإذا انتهى إليهِ أحسَّ في نَفسهِ ذلكَ المكانَ من غيرهِ قال الشاعر :

أَمُـرُّ عَـلـى الـدِّيـارِ ديارِ لَيـلـى
أُقَـبِّـلُ ذا الـجِـدار وذا الـجِـدارا
وَما حُبُّ الـدِّيارِ شَغَفْنَ قَلبي
وَلـكِـنْ حُـبّ مَـن سَكَـنَ الـدِّيـارا

وأمَّا الصَّبرُ على السَّيفِ في تركهِ كلمَةُ الكُفرِ مع طمأنينةِ النَّفسِ فلا يَستحسنهُ جميعُ العقلاءِ لولا الشرعُ بل ربَّما استقبحوهُ، فإنَّما يَستحسنهُ مَن ينتظرُ الثَّوابَ على الصَّبرِ أو مَن ينتظرُ الثَّناءَ عليهِ بالشجاعَةِ والصَّلابَةِ في الدِّينِ، فكم من شجاعٍ ركبَ مَتنَ الخطرِ وهجَمَ على عَددٍ وهو يعلمُ أنَّهُ لا يُطيقهم ويَستحقرُ ما ينالهُ منَ الألمِ لما يَعتاضهُ منَ توهُّمَ الثَّناءَ والحَمدَ لو بَعدَ موته، وكذلكَ إخفاءُ السرِّ وحفظُ العَهدِ إنَّما يتَواصى النَّاسُ بهما لما فيهما منَ المصالحِ، ولذلكَ أكثروا الثَّناءَ عليهما، فمَن يحتملُ الضَّرَرَ لا للّهِ فإنَّما يحتملهُ لأجلِ الثَّناءِ، فإن فَرضَ مَن لا يَستَولي عليهِ هذا الوَهمُ ولا يَنتظرُ الثَّناءَ والثَّوابَ فهو يَستقبحُ السَّعيَ في هلاكِ نَفسهِ بغيرِ فائدَةٍ، ويَستحمقُ مَن يَفعلُ ذلكَ قَطعاً، فمَن يُسَلِّمُ أنَّ مثلَ ذلكَ يؤثرُ الهلاكَ على الحياةِ .

وهذا هو الجوابُ عمَّن عَرَضَت لهُ حاجَةٌ وأمكنَ قضاؤها بالصِّدقِ والكذبِ واستَويا عندهُ وإيثارهُ الصِّدقَ على أنَّا نقولُ : تَقديرُ استواءِ الصِّدقِ والكذبِ في المَقصودِ مع قَطعِ النَّظرِ عن الغَيرِ تَقديرٌ مُستَحيلٌ؛ لأنَّ الصِّدقَ والكذبَ متَنافيانِ ومن المُحالِ تَساوي المُتنافيَينِ في جميعِ الصِّفاتِ، فلأجلِ ذلكَ التَّقديرِ المُستحيلِ يستبعدُ العقلُ إيثارَ الكذبِ ومنعَ إيثارِ الصِّدقِ .

ولا يَلزمُ من استبعادِ منعِ إيثارِ الصِّدقِ على التَّقديرِ المُستحيلِ استبعادُهُ في نَفسِ الأمرِ وإنَّما يلزمُ لو كانَ التَّقديرُ المُستلزمُ واقعاً وهو مَمنوعٌ .

ولئن سلَّمنا أنَّ ذلكَ التَّقديرَ مُمكنٌ فغايتهُ أن يدلَّ على حُسنِ الصِّدقِ شاهداً، ولكن لا يلزمُ حسنُهُ غائباً إلّا بطريقِ قياسِ الغائبِ على الشاهدِ وهو فاسدٌ لوضوحِ الفَرقِ المانعِ منَ القياسِ، والذي يَقطعُ دابرَ القياسِ أنَّ السَّيدَ لو رأَى عَبيدَهُ وإماءَهُ يموجُ بَعضُهم في بَعضٍ ويَركبونَ الظُّلمَ والفواحشَ وهو مطَّلعٌ عليهم قادرٌ على منعهم لقبحَ ذلكَ منهُ، واللّهُ عزَّ وجَلَّ قَد فَعَلَ ذلكَ بعبادهِ بل أعانهم وأمَدَّهُم ولم يقبح منهُ سبحانهُ، ولا يصحُّ قولهم أنَّهُ سبحانهُ تركهم ليَنزَجِروا بأنفسهم ليَستحقُّوا الثَّوابَ، لأنَّهُ سبحانهُ قَد علمَ أنَّهم لا يَنزَجِرونَ ولم يمنعهم قَهراً فكم من مَمنوعٍ منَ الفواحشِ لعلَّةٍ وعجزٍ وذلكَ أحسنُ من تَمكينهِ مع العلمِ بأنَّهُ لا يَنزَجِرُ .

وبالجُملَةِ فقياسُ أفعالِ اللّهِ على أفعالِ العبادِ باطلٌ قَطعاً ومحضُ التَّشبيهِ في الأفعالِ، ولهذا جمَعَت المُعتزلَةُ القَدريَّةُ بينَ التَّعطيلِ في الصِّفاتِ والتَّشبيهِ في الأفعالِ، فهم معطَّلةٌ مشبَّهةٌ لباسهم معلَّمٌ منَ الطَّرفينِ كيفَ وأنَّ

إنقاذَ الغَريقِ الذي استَدللتُم به حجَّةٌ عليكم ؟ فإنَّ نَفسَ الإغراقِ والإهلاكِ يحسنُ منهُ سبحانهُ ولا يقبحُ، وهو أقبحُ شيءٍ منَّا، فالإنقاذُ إن كانَ حَسَناً فالإغراقُ يجبُ أن يكونَ قَبيحاً .

فإن قُلتُم : لعلَّ في ضمنِ الإغراقِ والإهلاكِ سرّاً لم نطَّلع عليهِ وغَرَضاً لم نَصِل إليهِ فَقَدِّروا مثلهُ في تَرِكِ إنقاذنا نحنُ للغَرقى بل في إهلاكنا لمَن نُهلكهُ، والفعلانِ من حيثُ التَّكليفِ والإيجابِ مُستَويانِ عَقلاً وشرعاً، فإنَّهُ سبحانهُ لا يتَضرَّرُ بمعصيَةِ العَبدِ ولا ينتفعُ بطاعتهِ ولا تَتَوقَّفُ قدرتهُ في الإحسانِ إلى العَبدِ على فعلٍ يَصدرُ منَ العَبدِ بل كلَّما أنعَمَ عليهِ ابتداءً بإجزالِ المواهبِ وأفضلِ العطايا من حُسنِ الصُّورَةِ، وكمالِ الخلقَةِ، وقوامِ البُنيَةِ، وإعدادِ الآلَةِ، وإتمامِ الأداةِ، وتَعديلِ القامَةِ، وما متَّعهُ من روحِ الحياةِ وفضَّلهُ به من حياةِ الأرواحِ، وما أكرمهُ بهِ من قبولِ العلمِ وهداهُ إلى مَعرفتهِ التي هي أسنى جوائزهِ : ﴿ وَإن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللَّهِ لا تُحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٤]، فهو سبحانهُ أقدرُ على الإنعامِ عليهِ دواماً فيكفَ يوجبُ على العبيدِ عبادَةً شاقَّةً في الحالِ لارتقابِ ثوابٍ في ثاني الحالِ أليسَ لو ألقى إليهِ زمامَ الاختيارِ حتى يَفعَلَ ما يشاءُ جرياً على سوقِ طبعهِ المائلِ إلى لذيذِ الشهواتِ ثمَّ أجزَلَ لهُ في العطاءِ من غيرِ حسابٍ كانَ ذلكَ أروحَ للعَبدِ ولم يكُن قَبيحاً عندَ العَقلِ فَقَد تَعارَضَ الأمرانِ :

□ **أحدهما** : أن يُكلِّفهم فيأمرَ ويَنهى حتى يطاعَ ويُعصى ثمَّ يثيبهم ويعاقبهم على فعلهم .

□ **الثَّانـي** : أنَّـهُ لا يكلِّفهم بأمرٍ ولا نَـهيٍ إذ لا ينتفعُ سبحانهُ منهم بطاعَةٍ ولا يتَضرَّرُ منهم بمعصيَةٍ كلّا بل لا تكونُ نعمَهُ ثواباً بل ابتداءً، وإذا تَعارضَ في العقولِ هـذانِ الأمرانِ فيكفَ يَهتَدي العقلُ إلى اختيارِ أحدهما حقّاً وقَطعاً ؟ فكيفَ تُعرِّفُنا العقولُ وجوباً على النَّفسِ بالمعرفَةِ وعلى الـجوارحِ بالطَّاعَةِ وعلى الباري سبحانهُ بالثَّوابِ والعقابِ .

ولا سيَّما على أُصولِ الـمُعتزلَةِ القدريَّةِ؛ فإنَّ التَّكليفَ بالأمرِ والنَّـهيِ والإيجابِ منَ اللّهِ لا حقيقَةَ لهُ على أصلهم، فإنَّهُ لا يرجعُ إلى ذاتِ الرَّبِّ تعالى صفَةٌ يكونُ بها آمراً ناهياً موجباً مكلفاً بالأمرِ والنَّهـيِّ للخَلقِ، ومَعلومٌ أنَّـهُ لا يرجعُ إلى ذاتهِ منَ الـخَلقِ صفَةٌ، والعَقلُ عندهم إنَّـما يعرفهُ على هذه الصِّفَةِ، ويَستحيلُ عندهم أن يَعرفهُ بأنَّـهُ يَقتَضي ويطلبُ منهُ شيئاً أو يأمرهُ ويَنهاهُ بشيءٍ كما يعقلُ الأمرُ والنَّهـيُ بالطَّلبِ القائمِ بالآمرِ والنَّاهي، فإذا لم يقُم بهِ طَلَبٌ استحالَ أن يكونَ آمراً ناهياً، فغايَةُ العَقلِ عندهم أن يَعرفهُ على صفَةٍ يَستحيلُ عليهِ الاتِّصافُ بالأمرِ والنَّهـيِ، فكيفَ يَعرفهُ على صفَةٍ يريدُ منهُ طاعَةً فيستحقُّ عليها ثواباً أو يكرهُ منهُ مَعصيَةً يستحقُّ عليها عقاباً ؟ وإذ لا أمر ولا نَـهيٌ، يعقلُ فلا طاعَةٌ ولا مَعصيَةٌ إذ هما فرعُ الأمرِ والنَّهـيِ فلا ثوابَ ولا عقابَ إذ هما فرعُ الطَّاعَةِ والـمَعصيَةِ، وغايَةُ ما يقولونَ إنَّهُ يـخلقُ في الـهواءِ أو في البَحرِ « افعَل أو لا تَفعَل » بشرطِ أن لا يدلَّ الأمرُ والنَّهـيُ الـمَخلوقُ على صفَةٍ في ذاتهِ غيرَ كونهِ عالماً قادراً، ومعلومٌ أنَّ هذا لايدلُّ إلّا على كونِ الفاعلِ قادراً عالماً حيَّاً مريداً لفعلهِ، وأمَّا دلالتُهُ على حقيقَةِ الأمرِ والنَّهيِ المُستلزمَةِ للطَّاعَةِ والمَعصيَةِ المُستلزمينَ للثَّوابِ والعقابِ فلا .

فتعرف من ذلكَ أنَّ مَن نَفى قيامَ الكلامِ والأمرِ والنَّهيَ بذاتِ اللَّهِ لم يمكنهُ إثبات التَّكليفِ على العَبدِ أبداً، ولا إثبات حُكمٍ للفعلِ بحُسنٍ ولا قُبحٍ، وفي ذلكَ إبطالُ الشرائعِ جملَةً مع استنادها إلى قولِ مَن قامَت البراهينُ على صدقهِ، ودلَّت المُعجزَةُ على نبوَّتهِ، فَضلاً عن الأحكامِ العَقليَّةِ المُتعارضَةِ المُستندَةِ إلى عاداتِ النَّاسِ المُختلفَةِ، بالإضافَةِ والنِّسبِ والأزمنَةِ والأمكنَةِ والأقوالِ وقَد عَرَفَ بهذا أنَّ مَن نَفى قولَ اللَّهِ وكلامَهُ فَقَد نَفى التَّكليفَ جملَةً وصارَ من أخبثِ القدريَّةِ وشرّهم مقالَةً حيثُ أثبَتَ تَكليفاً وإيجاباً وتَحريماً بِلا أمرٍ ولا نَهيٍ ولا اقتضاءٍ ولا طَلَبٍ، وهذه مَقدرتهُ في حقِّ الرَّبِّ تعالى، وأثبَتَ فعلاً وطاعَةً ومَعصيَةً بلا فاعلٍ ولا محدثٍ، وهذه مَقدرتهُ في حقِّ العَبدِ، فليتنبَّهَ لهذه الثَّلاثَةِ .

وأيضاً فما من مَعنىً يُستَنبطُ من قولٍ أو فعلٍ ليربطَ به حكمٌ مناسبٌ لهُ إلّا ومن جنسهِ في العَقلِ أمرٌ آخرُ يعارضُهُ يساويهِ في الدَّرجَةِ أو يفضلُ عليهِ في المَرتبَةِ، فيتحيَّرُ العَقلُ في الاختيارِ إلى أن يردَ شرعٌ يختارُ أحدَهما ويرجِّحُهُ من تلقائهِ، فيجبُ على العاقلِ اعتبارَهُ واختيارُهُ لترجيحِ الشرعِ لهُ لا لرجحانهِ في نَفسهِ، ونَضربُ لذلكَ مثالاً فنقولُ : إذا قتلَ إنسانٌ مثلهُ عَرَضَ للعَقلِ الصَّريحِ هــهُنا آراءٌ متعارضَةٌ مُختلفَةٌ منها أنَّهُ يجبُ أن يُقتَلَ قصاصاً رَدعاً للجُناةِ، وزَجراً للطُّغاةِ، وحفظاً للحياةِ، وشفاءً للغيظِ، وتَبريداً لحرِّ المُصيبَةِ اللاحقَةِ لأولياءِ القَتيلِ، ويعارضهُ معنىً آخَرُ أنَّهُ إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ، وعُدوانٌ في مُقابَلَةِ عُدوانٍ، ولا يَحيا الأوَّلُ لقَتلِ الثَّاني، ففيهِ تكثيرُ المَفسَدَةِ بإعدامِ النَّفسينِ، وأمَّا مصلحَةُ الرَّدعِ والزَّجرِ واستبقاءِ النَّوعِ فأمرٌ متوهَّمٌ وفي القصاصِ

استهلاكٌ محقَّقٌ، فَقَد تعارَضَ الأمرانِ، وربَّما يُعارِضهُ أيضاً معنىً ثالثٌ وراءهما فيفكرُ العقلُ أيُراعي شرائطَ أُخَر وراءَ مجرَّدِ الإنسانيَّةِ منَ العَقلِ والبلوغِ والعلمِ والجَهلِ والكمالِ والنَّقصِ والقرابَةِ والأجنبيَّةِ أو لا فيتحيَّرُ العَقلُ كلَّ التَّحيُّرِ، فلابدَّ إذاً من شارعٍ يفصِّلُ هذه الخُطَّةَ، ويقرِّرُ قانوناً يَطَّردُ عليهِ أمرُ الأمَّةِ، وتَستقيمُ عليهِ مصالحهُم، وَظَهَرَ بهذا أنَّ المعاني المُستَنبطَة إذا كانَت راجعَةً إلى مجرَّدِ استنباطِ العَقلِ فيَلزمُ من ذلكَ أن تكونَ الحركَةُ الواحدَةُ مُشتملَةً على صفاتٍ مُتناقضَةٍ وأحوالٍ مُتنافرَةٍ .

وليسَ معنى قولنا أنَّ العَقلَ استَنبَطَ منها أنَّها كانَت موجودَةً في الشيءِ فاستَخرجها العقلُ بل العقلُ تَردَّدَ بينَ إضافاتِ الأحوالِ بَعضها إلى بَعضٍ، ونَسَبِ الأشخاصِ والحركاتِ نوعاً إلى نوعٍ وشخصاً إلى شخصٍ، فيطرأُ عليهِ من تلكَ المعاني ما حَكيناهُ وأحصيناهُ وربَّما يبلغُ مبلغاً يشذُّ عن الإحصاءِ، فَعرفَ بذلكَ أنَّ المعاني لم تَرجع إلى الذَّاتِ بل إلى مجرَّدِ الخواطرِ الطَّارئةِ على الأصلِ، وهيَ مُتعارضةٌ .

وأيضاً لو ثَبَتَ الحُسنُ والقُبحُ العقليَّانِ؛ لتعلَّقَ بهما الإيجابُ والتَّحريمُ شاهداً وغائباً على العَبدِ والرَّبِّ، واللازمُ مُحالٌ؛ فالمَلزومُ كذلكَ .

أمَّا المُلازمَةُ فَقَد كفانا أهلُ الإثباتِ تَقريرَها بالتزامهم أنَّهُ يجبُ على العَبدِ عَقلاً بَعضُ الأفعالِ الحَسنَةِ، ويحرمُ عليهِ القبيحُ، ويَستحقُّ الثَّواب والعقاب على ذلكَ، وأنَّهُ يجبُ على الرَّبِّ تعالى فعلُ الحسنِ ورعايةُ الصَّلاحِ والأصلحِ، ويحرُمُ عليهِ فعلُ القَبيحِ والشرِّ وما لا فائدَةَ فيهِ كالعَبَثِ،

ووَضعوا بعقولهم شريعَةً أوجَبوا بها على الرَّبِّ تعالى وحرَّموا عليهِ، وهذا عندهم ثمرةُ المسألةِ وفائدتها .

وأمَّا انتفاءُ اللازمِ، فإنَّ الوُجوبَ والتَّحريمَ بدونِ الشرعِ مُمتنعٌ إذ لو ثَبَتَ بدونهِ لقامَت الحُجَّةُ بدونِ الرُّسلِ، واللَّهُ سبحانهُ إنَّما أثبَتَ الحجَّةَ بالرُّسلِ خاصَّةً؛ كما قال تعالى : ﴿ لئلّا يكونَ للنَّاسِ على اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وأيضاً؛ فلو ثَبَتَ بدونِ الشرعِ لا يَستحقُّ الثَّوابَ والعقابَ عليهِ، وقَد نَفى اللَّهُ سبحانهُ العقابَ قبلَ البعثَةِ فقال : ﴿ وما كنَّا مُعذِّبينَ حتى نَبعَثَ رسولاً ﴾ .

فهذا في حُكمِ الوُجوبِ والتَّحريمِ على العباد قبل البعثة، وأمَّا انتفاء الوجوب والتحريم على مَن لهُ الخَلقُ والأمرُ، ولا يُسألُ عمَّا يَفعلُ، فمن وجوهٍ متعدِّدَةٍ :

○ **أحدها** : أنَّ الوُجوبَ والتَّحريمَ في حقِّهِ سبحانهُ غيرُ مَعقولٍ على الإطلاقِ، وكيفَ يعلمُ أنَّهُ سبحانهُ يجبُ عليهِ أن يمدحَ ويذمَّ ويثيبَ ويعاقبَ على الفعلِ بمجرَّدِ العَقلِ ؟ وهل ذلكَ إلّا مغيَّبٌ عنَّا فيمَ نَعرفُ أنَّهُ رَضِيَ عن فاعلٍ وسَخِطَ على فاعلٍ، وأنَّهُ يُثيبُ هذا، ويُعاقبُ هذا، ولم يُخبر عنهُ بذلكَ مُخبرٌ صادقٌ، ولا دلَّ على مواقعِ رضاهُ وسَخطهِ عَقلٌ، ولا أخبَرَ عن مَحكومهِ ومَعلومهِ مُخبرٌ، فلم يَبقَ إلّا قياسُ أفعالهِ على أفعالِ عبادهِ وهو من أفسَدِ القياسِ وأعظمهِ بُطلاناً، فإنَّهُ تعالى كما أنَّهُ ليسَ كمثلهِ شيءٌ في ذاتهِ

ولا في صفاتهِ فكذلكَ ليسَ كمثلهِ شيءٌ في أفعالهِ، وكيفَ يُقاسُ على خَلقهِ في أفعالهِ فيحسنُ منهُ ما يَحسنُ منهم، ويقبحُ منهُ ما يقبحُ منهم، ونَحنُ نَرى كثيراً منَ الأفعالِ تُقبَحُ منَّا وهي حَسَنَةٌ منهُ تعالى كإيلامِ الأطفالِ والحيوانِ، وإهلاكِ مَن لو أهلَكناهُ نَحنُ لقبحَ منَّا منَ الأموالِ والأنفسِ وهو منهُ تعالى مُستحسنٌ غيرُ مُستَقبحٍ، وقد سُئلَ بَعضُ العلماءِ عن ذلكَ فأنشَدَ السَّائل :

ويقبحُ مِن سِواكَ الفعلُ عندي
فتَفعلهُ فيَحسُنُ منكَ ذاكا

ونَحنُ نَرى تركَ إنقاذِ الغَرقى والهَلكى قَبيحاً منَّا وهو سبحانهُ إذا أغرقهم وأهلكهم لم يكُن قَبيحاً منهُ، ونَرى تَركَ أحدِنا عَبيدَهُ وإماءهُ يَقتلُ بَعضُهُم بَعضاً، ويُسيءُ بَعضهُم بَعضاً، ويفسدُ بَعضُهم بَعضاً، وهو متُمكِّنٌ من منعهم قَبيحاً وهو سبحانهُ قَد تَرَكَ عبادهُ كذلكَ وهو قادرٌ على منعهم وهو منهُ حَسَنٌ غيرُ قبيحٍ، وإذا كانَ هذا شأنهُ سبحانهُ وشأنُنا فكيفَ يصحُّ قياسُ أفعالهِ على أفعالنا ؟ فلا يُدركُ إذا للوجوبِ والتَّحريمِ عليهِ وجهٌ، كيفَ والإيجابُ والتَّحريمُ يَقتَضي موجباً ومحرَّماً آمراً ناهياً، وبينه فَرقٌ وبينَ الذي يجبُ عليهِ ويحرمُ، وهذا محالٌ في حقِّ الواحدِ القهَّارِ؛ فالإيجابُ والتَّحريمُ طلبٌ للفعلِ والتَّركِ على سبيلِ الاستعلاءِ فكيفَ يتصوَّرُ غائباً ؟

وأيضاً؛ فلهذا الإيجابُ والتَّحريمُ اللذين زعمتُم على اللَّهِ لوازمُ فاسدَةٌ يدلُّ فسادُها على فسادِ الملزومِ :

▫ **اللازمُ الأوَّلُ** : إذا أوجَبتُم على اللَّهِ تَعالى رعايةَ الصَّلاحِ والأصلحِ

في أفعالِهِ، فيجبُ أن توجبوا على العَبدِ رعايَةَ الصَّلاحِ والأصلحِ أيضاً في أفعالِهِ، حتى يَصحّ اعتبارُ الغائبِ بالشاهِدِ، وإذا لم يَجب علينا رعايتُهما بالاتِّفاقِ بحسبِ المَقدورِ بَطَلَ ذلكَ في الغائبِ، ولا يصحُّ تَفريقُكُم بينَ الغائبِ والشاهدِ والتَّعب والنَّصب الذي يلحقُ الشاهدَ دونَ الغائبِ، لأنَّ ذلكَ لو كانَ فارقاً في محلِّ الإلزامِ لكانَ فارقاً في أصلِ الصَّلاحِ، فإن ثَبَتَ الفَرقُ في صفتهِ ومقدارهِ ثبتَ في أصلهِ، وإن بَطلَ الفرقُ ثبتَ الإلزامُ المَذكورَ .

▫ **اللازمُ الثَّاني** : إنَّ القرباتِ منَ النَّوافلِ صلاحٌ، فلو كانَ الصَّلاحُ واجباً وجَبَ وجوبَ الفرائضِ .

▫ **اللازمُ الثَّالث** : أنَّ خلودَ أهلِ النَّارِ في النَّارِ يجبُ أن يكونَ صلاحاً لهم دونَ أن يردُّوا فيَعتبوا ربَّهُم ويتوبوا إليهِ لا ينفعكُم اعتذارُكُم عن هذا الإلزام بأنَّهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنهُ، فإنَّ هذا حقٌّ ولكن لو أماتهم وأعدمهم فَقَطَعَ عتابهم كانَ أصلحَ لهم، ولو غَفرَ لهم ورحمهم وأخرجهم منَ النَّارِ كانَ أصلحَ لهم من إماتَتهم وإعدامهم، ولم يتَضرَّر سبحانهُ بذلكَ .

▫ **اللازمُ الرَّابع** : أنَّ ما فعلهُ الرَّبُّ تعالى منَ الصَّلاحِ والأصلحِ وتَركهُ منَ الفسادِ والعَبثِ لو كانَ واجباً عليهِ لما استَوجَبَ بفعلهِ لهُ حَمداً وثناءً، فإنَّهُ في فعلهِ ذلكَ قَد قَضى ما وَجَبَ عليهِ وما استَوجَبهُ العَبدُ بطاعتهِ من ثوابهِ، فإنَّهُ عندكُم حقُّهُ الواجبُ لهُ على ربِّهِ، ومَن قَضى دَينَهُ لم يَستَوجب بقضائهِ شيئاً آخرَ .

▫ **اللازمُ الخامسُ** : أنَّ خَلقَ إبليسَ وجنودهِ أصلحُ للخَلقِ وأنفعُ

لهم من أن لم يخلَق مع أنَّ إقطاعَهُ منَ العبادِ من كلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعَةٌ وتسعون .

▫ **اللازمُ السَّادسُ** : أنَّهُ مع كونِ خَلقهِ أصلحُ لهم وأنفعُ أن يكونَ إنظارُهُ إلى يومِ القيامَةِ أصلحَ لهم وأنفعَ من إهلاكهِ وإماتتهِ .

▫ **اللازمُ السَّابعُ** : أن يكونَ تَمكينُهُ من إغوائهم وجريانهِ منهم مَجرى الدَّمِ في أبشارهم أنفعَ لهم وأصلَحَ لهم من أن يُحالَ بينهم وبينهُ .

▫ **اللازمُ الثَّامنُ** : أن يكونَ إماتَةُ الرُّسلِ أصلحَ للعبادِ من بقائهم بينَ أظهرهم مع هدايتهم لهم، وأصلحَ من أن يُحالَ بينهم وبينَها .

▫ **اللازمُ التَّاسعُ** : ما ألزمهُ أبو الحَسَن الأشعريّ للجُبّائي، وقَد سألهُ عن ثلاثَةِ إخوَةٍ أماتَ اللَّهُ أحدهم صَغيراً، وأحيا الآخرينَ، فاختارَ أحدهما الإيمانُ والآخَرُ الكُفرَ، فَرَفَعَ درجَةَ المُؤمنِ البالغِ على أخيهِ الصَّغيرِ في الجنَّةِ لعملهِ، فقال أخوهُ : يا ربِّ لم لا تبلِّغني منزلَةَ أخي ؟

فقال : إنَّهُ عاشَ وعملَ أعمالاً استَحقَّ بها هذه المنزلَةَ .

فقال : يا ربِّ فهلّا أحيَيتَني حتى أعملَ مثلَ عملهِ (!) فقال : كانَ الأصلحُ لكَ أن توَفَّيتكَ صَغيراً؛ لأنّي علمتُ أنَّكَ إن بَلَغتَ اختَرتَ الكُفرَ، فكانَ الأصلحُ في حقِّكَ أن أمتَّكَ صَغيراً .

فنادى أخوهما الثَّالثُ من أطباقِ النَّارِ : يا ربِّ فهلّا عملتَ معي هذا الأصلحَ واختَرمتَني صَغيراً كما عَملتهُ مع أخي واختَرَمتهُ صَغيراً ؟!

فأُسكِتَ الجبائيُّ ولم يُجبهُ بشيءٍ .

فإذا علمَ اللَّهُ سبحانهُ أنَّهُ لو اخترَمَ العَبدَ قَبلَ البلوغِ وكمالِ العَقلِ لكانَ ناجياً، ولو أمهلهُ وسهَّلَ لهُ النَّظَرَ لعانَدَ وكفرَ وجَحَدَ، فكيفَ يقالُ إنَّ الأصلَحَ في حقِّهِ إبقاؤهُ حتى يبلغَ ؟

والمَقصودُ عندكُم بالتَّكليفِ الاستصلاحُ والتَّعويضُ بأسنى الدَّرجاتِ التي لا تُنالُ إلّا بالأعمالِ أو ليسَ الواحدِ منَّا إذا علِمَ من حالِ ولدهِ أنَّهُ أعطى مالاً يتَّجرُ بهِ فَهَلَكَ وخسِرَ بسَببِ ذلكَ فإنَّهُ لا يعرضهُ لذلكَ ويقبحُ منهُ تَعريضهُ لهُ وهو من ربِّ العالمين حسنٌ غيرُ قبيحٍ .

وكذلكَ مَن علمَ من حالِ ولدهِ أنَّهُ لو أعطاهُ سَيفاً أو سلاحاً يقاتلُ به العَدوَّ فَقَتَلَ به نَفسهُ وأعطى السِّلاحَ لعدوِّهِ فإنَّهُ يقبحُ منهُ إعطاؤهُ ذلكَ السِّلاح والرَّبُّ تعالى قَد علمَ من أكثرِ عبادهِ ذلكَ ولم يقبح منهُ سبحانهُ تمكينهم وإعطاؤهم الآلاتِ بل هو حسنٌ منهُ، كيفَ وقَد ساعَدوا على نُفوسهم أنَّ اللَّه سبحانهُ لو علمَ أنَّهُ لو أرسَلَ رسولاً إلى خَلقهِ وكلَّفهُ الأداءَ عنهُ مع علمهِ بأنَّهُ لا يؤدِّي فإنَّ علمهُ سبحانهُ بذلكَ يَصرفهُ عن إرادَةِ الخَيرِ والصَّلاحِ، وهذا بمثابَةِ مَن أدلى حَبلاً إلى غَريقٍ ليخلِّصَ نَفسهُ منَ الغَرقِ مع علمهِ بأنَّهُ يخنقُ نَفسهُ بهِ، وقَد ساعَدوا أيضاً على نفوسهم بأنَّ اللَّهَ سبحانهُ إذا علمَ أنَّ في تَكليفهِ عَبداً من عبادهِ فسادَ الجماعَةِ، فإنَّهُ يَقبحُ تَكليفُهُ لأنَّهُ استِفسادٌ لِمَن يَعلمُ أنَّهُ يكفُرُ عندَ تكليفهِ .

▫ **الإلزامُ العَاشر** : أنَّهُم قالوا وَصدَّقوا بأنَّ الرَّبَّ تعالى قادرٌ على التَّفضُّلِ بمثلِ الثَّوابِ ابتداءً بلا واسطَةِ عملٍ، فأيُّ غَرَضٍ لهُ في تَعريضِ العبادِ

للبَلوى والمشاقِّ ؟ ثمَّ قالوا - وكذَبوا الغَرَضَ في التَّكليفِ - أنَّ استيفاءَ المُستحقِّ حقَّهُ أهنأُ لهُ وألذُّ من قبولِ التَّفضُّلِ واحتمالِ المنَّةِ .

وهذا كلامُ أجهَلِ الخَلقِ بالرَّبِّ تعالى وبحقِّهِ وبعظمتهِ ومُساوٍ بينهُ وبينَ آحادِ النَّاسِ، وهو من أقبَحِ النِّسبَةِ وأخبثهِ تعالى اللَّهُ عن ضلالهم علوَّاً كبيراً، فكيفَ يستنكفُ العَبدُ المَخلوقُ المَربوبُ من قبولِ فَضلِ اللَّهِ تعالى ومنَّتهِ ؟ وهل المنَّةُ في الحقيقةِ إلّا للَّهِ المانِّ بفضلهِ ؟ قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيكَ أن أسلَموا قُل لا تَمنُّوا عَلَيَّ إسلامكُم بل اللَّهُ يمُّن عليكُم أن هَداكُم للإيمانِ إن كُنتُم صادقينَ ﴾ [الحجرات : ١٧]، وقالَ تَعالى : ﴿ لَقَد منَّ اللَّهُ على المُؤمنينَ إذ بَعَث فيهم رَسولاً مِن أنفُسهم يَتلو عَلَيهم آياتهِ وَيُزَكِّيهم وَيُعَلِّمهُم الكتابَ والحكمَةَ وإن كانوا قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

ولما قالَ النَّبيُّ ﷺ للأنصارِ : « ألم أجدكُم ضُلّالاً فهداكُم اللَّهُ بي وعالَةً فأغناكُم اللَّهُ بي ؟ » .[1]

فأجابوهُ بقولهم : اللَّهُ ورسولهُ أمَنُّ .

ويا للعقولِ التي قَد خَسَفَ بها أيُّ حَقٍّ للعَبدِ على الرَّبِّ حتى يمتنعَ من قبولِ منَّتهِ عليهِ ؟ فبأيِّ حقٍّ استحقَّ الإنعامَ عليهِ بالإيجادِ وكمالِ الخلقَةِ وحسنِ الصُّورَةِ وقوامِ البُنيَةِ وإعطائهِ القوى والمنافعَ والآلاتِ والأعضاءَ وتَسخيرِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ لهُ، ومِن أقلِّ مالهُ عليهِ منَ النِّعَمِ

(١) أخرجه البخاري (٨ / ٤٧ - فتح ، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبدالله ابن زيد - رضي اللّه عنه .

التنفُّسُ في الهواءِ الذي الذي لا يكادُ يَخطُرُ ببالهِ أنَّهُ منَ النِّعَمِ، وهو في اليومِ والليلَةِ أربعَةٌ وعشرونَ ألفَ نَفسٍ، فإذا كانَت أقلَّ نعمَهِ عليهم ولا أقلَّ منها أربعَةٌ وعشرونَ ألفَ نعمَةٍ كلَّ يومٍ وليلَةٍ فما الظَّنُّ بما هو أجلُّ منها منَ النِّعَمِ ؟

فيا للعقولِ السَّخيفَةِ المَخسوفِ بها أيُّ علمٍ لكُم ؟ وأيُّ سَعيٍّ يُقابلُ القليلُ من نعمهِ الدُّنيويَّةِ حتى لا يَبقى للَّهِ عليكُم منَّةٌ إذا أثابكُم لأنَّكُم استَوفيتُم ديونَكُم قَبلهُ ولا نِعمَةَ لهُ عليكُم فيها ؟

فأيُّ أُمَّةٍ منَ الأُمَمِ بَلَغَ جهلُها باللَّهِ هذا المبلغَ واستَنكَفَت عن قبولِ منَّتِهِ، وزَعمَت أنَّ لها الحقَّ على ربِّها وأنَّ تَفضُّلَهُ عليها ومنَّتَهُ مكدِّرٌ لالتذاذِها بعطائهِ، ولو أنَّ العَبدَ استعمَلَ هذا الأدَبَ معَ مِلِكٍ مَن ملوكِ الدُّنيا لمقتَهُ وأبعدَهُ وسَقَطَ من عَينهِ مع أنَّهُ لا نعمَةَ لهُ عليهِ في الحقيقَةِ إنَّما المنعمُ في الحقيقَةِ هو اللَّهُ وليُّ النِّعَمِ ومولِّيها، ولَقَد كَشَفَ القومُ عن أقبَحِ عَورَةٍ من عَوراتِ الجَهلِ بهذا الرَّأيِ السَّخيفِ والمَذهَبِ القَبيحِ، والحَمدُ للَّهِ الذي عافانا ممَّا ابتَلى بهِ أربابَ هذا المَذهَبِ المُستَنكفينَ من قبولِ منَّةِ اللَّهِ الزَّاعمينَ أنَّ ما أنعمَ اللَّهُ به عليهم حقُّهُم عليهِ وحقُّهم قبلهُ، وأنَّهُ لا يَستحقُّ الحَمدَ والثَّناءَ على أداءِ ما عليهِ من الدِّينِ والخروجِ ممَّا عليهِ منَ الحقِّ، لأنَّ أداءَ الواجبِ يَقتَضي غيره، تعالى اللَّهُ عن إفكِهِم وكذبِهِم علوّاً كبيراً .

▫ **الإلزامُ الحادي عَشر** : أنَّهُ يلزمُهُم أن يوجبوا على اللَّهِ عزَّ وجَلَّ أن يُميتَ كلَّ مَن علمَ منَ الأطفالِ أنَّهُ لو بَلَغَ لَكَفَر وعانَدَ، فإنَّ اخترامهُ هو الأصلحُ لهُ بلا ريبٍ، أو أن يَجحَدوا علمهُ سبحانهُ بما سَيَكونُ قبلَ كونهِ كما

التزمهُ سلفهُم الـخَبيثُ الذينَ اتَّفقَ سلَفُ الأُمَّةِ الطَّيِّبِ على تَكفيرهم، ولا خَلاصَ لهم عَن أحَدِ هذينِ الإلزامَينِ إلّا بالتزامِ مَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والـجماعَةِ أنَّ أفعالَ اللَّهِ تَعالى لا تُقاسُ بأفعالِ عبادِهِ، ولا تَدخُل تَحتَ شرائع عقولهم القاصرَةِ بل أفعالُهُ لا تُشبهُ أفعالَ خَلقهِ ولا صفاتُه صفاتِهم ولا ذاتُهُ ذواتِهم : ﴿ ليسَ كَمِثلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾ [الشورى : ٤٢] .

▫ **الإلزامُ الثَّاني عَشر** : أنَّهُ سبحانهُ لا يؤلمُ أحَداً من خَلقهِ أبداً لعَدمِ المَنفعَةِ في ذلكَ بالنِّسبَةِ إليهِ وإلى العَبدِ، ولا ينفعكُم اعتذاركُم بأنَّ الإيلامَ سببُ مُضاعَفَةِ الثَّوابِ ونَيلِ الدَّرجاتِ العُلى، وأنَّ هذا يَنتقضُ بالـحيوانِ البَهيمِ ويَنتقضُ بالأطفالِ الذينَ لا يَستحقُّونَ ثواباً ولا عقاباً، ولا يَنفعكُم اعتذاركُم بأنَّ الطِّفلَ يَنتفعُ بهِ بالآخرَةِ في زيادَةِ ثوابهِ لانتقاصهِ عليكُم بالطِّفلِ الذي علمَ اللَّهُ أنَّهُ يبلغُ وَيَـختارُ الكفرَ والـجُحودَ، فأيُّ مَصلحَةٍ لهُ في إيلامهِ وأيُّ مَعنىً ذكَرتموهُ على أُصولكم الفاسدَةِ فهو منتقضٌ عليكُم بما لا جوابَ لكُم عنهُ .

▫ **الإلزامُ الثَّالث عَشر** : أنَّ مَن علم اللَّهُ سبحانهُ إذا بَلَغَ الأطفالُ يَـختارونَ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالـحَ فإنَّ الأصلَحَ في حقِّهِ أن يُـحييهِ حتى يبلغَ ويؤمنَ، فينالُ بذلكَ الدَّرجَةَ العاليَةَ، وأن لا يَـخترمهُ صَغيراً، وهذا مـمَّا لا جوابَ لكُم عنهُ .

▫ **الإلزامُ الـرَّابع عَشر** : مِن أعظَمِ الإلزاماتِ وأصحِّها إلزاماً وَقَد التزَمهُ القَدريَّةُ وهو أنَّـهُ ليسَ في مَقدورِ اللَّهِ تعالى لطفٌ لو فعلهُ اللَّهُ تَعالى

بالكُفَّارِ لآمَنوا، وقد التزَمَ المُعتزلَةُ القدريَّةُ هذا اللازم وبنوهُ على أصلهم الفاسدِ أنَّهُ يجبُ على اللَّهِ تعالى أن يَفعلَ في حقِّ كلِّ عَبدٍ ما هو الأصلحُ لهُ، فلو كانَ في مَقدورِه فعلٌ يؤمنُ العَبدُ عندهُ لوَجَبَ عليهِ أن يَفعلهُ به .

والقرآنُ من أوَّلِهِ إلى آخرهِ يردُّ هذا القَولَ ويكذِّبهُ، ويُخبرُ تعالى أنَّهُ لو شاءَ لهَدى النَّاسَ جميعاً ولو شاءَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كلِّهم جميعاً، ولو شاءَ لآتى كلَّ نَفسٍ هُداها .

الإلزامُ الخامس عَشر : وهو ممَّا التزمهُ القومُ أيضاً أنَّ لطفَهُ ونعمتَهُ وتَوفيقَهُ بالمُؤمنِ كلطفهِ بالكافرِ وإنَّ نعمتهُ عليهما سواءٌ لم يَختصَّ المؤمنُ بفَضلٍ عن الكافرِ، وكفى بالوَحيِ وَصريحِ المَعقولِ وفطرَةِ اللَّهِ والاعتبارِ الصَّحيحِ وإجماعِ الأُمَّةِ ردَّاً لهذا القولِ وتَكذيباً لهُ .

الإلزامُ السَّادس عَشر : أنَّ ما مِن أصلح إلّا وَفَوقهُ ما هو أصلحُ منهُ، والاقتصارُ على رتبَةٍ واحدَةٍ كالاقتصارِ على الصَّلاحِ، فلا مَعنى لقولكُم يجبُ مراعاةُ الأصلحِ إذ لا نهايَةَ لهُ، فلا يمكنُ في الفعلِ رعايتُهُ .

الإلزامُ السَّابع عَشر : أنَّ الإيجابَ والتَّحريمَ يَقتَضي سؤالَ الموجبِ المُحرّم لمَن أوجَبَ وحرَّمَ هل فَعلَ مُقتَضى ذلكَ أم لا، وهذا مُحالٌ في حقِّ مَن لا يسألُ عمَّا يَفعلُ، وإنَّما يعقلُ في حقِّ المَخلوقينَ وأنَّهُم يُسألونَ .

وبالجُملَةِ فتحتَّمَ بهذه المسألَةُ طريقاً للإستغناءِ عن الصَّوابِ، وسلَّطتُم بها الفلاسفَةَ والصَّابئةَ والبراهمَةَ وكلَّ منكرٍ للنُّبوَّاتِ، فهذه المسألةُ بينَنا وبينهم

فإنَّكُم إذا زَعَمتُم أنَّ في العقلِ حاكماً يحسّنُ ويقبحُ ويوجبُ ويحرِّمُ ويتقاضى الثَّوابَ والعقابَ لم تكُن الحاجَةُ إلى البعثَةِ ضروريَّةً لإمكانِ الاستغناءِ عنها بهذا الحاكم.

ولهذا قالت الفلاسفَةُ - وزادَت عليكُم حجَّةً وتَقريراً: قد اشتملَ الوجودُ على خيرٍ مُطلَقٍ وشرٍّ مُطلَقٍ وخيرٍ وشرٍّ مُمتزجين، والخَيرُ مطلوبٌ في العَقلِ لذاتِهِ والشرُّ المُطلقُ مرفوضٌ في العقلِ لذاتِهِ، والمُمتزجُ مَطلوبٌ من وجهٍ، ومَرفوضٌ من وجهٍ، وهو بحسبِ الغالبِ من جهتِهِ، ولا يشكُّ العاقلُ أنَّ العلمَ بجنسهِ ونوعهِ خيرٌ ومحمودٌ ومَطلوبٌ، والجَهلُ بجنسهِ ونوعهِ شرٌّ في العقلِ فهو مُستقبحٌ عندَ الجُمهورِ، والفطر السَّليمَة داعيَةٌ إلى تَحصيلِ المُستَحسنِ ورَفضِ المُستَقبحِ سواءً حَمَلهُ عليهِ شارعٌ أو لم يَحملهُ.

ثمَّ الأخلاقُ الحَميدَةُ والخصالُ الرَّشيدَةُ منَ العفَّةِ والجودِ والسَّخاءِ والنَّجدَةِ مُستَحسناتٌ فعليَّةٌ، وأضدادُها مُستَقبحاتٌ فعليَّةٌ، وكمالُ حالِ الإنسانِ أن تَستكملَ النَّفسُ قوى العلمِ الحقِّ والعملِ الخيِّرِ، والشرائعُ إنَّما تَرِدُ بتَمهيدِ ما تَقرَّرَ في العَقلِ لا بتَغييرِهِ؛ لكنَّ العقولَ الحرونَةَ لمَّا كانَت قاصرَةً عن اكتسابِ المَعقولاتِ بأسرها، عاجزَةً عن الاهتداءِ إلى المَصلحَةِ الكليَّةِ الشاملَةِ لنوعِ الإنسانِ وجَبَ من حيثُ الحكمَةِ أن يكونَ بينَ النَّاسِ شرعٌ يفرضهُ شارعٌ يَجعلهُم على الإيمانِ بالغَيبِ جملَةً، ويَهديهم إلى مصالحِ معاشِهم ومعادِهم تَفصيلاً، فيكونُ قَد جَمَعَ لهم بينَ حظَّي العلمِ والعَدلِ على مُقتَضى العقلِ، وحَمَلهُم على التَّوجُّهِ إلى الخَيرِ المَحضِ والإعراضِ عن الشرِّ المَحضِ استبقاءً لنوعهم واستدامَةً لنظامِ العالمِ، ثمَّ ذاكَ الشارعُ يجبُ أن

يكونَ مميَّزاً من بينهم بآياتٍ تدلُّ على أنَّها من عندِ ربِّهِ سبحانهُ، راجحاً عليهم بعقلهِ الرَّزينِ، ورأيهِ المَتينِ، وحديثهِ النَّافذِ، وخُلقهِ الحَسَنِ وسمتهِ وهَديهِ يلينُ لهم في القولِ، ويُشاورهُم في الأمرِ، ويكلِّمهُم على قَدرِ عقولهم، ويكلِّفهُم بحسبِ وِسعهِم وطاقتهم .

قالوا : وَقَد أخطَأتِ المُعتزلةُ حينَ رَدُّوا الحَسَنَ والقبيحَ إلى الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ للأفعالِ، وكانَ من حقِّهِم تَقريرُ ذلكَ في العلمِ والجَهلِ إذ الأفعالُ تَختلفُ بالأشخاصِ والأزمانِ وسائرِ الإضافاتِ، وليسَ هي على صفاتٍ نَفسيَّةٍ لازمَةٍ لها بحيثُ لا تُفارقها ألبتَّة .

ثمَّ زادَت **الصَّابئةُ** في ذلكَ على الفلاسفَةِ وقالوا : لمَّا كانَت المَوجوداتُ في العالمِ السُّفليِّ مركَّبَةً على تأثيرِ الكواكبِ والرَّوحانيَّاتِ التي هي مدبِّراتُ الكواكبِ، وكانَ في اتِّصالاتها نَظرٌ سعيدٌ ونَحسٌ واجبٌ أن يكونَ في آثارها حُسنٌ وقُبحٌ في الأخلاقِ .

والخُلقُ والأفعالُ والعقولُ الإنسانيَّةُ مُتساوِيَةٌ في النَّوعِ، فَوَجبَ أن يُدرِكها كلُّ عقلٍ سليمٍ وطبعٍ قَويمٍ، لا تَتوقَّفُ مَعرفَةُ المَعقولاتِ على مَن هو مثلُ ذلكَ العاقلِ في النَّوعِ، فنَحنُ لا نَحتاجُ إلى مَن يعرِّفُنا حُسنَ الأشياءِ وقُبحَها وخَيرَها وشرَّها ونَفعَها وضرَّها، وكما أنَّا نَستَخرجُ بالعقولِ من طبائعِ الأشياءِ ومنافعها ومَضارِّها كذلكَ نَستَنبطُ من أفعالِ نوعِ الإنسانِ حَسَنَها وقَبيحَها، فنلابسَ ما هو أحسنُ منها بحسبِ الاستطاعَةِ، ونَجتنبَ ما هو قَبيحٌ منها بحسبِ الطَّاقَةِ، فأيُّ حاجَةٍ بنا إلى شارعٍ يتحكَّمُ على عقولنا ؟!

وزادَت **التَّناسخيَّةُ** على الصَّابئيَّةِ بأن قالوا : نوعُ الإنسانِ لما كانَ مَوصوفاً بنَوعِ اختيارٍ في أفعالِهِ، مَخصوصاً بنُطقٍ وعَقلٍ فيّ علومِهِ وأحوالِهِ ارتَفَعَ عن الدَّرجَةِ الحيوانيَّةِ ارتفاعَ استِخسارٍ لها، فإن كانَت أعمالُهُ على مناهجِ الدَّرجَةِ الإنسانيَّةِ ارتَفَعَت إلى الملائكَةِ، وإن كانَت على مناهجِ الدَّرجَةِ الحيوانيَّةِ انخفَضَت إليها أو إلى أسفَلَ، وهو أبداً في أحدِ أمرينِ إمَّا فعلٌ يَقتَضني جزاءً أو مُجازاةً على فعلٍ، فما بالُهُ يَحتاجُ في أفعالِهِ وأحوالِهِ إلى شخصٍ مثلِهِ يحسِّنُ أو يقبِّحُ، فلا العقلُ يحسنُ ويقبحُ ولا الشرعُ، ولكنَّ حسنَ أفعالِهِ جزاءٌ على حُسنِ أفعالِ غيرِهِ، وقُبحِ، أفعالِهِ كذلكَ وربَّما يَظهرُ حسنُها وقبحُها صوراً حيوانيَّةً روحانيَّةً، وإنَّما يَصيرُ الحسنُ والقُبحُ في الحيواناتِ أفعلاً إنسانيَّةً، وليسَ بَعدَ هذا العالَمِ عالَمٌ آخَرُ يحكمُ فيهِ ويحاسبُ ويُثابُ ويُعاقبُ .

وزادَت **البراهمَةُ** على التَّناسخيَّةِ بأن قالوا : نَحنُ لا نَحتاجُ إلى شريعَةٍ وشارعٍ أصلاً؛ فإنَّ ما يأمرُ به النَّبيُّ لا يَخلو إمَّا أن يكونَ مَعقولاً أو غيرَ مَعقولٍ، فإن كانَ مَعقولاً فَقَد استُغني بالعَقلِ عن النَّبيِّ، وإن لم يكُن مَعقولاً لم يكُن مَقبولاً .

فهذه الطَّوائفُ كلُّها لما جعَلَت في العَقلِ حاكماً بالحُسنِ والقُبحِ أدَّاها إلى هذه الآراءِ الباطلَةِ والنِّحَلِ الكافرَةِ .

وأنتُم يا مَعاشرَ **المُثبتَةِ** يَصعُبُ عليكُم الرَّدُّ عليهم، وقَد وافقتموهم على هذا الأصلِ .

وأمّا نَحنُ فأخَذنا عليهم رأسَ الطَّريقِ، وسَدَدنا عليهم الأبوابَ، فمَن طَرَّقَ لهم الطَّريقَ وفَتَحَ لهم الأبوابَ ثمَّ رامَ مناجزَةَ القومِ فقَد رامَ مُرتقى صَعباً .

فهذه مجامعُ **جيوشِ النُّفاة** قَد وافتكَ بعَددها وعَديدها، وأقبلَت إليكَ بحدِّها وحَديدها؛ فإن كُنتَ من أبناءِ الطَّعنِ والضَّربِ، فقَد التقى الزَّحفانِ، وتقابَلَ الصفَّان، وإن كنتَ من أصحابِ التَّلولِ فالزَم مقامَكَ، ولا تَدنُ منَ الوَطيسِ، فإنَّهُ قَد حميَ، وإن كنتَ من أهلِ الأسرابِ الذينَ يسألونَ عن الأنباءِ ولا يَثبتونَ عندَ اللقاءِ .

فَدَعِ الحُروبَ لأقوامٍ لها خُلِقوا ... مَالَها مِن سِوى أجسامِهم جُنَنُ
وَلا تَلُمهُم على ما فيكَ من جُبنٍ ... فَبِئسَتِ الخُلَّتانِ اللؤمُ والجُبنُ

قال **المُتوسِّطونَ من أهلِ الإثباتِ** : ما منكُم أيُّها الفريقانِ إلّا مَن معهُ حقٌّ وباطلٌ، ونَحنُ نُساعدُ كلَّ فريقٍ على حقِّهِ ونَصيرُ لهُ، ونُبطلُ ما معهُ منَ الباطلِ ونردُّهُ عليهِ؛ فنَجعل حقَّ الطَّائفتينِ **مَذهباً ثالثاً يَخرجُ من بينِ فَرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربينَ، من غيرِ أن نَنتسبَ إلى ذي مقالَةٍ وطَائفَةٍ معيَّنَةٍ انتساباً يحملنا على قبولِ جَميعِ أحوالها، والانتصارِ لها بكلِّ غثٍّ وسمينٍ، وردِّ جميعِ أقوالِ خصومها ومكابريها على ما معها منَ الحقِّ** حتى ولو كانَت تلكَ الأقوالُ مَنسوبَةً إلى رَئيسها وطائفتها لبالغَت في نُصرَتها وتَقريرها، وهذه آفَةٌ ما نَجا منها إلّا من أنعَمَ اللّهُ عليهِ وأهَّلهُ لمتابَعةِ الحقِّ أينَ ما كانَ، وأمَّا مَن يَرى أنَّ الحقَّ وَقفٌ مؤبَّدٌ على طائفَته وأهلِ مَذهبِهِ، وحجرٌ مَحجورٌ على مَن سواهم ممَّن

أقرب إلى الحقِّ والصَّوابِ منهُ، فقد حُرِمَ خَيراً كثيراً وفاتهُ هدىً عظيمٌ .

وهنا نَحنُ نَجلسُ مجلس الحكومَةِ بينَ هاتينِ المقالتين؛ فمَن أدلى بحجَّتهِ في موضعٍ كانَ المَحكومُ لهُ في ذلكَ الموضعِ، وإن كانَ المَحكومُ عليهِ حيثُ يُدلي خصمهُ بحجَّتهِ، واللَّهُ تعالى أرسلَ رسولهُ بالهُدى ودينِ الحقِّ والعَدلِ بينَ الطَّوائفِ المُختلفَةِ .

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لكُم مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بهِ نوحاً والَّذي أَوحَينا إليكَ وَما وَصَّينا بهِ إبراهيمَ وَموسى وَعيسى أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقوا فيهِ كَبُرَ عَلى المُشركينَ ما تَدعوهُم إليهِ اللَّهُ يَجتَبي إليهِ مَن يَشاءُ ويَهدي إليهِ مَن يُنيب وما تَفرَّقوا إلّا مِن بَعدِ ما جاءَهُم العلمُ بَغياً بينهم ولولا كلمةٌ سَبقَت من ربِّكَ إلى أجلٍ مُسمَّى لَقُضيَ بينهُم وإنَّ الَّذينَ أُورثوا الكتابَ من بَعدهم لَفي شكٍّ منهُ مُريبٌ فلذلكَ فادعُ واستَقِم كما أُمرتَ ولا تَتَّبعَ أهواءَهُم وقُل آمَنتُ بما أنزَلَ اللَّهُ من كتابٍ وأُمرتُ لأعدلَ بينكُم ﴾ [الشورى : ١٣] .

فأخبرَ تعالى أنَّهُ شرعَ لنا دينَهُ الذي وَصَّى به نوحاً والنَّبيِّينَ من بَعدهِ، وهو دينٌ واحدٌ، ونهانا عن التَّفريقِ فيهِ .

ثمَّ أخبرَنا أنَّهُ ما تَفرَّقَ مَن قبلنا في الدِّينِ إلّا من بَعدِ العلمِ الموجبِ للإثباتِ وعدمِ التفرُّقِ، وأنَّ الحاملَ على ذلكَ التَّفرُّقِ البَغيُ من بَعضهم على بَعضٍ، وإرادَةَ كلِّ طائفَةٍ أن يكونَ العلوُّ والظُّهورُ لها ولقَولِها دونَ غيرها، وإذا تأمَّلتَ تفرُّقَ أهلِ البدعِ والضَّلالِ رأيتهُ صادراً عن هذا بعينهِ .

ثمَّ أمَرَ سبحانهُ نبيَّهُ أن يَدعو إلى دينهِ الذي شرعهُ لأنبيائهِ، وأن يَستقيمَ كما أمَرَهُ ربُّهُ، وحذَّرهُ من اتِّباعِ أهواءِ المتفرِّقينَ، وأمَرَهُ أن يؤمنَ بكلِّ ما أنزلهُ

اللَّهُ من الكُتبِ، وهذه حالُ المُحقِّ أن يؤمنَ بكلِّ ما جمعهُ منَ الحقِّ على لسانِ أيِّ طائفَةٍ كانَت .

ثمَّ أمرهُ أن يخبرَهم بأنَّهُ أُمِرَ بالعَدلِ بينهم، وهذا يعمُّ العَدلَ في الأقوالِ والأفعالِ والآراءِ والمُحاكماتِ كلِّها فنصبهُ ربُّهُ ومرسلُهُ للعَدلِ بينَ الأُمَمِ، فهكذا وارثهُ ينتصبُ للعَدلِ بينَ المقالاتِ والآراءِ والمذاهبِ ونسبتهُ منها إلى القَدرِ المُشتركِ بينهما منَ الحقِّ، فهو أولى به وبتَقريرهِ وبالحُكمِ لمَن خاصَمَ بهِ .

ثمَّ أمرَهُ أن يُخبرهم بأنَّ الرَّبَّ المَعبودَ واحدٌ، فما الحاملُ للتفرُّقِ والاختلافِ وهو ربُّنا وربُّكُم والدِّينُ واحدٌ ولكلِّ عاملٍ عملُهُ لا يَعدوهُ إلى غَيرهِ .

ثمَّ قالَ لا حجَّةَ بينَنا وبينكُم، والحجَّةُ هـهُنا هي الخصومَةُ، أي : لا خصومَةٍ ولا وجهَ لخصومَةٍ بيننا وبينكُم بَعدَ ما ظَهَرَ الحقُّ وأسفَرَ صُبحُهُ وبانَت أعلامُهُ وانكشفَت الغمَّةُ، وليس المُرادُ نَفيَ الاحتجاجِ منَ الطَّرفينِ كما يظنُّهُ بَعضُ مَن لا يَدري ما يقولُ، وأنَّ الدِّينَ لا احتجاجَ فيهِ، كيفَ والقرآنُ من أوَّلهِ إلى آخرهِ حُجَجٌ وبراهينُ على أهلِ الباطلِ قَطعيَّةٌ يَقينيَّةٌ وأجوبةٌ لمعارضتهم، وإفسادٌ لأقوالهم بأنواعِ الحُجَجِ والبراهين، وإخبارٌ عن أنبيائهِ ورسلهِ بإقامَةِ الحُجَجِ والبراهينِ، وأمرٌ لرسلوهِ بمجادلَةِ المُخالفينَ بالتي هي أحسنُ وهَل تكونُ المُجادلَةُ إلّا بالاحتجاجِ وإفسادِ حجَجِ الخَصمِ ؟

وكذلكَ أمَرَ المُسلمينَ بمُجادلَةِ أهلِ الكتابِ بالتي هي أحسنُ، وقَد ناظَرَ النَّبيُّ ﷺ جميعَ طوائفِ الكُفرِ أتمَّ مُناظرَةٍ، وأقامَ عليهم ما أفحمهُم بهِ من

الـحُجَجِ حتى عدلَ بعضهُم إلى مـحاربتهِ بَعدَ أن عجزَ عن رَدِّ قولهِ وكَسرِ حجَّتهِ، واختارَ بَعضُهم مسالـمَتهُ ومتاركَتهُ وبَعضُهم بَذلَ الـجزيَةَ عن يَدٍ وهو صاغرٌ كلُّ ذلكَ بَعدَ إقامَةِ الـحُجَجِ عليهم، وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجابَ لهُ من استجابَ إلّا بَعدَ أن وَضحَت لهُ الـحُجَّةُ ولم يَجد إلى ردِّها سبيلاً، وما خالفهُ أعداؤهُ إلّا عناداً منهم وميلاً إلى المُكابرَةِ بَعدَ اعترافهم بصحَّةِ حججهِ وأنَّـها لا تُدفَعُ، فما قامَ الدِّينُ إلّا على ساقِ الـحجَّةِ .

فقولهُ لا حجَّةَ بيننا وبينكُم أي لا خُصومَةَ؛ فإنَّ الرَّبَّ واحدٌ فلا وَجهَ للخصومَةِ، ودينهُ واحدٌ، وَقَد قامَت الـحجَّةُ وتَـحقَّقَ البُرهانُ، فَلَم يَبقَ للاحتجاجِ والـمُخاصمَةِ فائدةٌ، فإنَّ فائدَةَ الاحتجاجِ ظهورُ الـحقِّ ليُتَّبعَ، فإذا ظَهَرَ وعاندهُ الـمُخالفُ وتَركهُ جحوداً وعناداً لم يَبقَ للاحتجاجِ فائدَةٌ، فلا حجَّةَ بيننا وبينكُم أيُّها الكفَّارُ، فَقَد وَضحَ الـحقُّ واستبانَ، ولم يَبقَ إلّا الإقرارُ بهِ أو العنادُ، واللَّهُ يَـجمعُ بيننا يومَ القيامَةِ فَيَقضي للـمُحقِّ على المُبطلِ وإليهِ المَصيرُ .

قالوا : وها نَـحنُ نَتَحرَّى القسطَ بينَ الفريقينِ لقولهُ ﷺ : « الـمُقسطونَ عندَ اللَّهِ يومَ القيامَةِ على منابرٍ من نورٍ عن يَمينِ الرَّحمنِ الذينَ يَعدلونَ في حُكمهم وأهليهم وما وُلُّوا » .(١)

ويَكفي في هذا قولهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا كونوا قوَّامينَ للَّهِ شهداءَ بالقِسطِ ولا يَـجرمنَّكُم شنآنُ قومٍ على أن لا تَعدلوا اعدِلوا هُوَ أقرَبُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبداللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنهما .

للتَّقوى واتَّقوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خبيرٌ بيما تَعملونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

قالوا : قَد أصابَ أهلُ الإثباتِ منَ المُعتزلَةِ في قولهم إنَّ الحُسنَ والقُبحَ صفاتٌ ثبوتيَّةٌ للأفعالِ مَعلومَةٌ بالعَقلِ والشرعِ، وأنَّ الشرعَ جاءَ بتَقريرِ ما هو مُستقرٌّ في الفِطَرِ والعقولِ من تَحسينِ الحسنِ والأمرِ بهِ، وتَقبيحِ القَبيحِ والنَّهيِ عنهُ، وأنَّهُ لم يجيء بما يخالفُ العَقلَ والفطرَةَ وإن جاءَ بما يعجزُ العقولُ عن أحوالهِ والاستقلال بهِ، فالشرائعُ جاءَت بمجازاتِ العقولِ لا محالاتِها وفَرقٌ بينَ ما تدركُ العقولُ حسنَهُ وبينَ ما تَشهدُ بقبحهِ، فالأوَّلُ ممَّا يأتي بهِ الرُّسلُ دونَ الثَّاني .

وأخطؤوا في تَرتيبِ العقابِ على هذا القبيحِ عَقلاً كما تَقدَّمَ .

وأصابوا في إثباتِ الحكمَةِ للَّهِ تعالى وأنَّهُ سبحانهُ لا يفعلُ فعلاً خالياً عن الحكمَةِ بل كلُّ أفعالهِ مَقصودَةٌ لعواقبها الحميدَةِ وغاياتها المَحبوبَةِ لهُ .

وأخطؤا في موضعينِ :

○ **أحدهما** : أنَّهُم أعادوا تلكَ الحكمَةَ إلى المَخلوقِ، ولم يُعيدوها إلى الخالقِ سبحانهُ على فاسدِ أُصولهم في نَفي قيامِ الصِّفاتِ بهِ؛ فنَفَوا الحكمَةَ من حييث أثبتوها، وجحَدوها من حيثُ أقرُّوا بها .

○ **الثَّاني** : أنَّهُم وَضعوا لتلكَ الحكمَةِ شريعَةً بعقولهم، وأوجبَوا على الرَّبِّ تعالى بها وحرَّموهُ وشبَّهوهُ بخلقهِ في أفعالهِ بحيثُ ما حسُنَ منهم حسنَ منهُ، وما قبُحَ منهم قبحَ منهُ، فلزمتهم بذلكَ اللوازمُ الشنيعَةُ، وضاقَ عليهم المجالُ، وعجزوا عن التَّخلُّصِ عن تلكَ الالتزاماتِ، ولو أنَّهُم أثبَتوا لهُ حكمَةً

تَليقُ به لا يشبهُ خَلقَهُ فيها بل نسبتُها إليهِ كنسبَةِ صفاتهِ إلى ذاتهِ، فكما أنَّهُ لا يشبهُ خَلقَهُ في صفاتهِ فكذلكَ في أفعالهِ، ولا يصحُّ الاستدلالُ بقبحِ القُبحِ وحُسنِ الحُسنِ منهم على ثبوتِ ذلكَ في حقِّهِ تعالى .

ومن هـهُنا استطالَ عليهم النُّفاةُ، وصاحوا عليهم من كلِّ قُطرٍ، وأقاموا عليهم ثائرةَ الشناعَةِ .

وأصابوا أيضاً في قولهم بأنَّ الربَّ تعالى لا يمتنعُ في نَفسهِ الوُجوبَ والتَّحريمَ .

وأخطأوا في جَعلِ ذلكَ تابعاً لـمُقتَضى عقولهم وآرائهم بل يجبُ عليهِ ما أوجبهُ على نَفسهِ، ويحرمُ عليهِ ما حرَّمهُ هو على نَفسهِ، فهو الذي كتبَ على نَفسهِ الرَّحمَةَ، وأحقَّ على نَفسهِ نَصرَ الـمُؤمنين وأحقَّ على نَفسهِ ثوابَ الـمُطيعينَ وحرَّمَ على نَفسهِ الظُّلمَ كما جعلهُ محرَّماً بينَ عبادهِ .

وأصابوا في قولهم إنَّهُ سبحانهُ لا يحبُّ الشرَّ والكُفرَ وأنواعَ الفسادِ بل يَكرهُها، وأنَّهُ يحبُّ الإيمانَ والخَيرَ والبرَّ والطَّاعَةَ .

ولكن أخطأوا في تَفسيرِ هذه الـمحبَّةِ والكراهَةِ بمجرَّدِ معانٍ مَفهومَةٍ من ألفاظٍ خَلَقَها في الهواءِ أو في الشجرةِ، ولم يَجعلوها معاني ما يَهدي بهِ تعالى على فاسدِ أُصولهم في التَّعطيلِ ونَفيِ الصِّفاتِ، فنَفوا المحبَّةَ والكراهَةَ من حيثُ أثبتوها، وأعادوها إلى مجرَّدِ الشرعِ، ولم يُثبتوا لهُ حَقيقَةً قائمَةً بذاتهِ، فإنَّ شرعَ اللّهِ هو أمرُهُ ونَهيُهُ ولم يقُم به عندهم أمرٌ ولا نَهيٌ، فحقيقَةُ قولهم : أنَّهُ لا شرعٌ ولا محبَّةٌ ولا كراهَةٌ، وأن زَخرفوا القولَ وتحيَّلوا لإثباتِ ما سدُّوا على نفوسهم طريقَ إثباتهِ .

وأصابوا أيضاً في قولهم : أنَّ مَصلحَةَ المأمورِ تنشأُ من الفعلِ تارَةً، ومنَ الأمرِ تارَةً أُخرى، فرُبَّ فعلٍ لم يكُن مُنشأ لمصلحَةِ المُكلَّفِ، فلما أمَرَ بِهِ صارَ مُنشأً لمصلحتهِ بالأمرِ، ولو توَسَّطوا هذا التَّوسُّطَ وسلكوا هذا المسلكَ، وقالوا : إنَّ المَصلحَةَ تنشأُ منَ الفعلِ المأمور بهِ تارَةً ومنَ الأمرِ تارَةً، ومنهما تارَةً، ومنَ العَزمِ المُجرَّدِ تارَةً، لانتَصفوا من خصومهم .

● فمثالُ الأوَّلِ : الصِّدقُ والعفَّةُ والإحسانُ والعَدلُ، فإنَّ مصالحَها ناشئةٌ منها .

● ومثالُ الثَّاني : التَّجرُّدُ في الإحرامِ، والتَّطهُّرُ بالتُّرابِ، والسَّعيُ بينَ الصَّفا والمَروَةَ، ورميُ الجمارِ، ونَحوِ ذلكَ، فإنَّ هذه الأفعالَ لو تَجرَّدَت عن الأمرِ لم تكُن منشأً لمصلحةٍ، فلما أُمرَ بها نشأت مَصلحتها من نَفسِ الأمرِ .

● ومثالُ الثَّالث : الصَّومُ، والصَّلاةُ، والحجُّ، وإقامَةُ الحدودِ، وأكثرُ الأحكامِ الشرعيَّة، فإنَّ مَصلحتها ناشئةٌ منَ الفعلِ والأمرِ معاً، فالفعلُ يتضمَّنُ مصلحَةً، والأمرُ بها يتضمَّنُ مَصلَحَةً أُخرى، فالمَصلحَةُ فيها من وجهين .

● ومثالُ الرَّابع : أمرُ اللَّهِ تعالى خَليلهُ إبراهيمَ بذَبحِ ولدِهِ، فإنَّ المَصلحَةَ إنَّما نشأت من عزمهِ على المأمورِ بهِ لا من نَفسِ الفعلِ، وكذلكَ أمرهُ نبيَّهُ ﷺ ليلَةَ الإسراءِ بخمسينَ صلاةً .(١)

فلما حصرتُم المَصلحَةَ في الفعلِ وحدهُ تَسَلَّطَ عليكُم خصومُكُم بأنواعِ

---

(١) مضى تخريجه (ص ٥١٤) .

المُناقضاتِ والإلزاماتِ .

قالوا : وقَد أصابَ **النُّفاةُ** حيثُ قالوا : إنَّ الحجَّةَ إنَّما تقومُ على العبادِ بالرِّسالَةِ، وإنَّ اللَّهَ لا يعذِّبهُم قبلَ البعثَةِ، ولكنَّهُم نَقَضوا الأصلَ ولم يَطردوهُ حيثُ جوَّزوا تَعذيبَ مَن لم تقُم عليهِ الحُجَّةُ أصلاً منَ الأطفالِ، والمجانينِ، ومَن لم تبلغهُ الدَّعوَةُ .

وأخطَؤوا في تَسويتهم بينَ الأفعالِ التي خالَفَ اللَّهُ بينها فجعَلَ بَعضَها حَسَناً وبَعضَها قَبيحاً وركَّبَ في العقولِ والفِطَرِ التَّفرقَةَ بينهما، كما ركَّبَ في الحواسِّ التَّفرقَةَ بينَ الحلو والحامضِ، والمُرِّ والعَذبِ، والسُّخنِ والباردِ، والضَّارِّ والنَّافعِ، فَزَعَمَ النُّفاةُ أنَّهُ لا فَرقَ في نَفسِ الأمرِ أصلاً بينَ فعلٍ وفعلٍ في الحُسنِ والقُبحِ، وإنَّما يعودُ الفَرقُ إلى عادَةٍ مجرَّدَةٍ، أو وَهمٍ، أو خَيالٍ، أو مجرَّدَ الأمرِ والنَّهيِ، وسَلَبوا الأفعالَ حتى خواصَّها التي جَعَلها اللَّهُ عليها منَ الحُسنِ والقُبحِ، فخالفوا الفطَرَ والعقولَ وسلَّطوا عليهم خصومهم بأنواعِ الإلزاماتِ والمناقضات الشنيعة جداً، ولم يجدوا إلى ردها سبيلاً إلّا بالعناد، وجحدوا الضرورة .

وأصابوا في نَفيهم الإيجابَ والتَّحريمَ على اللَّهِ الذي أثبتتهُ القَدريَّةُ منَ المُعتزلَةِ وَوَضعوا على اللَّهِ شريعَةً بعقولهم إلى ما لا قِبَلَ لهم بهِ منَ اللوازِمِ الباطلَةِ .

وأخطأوا في نَفيِهم عنهُ إيجابَ ما أوجبهُ على نَفسهِ، وتَحريمِ ما حرَّمهُ على نَفسهِ بمُقتَضى حكمتهِ وعَدلهِ وعزَّتهِ وعلمهِ وأخطؤوا أيضاً في نَفيهم حكمتهُ تعالى في خَلقهِ وأمرهِ، وأنَّهُ لا يفعلُ شيئاً لشيءٍ، ولا يأمرُ بشيءٍ

لشيءٍ، وفي إنكارهم الأسبابَ والقُوى التي أودَعها اللّهُ في الأعيانِ والأعمالِ، وجعَلهم كلَّ لامِ دَخَلَت في القرآنِ لتَعليلِ أفعالهِ وأوامرهِ لامَ عاقبَةٍ، وكلَّ باءٍ دَخَلَت لِرَبطِ السَّببِ بسببهِ باءَ مُصاحَبَةٍ، فنَفوا الحكمَ والغاياتَ المَطلوبَةَ في أوامرهِ وأفعالهِ، ورَدُّوها إلى العلمِ والقُدرَةِ، فَجَعلوا مُطابَقَةَ المَعلومِ للعلمِ ووقوعِ المَقدورِ على وفقِ القُدرَةِ هو الحكمَةَ، ومعلومٌ أنَّ وقوعَ المَقدورِ بالقُدرَةِ ومُطابَقَةَ المَعلومِ للعلمِ عَينُ الحكمَةِ، والغاياتُ المَطلوبَةُ منَ الفعلِ وتعلُّق القدرَةِ بمقدورها والعلمُ بمعلومهِ أعمُّ من كونِ المَعلومِ والمَقدورِ مُشتملاً على حكمَةٍ ومَصلحَةٍ أو مجرَّداً عن ذلكَ، والأعمُّ لا يَشعرُ بالأخصِّ ولا يَستلزمهُ، وهل هذا في الحقيقَةِ إلّا نَفيٌ للحكمَةِ وإثباتٌ لأمرٍ آخرَ.

وأخطؤوا في تَسويتهم بينَ المحبَّةِ والمَشيئةِ، وأنَّ كلَّ ما شاءَهُ اللّهُ منَ الأفعالِ والأعيانِ فَقَد أحبَّهُ ورضيَهُ، وما لم يشأهُ فَقَد كرهَهُ وأبغضهُ، فمحبَّتهُ مشيئتهُ وإرادتهُ العامّهُ، وكراهتهُ وبُغضهُ عدمُ مَشيئتهِ وإرادتهِ، فلزمهم من ذلكَ أن يكونَ إبليسُ مَحبوباً لهُ وفرعونُ وهامانُ وجميعُ الشياطين والكفَّارُ، بل أن يكونَ الكُفرُ والفُسوقُ والظُّلمُ والعُدوانُ الواقعَةُ في العالَمِ مَحبوبَةَ لهُ مَرضيَّةً وأن يكونَ الإيمانُ والهُدى ووفاءُ العَهدِ والبرِّ التي لم توجَد منَ النَّاسِ مَكروهَةً مَسخوطَةً لهُ مَكروهَةً مَمقوتَةً عندهُ، فسوَّوا بينَ الأفعالِ التي فاوَتَ اللّهُ بينها، وسوَّوا بينَ المشيئةِ المتعلِّقَةِ بتَكوينها وإيجادها والمحبَّةُ والمتعلِّقَةُ بالرِّضى بها، وهذا ممَّا استطالَ به عليهم خصومُهم كما استَطالوا هم عليهم حيثُ أخرجوها عن مَشيئةِ اللّهِ وإرادتهِ العامَّةِ، ونَفوا تعلُّقَ قدرتهِ وخَلقهِ بها، فاستطالَ كلٌّ منَ الفريقينِ على الآخرِ بسببِ ما معهم منَ الباطلِ، وهدى اللّهُ **أهلَ**

السُّـنَّـةِ الذينَ هم وسطٌ في المقالاتِ والنِّحَلِ لما اختَلَفَ الفريقانِ فيهِ منَ الـحقِّ بإذنهِ واللَّهُ يَهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ .

فالقدريَّةُ حَجَروا على اللَّهِ، وألزموهُ شريعَةً حرَّموا عليهِ الـخروجَ عنها .

وخصومهم منَ الـجَبريَّةِ جوَّزوا عليهِ كلَّ فعلٍ ممكنٍ يتنزَّهُ عنهُ سبحانهُ، إذ لا يَليقُ بغناه وحَمدهِ وكمالهِ ما نزَّهَ نَفسهُ عنهُ، وحمَدَ نَفسهُ بأنَّـهُ لا يَفعلهُ، فالطَّائفتانِ مُتقابلتانِ غايَةَ التَّقابُلِ .

والقَدريَّةُ أثبَتوا لهُ حكمَةً وغايةً مَطلوبَةً من أفعالهِ على حَسَبِ ما أثبتوهُ لـخَلقهِ، والـجبريَّةُ نَفوا حكمتهُ اللائقَةَ بهِ التي لا يُشابهُهُ فيها أحدٌ .

والقدريَّةُ قالت : إنَّهُ لا يريدُ من عبادهِ طاعتَـهُم وإيـمانَهم، وأنَّـهُ لا يسألُ ذلكَ منهم .

والـجبريَّةُ قالت : أنَّـهُ يـحبُّ الكُفرَ والفُسوقَ والعصيانَ ويَرضاهُ مِن فاعلهِ .

والقدريَّةُ قالت : أنَّـهُ يـجبُ عليهِ سبحانهُ أن يَفعلَ لكلِّ شخصٍ ما هو الأصلحُ لهُ .

والـجبريَّةُ قالت : إنَّهُ يـجوزُ أن يعذِّبَ أولياءَهُ وأهلَ طاعتهِ، ومَن لم يُطعهُ قط، ويَنعمَ أعداءهُ ومَن كَفَرَ بهِ وأشرَكَ، ولا فَرقَ عندَهُ بينَ هذا وهذا .

فليَعجَبِ العاقلُ من هذا التَّقابلِ والتَّباعدِ الذي يَزعُمُ كلُّ فريقٍ أنَّ قولهم هو مَحضُ العَقلِ وما خالفهُ باطلٌ بصَريحِ العَقلِ .

وكذلكَ القدريَّةُ قالت : إنَّهُ ألقى إلى عبادهِ زمامَ الاختيارِ، وفوَّضَ إليهم المَشيئةَ والإرادَةَ، وأنَّـهُ لم يَخُصَّ أحداً منهم دونَ أحدٍ بتَوفيقٍ، ولا لُطفٍ، ولا

هدايَةٍ بل ساوى بينَهم في مَقدورِهِ، ولو قدرَ أن يَهدي أحداً ولم يَهدِهِ كانَ بُخلاً، وأنَّهُ لا يَهدي أحداً ولا يضلُّهُ إلّا بمَعنى البيانِ والإرشادِ، وأمَّا خَلقُ الهُدى والضَّلال فهو إليهم ليسَ إليهِ.

وقالت الجبريَّةُ : أنَّهُ سبحانهُ أجبَرَ عبادهُ على أفعالهم، بل قالوا إنَّ أفعالهم هي نَفسُ أفعالهِ ولا فعلَ لهم في الحقيقَةِ ولا قدرَةَ، ولا اختيارَ، ولا مَشيئةَ، وإنَّما يُعذِّبهُم على ما فَعلهُ هو لا عَلى ما فعلوه، ونسبَةُ أفعالهم إليهِ كحركاتِ الأشجارِ والمياهِ والجماداتِ .

فالقدريَّةُ سلَبوهُ قدرتهُ على أفعالِ العبادِ ومَشيئتهِ لها، والجبريَّةُ جَعَلوا أفعالَ العبادِ نَفسَ أفعالهِ، وأنَّهُم ليسوا فاعلينَ لها في الحَقيقَةِ ولا قادرينَ عليها .

فالقدريَّةُ سَلَبتهُ كمالَ مُلكهِ، والجبريَّةُ سَلَبتهُ كمالَ حكمتهِ، والطَّائفتانِ سَلَبتهُ كمالَ حمدهِ .

وأهلُ **السُّنَّةِ الوَسَطِ** أثبتوا كمالَ الملكِ والحمدِ والحكمَةِ، فَوصفوهُ بالقدرَةِ التَّامَّةِ على كلِّ شيءٍ منَ الأعيانِ وأفعالِ العبادِ وغيرهم، وأثبتوا لهُ الحكمَةَ التَّامَّةَ في جميعِ خَلقهِ وأمرهِ، وأثبتوا لهُ الحَمدَ كلَّهُ في جميعِ ما خَلَقَهُ وأمَرَ بهِ، ونَزَّهوهُ عن دخولهِ تَحتَ شريعَةٍ يَضعُها العبادُ بآرائهم، كما نزَّهوهُ عمَّا نَزَّهَ نَفسهُ عنهُ مما لا يليقُ به، فاستَولوا على محاسنِ المذاهبِ، وتَجنَّبوا أردأها، ففازوا بالقَدحِ المعلَّى، وغيرهم طافَ على أبوابِ المذاهبِ، ففازَ بأخسِّ المطالبِ، والهُدى هُدى اللَّه يَختصُّ بهِ مَن يشاءُ من عبادهِ .

وجوه الكلام على كلمات النُّفاة

إذا عَرَفتَ هذه المُقدِّمَةَ؛ فالكلامُ على كلماتِ النُّفاةِ من وجوهٍ :

أحدها : قولكُم : لو قَدَّرَ الإنسان نَفسهُ وَقَد خُلقَ تامّ الـخِلقَةِ تامّ العَقلِ دفعَةً من غيرِ تأدُّبٍ بتأديبِ الأبوينِ، ولا تعلُّم من معلِّمٍ، ثمَّ عُرِضَ عليهِ أمران :

▫ **أحدهما** : أنَّ الواحدَ أكثرُ من الاثنينِ، والآخَرُ : أنَّ الكذبَ قبيحٌ لم يتوقَّف في الأوَّلِ، ويتوقَّف في الثَّاني .

فهذا تَقديرٌ مُستحيلٌ، ركَّبتُم عليهِ أمراً غيرَ مَعلومِ الصحَّةِ، فإنَّ تَقديرَ الإنسانِ كذلكَ مُحالٌ .

▫ **الثَّاني** : سلَّمنا إمكانَ التَّقديرِ لكن لمَ قُلتُم بأنَّـهُ لا يتوقَّفُ في كونِ الواحد نصفَ الإثنين، ويتوقَّفُ في كونِ الكذب قَبيحاً بَعدَ تصوُّرِ حقيقتهِ، فلا نسلِّمُ أنَّـهُ إذا تَصوَّرَ ماهيَّةَ الكذبِ توقَّفَ في الـجزمِ بقُبحهِ، وهَل هذا إلّا دَعوَة مـجرَّدَة ؟

▫ **الثَّالث** : سلَّمنا أنَّـهُ قَد يتوقَّفُ في الـحُكمِ بقُبحهِ، ولكن لا يلزمُ من ذلكَ أن لا يكونَ قَبيحاً لذاتهِ، وقُبحُهُ معلومٌ للعَقلِ، وتَوقُّفُ الذِّهنِ في الـحُكمِ

العقليِّ لا يُخرجهُ عن كونهِ عَقليّاً، ولا يجبُ التَّساوي في العقليّاتِ إذ بَعضُها أجلى من بَعض .

فإن قلتم : فهذا التَّوقُّفُ يَنفي أن يكونَ الحُكمُ بقُبحهِ ضروريًّاً، وهو يبطلُ قولكم .

قُلنا : هذا إنَّما لزِمَ منَ التَّقديرِ المُستَحيلِ في الواقعِ والمُحالُ قَد يلزمهُ محالٌ آخَرُ، سلَّمنا أنَّهُ يَنفي كونَ الحكمِ بقُبحهِ ضروريًّاً ابتداءً، فلم قُلتُم : إنَّهُ لا يكونُ ضروريًّاً بَعدَ التأمُّلِ والنَّظر ؟

والضَّروريُّ أعمُّ من كونهِ ضروريًّاً ابتداءً بلا واسطَةٍ أو ضَروريًّاً بوسطٍ، ونفيُ الأخصِّ لا يستلزمُ نَفيَ الأعمِّ، ومن ادَّعى سَلْبَ الوسائطِ عن الضَّروريَّاتِ فَقَد كابَرَ ،أو اصطَلَحَ مع نفسهِ على تَسميةِ الضَّروريَّاتِ بما لا يتوقَّفُ على وَسطٍ .

▫ **الرَّابع** : أن تَتصوَّرَ ماهيَّةَ الكذبِ يَقتَضي جَزمَ العقلِ بقُبحهِ، ونسبةُ الكذبِ إلى العَقلِ كنسبةِ المُتنافراتِ الحسيَّةِ إلى الحسِّ، فكما أنَّ إدراكَ الحواسِّ المُتنافراتِ يَقتَضي نَفرتَها عنها، فكذلكَ إدراكُ العَقلِ لحقيقةِ الكذبِ، ولا فَرقٌ بينهما إلّا فرق ما بينَ إدراكَ الحسِّ وإدراكِ العَقلِ، فإن جازَ القَدحُ في مُدركاتِ العقولِ وحكمها فيها بالحسنِ والقُبحِ جازَ القَدحُ في مُدركاتِ الحواسِّ .

▫ **الخامس** : أنَّكُم فتَحتُم بابَ السَّفسَطَةِ، فإنَّ القَدحَ في مَعلوماتِ العقولِ وموجباتها كالقَدحِ في مُدركاتِ الحواسِّ وموجباتها، فمَن لَجأ إلى المُكابرَةِ في المَعقولاتِ فَقَد فَتَحَ بابَ المُكابَرَةِ في المَحسوسِاتِ، ولهذا كانَت

السَّفسَطَةُ تَعرضُ أحياناً في هذا وهذا، وليسَت مَذهباً لأمَّةٍ من النَّاسِ يَعيشونَ عليهِ كما يظنُّهُ بَعضُ أهلِ المقالاتِ، ولا يُمكنُ أن تَعيش أمَّةٌ ولا أحدٌ على ذلكَ، ولا تتمُّ لهُ مَصلحَةٌ، وإنَّما هي حالٌ عارضَةٌ لكثيرٍ منَ النَّاسِ، وهي تَكثرُ وتقلُّ وما من صاحبِ مَذهَبٍ باطلٍ إلّا وهو مرتكبٌ للسَّفسطَةِ شاءَ أم أبى .

◘ **السَّادس** : قولكم مَن حكمَ بأنَّ هذينِ الأمرينِ سيَّانَ بالنِّسبةِ إلى عَقلهِ خَرَجَ عن قضايا العقولِ .

جوابُه : أنَّكُم إن أردتُم بالتَّسويَةِ كونَهما مَعقولانِ في الـجُملَةِ، فمن أينَ يـخرجُ عن قضايا العقولِ مَن حكمَ بذلكَ ؟ وهل الـخارجُ في الـحقيقَةِ عنها إلّا مَن منعَ هذا الـحُكمَ ؟

فإن أردتُم بالتَّسوِيَةِ الاستواءَ في الإدراكِ، وأنَّ كليهما علن رتبَةٍ واحدَةٍ منَ الضَّرورة، فلا يلزمُ من عدمِ هذا الاستواءِ أن لا يكونُ العلمُ بقُبحِ الكذبِ عَقليّاً .

◘ **السَّابع** : قولكُم : لو تَقرَّرَ عندَ المثبتِ أنَّ اللَّهَ تعالى لا يتضرَّرُ بكذبٍ ولا ينتفعُ بصدقٍ، كانَ الأمرانِ في حكمِ التكليف على وتيرةٍ واحدةٍ كلام لا يرتضيه عاقل فإنَّه من المتقرر أنَّ اللَّه تعالى لا يتضرَّرُ بكذبٍ ولا ينتفعُ بصدقٍ، وإنَّما يعودُ نَفعُ الصِّدقِ وضررُ الكذبِ على الـمُكلَّفِ، ولكن ليتَ شعري من أينَ يلزمُ أن يكونَ هذانِ الضدَّانِ بالنِّسبةِ إلى التَّكليفِ على وتيرَةٍ واحدَةٍ ؟ وهل هذا إلّا مُجرَّدُ تَـحكُم ودَعوى باطلَةٌ ؟

◘ **الثَّامن** : أنَّهُ لا يلزمُ من كونِ الـحكيمِ لا يتضرَّرُ بالقُبحِ ولا ينتفعُ

بالـحُسنِ أن لا يـحبَّ هذا ولا يبغضَ هذا، بل تكونُ نسبتهما إليهِ نسبةً واحدَةً، بل الأمرُ بالعَكس، وهو أنَّ حكمتهُ تَقتَضي بغضَهُ للقبيحِ وإن لم يتضرَّر به ومحبَّتهُ للـحُسنِ وإن لم ينتفع بهِ، وحينئذٍ ينقلبُ هذا الكلامُ عليكم، ونكونُ أسعَدَ بهِ منكُم، فنقولُ : لو تَقرَّرَ عندَ النَّافي أنَّ اللَّهَ تعالى حكيمٌ عليمٌ يضعُ الأشياءَ مواضعها وينزلها؛ منازلها لعلمِ أنَّ الأمرينِ أعني الصِّدقَ والكذبَ بالنِّسبَةِ إلى شرعِهِ وتَكليفهِ مُتبايِنانِ غايَةَ التَّبايُنِ مُتضادَّان، وأنَّهُ يَستحيلُ في حكمتهِ التَّسويَةُ بينهما، وأن يكونا على وتيرَةٍ واحدَةٍ، ومَعلومٌ أنَّ هذا هو الـمَعقولُ، وما ذكرتموهُ خارجٌ عن المعقولِ .

□ **التَّاسع** : قولكُم إنَّ الصِّدقَ والكذبَ على حقيقَةٍ ذاتيَّةٍ، وإنَّ الـحُسنَ والقُبحَ غيرُ داخلينَ في صفاتهما الذَّاتيَّةُ، ولا يلزمهما في الوَهمِ بالبَديهَةِ ولا في الوجودِ ضَرورَةٌ .

جوابهُ : أنَّكُم إن أرَدتُم أنَّ الـحسنَ والقُبحَ لا يدخُلُ في مُسمَّى الصِّدقِ والكذبِ فمسلَّمٌ، ولكن لا يُفيدكُم شيئاً، فإنَّ غايَتهُ إنَّـما يدلُّ على تغايُرِ الـمَفهومين، فكانَ ماذا ؟

وإن أرَدتُم أنَّ ذاتَ الصِّدقِ والكذبِ لا تَقتَضي الـحُسنَ والقُبحَ ولا تَستلزمُهما، فهل هذا إلّا مُجرَّدُ الـمَذهبِ ونَفسُ الدَّعوى وهي مُصادَرَةٌ على الـمَطلوبِ ؟ وخصومُكُم يقولونَ : إنَّ مَعنى كونهما ذاتيَّينِ للصِّدقِ والكذبِ أنَّ ذاتَ الصِّدقِ والكذبِ تَقتَضي الـحُسنَ والقُبحَ، وليسَ مُرادُهم أنَّ الـحُسنَ والقُبحَ صفَةٌ داخلَةٌ في مُسمَّى الصِّدقِ والكذبِ، وأنتُم لَم تُبطلوا عليهم هذا .

□ **العاشر** : قولكُم : ولا يلزمُهما في الوَهمِ بالبَديهَةِ ولا في الوُجودِ

دَعوى مـجرَّدَةٌ، كيفَ وقَد عُلمَ بُطلانُها بالبُرهانِ والضَّرورَةِ ؟

▫ **الـحادي عَشر** : قولكُم : إنَّ منَ الأخبارِ التي هي صادقَةٌ ما يُلامُ عليهِ مثلُ الدَّلالَةِ على مَن هَرَبَ من ظالمٍ، ومن الأخبارِ التي هي كاذبَةٌ ما يُثابُ عليها مثلُ إنكارِ الدَّلالَةِ عليهِ، فلم يدخُل كونُ الكذبِ قَبيحاً في حدِّ الكذبِ، ولا لزمهُ في الوَهمِ ولا في الوُجودِ، فلا يـجوزُ أن يعدَّ من الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ التي تلزمُ النَّفسَ وجوداً وعدَماً .

جوابهُ من وجوهٍ :

○ **أحـدهـا** : أنَّا لا نسلِّمُ أنَّ الصِّدقَ يقبحُ في حالٍ، ولا أنَّ الكذبَ يـحسُنُ في حالٍ أبداً، ولا تنقلبُ ذاتهُ، وإنَّـمـا يـحسُنُ اللومُ على الـخَبَرِ الصَّادقِ من حيثُ لم يُعرِّضِ الـمُخبرُ، ولم يُوَرِّ بما يَقتَضي سلامَةَ النَّبـيِّ أو الوَلـيِّ .

○ **الثَّـانـي** : أنَّـهُ أخبرَ بما لا يـجوزُ لهُ الإخبارُ به لاستلزامهِ مَفسَدَةً راجحَةً، ولا يَقتَضي هذا كونَ الصِّدقِ قَبيحاً بل الإخبارُ بالصِّدقِ هو القبيحُ، وفرقٌ بينَ النِّسبَةِ المُطابقَةِ التي هي صدقٌ وبينَ الإعلامِ بها، فالقُبحُ إنَّـمـا نشأ منَ الإعلامِ لا منَ النِّسبَةِ الصَّادقَةِ، والإعلامُ غيرُ ذاتي للـخَبَرِ ولا داخلٌ في حدِّهِ إذ الخَبَرُ غيرُ الإخبارِ، ولا يلزمُ من كونِ الإخبارِ قَبيحاً أن يكونَ الـخَبَرُ قَبيحاً، وهذه الدَّقيقَةُ غفلَ عنها الطَّائفتانِ كلاهما .

○ **الثَّـالـث** : أنَّ قُبحَ الصِّدقِ وحُسنَ الكذبِ المَذكورينَ في بَعضِ المواضعِ لمُعارَضَةِ مَصلحَةٍ أو مَفسَدَةٍ راجحَةٍ لا يَقتَضي عَدَمَ اتِّصافِ ذاتِ كلٍّ

منهما بحكمهِ عَقلاً، فإنَّ العِلَلَ العقليَّة والأوصافَ الذَّاتيَّة المُقتضيَة لأحكامها قَد تَتَخلَّفُ عنها لفواتِ شرطٍ أو قيامِ مانعٍ، ولا يوجبُ ذلكَ سَلبَ اقتضائها لأحكامها عندَ عدمِ المانعِ وقيامِ الشرطِ، وَقَد تَقدَّمَ تَقريرُ ذلكَ .

▫ **الثَّاني عَشر** : قولكُم : إنَّهُ لم يبقَ للمُثبتينَ إلّا الاسترواحُ إلى عاداتِ النَّاسِ من تَسميةِ ما يضرُّهُم قبيحاً، وما ينفعهُم حَسناً كلامٌ باطلٌ؛ فإنَّ استرواحَهم إلى ما ركَّبهُ اللَّهُ تعالى في عقولِهم وفطرِهم وبَعثَ رسلَه بتَقريرهِ وتكميلهِ من استحسانِ الحُسنِ واستقباحِ القَبيحِ .

▫ **الثَّالث عَشر** : قولكُم : إنَّها تَختلفُ بعادَةِ قومٍ وزمانٍ دونَ زمانٍ ومكانٍ دونَ مكانٍ وإضافَةٍ دونَ إضافَةٍ، فَقَد تَقدَّمَ أنَّ هذا الاختلافَ لا يُخرجُ هذه القبائحَ والمُستَحسناتِ عن كونِ الحُسنِ والقُبحِ ناشئاً من ذواتهما، وأنَّ الزَّمانَ المعيَّنَ والمكانَ المَخصوصَ والشخصَ والقابلَ والإضافَةَ شروطٌ لهذا الاقتضاءِ، على حَدِّ اقتضاء الأغذيَةِ والأدويَةِ والمساكنِ والملابسِ آثارها فإنَّ اختلافَها بالأزمنَةِ والأمكنَةِ والأشخاصِ والإضافاتِ لا يُخرجُها عن الاقتضاءِ الذَّاتي، ونَحنُ لا نَعني بكونِ الحُسنِ والقُبحِ ذاتيَّينِ إلّا هذا، والمُشاحةُ في الاصطلاحاتِ لا تَنفعُ طالبَ الحقِّ، ولا تُجدي عليهِ إلّا المُناكدَةَ والتَّعنُّتَ، فكم يُعيدوا ويُبدوا في الذَّاتيِّ وغيرِ الذَّاتيِّ، سمُّوا هذا المعنى بما شئتُم، ثمَّ إن أمكنكُم إبطالُهُ؛ فأبطلوهُ .

▫ **الرَّابع عَشر** : قولكُم : نَحنُ لا نُنكرُ اشتهارَ القضايا الحسنَةِ والقَبيحَةِ منَ الخَلقِ، وكونَها مَحمودَةً مَشكورَةً، مثنيٌّ على فاعلها أو مَذموماً، ولكن سببُ ذكرها إمَّا التَّديُّنُ بالشرائعِ وإمَّا الإعراضُ، ونَحنُ إنَّما

نُنكرهاً في حقِّ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ لانتفاءِ الأعراضِ عنهُ، فهذا معتَركُ القولِ بينَ الفِرَقِ في هذه المسألة وغيرها .

فنقولُ لكُم : ما تعنونَ معاشرَ النُّفاةِ بالأعراضِ التي نَفيتموها عن اللَّهِ عَزَّ، وجَلَّ، ونَفيتُم لأجلها حُسنَ أوامرِهِ الذَّاتيَّةِ وقبحَ نواهيهِ الذَّاتيَّةِ، وزعمتُم لأجلها أنَّهُ لا فَرقَ عندَهُ بينَ مَذمومها ومَحمودها، وأنَّها بالنِّسبَةِ إليهِ سواءً، فأخبرونا عن مُرادكُم بهذه اللفظَةِ البَديعَةِ المُحتملةِ أتَعنونَ بها الحكمَ والمصالحَ والعواقبَ الحميدَةَ والغاياتِ المَحبوبَةِ التي يَفعلُ ويأمرُ لأجلها ؟ أم تَعنونَ بها أمراً وراءَ ذلكَ يجبُ تَنزيهُ الرَّبِّ عنهُ كما يُشعَرُ به لفظُ الأعراضِ منَ الإراداتِ ؟

فإن أرَدتُم المَعنى الأوَّل؛ فنَفيكُم إيَّاهُ عن أحكمِ الحاكمينَ مَذهبٌ لكُم خالفتُم به صريحَ المَنقولِ وصريحَ المَعقولِ وأتيتُم مالا تُقِرُّ به العقولُ، من فعلِ فاعلٍ حكيمٍ مُختارٍ لا لحكمَةٍ ولا لمصلحَةٍ ولا لغايَةٍ مَحمودَةٍ ولا عاقبَةٍ مَطلوبَةٍ بل الفعلُ وعدمهُ بالنِّسبَةِ إليهِ سيَّان، وقُلتُم ما تُنكرهُ الفطرُ والعقولُ، ويردُّهُ التَّنزيلُ والاعتبارُ، وقَد قرَّرنا من ذكرِ الحِكم الباهرَةِ في الخَلقِ والأمرِ ما تَقرُّ بهِ عينُ كلِّ طالبٍ للحقِّ، وههُنا من أدلَّةِ إثباتِ الحكم المَقصودَةِ بالخَلقِ والأمرِ أضعافُ أضعافُ ما ذكرنا، بل لا نسبَةَ لما ذكرناهُ إلى ما تَركناهُ، وكيفَ يمكنُ إنكارُ ذلكَ والحكمَةُ في خَلقِ العالمِ وأجزائهِ ظاهرَةٌ لمَن تأمَّلها، باديَةٌ لمَن أبصَرَها، وقَد رُقِّمَت سطورها على صفحاتِ المَخلوقاتِ يقرأُها كلُّ عاقلٍ وغيرُ كاتبٍ، نُصبَت شاهدَةً للَّهِ بالوَحدانيَّةِ والرُّبوبيَّةِ والعلمِ والحكمَةِ واللُّطفِ والخبرَةِ :

تـأمَّـل سُطـورَ الـكـائنـاتِ فـإنَّـهـا
مِنَ الـمَلأ الأعـلى إليـكَ رَسـائـلُ
وقَـد خُـطَّ فـيـهـا لَـو تأمَّـلتَ خطَّها
ألا كـلّ شـيءٍ مـا خَلا اللَّـه بـاطـلُ

وأمَّا النُّصوصُ على ذلكَ فمن طَلَبها بهَرتهُ كثرتُها وتَطابقُها، ولعلَّها أن تَزيدُ على المئتين، وما يُحيلُهُ النُّفاةُ لحكمَةِ اللَّهِ تعالى أنَّ إثباتَها يستلزمُ افتقاراً منهُ واستكمالاً بغيرهِ فهوَسٌ ووساوسُ، فإنَّ هذا بعَينهِ واردٌ عليهم في أصلِ الفعلِ .

وأيضاً فهذا إنَّمـا هو إكمالٌ للصُنعِ لا استكمالٌ بالصُّنعِ .

وأيضاً فإنَّهُ سبحانهُ فعالَهُ عن كمالهِ، فإنَّهُ كملَ ففعَلَ، لا إنَّ كمالَه عن فعالهِ، فلا يقالُ : فعلَ فكملَ كما يقالُ للمَخلوقِ .

وأيضاً فإنَّ مَصدَرَ الحكمَةِ ومُتعلَّقها وأسبابَها عنهُ سبحانهُ، فهو الخالقُ، وهو الحكيمُ وهو الغنيُّ من كلِّ وجهٍ أكمَلَ الغنى وأتـمَّهُ، وكمالُ الغنى والحَمد في كمالِ القدرَةِ والحكمَةِ، ومنَ المُحالِ أن يكونَ سبحانهُ وتعالى فقيراً إلى غيرهِ، فأمَّا إذا كانَ كلُّ شيءٍ فهو فقيرٌ إليهِ من كلِّ وجهٍ، وهو الغنيُّ المُطلقُ عن كلِّ شيءٍ، فأيُّ مَحذورٍ في إثباتِ حكمتهِ مع احتياجِ مَجموعِ العالمِ وكلُّ ما يَقدرُ معهُ إليهِ دونَ غيرهِ وهل الغنيُّ إلّا ذلكَ ؟ وللَّهِ سبحانهُ في كلِّ صُنعٍ من صنائعهِ وأمرٍ من شرائعهِ حكمَةٌ باهرَةٌ وآيَةٌ ظاهرَةٌ تدلُّ على وَحدانيَّتهِ وعلمهِ وحكمتهِ وغناه وقيُّوميَّتهِ وملكهِ لا تُنكرها إلّا العقولُ

السَّخيفَةُ، ولا تَنبو عنها إلّا الفطرُ المَنكوسَةُ :

وَللَّهِ في كلِّ تَسكينَةٍ وَتَحريكَةٍ أبداً شاهدُ
وَفي كلِّ شيءٍ لهُ آيَةٌ تَدلُّ على أنَّهُ واحدٌ

وبالجُملَةِ؛ فنَحنُ لا نُنكرُ حكمَةَ اللَّهِ ولا نُساعدكُم على جَحدها، لتَسميتِكُم إيَّاها أعراضاً، وإخراجِكُم لها في هذا القالبِ؛ فالحقُّ لا يُنكرُ حكمُهُ لسوءِ التَّعبيرِ عنهُ، وهذا اللفظُ بِدعيٌّ لم يَرِد بهِ كتابٌ ولا سنَّةٌ، ولا أطلقهُ أحدٌ من أئمَّةِ الإسلامِ وأتباعهم على اللَّهِ .

وَقَد قال الإمامُ أحمَدُ : لا نُزيلُ عن اللَّهِ صفَةً من صفاتهِ، لأجلِ شناعَةِ المُشنِّعينَ، فهل نُنكرُ صفاتِ كمالهِ سبحانهُ لأجلِ تَسميةِ المُعطِّلَةِ والجَهميَّةِ لها أعراضاً، ولأربابِ المقالاتِ أغراضٌ في سوءِ التَّعبيرِ عن مقالاتِ خُصومهم، وتَخيُّرهم لها أقبحَ الألفاظِ، وحُسنِ التَّعبيرِ عن مقالاتِ أصحابهم وتخيُّرهم لها أحسنَ الألفاظِ، وأتباعُهُم مَحبوسونَ في قبورِ تلكَ العباراتِ ليسَ معهم في الحَقيقَةِ سواها بل ليسَ مع المَتبوعينَ غيرُها، وصاحبُ البَصيرَةِ لا تَهولهُ تلكَ العباراتُ الهائلَةُ، بل يجرِّدُ المَعنى عنها ولا يكسوهُ عبارَةً منها، ثمَّ يحملهُ على محلِّ الدَّليلِ السَّالمِ عن المعارضِ، فحينئذٍ يتبيَّنُ لهُ الحقُّ منَ الباطلِ، والحالي من العاطلِ .

□ **الخامس عَشر** : قولكُم : مُستندُ الاستحسانِ والاستقباحِ التَّديُّنُ بالشرائعِ، فيقالُ لا ريبَ أنَّ التَّديُّنَ بالشرائعِ يَقتَضي الاستحسانَ والاستقباحَ، ولكنَّ الشرائعَ إنَّما جاءَت بتكميلِ الفطرِ وتَقريرها لا بتَحويلها وتَغيرها، فما كان في الفطرَةِ مُستَحسناً جاءَت الشريعَةُ باستحسانهِ فكسَتهُ، حُسْناً إلى

حُسنهِ، فصارَ حَسَناً من الجهتينِ، وما كانَ في الفطرَةِ مُستقبحاً جاءَت الشريعَةُ باستقباحهِ، فكَستهُ قُبحاً إلى قُبحهِ، فصارَ قبيحاً منَ الجهَتينِ .

وأيضاً فهذه القضايا مُستَحسنَةٌ ومُستقبحَةٌ عندَ من لم تبلغهُ الدَّعوَةُ، ولم يقرَّ بنبوَّةٍ .

وأيضاً فمجيءُ الرَّسولِ بالأمرِ بحُسنها والنَّهي عن قَبيحها دليلٌ على نبوَّتهِ، وعَلَمٌ على رسالتهِ؛ كما قال بَعضُ الصَّحابَةِ - وَقَد سُئلَ عمَّا أوجَبَ إسلامهُ - فقال : ما أمَرَ بشيءٍ فقال العَقلُ ليتَهُ نَهى عنهُ، ولا نَهى عن شيءٍ فقال العقلُ ليتهُ أمَرَ بهِ .

فلو كانَ الحُسنُ والقُبحُ لم يكُن مَركوزاً في الفِطَرِ والعقولِ لم يكُن ما أمرَ بهِ الرَّسولُ ونَهى عَنهُ عَلَماً من أعلامِ صِدقهِ، ومَعلومٌ أنَّ شرعَهُ ودينهُ عندَ الخاصَّةِ من أكبرِ أعلامِ صِدقهِ وشواهدِ نبوَّتهِ كما تَقدَّمَ .

▫ **السَّادس عَشر** : قولكُم في مثاراتِ الغَلَطِ التي يَغلطُ الوَهمُ فيها : أنَّها ثلاثُ مثاراتٍ :

● الأولى : أنَّ الإنسانَ يطلقُ اسمَ القَبيحِ على ما يُخالفُ غَرضَهُ، وإن كانَ يوافقُ غَرَضَ غيرهِ من حيثُ أنَّهُ لا يلتفتُ إلى الغيرِ، فإنَّ كلَّ طبعٍ مَشغوفٌ بنفسهِ فيَقضي بالقُبحِ مُطلقاً، فَقَد أصابَ في الحُكمِ بالقُبحِ وأخطأَ في إضافَةِ القُبحِ إلى ذاتِ الشيءِ، وغفلَ عن كونهِ قَبيحاً لمُخالفَةِ غَرضهُ، وأخطأَ في حكمهِ بالقُبحِ مُطلقاً ومنشأهُ عدمُ الالتفاتُ إلى غيرهِ، فحاصلهُ أمرانِ :

أحدهما : أنَّهُ إنَّما قَضى بالحُسنِ والقُبحِ لموافقتهِ غَرضهُ، ومُخالفتهِ .

الثَّاني : أنَّ هذه المُوافقَةَ والمُخالفَةَ ليسَت عامَّةً في حقِّ كلِّ شخصٍ وزمانٍ ومكانٍ بل ولا في جميعِ أحوالِ الشخصِ، هذا حاصلٌ ما طوَّلتُم بهِ .

فيقالُ : لا ريبَ أنَّ الحُسنَ يوافقُ الغرَضَ والقُبحَ يُخالفُهُ ولكن مُوافقةَ هذا ومُخالفَةَ هذا لما قامَ بكلٍّ واحدٍ منَ الصِّفاتِ التي أوجَبَت المُخالفَةَ والمُوافقَةَ إذ لو كانا سواءً في نَفسِ الأمرِ، وذاتُهما لا تَقتَضي حُسناً ولا قُبحاً لم يَختصَّ أحدُهما بالمُوافقَةِ والآخرُ بالمُخالفَةِ، ولم يكُن أحدُهما بما اختَصَّ بهِ أولى منَ العَكسِ، فما لجأتُم إليهِ من موافقَةِ الغرَضِ ومُخالفتهِ من أكبرِ الأدلَّةِ على أنَّ ذاتَ الفعلِ متَّصفَةٌ بما لأجلهِ وافَقَ الغَرَضَ وخالفهُ، وهذا كموافقَةِ الغَرضِ ومُخالفَتهِ الطُّعومَ والأغذيَةِ والرَّوائحَ، فإنَّ ما لاءَمَ منها الإنسانَ ووافقَهُ مُخالفٌ بالذَّاتِ وَالوَصفِ لما نافرَهُ منها وخالفهُ، ولم تكن تلكَ الملاءمةُ والمُنافرَةُ لمُجرَّدِ العادَةِ بل لما قامَ بالملائمِ والمنافرِ منَ الصِّفاتِ، ففي الخُبزِ والماءِ واللَّحمِ والفاكهَةِ منَ الصِّفاتِ التي اقتَضَت ملاءَمَتها الإنسانَ ما ليسَ في التُّرابِ والحَجَرِ والقَصَبِ والعَصفِ وغيرها، ومَن ساوى بينَ الأمرينِ فَقَد كابَرَ حسَّهُ وعَقلَهُ فهكذا ما لاءَمَ العقولَ والفطَرَ من الأعمالِ والأحوالِ وما خالَفها هو لما قامَ بكلٍّ منها منَ الصِّفاتِ التي اختَصَّت بهِ، فأوجبَ الملاءَمَةَ والمُنافَرَةَ، فمُلاءَمَةُ العدلِ والإحسانِ والبر للعقولِ والفطرِ والحيوانِ لما اختصَّت بهِ ذواتُ هذه الأفعالِ من أمورٍ ليست في الظُّلمِ والإساءَةِ، وليسَت هذه المُلاءَمَةُ والمُنافرَةُ لمُجرَّدِ العادَةِ والتَّديُّن بالشرائعِ بل هي أمورٌ ذاتيَّةٌ لهذه الأفعال، وهذا ممَّا لا يُنكرهُ العَقلُ بَعدَ تَصوُّرهِ .

□ **السَّابع عشر** : أنَّا لا نُنكرُ أنَّ للعادَةِ واختلافِ الزَّمانِ والمكانِ والإضافَةِ والحالِ تأثيراً في المُلاءَمَةِ والمُنافرَةِ، ولا نُنكرُ أنَّ الإنسانَ يلائمهُ ما اعتادَهُ منَ الأغذيَةِ والمساكنِ والملابسِ، ويُنافرهُ ما لم يَعتَدهُ منها، وإن كانَ أشرَفَ منها وأفضلَ، ومن هذا إلْفُ الأوطانِ وحبُّ المساكنِ والحنينِ إليها، ولكن هل يلزمُ من هذا أن تكونَ المُلاءَمَةُ والمُنافرَةُ كلُّها تَرجعُ إلى الإلفِ والعادَةِ المُجرَّدَةِ، ومعلومٌ أنَّ هذا ممَّا لا سبيلَ إليهِ إذ الحُكمُ على فَردٍ جُزئي من أفرادِ النَّوعِ لا يَقتَضي الحُكمَ على جميعِ النَّوعِ، واستلزامُ الفَردِ المعيَّنِ منَ النَّوعِ اللازمِ المعيَّنِ لا يَقتَضي استلزامَ النَّوع لهُ، وثبوتُ خاصَّةٍ معيَّنَةٍ للفَردِ الجُزئيِّ لا يَقتَضي ثبوتَها للنَّوعِ الكلِّي .

□ **الثَّامن عَشر** : أنَّ غايَةَ ما ذكرتُم من خطأِ الوَهمِ في اعتقادهِ إضافَةُ القُبحِ إلى ذاتِ الفعلِ وحكمهُ بالاستقباحِ مُطلقاً ممَّا قَد يعرضُ في بَعضِ الأفعالِ، فهَل يلزمُ من ذلكَ أنَّهُ حيثُ قَضى بهاتينِ القضيَّتينِ يكونُ غالطاً بالنِّسبَةِ إلى كلِّ فعلٍ ؟ ونَحنُ إنَّما علمنا غَلطَهُ فيما غَلطَ فيهِ لقيامِ الدَّليلِ العقليِّ على غلطهِ، فأمَّا إذا كانَ الدَّليلُ العقليُّ مُطابقاً لحُكمهِ فمن أينَ لكُم الحُكمُ بغلطهِ ؟

فإن قُلتُم : إذا ثَبَتَ أنَّهُ يغلطُ في حُكمٍ ما لم يكُن حُكمهُ مَقبولاً إذ لا ثقَةَ بحُكمهِ .

قُلنا : إذا جوَّزتُم أن يكونَ في الفطرَةِ حاكمانِ حاكمُ الوَهمِ وحاكمُ العَقلِ، ونسبتُم حكمَ العَقلِ إلى حُكمِ الوَهمِ، وقُلتُم في بَعضِ القضايا التي يَجزمُ العَقلُ، بها هي من حُكمِ الوَهمِ، لم يَبقَ لكُم وثوقٌ بالقضايا التي يَجزمُ

بها العَقلُ، ويحكُمُ به،ا لاحتمالِ أن يكونَ مُستندَها حُكمُ الوَهمِ لا حكمُ العَقلِ، فلابدَّ لكُم منَ التَّفريقِ بينهما، ولابدَّ أن تكونَ قضاياهُ ضَروريَّةً ابتداءً وانتهاءً، وإذا جوَّزتُم أن يكونَ بَعضُ القضايا الضَّروريَّةِ وهميَّةً لم يَبقَ لكُم طريقٌ إلى التَّفريقِ .

▫ **التَّاسع عَشر** : أنَّ هذا الذي فَرَضتموهُ فيمَن يَستقبحُ شيئاً لِمُخالفَةِ غَرضهِ ويَستحسنهُ لموافقَةِ غَرضهِ أو بالعَكسِ أنَّما مَوردُهُ الحسناتُ غالباً كالمآكلِ والملابسِ والمساكنِ والمناكحِ، فإنَّها بحسبِ الدَّواعي والميولِ والعوائدِ والمُناسباتِ، فهي إنَّما تكونُ في الحركاتِ، وأمَّا الكُلِّيَّاتُ العَقليَّةُ فلا تَكادُ تُعارضُ تلكَ، فلا يكونُ العَدلُ والصِّدقُ والإحسانُ حسناً عندَ بَعضِ العقولِ قَبيحاً عندَ بَعضها، كما يكونُ اللونُ أسودُ مُشتَهى حسناً موافقاً لبَعضِ النَّاسِ مَبغوضاً مُستَقبحاً لبَعضهم؛ ومَن اعتَبَرَ هذا بهذا فَقَد خَرَجَ واعتَبَرَ الشيءَ بما لا يصحُّ اعتبارهُ بهِ، ويؤيِّدُ هذا :

▫ **العشرون** : أنَّ العقلَ إذا حكمُ بقُبحِ الكذبِ والظُّلمِ والفواحشِ فإنَّهُ لا يَختلفُ حكمهُ بذلكَ في حقِّ نَفسهِ ولا غيرهِ، بل يعلمُ أنَّ كلَّ عَقلٍ يَستقبحُه،ا وإن كانَ يَرتكبُها لحاجتهِ أو جَهلهِ، فلما أصابَ في استقباحها أصابَ في نسبَةِ القُبحِ إلى ذاتها، وأصابَ في حُكمهِ بقُبحها مُطلقاً، ومَن غلَّطهُ في بَعضِ هذه الأحكامِ فهو الغالطُ عليهِ، وهذا بخلافِ ما إذا حكمَ باستحسانِ مَطعمٍ أو مَلبسٍ أو مَسكنٍ أو لونٍ؛ فإنَّهُ يعلمُ أنَّ غيرَهُ يحكُمُ باستحسانِ غيرهِ، وأنَّ هذا ممَّا يختلفُ باختلافِ العوائدِ والأُمَمِ

والأشخاصِ، فلا يحكمُ بهِ حُكماً كلِّيّاً إلّا حيثُ يعلمُ أنَّهُ لا يَختلفُ كما يحكمُ حُكماً كلِّيًا بأنَّ كلَّ ظمآنٍ يَستحسنُ شربَ الماءِ ما لم يَمنعَ منهُ مانعٌ، وكلُّ مَقرورٍ يَستحسنُ لباسَ ما فيهِ دفؤهُ ما لم يَمنع منهُ مانعٌ، وكذلكَ كلُّ جائعٍ يَستحسنُ ما يَدفعُ به سورَةَ الجوعِ، فهذا حُكمٌ كليٌّ في هذه الأُمورِ المُستَحسنَةِ لا غَلَطَ فيهِ مع كونِ المَحسوساتِ عُرضَةً لاختلافِ النَّاسِ في استحسانها واستقباحها بحسبِ الأغراضِ والعوائدِ والإلفِ، فما الظَّنُّ بالأُمورِ الكلِّيَّةِ العقليَّةِ التي لا تَختلفُ إنَّما هي نَفيٌ وإثباتٌ ؟

▫ **الحادي والعشرون** : قولكُم : إنَّ الملكَ العظيمَ إذا رأَى مسكيناً مُشرفاً على الهلاكِ استَحسنَ إنقاذَهُ، والسَّببُ في ذلكَ دَفعُ الأذى الذي يلحقُ الإنسانَ من رقَّةِ الجنسيَّةِ، وهو طبعٌ يَستحيلُ الانفكاكَ عنهُ إلى آخرِهِ، كلامٌ في غايَةِ الفسادِ، فإنَّ مَضمونهُ أنَّ هذا الإحسانَ العَظيمَ والتَّنزُّلَ من مثلِ هذا الملكِ القادرِ إلى الإحسانِ إلى مَجهودٍ مَضرورٍ قَد مسَّهُ الضرُّ، وتَقطَّعَت بهِ الأسبابُ، وانقَطَعَت به الحيَلُ ليسَ فعلاً حسناً في نَفسهِ، ولا فَرقَ عندَ العَقلِ بينَ ذلكَ وأن يُلقي عليهِ حجراً يُغرقهُ، وإنَّما مالَ إليهِ طبعُهُ لرقَّةِ الجنسيَّةِ، ولتَصويرهِ نَفسهُ في تلكَ الحالِ، واحتياجهِ إلى مَن ينقذهُ، وإلّا فلو جرَّدنا النَّظَرَ إلى ذاتِ الفعلِ وضَرَبنا صَفحاً عن لوازمه وما يقترنُ به ويبعثُ عليهِ لم يَقضِ العقلُ بحُسنهِ، ولم يفرق بينهُ وبينَ إلقاءِ حجرٍ عليهِ حتى يُغرقهُ .

هذا قولٌ يَكفي في فسادهِ مجرَّدُ تَصوُّرهِ، وليسَ في المُقدِّماتِ البَديهيَّةِ ما هو أجلى وأوضحُ من كونِ مثلِ هذا الفعلِ حسناً لذاتهِ حتى يحتجَّ بها عليهِ، فإنَّ الاحتجاجَ إنَّما يكونُ بالأوضحِ على الأخفى، فإذا كانَ المَطلوبُ

المُستدلُّ عليهِ أوضحَ منَ الدَّليلِ كانَ الاستدلالُ عناءً وكُلفةً، ولكن تصورَ الدَّعوى ومقابلتَها تَصويراً مجرَّداً يعرضانِ على العقولِ التي لم يسبق إليها تَقليدُ الآراءِ، ولم يتواطأ عليها ويتلقَّاها صاغرٌ عن كابرٍ وولدٌ عن والدٍ حتى نشأت معها بنشأتها فهي تَسعى بنصرتها بما دبَّ ودرجَ منَ الأدلَّةِ، لاعتقادها أوَّلاً أنَّها حقٌّ في نَفسها لإحسانها الظَّنَّ بأربابها، فلو تَجرَّدَت من حبِّ مَن وَلَدتهُ وبغضِ مَن خالفَتهُ وجرَّدَت النَّظَرَ وصابرَت العلمَ وتابَعَت المَسيرَ في المسألةِ إلى آخرها لأوشكَ أن تعلمَ الحقَّ منَ الباطلِ، ولكن : حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويصمُّ .[1]

والنَّاظرُ بعَينِ البُغضِ يَرى المحاسنَ مُساوىء هذا في إدراكِ البَصَرِ مع ظهورهِ ووضوحهِ، فكيفَ في إدراكِ البَصيرَةِ لا سيَّما إذا صادَفَ مشكلاً ؟ فهذه بليَّةُ أكثرِ العالَمِ .

فإن تنجُ من ذي عَظيمَةٍ   وإلَّا فإنِّي لا أخالُكَ ناجياً

---

(١) قد أحسن المصنِّف صنعاً في ذكره هذا القول على أنَّه مَثَلٌ .

وقد روي مرفوعاً عن رسول الله ﷺ، ولكنَّه لا يصح .

فقد أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢ / ١ / ١٧٥)، وأبو داود (٥١٣)، وأحمد (٥ / ١٩٤ و ٦ / ٦٥٠)، والدولابي في « الكنى » (١ / ١٠١) وغيرهم .

من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن خالد بن محمد عن بلال بن أبي الدرداء عن أبي الدرداء عن النَّبي ﷺ (وذكره) .

قلت : وهذا **إسناد ضعيف**، لأنَّ فيه أبا بكر بن أبي مريم كان قد اختلط مع سوء حفظه، وكذلك اختلفوا عليه في إسناده؛ فرواه جماعة عنه مرفوعاً، ورواه آخرون عنه موقوفاً .

▫ **الثَّاني والعشرون** : أنَّ اقترانَ هذه الأُمورِ التي ذكرتموها من رقَّةِ الـجنسيَّةِ، وتصوُّرِ نَفسهِ بصورَةِ مَن يريدُ إنقاذَهُ ونَـحوِها هي أُمورٌ تَقترنُ بهذا الإحسانِ، فيقومُ الباعثُ عَلى فعلِهِ، ولا يوجبُ تَـجرُّدَهُ عن وَصفٍ يَقتَضي حسنهُ، وأن يكونَ ذاتُهُ مقتَضيَةً لـحُسنهِ، وإن اقتَرَنَ بفاعلِ هذه الأمورِ، وما مثلكُم في ذلكَ إلّا كمثلِ مَن قالَ : إنَّ تناوُلَ الأطعمَةِ والأغذيَةِ والأدويَةِ ليسَ حسناً لذاتهِ، فإنَّهُ يَقترنُ بمتناولِها من لذَّةِ الـمرَّةِ لفمِ الـمَعدَةِ ما يوجبُ نزوعها إلى طَلَبِ الغذاءِ لقيامِ البُنيـَةِ وكذلكَ الأدويَةُ وغيرها ومَعلومٌ أنَّ هذه البواعثَ والدَّواعي وأسبابَ الميولِ لا يُنافي الاقتضاءَ الذَّاتي وقيامَ الصِّفاتِ التي تَقتَضي الانتفاعَ بها، فكذلكَ تلكَ البواعثُ والدَّواعي وأسبابُ الميولِ التي تَـحصُلُ لفاعلِ الإحسانِ ومنقذِ الغريقِ والـحريقِ وما يُنجي الهالكَ لا يُنافي ما عليهِ هذه الأفعالُ في ذواتها من الصِّفاتِ التي تَقتَضي حسنها وقبحَ أضدادها .

▫ **الثالث والعشرون** : قولكُم : إنَّـهُ يَقدرُ نَفسهُ في تلكَ الـحالِ وتَقديرهُ غيرهُ مُعرضاً عن الإنقاذِ فيَستقبحهُ منهُ لـمُخالفتهِ غَرضه، فيَدفعُ عن نَفسهِ ذلكَ القبحَ المتوهَّمَ .

فيقال : هذا القُبحُ المتوهَّمُ إنَّـما نشأ عن القُبحِ الـمُحقَّقِ في تركِ الإحسانِ إليهِ مع قدرتهِ عليهِ وعدمِ تضرُّرهِ بهِ، فالقُبحُ محقَّقٌ في تركِ إنقاذهِ ومتوهَّمٌ في تَصويرهِ نَفسهُ بتلكَ الـحالِ وعَدمِ إنقاذهِ غيرهُ لهُ، فلولا تلكَ الـحقيقَةُ لم يَـحكُم العقلُ بهذا القُبحِ الـمَوهومِ، وكونُ الإنقاذِ موافقاً للغَرضِ وتركهُ مُـخالفاً لهُ لا يَنبَغي أن يكونَ في ذاتهِ حسناً وقبيحاً ملائماً وافقَ الغَرَضَ

أو خالفهُ، لـما اتَّصَفَت به ذاتهُ منَ الصِّفاتِ الـمُقتضيةِ لهذه الـموافقَةِ والـمُخالفَةِ .

◘ **الرَّابع والعشرون** : قولكُم : فلو فُرِضَ هذا في بَهيمَةٍ أو شخصٍ لا رقَّةَ فيه؛ فيَبقى أمرٌ آخَرُ وهو طلبُ الثَّناءِ على إحسانهِ .

فيقالُ : طلبُ الثَّناءِ يَقتَضي أنَّ هذا الفعلَ مِـمَّا يتعلَّقُ بهِ الثَّناءُ، وما ذاكَ إلّا لأنَّهُ في نَفسهِ على صفَةٍ تَقتَضي الثَّناءَ على فاعلِهِ، ولو كانَ هذا الفعلُ مُساوياً لضدِّهِ في نَفسِ الأمرِ لم يتعلَّق الثَّناءُ بهِ والذَّمُّ بضدِّهِ، وفعلُهُ لتوقُّعِ الثَّناءِ لا يَنفي أن يكونَ على صفَةٍ لأجلها استحَقَّ فاعلهُ الثَّناءَ بل هو باقتضاءِ ذلكَ أولى من نفيهِ .

◘ **الخَّامسُ والعشرون** : قولكُم : فإن فُرِضَ في موضعٍ يَستحيلُ أن يعلمَ فيَبقى ميلٌ وتَرجيحٌ يُضاهي نفرَةَ طبعِ السَّليمِ عن الـحَبلِ، وذلكَ أنَّهُ رأَى هذه الصُّورَةَ مَقرونَةً بالثَّناءِ؛ فيظنُّ أنَّ الثَّناءَ مَقرونٌ بها بكلِّ حالٍ، كما أنَّهُ لما رأَى الأذى مَقروناً بصورَةِ الـحَبلِ وطبعُهُ ينفرُ عن الأذى، فينفرُ عن المقرونِ بهِ، فالمقرونُ باللذيذ لذيذٌ، والـمَقرونُ بالـمَكروهِ مَكروهٌ .

فيُقالُ : يا عَـجباً كيفَ يُرَدُّ أعظمُ الإحسانِ الذي فَطَرَ اللَّهُ عقولَ عبادهُ وفطرهم على إحسانهِ حتى لو تَصوَّرَ نطقَ الـحيوانِ البَهيمِ لشهِدَ باستحسانهِ إلى مـجرَّدِ وهمٍ وخيالٍ فاسدٍ يُشبهُ نفرةَ طَبعِ الرَّجُلِ السَّليمِ عن حبلٍ مُرَقَّشٍ .

فتأمَّل كيفَ يـحملُ نَفرَةَ الآراءِ المُتقلِّدَةِ وبَعضَ مُـخالفتها على أمثالِ هذه الشّنعِ، وهل سوَّى اللَّه سبحانهُ في العقولِ والفِطَرِ بينَ إنقاذِ الغَريقِ والـحريقِ

وتَـخليصِ الأسيرِ من عدوِّهِ وإحياءِ النُّفوسِ وبينَ نفرَةِ طَبعِ السَّليمِ عن حبلٍ مُرقَّشٍ لتوهُّـمهِ أنَّـهُ حيَّةٌ، وَقَد كانَ مـجرَّدُ تصوُّرِ هذه الشبهَةَ كافياً في العلمِ ببُطلانها، ولكنَّنا زِدنا الأمرَ إيضاحاً وبياناً .

▫ **السادس والعشرون** : قولكُم : الصِّدقُ والكذبُ متُنافيانِ ومنَ الـمُحالِ تَساوي المُتنافيَينِ في جميعِ الصِّفاتِ إلى آخرهِ، إقرارٌ منكُم بالـحقِّ، ونَقضٌ لما أصَّلتموهُ، فإنَّـهما إذا كانا مُتنافيَينِ ذاتاً وصفاتاً لم يَرجعِ الفَرقُ بينهما استحساناً واستقباحاً إلى مـجرَّدِ العادَةِ والمنشأِ والوَباءِ أو مجرَّدَ التَّديُّنِ بالشرائعِ بل يكونُ مرجعُ الفَرقِ إلى ذاتهما، وأنَّ ذاتَ هذا مُقتَضيةٌ لـحُسنهِ، وذاتَ هذا مُقتضيَةٌ لقُبحهِ، وهذا هو عينُ الصَّوابِ لولا أنَّكُم لا تُثبتونَ علَّتهُ، وتُصرِّحونَ بأنَّ الفَرقَ بينهما سببُهُ العادَةُ والتَّربيَةُ والمنشأُ والتَّديُّنُ بشرائعِ الأنبياءِ حتى لو فَرَضَ انتفاءَ ذلكَ لم يُؤثر، الرَّجلُ الصِّدقَ على الكذبِ، وهل في التَّناقضِ أقبحُ من هذا ؟

▫ **السّابع والعشرون** : قولكُم : إنَّ غايَةَ هذا يدلُّ على قُبحِ الكذبِ وحُسنِ الصِّدقِ شاهداً، ولا يلزمُ منهُ حسنهُ وقُبحهُ غائباً إلّا بطريقِ قياسِ الغائبِ على الشاهدِ وهو باطلٌ لوضوحِ الفَرقِ، واستنادُكُم في الفَرقِ إلى ما ذكرتُم من تَـخليَةِ اللّهِ بينَ عبادهِ يـموجُ بَعضُهُم في بَعضٍ ظُلماً وإفساداً، وقبحُ ذلكَ مُشاهدٌ .

فياللّهِ العَجَبَ كيفَ يـجوِّزُ العَقلُ التزامَ مَذهبٍ مُلتزم معهُ جواز الكذبِ على ربِّ العالمينَ وأصدقِ الصَّادقينَ، وأنَّـهُ لا فَرقَ أصلاً بالنِّسبَةِ إليهِ بينَ

الصِّدقِ والكذبِ بل جوازُ الكذبِ عليهِ سبحانهُ وتعالى عمَّا يقولونَ علوّاً كبيراً كـجوازِ الصِّدقِ، وحُسنهِ كَـحُسنِـهِ، وهل هذا إلّا من أعظمِ الإفكِ والباطلِ ونسبتِه إلى اللَّهِ تعالى جوازاً كنسبَةِ ما لا يليقُ بـجلالهِ إليهِ منَ الوَلدِ والزَّوجَةِ والشريكِ، بل كنسبَةِ أنواعِ الظُّلمِ والشرِّ إليهِ جوازاً، تعالى اللَّهُ عن ذلكَ علوّاً كبيراً ﴿ فَـمَن أصدَقُ منَ اللَّهِ حَديثاً ﴾ [النساء : ٨٧]، ﴿ ومَن أصدَقُ مِنَ اللَّهِ قيلاً ﴾ [النساء : ١٢٢] .

وهل هذا الإفكُ الـمُفتَرى إلّا رافعٌ للوثوقِ بأخبارِهِ، ووَعدِهِ ووَعيدِهِ، وتَـجويزِهِ عليهِ وعلى كلامهِ ما هو أقبحُ القبائحِ التي تنزَّهَ عنها بَعضُ عَبيدِهِ ولا يَليقُ به فَضلاً عنهُ سبحانهُ، فلو التَزمتُم كلَّ إلزامٍ بلزومِ مُسمَّى الـحسنِ والقبحِ العَقليَّينِ لكانَ أسهَلَ من التزامِ هذا الإدِّ التي تكادُ السَّماواتُ يتفطَّرنَ منهُ، وتَنشقُّ الأَرض، وتَـخرُّ الـجبالُ هدَّاً، ولا نسبَةَ في القُبحِ بينَ الوَلَدِ والشريكِ والزَّوجَةِ وبينَ الكذبِ، ولهذا فَطَرَ اللَّهُ عقولَ عبادِهِ على الازدراءِ والذَّمِّ والمَقتِ للكاذبِ دونَ مَن لهُ زوجَةٌ وولدٌ وشريكٌ؛ فَتَنَـزَّهَ أصدَقُ الصَّادقينَ عن هذا القبيحِ كتنزُّهِهِ عن الوَلَدِ والزَّوجَةِ والشريكِ، بل لا يُعرَفُ أحدٌ من طوائفِ هذا العالمِ جوَّزَ الكذبَ على اللَّهِ لما فَطَرَ اللَّهُ عقولَ البَشرِ وغيرهم على قبحهِ ومَقتِ فاعلهِ وخسَّتهِ ودناءتهِ، ونسبَةُ طوائفِ المُشركينَ الشريكَ والوَلَدَ إليهِ لما لم يكُن قُبحُهُ عندهم كقُبحِ الكَذبِ وكفى بمذهبٍ بُطلاناً وفساداً هذا القولُ العَظيمُ والإفكُ الـمُبينُ لازمُهُ ومعَ هذا فأهلُهُ لا يتَحاشونَ من التزامهِ، فلو التَزَمَ القائلُ أن يَذهَبَ الذمَّ كانَ خَيراً لهُ من هذا، ونَـحنُ نَستَغفر اللَّهَ منَ التَّقصير في ردِّ أهلِ الـمَذهَبِ القَبيحِ ولكن ظهورَ قبحِهُ للعقولِ والفطرِ أقوى شاهدٍ

على ردِّهِ وإبطالِهِ، ولَقَد كانَ كافينا من ردِّهِ نَفسُ تَصويرِهِ وعَرضِهِ على عقولِ النَّاسِ وفطرِهِم، فليتأمَّل اللبيبُ الفاضلُ ماذا يعودُ إليهِ نَصرُ المقالاتِ والتَّعصُّبُ لها، والتزامُ لوازمِها، وإحسانُ الظَّنِّ بأربابِها، بحيثُ يَرى مَساويهم محاسنَ، وإساءَةَ الظَّنِّ بخصومِهم بحيثُ يَرى محاسنَهُم مساوِئَ كم أفسَدَ هذا السُّلوكُ من فطرَةٍ ؟ وصاحَبُها منَ الذينَ يَحسبونَ أنَّهُم على شيءٍ ألا إنَّهُم همُ الكاذبونَ، ولا يتعجَّبُ من هذا فإنَّ مرآةَ القَلبِ لا يزالُ يتنفَّسُ فيها حتى يَستحكمَ صداؤُها، فليسَ ببدعٍ لها أن تَرى الأشياءَ على خلافِ ما هي عليهِ، فمبدأُ الهُدى والفلاحِ صقالُ تلكَ المرآةِ، ومنعُ الهوى منَ التَّنفُّسِ فيها، وفتحُ عَينِ البَصيرَةِ في أقوالِ مَن يُسيءُ الظَّنَّ بهم كما يقبُحُها في أقوالِ مَن يحسنُ الظَّنَّ، وقيامُكَ للَّهِ وشهادتُكَ بالقسطِ وأن لا يحملكَ بُغضُ منازعيكَ وخصومِكَ على جَحدِ دينهم وتَقبيحِ محاسنهم وتَركِ العَدلِ فيهم، فإنَّ اللَّهَ لا يعتدُّ بتَعبِ مَن هذا ثناهُ ولا يجدي علمهُ نَفعاً أحوجَ ما يكونُ إليهِ، واللَّهُ يحبُّ المُقسطينَ ولا يحبُّ الظَّالمينَ .

◘ **الثامن والعشرون** : قولكُم : إنَّ مُستندَ الحُكمِ يقبحُ الكذبَ غائباً على الشاهدِ وهو فاسدٌ .

فيقال : الرَّبُّ تعالى لا يدخلُ مع خَلقهُ في قياسِ تَمثيلٍ ولا قياسِ شهودٍ يَستَوي أفرادُهُ فهذانِ الفرعانِ منَ القياسِ يَستحيلُ ثبوتُهما في حقِّهِ، وأمَّا قياسُ الأولى فهو غيرُ مُستَحيلٍ في حقِّهِ بل هو واجبٌ لهُ، وهو مُستعملٌ في حقِّهِ عَقلاً ونَقلاً؛ أمَّا العقلُ فكاستدلالِنا على أنَّ مُعطي الكمالِ أحقُّ بالكمالِ، فمَن

جَعَلَ غَيرهُ سميعاً بَصيراً عالماً مُتكلِّماً حيّاً حكيماً قادراً مريداً رَحيماً مُحسناً فهو أولى بذلكَ وأحقُّ منهُ، ويثبتُ لهُ من هذه الصِّفاتِ أكملُها وأتمُّها وهذا مُقتَضى قولِهم كمالُ المَعلولِ مُستفادٌ من كمالِ علّتِهِ، ولكن نحنُ نُنزِّهُ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ عن إطلاقِ هذه العبارَةِ في حقِّهِ، بل نقولُ : كلُّ كمالٍ ثبتَ للمَخلوقِ غيرُ مُستلزمٍ للنَّقصِ فخالقُهُ ومُعطيه إيَّاهُ أحقُّ بالاتِّصافِ بهِ، وكلُّ نَقصٍ في المَخلوقِ فالخالقُ أحقُّ بالتَّنزُّهِ عنهُ كالكذبِ والظُّلمِ والسَّفَهِ والعَيبِ، بل يجبُ تَنزيهُ الرَّبِّ تعالى عن كلِّ النَّقائصِ والعيوبِ مُطلقاً، وإن لم يتنزَّه عنها بَعضُ المَخلوقينَ .

وكذلكَ إذا استَدلَلنا على حكمتهِ تعالى بهذه الطَّرائقِ نَحوَ أن يقال : إذا كانَ الفاعلُ الحكيمُ الذي لا يفعلُ فعلاً إلّا لحكمَةٍ وغايَةٍ مَطلوبَةٍ لهُ من فعلهِ أكملَ ممَّن يفعلُ لا لغايَةٍ ولا لحكمَةٍ ولا لأجلِ عاقبَةٍ مَحمودَةٍ وهي مَطلوبَةٌ من فعلهِ في الشاهدِ ففي حقِّهِ تعالى أولى وأحرى، فإذا كانَ الفعلُ للحكمَةِ كمالاً فينا فالرَّبُّ تعالى أولى بهِ وأحقُّ، وكذلكَ إذا كانَ التَّنزُّهُ عن الظُّلمِ والكذبِ كمالاً في حقِّنا فالرَّبُّ تعالى أولى وأحقُّ بالتَّنزُّهِ عنهُ .

وبهذا ونَحوهِ ضربَ اللَّهُ الأمثالَ في القرآنِ، وذكَّرَ العقولَ ونبَّهَها وأرشدَها إلى ذلكَ؛ كقولهِ : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً رَجُلاً فيهِ شركاءُ مُتشاكسونَ ورَجُلاً سلَماً لرَجُلٍ هَل يَستويانِ مَثلاً ﴾ [الزمر : ٢٩] .

فهذا مثلٌ ضربهُ يتضمَّنُ قياسَ الأولى، يَعني إذا كانَ المَملوكُ فيكُم لهُ مُلّاكٌ مُشتركونَ فيهِ وهُم مُتنازعونَ، ومملوكٌ آخَرُ بهُ مالكٌ واحدٌ فهل يكونُ هذا وهذا سواءً ؟

فإذا كانَ هذا ليسَ عندكُم كمَن لهُ ربٌّ واحدٌ ومالكٌ واحدٌ فكيفَ تَرضونَ أن تَجعلوا لأنفسكُم آلـهَةً مُتعدِّدَةً تَجعلونَها شركاءَ للَّهِ تُحبُّونَها كما يُحبُّونَهُ وتَخافونَها كما يخافونَهُ وتَرجونَها كما يَرجونَهُ ؟

وكقولِهِ تعالى : ﴿ وإذا بُشرَ أحَدُهُم بما ضَرَبَ للرَّحمنِ مَثلاً ظَلَّ وَجهُهُ مُسودّاً وهو كظيمٌ ﴾ [الزخرف : ١٧] .

يَعني أنَ أحدكُم لا يَرضى أن يكونَ لهُ بنتٌ فكيفَ تَجعَلونَ للَّهِ مالا تَرضونهُ لأنفسكم ؟

وكقوله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبداً مَملوكاً لا يَقدرُ على شيءٍ ومَن رَزَقناهُ منَّا رزقاً حَسناً فهو يُنفقُ منهُ سرّاً وجَهراً هل يَستوونَ الحَمدُ للَّهِ بل أكثرهُم لا يَعلمونَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثلاً رجلينِ أحدُهما أبكمُ لا يَقدرُ على شيءٍ وهو كلٌّ على مَولاهُ أينما يُوجِّههُ لا يأتِ بخيرٍ هل يَستوي هو ومَن يأمرُ بالعَدلِ وهو على صراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [النحل : ٧٥ - ٧٦] .

يَعني إذا كانَ لا يَستوي عندكم عَبدٌ مَملوكٌ لا يَقدرُ على شيءٍ وغنيٌّ موسعٌ عليهِ ينفقُ ممَّا رزقهُ اللَّهُ فكيفَ تَجعَلونَ الصَّنمَ الذي هو أسوأُ حالاً من هذا العَبدِ شريكاً للَّهِ ؟

وكذلكَ إذا كانَ لا يَستوي عندكُم رجلانِ أحدهما أبكمُ لا يَعقلُ ولا يَنطقُ وهو مع ذلكَ عاجزٌ لا يَقدرُ على شيءٍ وآخَرُ على طريقٍ مُستقيمٍ في أقوالهِ وأفعالهِ وهو آمرٌ بالعَدلِ عاملٌ بهِ لأنَّهُ على صراطٍ مُستقيمٍ فكيفَ تُسوُّونَ بينَ اللَّهِ وبينَ الصَّنمِ في العبادَةِ ؟

ونظائرُ ذلكَ كثيرةٌ في القرآنِ .

وفي الحديثِ كقولهِ في حديثِ الحارثِ الأشعريِّ : « وإنَّ اللَّهَ أمَرَكُم أن تَعبدوهُ ولا تُشركوا بهِ شيئاً وإنَّ مثل مَن أشركَ كمثلِ رجلٍ اشترى عَبداً مِن خالصِ مالهِ وقال لهُ اعمَل وأَدِّ إليَّ فكانَ يَعملُ ويُؤدِّي إلى غيرهِ فأيُّكم يحبُّ أن يكونَ عبدهُ كذلكَ ؟ » .[1]

---

(١) جزء من حديث الحارث الأشعري؛ أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ ، ٢٨٦٤)، وأحمد (٤ / ٢٠٢)، والحاكم (١ / ٤٢١)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان (٦٢٠٠)، والطيالسي (١١٦١) .

من طريق يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري .

قلت : وهذا إسناد صحيح .

(تنبيه) :

قال الدكتور العتر في تعليقاته على « النخبة » (ص ٣٣) :

« وهذا إسناد صحيح؛ إلّا ما يُخشى من تدليس يحيى بن أبي كثير على ثقته وجلالته، وإلّا ما يُخشى من وهم أبي خلف، فإنَّه كانت له أوهام، لكن هذا ينجبر هنا » .

قلت : لي عدّة مآخذات على قوله :

١ - صرَّح يحيى بن أبي كثير بالتحديث عند ابن حبان والحاكم (١ / ١١٨)، وتابعه معاوية بن سلام : حدثني أخي زيد بن سلام عن جده ممطور بن الحارث به . أخرجه البيهقي (٢ / ٢٨٢) .

٢ - أمَّا أبو خلف؛ فتابعه أبان بن شريد عند : الترمذي وابن حبان والحاكم والطيالسي وغيرهم .

٣ - اقتصر الدكتور العتر على طريق أحمد، ولم يتتبع طرق الحديث ... ولا =

فاللّهُ سبحانهُ لا تُضربُ له الأمثالُ التي يشتركُ هو وخَلقهُ فيها شمولاً ولا تَمثيلاً، وإنَّما يَستعملُ في حقِّهِ قياسُ الأولى كما تَقَدَّم .

▫ **التاسع والعشرون** : إنَّ النُّفاةَ إنَّما رَدُّوا على خصومهم مِنَ الجَهميَّةِ والمُعتزلةِ في إنكارِ الصِّفاتِ بقياسِ الغائبِ على الشاهدِ؛ فقالوا : العالمُ شاهد مَن لهُ العلمُ، والمتكلِّمُ مَن قامَ بهِ الكلامُ، والحيُّ والمريدُ والقادرُ مَن قامَ بهِ الحياةُ والإرادَةُ والقدرَةُ ولا يَعقلُ إلّا هذا .

قالوا : ولأنَّ شرطَ إطلاقِ الاسمِ شاهداً وجود هذه الصِّفاتِ ولا يَستحقُّ الاسمُ في الشاهدِ إلّا مَن قامَت بهِ فكذلكَ في الغائبِ .

قالوا : ولأنَّ شرطَ العلمِ والقُدرَةِ والإرادَةِ في الشاهدِ الحياةُ فكذلكَ في الغائبِ .

قالوا : ولأنَّ علمَ كونِ العالمِ عالماً شاهداً وجودُ العلمِ وقيامهُ به،

= أدري كيف يجسر على الحكم على الأحاديث دون التتبع والاستقراء ؟!

٤ - ذكر أنَّ وهم أبي خلف ينجبر، لكنَّه لم يذكر ما يجبره .

وفي ذلك عبرة لكثير من الدكاترة وبعض الناشئة الذين لم يرسخوا ويتضلّعوا في هذا العلم الشريف أن لا يتجاسروا على حديث الرسول ﷺ تصحيحاً وتضعيفاً ! ﴿ وقفوهم إنَّهم مسؤولون ﴾ ... وصدق رسول اللّه ﷺ حيث قال :

« إذا وُسِّدَ (وفي رواية : أسند) الأمر إلى غير أهله؛ فانتظر الساعة » .

أخرجه البخاري .

وقال المصنِّف : « هذا الحديث العظيم الشأن - الذي ينبغي لكل مسلم حفظه وتعقُّله » .

وانظر لزاماً : « صحيح الوابل الصّيب » (ص ٤٠ - ٤١) بتحقيقي .

فكذلكَ في الغائبِ فقالوا : بقياسِ الغائبِ على الشاهدِ في العلَّةِ والشرطِ والاسمِ والحدِّ فقالوا : حدُّ العالمِ شاهداً مَن قامَ به العلمُ، فكذلكَ غائباً، وشرطُ صحَّةِ إطلاقِ الاسمِ عليهِ شاهداً قيامُ العلمِ بهِ فكذلكَ غائباً، وعليهِ كونهُ عالماً شاهداً قيامُ العلمِ بهِ فكذلكَ غائباً، فكيفَ تُنكرونَ هنا قياسَ الغائبِ على الشاهدِ وتَحتجُّونَ بهِ في مواضعَ أُخرى ؟

فأيُّ تناقضٍ أكثرُ من هذا فإن كانَ قياسُ الغائبِ على الشاهدِ باطلاً بطَلَ احتجاجكُم علينا به في هذه المواضعِ، وإن كانَ صَحيحاً بطلَ ردُّكُم في هذا الموضعِ، فأمَّا أن يكونَ صَحيحاً إذا استدلَلتُم به باطلاً إذا استدلَّ به خصومكُم؛ فهذا أقبحُ التَّطفيفِ، وقُبحُهُ ثابتٌ بالعقلِ والشرعِ .

□ **الثَّلاثون** : قولكُم : إنَّ اللَّه خلَّى بينَ العبادِ وظلمِ بَعضهم بَعضاً وأنَّ ذلكَ ليسَ بَقبيحٍ منهُ، فإنَّهُ قَبيحٌ منَّا؛ فذلكَ فاسدٌ على أصلِ التَّكليفِ فإنَّ التَّكليفَ، إنَّما يتمُّ بإعطاءِ القُدرَةِ والاختيارِ، واللَّهُ تعالى قَد أقدرَ عبادهُ على الطَّاعاتِ والمعاصي والصَّلاحِ والفسادِ، وهذا الإقدارُ هو مناطُ الشرعِ والأمرِ والنَّهيِ، فلولاهُ لم يكُن شرعٌ ولا رسالةٌ ولا ثوابٌ ولا عقابٌ وكانَ النَّاسُ بمنزلَةِ الجماداتِ والأشجارِ والنَّباتِ، فلو حالَ سبحانهُ بينَ العبادِ وبينَ القُدرَةِ على المعاصي لارتفَعَ الشرعُ والرَّسالَةُ والتَّكليفُ، وانتفَت فوائدُ البعثَةِ ولزِمَ مِن ذلكَ لوازمٌ لا يحبُّها اللَّهُ، وتعطَّلَت به غاياتٌ مَحمودةٌ مَحبوبةٌ للَّهِ، وهي مَلزومَةٌ لإقدارِ العبادِ وتَمكينهم منَ الطَّاعَةِ والمَعصيَةِ، ووجودُ الملزومِ بدونِ اللازمِ مُحالٌ، وقَد نبَّهنا على شيءٍ يَسيرٍ منَ الحِكَمِ المَطلوبَةِ والغاياتِ

المَحمودَةِ فيما سَلَفَ من هذا الفَصلِ وفي أوَّلِ الكتابِ .

فلو أنَّ الرَّبَّ تعالى خَلَقَ خَلقَهُ مَمنوعينَ منَ المعاصي غيرَ قادرينَ عليها بوجهٍ لم يكُن لإرسالِ الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ والأمرِ والنَّهي والثَّوابِ والعقابِ سببٌ يَقتضيهِ، ولا حكمةٌ تَستَدعيهِ، وفي ذلكَ تَعطُّلِ الأمرِ جملَةً بل تَعطيلُ الملكِ والحمدِ، والرَّبُّ تعالى لهُ الخلقُ والأمرُ، ولهُ المُلكُ والحمدُ.

والغاياتُ المَطلوبَةُ والعواقبُ المَحمودَةُ التي لأجلها أنزَلَ كتبَهُ وأرسلَ رسلَهُ، وشرعَ شرائعهُ، وخَلَقَ الجنَّةَ والنَّارَ، وَوَضَعَ الثَّوابَ والعقابَ، وذلكَ لا يَحصُلُ إلّا بإقدارِ العبادِ على الخَيرِ والشرِّ، وتَمكينهم من ذلكَ، فأعطاهم الأسبابَ والآلاتِ التي يتَمكَّنونَ بها من فعلِ هذا وهذا، فلهذا حَسُنَ منهُ تبارَكَ وتعالى التَّخليةُ بينَ عبادهِ وبينَ ما هم فاعلوهُ، وقَبُحَ مِن أحدنا أن يخلّي بينَ عبيدهِ وبينَ الإفسادِ وهو قادرٌ على منعهم، هذا مع أنَّهُ سبحانهُ لم يخلِّ بينهم بل منعهم منهُ، وحرَّمهُ عليهم، ونَصَبَ لهم العقوباتِ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة على القبائحِ، وأحلَّ بهم من بأسهِ وعذابهِ وانتقامهِ ما لا يَفعلهُ السيِّدُ منَ المَخلوقينَ بعبيدهِ؛ ليمنعهم ويزجرهم، فقولكم إنَّهُ خَلَّى بينَ عبادهِ وبينَ إفسادِ بَعضهم وظلمِ بَعضهم بَعضاً كذبٌ عليهِ، فإنَّهُ لم يخلِّ بينهم شرعاً ولا قدراً بل حالَ بينهم وبينَ ذلكَ شرعاً أتمَّ حَيلولةٍ، ومنعهم قدراً بحسبِ ما تَقتَضيهِ حكمتُهُ الباهرَةُ وعلمَهُ المُحيطُ، وخلَّى بينهم وبينَ ذلكَ بحسبِ ما تَقتَضيهِ حكمتهُ وشرعهُ ودينهُ، فمنعهُ سبحانهُ لهم حَيلولتهُ بينهم وبينَ الشرِّ أعظمُ من تَخليتهِ، والقَدرُ الذي خلَّاهُ بينهم في ذلكَ هو مَلزومُ أمرهِ وشرعهِ ودينهِ، فالذي فعَلَهُ في الطَّرفينِ غايَةُ الحكمَةِ والمَصلحَةِ، ولا نهايَةَ فوقه لاقتراحِ

عَقلٍ، ولو خَلَّى بينهم كما زعمتم لكانوا بمنزلَةِ الأنعامِ السَّائمَةِ، بل لو تَركَهُم ودواعي طباعهم لأهلكَ بَعضهم بَعضاً، وخربَ العالَمُ ومَن عليهِ، بل ألجمهم لجامَ العَجزِ والمَنعِ من كلِّ ما يُريدونَ، فلو أنَّهُ خَلَّى بينهم وبينَ ما يُريدونَ لفَسَدَت الخليقَةُ، كما ألجمهم بلجامِ الشرعِ والأمرِ ولو منعهم جملةً ولم يمكنهم ولم يقدرهم لتعطَّلَ الأمرُ والشرعُ جملَةً، وانتفَت حكمَةُ البعثَةِ والإرسالِ والثَّوابِ والعقابِ، فأيُّ حكمةٍ فوقَ هذه الحكمَةِ ؟ وأيُّ أمرٍ أحسنُ ممَّا فعلهُ بهم ؟

ولو أعطى النَّاسُ هذا المقامَ بَعضَ حقِّهِ لعلموا أنَّهُ مُقتَضى الحكمَةِ البالغَةِ والقُدرَةِ التَّامَّةِ والعلمِ المُحيطِ، وأنَّهُ غايَةُ الحكمَةِ، ومن فُتحَ لهُ بفَهمٍ في القرآنِ رآهُ من أوَّلِهِ إلى آخرهِ ينبِّهُ العقولَ على هذا، ويرشدها إليهِ، ويدلُّها عليهِ وأنَّهُ يتعالى ويتنزَّهُ أن يكونَ هذا منهُ عبثاً أو سُدىً أو باطلاً أو بغيرِ الحقِّ، أو لا لمَعنى ولا لداعٍ وباعثٍ، وأنَّ مَصدَرَ ذاكَ جميعهُ عن عزَّتهِ وحكمتهِ، ولهذا كثيراً ما يقرنُ تعالى بينَ هذينِ الاسمينِ العَزيزِ الحكيمِ في آياتِ التَّشريعِ والتَّكوينِ والجزاءِ؛ ليدلَّ عبادهُ على أنَّ مَصدرَ ذلكَ كلِّهِ عن حكمةٍ بالغَةٍ وعزَّةٍ قاهرةٍ، فَفهِمَ الموَفَّقونَ عن اللّهِ عزَّ وجَلَّ مُرادَهُ وحكمتَهُ، وانتهوا إلى ما وُقَفوا عليهِ، وَوَصَلَت إليهِ أفهامُهُم وعلومُهُم، وردّوا علمَ ما غابَ عنهم إلى أحكمِ الحاكينَ، ومَن هو بكلِّ شيءٍ عليمٍ، وتَحقَّقوا بما عملوهُ من حكمتهِ التي بَهَرَت عقولَهم أنَّ للّهِ في كلِّ ما خَلَقَ وأمرَ وأثابَ وعاقَبَ منَ الحكمِ البوالغِ ما تقصرُ عقولُهم عن إدراكهِ، وأنَّهُ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ العليمُ الحكيمُ، فمصدَرُ خَلقهِ وأمرهِ وثوابهِ وعقابهِ غناهُ وحَمدهُ

وعلمهُ وحكمتهُ ليسَ مَصدرُهُ مَشيئتهُ مجرَّدةً وقدرَة خاليَةً منَ الحكمَةِ والرَّحمَةِ والمَصلحَةِ، والغاياتِ المَحمودَةِ المَطلوبَةِ له خَلقاً وأمراً، وأنَّهُ سبحانهُ لا يُسألُ عمَّا يَفعلُ لكمالِ حكمتهِ، ووقوعِ أفعالهِ كلِّها على أحسنِ الوجوهِ وأتمِّها على الصَّوابِ والسَّدادِ، ومُطابقَةِ الحكمِ .

والعبادُ يُسألونَ إذ ليسَت أفعالُهم كذلكَ، ولهذا قال خَطيبُ الأنبياءِ شعيبٌ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم : ﴿ إنِّي تَوَكَّلتُ على اللَّهِ ربِّي وربِّكُم ما مِن دابَّةٍ إلّا هو آخذٌ بناصِيَتِها إنَّ ربِّي على صراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] .

فأخبرَ عن عمومِ قدرتهِ تعالى، وأنَّ الخَلقَ كلَّهُم تَحتَ تَسخيرهِ وقدرتهِ، وأنَّهُ آخذٌ بنواصيهم، فلا مَحيصَ لهم عن نفوذِ مَشيئتهِ وقدرتهِ فيهم .

ثمَّ عقَّبَ ذلكَ بالإخبارِ عن تصرُّفهِ فيهم، وأنَّهُ بالعَدلِ لا بالظُّلمِ، وبالإحسانِ لا بالإساءَةِ، وبالصَّلاحِ لا بالفسادِ، فهو يأمرهم ويَنهاهم إحساناً إليهم، وحمايَةً وصيانَةً لهم، ولا حاجَةَ إليهم، ولا بُخلاً عليهم بل جُوداً وكرماً ولُطفاً وبرّاً، ويثيبهم إحساناً وتفضُّلاً ورَحمَةً لا لمعاوضةٍ واستحقاقٍ منهم ودَينٍ واجبٍ لهم يَستحقُّونهُ عليهِ، ويُعاقبهم عَدلاً وحكمَةً لا تشفِّياً ولا مَخافَةً ولا ظُلماً كما يعاقبُ الملوكُ وغيرُهُم، بل هو على الصِّراطِ المُستقيمِ، وهو صراطُ العَدلِ والإحسانِ في أمرهِ ونَهيهِ وثوابهِ وعقابهِ .

فتأمَّل ألفاظَ هذه الآيَةِ وما جمَعتهُ من عمومِ القُدرَةِ وكمالِ المُلكِ ومن تمامِ الحكمَةِ والعَدلِ والإحسانِ، وما تَضمَّنتهُ منَ الرَّدِّ على الطَّائفتينِ، فإنَّها من كنوزِ القرآنِ، ولقَد كَفَت وشفَت لمَن فُتحَ عليهِ بفَهمها، فكونهُ تعالى

على صراطٍ مُستقيمٍ ينفي ظلمَهُ للعبادِ وتَكليفَهِ إيَّاهُم ما لا يُطيقونَ، ويَنفي العَيبَ مِن أفعالهِ وشرعهِ، ويثبتُ لها غايَةَ الحكمَةِ والسَّدادِ ردّاً على مُنكري ذلكَ، وكونُ كلِّ دابَّةٍ تَحتَ قَبضتهِ وقدرتهِ وهو آخذٌ بناصيتها يَنبَغي أن لا يَقَعَ في مُلكهِ من أحدِ المَخلوقاتِ شيءٌ بغيرِ مَشيئتهِ وقدرتهِ، وأنَّ مَن ناصيتُهُ بيدِ اللَّهِ وفي قَبضتهِ لا يُمكنهُ أن يتحرَّكَ إلّا بتَحريكهِ، ولا يفعلُ إلّا بإقدارهِ، ولا يشاءُ إلّا بمَشيئتهِ تعالى ردّاً على مُنكري ذلكَ منَ القدريَّة، فالطَّائفتانِ ما وفَيا الآيَةَ معناها، ولا قدَّروها حقَّ قَدرها، فهو سبحانهُ على صراطٍ مُستقيمٍ في عطائهِ ومَنعهِ، وهدايتهِ وإضلالهِ، وفي نَفعهِ وضرِّهِ، وعافيتهِ وبلائهِ، وإغناهِ وإفقارهِ، وأعزازهِ وإذلالهِ، وإنعامهِ وانتقامهِ، وثوابهِ وعقابهِ، وإحيائهِ وإماتتهِ، وأمرهِ ونَهيهِ وتَحريمهِ، وفي كلِّ ما يخلقُ وكلِّ ما يأمرُ بهِ، وهذه المعرفَةُ باللَّهِ لا تكونُ إلّا للأنبياءِ ولوَرَثَتِهِم .

ونَظيرُ هذه الآيَةِ قولهُ تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَينِ أحدُهما أبكَمُ لا يَقدِرُ على شيءٍ وَهوَ كلٌّ على مَولاهُ أينَما يُوَجِّههُ لا يأتِ بِخَيرٍ هَل يَستَوي هُوَ وَمَن يَأمُرُ بِالعَدلِ وَهوَ على صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [النحل : ٧٦] .

فالمثلُ الأوَّلُ للصَّنمِ وعابديهِ، والمثلُ الثَّاني ضَربهُ اللَّهُ تعالى لنفسهِ، وأنَّهُ يأمرُ بالعَدلِ وهو على صراطٍ مُستقيمٍ، فكيفَ يُسَوَّى بينَ الصَّنمِ الذي لهُ مثلُ السَّوءِ ؟ فما فعلهُ الرَّبُّ تباركَ وتَعالى مع عبادهِ هو غايَةُ الحكمَةِ والإحسانِ والعَدلِ في إقدارهم، وإعطائهم، ومَنعهم، وأمرهم، ونَهيهم، فَدعوى المُدَّعي أنَّ هذا نَظيرُ تَخليَةِ السيِّدِ بينَ عبيدهِ وإمائهِ يفجرُ بعضهم ببعضٍ، ويسيءُ بَعضهم بَعضاً أكذبُ دَعوىً وأبطلُها، والفرقُ بينهما أظهرُ

وأعظمُ من أن يَحتاجَ إلى ذكرهِ والتَّنبيهِ عليهِ، والحمدُ للَّهِ الغنيِّ الحميدِ فغناهُ التَّامُّ فارقٌ، وحَمدهُ، وملكهُ، وعزَّتهُ، وحكمتهُ، وعلمهُ، وإحسانهُ، وعَدلهُ، ودينهُ، وشرعهُ، وحكمهُ، وكرمهُ، ومحبَّتهُ للمَغفرَةِ، والعَفوِ عن الجُناةِ، والصَّفحِ عن المُسيئين، وتَوبَةِ التَّائبينَ، وصبرِ الصَّابرينَ، وشكرِ الشاكرينَ الذينَ يُؤثرونهُ على غيرهِ، ويتطلَّبونَ مراضيهِ ويَعبدونهُ وحدَهُ، ويَسيرونَ في عبيدهِ بسيرَةِ العَدلِ والإحسانِ والنَّصائحِ، ويجاهدونَ أعداءهُ، فَيَبذلونَ دماءهُم وأموالهم في محبَّتهِ ومَرضاتهِ، فيتميَّزُ الخبيثُ منَ الطيِّبِ، ووليُّهُ من عدوِّهِ، ويُخرجُ طيِّباتِ هؤلاءِ وخبائثِ أولئكَ إلى الخارجِ، فيترتَّبُ عليها آثارُها المَحبوبَةُ للرَّبِّ تعالى مِنَ الثَّوابِ والعقابِ، والحمدِ لأوليائهِ، والذمِّ لأعدائهِ، وقَد نبَّهَ تعالى على هذه الحكمَةِ في كتابهِ في غيرِ مَوضعٍ، كقوله تعالى : ﴿ ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ المُؤمنينَ على ما أنتُم عَلَيهِ حتى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وما كانَ اللَّهُ ليُطلعكم على الغيبِ ولكنَّ اللَّهَ يَجتَبي مِن رُسلِهِ مَن يشاءُ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

هذه الآيَةُ مِن كنوزِ القرآنِ نبَّهَ فيها على حكمتهِ تعالى المُقتضيَةِ تَمييزَ الخَبيثَ منَ الطَّيِّبِ، وأنَّ ذلكَ التَّمييزُ لا يقعُ إلّا برسلهِ، فاجتَبى منهم مَن شاءَ وأرسلهُ إلى عبادهِ، فيتميَّزُ برسالتهم الخبيثُ منَ الطِّيِّبِ، والوَليُّ منَ العَدوِّ، ومَن يَصلحُ لمُجاورتهِ وقُربهِ وكرامتهِ ممَّن لا يَصلحُ إلّا للوَقودِ .

وفي هذا تَنبيهٌ على الحكمَةِ في إرسالِ الرُّسلِ، وأنَّهُ لابدَّ منهُ، وأنَّ اللَّه تعالى لا يَليقُ به الإخلالُ به، وأنَّ مَن جَحَدَ رسالةَ رسلهِ فما قَدَرَهُ حقَّ قَدرهِ، ولا عَرَفَهُ حقَّ مَعرفتهِ، ونَسَبَهُ إلى ما لا يَليقُ به، كما قالَ تعالى : ﴿ وما قَدَرَوا

اللَّهَ حَقَّ قَدرِهِ إذ قالوا ما أنزَلَ اللَّهُ على بَشرٍ من شيءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

فتأمَّل هذا المَوضعَ حقَّ التَّأمُّل وأعطِهِ حظَّهُ منَ الفِكرِ، فلو لم يكُن في هذا الكتابِ سواه لكانَ من أجلِّ ما يُستفادُ، واللَّهُ الـهادي إلى سبيلِ الرَّشادِ .

▫ **الحادي والثَّلاثين** : قولكُم : إنَّ الإغراقَ والإهلاكَ يَـخسُّ منهُ تعالى، وهو أقبحُ شيءٍ منَّا، فكيفَ يَدعونَ حسنَ إنقاذِ الغَرقى عَقلاً إلى آخرهِ كلامٌ فاسدٌ جدَّاً، فإنَّ الإغراقَ والإهلاكَ منَ الرَّبِّ تعالى لا يـخرجُ قطُّ عن الـمَصلحَةِ والعَدلِ والـحكمَةِ فإنَّهُ إذا أغرَقَ أعداءهُ وأهلكهُم وانتقَمَ منهم كانَ هذا غايَةَ الـحكمَةِ والعَدلِ والـمَصلحَةِ، وإن أغرَقَ أولياءَهُ وأهلَ طاعتهِ فهو سببٌ منَ الأسبابِ التي نَصَبَها لموتهم، وتَـخليصهم منَ الدُّنيا، والوُصولِ إلى دارِ كرامتهِ ومحلِّ قُربهِ، ولابدَّ من موتٍ على كلِّ حالٍ فاختارَ لهم أكملَ الـمَوتَتينِ وأنفعَها لهم في معادهم، ليوصلهم إلى درجاتٍ عاليةٍ لا تُنالُ إلّا بتلكَ الأسابِ التي نَصَبَها اللَّهُ موصلُها كإيصالِ سائرِ الأسبابِ إلى مُسبَّباتها، ولهذا سلَّطَ على أنبيائهِ وأولياءهِ ما سلَّطَ عليهم منَ القَتلِ وأذى النَّاسِ وظلمهم لهم وعُدوانهم عليهم وما ذاكَ لهوانهم عليهِ ولا لكرامَةِ أعدائهم عليهِ، بل ذاكَ عَينُ كرامتهم وهوانِ أعدائهم عليهِ وسقوطهم من عَينهِ، لينالوا بذلكَ ما خُلقوا لهُ من مساكنَتهم في دارِ الـهوانُ وينالُ أولياؤه وحزبهُ ما هُيِّىءَ لهم منَ الدَّرجاتِ العُلى والنَّعيمِ الـمُقيمِ، فكلُّ تَسليطِ أعدائهِ وأعدائهم عليهم عَينُ كرامتهم وعَينُ إهانَةِ أعدائهم، فهذا مِن بَعضِ حكمهِ تعالى في ذلكَ، ووراء ذلكَ منَ الحكَمِ ما لا تبلغهُ العقولُ والأفهامُ، وكانَ إغراقُهُ وإهلاكُهُ وابتلاؤهُ

محضَ الحكمَةِ والعَدلِ في حقِّ أعدائهِ ومَحض الإحسانِ والفَضلِ والرَّحمَةِ في حقِّ أوليائهِ، فلهذا حَسُنَ منهُ .

ولعلَّ الإغراقَ وتَسليطَ القَتلِ عليهم أسهلُ الموتَتينِ عليهم مع ما في ضِمنهِ منَ الثَّوابِ العظيمِ، فيكونُ وقد بلغَ حسنُ اختيارهِ لهم إلى أن خفَّفَ عليهم الموتَةَ وأعاضهم عليها أفضَلَ الثَّوابِ، فإنَّهُ لا يجدُ الشهيدُ مِن ألَمِ القَتلِ إلّا كمسِّ القَرصَةِ .

ومَن لَم يَمُت بالسَّيفِ ماتَ بغَيرهِ
تَنوَّعَتِ الأسبابُ والمَوتُ واحدُ

فليسَ إماتَةُ أوليائهِ شهداء بيدِ أعدائهِ إهانةً لهم، ولا غَضباً عليهم، بل كرامَةً ورَحمَةً وإحساناً ولطفاً، وكذلكَ الغرقُ، والحرقُ، والرَّدمُ، والتَّردِّي، والبطنُ، وغيرُ ذلكَ، والمَخلوقُ ليسَ بهذه المثابَةِ، فلهذا قبحَ منهُ الإغراقُ والإهلاكُ، وحَسُنَ منَ اللطيفِ الخَبيرِ .

□ **الثَّاني والثَّلاثون** : قولكُم : إذا كانَ للَّهِ في إغراقهِ وإهلاكهِ سبحانهُ حكمةٌ وسرٌّ لا نطَّلعُ عليهِ نحنُ، فَقَد رأوا مثلهُ في تركِ إنقاذِنا الغَرقى كلامٌ تُغني ركَّتُهُ وفسادُهُ عن تَكلُّفِ رَدِّهِ، وهلا يجوزُ أن يقالَ إذا كانَ للَّهِ الحكمَةُ البالغَةُ والأسرارُ العَظيمَةُ في إهلاكِ مَن يهلكهُ وابتلاءِ مَن يَبتليهِ، ولهذا حسنَ منهُ ذلكَ فيلزمُ من هذا أن يقالَ يجوزُ أن يكونَ في تركنا إنجاء الغَرقى، ونَصر المَظلومِ، وسدّ الخلَّةِ، وستر العَورَةِ حكماً وأسراراً لا يعلمها العقلاءُ، والمناكدَةُ في البحوثِ إذا وصَلَت إلى هذا الحدِّ سمجت وثقلت

على النُّفوسِ، ومَجَّتها القلوبُ والأسماعُ .

□ **الثالث والثَّلاثون** : قولكُم العقلانِ من حيث الصِّفات النَّفسيَّة واحدَة فكيفَ يقبحُ أحدهما من فاعلٍ ويحسنُ الآخَر ؟ وبمنزلةِ أن يقالَ : السُّجودُ للَّهِ والسُّجودُ للصَّنمِ واحدٌ من حيث الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ فكيفَ يقبحُ أحدهما ويحسنُ الآخر ؟

وهل في الباطلِ أبطلُ من هذا الوَهمِ ؟ فما جعَلَ اللَّهُ ذلكَ واحداً أصلاً، وليسَ إماتَةُ اللَّهِ لعَبدهِ مثلَ قتلِ المَخلوقِ لهُ، ولا إجاعَتهُ وإعراؤهُ وابتلاؤهُ مُساوياً في الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ لفعلِ المَخلوقِ بالمَخلوقِ ذلكَ، ودَعوى التَّساوي كذبٌ وباطلٌ، فلا أعظمَ منَ التَّفاوتِ بينهما، وهل يُساوي هذا الفعلُ والفطرةُ فعلَ اللَّهِ وفعلَ المَخلوقِ .

فياللَّهِ العَجبُ إن يتناولهما اسم الفعلِ المُشترك صارا سواء في الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ أتَرى حصلَ لهما هذا التَّساوي من جهَةِ الفعلينِ ؟ والذي أوجبَ هذا الخيالَ الفاسدَ اتِّحادُ المحلِّ وتعلّقُ الفعلينِ بهِ، وهل يدلُّ هذا على استواءِ الفعلينِ في الصِّفاتِ النَّفسيَّةِ ؟ ولقد وَهَت أركانُ مسألةٍ بُنيَت على هذا الشَّفا فإنَّهُ شفا جرفٍ هارٍ، واللَّهُ المُستعانُ .

□ **الرَّابع والثلاثون** : قولكم : مواجبُ العقولِ في أصلِ التَّكليفِ معارضةُ الأصولِ .

فيقال : معاذ اللَّه من تعارضهما بل هي متَّفقةُ الأصولِ، مستقرٌّ حُسْنُها في العقولِ والفِطَرِ، مركوزٌ ذلكَ فيها، فما شرعَ اللَّهُ شيئاً فقال العقلُ السَّليمُ

ليتهُ شرعَ خلافهُ، بل هي مُتعارِضَةٌ بينَ العَقلِ والـهوى، والعقلُ يَقضي بـحُسنِها ويَدعو إليها ويأمرُ بمُتابعتها جملةً في بَعضها، وجملَةً وتَفصيلاً في بَعضٍ، والـهوى والشهوَةُ قد يَدعوانِ غالباً إلى خلافها، فالتَّعارضُ واقعٌ بينَ مواجبِ العقولِ ومواجبِ الـهوى، وما جعلَ اللَّهُ في العَقلِ ولا في الفطرةِ استقباحاً لما أمرَ به، ولا استحساناً لما نَهى عنهُ، وإن مالَ الهوى إلى خلافِ أمرهِ ونَهيهِ؛ فالعَقلُ حينئذٍ يكونُ مأموراً مع الـهوى مَقهوراً في قبضتهِ وتَـحتَ سلطانهِ.

▫ **الخامس والثلاثون** : قولكُم نُطالبكُم بإظهارِ وجهِ الـحُسنِ في أصلِ التَّكليفِ وإيجابهِ عَقلاً وشرعاً .

فيقالُ : ياللَّهِ العجب أيـحتاجُ أمرُ اللَّهِ تعالى لعبادهِ بما فيهِ غايَةُ صلاحهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ونَهيهُ لهم عمَّا فيه هلاكهم وشقاؤهم في معاشهم ومَعادهم إلى المُطالبَةِ بـحسنهِ ؟ ثمَّ لا يَقتصرُ على الـمُطالبَةِ بـحسنهِ عَقلاً حتى يطالبَ بـحسنهِ عَقلاً وشرعاً، فأيُّ حسنٍ لم يأمرِ اللَّهُ بهِ ويستحبَّهُ لعبادهِ ويَندبهم إليهِ ؟ وأيُّ حُسنٍ فوقَ حُسنِ ما أمرَ بهِ وشرعَهُ ؟ وأيُّ قَبيحٍ لم يَنهَ عنهُ ولم يَزجر عبادَهُ من ارتكابهِ ؟ وأيُّ قُبحٍ فوقَ ما نَهى عنهُ ؟ وهَل في العَقلِ دليلٌ أوضحُ من علمهِ بـحُسنِ ما أمرَ اللَّهُ به منَ الإيمانِ والإحسانِ، وتفاصيلها منَ العَدلِ والإحسانِ، وإيتاءِ ذي القُربى، وأنواعِ البرِّ والتَّقوى، وكلُّ مَعروفٍ تَشهدُ الفطرُ والعقولُ بهِ من عبادتهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ على أكملِ الوُجوهِ وأتـمِّها، والإحسانِ إلى خَلقهِ بـحسبِ الإمكانِ، فليسَ في العقلِ مقدِّماتٌ هي أوضحُ من هذا المُستدلِّ عليهِ، فيجعل دليلاً لهُ، وكذلكَ ليسَ في العَقلِ دليلٌ أوصحُ من قبحِ ما نَهى عنهُ منَ الفواحشِ ما ظَهَرَ منها وما

بَطَنَ، والإثم والبَغيَ بغيرِ الحقِّ، والشركِ باللَّهِ بأن يُجعَلَ لهُ عَديلٌ من خَلفِهِ، فيعبدَ كما يُعبَدُ، ويحبَّ كما يحبُّ، ويعظَّمَ كما يعظَّمُ، ومن الكذبِ على اللَّهِ وعلى أنبيائهِ وعبادهِ المؤمنينَ الذي فيهِ خَرابُ العالمِ وفسادُ الوجودِ، فأيُّ عَقلٍ لم يدرك حُسنَ ذلكَ وقُبحَ هذا فأحرى أن لا يُدركَ الدَّليلَ على ذلكَ .

وليسَ يَصحُّ في الأذهانِ شيءٌ   إذا احتاجَ النَّهارُ إلى الدَّليلِ

فما أبقى اللَّهُ عزَّ وجَلَّ حسناً إلّا أمرَ بهِ وشرعهُ ولا قبيحاً إلّا نَهى عنهُ وحذَّرَ منهُ .

ثمَّ إنَّهُ سبحانهُ أودعَ في الفِطَرِ والعقولِ الإقرارَ بذلكَ، فأقامَ عليها الحجَّةَ منَ الوَجهينِ، ولكن اقتَضَت رحمتُهُ وحكمتُهُ أن لا يعذِّبَها إلّا بَعدَ إقامتها عليها برسلهِ، وإن كانَت قائمةً عليها بما أودعَ فيها واستَشهَدها عليهِ منَ الإقرارِ به وبوحدانيَّتِهِ واستحقاقهِ الشكرَ من عبادهِ بحسبِ طاقتهم على نعمهِ، وبما نَصَبَ عليها منَ الأدلَّةِ المُتنوِّعَةِ المُستلزمَةِ إقرارها بحُسنِ الحُسنِ قُبحِ القبيحِ .

□ **السادس والثلاثون** : إنَّا نَذكرُ لكُم وجهاً من الوجوهِ الدَّالَّةِ على وجهِ الحُسنِ في أصلِ التَّكليفِ والإيجابِ، فنقولُ : لا ريبَ أنَّ إلزامَ النَّاسِ شريعَةً يأتمرونَ بأوامرها التي فيها صلاحهُم، ويَنتهونَ عن مناهيها التي فيها فَسادهُم أحسنُ عندَ كلِّ عاقلٍ من تركهم هَمَلاً كالأنعامِ لا يَعرفونَ مَعروفاً، ولا ينكرونَ مُنكراً، ويَنزو بَعضُهُم على بَعضٍ نَزوَ الكلابِ والحُمرِ، ويَعدو بَعضُهم على بَعضٍ عَدوَ السِّباعِ والكلابِ والذِّئابِ، ويأكلُ قويُّهُم

ضَعيفَهم، ولا يَعرفونَ اللَّهَ، ولا يَعبدونهُ، ولا يَذكرونهُ، ولا يَشكرونهُ، ولا يمجِّدونهُ، ولا يَدينونَ بدينٍ بل هم من جنسِ الأنعامِ السَّائمَةِ، ومن كابرَ عَقلُهِ في هذا سقط الكلامُ معهُ ونادى على نَفسهِ بغايَةِ الوَقاحَةِ ومُفارقَةِ الإنسانيَّةِ، وما نَظيرُ مطالبتكُم هذه إلّا مُطالبَةُ مَن يقولُ : نَحنُ نُطالبُكُم بإظهارِ وجهِ المَنفعَةِ في خَلقِ الماءِ، والهواءِ، والرِّياحِ، والتُّرابِ، وخَلقِ الأقواتِ، والفواكهِ، والأنعامِ، بل في خَلقِ الأسماعِ، والأبصارِ، والألسنِ، والقُوى، والأعضاء التي في العَبدِ، فإنَّ هذه أسبابٌ ووسائلُ ووسائطُ .

وأمَّا أمرُهُ وشرعُهُ ودينُهُ فكمالُهُ غايَةٌ وسعادَةٌ في المعاشِ والمعادِ ولا ريبَ عند العقلاء أنَّ وجهَ الحُسنِ فيهِ أعظمُ من وجهِ الحُسنِ في الأمورِ الحسِّيَّةِ، وإن كانَ الحُسنُ هو الغالبُ على النَّاسِ، وإنَّما غايَةُ أكثرِهم إدراكُ الحسنِ والمنفعَةِ في الحسيَّات وتَقديمِها وإيثارها على مداركِ العقولِ والبصائرِ، قال تعالى : ﴿ وَلكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ * يعلَمونَ ظاهراً منَ الحياةِ الدُّنيا وهم عن الآخِرَةِ هم غافلونَ ﴾ [الروم : ٦ - ٧] .

ولو ذهَبنا نَذكرُ وجوهَ المحاسنِ المودعَةِ في الشريعَةِ لزادَت على الألوفِ، ولعلَّ اللَّهَ أن يساعدهُ بمصنَّفٍ في ذلكَ، مع أنَّ هذه المسألَةَ بابهُ وقاعدتهُ التي عليها بناؤهُ .

□ **السابع والثلاثون** : قولكُم : إنَّهُ سبحانهُ لا يتضرَّرُ بمعصيَةِ العَبدِ، ولا ينتفعُ بطاعتهِ، ولا تَتوقَّفُ قدرتُهُ في الإحسانِ على فعلٍ يَصدرُ منَ العَبدِ، بل كما أنعمَ عليهِ ابتداءً فهو قادرٌ على أن يُنعمَ عليهِ بلا توسطٍ .

فيقال : هذا حقٌّ ولكن لا يلزمُ فيهِ أن لا تكونَ الشريعَةُ والأمرُ والنَّهيُ مَعلومةَ الحُسنِ عَقلاً ولا شرعاً، ولا يلزمُ منهُ أيضاً عدمُ حُسنِ التَّكليفِ عَقلاً ولا شرعاً، فذكرُكُم هذا عَديمِ الفائدَةِ، فإنَّهُ لم يقُل منازعوكُم ولا غيرهم إنَّ اللَّهَ سبحانهُ يتضرَّرُ بمعاصي العبادِ وينتفعُ بطاعتهم، ولا إنَّهُ غيرُ قادرٍ على إيصالِ الإحسانِ إليهم بلا واسطَةٍ، ولكنَّ التَّكليفَ وتَركَ العبادِ هَمَلاً كالأنعامِ لا يُؤمرونَ ولا يُنهون مُنافٍ لحكمتهِ وحمدهِ وكمالِ مُلكهِ وإلهيَّتهِ، فيجبُ تَنزيههُ عنهُ، ومَن نسبَهُ إليهِ فما قَدَرَهُ حقَّ قَدرهِ، وحكمتُهُ البالغَةُ اقتَضَت الإنعامَ عليهم ابتداءً وبواسطةِ الإيمانِ، والواسطَة في إنعامهِ عليهم أيضاً، فهو المُنعمُ بالوَسيلةِ والغايَةِ، ولهُ الحمدُ والنِّعمَةُ في هذا وهذا؛ يوضِّحهُ :

▫ **الثامن والثلاثون** : وهو أنَّ إنعامَهُ عليهِ ابتداءً بالإيجادِ وإعطاءِ الحياةِ، والعَقلِ، والسَّمعِ، والبَصرِ، والنِّعمِ التي سخَّرها لهُ إنَّما فعلها بهِ لأجلِ عبادتهِ إيَّاه وشكرهِ لهُ : كما قال تعالى : ﴿ وَما خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعبدونِ ﴾ [الذاريات : ٦٥]، وقال تعالى : ﴿ قُل ما يَعبأُ بكُم ربِّي لَولا دُعاؤُكُم ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وأصحُّ الأقوالِ في الآيَةِ : أنَّ مَعناها ما يَصنعُ بكُم ربِّي لولا عبادتُكُم إيَّاه فهو سبحانهُ لم يَخلُقُكُم إلَّا لعبادتهِ فكيفَ يقالُ بعدَ هذا أنَّ تَكليفَهُ إيَّاهُم عبادتهُ غيرُ حسنٍ في العقلِ، لأنَّهُ قادرٌ على الإنعامِ عليهم بالجزاءِ من غيرِ توسُّطِ العبادَةِ ؟

▫ **التاسع والثلاثون** : أنَّ قدرتهُ سبحانهُ على الشيءِ لا تَنفي

حكمتهُ البالغَةَ من وجودهِ؛ فإنَّهُ تعالى يَقدرُ على مَقدوراتٍ تمنعُ بحكمتهِ؛ كقدرتهِ على قيامهِ السَّاعَةَ الآن، وقدرتهِ على إرسالِ الرُّسلِ بعدَ النَّبيِّ ﷺ وقدرتهِ على إبقائهم بينَ ظهورِ الأمَّةِ إلى يومِ القيامَةِ، وقدرتهِ على إماتَةِ إبليسَ وجنودهِ وإراحَةِ العالَمِ منهم وقَد ذكرَ سبحانهُ في القرآنِ قدرتهُ على مالا يَفعلهُ لحكمتهِ في غيرِ موضعٍ كقولهِ تعالى : ﴿ قُل هوَ القادرُ على أن يَبعَثَ عَلَيكُم عَذاباً مِن فَوقِكُم أو مِن تَحتِ أرجُلِكُم ﴾ [الأنعام : ٦٥]، وقوله تعالى : ﴿ وأنزَلنا منَ السَّماءِ ماءً بِقَدرٍ فأسكَنَّاهُ في الأرضِ وإنَّا على ذهابٍ بهِ لقادرونَ ﴾ [المؤمنون : ١٨] .

فهذه وغيرُها مَقدوراتٌ لهُ سُبحانهُ وإنَّما امتَنَعَت لكمالِ حكمتهِ، فهي التي اقتَضَت عدَمَ وقوعِها، فلا يَلزمُ من كونِ الشيءِ مَقدوراً أن يكونَ حسناً موافقاً للحكمَةِ وعلى هذا فقُدرتُهُ تباركَ وتعالى على ما ذكرتم لا تَقتَضي حسَنهُ وموافقَتهُ لحكمتهِ، ونَحنُ إنَّما نتكلَّمُ معهم في الثَّاني لا في الأوَّلِ، فالكلامُ في الحكمَةِ يَقتَضي الحكمَةَ، والعنايَةُ غيرُ الكلامِ في المَقدورِ، فتعلّقُ الحكمَةِ شيءٌ، ومتعلّقُ القُدرَةِ شيءٌ، ولكن أنتُم إنَّما أوتيتُم من إنكارِ الحكمَةِ، فلا يُمكنكُم التَّفريقَ بينَ المُتعلِّقين بل قَد اعتَرَفَ سلفكُم وأئمَّتكُم بأنَّ الحكمَةَ لا تَخرجُ عن صحَّةِ تعلُّقهِ بالمَقدورِ ومطابقتهِ لها، أو تعلَّق العلمِ بالمَعلومِ ومُطابقتهِ لهُ، ولما بنَيتُم على هذا الأصلِ لم يُمكنكُم الفرقَ بينَ موجبِ الحكمَةِ وموجبِ القُدرَةِ، فتَوعَّرَت عليكم الطَّريقُ، وألجأتُم أنفسكم إلى أصعَبِ مَضيقٍ .

□ **الأربعون** : قولكُم : إنَّهُ تعالى لو ألقى إلى العَبدِ زِمامَ الاختيارِ وتركهُ يَفعلُ ما يشاءُ جرياً على رسومِ طَبعهِ المائلِ إلى لذيذِ الشهواتِ، ثمَّ أجزلَ لهُ في العطاءِ من غيرِ حسابٍ كانَ أروحَ للعَبدِ ولم يكُن قَبيحاً عندَ العَقلِ .

فيقال : لكُم ما تَعنونَ بإلقاءِ زمامِ الاختيارِ إليهِ، أتَعنونَ بهِ أنَّهُ لا يكلِّفهُ ولا يأمرهُ ولا يَنهاهُ ؟ بل يجعلهُ كالبَهيمَةِ السَّائمَةِ المُهملَةِ، أم تَعنونَ بهِ أنَّهُ يلقي إليهِ زمامَ الاختيارِ مع تَكليفهِ وأمرهِ ونَهيهِ ؟

فإن عنَيتُم الأوَّلَ فهو من أقبحِ شيءٍ في العَقلِ وأعظمهِ نَقصاً في الآدميِّ، ولو تركَ ورسوم طَبعهِ لكانَت البهائمُ أكملُ منهُ، ولم يكُن مكرَّماً مفضَّلاً على كثيرٍ ممَّن خَلَقَ اللَّهُ تَفضيلاً، بل كانَ كثيرٌ منَ المَخلوقاتِ أو أكثرِها مفضَّلاً عليهِ، فإنَّهُ يكونُ مَصدوداً عن كمالهِ الذي هو مُستَعدٌّ لهُ قابلٌ لهُ، وذلكَ أسوأُ حالاً وأعظمُ نَقصاً ممَّا منعَ كمالاً ليسَ قابلاً لهُ .

وتأمَّل حالَ الآدميِّ المُخلَّى ورسومَ طَبعهِ المَتروكَ ودواعي هواه كيفَ تَجدهُ في شرارِ الخَليقَةِ وأفسدِها للعالَمِ، ولولا مَن يأخذُ على يَديهِ لأهلكَ الحَرثَ والنَّسلَ وكانَ شرَّاً من الخنازيرِ والذِّئابِ والحيَّاتِ، فكيفَ يَستَوي في العَقلِ أمرُهُ ونَهيُهُ بما فيهِ صلاحهُ وصلاحُ غيرهِ بهِ وتَركُهُ وما فيهِ أعظمُ فسادِهُ وفسادِ النَّوعِ وغيرهِ بهِ ؟ وكيفَ لا يكونُ هذا القولُ قَبيحاً وأيُّ قبحٍ أعظمُ من هذا ؟

ولهذا أنكرَ اللَّهُ سبحانهُ على مَن جوَّزَ عَقلُهُ مثلَ هذا، ونزَّهَ نَفسهُ عنهُ، فقال تعالى : ﴿ أيَحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدى ﴾ [القيامة : ٣٦] .

قال الشافعيُّ : معطَّلاً لا يؤمَرُ ولا يُنهى، وقيلَ : لا يُثابُ ولا يُعاقبُ .

وقال تعالى : ﴿ أفحسبتُم أنَّما خَلَقناكُم عَبَثاً وأنَّكُم إلينا لا تُرجَعون ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

ثمَّ نَزَّهَ نَفسهُ عن هذا الظَّنِّ الكاذبِ، وأنَّهُ لا يليقُ به ولا يَجوزُ في العقولِ نسبةُ مثلهِ إليهِ لـمُنافاتهِ لـحكمتهِ وربوبيَّتهِ وإلـهيَّتهِ وحمدهِ، فقال : ﴿ فتَعالى اللَّهُ الملكُ الـحقُّ لا إلهَ إلّا هوَ ربُّ العَرضِ الكريمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ وما خَلَقنا السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهما لاعبينَ * ما خَلَقناهما إلّا بالـحَقِّ ﴾ [الدخان : ٣٨ - ٣٩] .

وفُسِّرَ الـحقُّ بالثَّوابِ والعقابِ، وفُسِّرَ بالأمرِ والنَّهـيِ، وهذا تَفسيرٌ لهُ ببعضِ معناهُ .

والصَّوابُ : أنَّ الـحقَّ هو إلـهيَّتُـهُ وحكمتُهُ الـمُتضمِّنَةُ للـخَلقِ والأمرِ والثَّوابِ والعقابِ، فمَصدَرُ ذلكَ كلِّهِ الـحقُّ، وبالـحقِّ وُجدَ، وبالـحقِّ قامَ، وغايتُهُ الحقُّ، وبه قيامهُ، فـمُحالٌ أن يكونَ على غيرِ هذا الوَجهِ، فإنَّهُ يكونُ باطلاً وعَبثاً، فتعالى اللَّهُ عنهُ لمنافاتهِ إلـهيَّتِهِ وحكمتهِ وكمالِ مُلكهِ وحمدهِ .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ الَّذينَ يَذكرونَ اللَّهَ قياماً وقُعوداً وعلى جنوبهم ويتفكَّرونَ في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ ربَّنا ما خَلَقتَ هذا باطلاً سُبحانَكَ فقنا عَذابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١] .

وتأمَّل كيفَ أخبرَ سبحانهُ عنهُ بنفيِ الباطليَّةِ عن خَلقهِ دونَ إثباتِ الحكمَةِ، لأنَّ بيانَ نَفيِ الباطلِ على سبيلِ العمومِ والاستغراقِ أوغَلَ في المَعنى المَقصودِ وأبلغُ من إثباتِ الحُكمِ، لأنَّ بيانَ جميعها لا يَفي بهِ أفهام الخليقَةِ وبيان البَعضِ يؤذنُ بتناهي الحكمَةِ، ونَفي البُطلانِ والخُلوِّ عن الحكمَةِ والفائدَةِ تفيدُ أنَّ كلَّ جزءٍ من أجزاءِ العالمِ علويِّهِ وسفليِّهِ متضمِّنٌ لحِكمٍ جمَّةٍ وآياتٍ باهرَةٍ .

ثمَّ أخبرَ سبحانهُ عنهم بتنزيههِ عن الخَلقِ باطلاً خلوّاً عن الحكمَةِ، ولا مَعنى لهذا التَّنزيهِ عندَ النُّفاةِ فإنَّ الباطلَ عندهم هو المُحالُ لذاتهِ، فعلى قولهم نَزهوهُ عن المحالِ لذاتهِ الذي ليسَ بشيءٍ كالجمعِ بينَ النَّقيضينِ وكونِ الجسمِ الواحدِ لا يكونُ في مكانين، ومعلومٌ قَطعاً أنَّ هذا ليسَ مرادُ الرَّبِّ تعالى ممَّا نَزَّهَ نَفسهُ عنهُ، وأنَّهُ لا يُمدَحُ أحدٌ بتَنزيههِ عن هذا، ولا يكونُ المنزَّهُ بهِ مثنياً ولا حامداً، ولم يَخطُر هذا بقَلبِ بشرٍ حتى ينكرَهُ اللَّهُ على مَن زعمهُ ونسَبهُ إليهِ .

وقال تعالى : ﴿ وما خَلَقنا السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما لاعبينَ ما خَلَقناهما إلّا بالحَقِّ ﴾ [الأنبياء : ٣٨ - ٣٩] .

فنفى اللعبَ عن خَلقه، وأثبتَ أنَّهُ إنَّما خَلقهما بالحقِّ، فجمعَ تعالى بينَ اللعبِ الصَّادرِ عن غيرِ حكمَةٍ وغايَةٍ مَحمودَةٍ وإثباتِ الحقِّ المُتضمِّنِ للحكمِ والغاياتِ المَحمودَةِ والعواقبِ المَحبوبَةِ .

والقرآنُ مملوءٌ من هذا بنفيِ العَبثِ والباطلِ واللعبِ تارَةً، وتَنزيهِ الرَّبِّ نَفسهُ عنهُ تارَةً، وإثباتِ الحِكمِ الباهرَةِ في خَلقهِ تارَةً .

كيفَ يجوزُ أن يقال : إنَّهُ لو عَطَّلَ خَلقَهُ وتركهُم سُدىً لم يكُن ذلكَ قَبيحاً في العَقلِ ؟

فإن عَنَيتُم أنَّهُ يُلقي إليهِ زمامَ الاختيارِ مع أمرهِ ونَهيهِ، فهذا حقٌّ؛ فإنَّهُ جعلهُ مختاراً مأموراً مَنهيّاً، وإن كانَ اختيارهُ مَخلوقاً لهُ تعالى إذ هو من جُملَةِ الحوادثِ الصَّادرَةِ عن خَلقهِ، ولكن هذا الاختيارَ لا يُنافي التَّكليفَ ولا يكونُ إلّا بهِ بوجهٍ بل لا يصحُّ التَّكليفُ إلّا بهِ .

□ **الحادي والأربعون** : قولكُم إذ لا يتزيَّنُ منهم بطاعَةٍ ولا تشينهُ مَعصيتهم .

قلنا : ومَن الذي نازَعَ في هذا، ولكن حسنَ التَّكليفِ لا يَنفي ذلكَ عن الرَّبِّ تعالى، وأنَّهُ إنَّما يكلِّفهم تَكليفَ من لا يَبلغوا ضرَّهُ فيضرُّوهُ، ولا يَبلغوا نَفعهُ فيَنفعوهُ، وأنَّهم لو كانوا كلّهم على أتقى قَلبِ رجلٍ واحدٍ منهم ما زادَ ذلكَ في مُلكهِ شيئاً، ولو كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منهم ما نَقَصَ ذلكَ في مُلكهِ شيئاً .

وههُنا اختَلَفَت الطُّرقُ بالنَّاسِ في علَّةِ التَّكليفِ وحكمتهِ مع كونهِ سبحانهُ لا ينتفعُ بطاعتهم ولا تضرُّهُ مَعصيتهم !

فسلكَت **الجبريَّةُ** مَسلَكها المَعروفَ، وأنَّ ذلكَ صادرٌ عن مَحضِ المَشيئةِ وصِرْفِ الإرادَةِ وأنَّهُ لا علَّةَ لهُ، ولا باعثَ عليهِ سوى مَحضِ الإرادَةِ .

وسلكَت **القدريَّةُ** مَسلكها المَعروفَ، وهَل ذلكَ إلّا استئجارٌ منهُ

لعبيدهِ؛ لينالوا أجرَهُم بالعَمَلِ، فيكونَ ألذَّ من اقتضائهم الثَّوابَ بلا عملٍ لما فيهِ من تَكديرِ المنَّةِ .

والمَسلكانِ كما تَرى وحسبكَ ما يدلُّ عليهِ العَقلُ الصَّريحُ والنَّقلُ الصَّحيحُ من بطلانهما وفسادهما، وليسَ عندَ النَّاسِ غيرُ هذين المَسلكين إلّا مسلكَ مَن هو خارجٌ عن الدِّياناتِ واتِّباعِ الرُّسلِ ممَّن يَرى أنَّ الشرائعَ وضَعَت نواميسَ يقومُ عليها النَّاسُ ومَعيشتهم، فإنَّ فائدتَها تَكميلُ قوَّةِ النَّفسِ والحكمَةِ، وهذا مَسلكٌ خارجٌ عن مناهجِ الأنبياءِ وأمَمِهم، وأمَّا أتباعُ الرُّسلِ الذينَ هم أهلُ البصائرِ، فحكمةُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في تَكليفِهم ما كلَّفهم له أعظمُ وأجلُّ عندهم ممَّا يَخطرُ بالبالِ أو يَجري بهِ المقالُ، ويَشهدونَ لهُ سبحانهُ في ذلكَ بالحكمِ الباهرَةِ والأسرارِ العَظيمَةِ أكثرَ ممَّا يشهدونهُ في مَخلوقاتهِ وما تَضمَّنتهُ ومنَ الأسرارِ والحكمِ، ويعلمونَ مع ذلكَ أنَّهُ لا نسبَةَ لما أطلعهم سبحانهُ عليهِ من ذلكَ إلى ما طوى علمَهُ عنهم واستأثرَ بهِ دونهم، وأنَّ حكمتَهُ في أمرهِ ونَهيهِ وتَكليفهم أجلُّ وأعظمُ ممَّا تطيقهُ عقولُ البشرِ، فهم يَعبدونهُ سبحانهُ بأمرهِ ونَهيهِ، لأنَّهُ تعالى أهلٌ أن يُعبَدَ، وأهلٌ أن يكونَ الحبُّ كلُّهُ لهُ والعبادَةُ كلُّها لهُ حتى لو لم يَخلق جنَّةً ولا ناراً، ولا وضعَ ثواباً ولا عقاباً، لكانَ أهلاً أن يعبدَ أقصى ما تنالهُ قدرَةُ خَلقهِ منَ العبادَةِ ، حتى إنَّهُ لو قُدِّرَ أنَّهُ لم يُرسل رسلَهُ، ولم ينزل كتبه لكانَ في الفطرَةِ والعَقلِ ما يَقتَضي شكرَهُ وإفرادَه بالعبادَةِ، كما أنَّ فيهما ما يَقتَضي المنافعَ واجتنابَ المضارِّ ولا فرقَ بينهما في الفطرَةِ والعَقلِ، فإنَّ اللَّهَ فَطَرَ خليقَتَهُ على محبَّتِهِ والإقبالِ عليهِ وابتغاءَ الوَسيلةِ إليهِ، وأنَّهُ لا شيءَ على الإطلاقِ أحبُّ إليهما منهُ، وإن فَسَدَت

فِطَرُ أكثرِ الخَلقِ بما طَرَأَ عليها ممَّا اقتَطعها واجتالها عمَّا خَلَقَ فيها، كما قالَ تعالى : ﴿ فأقِمْ وَجهَكَ للدِّينِ حَنيفاً فِطرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها ﴾ [الروم : ٣٠]، فبيَّنَ سبحانهُ أنَّ إقامَةَ الوجهِ وهو إخلاصُ القَصدِ وبذلُ الوسعِ لدينهِ المُتضمِّن محبَّتَهُ وعبادتَهُ حنيفاً مُقبلاً عليهِ معرضاً عمَّا سواهُ هو فطرتهُ التي فَطرَ عليها عبادَهُ، فلو خُلّوا ودواعي فِطَرِهِم لما رَغبوا عن ذلكَ ولا اختاروا سواه، ولكن غُيِّرَت الفطرُ وأفسدَت، كما قال النَّبيُّ ﷺ : « ما مِن مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطرَةِ فأبواهُ يهوِّدانهُ وينصِّرانهُ ويمجِّسانهُ كما تنتجُ البَهيمَةُ بهيمةً جمعاءَ هل تُحسُّونَ فيها من جَدعاءَ حتى تكونوا أنتم تَجدعونها » .[1]

ثمَّ يقولُ أبو هُريرَة : اقرؤوا إن شئتُم : ﴿ فِطرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تَبديلَ لخلقِ اللَّهِ ذلكَ الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلمون مُنيبينَ إليهِ واتَّقوهُ ﴾ [الرّوم : ٣٠] .

ومُنيبينَ نُصِبَ على الحالِ منَ المَفعولِ، أي : فَطَرَهم مُنيبينَ إليهِ، والإنابَةُ إليهِ تَتضمَّنُ الإقبالَ عليهِ بمحبَّتِهِ وحدَهُ، والإعراضِ عمَّا سواه .

وفي « صَحيح مُسلم »[1] عن عياض بن حمار عن النَّبيِّ ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ أمَرَني أن أعلِّمكُم ما جهلتُم ممَّا علَّمني في مقامي هذا؛ أنَّهُ قال : كلُّ مالٍ نحلتهُ عبداً فهو لهُ حلالٌ، وإنِّي خَلَقتُ عبادي حُنفاءَ فأتَتهُم

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٤٩٣ - فتح)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) (برقم : ٢٨٦٥) .

الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرَتهم أن يُشركوا بي ما لَم أُنزل به من سُلطاناً، وحرَّمَت عليهم ما أحلَلتُ لهُم » .

فأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ فَطَرَ عبادَهُ على الحنيفيَّةِ المتضمِّنَةِ لكمالِ حبِّهِ والخضوعِ لهُ والذلِّ لهُ وكمالِ طاعتهِ وحدَهُ دونَ غيرهِ، وهذا منَ الحقِّ الذي خُلقَت لهُ، وبهِ قامَت السَّماواتُ والأرضُ وما بينهما، وعليهِ قامَ العالمُ ولأجلهِ خُلقَت الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلهِ أرسلَ رسلَهُ وأنزلَ كتبَهُ، ولأجلهِ أهلكَ القرونَ التي خَرَجَت عنهُ وآثرَت غيرَهُ، فكونهُ سبحانهُ أهلاً أن يُعبَدَ ويحبَّ ويُحمَدَ ويُثنى عليهِ أمرٌ ثابتٌ لهُ لذاتهِ، فلا يكونُ إلّا كذلكَ كما أنَّه الغنيُّ القادرُ الحيُّ القيُّومُ السَّميعُ البَصيرُ؛ فهو سبحانهُ الإلهُ الحقُّ المُبينُ، والإلهُ هو الذي يَستحقُّ أن يولَّه محبةً وتَعظيماً وخشيةً وخضوعاً وتذلُّلاً وعبادَةً فهو الإلهُ الحقُّ ولو لَم يخلق خَلقَهُ، وهو الإلهُ الحقُّ ولو لم يَعبدوهُ، فهو المَعبودُ حقّاً المَحمودُ حقّاً، ولو قدَّر أنَّ خَلقهُ لم يَعبدوهُ، ولم يَحمدوهُ، ولم يألهوهُ، فهو اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو قبلَ أن يخلقهم، وبَعدَ أن خَلَقَهُم، وبَعدَ أن يفنيهم، لم يَستَحدث بخلقهِ لهم ولا بأمرهِ إيَّاهُم استحقاقَ الإلهيَّة والحَمدُ بل الإلهيَّةُ وحمدُهُ ومجدُهُ وغناهُ أوصافٌ ذاتيَّةٌ لهُ يَستحيلُ مُفارقتها لهُ، لحياتهِ ووجودهِ وقُدرتهِ وعلمهِ وسائرِ صفاتِ كمالهِ، فأولياؤهُ وخاصَّتُهُ وحزبُهُ لما شهدَت عقولُهم وفطَرُهُم أنَّهُ أهلٌ أن يُعبَدَ وإن لم يرسِل إليهم رسولاً، ولم ينزِّل عليهِ كتاباً، ولو لم يَخلُق جنَّةً ولا ناراً علموا أنَّهُ لا شيءَ في العقولِ والفطَرِ أحسنُ من عبادتهِ، ولا أقبحَ من الإعراضِ عنهُ، وجاءَت الرُّسلُ وأنزلت الكتبُ لتَقريرِ ما استودَعَ سبحانهُ في الفطرِ والعقولِ من ذلكَ، وتَكميلهِ وتَفصيلهِ وزيادتهِ

حُسناً إلى حُسنهِ، فاتَّفقَت شريعتُهُ وفطرتُهُ وتطابقا وتوافقا وظهَرَ أنَّـهما من مشكاةٍ واحدَةٍ، فَعَبدوهُ وأحبُّوهُ ومـجَّدوهُ بداعي الفِطرَةِ وداعي الشرعِ وداعي العَقلِ، فاجتمَعَت لهم الدَّواعي، ونادَتهم من كلِّ جهَةٍ، ودَعَتهُم إلى وليِّهم وإلـهِهم وفاطرِهم، فأقبَلوا إليهِ بقلوبٍ سليمَةٍ لم يعارض خبَرَهُ عندها شبهَةٌ توجبُ ريباً وشكّاً، ولأمرِهِ شهوَةٌ توجبُ رَغبتَها عنهُ وإيثارَها سواهُ، فأجابوا دواعيَ المحبَّةِ والطَّاعَةِ إذ نادَت بهم حيَّ على الفلاحِ، وبذلوا أنفسهم في مرضاةِ مولاهم الحقِّ بذلَ أخي السَّماحِ، وحَمَدوا عندَ الوصولِ إليهِ مسراهم، وإنَّما يحمدُ القومُ السُّرى عندَ الصَّباحِ، فدينهم دينُ الحبِّ وهو الدِّينُ الذي لا إكراهَ فيهِ، وسيرهم سيرُ المُحبِّينَ وهو الذي لا وَقفةَ تَعتريه .

إنِّي أدينُ بدينِ الحُبِّ ويحكم
فذاكَ ديني ولا إكراهَ في الدِّينِ
ومَن يكُن دينُهُ كُرهاً فليسَ لهُ
إلّا العناءُ وإلّا السَّيرُ في الطِّينِ
وما استَوى سيرُ عَبدٍ في محبَّتهِ
وسيرُ خالٍ منَ الأشواقِ في دينِ
فقُل لغيرِ أخي الأشواقِ ويحَكَ قَد
غَبَنتَ حظَّكَ لا تغتَرَّ بالدُّونِ
نجائبُ الحُبِّ تَعلوا بالمُحبِّ إلى
أعلى المراتبِ من فَوقِ السَّلاطينِ

وأطيَبُ العَيشِ في الدَّارِ قَد رغبتَ

عنهُ التُجارُ فباعَت بيعَ مَغبونِ

فإن تُرد علمَهُ فاقرَأهُ ويحَكَ في

آياتِ طهَ وفي آياتِ ياسينِ

ولا ريبَ أنَّ كمالَ العبوديَّةِ تابعٌ لكمالِ المحبَّةِ، وكمالَ المحبَّةِ تابعٌ لكمالِ المَحبوبِ في نَفسهِ، واللَّهُ سبحانهُ لهُ الكمالُ المُطلقُ التَّامُّ في كلِّ وجهٍ الذي لا يَعتريهِ توهُّمُ نَقصٍ أصلاً، ومَن هذا شأنهُ فإنَّ القلوبَ لا يكونُ شيءٌ أحبَّ إليها منه مادامَت فطرُها وعقولُها سليمَةً، وإذا كانَت أحبُّ الأشياءِ إليها فلا محالَةَ أنَّ محبَّتَهُ توجبُ عبوديَّتَهُ وطاعتهُ وتتّبع مرضاتهِ واستفراغِ الجُهدِ في التَّعبُّدِ لهُ والإنابَةِ إليهِ، وهذا الباعثُ أكملُ بواعثِ العبوديَّة وأقواها حتى لو فرضَ تجرَّدهُ عن الأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعقابِ استفرَغَ الوسعَ واستَخلَصَ القلبَ للمَعبودِ الحقِّ، ومِن هذا قولُ بَعضِ السَّلفِ :أنَّهُ ليستخرجُ حبَّهُ من قَلبي ما لا يَستخرجهُ قولُهُ، وقد كانَ هذا هو الواجبَ على كلِّ عاقلٍ كما قال بَعضهم :

هَب البَعثَ لم تَأتِنا رسلُهُ

وجاحمَةُ النَّارِ لَم تضرَمِ

أليسَ مِنَ الواجبِ المُستحقِّ

طاعَةُ ربِّ الوَرى الأكرمِ

وقَد قامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ حتى تَفطَّرَت قدماه فقيلَ لهُ : تَفعلُ هذا وقَد

غُفِرَ لكَ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبكَ وما تأخَّر ؟

قال : « أفلا أكونُ عَبداً شكوراً » .[1]

أمرٌ يـجلُّ عن الوَصفِ ولا تنالهُ العبارَةُ ولا الأذهانُ، فأينَ هذا الشهودُ من شهودِ طائفَةِ القدريَّةِ والـجبريَّةِ ؟ فليعرض العاقلُ اللبيبُ ذينكَ المَشهدينِ على هذا المَشهد، وليَنظر ما بينَ الأمرينِ منَ التَّفاوتِ، فاللَّهُ سبحانهُ يُعبَدُ ويُـحمَدُ ويُـحبُّ؛ لأنَّـهُ أهلٌ لذلكَ ومُستحقُّهُ بل ما يَستحقُّهُ سبحانهُ من عبادهِ أمرٌ لا تنالهُ قدرتُهم ولا إرادتُهم، ولا تَتصوَّرهُ عقولُهم، ولا يمكنُ أحدٌ من خَلقهِ قَط أن يعبدَهُ حقَّ عبادتهِ، ولا يوفِّيهِ حقَّهُ منَ الـمحبَّةِ والـحمدِ، ولهذا قال أفضلُ خَلقهِ وأكملُهم وأعرفُهم بهِ وأحبُّهم إليهِ وأطوَعُهم لهُ : « لا أُحصي ثناءً عليكَ » .[2]

وأخبرَ أنَّ عملهُ ﷺ لا يَستقلُّ بالنَّجاةِ فقال : « لَن يُنجي أحداً منكُم عملهُ » .

قالوا : ولا أنتَ يا رَسولَ اللَّهِ ؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١٤ - فتح)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة ابن شعبة - رضي اللَّه عنه .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) عن أبي هريرة عن عائشة قالت : فقدت رسول اللَّه ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان وهو يقول :

« اللَّهمَّ أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

قال : « ولا أنا إلّا أن يتغمَّدَني اللَّهُ برحمةٍ منهُ وفَضلٍ » .[1]

عليهِ صلواتُ اللَّهِ وسلامهُ عَدَدَ ما خَلَقَ في السَّماءِ وعَدَدَ ما خَلَقَ في الأرضِ وعَدَدَ ما بينهما وعَدَدَ ما هو خالقٌ .

ولما كانَت عبادتهُ تعالى تابعَةً لمحبَّتهِ وإجلالهِ، وكانَت المحبَّةُ نوعينِ : محبَّةٌ تنشأُ عن الإنعامِ والإحسانِ، فتوجبُ شكراً وعبوديَّةً بحسبِ كمالها ونقصانها ،

ومحبَّةٌ تنشأُ عن جمالِ المَحبوبِ وكمالهِ فتوجبُ عبوديَّةً وطاعَةً أكمَلَ منَ الأولى، كانَ الباعثُ على الطَّاعَةِ والعبوديَّةِ لا يَخرُجُ عن هذينِ النَّوعينِ، وإمَّا أن تَقَعَ الطَّاعَةُ صادرَةً عن خَوفٍ محضٍ غَيرَ مَقرونٍ بمحبَّتهِ فهذا قَد ظنَّهُ كثيرٌ من المُتكلِّمينَ، وهي عندهم غايَةُ المعارفِ بناءً على أصلهم الباطلِ أنَّ اللَّهَ لا تَتعلَّقُ المحبَّةُ بذاتهِ، وإنَّما تَتعلَّقُ بمخلوقاتهِ ممَّا في الجنَّةِ منَ النَّعيمِ؛ فهم لا يحبُّونهُ لذاتهِ ولا لإحسانهِ وينكرونَ محبَّتهُ لذلكَ، وإنَّما المَحبوبُ عندهم في الحقيقةِ غيرُهُ وهذا من أبطَلِ الباطلِ .

وسنذكرُ في القسمِ الثَّاني إن شاءَ اللَّهُ في هذا الكتابِ بُطلانَ هذا المَذهَبِ من أكثرِ من مائةِ وجهٍ .

ولو عَرَفَ القومُ صفاتَ الأرواحِ وأحكامِها لعلموا أنَّ طاعَةَ مَن لا تجبُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٢٩٤ - فتح)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة - رضي اللّه عنها .

وفي الباب عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه .

عبادتُهُ محال وأنَّ مَن أتى بصورَةِ الطَّاعَةِ خَوفاً مجرَّداً عن الحبِّ فليسَ بمُطيعٍ ولا عابدٍ، وإنَّما هو كالمُكرَهِ أو كأجيرِ السُّوءِ الذي أن أُعطيَ عملَ، وإن لم يُعطَ كفَر وأبقَ، وسيردُ عليكَ بسطُ الكلامِ في هذا عن قريبٍ إن شاءَ اللَّهُ .

والمَقصودُ : أنَّ الطَّاعَةَ والعبادَةَ النَّاشئةَ عَن محبَّةِ الكمالِ والجمالِ أعظمُ من الطَّاعَةِ النَّاشئةِ عن رؤيَةِ الإنعامِ والإحسانِ، وفرقٌ عظيمٌ بينَ ما تَعلَّقَ بالحيِّ الذي لا يموتُ وبينَ ما تعلَّقَ بالمَخلوقِ، وإن شملَ النَّوعينِ اسمُ المحبَّةِ، ولكن كم بينَ مَن يحبُّكَ لذاتكَ وأوصافكَ وجمالكَ وبينَ مَن يحبُّكَ لخيرقكَ ودراهمِك .

آثار الأسماء الحسنى والصفات العليا

والأسماءُ الحُسنى والصِّفاتُ العُلا مقتضيَةٌ لآثارها منَ العبوديَّةِ والأمرِ اقتِضاءَها لآثارها منَ الخَلقِ والتَّكوينِ، فلكلِّ صفةٍ عبوديَّةٌ خاصَّةٌ هي من موجباتها ومُقتضياتها، أعني من موجباتِ العلمِ بها، والتَّحقُّقِ بمعرفتها، وهذا مطَّردٌ في جميعِ أنواعِ العبوديَّةِ التي على القلبِ والجوارحِ .

فعلمُ العَبدِ بتفرُّدِ الرَّبِّ تعالى بالضرِّ والنَّفعِ والعطاءِ والمَنعِ والخَلقِ والرِّزقِ والإحياءِ والإماتَةِ يثمرُ لهُ عبوديَّةَ التَّوكُّلِ عليهِ باطناً ولوازمَ التَّوكُّلِ وثمراتهِ ظاهراً .

وعلمهُ بسمعهِ تعالى وبصرِهِ وعلمهِ وأنَّهُ لا يخفى عليهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماواتِ والأرضِ وأنَّهُ يعلمُ السرَّ وأخفى ويعلمُ خائنَةَ الأعينِ وما تُخفي الصُّدور يثمرُ له حفظَ لسانهِ وجوارحهِ، وخطراتِ قَلبهِ عن كلِّ ما لا يُرضي اللَّهَ، وأن يَجعَلَ تعلّقَ هذه الأعضاءِ بما يحبُّهُ اللَّهُ ويَرضاهُ، فيثمرُ لهُ ذلكَ الحياءَ باطناً، ويثمرُ لهُ الحياءُ اجتنابَ المُحرَّماتِ والقبائحِ .

ومعرفتُهُ بغناه وجودهِ وكرمهِ وبرِّهِ وإحسانهِ ورحمتهِ توجبُ لهُ سعَةَ الرَّجاءِ، وتُثمرُ لهُ ذلكَ من أنواعِ العبوديَّةِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ بحسبِ مَعرفتهِ

وعلمهِ .

وكذلكَ معرفتُهُ بجلالِ اللّهِ وعظمتهِ وعزّه تُثمرُ لهُ الخضوعَ والاستكانَةَ والمحبّةَ، وتُثمرُ لهُ تلكَ الأحوالُ الباطنةُ أنواعاً منَ العبوديَّةِ الظَّاهرَةِ هي موجباتها .

وكذلكَ علمُهُ بكمالهِ وجمالهِ وصفاتهِ العُلى يوجبُ لهُ محبَّةً خاصَّةً بمنزلَةِ أنواعِ العبوديَّةِ، فرجعَت العبوديَّةُ كلُّها إلى مُقتَضى الأسماءِ والصِّفاتِ وارتبطَت بها، ارتباطَ الخَلقِ بها فخَلقُهُ سبحانهُ وأمرُهُ هو موجبُ أسمائهِ وصفاتهِ في العالم وآثارِها ومُقتَضاها؛ لأنَّهُ لا يتزيَّنُ من عبادهِ بطاعتهم ولا تشينهُ معصيتهم .

وتأمَّل قوله ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ[1] الذي يَرويهِ عن ربِّهِ تباركَ وتعالى : « يا عبادي إنَّكُم لَن تَبلغوا ضرِّي فتَضرُّوني ولَن تَبلغوا نَفعي فتَنفعوني »، ذكرَ هذا عقِبَ قوله : « يا عبادي إنَّكُم تُخطئونَ بالليلِ والنَّهارِ وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعاً فاستَغفروني أغفر لكُم »؛ فتضمَّنَ ذلكَ أنَّ ما يفعلهُ تعالى بهم في غُفرانِ زلّاتِهم وإجابَةِ دَعَواتِهم وتَفريجِ كرباتِهم ليسَ لجَلبِ منفعَةٍ منهم، ولا لدَفعِ مضرَّةٍ يتوقَّعها منهم كما هو عادَةُ المَخلوقِ الذي ينفعُ غيرَهُ ليكافِئهُ بنفعِ مثلهِ، أو ليدفعَ عنهُ ضرراً، فالرَّبُّ تعالى لم يحسن إلى عبادهِ ليكافئوهُ ولا ليَدفعوا عنهُ ضرراً، فقال : « لَن تَبلغوا نَفعي فتَنفعوني ولَن تَبلغوا ضرِّي فتَضرُّوني » إنِّي لستُ إذا هَديتُ مُستَهديكُم، وأطعَمتُ مُستَطعمكُم، وكَسَوتُ مُستَكسيكُم، وأروَيتُ مُستَسقيكُم، وغَفَرتُ لمُستَغفِركُم، بالذي

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر - رضي اللّه عنه .

أطلبُ منكُم أن تَنفعوني أو تَدفعوا عنِّي ضرراً؛ فإنَّكُم لَن تَبلغوا ذلكَ وأنا الغنيُّ الحميدُ، كيفَ والخَلقُ عاجزونَ عمَّا يَقدرونَ عليهِ منَ الأفعالِ إلّا بإقدارهِ وتَيسيرهِ وخَلقهِ ؟ فكيفَ بما لا يَقدرونَ عليهِ ؟ فكيفَ يبلغونَ نفعَ الغنيِّ الصَّمدِ الذي يمتنعُ في حقِّهِ أن يَستَجلبَ من غيرهِ نَفعاً أو يَستَدفعُ منهُ ضرراً بل ذلكَ مُستَحيلٌ في حقِّهِ ؟

ثمَّ ذكرَ بَعدَ هذا قوله : « يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكُم ما زادَ ذلكَ في مُلكي شيئاً ولو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكُم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجلٍ واحدٍ منكُم ما نَقَصَ ذلكَ من مُلكي شيئاً، فبيَّنَ سبحانهُ أنَّ ما أمرَهم بهِ مَنَ الطَّاعاتِ وما نهاهم عنهُ من السيِّئاتِ لا يتضمَّنُ استجلابَ نَفعِهم ولا استدفاعَ ضررهم؛ كأمرِ السيِّدِ عَبدَهُ، والوالدِ ولدَهُ، والإمامِ رعيَّتهُ بما ينفعُ الآمرَ والمأمورَ، ونَهيِهم عمَّا يَضرُّ النَّاهي والمَنهيِّ، فبيَّنَ تعالى أنَّهُ المُنزَّهُ عن لحوقِ نَفعِهم وضرِّهم بهِ في إحسانهِ إليهم بما يَفعلهُ بهم وبما يأمرهم به، ولهذا لما ذكرَ الأصلين بَعدَ هذا وأنَّ تَقواهم وفجورهم الذي هو طاعتُهم ومعصيتُهم لا يزيدُ في ملكهِ شيئاً ولا يُنقصهُ، وأنَّ نسبَةَ ما يسألونهُ كلُّهُم إيَّاه فيُعطيهم إلى ما عندَهُ كنسبة [ما ينقص المخيط إذا أدخل البحر]، فتضمَّنَ ذلكَ أنَّهُ لم يأمرصهم ولم يحسنص إليهم بإجابَةِ الدّعواتِ وغفرانِ الزلّاتِ وتَفريجِ الكُرباتِ لاستجلابِ منفعَةٍ ولا لاستدفاعِ مَضرَّةٍ، وأنَّهم لو أطاعوهُ كلُّهم لم يَزيدوا في ملكهِ شيئاً، ولو عَصَوهُ كلُّهم لم يَنقصوا من ملكهِ شيئاً، وأنَّهُ الغنيُّ الحميدُ، ومَن كانَ هكذا فإنَّهُ لا يتزيَّنُ بطاعَةِ عبادهِ ولا تشينهُ

معاصيهم، ولكن لهُ منَ الحِكمِ البوالغِ في تكليفِ عبادهِ وأمرهم ونَهيهم ما يَقتضيه مُلكُهُ التَّامُّ وحمدُهُ وحكمتُهُ، ولو لم يكُن في ذلكَ إلّا أنَّهُ يستوجبُ من عبادهِ شكرَ نعمهِ التي لا تُحصى بحسبِ قواهم وطاقتهم لا بحسبِ ما يَنبغي لهُ، فإنَّهُ أعظمُ وأجلُّ من أن يقدرَ خلقُهُ عليهِ، ولكنَّهُ سبحانهُ يَرضى من عبادهِ بما تَسمحُ بهِ طبائعُهم وقواهم، فلا شيءَ أحسنُ في العقولِ والفطرِ من شكرِ المُنعمِ، ولا أنفع للعَبدِ منهُ، فهذانِ مَسلكانِ آخَرانِ في حُسنِ التَّكليفِ والأمرِ والنَّهي :

○ **أحدهما** : يتعلَّقُ بذاتهِ وصفاتهِ، وأنَّهُ أهلٌ لذلكَ، وأنَّ جمالَهُ تعالى وكمالَهُ وأسماءَهُ وصفاتَهُ تَقتَضي من عبادهِ غايَةَ الحُبِّ والذُّلِّ والطَّاعَةِ لهُ .

○ **والثَّاني** : متعلِّقٌ بإحسانهِ وإنعامهِ ولا سيَّما مع غناه عن عبادهِ، وأنَّهُ يحسنُ إليهم رحمَةً منهُ وجوداً وكرماً لا لمعاوَضَةٍ ولا لاستجلابِ منفعَةٍ، ولا لدَفعِ مضرَّةٍ .

وأيُّ المَسلكينِ سلكهُ العَبدُ أوقفهُ على محبَّتهِ وبَذلِ الجُهدِ في مرضاتهِ، فأينَ هذانِ المَسلكانِ من ذينكَ المَسلكينِ ؟ وإنَّما أتى القومُ من إنكارهم المحبَّةَ وذلكَ الذي حرمهم منَ العلمِ والإيمانِ ما حرمهم، وأوجبَ لهم سلوكَ تلكَ الطُّرقِ المَسدودَةِ، واللَّهُ الفتَّاحُ العليمُ .

▫ **الثاني والأربعون** : قولكُم : فلا تكونُ نعمُهُ تعالى ثواباً بل ابتداءً كلامٌ يَحتملُ حقّاً وباطلاً، فإن أرَدتم بهِ أنَّهُ لا يثيبُهم على أعمالِهم بالجنَّةِ ونَعيمِها ويَجزيهم بأحسنِ ما كانوا يعملونَ فهو باطلٌ، والقرآنُ أعظمُ شاهدٍ ببُطلانهِ، قال تَعالى : ﴿ فالَّذينَ هاجَروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذوا في

سبيلي وقاتَلوا وقُتلوا لأُكفِّرنَّ عنهم سيِّئاتهم ولأدخلنَّهم جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتها الأنهارُ ثواباً مِن عندِ اللَّهِ واللَّهُ عندَهُ حُسنُ الثَّواب ﴾ [آل عمران : ١٩٥]، وقال تعالى : ﴿ ليُكفِّرَ اللَّهُ عنهم أسوَأَ الَّذي عَمِلوا ويَجزيهم أجرَهُم بأحسَنِ ما كانوا يَعملونَ ﴾ [الزمر : ٣٥] .

وهذا في القرآنِ كثيرٌ يُبيِّنُ أنَّ الجنَّةَ ثوابُهم وجزاؤُهم، فكيفَ يقالُ : لا تكونُ نعمُهُ ثواباً على الإطلاقِ بل لا تكونُ نعمُهُ تعالى في مقابلَةِ الأعمالِ، والأعمالُ ثمناً لها، فإنَّهُ لن يَدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعملهُ، ولا يَدخُلها أحدٌ إلّا بمجرَّدِ فَضلِ اللَّهِ ورَحمتهِ، وهذا لا يُنافي ما تَقَدَّمَ منَ النُّصوصِ، فإنَّها تَدلُّ على أنَّ الأعمالَ أسبابٌ لا أعواضٌ وأثمانٌ، والذي نَفاهُ النَّبيُّ ﷺ في الدُّخولِ بالعَمَلِ هو نَفيُ استحقاقِ العوض ببَذلِ عوضهِ، فالمُثبَتُ باءُ السَّببيَّةِ، والمَنفي باءُ المُعاوَضَةِ والمُقابلَةِ، وهذا فَصلُ الخطابِ في هذه المسألةِ .

والقدريَّةُ الجبريَّةُ تَنفي باءَ السَّببيَّة جملَةً، وتُنكرُ أن تكونَ الأعمالُ سبباً في النَّجاةِ ودخولِ الجنَّةِ، وتلكَ النُّصوصُ وأضعافُها تبطلُ قولَهم، والقدريَّةُ النُّفاةُ تثبتُ باءَ المُعاوَضَةِ والمُقابلَةِ، وتَزعُمُ أنَّ الجنَّةَ عوضُ الأعمالِ، وأنَّها ثمنٌ لها، وأنَّ دخولَها إنَّما هو بمحضِ الأعمالِ، والنُّصوصِ النَّافيَةِ لذلكَ تَبطلُ قولَهم، والعَقلُ والفطرُ تبطلُ قولَ الطَّائفتينِ، ولا يصحُّ في النُّصوصِ والعقولِ إلّا ما ذكرناهُ منَ التَّفصيلِ، وبهِ يتبيَّنُ أنَّ الحقَّ معَ الوَسَطِ بينَ الفِرَقِ في جميعِ المسائلِ لا يُستَثنى من ذلكَ شيءٌ، فما اختَلَفَتِ الفرقُ إلّا كانَ الحقُّ معَ الوَسَطِ، وكلٌّ منَ الطَّائفتينِ معهُ حقٌّ وباطلٌ، فأصابَ الجبريَّةُ في نَفيِ المُعاوَضَةِ، وأخطَؤوا في نَفيِ السَّببيَّةِ، وأصابَ القدريَّةِ في إثباتِ

السَّببيَّةِ، وأخطؤوا في إثباتِ المُعاوَضَةِ، فإذا ضَمَمتَ أحَدَ نَفي الجبريَّة إلى إثباتي القدريَّةِ، ونَفَيتَ باطلَهما كُنتَ أسعَدَ بالحقِّ منهما، فإن أردتُم بأنَّ نعمةُ لا تكونُ ثواباً هذا القَدرُ، وأنَّها لا تكونُ عوضاً بل هو المُنعِمُ بالأعمالِ والثَّوابِ ولهُ المِنَّةُ في هذا ونعمهُ بالثَّوابِ من غيرِ استحقاقٍ ولا ثمنٍ يُعاوِضُ عليهِ بل فَضلٌ منهُ وإحسانٌ فهذا هو الحقُّ، فهو المانُّ بهدايتهِ للإيمانِ، وتَيسيرهِ للأعمالِ، وإحسانهِ بالجزاءِ، كلُّ ذلكَ مجرَّدُ منَّتهِ وفَضلهِ، قال تعالى: ﴿ يَمنُّونَ عَلَيكَ أن أسلَموا قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيكُم أن هَداكُم للإيمانِ إن كُنتُم صادقينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

▫ **الثالث والأربعون**: قولكُم: فكيفَ يعرِّفنا العَقلُ وجوباً على نَفسهِ بالمَعرفَةِ وعلى الجوارحِ بالطَّاعَةِ وعلى الرَّبِّ بالثَّوابِ والعقابِ؟

فيقال: وأيُّ استعبادٍ في ذلكَ وما الذي يحيلهُ؟

فَقَد عرَّفنا العَقلُ منَ الواجباتِ عليهِ ما يقبحُ منَ العَبدِ تركُها، كما عرَّفنا؟

وعرَّفَ أهلُ العقولِ وذوي الفطرِ التي لم تَتواطأ على الأقوالِ الفاسدَةِ وجوبَ الإقرارِ باللَّهِ وربوبيَّتهِ وشكرِ نعمتهِ ومحبَّتهِ.

وعرَّفنا قبحَ الإشراكِ بهِ والإعراضِ عنهُ ونسبتهُ إلى ما لا يليقُ به.

وعرَّفنا قبحَ الفواحشِ والظُّلمِ والإساءَةِ والفجورِ والكذبِ والبُهتِ والإثمِ والبَغيِ والعُدوانِ.

فكيفَ نَستَبعدُ من أن يعرِّفنا وجوباً على نَفسهِ بالمَعرفَةِ وعلى الجوارحِ

بالشكرِ المَقدورِ الـمُستَحسنِ في العقولِ التي جاءَت الشرائعُ بتَفصيلِ ما أدركهُ العقلُ منهُ جملَةً، وبتَقريرِ ما أدركهُ تَفصيلاً ؟

وأمَّا الوجوبُ على اللَّهِ بالثَّوابِ والعقابِ؛ فهذا مـمَّـا تَتباينُ فيهِ الطَّائفتانِ أعظمَ تبايُنٍ .

فأثبتَ **القدريَّةُ** منَ المُعتزلةِ عليهِ تعالى وجوباً عَقليّاً وضَعوهُ شريعَةً لهُ بعقولهم، وحرَّموا عليهِ الـخروجَ عنهُ، وشبَّهوهُ في ذلكَ كلِّهِ بـخلقهِ، وبدَّعهم في ذلكَ سائرُ الطَّوائفِ، وسفَّهوا رأيهم فيهِ، وبيَّنوا مُناقضتهم وألزموهم بما لا مَحيدَ لهم عنهُ .

ونَفَت **الجبريَّةُ** أن يـجب عليهِ ما أوجبَهُ على نَفسهِ، ويـحرمُ عليهِ ما حرَّمهُ على نَفسهِ، وجوَّزوا عليهِ ما يتعالى ويتنزَّهُ عنهُ وما لا يليقُ بـجلالهِ مـمَّـا حرَّمهُ على نَفسهِ، وجوَّزوا عليهِ تركَ ما أوجبَهُ على نَفسهِ مـمَّـا يتعالى ويتنزَّهُ عن تركهِ وفعلِ ضدِّهِ .

فتباينَ الطَّائفتانِ أعظَمَ تبايُنٍ وهدى اللَّهُ الذينَ آمَنوا **أهلَ السُّنَّةِ الوَسط** للطَّريقَةِ المُثلى التي جاءَ بها رسولُـهُ ونَزَلَ بها كتابهُ، وهي : أنَّ العقولَ البشريَّةَ بل وسائرَ الـمَخلوقاتِ لا توجبُ على ربِّها شيئاً ولا تـحرمهُ، وأنَّـهُ يتعالى ويتنزَّهُ عن ذلكَ، وأمَّا ما كتبَهُ على نَفسهِ وحرَّمَهُ على نَفسهِ، فإنَّهُ لا يـخلُّ به ولا يقعُ منهُ خلافهُ، فهو إيجابٌ منهُ على نَفسهِ بنفسهِ، وتَـحريمٌ منهُ على نَفسهِ بنَفسهِ، فليسَ فوقهُ تعالى موجبٌ ولا مـحرِّمٌ، وسيأتي إن شاءَ اللَّهُ بسطُ ذلكَ وتَقريرهُ .

□ **الرابع والأربعون** : قولكُم : إنَّهُ على أصولِ المُعتزلَةِ يَستحيلُ الأمرُ والنَّهيُ والتَّكليفُ وتَقديركُم ذلكَ فكلامٌ لا مَطعَنَ فيهِ، والأمرُ فيهِ كما ذكرتم، وانَّ حقيقَةَ قولِ القومِ أنَّهُ لا أمر ولا نَهي ولا شرع أصلاً إذ ذلكَ إنَّما يصحُّ إذا ثَبَتَ قيامُ الكلامِ بالمُرسلِ الآمرِ النَّاهي، وقيامُ الاقتضاءِ والطَّلبِ والحُبِّ لما أمَرَ به والبُغضِ لما نَهى عنهُ، فأمَّا إذا لم يثبت لهُ كلامٌ ولا إرادَةٌ ولا اقتضاءٌ ولا طَلَبٌ ولا حبٌّ ولا بغضٌ قائمٌ بهِ فإنَّهُ لا يعقلُ أصلاً كونهُ آمراً ولا ناهياً ولا باعثاً للرُّسلِ ولا محبّاً للطَّاعَةِ باغضاً للمَعصيَةِ، فأصولُ هذه الطَّائفَةِ تعطِّلُ الصِّفاتِ عن صفاتِ كمالهِ، فإنَّها تستلزمُ إبطالَ الرِّسالَةِ والنبوَّةِ جملَةً، ولكن رُبَّ لازمٍ لا يلتزمُهُ صاحبُ المقالَةِ، ويتناقَضُ في القولِ بملزومهِ دونَ القولِ بهِ، ولا ريبَ أنَّ فسادَ اللازمِ مُستلزمٌ لفسادِ الملزومِ، ولكن يُقال لكُم معاشرَ الجبريَّة : لا تكونوا ممَّن يَرى القذاةَ في عينِ أخيهِ ولا يَرى الجذعَ المُعترضَ في عينهِ، فَقَد ألزمتكُم القدريَّةُ ما لا مَحيدَ لكُم عنهُ، وقالوا : مَن نَفى فِعلَ العَبدِ جملَةً فَقَد عطَّلَ الشرائعَ والأمرَ والنَّهيَ، فإنَّ الأمرَ لا يتعلَّقُ إلّا بالفعلِ المأمورِ بهِ، فهو الذي يُؤمَرُ به ويُنهى عنهُ ويثابُ عليهِ ويعاقَبُ، فإذا نَفَيتُم فعلَ العَبدَ رفَعتُم متعلّقَ الأمرِ والنَّهي، وفي ذلكَ إبطالُ الأمرِ والنَّهي، فلا فَرقَ بينَ رَفعِ المأمورِ به المَنهيِّ عنهُ ورفعِ المأمورِ المَنهيِّ نَفسِهِ، فإنَّ الأمرَ يستلزمُ آمراً ومأموراً بهِ، ولا يصحُّ لهُ حقيقَةٌ إلّا بهذه الثَّلاثِ، ومَعلومٌ أنَّ أمرَ الآمرِ بفعلِ نَفسهِ ونَهيهِ عن نَفسهِ يبطلُ التَّكليفَ جملَةً، فإنَّ التَّكليفَ لا يعقلُ معناهُ إلّا إذا كانَ المُكلَّفُ قَد كُلِّفَ بفعلهِ الذي هو المَقدورُ لهُ التَّابعُ لإرادتهِ ومَشيئتهِ، وأمَّا إذا رفعتُم ذلكَ منَ البين، وقلتُم : بل هو مكلَّفٌ بفعلِ اللَّهِ

حَقيقَةً لا يدخُلُ تَحتَ قدرَةِ العَبد لا هو متمكِّنٌ في الإتيان بهِ ولا هو واقعٌ بإرادتهِ ومَشيئتهِ، فَقَد نَفيتُم التَّكليفَ جملَةً من حيثُ أثبتوهُ، وفي ذلكَ إبطالٌ للشرائعِ والرّسالَةِ جملَةً .

قالوا : فليتأمَّل المُنصِفُ الفَطِنُ لا البَليدُ المتعصِّبُ صحَّةَ هذا الالزام، فلن تَجدَ عنهُ مَحيداً .

قالوا : فأنتُم معاشرَ الجبريَّةِ قدريَّةٌ من حيثُ نَفيكم الفعل المأمور به فإن كانَ خصومُكُم قَدريَّةً من حيثُ نَفَوا تعلّقَ القدرَةِ القديمةِ، فأنتم أولى أن تَكونوا قَدريَّةً مِن حيثُ نفيتُم فعلَ العبدِ لهُ، و تأثيرَه فيهِ و تعلُّقَهُ بمَشيئتهِ، فأنتم أثبتم قَدراً على اللَّهِ وقَدراً على العَبدِ، أمَّا القَدرُ على اللَّهِ فحيثُ زَعمتُم أنَّهُ تعالى يأمرُ بفعلِ نَفسهِ ويَنهى عن فعلِ نَفسهِ، ومَعلومٌ أنَّ ذلكَ لا يصحُّ أن يكونَ مأموراً بهِ منهيَّاً عنهُ، فأثبتُم أمراً ولا مأمورَ بهِ، ونَهياً ولا مَنهيَّ عنهُ، وهذه قَدريَّةٌ محضَةٌ في حقِّ الرَّبِّ، وأمَّا في حقِّ العَبدِ فإنَّكُم جعَلتموهُ مأموراً منهيّاً من غيرِ أن يكونَ لهُ فعلٌ يأمر بهِ ويَنهى عنهُ، فأيُّ قدريَّةٍ أبلغُ من هذه فمَن الذي تَضمَّنَ قولُهُ إبطالَ الشرائعِ وتَعطيلَ الأوامرِ، فليتنبَّهِ اللبيبُ لمواقَعَةِ هذه المُساجَلَةِ، وسهامِ هذه المُناضلَةِ ثمَّ ليَختَر منهما إحدى خطَّتين، ولا واللَّهِ ما فيهما حظٌّ لمُختارٍ، ولا يَنجو من هذه الوَرطاتِ إلّا مَن أثبَتَ كلامَ اللَّهِ القائمَ بهِ المُتضمِّنَ لأمرهِ ونَهيهِ وَوعيدهِ، وأثبَتَ لهُ ما أثبَتَ لنَفسهِ من صفاتِ كمالهِ ومنَ الأمورِ الثُّبوتيَّةِ القائمَةِ، ثمَّ أثبَتَ مع ذلكَ فعلَ العَبدِ واختيارَهُ ومَشيئتَهُ وإرادتَهُ التي هي مناطُ الشرائعِ ومتعلَّقُ الأمرِ والنَّهيِ، فلا جبريٌّ ولا جهميٌّ ولا قَدَريٌّ وكيفَ يختارُ العاقلُ آراءَ ومذاهبَ هذه بَعض لوازمها، ولو

صابَرها إلى آخرها لاستبانَ لهُ من فسادها وبطلانها ما يتعجَّبُ معهُ من قائلها ومنتَحلها، واللَّهُ الموفِّقُ للصَّواب .

□ **الخامس والأربعون** : إنَّ قولكُم إذا قَتَلَ إنسانٌ إنساناً عَرَضَ للعَقلِ هـهُنا آراءٌ متعارضَةٌ مـختلفَةٌ إلى آخرهِ .

فيقال : إن أرَدتُم أنَّ العَقلَ يُسوِّي بينَ ما شرعهُ اللَّهُ منَ القصاصِ وبينَ تركهِ لـمَصلَحَةِ الـجاني؛ فبُهتٌ للعَقلِ وكذبٌ عليهِ، فإنَّهُ لا يَستَوي عندَ عاقلٍ قَطُّ حسنُ الاقتصاصِ منَ الـجاني بمثلِ ما فَعَلَ وحسنُ تَركهُ والإعراض عنهُ، ولا يُعلَمُ عَقلٌ صحيحٌ يسوِّي بينَ الأمرين، وكيفَ يَستوي أمرانِ : **أحدُهمـا** : يستلزمُ فسادَ النَّوعِ وخرابَ العالـمِ وتَركَ الانتصارِ للمَظلومِ وتَمكينِ الـجُناةِ منَ البَغيِ والعُدوانِ، **والثَّـانـي** : يَستلزمُ صلاحَ النَّوعِ وعمارَةَ العالمِ والانتصارَ للمَظلومِ ورَدعَ الـجُناةِ والبُغاةِ والمُعتَدينَ، فكانَ في القَصاصِ حياةُ العالـمِ وصلاحُ الوُجودِ، وقَد نبَّهَ تعالى على ذلكَ بقوله : ﴿ ولَـكُم في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألبابِ لعلَّكُم تتَّقون ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

وفي ضمنِ هذا الـخطابِ ما هو كالـجوابِ لسؤالٍ مقدَّرٍ أنَّ إعدامَ هذه البُنيَةِ الشريفَةِ وإيلامَ هذه النَّفسِ وإعدامَها في مُقابلَةِ إعدامِ المَقتولِ تَكثيرٌ لمَفسَدَةِ القَتلِ، فلأيَّةِ حكمةٍ صدرَ هذا ممَّـن وسعَت رحمتهُ كلَّ شيءٍ، وبهَرَت حكمتُهُ العقولَ ؟ فتضمَّنَ الـخطابُ جوابَ ذلكَ بقولهِ تعالى : ﴿ ولكُم في القِصاصِ حَياةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٧]، وذلك لأنَّ القاتلَ إذا توهَّـمَ أنَّـهُ يقتلُ قصاصاً بـمَـن قَتَلهُ كفَّ عن القَتلِ وارتَدَعَ، وآثَر حبَّ حياتهِ ونَفسهِ،

فكانَ فيهِ حياةٌ لهُ ولـمَن أرادَ قَتلهُ .

ومِن وَجهٍ آخَرَ وهو : أنّـهم كانوا إذا قُتلَ الرَّجُلُ من عَشيرتِهم وقبيلَتِهم قَتلوا بهِ كلَّ مَن وجَدوهُ من عشيرَةِ القاتلِ وحيِّهِ وقبيلتهِ، وكانَ في ذلكَ منَ الفسادِ والـهلاكِ ما يعمُّ ضررُهُ وتَشتدُّ مؤنتُـهُ؛ فشرعَ اللَّهُ تعالى القصاصَ، وأن لا يُقتَلَ بالمَقتولِ غيرُ قاتلِهِ، ففي ذلكَ حياةُ عشيرتهِ وحيِّهِ وأقاربِهِ، ولم تكن الـحياةُ في القصاصِ من حيثُ أنَّهُ قَتْلٌ بل من حيثُ كونهُ قَصاصاً يؤخَذُ القاتلُ وحدَهُ بالمَقتولِ لا غيرهِ فتضمَّنَ القصاصُ الـحياةَ في الوَجهينِ .

وتأمَّل ما تَـحتَ هذه الألفاظِ الشريفَةِ من الـجلالَةِ والإيجازِ والبلاغَةِ والفصاحَةِ والمَعنى العَظيم؛ فصدَّرَ الآيَةَ بقولهِ : ﴿ لكُم ﴾ المؤذِّنُ بأنَّ منفعَةَ القِصاصِ مـختصَّةٌ بكُم عائدَةٌ إليكم، فَشَرَعَهُ إنّـما كانَ رحمَةً بكُم وإحساناً إليكُم فمنفعتُهُ ومَصلحتُهُ لكُم لا لـمَن لا يبلغُ العبادُ ضرَّهُ .

ثمَّ عقَّبهُ بقولهِ : ﴿ في القصاصِ ﴾ إيذاناً بأنَّ الـحياةَ الـحاصلَةَ إنَّـما هي في العَدلِ، وهو أن يُفعَلَ بهِ كما فعلَ، والقَصاصُ في اللغَةِ المُماثلَةُ، وحقيقتُـهُ راجعَةٌ إلى الاتِّباعِ، ومنهُ قولهُ تعالى : ﴿ وقالَت لأُختهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : ١١]، أي : اتبَعي أثرهُ، ومنهُ قولُه : ﴿ فارتَدَّا على آثارهما قَصَصاً ﴾ [الكهف : ٦٤]، أي : يقصَّانِ الأثرَ ويتَّبعانهِ ومنهُ قصُّ الـحديثِ واقتصاصُهُ لأنَّـهُ يتَّبعُ بَعضهُ بَعضاً في الذِّكرِ، فسمِّي جزاءُ الـجاني قَصاصاً؛ لأنَّـهُ يتَّبعُ أثرهُ فيفعلُ بهِ كما فَعَلَ، وهذا أحدُ ما يستدلُّ به على أن يَفعلَ بالـجاني كما فَعَلَ؛ فيقتلَ بمثلِ ما قَتَلَ بهِ لتَـحقيقِ معنى القصاصِ، وقَد ذكرنا أدلَّةَ المسألةِ منَ الطَّرفينِ، وتَرجيحَ القولِ الرَّاجحِ بالنَّصِّ والأثرِ المَعقولِ في كتابِ : « تَـهذيب

السُّنَن » .[1]

ونكَّرَ سبحانهُ الحياةَ تَعظيماً وتَفخيماً لشأنهما، وليسَ المُرادُ حياةً ما بل المَعنى أنَّ في القصاصِ حصولَ هذه الحقيقَةِ المَحبوبَةِ للنُّفوسِ المؤثِّرَةِ عندها المُستَحسَنَةِ في كلِّ عَقلٍ، والتَّنكيرُ كثيراً ما يجيءُ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ كقوله : ﴿ وَسارعوا إلى مَغفِرَةٍ مِن ربِّكُم وجنَّةٍ ﴾ [آل عمران : ١٣٣]، وقوله : ﴿ وَرِضوانٌ منَ اللَّهِ أكبَرُ ﴾ [آل عمران : ١٥]، وقوله : ﴿ إن هُوَ إلّا وَحيٌ يوحى ﴾ [النجم : ٤] .

ثمَّ خَصَّ أولي الألباب وهم أولو العقولِ التي عقلت عن اللَّهِ أمرَهُ ونَهيَهُ وحكمتَهُ إذ هم المُنتفعونَ بالخطابِ، ووازِن بينَ هذه الكلمات وبينَ قولهم : القَتلُ أَنفى للقَتلِ، ليتبيَّنَ مقدارَ التَّفاوتِ وعظمةَ القرآنِ وجلالتِهِ .

▫ **السادس والأربعون** : قولكُم : إنَّ القِصاصَ إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ، وعُدوانٌ في مقابلةِ عدوانٍ، ولا يَحيا الأوَّلُ بقتلِ الثَّاني، ففيهِ تَكثيرُ المَفسَدَةِ بإعدامِ النَّفسين، وأمَّا مَصلحَةُ الرَّدعِ والزَّجرِ واستبقاءِ النَّوعِ فأمرٌ متوهَّمٌ، وفي القِصاصِ استهلاكٌ محقَّقٌ .

فيقال : هذا الكلامُ من أفسَدِ الكلامِ وأبينهِ بُطلاناً، فإنَّهُ يتضمَّنُ التَّسويَةَ بينَ القَبيحِ والحَسَنِ، ونَفْيَ حُسنِ القصاصِ الذي اتَّفَقَت العقولُ والدِّياناتُ على حُسنهِ وصلاحِ الوجودِ بهِ، وهل يَستوي في عَقلٍ أو دينٍ أو فطرَةٍ القَتلُ ظلماً وعُدواناً بغيرِ حقٍّ والقتلُ قصاصاً وجزاءً بحقٍّ ؟

---

(١) أي : « تهذيب سنن أبي داود »، وانظره (٦ / ٣٣٦ - ٣٤٤)، فإنَّه نفيس .

ونَظيرُ هذه التَّسويَةِ تَسوِيَةُ الـمُشركينَ بينَ الرِّبا والبيعِ لاستوائهما في صورَةِ العَقدِ، ومعلومٌ أنَّ استواءَ الفعلينِ في الصُّورَةِ لا يوجبُ استواءَهما في الـحقيقَةِ، ومدَّعى ذلكَ في غايَةِ الـمُكابرَةِ وهل يدلُّ استواءُ السُّجودِ للَّهِ والسجود للصَّنَمِ في الصُّورَةِ الظَّاهرَةِ وهو وَضعُ الـجَبهَةِ على الأرضِ على أنَّـهما سواءٌ في الـحقيقَةِ حتى يتحيَّرَ العَقلُ بينهما ويتعارَضانِ فيهِ ؟

ويَكفي في فسادِ هذا إطباقُ العقلاءِ قاطبَةً على قُبحِ القَتلِ الذي هو ظُلمٌ وبَغيٌ وعُدوانٌ وحُسنُ القَتلِ الذي هو جزاءٌ وقصاصٌ ورَدعٌ وزَجرٌ، والفَرقُ بينَ هذين مثلُ الفرقِ بينَ الزِّنا والنِّكاحِ بل أعظمُ وأظهَرُ، بل الفَرقُ بينهما من جنسِ الفَرقِ بينَ الإصلاحِ في الأرضِ والإفساد فيها، فما تَعارَضَ في عَقلٍ صَحيحٍ قطّ هذانِ الأمران حتى يتحيَّرَ بينهما أيُّهما يؤثرُهُ ويَختارُهُ .

وقولُكُم : أنَّهُ إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ وعدوانٌ في مقابلةِ عدوانٍ .

فكذلكَ هو لكن إتلافٌ حَسَنٌ هو مَصلحةٌ وحكمَةٌ وصلاحٌ للعالـمِ في مقابلَةِ إتلافٍ هو فسادٌ وسَفهٌ وخرابٌ للعالـمِ فأنَّـى يَستويان ؟ أم كيفَ يَعتدلانِ حتى يتَحيَّر العقلُ بينَ الإتلافِ الـحسنِ وتركهِ ؟.

وقولكم : لا يَـحيا الأوَّلُ بقَتلِ الثَّاني .

قلنا : يَـحيا بهِ عَدَدٌ كثيرٌ منَ النَّاسِ إذ لو تُرِكَ ولـم يؤخَذ على يديهِ لأهلكَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضاً، فإن لم يكُن في قَتلِ الثَّاني حياةٌ للأوَّلِ ففيهِ حياةُ العالـمِ ،كما قالَ تعالى : ﴿ ولكُم في القِصاصِ حياةٌ يا أُولي الألبابِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

ولكنَّ هذا المَعنى لا يدركُهُ حقُّ الإدراكِ إلّا أولوا الألبابِ فأينَ هذه

الشريعَةُ وهذه الحكمَةُ وهذه المَصلحَةُ من هذا الهَذيانِ الفاسدِ .

وأن يقالَ : قتلُ الجاني إتلافٌ بإزاءِ إتلافٍ، وعُدوانٌ في مقابلَةِ عُدوانٍ فيكونُ قَبيحاً لولا الشرعُ فوَازِن بينَ هذا وبينَ ما شرعه اللّه وجعل مصالحَ عبادِه منوطةً به .

وقولكم : فيه تكثيرُ المفسدة بإعدام النَّفسين .

فيقال : لو أعطيتم رُتَبَ المصالحِ والمَفاسدِ حقَّها لم تَرضوا بهذا الكلامِ الفاسدِ، فإنَّ الشرائعَ والفِطَر والعقولَ متفقَّةٌ على تَقديمِ المَصلحَةِ الرَّاجحَةِ، وعلى ذلكَ قامَ العالمُ، وما نَحنُ فيهِ كذلكَ، فإنَّهُ احتمالٌ لمَفسدَةِ إتلافِ الجاني إلى هذه المَفسدَةِ العامَّةِ، فمن تحيَّرَ عَقلُهُ بينَ هاتين المَفسدتين؛ فلفسادِ فيهِ، والعقلاءُ قاطبَةً متَّفقونَ على أنَّهُ يحسنُ إتلافُ جزءٍ لسلامَةِ كلٍّ، كقَطعِ الأُصبعِ أو اليَدِ المتآكلَةِ لسلامَةِ سائرِ البَدنِ، ولذلكَ يحسنُ الإيلامُ لدَفعِ إيلامٍ أعظم منهُ؛ كقَطعِ العروقِ، وبطِّ الخرَّاجِ ونَحوِهِ، فلو طَرَدَ العقلاءُ قياسَكُم هذا الفاسدَ، وقالوا : هذا إيلامٌ محقَّقٌ لدَفعِ إيلامٍ متوَهَّم لفَسدَ الجَسَدُ جملَةً، ولا فَرقَ عندَ العقولِ بينَ هذا وبينَ قياسكُم في الفسادِ .

▫ **السابع والأربعون** : قولكُم : أنَّ مَصلحَةَ الرَّدعِ والزَّجرِ وإحياءِ النَّوعِ أمرٌ متوهَّمٌ كلامٌ بيِّنٌ فسادُهُ بل هو أمرٌ متحقّقٌ وقوعُهُ عادَةً، ويدلُّ عليهِ ما نشاهدُهُ منَ الفسادِ العامِّ عندَ تَركِ الجناةِ والمُفسدينَ وإهمالهم وعَدَمِ الأخذِ على أيديهم، والمتوهِّمُ مَن زَعَمَ أنَّ ذلكَ مَوهومٌ، وهو بمثابَةِ مَن دهمهُ العدوُّ فقال : لا نعرضُ أنفسنا لمشقَّةِ قتالهم، فإنَّهُ مَفسدَةٌ متحقِّقَةٌ وأمَّا استيلاؤهم على بلادنا وسبيهُم ذرارينا وقتلُ مقاتلتنا فمَوهومٌ .

فياليتَ شعري مَن الواهمُ المُخطيءُ في وَهمهِ .

ونَظيرهُ أيضاً : أنَّ الرَّجُلَ إذا تَبَيَّغَ بهِ الدَّمُ[1] وتَضرَّرَ إلى إخراجهِ لا يتعرَّضُ لشقِّ جلدهِ وقَطعِ عروقهِ، لأنَّهُ ألمٌ محقَّقٌ لا مَوهومٌ، ولو اطَّرَدَ هذا القياسُ الفاسدُ لخربَ العالمُ، وتعطَّلَت الشرائعُ، والاعتمادُ في طلبِ مصالحِ الدَّارين ودفعِ مفاسدهما مبنيٌّ على هذا الذي سمَّيتموهُ أنتُم مَوهوماً؛ فالعمَّالُ في الدُّنيا إنَّما يَتصرَّفونَ بناءً على الغالبِ المُعتادِ الذي اطَّرَدَت بهِ، العادَةُ وإن لَم يَجزِموا بهِ فإنَّ الغالبَ صدقُ العادَةِ واطِّرادُها عندَ قيامِ أسبابها، فالتَّاجرُ يحملُ مشقَّةَ السَّفرِ في البَرِّ والبَحرِ بناءً على أنَّهُ يسلمُ ويغنمُ، فلو طَرَدَ هذا القياسَ الفاسدَ، وقالَ : السَّفرُ مشقَةٌ متحقَّقةٌ والكَسبُ أمرٌ مَوهومٌ لتعطَّلَت أسفارُ النَّاسِ بالكُلِّيَّةِ، وكذلكَ عمَّالُ الآخرَةِ لو قالوا تعبُ العَملِ ومشقَّتُهُ أمرٌ متحقِّقٌ وحُسنُ الخاتمَةِ أمرٌ مَوهومٌ لعطَّلوا الأعمالَ جملَةً، وكذلكَ الأُجراءُ، والصُّنَّاعُ، والمُلوكُ، والجُندُ، وكلُّ طالبِ أمرٍ منَ الأُمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ لولا بناؤهُ على الغالبِ وما جَرَت بهِ العادَةُ لما احتملَ المشقَّةَ المتيقّنَةَ لأمرٍ منتظرٍ .

ومن ههُنا قيلَ : إنَّ إنكارَ هذه المسألةِ يستلزمُ تَعطيلَ الدُّنيا والآخرةِ مِن وجوهٍ متعدِّدَةٍ .

▫ **الثامن والأربعون** : قولكُم : يُعارضُهُ معنىً ثالثٌ وراءهما فيفكرُ العَقلُ في أنواعٍ وشروطٍ أُخرى وراءَ مجرَّد الإنسانيَّة منَ العَقلِ والبلوغِ

---

(١) ثار به حتى غلبه .

والعلمِ والـجَهلِ والكمالِ والنَّقصِ والقرابَةِ والأجنبيَّةِ فيتحيَّرُ العَقلُ كلَّ التَّـحيُّر فلابدَّ إذاً مِن شارعٍ يفصِّلُ هذه الـخطَّةَ، ويعيِّـنُ قانوناً يطَّردُ عليهِ أمرُ الأُمَّةِ، ويَستقيمُ عليهِ مصالـحُهُم .

فيقال : لا ريبَ أنَّ الشرائعَ تأتي بمالا تَستقلُّ العقولُ بإدراكهِ؛ فإذا جاءَت بهِ الشريعَةُ اهتَدى العَقلُ حينئذٍ إلى وَجهِ حسن مأمورِه وقبح منهيِّهِ فسَّرتهُ الشريعَةُ على وجهِ الـحكمَةِ والمَصلحَةِ الباعثينِ لشرعهِ، فهذا مـمَّا لا يُنكرُ، وهذا الذي قُلنا فيهِ : أنَّ الشرائعَ تأتي بـمجازاتِ العقولِ لا بـمحالاتِ العقولِ، ونَـحنُ لم ندَّعِ ولا عاقلٌ قطُّ أنَّ العَقلَ يَستقلُّ بـجميعِ تفاصيلِ ما جاءَت به الشريعَةُ بـحيثُ لو تُرِكَ وَحدَهُ لاهتَدى إلى كلِّ ما جاءَت بهِ .

إذا عُرِفَ هذا فغايَةُ ما ذكرتُم أنَّ الشريعَةَ الكاملَةَ اشترَطَت في وجوبِ القِصاصِ شروطاً لا يَهتَدي العقلُ إليها، وأيُّ شيءٍ يلزمُ مِن هذا ؟ وماذا يقبحُ لكُم ؟ ومُنازعوكم يسلِّمونهُ لكُم .

وقولكُم : أنَّ هذا معارضٌ للوَصفِ المُقتَضي لثبوتِ القصاصِ مِن قيامِ مَصلحَةِ العالـمِ إمَّا غَفلَة عنِ الشروطِ المُعارِضَةِ، وإمَّا اصطلاح طارسيم[1] فيهِ مالا يَهتَدي العقلُ إليهِ مِن شروطِ اقتِضاءِ الوَصفِ لموجبهِ معارضة .

فياللّهِ العَجبُ أيُّ مُعارَضَةٍ هـهُنا إذا كانَ العَقلُ والفِطرَةُ قَد شهِدا بـحُسنِ القَتلِ قَصاصاً وانتظامِهُ للعالـمِ، وتوقَّفا في اقتِضاءِ هذا الوَصفِ هل يُضمُّ إليهِ شرطٌ آخرُ غيرهُ أم يَكفي بـمجرَّدهِ ؟ وفي تَعيينِ تلكَ الشروطِ فأدركَ

---

(١) مُظلِمٌ .

العَقلُ ما استقلَّ بإدراكِهِ، وتوقَّفَ عـمَّـا لا يستقلُّ بإدراكِهِ حتى اهتَدى إليهِ بنورِ الشريعَةِ، يوضِّحُ هذا :

▫ **التاسع والأربعون** : أنَّ ما وَرَدَت بهِ الشريعَةُ في أصلِ القصاصِ وشروطهِ منقسمٌ إلى قسمين :

● أحدهما : ما حُسنهُ مَعلومٌ بصريحِ العَقلِ الذي لا يَستريبُ فيهِ عاقلٌ، وهو أصلُ القِصاصِ وانتظامِ مَصالـحِ العالـمِ بهِ .

● والثَّاني : ما حُسنهُ مَعلومٌ بنظرِ العَقلِ وفكرهِ وتأمُّلهِ فلا يَهتَدي إليهِ إلّا الـخواصُّ، وهو ما اشترطَ اقتضاءَ هذا الوَصفِ، أو جُعِلَ تابعاً لهُ، فاشتُرِطَ لهُ المكافأةُ في الدِّينِ، وهذا في غايَةِ المُراعاةِ للـحكمَةِ والمَصلحَةِ، فإنَّ الدِّينَ هو الذي فرَّقَ بينَ النَّاسِ في العصمَةِ، وليسَ في حكمةِ اللَّهِ وحُسنِ شرعهِ أن يَـجعلَ دمَ وليِّه وعبدهِ، وأحبِّ خَلقهِ إليهِ، وخيرِ بريّتهِ، ومَن خَلَقَهُ لنَفسهِ، واختصَّهُ بكرامتهِ، وأهَّلهُ لـجوارهِ في جنَّتهِ والنَّظرِ إلى وجهِهِ وسماعِ كلامهِ في دارِ كرامتهِ كدَمِ عدوِّهِ، وأمقَتِ خَلقهِ إليهِ، وشرِّ بريَّتهِ، والعادلِ بهِ عن عبادتهِ إلى عبادَةِ الشيطانِ الذي خَلَقَهُ للنَّارِ، وللطُّرودِ عن بابهِ، والإبعادِ عن رحمتهِ .

وبالـجُملَةِ فـحاشا حكمتُـهُ أن يسَوِّي بينَ دماءِ خَيرِ البريَّةِ ودماءِ شرِّ البريَّةِ في أخذِ هذه بهذه سيَّـما وَقَد أباحَ لأوليائهِ دماءَ أعدائهِ، وجعلهم قرابينَ لهم، وإنَّـما اقتَضَت حكمتُهُ أن يكُفُّوا عنهم إذا صاروا تَـحتَ قَهرهم وإذلالهم كالعَبيدِ لهم يؤدُّونَ إليهم الـجزيَةَ التي هي خَراجُ رؤوسهم مع بقاءِ السَّببِ الموجبِ لإباحَةِ دمائهم، وهذا التَّركُ والكفُّ لا يَقتَضي استواءَ الدَّمَّيـنِ عَقلاً

ولا شرعاً ولا مَصلحَةً، ولا ريبَ أنَّ الذِّمِّيـن قبلَ القَهرِ والإذلاَلِ لم يكونا بمستويينِ لأجلِ الكُفرِ، فأيُّ موجبٍ لاستوائهما بعدَ الاستذلالِ والقَهرِ، والكُفرِ قائمٌ بِعَينهِ، فهَل في الحكمَةِ وقواعدِ الشريعَةِ وموجباتِ العقولِ أن يكونَ الإذلالُ والقَهرُ للكافرِ موجباً لِمُساواةِ دمهِ لدمِ المُسلمِ، هذا ممَّا تأباهُ الحكمَةُ والمَصلحَةُ والعقولُ، وقَد أشارَ ﷺ إلى هذا المَعنى، وكشفَ الغطاءَ، وأوضحَ المُشكلَ بقولِهِ : « المُسلمونَ تتكافأُ دماؤهم »[1] أو قال : « المُؤمنونَ »،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥١ ، ٤٥٣١)، وابن ماجه (٢٦٨٥)، وابن الجارود (٧٧١ و ١٠٧٣)، والبيهقي (٨ / ٢٩)، والبغوي (١٠ / ١٧٢ - ١٧٣) .

من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

قلت : وهذا إسناد حسن .

وأخرجه أبو داود (٤٥٣٠) والنسائي (٨ / ١٩)، وأحمد (١ / ١٢٢)، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٢ / ٩٠)، و « شرح معاني الآثار » (٣ / ١٩٢)، والبغوي في « شرح السُّنة » (١٠ / ١٧٢)، والبيهقي (٨ / ٢٩) .

من طريق قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة عن علي رضي اللَّه عنه .

قلت : الحسن مدلس وقد عنعنه، لكنَّه توبع .

فأخرجه أبو داود (٢٠٣٥)، والنسائي (٨ / ٢٠)، وأحمد (١ / ١١٩) من طريق قتادة عن أبي حسان الاعرج عن علي .

قلت : هذا **إسناد صحيح على شرط مسلم**، وأبو حسان هو مسلم بن عبداللَّه .

وصححه ابن عبدالهادي وحسنه الحافظ .

وبالجملة؛ فالحديث صحيح بشواهده، واللَّه أعلى وأعلم .

قال الطحاوي في « مشكل الآثار » (٢ / ٩٠) :

« فتأملنا قول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم » =

فعلَّقَ المُكافأة بوَصفٍ لا يـجوزُ إلغاؤهُ وإهدارُهُ وتَعليقها بغيرهِ إذ يكونُ إبطالاً لما اعتبَرهُ الشارعُ، واعتباراً لما أبطلهُ؛ فإذا علَّقَ المُكافأةَ بوَصفِ الإيمانِ كانَ كتَعليقهِ سائرَ الأحكامِ بالأوصافِ كتَعليقِ القطعِ بوَصفِ السرقَةِ، والرَّجم بوَصفِ الزِّنا، والـجلدِ بوَصفِ القَذفِ، والشربِ، ولا فَرقَ بينهما أصلاً فكلُّ مَن علَّقَ الأحكامَ بغَيرِ الأوصافِ التي علَّقها بهِ الشارعُ كانَ تَعليقُهُ منقطعاً منصرماً، وهذا مـمَّـا اتَّفَقَ أئـمَّةُ الفُقهاءِ على صحَّتهِ، فَقَد أدَّى نَظرُ العَقلِ إلى أنَّ دمَ عَدوِّ اللَّهِ الكافرِ لا يُساوي دمَ وليِّهِ ولا يكافيهِ أبداً، وجاءَ الشرعُ بموجبِهِ فأيُّ مُعارَضَةٍ هـهُنا وأيُّ حيرَةٍ إن هوَ إلّا بَصيرَةٌ على بَصيرَةٍ، ونورٌ على نورٍ، وليسَ هذا مكانَ استيعابِ الكلامِ على هذه المسألةِ، وإنَّـما الغرضُ التَّنبيهُ على أنَّ في صريحِ العَقلِ الشهادةَ لما جاءَ بهِ الشرعُ فيها .

وعكسُ هذا أنَّهُ لم تُشترَط الـمُكافأةُ في علمٍ وجَهلٍ، ولا في كمالٍ وقُبحٍ ولا في شرفٍ وَضِعَةٍ، ولا في عَقلٍ وجنونٍ، ولا في أجنبيَّةٍ وقرابَةٍ خلا

= فوجدنا أهل العلم جميعاً لا يختلفون في تأويل ذلك أنَّه على التساوي في القصاص والديات، وأنَّ ذلك ينفي أن يكون لشريف على وضيع فضل في ذلك، وأنَّ ذلك كان رداً على أهل الجاهليّة في تركهم قتل الشريف بقتله الوضيع » .

وقال البغوي في « شرح السُّنة » (١٠ / ١٧٣ - ١٧٤) :

« قوله : « تتكافأ دماؤهم » يريد أنَّ دماء المسلمين متساوية في القصاص يقاد الشريف منهم بالوضيع، والكبير بالصَّغير، والعالم بالجاهل، والرجل بالمرأة، وإذا كان المقتول شريفاً، أو عالماً، والقاتل وضيع جاهل لا يقتل به غير قاتله على خلاف ما كان يفعله أهل الجاهليّة كانوا لا يرضون في دم الشريف بالاستقادة من قاتله الوضيع حتى يقتلوا عدة من قبيلة القاتل » .

الوالد والوَلد، وهذا من كمالِ الحكمَةِ وتمامِ النِّعمَةِ، وهو في غايَةِ المَصلحَةِ إذ لو روعيَت هذه الأُمورُ لتعطَّلت مَصلحَةُ القصاصِ إلّا في النَّادرِ البَعيدِ إذ قلَّ أن يَستوي شخصانِ من كلِّ وَجهٍ بل لابدَّ من التَّفاوُتِ بينهما في هذه الأوصافِ أو في بَعضها، فلو أنَّ الشريعَةَ جاءَت بأن لا يقتَصَّ إلّا مِن مكافيءٍ من كلِّ وجهٍ لَفَسَدَ العالَمُ وعظمَ الهَرَجُ وانتَشرَ الفسادُ ولا يجوزُ على عاقلٍ وضعَ هذه السِّياسَة الجائرَة، وواضعها إلى السَّفهِ أقربُ منهُ إلى الحكمَةِ، فلا جَرَمَ أهدَتكَ الشرائعُ إلى اعتبارِ ذلك .

وأمَّا الوَلَدُ والوالدُ فمنعَ مِن جريانِ القصاصِ بينهما حقيقَةُ البعضيَّةِ والجزئيَّةِ التي بينهما، فإنَّ الوَلَدَ جزءٌ منَ الوالدِ ولا يقتصُّ لبَعضِ أجزاءِ الإنسانِ من بَعض، وقَد أشارَ تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وجَعلوا لهُ مِن عبادهِ جُزأ ﴾ [الزخرف : ١٥]، وهو قولهم : الملائكةُ بناتُ اللَّهِ فدلَّ على أنَّ الوَلَدَ جُزءٌ منَ الوالدِ، وعلى هذا الأصلِ امتَنَعَت شهادَتُهُ لهُ وقطعُهُ بالسَّرقَةِ من مالهِ، وحدُّه أباهُ على قَذفهِ، وعَن هذا الأصلِ ذَهَبَ كثيرٌ منَ السَّلفِ ومنهم الإمامُ أحمدُ وغيرهُ إلى أنَّ لهُ أن يتملَّكَ ما شاءَ من مالِ ولدهِ، وهو كالمُباحِ في حقِّهِ، وقَد ذكرنا هذا المسألَةَ مستقصاةً بأدلَّتها، وبيَّنَّا دلالَةَ القرآنِ عليها من وجوهٍ متعدِّدَةٍ في غيرِ هذا المَوضع .

وهذا المأخذُ أحسنُ من قولهم : إنَّ الأبَ لما كانَ هو السَّببُ في إيجادِ الوَلدِ فلا يكونُ الوَلدُ سبباً في إعدامهِ .

وفي المسألةِ مَسلكٌ آخرَ وهو مَسلكٌ قويٌّ جدّاً، وهو : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ في قلبِ الوالدِ منَ الشفقَةِ على ولدهِ والحرصِ على حياتهِ ما يوازي

شفقتهُ على نَفسهِ وحرصهِ على حياةِ نَفسهِ، وربَّما يَزيدُ على ذلكَ، فَقَد يؤثرُ الرَّجلُ حياةَ ولدهِ على حياتهِ، وكثيراً ما يحرمُ الرَّجلُ نَفسهُ حظوظها، ويؤثرُ بها ولدَهُ، وهذا القدرُ مانعٌ من كونهِ يريدُ إعدامهُ وإهلاكهُ بل لا يَقصدُ في الغالبِ إلّا تأديبَهُ وعقوبته على إساءتهِ، فلا يقعُ قتلُهُ في الأغلبِ عَن قَصدٍ وتعمُّدٍ بل عن خطأ وسبقِ يَدٍ، وإذا وقعَ ذلكَ غلطاً أُلحقَ بالقَتلِ الذي لم يُقصد بهِ إزهاقُ النَّفسِ، فأسبابُ التُّهمَةِ والعداوَةِ الحاملةِ على القَتلِ لا تكادُ توجدُ في الآباءِ وإن وجدَت نادراً، فالعبرَةُ بما اطَّرَدَت عليهِ عادَةُ الخليقَةِ .

وهنا للنّاسِ طريقانِ :

○ **أحدهما** : أنَّا إذا تَحقَّقنا التُّهمَةَ وقَصدَ القَتلِ والإزهاقِ بأن يَضجعهُ ويَذبحهُ مثلاً أجرينا القصاصَ بينهما، لتحقُّقِ قَصدِ الجنايَةِ وانتفاءِ المانعِ منَ القصاصِ، وهذا قولُ أهلِ المَدينَةِ .

○ **الثَّاني** : أنَّهُ لا يُجرى القصاصُ بِحالٍ، وإن تَحقَّقَ قَصدُ القَتلِ لمكانِ الجزئيَّةِ والبعضيَّةِ المانعَةِ منَ الاقتصاصِ من بَعضِ الأجزاءِ لبَعضٍ، وهو قولُ الأكثرينَ ولا يَرِدُ عليهم قتلُ الوَلدِ لوالدهِ وإن كانَ بَعضَهُ، لأنَّ الأبَ لم يخلق مِن نطفَةِ الابنِ، فليسَ الأبُ بجزءٍ لهُ حقيقَةً ولا حكماً بخلافِ الوَلَدِ فإنَّهُ جزءٌ حقيقَةً، وليسَ هذا موضعَ استقصاءِ الكلامِ على هذه المسائلِ إذ المَقصودُ بيانُ اشتمالها على الحكمِ والمصالحِ التي يدركها العَقلُ، وإن لم يستقلَّ بها، فجاءَت الشريعَةُ بها مقرِّرَةً لما استقرَّ في العَقلِ إدراكهُ ولو مِن بَعضِ الوُجوهِ .

وبَعدَ النُّزولِ عنِ هذا المقامِ فأقصى ما فيهِ أن يقال : أنَّ الشريعَة جاءَت بما يعجزُ العَقلُ عن إدراكهِ لا بما يحيلهُ العَقلُ، ونَحنُ لا ننكرُ ذلكَ، ولكن لا يلزمُ منهُ نَفيُ الحِكمِ والمصالحِ التي اشتملَت عليها الأفعالُ في ذواتها، واللَّهُ أعلم .

□ **الخمسون** : قولُكُم : وظهرَ بهذا أنَّ المعاني المُستَنبطَةَ راجعَةٌ إلى مجرَّدِ استنباطِ العَقلِ ووضعِ الذِّهنِ من غيرِ أن يكونَ الفعلُ مُشتملاً عليها كلامٌ في غايَةِ الفسادِ والبُطلانِ لا يَرتضيهِ أهلُ العلمِ والإنصافِ، وتصوُّرهِ حقَّ التَّصوُّر كافٍ في الجَزمِ ببُطلانهِ مِن وجوهٍ عَديدةٍ :

● **أحدها** : أنَّ العَقلَ والفطرَةَ يشهدانِ ببُطلانهِ، والوُجودَ يكذبهُ، فإنَّ أكثرَ المعاني المُستنبطَةِ منَ الأحكامِ ليسَت مِن أوضاعِ الأذهانِ المجرَّدَةِ عن اشتمالِ الأفعالِ عليها، ومدَّعي ذلكَ في غايَةِ المُكابرَةِ التي لا تُجدي عليهِ إلّا تَوهينَ المقالَةِ، وهذه المعاني المُستنبطَةُ منَ الأحكامِ موجودَةٌ مَشهودَةٌ يعلمُ العقلاءُ أنَّها ليسَت مِن أوضاعِ الذِّهنِ بل الذِّهنُ أدركها وعَلَمها، وكانَ نَسبةُ الذِّهنِ إلى إدراكها كنسبَةِ البَصَرِ إلى إدراكِ الألوانِ وغيرها، وكنسبَةِ السَّمعِ إلى إدراكِ الأصواتِ، وكنسبَةِ الذَّوقِ إلى إدراكِ الطُّعومِ، والشمِّ إلى إدراكِ الرَّوائحِ، فهَل يسوغُ لعاقلٍ أن يَدَّعي أنَّ هذه المُدركاتِ من أوضاعِ الحواسِّ ؟

وكذلكَ العقلُ إذا أدركَ ما اشتملَ عليهِ الكذبُ والفجورُ وخرابُ العالمِ والظُّلمُ وإهلاكُ الحَرثِ والنَّسلِ والزِّنا بالأُمَّهاتِ وغيرُ ذلكَ منَ القبائحِ،

وأدركَ ما اشتملَ عليهِ الصِّدقُ والبرُّ والإحسانُ والعَدلُ وشكرانُ المُنعمِ والعفَّةُ وفعلُ كلِّ جميلٍ منَ الحُسنِ لم تكُن تلكَ المعاني التي اشتلمت عليها هذه الأفعالُ مجرَّدَ وَضعِ الذِّهنِ واستنباطِ العَقلِ، ومدَّعى ذلكَ مُصابٌ في عَقلهِ، فإنَّ المعاني التي اشتملت عليها المنهيّاتُ الموجبَةُ لتَحريمِها أمورٌ ناشئةٌ منَ الأفعالِ ليسَت أوضاعاً ذهنيَّةً، والمعاني التي اشتملت عليها المأموراتُ الموجبَةُ لحُسنِها ليسَت مجرَّد أوضاعٍ ذهنيَّة بل أمورٌ حقيقيَّةٌ ناشئةٌ من ذواتِ الأفعالِ ترتُّبُ آثارُها عليها كترتيبِ آثارِ الأدويَّةِ والأغذيَةِ عليها.

وما نَظيرُ هذه المقالَةِ إلّا مقالةُ مَن يَزعُم أنَّ القوى والآثارَ المُستنبَطَةَ منَ الأغذيَةِ والأدويَةِ لا حَقيقَةَ لها إنَّما هيَ أوضاعٌ ذهنيَّةٌ، ومعلومٌ أنَّ هذا بابٌ منَ السَّفسطَةِ، فاعرض معاني الشريعَةِ الكليَّةِ على عَقلكَ، وانظُر ارتباطَها بأفعالها وتعلّقها بها ثمَّ تأمَّل هل تجدُ أموراً حقيقيَّةً تنشأُ منَ الأفعالِ، فإذا فُعِلَ الفعلُ نشأَ منهُ أثرُهُ أو تَجدها أوضاعاً ذهنيَّةً لا حقيقَةَ لها، وإذا أرَدتَ معرفَةَ بطلانِ المقالَةِ فكرِّر النَّظَرَ في أدلَّتِها، فأدلَّتُها من أكبَرِ الشواهدِ على بُطلانها بل العاقلُ يَستَغني بأدلَّةِ الباطلِ عن إقامَة الدَّليلِ على بطلانهِ بل نَفسُ دليلِهِ هو دليلُ بُطلانهِ .

● **الثَّاني** : أنَّ استنباطَ العقولِ وَوضعَ الأذهانِ لما لا حَقيقَةَ لهُ من بابِ الخيالاتِ والتَّقديراتِ التي لا يترتَّبُ عليها علمٌ ولا مَعلومٌ ولا صلاحٌ ولا فسادٌ إذ هي خيالاتٌ مجرَّدَةٌ وأوهامٌ مقدَّرهةٌ كوضعِ الذِّهنِ سائرَ ما يضعهُ منَ المقدَّراتِ الذهنيَّةِ، ومعلومٌ أنَّ المعاني المُستنبطَةَ من الأحكامِ هي من أجَلِّ العلومِ ومعلومها من أشرفِ المعلوماتِ وأنفعها للعبادِ، وهي منشأُ مصالحهم في

معاشهم ومعادهم، وترتُّبُ آثارِها عليها مَشهودٌ في الخارجِ، مَعقولٌ في الفطرِ، قائمٌ في العقولِ، فكيفَ يُدَّعي أنَّهُ مجرَّدُ وضعٍ ذهنيٍّ لا حَقيقَةَ لهُ ؟

• **الثَّالث** : أنَّ استنباطَ الذِّهن لما يستنبطهُ منَ المعاني واعتقادَهُ أنَّ الأفعالَ مشتملةٌ عليها مع كونِ الأمرِ ليسَ كذلكَ جهلٌ مركَّبٌ واعتقادٌ باطلٌ، فإنَّهُ إذا اعتَقَدَ أنَّ الأفعالَ مشتملَةٌ على تلكَ المعاني وأنَّها منشؤها وليسَ كذلكَ كانَ اعتقاداً للشيءِ بخلافِ ما هو بهِ، وهذا غايَةُ الجَهلِ، فكيفَ يُدَّعي هذا في أشرفِ العلومِ وأزكاها وأنفعِها وأعظمِها متضمِّناً لمصالحِ العبادِ في المعاشِ والمعادِ ؟ وهل هو الّا لبُّ الشريعَةِ ومَضمونها ؟ فكيفَ يسوغُ أن يُدَّعى فيها هذا الباطلَ ويُرمى بهذا البُهتان .

وبالجُملَةِ، فبُطلانِ هذا القولِ أظهَرُ مِن أن يتكلَّفَ ردَّهُ، ولم يَقُل هذا القولُ مَن شمَّ للفقهِ رائحَةً أصلاً .

□ **الحادي والخمسون** : قولُكُم : لو كانَت صفاتٍ نَفسيَّةً للفعلِ لزِمَ من ذلكَ أن تكونَ الحركَةُ الواحدَةُ مشتملَةً على صفاتٍ متناقضَةٍ وأحوالٍ متنافرَةٍ .

فيقالُ : وما الذي يحيلُ أن يكونَ الفعلُ مشتملاً على صفتينِ مختلفينِ، تَقتَضي كلٌّ منهما أثراً غيرَ الأثرِ الآخرِ، وتكونُ إحدى الصِّفتينِ والأثرَين أولى بهِ، وتكونُ مَصلحتُهُ أرجحَ، فإذا رتِّبَ على صفتهِ الأُخرى أثرُها فاتَت المَصلحَةُ الرَّاجحةُ المَطلوبَةُ شرعاً وعَقلاً بل هذا هو الواقعُ، ونَحنُ نجدُ هذا حسّاً في قُوى الأغذيَةِ والأدويَةِ ونَحوها من صفاتِ الأجسامِ الحسيَّة المُدركةِ

بالحسِّ فكيفَ بصفاتِ الأفعالِ المُدركَةِ بالعَقلِ ؟

وأمثلَة ذلك في الشريعَةِ تَزيدُ على الألفِ :

فهذه الصَّلاةُ في وَقتِ النَّهيِ فيها مَصلحَةُ تَكثيرِ العبادَةِ، وتَحصيلِ الأرباحِ، ومزيدِ الثَّوابِ، والتَّقرُّب إلى اللَّه .

وفيها مَفسَدَةُ المُشابهَةِ بالكُفَّارِ في عبادَةِ الشمسِ، وفي تَركها مَصلحةُ سدِّ ذريعَةِ الشركِ، وفطمِ النُّفوسِ عن المُشابهَةِ للكُفَّارِ حتى في وَقتِ العبادَةِ .

وكانَت هذه المَفسدَةُ أَولى بالصَّلاةِ في أوقاتِ النَّهيِ من مصلحتها، فلو شُرعت لما فيها منَ المَصلحَةِ لفاتَت مَصلحَةُ التَّركِ، وحصلَت مَفسدَةُ المُشابهَةِ التي هي أقوى من مَصلحَةِ الصَّلاةِ حينئذٍ، ولهذا كانَت مَصلحَةُ أداءِ الفرائضِ في هذه الأوقاتِ أرجحُ من مَفسدَةِ المُشابهَةِ بحيثُ لما انغمَرَت هذه المَفسدَةُ بالنِّسبَةِ إلى الفريضَةِ لم يَمنع منها بخلافِ النَّافلَةِ، فإنَّ في فعلها في غيرِ هذه الأوقاتِ غُنيَّة عن فعلها فيها، فلا تفوتُ مَصلحتُها فيقعُ فعلُها في وقتِ النَّهيِ مَفسدَةً راجحَةً، ومِن هـهُنا جوَّزَ كثيرٌ منَ الفقهاءِ ذواتِ الأسبابِ في وقتِ النَّهيِ؛ لتَرجُّحِ مَصلحتِها، فإنَّها لا تُقْضى ولا يمكنُ تَداركُها، وكانَت مَفسدَةُ تَفويتِها أرجحَ من مَفسدَةِ المُشابهَةِ المَذكورَةِ، وليسَ هذا موضعُ استقصاءِ هذه المسألةِ، فما الذي يحيلُ اشتمال الحركَةِ الواحدَةِ على صفاتٍ مختلفَةٍ بهذه المثابَةِ، ويكونُ بعضُها أرجح من بَعضٍ، فيُقضى للرَّاجحِ عَقلاً وشرعاً، وعلى هذا المثالِ مسائل عامَّة الشريعَة، ولولا الإطالَةُ لكتَبنا منها ما يبلغُ ألفَ مثالٍ، والعالمُ ينتبهُ بالجزئيَّاتِ للقاعدَةِ الكليَّةِ .

□ **الثَّاني والخمسون** : قولُكُم : وليسَ معنى قولِنا إنَّ العَقلَ استنبطَ منها أنَّـها كانَت موجودَةً في الشيءِ فاستَخرَجها العَقلُ بل العقلُ تَردَّدَ بينَ إضافاتِ الأحوالِ بَعضها إلى بَعضٍ، ونَسَبَ الـحركاتِ والأشخاصَ نوعاً إلى نوعٍ وشخصاً إلى شخصٍ، فطرأ عليهِ من تلكَ المعاني ما حكيناهُ، وربَّـما يبلغُ مبلغاً يشذُّ عن الاحصاءِ، فعُرِفَ أنَّ المعاني لم تَرجع إلى الذَّاتِ بل إلى مـجرَّدِ الـخواطرِ وهي متعارضَةٌ .

فيقالُ : يا عـجباً لعَقلٍ يروجُ عليهِ مثلُ هذا الكلامِ، ويَبني عليهِ هذه القاعدَةَ العَظيمَةَ، وذلكَ بناءٌ عل شفا جرفٍ هارٍ، وقَد تَقدَّمَ ما يكفي في بُطلانِ هذا الكلامِ .

ونَزيدُ هُنا أنَّهُ كلامٌ فاسدٌ لفظاً ومعنى؛ فإنَّ الاستنباطَ هوَ استِخراجُ الشيءِ الثَّابتِ الـخَفـيِّ الذي لا يَعثرُ عليهِ كلُّ أحَدٍ، ومنهُ استنباطُ الماءِ وهو استخراجهُ من موضعهِ، ومنهُ قولهُ تعالى : ﴿ وَلو رَدُّوهُ إلى الرَّسولِ وإلى أولي الأمرِ مِنهم لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَستَنبطونَهُ ﴾ [النساء : ٨٣]، أي : يَستخرجونَ حقيقتَهُ وتَدبيرَهُ ذكائِهم وإيمانِهم ومعرفتِهم بمواطنِ الأمنِ والـخوفِ، ولا يصحُّ معنى إلّا في شيءٍ ثابتٍ لهُ حَقيقةٌ خفيَّةٌ يَستنبطها الذِّهنُ ويَستخرجها، فأمَّا ما لا حَقيقَةَ لهُ فإنَّهُ مـجرَّدُ ذهنهِ فلا استنباطَ فيهِ بوجهٍ، وأيُّ شيءٍ يستنبطُ منهُ، وإنَّـما هو تَقديرٌ وفَرضٌ، وهذا لا يسمَّـى استنباطاً في عَقلٍ ولا لغَةٍ، وحينئذٍ فيقلبُ الكلامَ عليكم ويكونُ مَن يقلبهُ أسعَدَ بالـحقِّ منكم، فنقولُ : وليسَ معنى قولنا أنَّ العَقلَ استَنبطَ من تلكَ الأفعالِ أنَّ ذلكَ مـجرَّدَ خواطرُ طارئة وإنَّـما معناهُ : أنَّـها كانَت موجودَةً في الأفعالِ؛ فاستَخرَجَها العقلُ

باستنباطِهِ كما يستخرجُ الماءُ الموجودُ منَ الأرضِ باستنباطِهِ، ومعلومٌ أنَّ هذا هو المَعقولُ المُطابقُ للعَقلِ واللغَةِ، وما ذَكَرتموهُ فخارجٌ عن العَقلِ واللغَةِ جميعاً، فعرفَ أنَّهُ لا يصحُّ معنى الاستنباطِ إلّا لشيءٍ موجودٍ يَستخرجهُ العقلُ، ثمَّ ينسبُ إليهِ أنواع تلكَ الأفعالِ وأشخاصُها، فإن كانَ أولى به حكمَ لهُ بالاقتضاءِ والتَّأثيرِ، وهذا هو المَعقولُ، وهو الذي يَعرضهُ الفقهاءُ والمتكلِّمونَ على مُناسباتِ الشريعَةِ وأوصافها وعللها التي تُربطُ بها الأحكامُ، فلو ذهبَ هذا من أيديهم لانسدَّ عليهم بابُ الكلامِ في القياسِ والمُناسباتِ والحِكمِ واستخراجِ ما تَضمَّنتهُ الشريعَةُ من ذلكَ، وتَعليقُ الأحكامِ بأوصافها المُقتضيةِ لها إذا كانَ مَرَدَّ الأمرِ بزعمكم إلى مجرَّدِ خواطرَ طارئةٍ على العَقلِ ومجرَّدِ وَضعِ الذِّهنِ، وهذا من أبطَلِ الباطلِ وأبينَ المحالِ، وَلَقَد أنصفكُم خصومُكُم في ادِّعائهم عليكُم لازم هذا المذهب، وقالوا : لو رُفعَ الحسنُ والقبحُ منَ الأفعالِ الإنسانيَّةِ إلى مُجرَّدِ تَعلّق الخطابِ بها لبَطلت المعاني العَقليَّةُ التي تُستنبطُ منَ الأصولِ الشرعيَّةِ، فلا يمكنُ أن يقاسَ فعلٌ على فعلٍ، ولا قولٌ على قولٍ، ولا يمكنُ أن يقالَ لم كانَ كذا إذ لا تَعليلَ للذَّواتِ ولا صفاتِ للأفعالِ هي عليها في نَفسِ الأمرِ حتى تَرتبطَ بها الأحكامُ، وذلكَ رفعٌ للشرائعِ بالكليَّةِ من حيث إثباتِها لا سيَّما والتَّعلُّقُ أمرٌ عَدَميٌّ، ولا مَعنى لحُسنِ الفعلِ أو قُبحهِ إلّا التَّعلّق العَدميُّ، بينهُ وبينَ الخطابِ، فلا حسنَ في الحقيقَةِ ولا قبحَ لا شرعاً ولا عَقلاً لا سيَّما إذا انضمَّ إلى ذلكَ نَفيُ فعلِ العَبدِ واختيارهِ بالكليَّةِ، وأنَّهُ مجبورٌ محضٌ، فهذا فعلُهُ وذلكَ صفَةُ فعلهِ فلا فعلَ لهُ ولا وَصفَ لقولهِ ألبتَّةَ فأيُّ تعطيلٍ ورفعٍ للشرائعِ أكثرُ من هذا ؟ فهذا

إلزامُهم لكم كما أنّكم ألزَمتموهم نَظيرَ ذلكَ في نَفي صفَةِ الكلامِ وأنصفتموهم في الإلزام .

□ **الثالث والخمسون** : قولُكُم : لو ثَبَتَ الحسنُ والقبحُ العقليّان لتعلَّقَ بهما الإيجابُ والتَّحريمُ شاهداً وغائباً، واللازمُ محالٌ فالمَلزومُ كذلكَ إلى آخرِهِ .

فنقولُ : الكلامُ ههُنا في مقامين :

* **أحدهما** : في التَّلازمِ المَذكورِ بينَ الحسنِ والقبحِ العقليَّين وبينَ الإيجابِ والتَّحريمِ غائباً .

* **والثَّاني** : في انتفاءِ اللازمِ وثبوتِهِ .

فأمَّا المقامُ الأوَّلُ : فلمُثبتي الحسنِ والقبحِ طَريقان :

● أحدهما : ثبوتُ التَّلازمِ والقولُ باللازمِ، وهذا القولُ هو المَعروفُ عن المُعتزلَةِ، وعليهِ يناظرونَ، وهو القولُ الذي نَصَبَ خصومُهم الخلافَ معهم فيه .

● والقولُ الثَّاني : إثباتُ الحسنِ والقبحِ، فإنَّهم يقولون بإثباتِهِ، ويصرِّحونَ بنَفيِ الإيجابِ قبلَ الشرعِ على العَبدِ، وبنَفيِ إيجابِ العَقلِ على اللَّهِ شيئاً ألبتَّةَ كما صرَّحَ بهِ كثيرٌ منَ الحنفيَّةِ والحنابلَةِ كأبي الخطَّابِ وغيرِهِ، والشافعيَّةِ كسَعدِ بن عَليٍّ الزِّنجاني الإمامِ المَشهورِ وغيرِهِ، ولهؤلاءِ في نَفيِ الإيجابِ العقليِّ منَ المعرفَةِ باللَّهِ وثبوتِهِ خلافٌ؛ فالأقوالُ إذاً أربعَةٌ لا مزيدَ عليها :

○ أحدها : نَفيُ الحُسنِ والقُبحِ ونَفيُ الإيجابِ العقليِّ في العمليَّاتِ دونَ العمليَّاتِ كالمَعرفَة، وهذا اختيارُ أبي الخطَّابِ وغيرِهِ، فعرفَ أنَّهُ لا تلازمَ بينَ الحُسنِ والقُبحِ وبينَ الإيجابِ والتَّحريمِ العقليَّينِ، فهذا أحدُ المقامين .

○ وأمَّا المقامُ الثَّاني : وهو انتفاءُ اللازمِ وثبوتهُ، فللنَّاسِ فيهِ ههُنا ثلاثةُ طرقٍ :

○ **أحدها** : التزامُ ذلكَ، والقولُ بالوجوبِ والتَّحريمِ العقليَّينِ شاهداً وغائباً، وهذا قولُ المعتزلَةِ، وهؤلاءِ يقولونَ بترتُّبِ الوُجوبِ شاهداً، وبترتُّبِ المَدحِ والذَّمِّ عليهِ، وأمَّا العقابُ فلهم فيهِ اختلافٌ وتَفصيلٌ، ومَن أثبتَهُ منهم لم يثبتهُ على الوجوبِ الثَّابتِ بَعدَ البعثَةِ، ولكنَّهُم يقولونَ : أنَّ العذابَ الثَّابتَ بعدَ الإيجابِ الشرعيّ نوعٌ آخَرُ غير العذابِ الثَّابتِ على الإيحابِ العقليِّ، وبذلكَ يجيبونَ عن النُّصوصِ النَّافيَةِ للعذابِ قبلَ البعثَةِ، وأمَّا الإيجابُ والتَّحريمُ العقليَّان غائباً فهم مصرِّحونَ بهما، ويفسِّرونَ ذلكَ باللزومِ الذي أوجبتهُ حكمتُهُ وحرَّمتهُ، وأنَّهُ يَستحيلُ عليهِ خلافُهُ كما يَستحيلُ عليهِ الحاجَةُ والنَّومُ والتَّعبُ واللُّغوبُ، فهذا معنى الوجوبِ، والامتناعِ في حقِّ اللَّهِ عندهم فهو وجوبٌ اقتَضَتهُ ذاتُهُ وحكمتُهُ وغناهُ، وامتناعٌ يَستحيلُ عليهِ الاتِّصافُ بهِ لمنافاتهِ كمالِه وغناه .

قالوا : وهذا في الأفعالِ نَظيرَ مايقولونهُ في الصِّفاتِ أنَّهُ يجبُ لهُ كذا، ويمتنعُ عليهِ كذا، فقولنا : نَحنُ في الأفعالِ نَظيرَ قولِكم في الصِّفاتِ ما يجبُ لهُ منها وما يمتنعُ عليهِ، فكما أنَّ ذلكَ وجوبٌ وامتناعٌ ذاتيٌّ يَستحيلُ عليهِ خلافهُ، فهكذا ما تَقتَضيهِ حكمتُهُ وتأباهُ وجوبٌ وامتناعٌ يَستحيلُ عليهِ

الإخلالُ بهِ، وإن كانَ مَقدوراً لهُ، لكنَّهُ لا يخلُّ به لكمالِ حكمتهِ وعلمهِ وغناه .

○ **والفرقَةُ الثَّانيَةُ** : منعَت ذلكَ جملَةً، وأحالَت القَولَ به، وجوَّزَت على الرَّبِّ تعالى كلَّ شيءٍ ممكنٍ، وردَّت الإحالَةَ والامتناعَ في أفعالهِ إلى غيرِ المُمكنِ منَ المحالاتِ، كالجمعِ بينَ النَّقيضينِ وبابهِ، فقابلوا المعتزلة أشدَّ مقابلةٍ، واقتَسما طَرَفَي الإفراطِ والتَّفريط، ورَدَّ هؤلاءِ الوجوبَ والتَّحريمَ الذي جاءَت به النُّصوصُ إلى مجرَّدِ صدقِ المُخبرِ، فما أخبَرَ بأنَّهُ يكونُ فهو واجبٌ لتَصديقِ العلمِ لمعلومهِ والمُخبرِ لخبرهِ، وقَد يفسِّرونَ التَّحريمَ بالامتناعِ عَقلاً كتَحريمِ الظُّلمِ على نَفسهِ، فإنَّهم يفسِّرونَ الظُّلمَ بالمُستَحيلِ لذاتهِ كالجمعِ بينَ النَّقيضين، وليسَ عندهم في المَقدورِ شيءٌ هو ظلمٌ يتنزَّهُ اللَّهُ عنهُ مع قدرتهِ عليهِ لغناه وحكمتهِ وعَدلهِ، فهذا قولُ هؤلاءِ .

○ **والفرقَة الثَّالثَة** : هم الوَسَطُ بينَ هاتينِ الفرقتين، فإنَّ الفرقَةَ الأولى أوجبَت على اللَّهِ شريعَةً بعقولها، وحرَّمَت عليهِ، وأوجبَت ما لم يحرِّمهُ على نَفسهِ، ولم يوجبهُ على نَفسهِ والفرقَةُ الثَّانيَةُ جوَّزَت عليهِ ما يتعالى ويتنزَّهُ عنهُ لمنافاتهِ حكمته وحمدهُ وكمالهُ، والفرقَةُ الوسطُ أثبتَت لهُ ما أثبتهُ لنَفسهِ منَ الإيجابِ والتَّحريمِ الذي هو مُقتَضى أسمائهِ وصفاتهِ الذي لا يليقُ به نسبتهُ إلى ضدِّهِ، لأنَّهُ موجبُ كمالهِ وحكمتهِ وعَدلهِ ولم تدخلهُ تَحتَ شريعَةٍ وضَعتها بعقولِها كما فعلَت الفرقَةُ الأولى، ولم يجوّز عليهِ ما نزَّه نَفسهُ عنهُ كما فعلتهُ الفرقَةُ الثَّانيَةُ .

قالت الفرقَةُ الوَسط : قَد أخبَرَ تعالى أنَّهُ حرَّمَ الظُّلمَ على نَفسهِ كما قالَ على لسانِ رسولِهِ : « يا عبادي إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي »[1]، وقال : ﴿ ولا يَظلمُ ربُّكَ أحداً ﴾ [الكهف : ٤٩] .

فأخبَرَ عن تحريمِهِ على نَفسهِ ونَفى عن نَفسهِ فعلهُ وإرادتهُ، وللنَّاسِ في تفسيرِ هذا الظُّلمِ ثلاثةُ أقوالٍ بحسبِ أصولهم وقواعدهم :

○ **أحدها** : أنَّ الظُّلمَ الذي حرَّمهُ وتنزَّهَ عن فعلهِ وإرادتهِ هو نَظيرُ الظُّلمِ منَ الآدميِّينَ بعضهم لبَعضٍ، وشبَّهوهُ في الأفعالِ ما يحسنُ منهما وما لا يحسنُ بعبادهِ، فضربوا لهُ من قبلِ أنفسهم الأمثالَ، وصاروا بذلك مشبَّهةً ممثِّلَةً في الأفعالِ، فامتَنعوا من إثباتِ المثلِ الأعلى الذي أثبتَهُ لنفسهِ، ثمَّ ضربوا لهُ الأمثالَ، ومثَّلوهُ في أفعالهِ بخلقهِ .

كما أنَّ الجهميَّةَ المعطِّلةَ امتنَعَت من إثباتِ المثلِ الأعلى الذي أثبتهُ لنفسهِ، ثمَّ ضربوا لهُ الأمثالَ، ومثَّلوهُ في صفاتهِ بالجماداتِ النَّاقصَةِ بل بالمَعدوماتِ .

وأهلُ السنَّةِ نَزَّهوهُ عن هذا وهذا، وأثبتوا له ما أثبتهُ لنفسهِ من صفاتِ الكمالِ، ونَزَّهوهُ فيها عن الشبهِ والمثالِ، فأثبتوا لهُ المثلَ الأعلى ولم يضربوا لهُ الأمثالَ، فكانوا أسعَدَ الطَّوائفِ بمعرفَتهِ وأحقِّهم بالإيمانِ به وبولايتهِ ومحبَّتهِ، وذلكَ فضلُ اللَّهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ، ثمَّ التزمَ أصحابُ هذا التَّفسيرِ عنهُ منَ اللوازمِ الباطلَةِ ما لا قِبَلَ لهم بهِ .

---

(١) مضى تخريجه (ص ٦١٤) .

قالوا عن هذا التَّفسيرِ الباطلِ : إنَّهُ تعالى إذا أمَرَ العَبدَ ولم يُعنهُ بجميعِ مَقدورهِ تعالى من وجوهِ الإعانَةِ كانَ ظالماً لهُ والتزموا لذلكَ أنَّهُ لا يقدرُ أن يَهدي ضالّاً، كما أنَّهُ لا يقدرُ أن يضِلَّ مُهتدياً، وأنَّهُ إذا أمَرَ اثنين بأمرٍ واحدٍ وخصَّ أحدهما بإعانتهِ على فعلِ المأمورِ بهِ كانَ ظالماً، وأنَّهُ إذا اشتركَ اثنان في ذنبٍ يوجبُ العقابَ فعاقبَ بهِ أحدهما وعَفى عن الآخرِ كانَ ظُلماً إلى غيرِ ذلكَ منَ اللوازمِ الباطلَةِ التي جعَلوا لأجلها تَركَ تَسويتهِ بينَ عبادهِ في فَضلهِ وإحسانهِ ظلماً .

فعارضهم أصحابُ التَّفسيرِ الثَّاني وقالوا : الظُّلمُ المنزَّهُ عنهُ في الأمورِ المُمتنعَةِ لذاتها، فلا يجوزُ أن يكونَ مَقدوراً، ولا أنَّهُ تعالى تَركَهُ بمشيئتهِ واختيارهِ، وإنَّما هو من بابِ الجمعِ بينَ الضدَّينِ، وجعلِ الجسمِ الواحدِ في مكانينِ، وقَلبِ القَديمِ محدثاً، والمُحدَث قديماً، ونَحوَ ذلكَ، وإلّا فكلُّ ما يقدِّرهُ الذِّهنُ وكانَ وجودُهُ ممكناً والرَّبُّ قادرٌ عليهِ فليسَ بظلمٍ سواءً فعلهُ أو لم يَفعلهُ، وتَلقَّى هذا القولَ عنهم طوائفُ من أهلِ العلمِ، وفسَّروا الحديثَ بهِ، وأسنَدوا ذلكَ وقوُّوهُ بآياتٍ وآثارٍ زَعَموا أنَّها تدلُّ عليهِ كقولهِ : ﴿ إن تُعَذِّبهُم فإنَّهُم عِبادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨]، يَعني : لم تَتَصرَّف في غيرِ ملكِكَ بل إن عذَّبتَ عَذَّبتَ مَن تملكُ، وعلى هذا فجوَّزوا تَعذيبَ كلِّ عَبدٍ لهُ ولو كانَ مُحسناً، ولم يَروا ذلكَ ظُلماً بقوله تعالى : ﴿ لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ وهُم يَسأَلون ﴾، وبقول النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ لو عَذَّبَ أهلَ سماواتهِ وأهلَ أرضهِ لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم »[1]، وبقولهِ ﷺ في دُعاءِ الهمِّ والحزن : « اللَّهمَّ

---

(١) مضى تخريجه (ص ٣٨ - ٣٩) .

إنِّي عَبدُكَ وابنُ عَبدكَ ماضٍ فيَّ حُكمكَ عَدلٌ في قضاؤكَ »[1]، وبما روي

---

(١) **صحيح بشواهده** - أخرجه ابن السُّني (٣٤١) **بإسناد ضعيف** فيه عبدالله بن زبيد، وهو ابن الحارث اليامي، مستور .

قال ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٥ / ٦٤) : « روى عنه الكوفيون، سمعت أبي يقول ذلك » .

قلت : وقد تصحف اسمه في المطبوع إلى : « عبدالله بن زيد »، وهو على الصواب في نسختي المخطوطة (ق ٤٥ / ب) .

وله شاهد من حديث ابن مسعود أثبت سنداً وأشهر رجالاً :

أخرجه أحمد (١ / ٣٩١ ، ٤٥٢)، وابن حبان (٢٣٧٢)، والحاكم (١ / ٥٠٩)، وابن أبي شيبة (١٠ / ٢٥٣)، والطبراني في « الكبير » (١٠٣٥٢)، و « الدعاء » (١٠٣٥)، وأبو يعلى (٩ / ١٩٨ - ١٩٩) .

من طريق فضيل بن مرزوق حدثنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ (وذكره) .

قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنَّه مختلف في سماعه من أبيه » .

وتعقبه الذهبي بقوله : « وأبو سلمة لا يُدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستَّة » .

وقال الحسيني في « الإكمال » (ص ٥١٧) : « لا يُدرى من هو » .

وذهب إلى تجهيله أيضاً ابن حجر في « تعجيل المنفعة » (ص ٤٩) و « لسان الميزان » (٧ / ٥٦) فقال : « وقرأت بخط الحافظ ابن عبدالهادي : يحتمل أن يكون هو خالد بن سلمة وفيه نظر؛ لأنَّ خالد بن سلمة مخزومي، وهذا جهني، والحق أنَّه مجهول الحال، وابن حبان يذكر أمثاله في « الثقات »، ويحتج به في « الصحيح » إذا كان ما رواه ليس بمنكر » .

قلت : وما استبعده الحافظ هو حق اليقين، ووافقه عليه العلامة أحمد شاكر في تخريجه لـ « المسند » (٥ / ٢٦٧) وأضاف قائلاً : « وأقرب منه عندي أن يكون هو =

عن إياس بن معاويَة قال : ما ناظَرتُ بعَقلي كلِّهِ أحداً إلّا القدريَّة؛ قلتُ لهم : ما الظُّلمُ ؟

قالوا : أن تأخذَ ما ليسَ لكَ أو تَتَصرَّفَ فيما ليسَ لكَ .

= موسى بن عبدالله - أو ابن عبدالرحمن - الجهني، ويكنى أبا سلمة، فإنَّه من هذه الطبقة » أ . هـ .

قلت : ما استقربه العلامة أحمد شاكر - رحمه اللّه - هو الصواب، بدليل ما ذكره، وبقرينة أخرى، وهي أنَّ موسى الجهني روى حديثاً آخر عن القاسم بن عبدالرحمن به، وهو عند الطبراني في « الكبير » (١٠٣٥٤) و « الأوسط » (٣٨٠ - مجمع البحرين) وابن حبان (١٣٤٠ - موارد) .

فإذا ضُمَّت إحدى الروايتين إلى الأخرى؛ نتج أنَّ الراوي عن القاسم هو موسى بن عبداللّه الجهني، وهو ثقة من رجال مسلم .

بقي الكلام على الانقطاع الذي أشار إليه الحاكم وأقره الذهبي عليه، وهو قوله : « إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه » .

قلت : هو سالم منه بشهادة جماعة من الأئمَّة؛ منهم : سفيان الثروي، وابن معين، والبخاري، وأبو حاتم، كما في ترجمته في « تهذيب التهذيب »(٦ / ٢١٥ - ٢١٦) .

وقال ابن حجر : « وروى البخاري في « التاريخ الصغير » بإسناد لا بأس به عن القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه؛ قال : لما حضر عبدالله الوفاة؛ قال له ابنه عبدالرحمن : يا أبت ! أوصني . قال : ابك على خطيئتك » .

فلا حجّة بعد ذلك بقول من نفى سماعه من أبيه، لأنَّ العبرة بمن علِم .

وتابعه عبدالرحمن بن إسحاق عند ابن السُّني (٣٤٢) ولم يذكر القاسم بن عبدالرحمن ولا أباه .

قلت : وهو أبو شيبة الواسطي، اتفقوا على تضعيفه .

وبالجملة؛ فالحديث صحيح من طريق الأول عن ابن مسعود - رضي اللّه عنه .

قلت : فللَّهِ كلُّ شيءٍ .

والتزَمَ هؤلاءِ عن هذا القولِ لوازمَ باطلَةً كقولهم : أنَّ اللَّهَ تعالى يجوزُ عليهِ أن يعذِّبَ أنبياءَهُ ورسلَهُ وملائكتَهُ وأولياءهُ وأهلَ طاعتهِ، ويخلِّدَهم في العذابِ الأليمِ، ويكرمَ أعداءَهُ من الكفَّارِ والمُشركينَ والشَّياطين، ويخصَّهُم بجنَّتهِ وكرامتهِ، وكلاهما عَدلٌ وجائزٌ عليهِ، وأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ لا يفعلُ ذلكَ بمُجرَّدِ خبرهِ، فصارَ مُمتنعاً لإخبارهِ أنَّهُ لا يفعلهُ لا لمنافاتهِ حكمتهِ، ولا فَرقَ بينَ الأمرينِ بالنِّسبَةِ إليهِ، ولكن أرادَ هذا وأخبَرَ بهِ وأرادَ الآخَرَ وأخبَرَ بهِ، فوَجَبَ هذا لإرادتهِ وخبرهِ وامتنَعَ ضدُّهُ لعدمِ إرادتهِ واختيارهِ بأن لا يكونَ، والتزموا لهُ أيضاً أنَّهُ يجوزُ أن يعذِّبَ الأطفالَ الذينَ لا ذنبَ لهم أصلاً ويخلِّدَهم في الجحيمِ، وربَّما قالوا بوقوعِ ذلكَ .

فأنكرَ على الطَّائفتينِ معاً أصحابَ التَّفسيرِ الثَّالث، وقالوا : الصَّوابُ الذي دلَّت عليهِ النُّصوصُ : أنَّ الظُّلمَ الذي حرَّمهُ اللَّهُ على نَفسهِ وتنزَّهَ عنهُ فعلاً وإرادَةً هو ما فسَّرهُ به سلفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها؛ أنَّهُ لا يحملُ المرءُ سيِّئاتِ غيرهِ، ولا يعذَّبُ بما لم تَكتسب يداهُ ولم يكُن سَعى فيهِ، ولا ينقصُ من حسناتهِ، فلا يُجازى بها أو ببعضها إذا قارَنها أو طَرَأَ عليها ما يَقتَضي إبطالها أو اقتصاصُ المَظلومينَ منها، وهذا الظُّلمُ الذي نَفى اللَّهُ تعالى خوفَهُ عن العَبدِ بقوله : ﴿ ومَن يَعمَل مِنَ الصَّالحاتِ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلماً ولا هَضماً ﴾ [طه : ١١٢]، قال السَّلفُ والمفسِّرونَ : لا يخافُ أن يَحملَ عليهِ من سيِّئاتِ غَيرهِ، ولا ينقص من حسناتهِ ما يتحمل، فهذا هو المعقولُ مِنَ الظُّلمِ ومن عَدَمِ خوفهِ، وأمَّا الجمعُ بينَ النَّقيضينِ، وقلبُ القديمِ محدَثاً،

والـمُحدَثُ قديماً، فـمـمَّـا يتنزَّهُ كلامُ آحادِ العقلاءِ عن تسميتِهِ ظلماً، وعن نَفـي خَوفِهِ عن العَبدِ فكيفَ بكلامِ ربِّ العالمين ؟

وكذلكَ قولُه : ﴿ وَما ظَلَمناهُم وَلكن كانوا هُـمُ الظَّالـمين ﴾ [الزخرف : ٧٦]؛ فنَفى أن يكونَ تَعذيبَهُ لهم ظُلماً، ثمَّ أخبَرَ أنَّـهُم هم الظَّالـمونَ بكفرهم، ولو كانَ الظُّلمُ الـمَنفيُّ هو الـمحالُ لم يـحسن مقابَلةُ قوله : ﴿ وما ظَلمناهم ﴾ بقوله : ﴿ ولكن كانوا هم الظَّالمين ﴾ بل يَقتَضي الكلامُ أن يقال : ما ظَلَمناهم وَلكن تَصرَّفنا في ملكنا وعَبيدنا، فلما نَفى الظُّلمَ عن نَفسهِ وأثبتهُ لهم دلَّ على أنَّ الظُّلمَ المنفـيَّ أن يعذِّبهم بغيرِ جُرمٍ، وأنَّهُ إنَّـما عذَّبَهم بـجُرمِهم وظلمِهم، ولا تَحتملُ الآيَةُ غيرَ هذا، ولا يـجوزُ تَـحريفُ كلام اللّهِ لنَصرِ المقالاتِ .

وقال تعالى : ﴿ ومَن يَعمَل مِنَ الصَّالـحاتِ مِن ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤمنٌ فأولئكَ يَدخلونَ الـجنَّة ولا يُظلمونَ نَقيراً ﴾ [النساء : ١٢٤]، ولا ريبَ أنَّ هذا مَذكورٌ في سياقِ التَّحريضِ على الأعمالِ الصَّالـحَةِ والاستكثارِ منها، فإنَّ صاحبَها يُـجزى بها ولا ينقصُ منها بذرَةٍ، ولهذا يسمَّى تعالى موفيهِ كقوله : ﴿ وإنَّـمـا تُوَفَّونَ أُجورَكُـم بومَ القيامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]، وقوله : ﴿ وَوُفِّـيَت كلُّ نَفسٍ ما عَـمِلَـت وَهُوَ أعلمُ بـمـا يَفعَلون ﴾ [الزمر : ٧٠] .

فتَركُ الظُّلمِ هو العَدلُ لا فعل كلِّ ممكنٍ، وعلى هذا قامَ الـحسابُ، ووُضعَ الموازين القسط، ووزنَت الـحسناتُ والسيِّئاتُ، وتفاوَتَت الدَّرجاتُ العلى بأهلها والدَّركاتُ السُّفلى بأهلها .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ اللّهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ﴾ [النساء : ٤٠]، أي : لا

يضيعُ جزاءَ من أحسَنَ ولو بمثقالِ ذرَّةٍ، فدلَّ على أنَّ إضاعتَها وتركَ المجازاةِ بها مع عدمِ ما يُبطلها ظلمٌ يتعالى اللَّهُ عنهُ، ومعلومٌ أنَّ تركَ المُجازاةِ عليها مَقدورٌ يتنزَّهُ اللَّهُ عنهُ لكمالِ عَدلهِ وحكمتهِ، ولا تَحتملُ الآيَةُ قطُّ غيرَ معناها المَفهوم منها .

وقال تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صالحاً فَلِنَفسِهِ ومَن أساءَ فَعَليها وَما ربُّكَ بِظلّامٍ للعَبيد ﴾ [فصلت : ٤٦]، أي : لا يعاقبُ العَبدَ بغيرِ إساءَةٍ، ولا يحرمهُ ثوابَ إحسانهِ، ومعلومٌ أنَّ ذلكَ مَقدورٌ لهُ تعالى، وهو نَظيرُ قوله : ﴿ أم لَم يُنبَّأ بما في صُحفِ موسى * وإبراهيمَ الَّذي وَفَّى * ألّا تَزِرَ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى * وأن ليسَ للإنسانِ إلّا ما سَعى ﴾ [النجم : ٣٦ - ٣٩]، فأخبَرَ أنَّهُ ليسَ على أحدٍ في وِزرِ غيرهِ شيءٌ، وأنَّهُ لا يستحقُّ إلّا ما سعاهُ، وأنَّ هذا هو العَدلُ الذي نزَّهَ نَفسهُ عن خلافهِ : ﴿ وقالَ الَّذي آمَنَ يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكُم مثلَ يومِ الأحزابِ مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدهم وما اللَّهُ يُريدُ ظُلماً للعِباد ﴾ [غافر : ٣١]، بيَّنَ أنَّ هذا العقابَ لم يكن ظلماً منَ اللَّهِ للعبادِ بل لذنوبهم واستحقاقِهم، ومعلومٌ أنَّ المحالَ الذي لا يمكن ولا يكونُ مَقدوراً أصلاً لا يصلحُ أن يُمدَحَ المَمدوحَ بعدمِ إرادتهِ ولا فعلهِ، ولا يُحمَد على ذلك، وإنَّما يكونُ المَدحُ بتَركِ الأفعالِ لمَن هو قادرٌ عليها وأن يتنزَّهُ عنها لكمالهِ وغناه وحمدهِ، وعلى هذا يتمُّ قولهُ : « إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسي »[1] وما شاكلهُ منَ النُّصوصِ، فإمَّا أن يكونَ المَعنى إنِّي حرَّمتُ على نَفسي ما لا حقيقَةَ لهُ، وما ليسَ بمُمكنٍ مثلَ خَلقِ مثلي،

(١) مضى تخريجه (ص ٦١٤) .

ومثلَ جعلِ القَديمِ مُحدثاً، والـمُحدَث قديماً ونَحوَ ذلكَ منَ الـمحالاتِ، ويكونُ المَعنى إنِّي أخبَرتُ عن نَفسي بأنَّ ما لا يكونُ مَقدوراً لا يكونُ منِّي، فهذا مـمَّا يتيقَّنُ الـمُنصفُ أنَّهُ ليسَ مُراداً في اللفظِ قَطعاً، وأنَّهُ يـجبُ تَنزيهُ كلامِ اللَّهِ ورسولهِ عن حملةِ على مثلِ ذلك .

قالوا : وأمَّا استدلالكُم بتلكَ النُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّهُ سبحانهُ إن عَذَّبهم فإنَّهم عبادُهُ وأنَّهُ غيرُ ظالمٍ لهم، وأنَّهُ لا يُسألُ عـمَّا يفعلُ، وأنَّ قضاءَهُ فيهم عَدلٌ بمناظرَةِ إياسٍ للقدريَّةِ، فهذه النُّصوصُ وأمثالُها كلُّها حقٌّ يـجبُ القولُ بموجبها، ولا تُـحرَّف معانيها، والكلُّ من عندِ اللَّهِ، ولكن أيُّ دليلٍ فيها يدلُّ على أنَّهُ تعالى يـجوزُ عليهِ أن يعذِّبَ أهلَ طاعتهِ، ويُنَعِّمَ أهلَ معصيتهِ، وأنَّهُ يعذِّب بغيرِ جرمٍ، ويـحرم الـمُحسنَ جزاءَ عملهِ، ونَـحوَ ذلكَ بل كلُّها متَّفقَةٌ متطابقَةٌ دالَّةٌ على كمالِ القدرَةِ وكمالِ العَدلِ والـحكمَةِ، فالنُّصوصُ التي ذكرناها تَقتَضي كمالَ عَدلهِ وحكمتهِ وغناه ووَضعهِ العقوبَةَ والثَّوابَ موضعها، وأنَّهُ لا يعدلُ بهما عن سننهما، والنُّصوصُ التي ذكرتموها تَقتَضي كمالَ قدرتهِ وانفرادهِ بالرُّبوبيَّةِ والـحُكمُ، وأنَّهُ ليسَ فوقهُ آمرٌ ولا ناهٍ يتعقَّبُ أفعالَهُ بسؤالٍ، وأنَّهُ لو عَذَّبَ أهلَ سماواتهِ وأرضهِ لكانَ ذلكَ تعذيباً لـحقِّهِ عليهم، وكانوا إذ ذاكَ مُستحقِّينَ للعذاب لأنَّ أعمالهم لا تَفي بنجاتهم كما قال النَّبيُّ ﷺ : « لن يُنجِّي أحداً منكُم عملهُ» .

قالوا : ولا أنتَ يا رسولُ اللَّه ؟

قال : « ولا أنا إلّا أن يتغمَّدني اللَّهُ برحمَةٍ منهُ وفَضلٍ » .[1]

---

(١) مضى تخريجه (ص ٣٧ ، ٦١١) .

فرحمتهُ لَهم ليسَت في مقابلَةِ أعمالهم، ولا هي ثمناً لها فإنَّها خيرٌ منها كما قال في الحديثِ نَفسهِ : « ولو رحمهم لكانَت رحمتُهُ لهم خَيراً من أعمالهم »[1] أي فجمعَ بينَ الأمرينِ في الحديثِ أنَّهُ لو عذَّبهم باستحقاقهم ولم يكُن ظالماً لهم، وأنَّهُ لو رحمهم لكانَ ذلكَ مجرَّدُ فَضلهِ وكرمهِ لا بأعمالهم إذ رحمتُهُ خيرٌ من أعمالهم فصلواتُ اللّهِ وسلامُهُ على مَن خَرَجَ هذا الكلامُ أوَّلاً من شفتيهِ، فإنَّهُ أعرفُ الخَلقِ باللّهِ وبحقِّهِ، وأعلمُهم بهِ وبعَدلهِ وفَضلهِ وحكمتهِ وما يستحقُّهُ على عبادهِ، وطاعاتُ العَبدِ كلُّها لا تكونُ مقابلَةً لنعمِ اللّهِ عليهم، ولا مُساويَةً لها بل ولا للقليلِ منها، فكيفَ يَستحقُّونَ بها على اللّهِ النَّجاةَ ؟ وطاعَة المُطيعِ لا نسبَةَ لها إلى نعمَةٍ من نعمِ اللّهِ عليهِ، فَتَبقى سائرُ النِّعمِ تتقاضاه شكراً، والعَبدُ لا يقومُ بمقدورهِ الذي يجبُ للّهِ عليهِ، فجميعُ عبادهِ تَحتَ عفوهِ ورحمتهِ وفَضلهِ فما نَجا منهم أحدٌ إلّا بعفوهِ ومَغفرتهِ، ولا فازَ بالجنَّةِ إلّا بفَضلهِ ورحمتهِ، وإذا كانَت هذه حالُ العبادِ فلو عذَّبهم لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم لا لكونهِ قادراً عليهم وهم مُلكهُ بل لاستحقاقهم، ولو رحمهم لكانَ ذلكَ بفضلهِ لا بأعمالهم .

وأمَّا قوله : ﴿ فإنَّهم عبادكَ ﴾ فليسَ المُرادُ بهِ إنَّكَ قادرٌ عليهم مالكٌ لهم، وأيُّ مَدحٍ في هذا ؟ ولو قلتَ لشخصٍ : إن عَذَّبتَ فلاناً فإنَّكَ قادرٌ على ذلكَ، أيُّ مَدحٍ يكونُ في ذلكَ بل في ضمنِ ذلكَ الأخبار بغايَةِ العَدلِ أنَّهُ تعالى إن عذَّبهم فإنَّهم عبادُه الذينَ أنعمَ عليهم بإيجادهم وخَلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلَةٍ منهم، ولا في مقابلَةِ بذلٍ بذلوهُ بل ابتدأهم

---

(١) مضى تخريجه (ص ٣٩ - ٣٩) .

بنعمهِ وفَضلهِ، فإذا عذَّبهم بعدَ ذلكَ وهم عبيدُهُ لم يعذِّبهم إلّا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم، فإنَّ مَن أنعمَ عليهم ابتداءً بجلائلِ النِّعمِ كيفَ يعذِّبهم بغيرِ استحقاقِ أعظمِ النِّقم .

وفيهِ أيضاً أمرٌ آخَرُ ألطفُ من هذا، وهو : أنَّ كونَهم عبادهُ يَقتَضي عبادتَهُ وحدَهُ وتَعظيمَهُ وإجلالَهُ كما يجلُّ العَبدُ سيِّدَهُ ومالكهُ الذي لا يصلُ إليهِ نَفعٌ إلّا على يدهِ، ولا يَدفعُ عنهُ ضُرّاً إلّا هو، فإذا كَفَروا بهِ أقبحَ الكُفرِ، وأشركوا بهِ أعظمَ الشركِ، ونَسبوهُ إلى كلِّ نَقيصَةٍ ممَّا تكادُ السَّماواتُ يتفطَّرنَ منهُ وتَنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدَّاً كانوا أحقَّ عبادِه وأولاهم بالعذابِ .

والمَعنى هم عبادُك الذينَ أشركوا بكَ وعَدلوا بكَ، وجَحَدوا حقَّكَ، فهم عبادٌ مُستحقُّونَ للعذابِ .

وفيهِ أمرٌ آخَرُ أيضاً لعلَّهُ ألطفُ ممَّا قبلهُ، وهو : إن تعذِّبهم فإنَّهم عبادُكَ وشأنُ السيِّد المُحسن المُنعمِ أن يتعطَّفَ على عَبدهِ ويَرحمهُ ويَحنوا عليهِ، فإن عذَّبتَ هؤلاءِ وهم عبيدُكَ لا تعذِّبهم إلّا باستحقاقهم وإجرامهم، وإلّا كيفَ يَشقى العَبدُ بسيِّدهِ وهو مُطيعٌ لهُ متَّبعٌ لمرضاتهِ .

فتأمَّل هذه المعاني ووازن بينها وبينَ قول مَن يقولُ : إن تُعذِّبهم فأنتَ الملكُ القادرُ وهم المَملوكونَ المَربوبونَ، وإنَّما تَصرَّفتَ في مُلكِكَ مِن غيرِ أن يكونَ قامَ بهم سببُ العذابِ، فإنَّ القومَ نفاةُ الأسبابِ وعندهم أنَّ كفرَ الكافرينَ وشركَهم ليسَ سبباً للعذابِ بل العذابُ بمجرَّدِ المشيئةِ ومحضِ الإرادَةِ .

وكذلكَ الكلامُ في مناظرَةِ إياسٍ القدريَّة إنَّما أرادَ بأنَّ التَّصرُّفاتِ الواقعَةَ منهُ تعالى في مُلكهِ لا تكونُ ظُلماً قطُّ، وهذا حقٌّ، فإنَّ كلَّ ما فعلَهُ الرَّبُّ ويفعلهُ لا يخرجُ عن العَدلِ والحكمَةِ والمَصلحَةِ والرَّحمَةِ، فليسَ في أفعالهم ظلمٌ ولا جَورٌ ولا سفهٌ وهذا حقٌّ لا ريبَ فيهِ، فإياسٌ بيَّنَ أنَّهُ سبحانهُ في تصرُّفهِ في مُلكهِ غيرُ ظالمٍ؛ فهذه مجامعُ طرقِ العالمِ في هذا المقامِ ألقيتُ إليكَ مختصرَة بذكرِ قواعدها وأدلَّتها، وتَرجيحِ الصَّوابِ منها، وإبطالِ الباطلِ؛ ولعلَّكَ لا تَجدُ هذا التَّفصيلَ والكلامَ على هذه المذاهبِ وأُصولها في كتابٍ منَ كتبِ القومِ، واللَّهُ المسئولُ لتمامِ نعمتهِ، ومَزيدِ العلمِ والهدى إنَّهُ المانُّ بفضلهِ .

وكذلكَ الكلامُ في الإيجابِ في حقِّ اللَّهِ سواءً الأقوالُ فيهِ كالأقوالِ في التَّحريمِ، وَقَد أخبَرَ سبحانهُ عن نَفسهِ أنَّهُ كتَبَ على نَفسهِ وأحقَّ نَفسهُ قال تعالى : ﴿ وَكانَ حقَّاً عَلينا نَصرُ المُؤمنين ﴾ [الرُّوم : ٤٧]، وقال تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ اشتَرى منَ المُؤمنينَ أنفسهُم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة يُقاتلونَ في سبيلِ اللَّهِ فيَقتلونَ ويُقتَلونَ وَعداً عليهِ حقَّاً في التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآن ﴾ [التوبة ١١١] .

وفي الحديثِ الصَّحيح[1] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لمُعاذ : « أتَدري ما حقُّ

---

(١) هو حديث عظيم أحببت أن أسوقه برواياته وشواهده - استطراداً - ليعلم النَّاس حقَّ اللَّه عليهم وحقَّهم على ربِّهم الذي أوجبه على نفسه بنفسه، فيعبدونه وحده لا شريك له .

○ عن معاذ بن جبل - رضي اللَّه عنه قال :

كنت ردف ﷺ على حمار يقال له : عُفَير، فقال : « يا معاذ هل تدري ما حق اللَّه على عباده وما حق العباد على اللَّه ؟ » . =

= قلت : اللّٰه ورسوله أعلم .

قال : « فإنَّ حق اللّٰه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على اللّٰه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » .

فقلت : يا رسول اللّٰه أفلا أبشر به النَّاس ؟

قال : « لا تبشرهم فيتكلوا » .

أخرجه البخاري (٦ / ٥٨ - فتح) واللَّفظ له، ومسلم (١ / ٢٣٢ - نووي)، والترمذي (٢٦٤٣)، وأحمد (٥ / ٢٢٨)، وابن منده في « الإيمان » (ص ٢٤٣)، وأبو عوانة (١ / ١٦) .

من طريق أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن معاذ بن جبل (وذكره) .

وأخرجه البخاري (١٣ / ٣٤٧ - فتح)، ومسلم (١ / ٢٣٢ - ٢٣٣ - نووي)، وابن منده (ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥)، وأبو عوانة (١ / ١٦) .

من طريق الأسود بن هلال عن معاذ مرفوعاً .

وأخرجه أحمد (٥ / ٢٣٤) من طريق أبي العوام عن معاذ بن جبل به .

وأخرجه أحمد (٥ / ٢٣٤) من طريق أبي عثمان النهدي عن معاذ بن جبل به .

وأخرجه ابن ماجه (٤٢٩٦)، وأحمد (٥ / ٢٣٠) من طريق عبدالملك بن عمير عن ابن أبي ليلى عن معاذ بن جبل به .

وللحديث شواهد عن جماعة من الصحابة منهم :

○ **أنس بن مالك - رضي اللّٰه عنه :**

قال : إنَّ النَّبي ومعاذ رديفه على الرحل قال : « يا معاذ بن جبل » .

قال : لبيك يا رسول اللّٰه وسعديك .

قال : « يا معاذ بن جبل » .

قال : لبيك يا رسول اللّٰه وسعديك (ثلاثاً) .

قال : « ما من أحد يشهد أن لا إله إلّا اللّٰه وأنَّ محمداً رسول اللّٰه صدقاً من قلبه إلّا حرَّمه اللّٰه على النَّار » . =

= قال : يا رسول اللّه أفلا أخبر به النّاس فيستبشروا ؟

قال : « إذاً يتّكلوا » .

وأخبر بها معاذ عند موته تأثّماً .(*)

أخرجه البخاري (١ / ٢٢٦ و ١٠ / ٣٩٧ و ١١ / ٦١ ، ٣٣٧ - فتح) واللّفظ له في الموضع الأول، وفي المواضع الأخرى بلفظ حديث معاذ الآنف، وإنّما ذكرته هنا باللّفظ هذا؛ لأنّه من مسند أنس - رضي اللّه عنه - لكنّه هناك من مسند معاذ بن جبل - رضي اللّه عنه، وأخرجه مسلم (١ / ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ٢٤٠ - نووي)، وأحمد (٣ / ٢٦٠ - ٢٦١ و ٥ / ٢٣٠ ، ٢٤٥)، وابن منده (ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥)، وأبو عوانة (١ / ١٧) .

من طرق عن قتادة حدثنا أنس بن مالك - رضي اللّه عنه (وذكره) .

وأخرجه البخاري (١ / ٢٢٧ - فتح) وأحمد (٣ / ١٥٧) من طريق معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يقول ثنا أنس بن مالك أنّه ذكر له أنّ النّبي ﷺ قال : « يا معاذ بن جبل يا معاذ بن جبل يا معاذ بن جبل بشّر النّاس أنّه من قال لا إله إلّا اللّه دخل الجنّة » .

وأخرجه ابن منده (ص ٢٣٨) من طريق سليمان التيمي عن أنس عن معاذ قال =

(*) التّأثم : أي خشية الإثم؛ وقد أخبر معاذ رضي اللّه عنه بهذا الحديث عند موته خشية كتم العلم كما ثبت عن جابر بن عبداللّه - رضي اللّه عنه : أنّ معاذاً لما حضرته الوفاة قال : اكشفوا لي سِجْفَ(**) القبة سمعت رسول اللّه ﷺ (وذكره) .

قلت : أخرجه أحمد (٥ / ٢٣٦) وصرح جابر بأنّه ممن شهد معاذاً حين حضرته الوفاة، وابن حبان في « صحيحه » (١ / ٣٦٦)، وابن منده في « الإيمان » (ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨)، وأبو نعيم في « الحلية » (٧ / ٣١٢) .

من طرق عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبداللّه رضي اللّه عنه .

قلت : وهذا إسناد صحيح .

(**) السَّجْفُ : بفتح أوله أو كسره السِّتر مشقوق الوسط كالمصراعين .

= رسول اللّه ﷺ : « من مات لا يشرك باللّه شيئاً دخل الجنّة » .
فقال معاذ : أفلا أبشر النّاس ؟
قال : « لا أخاف أن يتكلوا » .
وأخرجه أحمد (٥ / ٢٢٨ ، ٢٣٦)، وابن منده (ص ٢٤١) من طريق أبي سفيان عن أنس قال : أتينا معاذاً فقلنا حدثنا من غرائب حديث رسول اللّه ﷺ فقال : كنت ردف النّبي ﷺ على حمار فقال :
« يا معاذ » .
فقلت : لبيك رسول اللّه .
قال : « أتدري ما حق اللّه على العباد ... » وذكر الحديث .
قلت : هذه المتابعة بهذا **الإسناد الصحيح** ترد قول الحافظ ابن حجر - رحمه اللّه - في « الفتح » (١ / ٢٢٧) : « ولم يسم أنس من ذكر له ذلك في جميع ما وقفت عليه من طرق ... »؛ لأنَّ فيها التصريح بأنَّ أنساً لقي معاذاً فسأله، وكذلك وقع عند أحمد (٥ / ٢٤٢) عن أنس أنَّ معاذاً بن جبل حدثه، والحديث عند أحمد من رواية قتادة عن أنس؛ فتأمّل .
وأعجب من ذلك كله أنَّ البخاري - رحمه اللّه - أخرجه في كتاب الرقاق من « صحيحه » من طريق قتادة حدثنا أنس عن معاذ بن جبل فجعله من مسند معاذ .
لكن الحافظ لِيُسَوّغ قوله جعل الحديث حديثين (١١ / ٣٣٨ - فتح » فقال : « وقد ترجّح لي أنَّهما وإن اتحد مخرجهما عن قتادة عن أنس ومتنهما في كون معاذ ردف النّبي ﷺ للاختلاف فيما وردا فيه وهو أنَّ حديث الباب في حق اللّه على العباد وحق العباد على اللّه، والماضي فيمن لقي اللّه لا يشرك به شيئاً » .
قلت : هذا الاختلاف الذي ذكره الحافظ ليس اختلافاً، فإنَّ الحديث الأول وإن كان فيمن لقي اللّه لا يشرك به شيئاً والثاني في حق اللّه على العباد، فإنَّ حق اللّه على العباد أن يلقوه لا يشركون به شيئاً، فإن فعلوا ذلك حرّم اللّه عليهم النّار وأدخلهم الجنَّة، فثبت أنَّهما حديث واحد وإن اختلفت ألفاظهما، واللّه تعالى أعلى وأعلم . =

اللَّهِ على عبادِهِ ؟ » .

قلتُ : اللَّهُ ورسوله أعلم .

= ○ **أبو هريرة - رضي اللَّه عنه :**

من طريق كُمَيل بن زيادٍ عن أبي هريرة قال : كنت أمشي مع رسول اللَّه ﷺ في نخل لبعض أهل المدينة فقال : « يا أبا هريرة هلك المكثرون إلّا من قال هكذا وهكذا وهكذا ثلاث مرات حتى بكفه عن يمينه وعن يساره وبين يديه وقليل ما هم » .

ثمَّ مشى ساعة فقال : « يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنَّة ؟ » .

فقلت : بلى يا رسول اللَّه .

قال : « قل : لا حول ولا قوّة إلّا باللَّه ولا ملجأ من اللَّه إلّا إليه » .

ثمَّ مشى ساعة فقال : « يا أبا هريرة تدري ما حق الناس على اللَّه وما حق اللَّه على النَّاس ؟ » .

فقلت : اللَّه ورسوله أعلم .

قال : « فإنَّ حقَّ اللَّه على النَّاس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً فإذا فعلوا ذلك فحق عليه أن لا يعذبهم » .

أخرجه أحمد (٢ / ٣٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥) واللَّفظ له في الموضع الأول، والبزار في « كشف الأستار » (٤ / ١٦) .

قلت : إسناده صحيح .

وأخرج البزار الجزء الأخير (١ / ١٧) من طريق أبي زرعة عن أبي هريرة قال : كان معاذ بن جبل ردف رسول اللَّه ﷺ فقال ﷺ :

« تدري ما حق اللَّه على العباد ... » الحديث .

قال الهيثمي في « المجمع » (١ / ٥٠) : « ورجاله ثقات، واللَّه أعلم » .

○ **حذيفة بن اليمان - رضي اللَّه عنه :**

أخرج حديثه البزار في « كشف الأستار » (١ / ١٧) **وفي إسناده نظر .**

والحمد للَّه الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

قال : « حقُّهُ عليهم أن يَعبدوهُ ولا يُشركوا به شيئاً، أتَدري ما حقُّ العبادِ على اللَّهِ إذا فعلوا ذلكَ ؟ » .

قلت : اللَّهُ ورسوله أعلم .

قال : « حقُّهم عليهِ أن لا يعذِّبهم » .

ونَظيرُ هذا ما أخبَرَ سبحانهُ من قسمهِ لَيَفعلنَّ ما أقسمَ عليهِ كقولهِ : ﴿ فوربِّكَ لنَسئلنَّهُم أجمَعين ﴾ [الحجر : ١٩٢]، ﴿ فَوَربِّكَ لنَحشرنَّهُم والشياطين ثمَّ لنُحضرنَّهُم حَولَ جهنَّمَ جِثيّاً ﴾ [مريم : ٦٨]، وقوله : ﴿ لنهلكنَّ الظَّالمينَ ﴾ [إبراهيم : ١٣] .

إلى أمثالِ ذلكَ مِن صيغِ القسمِ المتضمِّن معنى إيجابِ المقسم على نَفسهِ، أو منعهِ نَفسهُ وهو القسمُ الطَّلبيُّ المُتضمِّن للحظرِ والمنعِ، بخلافِ القسمِ الخبريِّ المُتضمِّن للتَّصديقِ والتَّكذيبِ، ولهذا قَسَّمَ الفقهاءُ وغيرهم اليَمينَ إلى موجبِ للحظرِ والمَنعِ أو التَّصديقِ والتَّكذيبِ .

قالوا : وإذا كانَ مَعقولاً منَ العَبدِ أن يكونَ طالباً من نَفسهِ، فتكونَ نَفسُهُ طالبَةً منها؛ لقولهِ تعالى : ﴿ إنَّ النَّفسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣]، وقولهُ : ﴿ وأمَّا مَن خافَ مَقامَ ربِّهِ ونَهى النَّفسَ عَن الهوى ﴾ [النازعات : ٤٠]، مع كون العَبدِ لهُ آمرٌ وناهٍ فوقَهُ فالرَّبُّ تعالى الذي ليسَ فوقهُ آمرٌ ولا ناهٍ كيفَ يمتنعُ منهُ أن يكونَ طالباً من نَفسهِ، فيكتبَ على نَفسهِ، ويحقَّ على نَفسهِ ويحرِّمَ على نَفسهِ بل ذلكَ أولى وأحرى في حقِّهِ من تَصوُّرهِ في حقِّ العَبدِ، وقَد أخبَرَ بهِ عن نَفسهِ وأخبَرَ به رسولَهُ .

وكتابةُ ما كتبهُ على نَفسهِ وإحقاقُه ما حقَّهُ عليها متضمِّنٌ لإرادتهِ ذلكَ ومحبَّتِهِ لهُ ورضاهُ بهِ، وأنَّهُ لابدَّ أن يفعلَهُ، وتَحريمُهُ ما حرَّمهُ على نَفسهِ متضمِّنٌ لبُغضهِ لذلكَ وكراهتِهِ لهُ، وأنَّهُ لا يفعلهُ ولا ريبَ أنَّ محبَّتهُ لما يريدُ أن يَفعلهُ ورضاهُ بهِ يوجبُ وقوعَهُ بمشيئتهِ واختيارهِ وكراهتِهِ للفعلِ وبغضهِ لهُ يمنعُ وقوعَهُ منهُ مع قدرتهِ عليهِ لو شاءَ، وهذا غيرُ ما يحبُّهُ مِن فعلِ عَبدهِ ويكرهُه منهُ، فذاكَ نوعٌ وهذا نوعٌ، ولما لم يميِّز كثيرٌ منَ النَّاسِ بينَ النَّوعينِ وأدخلوهما تحتَ حكمٍ واحدٍ اضطربَت عليهم مسائلُ القضاءِ والقدرِ والحكم والتَّعليلِ، وبهذا التَّفصيلِ سَفرَ لكَ وجهُ المسألَةِ وتبلَّجَ صُبحها؛ فَفرقٌ بينَ فعلهِ سبحانهُ الذي هو فعلُهُ وبينَ فعل عبادِهِ الذي هو مَفعولُهُ فمحبَّتُهُ تعالى وكراهتُهُ للأوَّلِ توجبُ وقوعَهُ وامتناعهُ، وأمَّا محبَّتهُ وكراهتهُ للثَّاني فلا توجبُ وقوعَهُ ولا امتناعَهُ، فإنَّهُ يحبُّ الطَّاعَةَ والإيمانَ مِن عبادهِ كلِّهم وإن لم تكُن محبَّتُهُ موجبةً لطاعتهم وإيمانهم جميعاً إذ لم يحبَّ فعلهُ الذي هو إعانتُهم وتَوفيقهم وخلقَ ذلكَ لهم، ولو أحبَّ ذلكَ لاستلزمَ طاعتهم وإيمانهم ويبغضُ معاصيهم وكفرَهم وفسوقَهم ولم تكُن هذه الكراهَةُ والبغضُ مانعَةً من وقوعِ ذلكَ منهم إذ لم يكره سبحانهُ خذلانَهم وإضلالَهم لما لهُ في ذلكَ منَ الغاياتِ المَحبوبَةِ التي فواتها يستلزمُ فواتَ ما هو أحبُّ إليهِ من إيمانهم وطاعتهم، وتعقل ذلكَ ممَّا يقصرُ عنهُ عقولُ أكثرِ النَّاسِ، فالرَّبُّ تعالى يحبُّ من عبادهِ الطَّاعَةَ والإيمانَ، ويحبُّ مع ذلكَ من تضرعِهم وتذللِهم وتوبتِهم واستغفارِهم ومن توبتهِ ومغفرتهِ وعَفوهِ وصَفحهِ وتَجاوزهِ ما هو مَلزومٌ لمعاصيهم وذنوبهم، ووجودُ المَلزومِ بدونِ لازمهِ ممتنعٌ وإذا عقلَ هذا في حقِّ

المُذنبين، فيعقلُ مثلهُ في حقِّ الكفَّارِ وإنَّ خَلْقَهم وإضلالهم لازمٌ لأُمورٍ محبوبَةٍ للرَّبِّ تعالى لم تكُن تحصُل إلّا بوجودِ لازمها إذ وجودُ المَلزومِ بدونِ لازمهِ ممتنعٌ، فكانَت تلكَ الأمورُ المَحبوبَةُ والغاياتُ المَحمودَةُ متوقِّفَةً على خَلقِهم وإضلالِهم توقُّفَ المَلزومِ على لازمِهِ، وهذا فَصلٌ معترضٌ لم يكُن من غَرضِنا وإن كانَ أهمَّ ممَّا سُقنا الكلامَ لأجلهِ .

ونكتَةُ المسألةِ الفرقُ بينَ ما هو فعلٌ لهُ تَستلزمُ محبَّتُهُ وقوعَهُ منهُ وبينَ ما هو مَفعولٌ لهُ لا تستلزمُ محبَّتُهُ له وقوعهُ من عَبدهِ، وإذا عُرِفَ هذا فالظُّلمُ والكفرُ والفسوقُ والعصيانُ وأنواعُ الشرورِ واقعَةٌ في مَفعولاتهِ المُنفصلَةِ التي لا يتَّصفُ بها دونَ أفعالهِ القائمَةِ بهِ، ومَن انكشفَ لهُ هذا المقامُ فهمَ مَعنى قولهِ ﷺ : « والشرُّ ليسَ إليكَ » .[1]

فهذا الفَرقُ العظيمِ يزيلُ أكثرَ الشُّبهِ التي حارَت لها عقولُ كثيرٍ من النَّاسِ في هذا البابِ، وهَدى اللَّهُ الذينَ آمَنوا لما اختلفوا فيهِ منَ الحقِّ بإذنهِ، واللَّهُ يَهدي مَن يشاءُ إلىٰ صراطٍ مُستقيمٍ، فما في مَخلوقاتهِ ومَفعولاتهِ تعالى منَ الظُّلمِ والشرِّ فهو بالنِّسبةِ إلى فاعلهِ المُكلَّفِ الذي قامَ به الفعلُ كما أنَّهُ بالنِّسبَةِ إليهِ يكونُ زناً وسرقَةً وعُدواناً وأكلاً وشرباً ونكاحاً فهو الزَّاني السَّارقُ الآكلُ النَّاكحُ، واللَّهُ خالقُ كلِّ فاعلٍ وفعلهِ، وليسَت نسبَةُ هذه الأفعالِ إلى خالقها كنسبتها إلى فاعلها الذي قامَت بهِ كما أنَّ نسبَةَ صفاتِ المَخلوقينَ إليهِ كطولهِ وقصرهِ وحُسنهِ وقُبحهِ وشكلهِ ولونهِ ليسَت كنسبتها إلى خالقها فيهِ .

---

(١) جزء من حديث علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - في استفتاح الصلاة. أخرجه مسلم (٧٧١) .

فتأمَّل هذا المَوضعَ واعطِ الفَرقَ حقَّهُ وفرِّق بينَ النِّسبتين، فكما أنَّ صفاتِ المَخلوقِ ليسَت صفاتٍ للَّهِ بوجهٍ وإن كانَ هو خالقها، فكذلكَ أفعالُهُ ليسَت أفعالاً للَّهِ تعالى ولا إليهِ وإن كانَ هو خالقها .

فلنَرجع الآنَ إلى ما نَحنُ بصددهِ فنقولُ : الأمرُ الذي كتبهُ تعالى على نَفسهِ مُستحقٌّ عليهِ الحَمدَ والثَّناءَ ويتعالى ويتقدَّسُ عن تركهِ إذ تركهُ منافٍ للثَّناءِ والحمدِ الذي يستحقُّهُ عليهِ متضمِّناً لما يستحقُّ لذاتهِ، وهذا بحمدِ اللَّهِ بيِّنٌ عندَ مَن أُوتيَ العلمَ والإيمانَ وهو مُستقرٌّ في فطرهم لا ينسخهُ منها شبهاتُ الزمُبطلينَ، وهذا الزموضعُ ممَّا خَفِيَ على طائفتي القدريَّةِ والجبريَّةِ، فخبطوا في عَشواءَ، وخبَطوا في ليلَةٍ ظلماءَ، واللَّهُ الموفِّقُ الهادي للصَّواب .

وَقَد ظهَرَ بهذا بطلانُ قولِ طائفتينِ معاً :

الذينَ وَضَعوا لله شريعَةً بعقولهم أوجَبوا عليهِ وحرَّموا منها ما لم يوجبهُ على نَفسهِ، ولم يحرِّمهُ على نَفسهِ، وسوَّوا بينهُ وبينَ عبادهِ فيما يحسنُ منهم ويقبحُ، وبذلكَ استطالَ عليهم خصومُهم وأبدوا مناقَضتَهم، وكشفوا عَوراتِهم، وبيَّنوا فضائحهم .

وكذلكَ بطلانُ قولِ الطَّائفَةِ التي جوَّزَت عليهِ كلَّ شيءٍ، وأنكرَت حكمتَهُ، وجحَدَت في الحقيقَةِ ما يستحقُّهُ منَ الحمدِ والثَّناءِ على ما يفعلهُ ممَّا يمدحُ بفعلهِ وعلى تركِ ما يتركهُ مع قدرتهِ عليهِ ممَّا يمدحُ بتركهِ، وجعلت النَّوعين واحداً، ولا فرقَ عندهم بالنِّسبَةِ إليهِ تعالى بينَ فعلِ ما يُمدَحُ بفعلهِ وبينَ تركهِ، ولا بينَ تركِ ما يمدحُ بتركهِ وبينَ فعلهِ، وبهذا تسلَّطُ عليهم

خصومُهم وأبدوا مناقضتهم، وبيَّوا فضائحهم .

قالَ الـمُتوسِّطونَ : وأمَّا نَحنُ فلا يلزمنا شيءٌ من هذه الفضائحِ والأباطيلِ؛ فإنَّا لم نوافق طائفَةً منَ الطَّائفتينِ على كلِّ ما قالتهُ بل وافقنا كلَّ طائفَةٍ فيما أصابَت فيهِ منَ الحقِّ، وخالفناها فيما خالفَت فيهِ الحقَّ، فكنَّا أسعَدُ بهِ منَ الطَّائفتينِ وللَّهِ المنَّةُ والفَضلُ .

هذا قولنا قَد أوضحناهُ في هذه المسألةِ غايَةَ الإيضاحِ، وأفصَحنا عنهُ بما أمكنَنا منَ الإفصاحِ، فمَن وجَدَ سبيلاً إلى الـمُعارضةِ أو رامَ طريقاً إلى المُناقضَةِ فليُبدها، فإنَّا من وراءِ الرَّدِّ عليهِ، وإهداءِ عيوبِ مقالتهِ إليهِ، ونَحنُ نعلمُ أنَّهُ لا يردُّ علينا مقالَتَنا إلى بإحدى المقالتينِ اللتينِ كشفنا عن عَوراتهما، وبيَّنا فسادَهما، فليَستُر عَورَةَ مقالتهِ، ويصلحَ فسادَها، ويَلُمَّ شعثَها، ثمَّ ليَلقَ خصومَهُ بها، فالـمُحاكمةُ إلى النَّقلِ الصَّريحِ والعَقلِ الصَّحيحِ، واللَّهُ المُستعانُ .

▫ **الرَّابع والخمسون** : قولُكُم : الوجوبُ والتَّحريمُ بدونِ الشرعِ ممتنعٌ، لأنَّهُ لو ثبتَ لقامَت الحجَّةُ بدونِ الرُّسلِ، واللَّهُ سبحانهُ إنَّما أقامَ حجَّتَهُ برسلهِ إلى آخرهِ .

فيقالُ : لا ريبَ أنَّ الوجوبَ والتَّحريمَ اللذينِ هما متعلَّقُ الثَّوابِ والعقابِ بدونِ الشرعِ ممتنعٌ كما قرَّرتموهُ، والحجَّةُ إنَّما قامَت على العبادِ بالرُّسلِ، ولكنَّ هذا الوُجوبَ والتَّحريمَ بمعنى حصولِ الـمُقتَضى للثَّوابِ والعقابِ وإن تخلَّفَ عنهُ مقتضاهُ لقيامِ مانعٍ أو فواتِ شرطٍ كما تقدَّمَ تقريرهُ، وَقَد قال تعالى : ﴿ وَلولا أن تُصيبَهُم مُصيبَةٌ بما قدَّمت أيديهم

فيَقولوا ربَّنا لولا أرسَلتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَ آياتِكَ ونكونَ منَ الـمُؤمنينَ ﴾ [القصص : ٤٧] .

فأخبرَ تعالى أنَّ ما قدَّمتَ أيديهم سببٌ لإصابَةِ المُصيبَةِ إيَّاهُـم، وأنَّـهُ سبحانهُ أرسلَ رسولَـهُ وأنزَلَ كتابَهُ لئلّا يقولوا ربَّنا لولا أرسَلتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَ آياتكَ، فدلَّت الآيَةُ على بُطلانِ قولِ الطَّائفتينِ جميعاً الذينَ يقولونَ : إنَّ أعمالَهم قبلَ البعثَةِ ليسَت قَبيحَةً لذاتها بل إنَّـمـا قبحَت بالنَّهـي فَقَط، والَّذينَ يقولونَ إنَّها قبيحَةٌ ويَستحقُّونَ عليها العقوبَةَ عَقلاً بدونِ البعثَةِ، فنظمَت الآيَةُ بطلانَ قولِ الطَّائفتينِ، ودلَّت على القَولِ الوَسطِ الذي اختَرناهُ ونَصَرناهُ أنَّـها قَبيحَةٌ في نَفسها ولا يَستحقّونَ العقابَ إلّا بَعدَ إقامَةِ الـحجَّةِ بالرِّسالَةِ، فلا تلازُمَ بينَ ثبوتِ الـحُسنِ والقُبحِ العقليَّين وبينَ استحقاقِ الثَّوابِ والعقابِ، فالأدلَّةُ إنَّـمـا اقتَضَت ارتباطَ الثَّوابِ والعقابِ بالرِّسالَةِ وتوقُّفِهما عليها، ولم تَقتَضِ تَوقّفَ الـحُسنِ والقُبحِ بكلِّ اعتبارٍ عليها، وفرقٌ بينَ الأمرين .

▫ **الخامس والخمسون** : قولُكُم كيفَ يعلمُ أنَّـهُ سبحانهُ يـجبُ عليهِ أن يمدحَ ويذمَّ ويثيبَ ويعاقبَ على الفعلِ بـمجرَّدِ العقلِ، وهلِ ذلكَ إلّا غيبٌ عنَّا فيما يعرَفُ أنَّـهُ رضيَ عن فاعلٍ وسخطَ على فاعلٍ، وأنَّـهُ يُثيبُ هذا، ويعاقبُ هذا، ولم يـخبَر عنهُ بذلكَ مـخبرٌ صادقٌ، ولا دلَّ على مواقعِ رضاه وسخطه عَقلٌ، ولا أخبَرَ عن معلومهِ ومـحكومهِ مـخبرٌ، فلم يبقَ إلّا قياسُ أفعالهِ على أفعالِ عبادهِ، وهو مِن أفسَدِ القياسِ، فإنَّهُ ليسَ كمثلهِ شيءٌ .

فيقال : هذا لازمٌ للمُعتزلَةِ ومَن وافقهم حيثُ يوجبونَ على اللَّهِ

ويحرّمونَ بالقياسِ على عبادهِ، ولا ريبَ أنَّ هذا مِن أفسَدِ القياسِ وأبطله، ولكن مِن أينَ يَنفي ذلكَ إثباتَ صفاتِ أفعالٍ اقتَضَت حُسنَها وقُبحَها عَقلاً، ولم يَعلم ترتّبَ الثّوابِ والعقابِ عليها إلّا بالرِّسالَةِ كما نَصَرناه، فأنتُم معاشرَ النُّفاةِ سلَبتُم الأفعالَ خواصَّها وصفاتِها التي لا تنفكُّ عنها ولا تعقَّل مجرَّدَةً عنها أبداً، وظننتُم أنَّ قولَ المُعتزلَةِ الباطلِ في إيجابها وتَحريمها على اللَّهِ لا يتمُّ إلّا بهذا النَّفي؛ فأخطأتُم في الأمرينِ معاً، فإنَّ قولهم لا يتوقَّفُ على نَفيِ الحُسنِ والقُبحِ، ونَفيُهما باطلٌ .

وخصومكُم منَ المُعتزلَةِ أثبتوا للَّهِ شريعَةً عَقليَّةً أوجَبُوا عليهِ فيها وحرَّموا بمُقتَضى عقولهم، وظنُّوا أنَّهم لا يمكنهم إثباتُ الحُسنِ والقُبحِ إلّا بذلكَ، فأخطَؤوا في الأمرينِ معاً .

فإنَّ اللَّهَ تعالى كما لا يُقاسُ بعبادهِ في أفعالهِ لا يُقاسُ بهم في ذاته وصفاته، فليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله، وإثباتُ الحُسنِ والقُبحِ لا يستلزمُ هذا الإيجابَ والتَّحريمَ العَقليَّين، فليتأمَّل اللبيبُ هذه الدَّقائقَ التي هي مجامعُ مآخذِ الفرَقِ فيها يتبيَّنُ أنَّ النَّاسَ إنَّما تكلَّموا في حواشي المسألةِ ولم يخوضوا لجَّتها، ويقتحموا غمرَتَها، واللَّهُ المُستعانُ .

وأمَّا إلزامكُم لخصومِكُم منَ المُعتزلَة تلكَ اللوازمَ فلا ريبَ أنَّها مُستلزمَةٌ لبطلانِ قولهم مع أضعافها منَ اللوازمِ التي تُبيِّنُ فسادَ مَذهبهم، ونَحنُ مُساعدوكُم عليها كما لا محيدَ لهم عن إلزاماتكُم .

فمنها : أنَّكُم سدَدتم على أنفسكم طريقَ الاستدلالِ بالمُعجزَةِ على

النبوَّةِ حيثَ جوَّزتم على اللّهِ أن يؤيِّدَ الكذَّابَ كما يؤيِّدَ الصَّادقَ، وعندكم أنَّ كلا الأمرين بالنِّسبَةِ إليهِ تعالى سواءٌ، ولم تَعتَذروا عن هذه الإلزامِ المُقابلِ لسائرِ إلزاماتِكُم بعَذرٍ صحيحٍ، وهذه أعذارُكم مَسطورَةٌ في الصَّحائفِ .

ومنها : إلزامُ الأفحامِ ونَفيُ المكلَّفِ النَّظرَ في الـمُعجزَةِ لعَدمِ الوجوبِ عَقلاً، واعتذارُكُم عن هذا الإلزامِ بأنَّ الوجوبَ ثابتٌ نَظَرَ أو لم ينظر اعتذارٌ يبطلُ أصلَكُم، فإنَّ ثبوتَ الوجوبِ بدونِ نَظرِ المكلَّفِ لو كانَ شرعيّاً لتوقَّفَ على الشرعِ المتوقّفِ في حقِّ المكلَّفِ على النَّظرِ في الـمُعجزَةِ، فلـمَّا ثبَتَ الوجوبُ وإن لم ينظر في الـمُعجزَةِ علمَ أنَّ الوجوبَ عَقلي لا يتوقَّفُ على ثبوتِ الشرع .

فإن قيلَ : هو ثابتٌ في نَفسِ الأمرِ على تَقديرِ ثبوتِ الرِّسالَةِ .

قيلَ : فحينئذٍ يعودُ الإلزامُ وهو أنَّهُ لا ينظرُ حتى يجبُ ولا يجبُ حتى تثبتَ الرِّسالَةُ، ولا تثبتُ حتى ينظرَ، ولهذا عدلَ مَن عَدَلَ لي مُقابلةِ هذا الإلزامِ بمثلهِ .

وقالوا : هذا لازمٌ للمُعتزلَةِ؛ لأنَّ الوجوبَ عندهم نظريٌّ، وهذا لا يَغني شيئاً، ولا يَدفعُ الإلزامَ المَذكورَ بل غايتُهُ مقابلةُ الفاسدِ بمثلهِ، وهو لا يجدي في دفعِ الإلزامِ شيئاً، وهذا يدلُّ على بطلانِ المقالتينِ، وأمَّا نحنُ فلنا في دفعِ هذا الإلزامِ عَشرَةُ مسالكَ، وليسَ هذا مَوضعُ هذه المسألة، وإنَّما المَقصودُ : أنَّ الـمُعتزلَةَ ألزمت نَظيرَ ما ألزموهم به .

ومنها : إلزامُ التَّعطيلِ للشرائع جملَةً، وقَد تَقدَّمَ بيانهُ قريباً حيثُ بيَّنا

أنَّ متعلَّقَ الأمرِ والنَّهيِ إنَّما هو فعلُ العَبدِ الاختياريّ، فإذا بَطلَ أن يكونَ لهُ فعلٌ اختياريٌّ بَطلَ متعلّقُ الأمرِ والنَّهيِ؛ فلزمهُ بطلانُ الأمرِ والنَّهيِ؛ لأنَّ وجودَهُ بدونِ متعلّقهِ محالٌ إلى سائرِ تلكَ اللوازمِ التي أسلَفناها قبلُ، فلا نُطيلُ بإعادتها .

قالوا : أمَّا نَحنُ فلا يلزمنا شيءٌ من هذه اللوازمِ منَ الطَّرفينِ، فإنَّا لم نسلك واحداً منَ الطَّريقينِ، فلا سبيلَ لأحدى الطَّائفتينِ إلى إلزامنا بلازمٍ واحدٍ باطلٍ، وللَّهِ الحمدُ فمَن رامَ ذلكَ فليبدهِ .

فإن قيلَ : فمِن أصلكُم إثباتُ التَّعليلِ والحكمَةِ في الخَلقِ والأمرِ فما تَصنعون بهذه اللوازمِ التي ألزمناها المُعتزلَة ؟ وماذا جوابكم عنها إذا وجَّهناها إليكُم ؟

قيلَ : لا ريبَ أنا نثبتُ للَّهِ ما أثبتَّهُ لنفسهِ، وشهدَت به الفطر والعقولُ منَ الحكمَةِ في خَلقهِ وأمرهِ، ونقولُ : إنَّ كلَّ ما خَلقَهُ وأمَرَ بهِ فلهُ فيهِ حكمةٌ بالغةٌ وآياتٌ باهرَةٌ؛ لأجلها خَلقه وأمَرَ بهِ، ولكن لا نقولُ : إنَّ للَّهِ تعالى في خَلقهِ وأمرهِ كلِّهِ حكمَةً مماثلةً لما للمَخلوقِ من ذلكَ ولا مشابَهَةً لهُ بل الفَرقُ بينَ الحكمتينِ كالفَرقِ بينَ الفعلينِ، وكالفَرقِ بينَ الوَصفينِ والذَّاتين، فليسَ كمثلهِ شيءٌ في وَصفهِ، ولا في فعلهِ، ولا في حكمَةٍ مَطلوبَةٍ لهُ من فعلهِ، بل الفَرقُ بينَ الخالقِ والمَخلوقِ في ذلكَ كلِّهِ أعظمُ فرقٍ وأبينُهُ وأوضحُهُ عندَ العقولِ والفطرِ، وعلى هذا فجميعُ ما ألزمتموهُ لأصحابِ الصَّلاحِ والأصلحِ بل وأضعافهِ وأضعافِ أضعافهِ للَّهِ فيهِ حكمةٌ يختصُّ بها لا يشاركهُ فيها غيرهُ، ولأجلها حَسُنَ منهُ ذلكَ، وقبحَ منَ المَخلوقِ، لانتفاءِ تلكَ الحكمَةِ في حقِّهِ،

وهذا كما يحسنُ منهُ تعالى مَدحُ نَفسِه والثَّناءُ على نَفسهِ وإن قبحَ من أكثرِ خَلقهِ ذلكَ، ويليقُ بجلالهِ الكبرياءُ والعظمَةُ ويقبحُ مِن خَلقهِ تَعاطيها كما روى عنهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « الكبرياءُ إزاري والعظمَةُ ردائي فمَن نازَعني واحداً منهما عَذَّبتهُ »[1] وكما يحسنُ منهُ إماتَةُ خَلقهِ وابتلاؤُهم وامتحانُهم بأنواعِ المحنِ ويقبحُ ذلكَ مِن خَلقهِ، وهذا أعظمُ مِن ذلكَ أن نذكرَ أمثلته

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٣٧٦) حدثنا عبدالرزاق أنا سفيان عن عطاء عن الأغر عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ يعني قال اللَّه : (وذكره) .

قلت : **هذا إسناد صحيح**، رجاله ثقات، وعطاء وإن كان قد اختلط فرواية سفيان الثوري عنه قبل الاختلاط .

وتابعه حماد بن سلمة عن عطاء به .

أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وأبو داود الطيالسي (٢٣٨٧)، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٨ ، ٥٦٧١) .

وحماد سمع من عطاء قبل الاختلاط .

وله طريق آخر عن سهل بن بكار ثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عنه .

أخرجه الحاكم (١ / ٦١) **وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .**

قلت : وهو كما قالا .

وله شواهد عن جمع من الصحابة منها :

○ **حديث أبي سعيد الخدري مقروناً مع أبي هريرة - رضي اللَّه عنهما :**

قالا : قال رسول اللَّه ﷺ : « العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذَّبته » .

أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٢) ومسلم (٢٦٢٠) .

○ **ومنها حديث فضالة بن عبيد، وابن عباس - رضي اللَّه عنهما .**

وبالجملة؛ فالحديث صحيح غاية .

فليسَ بينَ اللَّهِ وبينَ خلقهِ جامعٌ يوجبُ أن يحسنَ منهُ ما حسنَ منهم، ويقبحُ منهُ ما قبحَ منهم، وإنَّما تتوَجَّهُ تلكَ الإلزاماتُ إلى مَن قاسَ أفعالَ اللَّهِ بأفعالِ عبادهِ، وأمَّا مَن أثبتَ لهُ حكمَةً تختَصُّ بهِ لا تشبهُ ما للمَخلوقين منَ الحكمَةِ فهو عن تلكَ الإلزاماتِ بمعزلٍ، ومنزلهُ منها أبعَدُ منزلٍ، **ونكتَةُ الفرقِ** أنَّ بطلانَ الصَّلاحِ والأصلحِ لا يستلزمُ بطلانَ الحكمَةِ والتَّعليلِ واللَّهُ الموفِّق .

□ **السادس والخمسون** : قولُكُم : أنتم فتحتم بهذه المسألة طريقاً للاستغناءِ عن النبوَّاتِ، وسلَّطتُم عليكم بها الفلاسفَة والبراهمَة والصَّابئَة وكلَّ مُنكرٍ للنبوَّاتِ، فإنَّ هذه المسألَةَ بابٌ بينَنا وبينهم، فإنَّكُم إذا زعمتم أنَّ في العَقلِ حاكماً يحسنُ ويقبحُ ويوجبُ ويحرِّمُ ويتقاضى الثَّوابَ والعقابَ لم تكُن الحاجَةُ إلى البعثَةِ ضروريَّةً، لإمكانِ الاستغناءِ عنها، فهذا الحاكمُ إلى آخرهِ .

قال المُثبتون هذا كلامٌ هائلٌ، وهو عندَ التَّحقيقِ باطلٌ لو أنصَفَ موردُهُ لعلمَ أنَّا وهو كما قالَ الأوَّلُ : رمَتني بدائها وانسلَّت .

وقَد بيَّنا أنَّ النُّفاةَ سدُّوا على أنفسهم طريقَ إثباتِ النبوَّةِ بإنكارهم هذه المسألَةَ وقالوا : إنَّهُ يحسنُ منَ اللَّهِ كلُّ شيءٍ حتى إظهار المُعجزَةِ على يدِ الكاذبِ، ولا فَرقَ بالنِّسبَةِ إليهِ بينَ إظهارها على يدِ الصَّادقِ ويدِ الكاذبِ، وليسَ في العَقلِ مايدلُّ على استحالَةِ هذا وجوازِ هذا، وتوقُّف معرفتهِ على السَّمعِ لا سيَّما إذا انضمَّ إلى ذلكَ إنكارُ كونِ العَبدِ فاعلاً مختاراً ألبتَّةَ فإنَّ ذلكَ يسدُّ البابَ جملَةً؛ لأنَّ متعلقَ الأمرِ والنَّهي إنَّما هو أفعالُ العبادِ

الاختياريَّةِ فمَن لا فعلَ لهُ ولا اختيارَ أصلاً فكيفَ يعقلُ أن يكونَ مأموراً منهيَّاً ؟ وقَد تَقدَّمَ الإفحامُ وعَجزُكم عن الجوابِ عنه .

وأمَّا نَحنُ فإنَّا سهَّلنا بذلكَ الطَّريقَ إلى إثباتِ النبوَّاتِ بل لا يمكنُ إثباتُها إلّا بالاعتراف بهذه المسألةِ، فإنَّهُ إذا ثبتَ أنَّ منَ الأفعالِ حسناً ومنها قبيحاً، وأنَّ إظهارَ المُعجزَةِ على يدِ الكاذبِ قبيحٌ، وأنَّ اللَّهَ يتعالى ويتقدَّس عن فعلِ القبائحِ علمنا بذلكَ صحَّةِ نبوَّةِ مَن أظهَرَ اللَّهُ على يديهِ الآياتِ والمُعجزات، أمَّا أنتُم فإنَّكُم لا يمكنكُم العلمُ بذلكَ .

قالوا : وكذلك نَحنُ قلنا إنَّ العبدَ فاعلٌ مختارٌ لفعلهِ، وأوامرُ الشرعِ ونواهيهمتوجّهةٌ إلى مجرَّد فعله الاختياريِّ القائم بهِ، وهو متعلِّقُ الثَّوابِ والعقابِ، وأمَّا أنتُم فلا يمكنكُم ذلكَ، لأنَّ تلكَ الأفعالَ عندكم هي فعلُ اللَّهِ في العَبدِ لا صنعَ للعبدِ فيها أصلاً فكيفَ يتوجَّهُ أمرُ الشرعِ ونَهيهُ إلى غيرِ فاعلٍ بل يُؤمرُ ويُنهى بما لا قدرَةَ لهُ عليهِ البتَّةَ بل بفعلِ غيرهِ ؟

فليتدبَّرِ المُنصِفُ هذا المقامَ، فإنَّهُ يتبيَّنُ لهُ أنَّهُ سدَّ على نَفسهِ طريقِ النبوَّاتِ وفتحِ بابَ الاستغناءِ عنها .

وأيضاً، فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ فطرَ عبادَهُ على الفرقِ بينَ الحسنِ والقبيحِ، وركَّبَ في عقولهم إدراكَ ذلكَ والتَّمييزَ بينَ النَّوعينِ كما فطرهم على الفرقِ بينَ النَّافعِ والضَّارِّ والملائمِ لهم والمنافرِ، وركَّبَ في حواسِّهم إدراكَ ذلكَ والتَّمييزَ بينَ أنواعهِ، والفطرَةُ الأولى هي خاصَّةُ الإنسانِ التي تميَّزَ بها عن غيرهِ منَ الحيواناتِ، وأمَّا الفطرَةُ الثَّانيَةُ فمُشتركَةٌ بينَ أصنافِ الحيوانِ، وحُجَّةُ اللَّهِ

عليهِ إنَّـما تقومُ بواسطة الفطرَةِ الأولى،ولهذا اختصَّ مِن بينِ سائرِ الـحيواناتِ بإرسالِ الرُّسلِ إليهِ وبالأمرِ والنَّهـيِ والثَّوابِ والعقابِ، فجعَلَ سبحانهُ في عقلهِ ما يفرِّقُ بينَ الـحُسنِ القُبحِ، وما يَنبغي إيثارُهُ، وما يَنبغي اجتنابهُ، ثمَّ أقامَ عليهِ حُجَّتَهُ برسالَتِهِ بواسطَةِ هذا الـحاكِمِ الذي يتمكَّنُ به منَ العلمِ بالرِّسالةِ، وحسنِ الإرسالِ، وحسنِ ما تضمَّنهُ منَ الأمورِ، وقبحِ ما نَهى عنهُ، فإنَّهُ لولا رُكِّبَ في عقلهِ من إدراكِ ذلكَ لما أمكنهُ معرفَةُ حسنِ الرِّسالَةِ، وحسنِ المأمورِ وقبحِ الـمَحظورِ، ولهذا قلنا إنَّ مَن أنكرَ الـحُسنَ والقُبحَ العقليَّين لزمهُ إنكارُ الـحُسنِ والقُبحِ للشريعَةِ، وإن زعمَ أنَّـهُ مقِرٌّ بهِ، فإنَّ أخبارَ الشرعِ عن الفعلِ بأنَّـهُ حسنٌ أو قبيحٌ مطابقٌ لكونهِ في نفسهِ كذلك، فإذا كانَ في نَفسهِ ليسَ بـحسنٍ ولا بقبيحٍ، فإنَّ هذا الـخَبَرَ لا مـخبرَ لهُ إلّا مـجرَّدُ تعلّق افعل أو لا تَفعل بهِ، وهذا التَّعليقُ عندكُم جائزٌ أن يكونَ بـخلافِ ما هو بهِ، وأن يتعلّقَ الطَلَبُ بالمَنـهيِّ عنهُ والنَّهـيُ بالمأمورِ بهِ، والتَّعلُّقُ لم يَـجعلهُ حسناً ولا قبيحاً، بل غايتهُ أن جعَلَ الفعلَ مأموراً منهيَّاً؛ فعادَ الـحسنُ والقبحُ إلى مـجرَّدِ كونهِ مأموراً منهيَّاً؛ ولا فرقَ عندكُم بالنَّظرِ إلى ذاتِ الفعلِ بينَ النَّوعينِ بل ما كانَ مأموراً يـجوزُ أن يقعَ منهيَّاً وبالعَكسِ، فلم يكشفِ الأمرُ والنَّهـيُ صفَةَ حُسنٍ ولا قُبحٍ أصلاً، فلا حسن ولا قُبح إذا عَقلاً ولا شرعاً، وإنَّـما هو تعلُّقُ الطَّلبِ بالفعلِ والتَّركِ، وهذا مـمَّـا لا خلاصَ منهُ بالقَولِ بأنَّ للأفعالِ خواصَّ وصفاتٍ عليها في أنفسها اقتَضَت أن يُؤمرَ بـحُسنها، ويُنهى عن سيِّئها، ويُـخبرَ عن حُسنها بما هو عليهِ، ويُـخبرَ غيرهُ بقُبحها مـمَّـا نكونُ عليهِ، فيكونُ للـخبرِ مُـخبرٌ ثابتٌ في نَفسهِ، والأمرُ والنَّهـيُ متعلّقٌ ثابتٌ في نَفسهِ .

فعلمُهُ منَ الفعلِ بحُسنِ الحسنِ وقُبحِ القَبيحِ، ثمَّ علمُهُ بأنَّ ما أمرَت بهِ الرُّسلُ هو الحَسنُ وما نَهَت عنهُ هوَ القبيحُ طريقٌ إلى تَصديقِ الرُّسلِ وأنَّهُم جاؤوا بالحقِّ من عندِ اللَّهِ؛ ولهذا قال بَعضُ الأعرابِ - وَقَد سُئِلَ بماذا عَرَفتَ أنَّ محمَّداً رسولُ اللَّهِ ؟ فقال : ما أمَرَ بشيءٍ فقالَ العَقلُ ليتهُ نهى عنهُ ولا نَهى عن شيءٍ فقال العَقلُ ليتهُ أمَرَ بهِ .

أفلا تَرى هذا الأعرابيَّ كيفَ جعلَ مُطابَقَةَ الحُسنِ والقُبحِ الذي ركَّبَ اللَّهُ في العَقلِ إدراكَهُ لما جاءَ بهِ الرَّسول شاهداً على صحَّةِ رسالتهِ، وعَلَماً عليها ولم يقُل أنَّ ذلكَ يقبحُ طريقَ الاستغناءِ عن النبوَّةِ بحاكمِ العَقلِ .

أيضاً : فهذا إنَّما يلزمُ أن لو قيلَ بأنَّ ما جاءَت بهِ الرُّسلُ ثابتٌ في العَقلِ إدراكُهُ مُفصَّلاً قبلَ البعثَةِ، فحينئذٍ يقالُ : هذا يفتحُ بابَ الاستغناءِ عن الرِّسالَةِ ومعلومٌ أنَّ إثباتَ الحُسنِ والقُبحِ العَقليَّينِ لا يستلزمُ هذا ولا يدلُّ عليهِ، بل غايَةُ العَقلِ أن يدركَ بالإجمالِ حُسْنَ ما أتى الشرعُ بتَفضيلهِ أو قبحهِ، فيدركُهُ العَقلُ جملَةً ويأتي الشرعُ بتَفصيلهِ، وهذا كما أنَّ العَقلَ يدركُ حُسْنَ العَدلِ، وأمَّا كونُ هذا الفعلِ المعيَّنِ عَدلاً أو ظلماً؛ فهذا ممَّا يعجزُ العَقلُ عن إدراكهِ في كلِّ فعلٍ وعَقدٍ، وكذلكَ يعجزُ عن إدراكِ حُسْنِ كلِّ فعلٍ وقبحٍ، وأن تأتي الشرائعُ بتَفصيلِ ذلكَ وتبيينهِ، وما أدركهُ العَقلُ الصَّريحُ من ذلكَ أتَت الشرائعُ بتَقريرهِ، وما كانَ حسناً في وقتٍ قبيحاً في وَقتٍ ولم يَهتدِ العَقلُ لوقتِ حسنهِ مِن وَقتِ قبحهِ أتَت الشرائعُ بالأمرِ بهِ في وقتِ حسنهِ وبالنَّهيِ عنهُ في وَقتِ قبحهِ، وكذلكَ الفعلُ يكونُ مُشتملاً على مَصلحَةٍ ومَفسَدَةٍ ولا تُعلمُ العقولُ مَفسدتهُ أرجحُ أم مَصلحتهُ ؟ فيتوقَّفُ العَقلُ في ذلكَ، فتأتي الشرائعُ ببيانِ

ذلكَ، وتأمرُ براجحِ المَصلحَةِ، وتَنهى عن راجحِ المَفسدَةِ، وكذلكَ الفعلُ يكونُ مَصلحَةً لشخصٍ مَفسدَةً لغيرِهِ والعَقلُ لا يدركُ ذلكَ، فتأتي الشرائعُ ببيانِهِ، فتأمرَ بِهِ مَن هو مَصلحةٌ لهُ، وتَنهى عنهُ من حيثُ هو مَفسَدَةٌ في حقِّهِ، وكذلكَ الفعلُ يكونُ مَفسدَةً في الظَّاهرِ وفي ضمنهِ مَصلحَةٌ عَظيمَةٌ لا يَهتدي إليها العقلُ فلا يعلمُ إلّا بالشرعِ كالجهادِ والقَتلِ في اللَّهِ، ويكونُ في الظَّاهرِ مصلحَةٌ وفي ضمنهِ مَفسدَةٌ عَظيمَةٌ لا يَهتَدي إليها العَقلُ فتجيءُ الشرائعُ ببيانِ ما في ضمنهِ منَ المَصلحَةِ والمَفسدَةِ الرَّاجحَةِ، هذا مع أنَّ ما يعجزُ العَقلُ عن إدراكهِ من حسنِ الأفعالِ وقبحِها ليسَ بدونِ ما تدركُهُ من ذلكَ، فالحاجَةُ إلى الرُّسلِ ضروريَّةٌ بل هي فوقَ كلِّ حاجَةٍ، فليسَ العالمُ إلى شيءٍ أحوَجَ منهم إلى المُرسلين صلواتُ اللَّهِ عليهم أجمَعين، ولهذا يذكرُ سبحانهُ عبادهُ نعمهُ عليهم برسولهِ، ويعدُّ ذلكَ عليهم من أعظمِ المنَنِ منهُ لشدَّةِ حاجتهم إليهِ، ولتوقُّفِ مصالحهم الجزئيَّةِ والكليَّةِ عليهِ، وأنَّهُ لا سعادَةَ لهم ولا فلاحَ ولا قيامَ إلّا بالرُّسلِ، فإذا كانَ العَقلُ قَد أدركَ حُسنَ بَعضِ الأفعالِ وقبحَها؛ فمِن أينَ لهُ معرفَةُ اللَّهِ تعالى بأسمائهِ وصفاتهِ، والآيَة التي تعرَّفَ بها اللَّهُ إلى عبادهِ على ألسنَةِ رسلهِ ؟ ومِن أينَ لهُ معرفَةُ تفاصيلِ شرعهِ ودينهِ الذي شرعَهُ لعبادهِ ؟ ومِن أينَ لهُ تفاصيلُ مواقعِ محبَّتهِ ورضاه وسخطهِ وكراهتهِ ؟ ومِن أينَ لهُ معرفَةُ تفاصيل ثوابهِ وعقابهِ وما أعدَّ لأوليائهِ وما أعدَّ لأعدائهِ ومقاديرِ الثَّوابِ والعقابِ وكيفيَّتهما ودرجاتهما ؟ ومِن أينَ لهُ معرفَةُ الغيبِ الذي لم يظهر اللَّهُ عليهِ أحداً من خَلقهِ إلّا مَن ارتَضاهُ من رُسلهِ إلى غيرِ ذلكَ ممَّا جاءَت بِهِ الرُّسل وبلَّغتهُ عن اللَّهِ وليسَ في العَقلِ طريقٌ إلى مَعرفَتهِ ؟ فكيفَ يكونُ مَعرفَةُ

حُسنِ بَعضِ الأفعالِ وقُبحها بالعَقلِ مُغنياً عـمَّا جاءَت بهِ الرُّسل ؟ فظهَرَ أنَّ ما ذكرتموهُ مـجرَّدَ تَهويلٍ مَشحونٍ بالأباطيلِ، والـحمدُ للَّهِ .

وقَد ظهَرَ بهذا قصورُ الفلاسفَةِ في مَعرفَةِ النبوَّاتِ، وأنَّـهم لا علمَ عندهم بها إلّا كعلمِ عوامِّ النَّاسِ بما عندهم منَ العقليّاتِ بل علمُهم بالنُّبوَّاتِ وحقيقتِها وعظمِ قدرها، وما جاءَت بهِ أقلُّ بكثيرٍ من علمِ العامَّةِ بعقليَّاتهم، فهم عوامٌّ بالنِّسبَةِ إليها كما أنَّ مَن لم يَعرف علومَهم عوامٌّ بالنِّسبَةِ إليهم .

فلولا النُّبوَّاتُ لم يكُن في العالمِ علمٌ نافعٌ ألبتَّة ولا عملٌ صالحٌ، ولا صلاحٌ في معيشتهِ، ولا قوامٌ لـمملكةٍ ولكانَ النَّاسُ بمنزلَةِ البهائمِ والسِّباعِ العاديَةِ والكلابِ الضَّاريَةِ التي يَعدو بَعضُها على بَعضٍ .

وكلُّ دينٍ في العالم فمن آثارِ النُّبوَّةِ، وكلُّ شيءٍ وقعَ في العالمِ أو سيقعُ فبسبَبِ خفاءِ آثارِ النُّبوَّةِ ودروسها، فالعالمُ حينئذٍ روحهُ النُّبوَّةُ، ولا قيامَ للـجَسَدِ بدونِ روحهِ .

ولهذا إذا تمَّ انكسافُ شمسِ النُّبوَّةِ منَ العالمِ ،ولَـم يبقَ في الأرضِ شيءٌ من آثارها ألبتَّة انشقَّت سماؤهُ، وانتَثَرَت كواكبُهُ وكورَت شمسَهُ وخُسِفَ قمرهُ، ونسفَت جبالُهُ، وزُلزلت أرضُهُ، وأهلكَ مَن عليها فلا قيامَ للعالمِ إلّا بآثارِ النُّبوَّةِ .

ولهذا كانَ كلُّ موضعٍ ظهَرَت فيهِ آثارُ النُّبوَّةِ فأهلهُ أحسنُ حالاً وأصلحُ بالاً منَ الـمَوضعِ الذي يَـخفى فيهِ آثارُها .

وبالـجُملَةِ فـحاجَةُ العالمِ إلى النُّبوَّةِ أعظمُ من حاجتهم إلى نورِ الشمسِ، وأعظمُ من حاجتهم إلى الماءِ والـهواءِ الذي لا حياةَ لهم بدونهِ .

طرق النَّاس في مقاصد العبادات

وأمَّا ما قَصَدَهُ الفلاسفةُ من مَقصودِ الشرائعِ وأنَّ ذلكَ لاستكمالِ النَّفسِ قُوى العلمِ والعملِ، والشرائعُ تردُ بتَمهيدِ ما تَقرَّرَ في العقلِ بتَعبيرِهِ إلى آخرِهِ .

فهذا مقامٌ يجبُ الاعتناءُ بشأنِهِ وأن لا نَضربَ عنهُ صَفحاً، فنقولُ : للنَّاسِ في المَقصودِ بالشرائعِ والأوامرِ والنَّواهي أربعَةُ طرقٍ :

○ **أحدها** : طريقُ مَن يقولُ منَ الفلاسفَةِ وأتباعِهم منَ المُنتَسبينَ إلى المللِ : أنَّ المَقصودَ بها تَهذيبُ أخلاقِ النُّفوسِ وتَعديلُها، لتَستعدَّ بذلكَ لقبولِ الحكمَةِ العِلْمِيَّة والعَمَلِيَّة .

ومنهم من يقولُ : لتَستعدَّ بذلكَ لأن تكونَ محلاً لانتقاشِ صورِ المَعقولاتِ فيها، ففائدَةُ ذلكَ عندهم كالفائدَةِ الحاصلَةِ من صَقلِ المرآةِ لتَستعدَّ لظهورِ الصُّوَرِ فيها، وهؤلاءِ يجعلونَ الشرائعَ من جنسِ الأخلاقِ الفاضلَةِ والسِّياساتِ العادلَةِ، ولهذا رامَ فلاسفَةُ الإسلامِ الجَمعَ بينَ الشريعَةِ والفلسفَةِ كما فعلَ ابنُ سينا والفارابي وأضرابُهما، وآلَ بهم إلى أن تكلَّموا في خوارقِ العاداتِ والمُعجزاتِ على طريقِ الفلاسفَةِ المشائينَ، وجعَلوا لها أسباباً ثلاثةً :

- أحدها : القُوى الفلكيَّةُ .
- الثَّاني : القُوى النَّفسِيَّةُ .
- الثَّالث : القُوى الطَّبيعيَّةُ .

وجعلوا جنسَ الخوارقِ جنساً واحداً، وأدخلوا ما للسَّحَرَةِ وأربابِ الرِّياضَةِ والكهَنَةِ وغيرهم مع ما للأنبياءِ والرُّسلِ في ذلكَ، وجعَلوا سببَ ذلكَ كلِّهِ واحداً وإن اختلَفَت بالغايات، والنَّبيُّ قَصدُهُ الخَير والسَّاحرُ قَصدهُ الشرّ .

وهذا المَذهبُ مِن أفسَدِ مذاهبِ العالمِ وأخبَثِها، وهو مَبنيٌّ على إنكارِ الفاعلِ المُختارِ، وأنَّهُ تعالى لا يعلمُ الجزئيَّاتِ، ولا يقدرُ على تَغييرِ العالمِ، ولا يخلقُ شيئاً بمشيئتهِ وقدرتهِ، وعلى إنكارِ الجنِّ والملائكَةِ ومعادِ الأجسامِ .

وبالجُملَةِ فهو مبنيٌّ على الكُفرِ باللَّهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، وليسَ هذا موضعَ الرَّدِّ على هؤلاءِ وكشفَ باطلهم وفضائحهم، إذ المَقصودُ ذكرُ طرقِ النَّاسِ في المَقصودِ بالشرائع والعباداتِ .

وهذه الفِرقَةُ غايَةُ ما عندها في العباداتِ والأخلاقِ والحكمَةِ العلميَّةِ أنَّهم رأوا النَّفسَ لها شهوَةٌ وغضبٌ بقوَّتها العمليَّةِ، ولها تصوُّرٌ وعلمٌ بقوَّتها العلميَّةِ، فقالوا : كمالُ الشهوَةِ في العفَّةِ وكمالُ الغضبِ في الحكم والشجاعَةُ، وكمالُ القوَّة النَّظريَّةِ بالعلمِ، والتَّوسطُ في جميعِ ذلكَ بينَ طَرَفي الإفراطِ والتَّفريطِ هو العَدلُ .

هذا غايَةُ ما عندَ القومِ منَ المَقصودِ بالعباداتِ والشرائعِ، وهو عندهم

غايَةُ كمالِ النَّفسِ، وهو استكمالُ قوَّتِها العلميَّةِ والعمليَّة، فاستكمالُ قوَّتِها العلميَّة عندهم بانطباعِ صورِ المَعلوماتِ في النَّفسِ،واستكمالِ قوَّتها العلميَّةِ بالعَدلِ، وهذا مع أنَّهُ غايَةَ ما عندهم مِنَ العلمِ والعملِ وليسَ فيهِ بيانُ خاصيَّةِ النَّفسِ التي لا كمالَ لها بدونِهِ ألبتَّة، وهو الذي خُلقَت لهُ، وأريدَ منها بل ما عرفهُ القومُ، لأنَّهُ لم يكُن عندهم من مَعرفَةٍ متعلِّقَةٍ إلّا نزرٌ يسيرٌ غيرُ مجدٍ ولا محصِّلٍ للمَقصودِ، وذلكَ معرفَةُ اللَّهِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ومعرفَةُ ما يَنبغي لجلالِهِ وما يتعالى ويتقدَّسُ عنهُ، ومعرفَةُ أمرِهِ ودينِهِ، والتَّمييزُ بينَ مواقعِ رضاه وسخطِهِ، واستفراغُ الوسعِ في التَّقريبِ إليهِ، وامتلاءُ القلبِ بمحبَّتِهِ بحيثُ يكونُ سلطانُ حبِّهِ قاهراً لكلِّ محبَّةٍ، ولا سعادَةَ للعَبدِ في دُنياه ولا في أُخراه إلّا بذلكَ ولا كمالَ للرُّوحِ بدونِ ذلكَ ألبتَّةَ، وهذا هو الذي خُلِقَ لهُ وأُريدَ منهُ بل ولأجلِهِ خُلقَت السَّماواتُ والأرضُ واتّخِذَت الجنَّةُ والنَّار .

ومعلومٌ أنَّهُ ليسَ عندَ القومِ من هذا خبرٌ بل هم في وادٍ وأهلُ الشأنِ في وادٍ، وهذا هو الدِّينُ الذي أجمعَت عليهِ الأنبياء من أوَّلهم إلى خاتمتهم، كلُّهم جاءَ بهِ وأخبَرَ عن اللَّهِ أنَّهُ دينهُ الذي رضيهُ لعبادِهِ، وشرعهَ لهم وأمرهم به، كما قالَ تعالى : ﴿ وَلَقَد بَعَثنا في كلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أن اعبُدوا اللَّهَ واجتَنِبوا الطَّاغوت ﴾ [النحل : ٣٦]، وقال تعالى : ﴿ وَما أرسَلنا قَبلَكَ مِن رَسولٍ إلّا نوحي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلّا أنا فاعبُدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وقال تعالى : ﴿ شرعَ لكُم منَ الدِّينِ ما وَصَّى بهِ نوحاً والذي أوحينا إليكَ وما وَصَّينا بهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقوا فيهِ كَبُرَ على المُشركينَ ﴾ [الشورى : ١٣]، وقال تعالى : ﴿ وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ

إلّا ليَعبُدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فالغايَةُ الحميدَةُ التي يحصلُ بها كمالُ بني آدمَ وسعادتُهم ونجاتُهم هي مَعرفَةُ اللَّهِ ومحبَّتُه وعبادتُه وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وهي حقيقَةُ قولِ العَبدِ : لا إلهَ إلّا اللَّهُ، وبها بُعثَ الرّسلُ، ونَزلَت جميعُ الكتبِ، ولا تَصلحُ النَّفسُ ولا تَزكو ولا تكملُ إلّا بذلكَ، قال تعالى : ﴿ وَوَيلٌ للمُشركينَ * الَّذينَ لا يُؤتونَ الزَّكاةَ ﴾ [فصلت : ٦ - ٧]، أي لا يؤتونَ ما تزكّى بهِ أنفُسهم منَ التَّوحيدِ والإيمانِ، ولهذا فسَّرَها غيرُ واحدٍ منَ السَّلفِ بأن قالوا : لا يؤتونَ الزَّكاةَ لا يقولونَ لا إلهَ إلّا اللَّه وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأن يكونَ اللَّهُ أحبَّ إلى العَبدِ من كلِّ ما سواهُ هو أعظمُ وصيَّةٍ جاءَت بها الرّسلُ، ودعوا إليها الأُمَمَ لأنَّ النَّفسَ ليسَ لها نجاةٌ ولا سعادَةٌ ولا كمالٌ إلّا بأن يكونَ اللَّهُ وحدَهُ محبوبَها ومَعبودَها لا أحبَّ إليها منهُ ولا آثرَ عندها من مرضاتهِ والتقرّبِ إليهِ، وأنَّ النَّفسَ محتاجةٌ بل مضطرَّةٌ إليهِ حيث هو مَعبودُها ومَحبوبُها وغايَةُ مُرادِها أعظمُ من اضطرارها إليهِ من حيثُ هو ربُّها وخالقُها وفاطرُها، ولهذا كانَ مَن آمَنَ باللَّهِ خالقهِ ورازقهِ وربِّهِ ومليكهِ ولم يؤمن بأنَّهُ لا إلهَ يُعبَدُ ويحبُّ ويُخشى ويخافُ غيرهُ بل أشركَ معهُ في عبادتهِ غَيرهُ فهو كافرٌ بهِ مشركٌ شركاً لا يغفرهُ اللَّهُ كما قال تعالى : ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُغفَرُ أن يُشركَ بهِ ﴾ [النساء : ١١٦]، وقال تعالى : ﴿ ومِن النَّاسِ مَن يتَّخذَ من دونِ اللَّهِ أنداداً يُحبّونهم كحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فأخبَرَ أنَّ مَن أحبَّ شيئاً سوى اللَّهِ مثلَ ما يحبُّ اللَّهَ فقَد اتَّخَذَ مِن دونِ اللَّهِ أنداداً .

ولهذا يقولُ أهلُ النَّارِ لمعبوداتهم وهم معهم فيها : ﴿ تاللَّهِ إن كُنَّا لَفي ضلالٍ مُبينٍ إذْ نُسوِّيكُم بِرَبِّ العالمينَ ﴾ [النساء : ٩٨] .

وهذه التَّسويَةُ إنَّما كانَت في الحبِّ والتَّألُّهِ لا في الخَلقِ والقدرَةِ والرُّبوبيَّةِ، وهي العَدلُ الذي أخبَرَ به عن الكفَّارِ بقوله : ﴿ الحَمدُ للَّهِ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضِ وجعَلَ الظُّلماتِ والنُّور ثمَّ الَّذينَ كَفَروا بِربِّهِم يَعدلون ﴾ أصحُّ القولين أنَّ المَعنى ثمَّ الذينَ كفَروا بربِّهِم يَعدلون، فيجعلونَ لهُ عِدلاً يحبُّونهُ ويعبدونهُ كما يحبُّونَ اللَّهَ ويَعبدونهُ .

فما ذكرَ الفلاسفَةُ منَ الحكمَةِ العمليَّةِ والعلميَّةِ ليسَ فيها منَ العلومِ والأعمالِ ما تَستعدُّ بهِ النُّفوسُ وتَنجو به من العذابِ، فليسَ في حكمتهم العلميَّةِ إيمانٌ باللَّهِ ولا ملائكتهِ ولا كتبهِ ولا رُسلهِ ولا لقائهِ، وليسَ في حكمتهم العمليَّةِ عبادتُهُ وحدَهُ ولا شريكَ لهُ واتِّباعُ مَرضاتهِ واجتنابِ مَساخطهِ، ومعلومٌ أنَّ النَّفسَ لا سعادَةَ لها ولا فلاحَ إلّا بذلكَ، فليسَ من حكمتِهم العمليَّةِ والعلميَّةِ ما تَسعدُ بهِ النُّفوسُ وتَفوزُ، ولهذا لم يكونوا داخلينَ في الأُمَمِ السُّعداء في الآخرَةِ وهم الأُمَمُ الأربعَةُ المَذكورونَ في قولهِ تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ هادوا والنَّصارى والصَّابئِينَ مَن آمَنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلهم أجرهُم عندَ ربِّهِم ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون ﴾ [البقرة : ٦٢] .

وهذه الكمالاتُ الأربعَةُ التي ذكرها الفلاسفَةُ للنَّفسِ لابدَّ منها في كمالها وصلاحها، ولكن قَصَّروا غايَةَ التَّقصيرِ في أنَّهم لم يبيِّنوا متعلَّقَها، ولم يحدُّوا لها حدّاً فاصلاً بينَ ما تحصُل بهِ السَّعادَة ومالا تَحصُل بهِ، فإنَّهم لم

يَذكروا متعلَّقَ العفَّةِ ولا عمَّاذا تكونُ، ولا مقدارُها الذي إذا تجاوَزَهُ العَبدُ وقعَ في الفجور، وكذلكَ الحلمُ لم يَذكروا مواقعهُ ومقدارهُ، وأينَ يحسُنُ وأينَ يَقبُحُ، وكذلكَ الشجاعَةُ، وكذلكَ العلمُ لم يميِّزوا العلمَ الذي تَزكو بهِ النُّفوسُ وتَسعَدُ من غيرهِ بل لم يَعرفوه أصلاً .

وأمَّا الرُّسلُ صلاةُ اللَّهِ عليهم وسلامهُ فبيَّنوا ذلكَ غايَةَ البيان وفصَّلوهُ أحسنَ تَفصيلٍ، وقَد جمعَ اللَّهُ ذلكَ في كتابهِ في آيَةٍ واحدَةٍ فقال : ﴿ قُل إنَّما حرَّمَ رَبِّي الفَواحشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ والإثمَ والبَغيَ بغَيرِ الحقِّ وأن تُشركوا باللَّهِ ما لَم يُنزِّل بهِ سُلطاناً وأن تقولوا على اللَّهِ ما لا تَعلمون ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

فهذه الأنواعُ الأربعةُ التي حرَّمها تَحريماً مُطلقاً لم يبح منها شيئاً لأحدٍ منَ الخَلقِ ولا في حالٍ منَ الأحوالِ، بخلافِ الميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ فإنَّها تحرمُ في حالٍ وتُباحُ في حالٍ، وأمَّا هذه الأربعَةُ فهي محرَّمَةٌ فالفواحش متعلِّقَةٌ بالشهوَةِ وتَعديلُ قوَّةِ الشهوَةِ باجتنابها، والبَغيُ بغيرِ الحقِّ متعلِّقٌ بالغَضَبِ وتَعديل القوَّةِ الغضبيَّةِ باجتنابهِ، والشركُ باللَّهِ ظلمٌ عَظيمٌ بل هو الظُّلمُ على الإطلاقِ وهو منافٍ للعَدلِ وقوله : ﴿ وأن تُشركوا باللَّهِ ما لَم يُنزِّل بهِ سُلطاناً ﴾ [الأعراف : ٣٣]، متضمِّنٌ تَحريمَ أصلِ الظُّلمِ في حقِّ اللَّهِ وذلكَ يستلزمُ إيجابَ العَدلِ في حقِّهِ وهو عبادتُهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، فإنَّ النَّفسَ لها القوَّتانِ العلميَّةُ والعمليَّةُ وعملُ الإنسانِ عملٌ اختياريٌّ تابعٌ لإرادَةِ العَبدِ، وكلُّ إرادَةٍ فلها مرادٌ وكمالٌ، وهو إمَّا مرادٌ لنَفسهِ وإمَّا مرادٌ لغيرهِ ينتهي إلى المُراد لنفسهِ ولابدَّ، فالقوَّةُ العمليَّةُ تَستلزمُ أن يكونَ للنَّفسِ مرادٌ تَستكملُ

بإرادتهِ، فإن كانَ ذلكَ المُرادُ مُضمحلاً فانياً زالت الإرادَةُ بزوالهِ ولم يكُن للنَّفس مرادٌ غيرهُ ففاتها أعظمُ سعادتها وفلاحها، فيجبُ إذاً أن يكونَ مُرادُها الذي تَستكملُ بإرادتهِ وحبِّهِ وإيثارهِ باقياً لا يَفنى ولا يزولُ وليسَ ذلكَ إلّا اللَّهَ وحدَهُ .

والمَقصودُ : أنَّ هؤلاءِ الفلاسفَةِ لم يَذكروا هذا في كمالِ النَّفسِ، وإنَّما جعلوا كمالَها في تَعديلِ الشهوَةِ والغضبِ، والشهوَة هي جلبُ ما ينفعُ البَدنَ ويُبقي النَّوعَ، والغضبُ دفعُ ما يضرُّ البَدن، وما تَعرَّضوا لمرادِ الرُّوحِ المَحبوبِ لذاتهِ، وجعَلوا كمالَها العلميَّ في مجرَّدِ العلمِ، وغلطوا في ذلكَ من وجوهٍ كثيرَةٍ :

● منها : أنَّ ما ذكروهُ لا يُعطِّي كمالَ النَّفسِ الذي خُلقَت لهُ كما بيَّناهُ .

● ومنها : أنَّ ما ذكروهُ في كمالِ القوَّةِ العمليَّةِ إنَّما غايتُهُ إصلاحُ البَدنِ الذي هو آلَةُ النَّفسِ، ولم يذكروا كمالَ النَّفسِ الإراديَّ والعمل بالمحبَّةِ والخوفِ والرَّجاءِ .

● ومنها : أنَّ كمالَ النَّفسِ في العلمِ والإرادَةِ لا في مجرَّدِ العلمِ، فإنَّ مجرَّدَ العلم ليسَ بكمالٍ للنَّفسِ ما لَم تكُن مريدَةً محبَّةً لمَن لا سعادَةَ لها إلّا بإرادتهِ ومحبَّتهِ، فالعلمُ المجرَّدُ لا يُعطي النَّفسَ كمالاً ما لَم تَقترن به الإرادَةُ والمحبَّةُ .

● ومنها : أنَّ العلمَ لو كانَ كمالاً بمُجرَّدهِ لَم يكُن عندهم منَ العلمِ

كمالاً للنَّفسِ، فإنَّ غايَةَ ما عندهم علومٌ رياضيَّةٌ صحيحةٌ مصلحتُها من جنسِ مصالحِ الصِّناعاتِ، وربَّما كانَت الصِّناعاتُ أصلحُ وأنفعُ من كثيرٍ منها، وإمَّا علمٌ طبيعيٌّ صحيحٌ غايتهُ مَعرفةُ العناصرِ وبَعضِ خواصِّها وطبائعها، ومعرفَةُ بَعضِ ما يتركَّبُ منها وما يستحيلُ منَ الموجباتِ إليها، وبعضُ ما يقعُ في العالمِ منَ الآثارِ بامتزاجها واختلاطها، وأيُّ كمالٍ للنَّفسِ في هذا ؟ وأيُّ سعادَةٍ لها ؟ وأمَّا علمٌ إلهيٌّ كلُّهُ باطلٌ لم يوَفَّقوا في إصابَةِ الحقِّ في مسألةٍ واحدَةٍ .

● ومنها : أنَّ كمالَ النَّفسِ وسعادتَها المُستفادُ عن الرُّسلِ صلواتُ اللَّهِ عليهم ليسَ عندهم اليومَ منهُ حسٌّ ولا خبرٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ، فهم أبعدُ النَّاسِ من كمالاتِ النُّفوسِ وسعاداتها، وإذا عُرفَ ذلكَ وأنَّهُ لابدَّ للنَّفسِ من مرادٍ محبوبٍ لذاتهِ لا يصلحُ إلّا بهِ، ولا يكمُلُ إلّا بحبِّهِ وإيثارهِ وقطعِ العلائقِ عن غيرهِ وأنَّ ذلكَ هو النِّهايَةُ، وغايَةُ مَطلوبِها ومُرادِها الذي إليهِ يَنتهي الطَّلبُ، فليسَ ذلكَ إلّا اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو، قالَ تعالى : ﴿ أم اتَّخذوا آلهَةً منَ الأرضِ هُم يُنشرون ولو كانَ فيهما آلهَة إلّا اللَّهُ لَفَسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢١ - ٢٢] .

وليسَ صلاحُ الإنسانِ وحدهُ وسعادتَهُ إلّا بذلكَ، بل وكذلكَ الملائكَةُ، والجنُّ، وكلُّ حيٍّ شاعرٌ لا صلاحَ لهُ إلّا بأن يكونَ اللَّهُ وَحدَهُ إلههُ، ومَعبودَهُ وغايَةَ مرادهِ .

فلنرجع إلى ما كنَّا فيهِ من بيانِ طرقِ النَّاسِ في مقاصدِ العباداتِ .

○ **الطَّريقُ الثَّاني** : طريقُ مَن يقولُ منَ الـمُعتزلَةِ ومَن تابعهم : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ عرضهم بها للثَّوابِ، واستأجرهم بتلكَ الأعمالِ للخيرِ، فعاوَضهم عليها مُعاوَضَةً .

قالوا : والإنعامُ منهُ في الآخرَةِ غيرُ حسنٍ لما فيهِ من تكريرِ منَّةِ العطاءِ ابتداءً، ولما فيهِ منَ الإخلالِ بالـمَدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ الذي لا يستحقُّ إلّا بالتَّكليفِ .

ومنهم مَن يقولُ : إنَّ الواجباتِ الشرعيَّةِ لطفٌ في الواجباتِ العقليَّةِ .

ومنهم مَن يقولُ : إنَّ الغايَةَ المَقصودَةَ التي يحصُلُ بها الثَّوابُ هي العملُ، والعلمُ وسيلةٌ إليهِ حتّى ربَّما قالوا ذلكَ في مَعرفَةِ اللَّهِ تعالى، وأنَّها إنَّما وجبَت لأنَّها لطفٌ في أداءِ الواجباتِ العمليَّةِ .

وهذه الأقوالُ تصوُّرُ العاقلِ اللبيبِ لها حقَّ التَّصوُّر كافٍ في جزمهِ ببُطلانها، رافعٌ عنهُ مؤنَةَ الرَّدِّ عليها، والوجوهُ الدَّالَّةُ على بطلانها أكثرُ من أن تذكرَ ههُنا .

○ **الطَّريقُ الثَّالث** : طريقُ الجبريَّةِ ومَن وافقهم أنَّ اللَّهَ تعالى سبحانهُ امتحَنَ عبادَهُ وكلَّفهم لا لحكمَةٍ ولا لغايَةٍ مَطلوبَةٍ لهُ ولا بسَببٍ منَ الأسبابِ، فلا لامَ تَعليلٍ ولا باءَ سببٍ إن هو إلّا مَحضُ المَشيئةِ وصَرفُ الإرادَةِ كما قالوا في الخَلقِ سواءً، وهؤلاءِ قابلوا مَن قبلهم منَ القدريَّةِ والمُعتزلَةِ أعظمَ مقابلَةٍ؛ فهما طرفا نَقيضٍ لا يلتقيان .

○ **الطَّريقُ الرَّابع** : طريقُ أهلِ العلمِ والإيمانِ الذينَ عَقلوا عن اللَّهِ أمرَهُ

ودينَهُ، وعَرفوا مرادَهُ بما أمرهم ونهاهم عنهُ، وهي أنَّ نَفسَ معرفَةِ اللَّهِ ومحبَّتهِ وطاعتهِ والتقرُّبِ إليهِ وابتغاءِ الوَسيلةِ إليهِ أمرٌ مَقصودٌ لذاتهِ، وأنَّ اللَّهَ سبحانهُ يستحقُّهُ لذاتهِ، وهو سبحانهُ المَحبوبُ لذاتهِ الذي لا تصلحُ العبادةُ والمحبَّةُ والذلُّ والخضوعُ والتَّألُّه إلّا لهُ، فهو يستحقُّ ذلكَ، لأنَّهُ أهلٌ أن يعبَدَ ولو لم يخلق جنَّةً ولا ناراً، ولو لم يَضَع ثواباً ولا عقاباً، فهو سبحانهُ يستحقُّ غايَةَ الحُبِّ والطَّاعَةِ والثَّناءِ والمَجدِ والتَّعظيمِ لذاتهِ ولما لهُ من أوصافِ الكمالِ ونعوتِ الجلالِ، وحبُّهُ والرِّضى به وعنهُ والذلُّ لهُ والخضوعُ والتَّعبُّد هو غايَةُ سعادَةِ النَّفسِ وكمالِها، والنَّفسُ إذا فَقَدَت ذلكَ كانَت بمنزلَةِ الجسدِ الذي فَقَدَ روحَهُ وحياتَهُ، والعينِ التي فَقَدَت ضوءَها ونورَها بل أسوأُ حالاً من ذلكَ من وجهين :

* **أحدهما** : أنَّ غايَةَ الجسدِ إذا فَقَدَ روحَهُ أن يَصيرَ معطَّلاً ميِّتاً، وكذلكَ العينُ تَصيرُ معطَّلَةً، وأمَّا النَّفسُ إذا فَقَدَت كمالَها المَذكورَ فإنَّها تَبقى معذَّبةً متألِّمَةً، وكلَّما اشتدَّ حجابُها اشتدَّ عذابُها ولا سيَّما إذا يئسَ من قربهِ وحظيَ غيرهُ بحبِّهِ وَوصلهِ هذا مع إمكانِ التَّعوُّضِ عنهُ بمَحبوبٍ أخرِ نظيرهُ أو خيرٍ منهُ، فكيفَ بروحٍ فَقَدَت محبوبها الحقَّ الذي لم تُخلَق إلّا لمحبَّتهِ ولا كمالَ لها ولا صلاحَ أصلاً إلّا بأن يكونَ أحبَّ إليها من كلِّ ما سواهُ وهو مَحبوبها الذي لا تعوَّضُ منهُ سواهُ بوجهٍ ما كما قال القائل :

مِن كلِّ شيءٍ إذا ضيَّعتهُ عِوَضٌ
وما مِنَ اللَّهِ إن ضيَّعتهُ عِوَضُ

ولو لم يكُن احتجابُهُ سبحانهُ عن عبدهِ أشدَّ أنواعِ العذابِ عليهِ لم يتوعَّد بهِ أعداءَهُ كما قالَ تعالى : ﴿ كلّا إنَّهم عَن ربِّهِم يَومئذٍ لَمَحجوبونَ ثمَّ إنَّهُم لَصالوا الجَحيم ﴾ [المطففون : ١٥ - ١٦] .

فأخبرَ أنَّ لهم عذابين :

▫ أحدهما : عذابُ الحجابِ عنهُ .

▫ الثَّاني : صَليُ الجحيم .

وأحدُ العذابينِ أشدُّ منَ الآخَرِ، وهذا كما أنَّهُ سبحانهُ يُنعمُ على أوليائهِ بنَعيمينِ :

▫ أحدهما : نَعيم كَشفِ الحجاب، فيَنظرونَ إليهِ .

▫ الثَّاني : ونعيم الجنَّةِ وما فيها .

وأحدُ النَّعيمينِ أحبُّ إليهم منَ الآخَرِ وآثَرُ عندهم وأقرُّ لعيونهم، كما في الصَّحيحِ عنهُ ﷺ أنَّهُ قال : « إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ نادى مُنادٍ يا أهلَ الجنَّةِ إنَّ لكُم عندَ اللَّهِ مَوعداً يريدُ أن يُنجزكموهُ فيقولونَ : ما هوَ ألَم يُبيِّض وجوهَنا ويثقِّل موازينَنا ويُدخلنا الجنَّةَ ويجرنا من النَّار ؟ قال فيكشفُ الحجابُ فيَنظرونَ إليهِ فما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم منَ النَّظرِ إليهِ » .[1]

* **الوَجهُ الثَّاني** : أنَّ البَدَنَ والأعضاءَ آلاتٌ للنَّفسِ ورعيَّةٌ للقلبِ وخَدَمٌ لهُ، فإذا فَقَدَ بعضَهم كمالَهُ الذي خُلقَ لهُ كانَ بمنزلَةِ هلاكِ بَعضِ جندِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صهيب - رضي اللّٰه عنه .

الملكِ ورعيَّتِهِ وتعطَّل بعضِ آلاتِهِ، وَقَد لا يلحقُ الملكُ من ذلكَ ضرَرٌ أصلاً، وأمَّا إذا فَقَد القلبُ كمالَهُ الذي خُلقَ لهُ وحياتهُ ونَعيمهُ كانَ بمنزلَةِ هلاكِ الملكِ وأسْرِهِ وذهابِ مُلكهِ من يديهِ، وصَيرورتهِ أسيراً في أيدي أعاديهِ فهكذا الرُّوحُ إذا عدمَت كمالَها وصلاحَها في مَعرفَةِ فاطرِها وبارئها، وكونه أحبُّ شيءٍ إليها رضاهُ، وابتغاءُ الوَسيلَةِ إليهِ آثَرُ شيءٍ عندها حتى يكونَ اهتمامُها بمحبَّتهِ ومَرضاتهِ اهتمامَ المحبِّ التَّامِّ بمرضاةِ مَحبوبهِ الذي لا يجدُ منهُ عوضاً كانَت بمنزلَةِ الملكِ الذي ذَهَبَ منهُ ملكهُ وأصبحَ أسيراً في أيدي أعاديهِ يسومونهُ سوءَ العذابِ، وهذا الألمُ كامنٌ في النَّفسِ لكن يسترهُ سترُ الشهواتِ ويواريهِ حجابُ الغفلَةِ حتى إذا كُشفَ الغطاءُ وحيلَ بينَ العَبدِ وبينَ ما يشتهي وجدَ حقيقَةَ الألمِ ،وذاقَ طعمهُ، وتجرَّدَ ألمهُ عمَّا يحجبهُ ويواريهِ، وهذا أمرٌ يَدركُ بالعيانِ والتَّجربَةِ في هذه الدَّار تكونُ الأسبابُ المؤلمَةُ للرُّوحِ والبَدنِ موجودَةً مقتضيَةً لآثارها، ولكن يقومُ للقَلبِ من فرحهِ بحظٍّ نالهُ من مالٍ أو جاهٍ أو وصالِ حبيبٍ ما يواري عنهُ شهودَ الألمِ وربَّما لا يشعرُ به أصلاً، فإذا زالَ المُعارضُ ذاقَ طعمَ الألمِ وَوجدَ مسَّه، ومَن اعتبَرَ أحوالَ نَفسهِ وغيرهِ علمَ ذلكَ، فإذا كانَ هذا في هذه الدَّارِ فما الظَّنُّ عندَ المُفارقَةِ والفطامِ عن الدُّنيا والانتقالِ إلى اللَّهِ والمَصيرِ إليهِ .

فليتأمَّل العاقلُ الفطنُ النَّاصحُ لنفسهِ هذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّل، وليشغَل به كلَّ أفكارهِ، فإنَّ فَهمَهُ وعَقِلَهُ واستمرَّ أعراضُهُ .

فما تبلغُ الأعداءُ مِن جاهلٍ
ما يبلغُ الجاهلُ مِن نَفسهِ

وإن لَم يفهمهُ لغلظِ حجابهِ وكثافَةِ طبعهِ فيكفيهِ الإيمانُ بما أعدَّ اللَّهُ تعالى في الجنَّةِ لأَهلهَا من نعيمِ الأكلِ والشربِ والنِّكاحِ والمناظرِ المُبهجَةِ، وما أعدَّ في النَّارِ لأهلها منَ السَّلاسلِ والأغلالِ والحميمِ ومقطَّعاتِ الثِّيابِ منَ النَّارِ ونحو ذلكَ .

والمَقصودُ : بيانُ أنَّ الحاجَةَ إلى الرُّسلِ صلواتُ اللَّهِ عليهم ضروريَّةٌ بل هي في أعلى مراتبِ الضَّرورَةِ، وليسَت نَظراً لحاجتهم إلى الحاجَةِ وأسبابها بل هي أعظمُ من ذلكَ، وأمَّا ما ذكرَ عن الصَّابئةِ منَ الاستغناءِ عن النُّبوَّةِ؛ فهذا ليسَ مَذهباً لجميعهم بل فيهم سعيدٌ وشقيٌّ كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ هادوا والنَّصارى والصَّابئِينَ مَن آمَنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلهم أجرُهُم عندَ ربِّهِم ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون ﴾ [البقرة : ٦٢] .

فأدخَلَ المؤمنينَ منَ الصَّابئِينَ في أهلِ السَّعادَةِ، ولم ينالوا ذلكَ إلّا بالإيمانِ بالرُّسلِ، ولكن منهم مَن أنكرَ النبوَّاتِ وعبدَ الكواكبَ، وهم فرقٌ كثيرَةٌ ليسَ هذا موضعُ ذكرهم .

خاتمة الكتاب

وليكن هذا آخرُ الكتاب، وقَد جلبتُ إليكَ فيهِ نفائسَ في مثلها يتنافس المتنافسون، وجليتُ عليكَ فيه عرائسَ إلى مثلهنَّ بادَرَ الخاطبون .

فإن شئتَ اقتبَستَ منهُ معرفَةَ العلمِ وفضلَهُ، وشدَّةَ الحاجَةِ إليهِ، وشرفه وشرف أهلِهِ، وعظَمَ موقعهِ في الدَّارين .

وإن شئتَ اقتبَستَ منهُ معرفَة إثباتِ الصَّانعِ، بطرقٍ واضحاتٍ جليَّاتٍ تلجُ القلوبَ بغيرِ استئذانٍ، ومعرفَة حكمتهِ في خلقهِ وأمرهِ .

وإن شئتَ اقتبستَ منهُ معرفَةَ قدرِ الشريعَةِ، وشدَّةَ الحاجَةِ إليه، ومعرفَة جلالتها وحكمتها .

وإن شئتَ اقتبَستَ منهُ معرفَةَ النبوَّةَ، وشدَّة الحاجَةِ إليها، بل وضرورَةَ الوجودِ إليها، وإنَّهُ يستحيلُ من أحكمِ الحاكمين أن يخلي العالم عنها .

وإن شئتَ اقتبَستَ منهُ معرفَةَ ما فطرَ اللَّهُ عليهِ العقولَ من تحسينِ الحُسنِ وتقبيحِ القبيح، وأنَّ ذلكَ أمرٌ عقليٌّ فطريٌّ، بالأدلَّةِ والبراهين التي اشتملَ عيها هذا الكتاب، فلا توجدُ في غيرهِ .

وإن شئتَ اقتبَست منهُ معرفَةَ الرَّدِّ على الـمنجِّمين، القائلين بالأحكامِ بأبلغِ طُرقِ الرَّدِّ من نفسِ صناعتهم وعلمهم، وإلزامهم بالإلزامات المفحمة، التي لا جواب لهم عنها، وإبداء تناقضهم في صناعتهم، وفضائحهم، وكذبهم على الـخَلقِ والأمرِ .[1]

وإن شئتَ اقتبستَ منهُ معرفَةَ الطِّيرَةِ، والفألِ، والزَّجرِ، والفرق بينَ صحيحِ ذلكَ وباطلهِ، ومعرفَةَ مراتبِ هذه في الشريعَةِ والقدرِ .[1]

وإن شئتَ اقتبَستَ منهُ أصولاً نافعَةً جامعَةً مما تكملُ بهِ النَّفسُ البشريَّة، وتنالُ بها سعادتها في معاشها ومعادها .

إلى غيرِ ذلكَ منَ الفوائدِ، التي ما كانَ منها صواباً فمنَ اللَّهِ وحدهُ، هو المانُّ به، وما كانَ منها من خطأ فمن مؤلِّفه ومنَ الشيطان، واللَّهُ بريءٌ منهُ ورسولهُ .

واللَّهُ سبحانهُ المسئول، والمرغوب إليهِ، المأمولُ أن يـجعلهُ خالصاً لوجههِ، وأن يعيذنا من شرورِ أنفسنا، ومن سيِّئاتِ أعمالنا، وأن يوفِّقنا لما يـحبُّهُ ويرضاه، إنَّهُ قريبٌ مـجيبٌ، والـحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللَّهِ على سيِّدنا مـحمَّـدٍ وآلهِ وصحبهِ أجمعين وسلَّم تسليماً كثيراً .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) وقد أفردت هذا الفصل في رسالة مفردة لأهميتها في بابها .

الفهارس العلميّة

- فهرس الأحاديث .
- فهرس الآثار .
- فهرس الرواة المترجم لهم .
- فهرس الموضوعات والفوائد .



فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة

* * * * *

فهرس الآثار

* * * * *

فهرس الرواة المترجم لهم

الراوي / الصفحة

الراوي / الصحفة

فهرس الموضوعات والفوائد

* * * * *

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع | الصفحة

* * * * *